Marfat.com

سید قطب

فی ظلال القرآن

Marfat.com

في ظلال القرآن

الجزء الثالث والعشرون

بقلم

سيد قطب

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة يس والصافات وص

سورة يس مكية
وآياتها ٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

« يس ① وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ • إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ • عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ • تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ • لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ • لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ • إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ • وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ • وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ • إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَانَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ • إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ، وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ •

• وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ • إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ، فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ، فَقَالُوا : إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ • قَالُوا : مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ، وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَانُ مِنْ شَيْءٍ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ • قَالُوا : رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ • وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ • قَالُوا : إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ، لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ • قَالُوا : طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ، أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ •

• « وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ، قَالَ : يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ • اتَّبِعُوا

Marfat.com

مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ . وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؟ .
أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَانُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ؟
إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ .

قِيلَ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ . قَالَ : يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ

« وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ * إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ » .

هذه السورة المكية ذات فواصل قصيرة . وإيقاعات سريعة . ومن ثم جاء عدد آياتها ثلاثاً وثمانين ، بينما هى أصغر وأقصر من سابقتها ـ سورة فاطر ـ وعدد آياتها خمس وأربعون .

وقصر الفواصل مع سرعة الإيقاع يطبع السورة بطابع خاص ، فتتلاحق إيقاعاتها ، وتدق على الحس دقات متوالية ، يعمل على مضاعفة أثرها ماتحمله معها من الصور والظلال التى تخلعها المشاهد المتتابعة من بدء السورة إلى نهايتها . وهى متنوعة وموحية وعميقة الآثار .

والموضوعات الرئيسية للسورة هى موضوعات السور المكية . وهدفها الأول هو بناء أسس العقيدة . فهى تتعرض لطبيعة الوحى وصدق الرسالة منذ افتتاحها : « يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . . . » . وتسوق قصة أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحى والرسالة ؛ وتعرض هذه العاقبة فى القصة على طريقة القرآن فى استخدام القصص لتدعيم قضاياه . وقرب نهاية السورة تعود إلى الموضوع ذاته : « وما علمناه الشعر ـ وماينبغى له ـ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين » . .

كذلك تتعرض السورة لقضية الألوهية والوحدانية . فيجىء استنكار الشرك على لسان الرجل المؤمن الذى جاء من أقصى المدينة ليحاج قومه فى شأن المرسلين وهو يقول : « ومالى

Marfat.com

Marfat.com

لأعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ؟ أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لاتغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ؟ إنى إذاً لفى ضلال مبين » . . وقرب ختام السورة يجىء ذكر هذا الموضوع مرة أخرى : « واتخذوا من دونه آلهة لعلهم ينصرون . لايستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون » . .

والقضية التى يشتد عليها التركيز فى السورة هى قضية البعث والنشور ، وهى تتردد فى مواضع كثيرة فى السورة . تجىء فى أولها : « إنا نحيي الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين » . . وتأتى فى قصة أصحاب القرية ، فيما وقع للرجل المؤمن . وقد كان جزاؤها العاجل فى السياق : « قيل : ادخل الجنة . قال : ياليت قومى يعلمون بما غفرلى ربى وجعلنى من المكرمين » . . ثم ترد فى وسط السورة : « ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ ماينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون » . . ثم يستطرد السياق إلى مشهد كامل من مشاهد القيامة . وفى نهاية السورة ترد هذه القضية فى صورة حوار : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه . قال : من يحيي العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » . .

هذه القضايا المتعلقة ببناء العقيدة من أساسها ، تتكرر فى السور المكية . ولكنها تعرض فى كل مرة من زاوية معينة ، تحت ضوء معين ، مصحوبة بمؤثرات تناسب جوها ، وتتناسق مع إيقاعها وصورها وظلالها .

هذه المؤثرات منتزعة فى هذه السورة من مشاهد القيامة ـ بصفة خاصة ـ ومن مشاهد القصة ومواقفها وحوارها . ومن مصارع الغابرين على مدار القرون . ثم من المشاهد الكونية الكثيرة المتنوعة الموحية : مشهد الأرض الميتة تدب فيها الحياة . ومشهد الليل يسلخ منه النهار فإذا هو ظلام . ومشهد الشمس تجرى لمستقر لها . ومشهد القمر يتدرج فى منازله حتى يعود كالعرجون القديم . ومشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين . ومشهد الأنعام مسخرة للآدميين . ومشهد النطفة ثم مشهدها إنساناً وهو خصيم مبين ! ومشهد الشجر الأخضر تكمن فيه النار التى يوقدون !

وإلى جوار هذه المشاهد مؤثرات أخرى تلمس الوجدان الإنسانى وتوقظه : منها صورة المكذبين الذين حقت عليهم كلمة الله بكفرهم فلم تعد تنفعهم الآيات والنذر : « إنا جعلنا

فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون ؛ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لايبصرون » . ومنها صورة نفوسهم فى سرهم وفى علانيتهم مكشوفة لعلم الله لايداريها منه ستار . . ومنها تصوير وسيلة الخلق بكلمة لاتزيد : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن . فيكون » . . وكلها مؤثرات تلمس القلب البشرى وهو يرى مصداقها فى واقع الوجود .

***

ويجرى سياق السورة فى عرض موضوعاتها فى ثلاثة أشواط :

يبدأ الشوط الأول بالقسم بالحرفين : « يا . سين » وبالقرآن الحكيم ، على رسالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنه على صراط مستقيم . يتلو ذلك الكشف عن النهاية البائسة للغافلين الذين يكذبون . وهى حكم الله عليهم بألا يجدوا إلى الهداية سبيلا ، وأن يحال بينهم وبينها أبدا. وبيان أن الإنذار إنما ينفع من اتبع الذكر وخشى الرحمان بالغيب ؛ فاستعد قلبه لاستقبال دلائل الهدى وموحيات الإيمان . . ثم يوجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أن يضرب لهم مثلا أصحاب القرية ، فيقص قصة التكذيب وعاقبة المكذبين . كما يعرض طبيعة الإيمان فى قلب الرجل المؤمن وعاقبة الإيمان والتصديق . .

ومن ثم يبدأ الشوط الثانى بنداء الحسرة على العباد الذين مايفتأون يكذبون كل رسول ويستهزئون به . غير معتبرين بمصارع المكذبين ، ولا متيقظين لآيات الله فى الكون وهى كثير . . وهنا يعرض تلك المشاهد الكونية التى سبقت الإشارة إليها فى تقديم السورة ، كما يعرض مشهداً مطولا من مشاهد القيامة فيه الكثير من التفصيل .

والشوط الثالث يكاد يلخص موضوعات السورة كلها . فينفى فى أوله أن ماجاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ شعر ، وينفى عن الرسول كل علاقة بالشعر أصلا . ثم يعرض بعض المشاهد واللمسات الدالة على الألوهية المتفردة ، وينعى عليهم اتخاذ آلهة من دون الله يبتغون عندهم النصر وهم الذين يقومون بحماية تلك الآلهة المدعاة ! . ويتناول قضية البعث والنشور فيذكرهم بالنشأة الأولى من نطفة ليروا أن إحياء العظام وهى رميم كتلك النشأة ولاغرابة ! ويذكرهم بالشجر الأخضر الذى تكمن فيه النار وهما فى الظاهر بعيد من بعيد ! وبخلق السماوات والأرض وهو شاهد بالقدرة على خلق أمثالهم من البشر فى الأولى والآخرة . . وأخيراً يجىء

Marfat.com

الإيقاع الأخير فى السورة : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن . فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون » .

والآن نأخذ بعد هذا العرض المجمل فى التفصيل . .

***

« يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم. لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لايؤمنون . إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لايبصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون . إنما تنذر من اتبع الذكر ، وخشى الرحمان بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم . إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين » . .

يقسم الله سبحانه بهذين الحرفين : « يا . سين » كما يقسم بالقرآن الحكيم . وهذا الجمع بين الأحرف المقطعة والقرآن يرجح الوجه الذى اخترناه فى تفسير هذه الأحرف فى أوائل السور ؛ والعلاقة بين ذكرها وذكر القرآن . وأن آية كونه من عند الله ، الآية التى لايتدبرونها فيردهم القرآن إليها ، أنه مصوغ من جنس هذه الأحرف الميسرة لهم ؛ ولكن نسقه التفكيرى والتعبيرى فوق ما يملكون صياغته من هذه الحروف .

ويصف القرآن ـ وهو يقسم به ـ بأنه « القرآن الحكيم » . والحكمة صفة العاقل . والتعبير على هذا النحو يخلع على القرآن صفة الحياة والقصد والإرادة . وهى من مقتضيات أن يكون حكيما . ومع أن هذا مجاز إلا أنه يصور حقيقة ويقربها . فإن لهذا القرآن لروحا ! وإن له لصفات الحى الذى يعاطفك وتعاطفه حين تصغى له قلبك وتصغى له روحك ! وإنك لتطلع منه على دخائل وأسرار كلما فتحت له قلبك وخلصت له بروحك ! وإنك لتشتاق منه إلى ملامح وسمات ، كما تشتاق إلى ملامح الصديق وسماته ، حين تصاحبه فترة وتأنس به وتستروح ظلاله ! ولقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحب أن يسمع تلاوة القرآن من غيره ؛ ويقف على الأبواب ينصت إذا سمع من داخلها من يرتل هذا القرآن . كما يقف الحبيب وينصت لسيرة الحبيب !

والقرآن حكيم . يخاطب كل أحد بما يدخل فى طوقه . ويضرب على الوتر الحساس فى قلبه . ويخاطبه بقدر . ويخاطبه بالحكمة التى تصلحه وتوجهه .

Marfat.com

Marfat.com

والقرآن حكيم . يربى بحكمة ، وفق منهج عقلى ونفسى مستقيم . منهج يطلق طاقات البشر كلها مع توجيهها الوجه الصالح القويم . ويقرر للحياة نظاما كذلك يسمح بكل نشاط بشرى فى حدود ذلك المنهج الحكيم .

يقسم الله سبحانه بياء وسين والقرآن الحكيم على حقيقة الوحى والرسالة إلى الرسول الكريم :

« إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم » . .

وما به سبحانه من حاجة إلى القسم . ولكن هذا القسم منه ـ جل جلاله ـ بالقرآن وحروفه ، يخلع على القسم به عظمة وجلالا ، فما يقسم الله سبحانه إلا بأمر عظيم ، يرتفع إلى درجة القسم به واليمين !

« إنك لمن المرسلين » . . والتعبير على هذا النحو يوحى بأن إرسال الرسل أمر مقرر ، له سوابق مقررة . فليس هو الذى يراد إثباته . إنما المراد أن يثبت هو أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هؤلاء المرسلين . ويخاطبه هو بهذا القسم ـ ولا يوجهه إلى المنكرين المكذبين ـ ترفعا بالقسم وبالرسول وبالرسالة عن أن تكون موضع جدل أو مناقشة . إنما هو الإخبار المباشر من الله للرسول .

« إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم » . .

وهذا بيان لطبيعة الرسالة بعد بيان حقيقة الرسول . وطبيعة هذه الرسالة الاستقامة . فهى قائمة كحد السيف لا عوج فيها ولا انحراف ، ولا التواء فيها ولا ميل . الحق فيها واضح لا غموض فيه ولا التباس . ولا يميل مع هوى ولا ينحرف مع مصلحة . يجده من يطلبه فى يسر وفى دقة وفى خلوص .

وهى لاستقامتها ـ بسيطة لا تعقيد فيها ولا لف ولا دوران . لا تعقد الأمور ولا توقع فى إشكالات من القضايا والتصورات والأشكال الجدلية . وإنما تصدع بالحق فى أبسط صورة من صوره ، وأعراها عن الشوائب والأخلاط ؛ وأغناها عن الشرح ، وتفصيص العبارات وتوليد الكلمات ، والدخول بالمعانى فى الدروب والمنحنيات ! يمكن أن يعيش بها ومعها البادى والحاضر ، والأمى والعالم ، وساكن الكوخ وساكن العمارة ؛ ويجد فيها كل حاجته ؛ ويدرك منها ما تستقيم به حياته ونظامه وروابطه فى يسر ولين .

Marfat.com

وهى مستقيمة مع فطرة الكون وناموس الوجود ، وطبيعة الأشياء والأحياء حول الإنسان ، فلا تصدم طبائع الأشياء ، ولا تكلف الإنسان أن يصدمها . إنما هى مستقيمة على نهجها ، متناسقة معها ، متعاونة كذلك ، مع سائر القوانين التى تحكم هذا الوجود وما فيه ومن فيه .

وهى من ثم مستقيمة على الطريق إلى الله ، واصلة إليه موصلة به ، لا يخشى تابعها أن يضل عن خالقه ، ولا أن يلتوى عن الطريق إليه . فهو سالك دربا مستقيما واصلا ينتهى به إلى رضوان الخالق العظيم .

والقرآن هو دليل هذا الصراط المستقيم . وحيثما سار الإنسان معه وجد هذه الاستقامة فى تصويره للحق ، وفى التوجيه إليه ، وفى أحكامه الفاصلة فى القيم ، ووضع كل قيمة فى موضعها الدقيق .

« تنزيل العزيز الرحيم » . .

يعرّف الله عباده بنفسه فى مثل هذه المواضع ، ليدركوا حقيقة ما نزّل إليهم . فهو العزيز القوى الذى يفعل ما يريد . وهو الرحيم بعباده الذى يفعل بهم ما يفعل ، وهو يريد بهم الرحمة فيما يفعل .

فأما حكمة هذا التنزيل فهى الإنذار والتبليغ :

« لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون » . .

والغفلة أشد ما يفسد القلوب . فالقلب الغافل قلب معطل عن وظيفته . معطل عن الالتقاط والتأثر والاستجابة . تمر به دلائل الهدى أو يمر بها دون أن يحسها أو يدركها . ودون أن ينبض أو يستقبل . ومن ثم كان الإنذار هو أليق شىء بالغفلة التى كان فيها القوم ، الذين مضت الأجيال دون أن ينذرهم منذر ، أو ينبههم منبه . فهم من ذرية إسماعيل ولم يكن لهم بعده من رسول . فالإنذار قد يوقظ الغافلين المستغرقين فى الغفلة ، الذين لم يأتهم ولم يأت آباءهم نذير .

ثم يكشف عن مصير هؤلاء الغافلين ؛ وعما نزل بهم من قدر الله ، وفق ما علم الله من قلوبهم ومن أمرهم . ما كان منه وما سيكون :

« لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون » . .

لقد قضى فى أمرهم ، وحق قدر الله على أكثرهم ، بما علمه من حقيقتهم ، وطبيعة مشاعرهم. فهم لا يؤمنون . وهذا هو المصير الأخير للأكثرين . فإن نفوسهم محجوبة عن الهدى مشدودة عن رؤية دلائله أو استشعارها .

وهنا يرسم مشهداً حسيا لهذه الحالة النفسية ، يصورهم كأنهم مغلولون ممنوعون قسرا عن النظر ، محال بينهم وبين الهدى والإيمان بالحواجز والسدود ، مغطى على أبصارهم فلا يبصرون :

« إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا ، فهى إلى الأذقان ، فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا . فأغشيناهم فهم لا يبصرون » . .

إن أيديهم مشدودة بالأغلال إلى أعناقهم ، موضوعة تحت أذقانهم . ومن ثم فإن رؤوسهم مرفوعة قسرا ، لا يملكون أن ينظروا بها إلى الأمام ! ومن ثم فهم لا يملكون حرية النظر والرؤية وهم فى هذا المشهد العنيف ! وهم إلى هذا محال بينهم وبين الحق والهدى بسد من أمامهم وسد من خلفهم ؛ فلو أرخى الشد فنظروا لم تنفذ أبصارهم كذلك من هذه السدود ! وقد سدت عليهم سبيل الرؤية وأغشيت أبصارهم بالكلال !

ومع عنف هذا المشهد الحسى وشدته فإن الإنسان ليلتقى بأناس من هذا النوع ، يخيل إليه وهم لا يرون الحق الواضح ولا يدركونه أن هنالك حائلا عنيفا كهذا بينهم وبينه . وأنه إذا لم تكن هذه الأغلال فى الأيدى ، وإذا لم تكن الرؤوس مقمحة ومجبرة على الارتفاع ، فإن نفوسهم وبصائرهم كذلك . . مشدودة عن الهدى قسراً وملفوتة عن الحق لفتاً . وبينها وبين دلائل الهدى سد من هنا وسد من هناك . وكذلك كان أولئك الذين واجهوا هذا القرآن بمثل ذلك الإنكار والجحود . وهو يصدع بالحجة ، ويدلى بالبرهان . وهو بذاته حجة ذات سلطان لا يتماسك لها إنسان .

« وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » . .

فلقد قضى الله فيهم بأمره ، بما علمه من طبيعة قلوبهم التى لا ينفذ إليها الإيمان . ولا ينفع الإنذار قلبا غير مهيأ للإيمان ، مشدود عنه ، محال بينه وبينه بالسدود . فالإنذار لا يخلق القلوب، إنما يوقظ القلب الحى المستعد للتلقى :

Marfat.com

« إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ، فبشره بمغفرة وأجر كريم » . .

والذكر يراد به هنا القرآن ـ على الأرجح ـ والذى اتبع القرآن ، وخشى الرحمان دون أن يراه ، هو الذى ينتفع بالإنذار ، فكأنه هو وحده الذى وجه إليه الإنذار . وكأنما الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد خصه به ، وإن كان قد عمم . إلا أن أولئك حيل بينهم وبين تلقيه ، فانحصر فى من اتبع الذكر وخشى الرحمان بالغيب . وهذا يستحق التبشير بعد انتفاعه بالإنذار: « فبشره بمغفرة وأجر كريم » .. المغفرة عما يقع فيه من الخطايا غير مصر . والأجر الكريم على خشية الرحمان بالغيب ، واتباعه لما أنزل الرحمان من الذكر . وهما متلازمان فى القلب . فما تحل خشية الله فى قلب إلا ويتبعها العمل بما أنزل . والاستقامة على النهج الذى أراد .

وهنا يؤكد وقوع البعث ؛ ودقة الحساب ، الذى لايفوته شىء :

« إنا نحن نحي الموتى ، ونكتب ماقدموا وآثارهم ، وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين » ..

وإحياء الموتى هو إحدى القضايا التى استغرقت جدلا طويلا . وسيرد منه فى هذه السورة أمثلة منوعة . وهو ينذرهم أن كل ماقدمت أيديهم من عمل ، وكل ماخلفته أعمالهم من آثار، كلها تكتب وتحصى ، فلا يند منها شىء ولاينسى . والله سبحانه هو الذى يحي الموتى ، وهو الذى يكتب ماقدموا وآثارهم ، وهو الذى يحصى كل شىء ويثبته . فلابد إذن من وقوع هذا كله على الوجه الذى يليق بكل ماتتولاه يد الله .

والإمام المبين . واللوح المحفوظ . وأمثالها . أقرب تفسير لها هو علم الله الأزلى القديم وهو بكل شىء محيط .

***

وبعد عرض قضية الوحى والرسالة ، وقضية البعث والحساب ، فى هذه الصورة التقريرية ، يعود السياق ليعرضهما فى صورة قصصية . تلمس القلب بما كان من مواقف التكذيب والإيمان وعواقبهما معروضة كالعيان :

« واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ، فقالوا : إنا إليكم مرسلون . قالوا : ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمان من شىء ، إن أنتم إلا تكذبون . قالوا : ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ

Marfat.com

المبين . قالوا : إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم . قالوا : طائركم معكم . أإن ذكرتم ؟ بل أنتم قوم مسرفون » ..

ولم يذكر القرآن من هم أصحاب القرية ولا ما هى القرية . وقد اختلفت فيها الروايات . ولا طائل وراء الجرى مع هذه الروايات .

وعدم إفصاح القرآن عنها دليل على أن تحديد اسمها أو موضعها لايزيد شيئاً فى دلالة القصة وإيحائها . ومن ثم أغفل التحديد ، ومضى إلى صميم العبرة ولبابها . فهى قرية أرسل الله إليها رسولين . كما أرسل موسى وأخاه هارون ـ عليهما السلام ـ إلى فرعون وملئه . فكذبهما أهل تلك القرية ، فعززهما الله برسول ثالث يؤكد أنه وأنهما رسل من عند الله . وتقدموا ثلاثتهم بدعواهم ودعوتهم من جديد « فقالوا : إنا إليكم مرسلون » . .

هنا اعترض أهل القرية عليهم بالاعتراضات المكرورة فى تاريخ الرسل والرسالات . .

« قالوا : ما أنتم إلا بشر مثلنا » . . « وما أنزل الرحمان من شىء » . . « إن أنتم إلا تكذبون » . .

وهذا الاعتراض المتكرر على بشرية الرسل تبدو فيه سذاجة التصور والإدراك ، كما يبدو فيه الجهل بوظيفة الرسول . فقد كانوا يتوقعون دائماً أن يكون هناك سر غامض فى شخصية الرسول وحياته تكمن وراءه الأوهام والأساطير . . أليس رسول السماء إلى الأرض فكيف لاتحيط به الأوهام والأساطير ؟ ! كيف يكون شخصية مكشوفة بسيطة لا أسرار فيها ولا ألغاز حولها ؟ ! شخصية بشرية عادية من الشخصيات التى تمتلىء بها الأسواق والبيوت ؟ !

وهذه هى سذاجة التصور والتفكير . فالأسرار والألغاز ليست صفة ملازمة للنبوة والرسالة. وليست فى هذه الصورة الساذجة الطفولية . وإن هنالك لسراً هائلا ضخماً ، ولكنه يتمثل فى الحقيقة البسيطة الواقعة . حقيقة إيداع إنسان من هؤلاء البشر الاستعداد اللدنى الذى يتلقى به وحى السماء ، حين يختاره الله لتلقى هذا الوحى العجيب . وهو أعجب من أن يكون الرسول ملكا كما كانوا يقترحون !

والرسالة منهج إلهى تعيشه البشرية . وحياة الرسول هى النموذج الواقعى للحياة وفق ذلك المنهج الإلهى . النموذج الذى يدعو قومه إلى الاقتداء به . وهم بشر . فلابد أن يكون رسولهم من البشر ليحقق نموذجاً من الحياة يملكون هم أن يقلدوه .

Marfat.com

ومن ثم كانت حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ معروضة لأنظار أمته . وسجل القرآن ـ كتاب الله الثابت ـ المعالم الرئيسية فى هذه الحياة بأصغر تفصيلاتها وأحداثها ، بوصفها تلك الصفحة المعروضة لأنظار أمته على مدار السنين والقرون . ومن هذه التفصيلات حياته المنزلية والشخصية . حتى خطرات قلبه سجلها القرآن فى بعض الأحيان ، لتطلع عليها الأجيال وترى فيها قلب ذلك النبى الإنسان .

ولكن هذه الحقيقة الواضحة القريبة هى التى ظلت موضع الاعتراض من بنى الإنسان !

ولقد قال أهل تلك القرية لرسلهم الثلاثة : « ما أنتم إلا بشر مثلنا » . . وقصدوا أنكم لستم برسل . . « وما أنزل الرحمان من شىء » . . مما تدعون أنه نزله عليكم من الوحى والأمر بأن تدعونا إليه . « إن أنتم إلا تكذبون » . . وتدعون أنكم مرسلون !

وفى ثقة المطمئن إلى صدقه ، العارف بحدود وظيفته أجابهم الرسل :

« قالوا : ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين » . .

إن الله يعلم . وهذا يكفى . وإن وظيفة الرسل البلاغ . وقد أدوه . والناس بعد ذلك أحرار فيما يتخذون لأنفسهم من تصرف . وفيما يحملون فى تصرفهم من أوزار . والأمر بين الرسل وبين الناس هو أمر ذلك التبليغ عن الله ؛ فمتى تحقق ذلك فالأمر كله بعد ذلك إلى الله .

ولكن المكذبين الضالين لا يأخذون الأمور هذا المأخذ الواضح السهل اليسير ؛ ولا يطيقون وجود الدعاة إلى الهدى ؛ فتأخذهم العزة بالإثم ؛ ويعمدون إلى الأسلوب الغليظ العنيف فى مقاومة الحجة لأن الباطل ضيق الصدر عربيد :

« قالوا : إنا تطيرنا بكم ! لئن لم تنتهوا لنرجمنكم ، وليمسنكم منا عذاب أليم » . .

قالوا : إنا نتشاءم منكم ؛ ونتوقع الشر فى دعوتكم ؛ فإن لم تنتهوا عنها فإننا لن نسكت عليكم ، ولن ندعكم فى دعوتكم : « لنرجمنكم ، وليمسنكم منا عذاب أليم » . .

وهكذا أسفر الباطل عن غشمه ؛ وأطلق على الهداة تهديده ؛ وبغى فى وجه كلمة الحق الهادئة ، وعربد فى التعبير والتفكير !

ولكن الواجب الملقى على عاتق الرسل يقضى عليهم بالمضى فى الطريق :

« قالوا : طائركم معكم » . .

Marfat.com

فالقول بالتشاؤم من دعوة أو من وجه هو خرافة من خرافات الجاهلية . والرسل يبينون لقومهم أنها خرافة ؛ وأن حظهم ونصيبهم من خير ومن شر لا يأتيهم من خارج نفوسهم . إنما هو معهم . مرتبط بنواياهم وأعمالهم ، متوقف على كسبهم وعملهم . وفي وسعهم أن يجعلوا حظهم ونصيبهم خيرا أو أن يجعلوه شرا . فإن إرادة الله بالعبد تنفذ من خلال نفسه ، ومن خلال اتجاهه ، ومن خلال عمله . وهو يحمل طائره معه . هذه هي الحقيقة الثابتة القائمة على أساس صحيح . أما التشاؤم بالوجوه ، أو التشاؤم بالأمكنة ، أو التشاؤم بالكلمات . . . فهو خرافة لا تستقيم على أصل مفهوم !

وقالوا لهم : « أإن ذكرتم ؟ » . .

يعني أترجموننا وتعذبوننا لأننا نذكركم ! أفهذا جزاء التذكير ؟

« بل أنتم قوم مسرفون » . .

تتجاوزون الحدود في التفكير والتقدير ؛ وتجازون على الموعظة بالتهديد والوعيد ؛ وتردون على الدعوة بالرجم والتعذيب !

* * *

تلك كانت الاستجابة من القلوب المغلقة على دعوة الرسل . وهي مثل للقلوب التي تحدثت عنها السورة في الجولة الأولى ؛ وصورة واقعية لذلك النموذج البشري المرسوم هناك .

فأما النموذج الآخر الذي اتبع الذكر وخشي الرحمان بالغيب ، فكان له مسلك آخر وكانت له استجابة غير هذه الاستجابة :

« وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ؛ قال : ياقوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون . ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ؟ أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمان بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون ؟ إني إذاً لفي ضلال مبين . إني آمنت بربكم فاسمعون » . .

إنها استجابة الفطرة السليمة لدعوة الحق المستقيمة . فيها الصدق . والبساطة . والحرارة . واستقامة الإدراك . وتلبية الإيقاع القوي للحق المبين .

فهذا رجل سمع الدعوة فاستجاب لها بعد ما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه في مقالته لقومه . وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره فلم يطق

Marfat.com

Marfat.com

عليها سكوتا ؛ ولم يقبع فى داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور ؛ ولكنه سعى بالحق الذى استقر فى ضميره وتحرك فى شعوره . سعى به إلى قومه وهم يكذبون ويجحدون ويتوعدون ويهددون . وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه فى دعوة قومه إلى الحق ، وفى كفهم عن البغى ، وفى مقاومة اعتدائهم الأثيم الذى يوشكون أن يصبوه على المرسلين .

وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان . ولم يكن فى عزوة من قومه أو منعة من عشيرته . ولكنها العقيدة الحية فى ضميره تدفعه وتجىء به من أقصى المدينة إلى أقصاها . .

« قال : يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون » .

إن الذى يدعو مثل هذه الدعوة ، وهو لا يطلب أجرا ، ولا يبتغى مغنما . . إنه لصادق . وإلا فما الذى يحمله على هذا العناء إن لم يكن يلبى تكليفا من الله ؟ ما الذى يدفعه إلى حمل هم الدعوة ؟ ومجابهة الناس بغير ما ألفوا من العقيدة ؟ والتعرض لأذاهم وشرهم واستهزائهم وتنكيلهم ، وهو لا يجنى من ذلك كسبا ، ولا يطلب منهم أجرا ؟

« اتبعوا من لا يسألكم أجرا » . . « وهم مهتدون » . .

وهداهم واضح فى طبيعة دعوتهم . فهم يدعون إلى إله واحد . ويدعون إلى نهج واضح . ويدعون إلى عقيدة لا خرافة فيها ولا غموض . فهم مهتدون إلى نهج سليم ، وإلى طريق مستقيم .

ثم عاد يتحدث إليهم عن نفسه هو وعن أسباب إيمانه ، ويناشد فيهم الفطرة التى استيقظت فيه فاقتنعت بالبرهان الفطرى السليم :

« ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ؟ أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمان بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ؟ إنى إذاً لفى ضلال مبين » .

إنه تساؤل الفطرة الشاعرة بالخالق ، المشدودة إلى مصدر وجودها الوحيد . . « ومالى لا أعبد الذى فطرنى؟ » وما الذى يحيد بى عن هذا النهج الطبيعى الذى يخطر على النفس أول ما يخطر ؟ إن الفطر مجذوبة إلى الذى فطرها ، تتجه إليه أول ما تتجه ، فلا تنحرف عنه إلا بدافع آخر خارج على فطرتها . ولا تلتوى إلا بمؤثر آخر ليس من طبيعتها . والتوجه

Marfat.com

إلى الخالق هو الأولى ،وهو الأول . وهو المتجه الذى لا يحتاج إلى عنصر خارج عن طبيعة النفس وانجذابها الفطرى . والرجل المؤمن يحس هذا فى قرارة نفسه ، فيعبر عنه هذا التعبير الواضح البسيط ، بلا تكلف ولا لف ولا تعقيد !

وهو يحس بفطرته الصادقة الصافية كذلك أن المخلوق يرجع إلى الخالق فى النهاية . كما يرجع كل شيء إلى مصدره الأصيل . فيقول :

« وإليه ترجعون » . .

ويتساءل لم لا أعبد الذى فطرنى ، والذى إليه المرجع والمصير ؟ ويتحدث عن رجعتهم هم إليه . فهو خالقهم كذلك . ومن حقه أن يعبدوه .

ثم يستعرض المنهج الآخر المخالف للمنهج الفطرى المستقيم . فيراه ضلالا بينا : « أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمان بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ؟ » . .

وهل أضل ممن يدع منطق الفطرة الذى يدعو المخلوق إلى عبادة خالقه ، وينحرف إلى عبادة غير الخالق بدون ضرورة ولا دافع ؟ وهل أضل ممن ينحرف عن الخالق إلى آلهة ضعاف لا يحمونه ولا يدفعون عنه الضر حين يريد به خالقه الضر بسبب انحرافه وضلاله ؟

« إنى إذاً لفى ضلال مبين » . .

والآن وقد تحدث الرجل بلسان الفطرة الصادقة العارفة الواضحة يقرر قراره الأخير فى وجه قومه المكذبين المهددين المتوعدين . لأن صوت الفطرة فى قلبه أقوى من كل تهديد ومن كل تكذيب :

« إنى آمنت بربكم فاسمعون » . .

وهكذا ألقى بكلمة الإيمان الواثقة المطمئنة . وأشهدهم عليها . وهو يوحى إليهم أن يقولوها كما قالها . أو أنه لا يبالى بهم ماذا يقولون !

* * *

ويوحى سياق القصة بعد ذلك أنهم لم يمهلوه أن قتلوه . وإن كان لا يذكر شيئاً من هذا صراحة . إنما يسدل الستار على الدنيا وما فيها ، وعلى القوم وما هم فيه ؛ ويرفعه لنرى هذا الشهيد الذى جهر بكلمة الحق ، متبعا صوت الفطرة ، وقذف بها فى وجوه من يملكون التهديد

والتشكيل . نراه فى العالم الآخر . ونطلع على ما ادخر الله له من كرامة . تليق بمقام المؤمن الشجاع المخلص الشهيد :

« قيل : ادخل الجنة . قال : ياليت قومي يعلمون. بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين » . .

وتتصل الحياة الدنيا بالحياة الآخرة . ونرى الموت نقلة من عالم الفناء إلى عالم البقاء . وخطوة يخلص بها المؤمن من ضيق الأرض إلى سعة الجنة . ومن تطاول الباطل إلى طمأنينة الحق . ومن تهديد البغى إلى سلام النعيم . ومن ظلمات الجاهلية إلى نور اليقين .

ونرى الرجل المؤمن . وقد اطلع على ما آتاه الله فى الجنة من المغفرة والكرامة ، يذكر قومه طيب القلب رضى النفس ، يتمنى لو يراه قومه ويرون ما آتاه ربه من الرضى والكرامة ، ليعرفوا الحق ، معرفة اليقين .

* * *

هذا كان جزاء الإيمان . فأما الطغيان فكان أهون على الله من أن يرسل عليه الملائكة لتدمره . فهو ضعيف ضعيف :

« وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء . وما كنا منزلين . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذاهم خامدون » . .

ولايطيل هنا فى وصف مصرع القوم ، تهويناً لشأنهم ، وتصغيراً لقدرهم . فما كانت إلا صيحة واحدة أخمدت أنفاسهم . . ويسدل الستار على مشهدهم البائس المهين الذليل !

● « يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ! مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ● أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ؟ ● وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ●

● « وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ● وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ، وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ● لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ

Marfat.com

أَيْدِيهِمْ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ ؟ • سُبْحَانَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ •

• « وَآيَةٌ لَهُمُ ٱللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَاهُمْ مُظْلِمُونَ • وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ • وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ • لَا ٱلشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ، وَلَا ٱللَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ •

• « وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ • وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ • وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَاهُمْ يُنْقَذُونَ • إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ •

• « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ : ٱتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ • وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ •

• « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ . قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُ ؟ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ •

• « وَيَقُولُونَ : مَتَى هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ • مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ • فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ • وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَاهُمْ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ • قَالُوا : يَاوَيْلَنَا ! مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ؟ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَانُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ • إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَاهُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ • فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ •

• « إِنَّ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَاكِهُونَ • هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِى ظِلَالٍ عَلَى

Marfat.com

ٱلْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ● لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ● سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ●

● « وَٱمْتَازُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ● أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ● وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ● وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ، أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ؟ ● هَٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ● ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ● ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ ، وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ●

● « وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا ٱلصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ؟ ● وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ● وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ ؟ » ●

بعد الحديث فى الدرس الأول عن المشركين الذين واجهوا دعوة الإسلام بالتكذيب ؛ والمثل الذى ضربه لهم فى قصة أصحاب القرية المكذبين ؛ وما انتهى إليه أمرهم « فإذا هم خامدون » . . . يبدأ الحديث فى هذا الدرس بالتعميم فى موقف المكذبين بكل ملة ودين ؛ ويعرض صورة البشرية الضالة على مدار القرون ، وينادى على العباد نداء الحسرة وهم لايتعظون بمصارع الهالكين ، الذين يذهبون أمامهم ولايرجعون إلا يوم الدين : « وإن كل لما جميع لدينا محضرون » .

ثم يأخذ فى استعراض الآيات الكونية التى يمرون عليها معرضين غافلين ؛ وهى مبثوثة فى أنفسهم وفيما حولهم وفى تاريخهم القديم .. وهم مع هذا لايشعرون ؛ وإذا ذكروا لايذكرون: « وماتأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » . . وهم يستعجلون بالعذاب غير مصدقين : « ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » . .

Marfat.com

وبمناسبة الاستعجال والتكذيب يستعرض مشهداً مطولا من مشاهد القيامة يرون فيه مصيرهم الذى به يستعجلون ، كأنه حاضر تراه العيون .

* * *

« ياحسرة على العباد ! مايأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لايرجعون ؟ وإن كل لما جميع لدنيا محضرون » . .

والحسرة انفعال نفسى على حال مؤسفة لايملك الإنسان شيئاً حيالها ؛ سوى أن يتحسر وتألم نفسه . والله سبحانه وتعالى ـ لايتحسر على العباد ؛ ولكنه يقرر أن حالة هؤلاء العباد مما يستحق حسرة المتحسرين ! فهى حال بائسة مؤسفة تنتهى بأصحابها إلى شر وخيم وبلاء عظيم !

ياحسرة على العباد تتاح لهم فرصة النجاة فيعرضون عنها ، وأمامهم مصارع الهالكين قبلهم لايتدبرونها ولاينتفعون بها . ويفتح الله لهم أبواب رحمته بإرسال الرسل إليهم الحين بعدالحين؛ ولكنهم يتجافون أبواب الرحمة ويسيئون الأدب مع الله : « وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » . .

« ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لايرجعون » . .

ولقد كان فى هلاك الأولين الذاهبين لايرجعون ، على مدار السنين وتطاول القرون . . لقد كان فى هذا عظة لمن يتدبر . ولكن العباد البائسين لايتدبرون . وهم صائرون إلى ذات المصير . فأية حالة تدعو إلى الحسرة كهذا الحال الأسيف ؟ !

إن الحيوان ليرجف حين يرى مصرع أخيه أمامه ؛ ويحاول أن يتوقاه قدر مايستطيع . فما بال الإنسان يرى المصارع تلو المصارع ، ثم يسير مندفعا فى ذات الطريق ؟ والغرور يملى له ويخدعه عن رؤية المصير المطروق ! وهذا الخط الطويل من مصارع القرون معروض على الأنظار ولكن العباد كأنهم عمى لايبصرون !

وإذا كان الهالكون الذاهبون لايرجعون إلى خلفائهم المتأخرين ، فإنهم ليسوا بمتروكين ولامفلتين من حساب الله بعد حين . .

« وإن كل لما جميع لدنيا محضرون » . .

* * *

Marfat.com

Marfat.com

« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ؛ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون ؟ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » . .

إنهم يكذبون الرسل ، ولا يتدبرون مصارع المكذبين ، ولا يدركون دلالة كونهم يذهبون ولا يرجعون . والرسل إنما يدعونهم إلى الله . وكل ما فى الوجود حولهم يحدثهم عن الله ، ويدل عليه ويشهد بوجوده . وهذه هى الأرض القريبة منهم ، يرونها ميتة لا حياة فيها ، ولا ماء ينشئ الحياة ، ثم يرونها حية تنبت الحب ، وتزدان بالجنات من نخيل وأعناب ، وتتفجر فيها العيون فتجرى بالحياة حيث تجرى .

والحياة معجزة لا تملك يد البشر أن تجريها ؛ إنما هى يد الله التى تجرى المعجزات ، وتبث روح الحياة فى الموات . وإن رؤية الزرع النامى ، والجنان الوارفة ، والثمر اليانع ، لتفتح العين والقلب على يد الله المبدعة ، وهى تشق التربة عن النبتة المتطلعة للحرية والنور ، وتنضر العود المستشرف للشمس والضياء ، وتزين الغصن اللدن بالورق والثمار ، وتفتح الزهرة وتنضج الثمرة ، وتهيئها للجنى والقطاف . . « ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم » . . ويد الله هى التى أقدرتهم على العمل ، كما أقدرت الزرع على الحياة والنماء ! « أفلا يشكرون ؟ » .

ويلتفت عنهم بعد هذه اللمسة الرفيقة ليسبح الله الذى أطلع لهم النبت والجنان ، وجعل الزرع أزواجاً ذكرانا وإناثاً كالناس وكغيرهم من خلق الله الذى لا يعلمه سواه :

« سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » . .

وهذه التسبيحة تنطلق فى أوانها وفى موضعها ؛ وترتسم معها حقيقة ضخمة من حقائق هذا الوجود . حقيقة وحدة الخلق . . وحدة القاعدة والتكوين . . فقد خلق الله الأحياء أزواجاً . النبات فيها كالإنسان . ومثل ذلك غيرها . . « مما لا يعلمون » . وإن هذه الوحدة لتشى بوحدة اليد المبدعة . التى توجد قاعدة التكوين مع اختلاف الأشكال والأحجام والأنواع والأجناس ، والخصائص والسمات ، فى هذه الأحياء التى لا يعلم علمها إلا الله . . ومن يدرى فربما كانت هذه قاعدة الكون كله حتى الجماد ! وقد أصبح معلوماً أن الذرة ــ أصغر ما عرف من قبل من أجزاء المادة ــ مؤلفة من زوجين مختلفين من الإشعاع الكهربى ، سالب وموجب يتزاوجان ويتحدان ! كذلك شوهدت ألوف من الثنائيات النجمية . تتألف من نجمين مرتبطين

يشد بعضهما بعضاً ، ويدوران فى مدار واحد كأنما يوقعان على نغمة رتيبة !

***

تلك آية الأرض الميتة تنبثق فيها الحياة . . ومنها إلى آية السماء ومايتعلق بها من ظواهر يراها العباد رأى العين ، ويد الله تجريها بالخوارق المعجزات :

« وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذاهم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » . .

ومشهد قدوم الليل ، والنور يختفى والظلمة تغشى . . مشهد مكرور يراه الناس فى كل بقعة فى خلال أربع وعشرين ساعة (فيما عدا بعض المواقع التى يدوم فيها النهار كما يدوم فيها الليل أسابيع وأشهراً قرب القطبين فى الشمال والجنوب) وهو مع تكراره اليومى عجيبة تدعو إلى التأمل والتفكير .

والتعبير القرآنى عن هذه الظاهرة ــ فى هذا الموضع ــ تعبير فريد . فهو يصور النهار متلبس بالليل ؛ ثم ينزع الله النهار من الليل فإذاهم مظلمون . ولعلنا ندرك شيئاً من سر هذا التعبير الفريد حين نتصور الأمر على حقيقته . فالأرض الكروية فى دورتها حول نفسها فى مواجهة الشمس تمر كل نقطة منها بالشمس ؛ فإذا هذه النقطة نهار ؛ حتى إذا دارت الأرض وانزوت تلك النقطة عن الشمس ، انسلخ منها النهار ولفها الظلام ــ وهكذا تتوالى هذه الظاهرة على كل نقطة بانتظام وكأنما نور النهار ينزع أو يسلخ فيحل محله الظلام . فهو تعبير مصور للحقيقة الكونية أدق تصوير .

« والشمس تجرى لمستقر لها » . .

والشمس تدور حول نفسها . وكان المظنون أنها ثابتة فى موضعها الذى تدور فيه حول نفسها . ولكن عرف أخيراً أنها ليست مستقرة فى مكانها . إنما هى تجرى . تجرى فعلا . تجرى فى اتجاه واحد فى الفضاء الكونى الهائل بسرعة حسبها الفلكيون باثنى عشر ميلا فى الثانية ! والله ــ ربها الخبير بها وبجريانها وبمصيرها ــ يقول : إنها تجرى لمستقر لها . هذا المستقر الذى ستنتهى إليه لايعلمه إلا هو سبحانه . ولايعلم موعده سواه .

وحين نتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف لحجم أرضنا هذه . وأن هذه

Marfat.com

الـكتلة الهائلة تتحرك وتجرى فى الفضاء ، لا يسندها شىء ، ندرك طرفا من صفة القدرة التى تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم :

« ذلك تقدير العزيز العليم » . .

« والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » . .

والعباد يرون القمر فى منازله تلك . يولد هلالا . ثم ينمو ليلة بعد ليلة حتى يستدير بدرا . ثم يأخذ فى التناقص حتى يعود هلالا مقوسا كالعرجون القديم . والعرجون هو العذق الذى يكون فيه البلح من النخلة .

والذى يلاحظ القمر ليلة بعد ليلة يدرك ظل التعبير القرآنى العجيب : « حتى عاد كالعرجون القديم » . . وبخاصة ظل ذلك اللفظ « القديم » . فالقمر فى لياليه الأولى هلال . وفى لياليه الأخيرة هلال . . ولـكنه فى الأولى يبدو وكأن فيه نضارة وفتوة . وفى الأخيرة يطلع وكأنما يغشاه سهوم ووجوم ، ويكسوه شحوب وذبول . ذبول العرجون القديم ! فليست مصادفة أن يعبر القرآن الـكريم عنه هذا التعبير الموحى العجيب !

والحياة مع القمر ليلة بعد ليلة تثير فى الحس مشاعر وخواطر ندية ثرية موحية عميقة . والقلب البشرى الذى يعيش مع القمر دورة كاملة ، لا ينجو من تأثرات واستجابات ، ومن سبحات مع اليد المبدعة للجمال والجلال ؛ المدبرة للأجرام بذلك النظام . سواء كان يعلم سر هذه المنازل والأشكال القمرية المختلفة أو لا يعلم . فالمشاهدة وحدها كفيلة بتحريك القلب ، واستجاشة الشعور ، وإثارة التدبر والتفـكير .

وأخيرا يقرر دقة النظام الـكونى الذى يحـكم هذه الأجرام الهائلة ، ويرتب الظواهر الناشئة عن نظامها الموحد الدقيق :

« لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » . .

ولـكل نجم أو كوكب فلك ، أو مدار ، لا يتجاوزه فى جريانه أو دورانه . والمسافات بين النجوم والـكواكب مسافات هائلة . فالمسافة بين أرضنا هذه وبين الشمس تقدر بنحو ثلاثة وتسعين مليونا من الأميال . والقمر يبعد عن الأرض بنحو أربعين ومئتى مليون من الأميال . . وهذه المسافات على بعدها ليست شيئاً يذكر حين تقاس إلى بعد ما بين مجموعتنا الشمسية وأقرب

Marfat.com

Marfat.com

نجم من نجوم السماء الأخرى إلينا . وهو يقدر بنحو أربع سنوات ضوئية . وسرعة الضوء تقدر بستة وثمانين ومئة ألف من الأميال فى الثانية الواحدة ! (أى إن أقرب نجم إلينا يبعدعنا بنحو مئة وأربعة مليون مليون ميل !) .

وقد قدر الله خالق هذا الكون الهائل أن تقوم هذه المسافات الهائلة بين مدارات النجوم والكواكب . ووضع تصميم الكون على هذا النحو ليحفظه بمعرفته من التصادم والتصدع ـ حتى يأتى الأجل المعلوم ـ فالشمس لا ينبغى لها أن تدرك القمر . والليل لا يسبق النهار ، ولا يزحمه فى طريقه ، لأن الدورة التى تجىء بالليل والنهار لا تختل أبدا فلا يسبق أحدهما الآخر أو يزحمه فى الجريان !

« وكل فى فلك يسبحون » . .

وحركة هذه الأجرام فى الفضاء الهائل أشبه بحركة السفين فى الخضم الفسيح . فهى مع ضخامتها لا تزيد على أن تكون نقطا سابحة فى ذلك الفضاء المرهوب .

وإن الإنسان ليتضاءل ويتضاءل ، وهو ينظر إلى هذه الملايين التى لا تحصى من النجوم الدوارة ، والكواكب السيارة . متناثرة فى ذلك الفضاء ، سابحة فى ذلك الخضم ، والفضاء من حولها فسيح فسيح وأحجامها الضخمة تائهة فى ذلك الفضاء الفسيح ! ! !

* * *

«وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ، وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون ، إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين » . .

إن فى السياق مناسبة لطيفة بين النجوم والكواكب السابحة فى أفلاكها ، والفلك المشحون السابح فى الماء يحمل ذرية بنى آدم ! مناسبة فى الشكل ، ومناسبة فى الحركة ، ومناسبة فى تسخير هذا وذلك بأمر الله ، وحفظه بقدرته فى السماوات والأرض سواء .

وهذه آية كتلك يراها العباد ولا يتدبرونها . بل هذه أقرب إليهم وأيسر تدبرا لو فتحوا قلوبهم للآيات .

ولعل الفلك المشحون المذكور هنا هو فلك نوح أبى البشر الثانى ؛ الذى حمل فيه ذرية آدم . ثم جعل الله لهم من مثله هذه السفن التى تمخر بهم العباب . وهؤلاء وهؤلاء حملتهم قدرة

Marfat.com

الله ونواميسه التي تحكم الكون وتصرفه ؛ وتجعل الفلك يعوم على وجه الماء ، بحكم خواص الفلك ، وخواص الماء ، وخواص الريح أو البخار ، أو الطاقة المنطلقة من الذرة ، أو غيرها من القوى . وكلها من أمر الله وخلقه وتقديره .

« وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون . إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين » . . والسفينة فى الخضم كالريشة فى مهب الريح ، مهما ثقلت وضخمت وأتقن صنعها . وإلا تدركها رحمة الله فهى هالكة هالكة فى لحظة من ليل أو نهار . والذين ركبوا البحار سواء عبروها فى قارب ذى شراع أو فى عابرة ضخمة للمحيط ، يدركون هول البحر المخيف ؛ وضآلة العصمة من خطره الهائل وغضبه الجبار . ويحسون معنى رحمة الله ؛ وأنها وحدها العاصم بين العواصف والتيارات فى هذا الخلق الهائل الذى تمسك يد الرحمة الإلهية عنانه الجامح . ولا تمسكه يد سواها فى أرض أو سماء . وذلك حتى يقضى الكتاب أجله ، ويحل الموعد المقدور فى حينه ، وفق ماقدره الحكيم الخبير : « ومتاعا إلى حين » . .

* * *

ومع تلك الآيات الواضحات فالعباد فى غفلة ، لا تتوجه أنظارهم ، ولا تستيقظ قلوبهم ؛ ولا يكفون عن سخريتهم وتكذيبهم ، واستعجالهم بالعذاب الذى ينذرهم به المرسلون :

« وإذا قيل لهم : اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون . وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . وإذا قيل لهم : أنفقوا مما رزقكم الله ، قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟ إن أنتم إلا فى ضلال مبين . ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ » . .

إن تلك الآيات بذاتها لا تثير فى قلوبهم التطلع والتدبر والحساسية والتقوى . وهى بذاتها كافية أن تثير فى القلب المفتوح هزة ورعشة وانتفاضة ؛ وأن تخلطه بهذا الوجود . هذا الكتاب المفتوح الذى تشير كل صفحة من صفحاته إلى عظمة الخالق ، ولطيف تدبيره وتقديره . ولكن هؤلاء المطموسين لا يرونها . وإذا رأوها لا يتدبرونها . والله ـ لعظيم رحمته ـ لا يتركهم مع هذا بلا رسول ينذرهم ويوجههم ويدعوهم إلى رب هذا الكون وبارىء هذا الوجود . ويثير فى قلوبهم الحساسية والخوف والتقوى ويحذرهم موجبات الغضب والعذاب ، وهى محيطة بهم ، من بين أيديهم ومن خلفهم ، إلا ينتبهوا لها يقعوا فيها فى كل خطوة من

Marfat.com

خطواتهم . وتتوالى عليهم الآيات مضافة إلى الآيات الكونية التى تحيط بهم فى حيثما يتجهون . ولكنهم مع هذا يظلون فى عمايتهم سادرين :

« وإذا قيل لهم : اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون . وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » .

وإذا دعوا إلى إنفاق شىء من مالهم لإطعام الفقراء : قالوا ساخرين متعنتين :

« أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟ » . .

وتطاولوا على من يدعونهم إلى البر والإنفاق قائلين :

« إن أنتم إلا فى ضلال مبين » !

وتصورهم للأمر على هذا النحو الآلى يشى بعدم إدراكهم لسنن الله فى حياة العباد . فالله هو مطعم الجميع ، وهو رازق الجميع . وكل مافى الأرض من أرزاق ينالها العباد هى من خلقه ، فلم يخلقوا هم لأنفسهم منها شيئاً ، وماهم بقادرين على خلق شىء أصلا . ولكن مشيئة الله فى عمارة هذه الأرض اقتضت أن تكون للناس حاجات لاينالونها إلا بالعمل والكد ؛ وفلاحة هذه الأرض ؛ وصناعة خاماتها ؛ ونقل خيراتها من مكان إلى مكان ، وتداول هذه الخيرات ومايقابلها من سلعة أونقد أو قيم تختلف باختلاف الزمان والمكان . كما اقتضت أن يتفاوت الناس فى المواهب والاستعدادات وفق حاجات الخلافة الكاملة فى هذه الأرض . وهذه الخلافة لاتحتاج إلى المواهب والاستعدادات المتعلقة بجمع المال والأرزاق وحدها ، إنما تحتاج إلى مواهب واستعدادات أخرى قد تحقق ضرورات أساسية لخلافة الجنس الإنسانى فى الأرض ، بينما يفوتها جمع المال والأرزاق ويعوزها !

وفى خلال هذا الخضم الواسع لحاجات الخلافة ومطالبها ، والمواهب والاستعدادات اللازمة لها ، وما يترتب على هذه وتلك من تداول للمنافع والأرزاق ، وتصارع وتضارب فى الأنصبة والحظوظ . . فى خلال هذا الخضم الواسع المترابط الحلقات لافى جيل واحد ، بل فى أجيال متعددة قريبة وبعيدة ، ماضية وحاضرة ومستقبلة . . فى خلال هذا الخضم تتفاوت الأرزاق فى أيدى العباد . . ولكى لا ينتهى هذا التفاوت إلى إفساد الحياة والمجتمع ، بينما هو ناشىء أصلا من حركة الحياة لتحقيق خلافة الإنسان فى الأرض ، يعالج الإسلام الحالات الفردية الضرورية بخروج أصحاب الثراء عن قدر من مالهم يعود على الفقراء ويكفل طعامهم وضرورياتهم . وبهذا

القدر تصلح نفوس كثيرة من الفقراء والأغنياء سواء . فقد جعله الإسلام زكاة . وجعل في الزكاة معنى الطهارة . وجعلها كذلك عبادة . وألف بها بين الفقراء والأغنياء في مجتمعه الفاضل الذي ينشئه على غير مثال .

فقولة أولئك المحجوبين عن إدراك حكمة الله في الحياة : «أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟ » .. وتطاولهم على الداعين إلى الإنفاق بقولهم : « إن أنتم إلا في ضلال مبين » .. إن هو إلا الضلال المبين الحقيق عن إدراك طبيعة سنن الله ، وإدراك حركة الحياة ، وضخامة هذه الحركة ، وعظمة الغاية التي تتنوع من أجلها المواهب والاستعدادات ، وتتوزع بسببها الأموال والأرزاق .

والإسلام يضع النظام الذي يضمن الفرص العادلة لكل فرد ، ثم يدع النشاط الإنساني المتنوع اللازم للخلافة في الأرض يجري مجراه النظيف . ثم يعالج الآثار السيئة بوسائله الواقية .

وأخيراً يجيء شكهم في الوعد ، واستهزاؤهم بالوعيد :

« ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ » . .

ووعد الله لا يستقدم لاستعجال البشر ؛ ولا يستأخر لرجائهم في تأخيره . فكل شيء عند الله بمقدار . وكل أمر مرهون بوقته المرسوم . إنما تقع الأمور في مواعيدها وفق حكمة الله الأزلية التي تضع كل شيء في مكانه ، وكل حادث في إبانه ، وتمضي في تصريف هذا الكون وما فيه ومن فيه وفق النظام المقدر المرسوم في إمام مبين .

أما الرد على هذا السؤال المنكر فيجيء في مشهد من مشاهد القيامة يرون فيه كيف يكون، لا متى يكون . .

* * *

« ماينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون . فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون . ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا : ياويلنا ! من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمان وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون » . .

يسأل المكذبون : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » . . فيكون الجواب مشهدا

Marfat.com

خاطفاً سريعاً . . . صيحة تصعق كل حى ، وتنتهى بها الحياة والأحياء :

« ماينظرون إلا صيحة واحـدة تأخذهم وهم يخصمون . فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون » . .

فهى تأخذهم بغتة وهم فى جدالهم وخصامهم فى معترك الحياة ، لايتوقعونها ولايحسبون لهـا حساباً . فإذاهم منتهون . كل على حاله التى هو عليها . لايملك أن يوصى بمن بعده . ولايملك أن يرجع إلى أهله فيقول لهم كلمة . . وأين هم ؟ إنهم مثله فى أماكنهم منتهون !

ثم ينفخ فى الصور فإذاهم ينتفضون من القبور . ويمضون سراعاً ، وهم فى دهش وذعر يتساءلون : « من بعثنا من مرقدنا ؟ » . ثم تزول عنهم الدهشة قليلا ، فيدركون ويعرفون : « هذا ماوعد الرحمان وصدق المرسلون » !

ثم إذا الصيحة الأخيرة . صيحة واحدة . فإذا هذا الشتيت الحائر الذهول السارع فى خطاه المدهوش .. يثوب : « فإذاهم جميع لدينا محضرون » .. وتنتظم الصفوف ، ويتهيأ الاستعراض فى مثل لمح البصر ورجع الصدى . وإذا القرار العلوى فى طبيعة الموقف، وطبيعة الحساب والجزاء يعلن على الجميع :

« فاليوم لاتظلم نفس شيئاً ولاتجزون إلا ما كنتم تعملون » . .

وفى هذه السرعة الخاطفة التى تتم بها تلك المشاهد الثلاثة تناسق فى الرد على أولئك الشاكين المرتابين فى يوم الوعد المبين !

ثم يطوى السياق موقف الحساب مع المؤمنين ، ويعجل بعرض ماصاروا إليه من نعيم :

« إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون . هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون . لهم فيها فاكهة ولهم مايدعون . سلام قولا من رب رحيم » . .

إنهم مشغولون بما هم فيـه من النعيم ، ملتذون متفـكهون . وإنهم لفى ظلال مستطابة يستروحون نسيمها . . وعلى أرائك متـكئين فى راحة ونعيم هم وأزواجهم . لهم فيها فاكهة ولهم كل ما يشاءون ؛ وهم ملاك محقق لهم فيها كل ما يدعون . ولهم فوق اللذائذ التأهيل والتـكريم : « سلام » . . يتلقونه من ربهم الـكريم : « قولا من رب رحيم » . .

فأما الآخرون فـلا يطوى السياق موقف حسابهم ، بل يعرضه ويبرز فيـه التبـكيت والتنـكيل :

Marfat.com

« وامتازوا اليوم أيها المجرمون . ألم أعهد إليكم - يا بنى آدم - ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلا كثيرا . أفلم تكونوا تعقلون ؟ هذه جهنم التى كنتم توعدون . اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون » . .

إنهم يتلقون التحقير والترذيل : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » .. انعزلوا هكذا بعيدا عن المؤمنين !

« ألم أعهد إليكم - يا بنى آدم - ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ؟ » . .

ونداؤهم هنا « يابنى آدم » .. فيه من التبكيت ما فيه . وقد أخرج الشيطان أباهم من الجنة ثم هم يعبدونه ، وهو لهم عدو مبين .

« وأن اعبدونى » . . « هذا صراط مستقيم » . .

واصل إلىّ مؤد إلى رضاى .

فلم تحذروا عدوكم الذى أضل منكم أجيالا كثيرة . . « أفلم تكونوا تعقلون ؟ » .

وفى نهاية هذا الموقف العصيب المهين يعلن الجزاء الأليم ، فى تهكم وتأنيب :

« هذه جهنم التى كنتم توعدون . اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون » !

ولا يقف المشهد عند هذا الموقف المؤذى ويطويه . بل يستطرد العرض فإذا مشهد جديد عجيب :

« اليوم نختم على أفواههم ، وتكلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » . .

وهكذا يخذل بعضهم بعضا ، وتشهد عليهم جوارحهم ، وتتفكك شخصيتهم مزقا وآحادا يكذب بعضها بعضا . وتعود كل جارحة إلى ربها مفردة ، ويثوب كل عضو إلى بارئه مستسلماً.

إنه مشهد عجيب رهيب تذهل من تصوره القلوب !

* * *

كذلك انتهى المشهد وألسنتهم معقودة وأيديهم تتكلم ، وأرجلهم تشهد ، على غير ما كانوا يعهدون من أمرهم وعلى غير ما كانوا ينتظرون . ولو شاء الله لفعل بهم غير ذلك ، ولأجرى عليهم من البلاء ما يريد . . ويعرض هنا نوعين من هذا البلاء لو شاء الله لأخذ بهما من يشاء:

Marfat.com

« ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط ، فأنى يبصرون ؛ ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون » . .

وهما مشهدان فيهما من البلاء قدر ما فيهما من السخرية والاستهزاء . السخرية بالمكذبين والاستهزاء بالمستهزئين ، الذين كانوا يقولون : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ » . .

فهم فى المشهد الأول عميان مطموسون . ثم هم مع هذا العمى يستبقون الصراط ويتزاحمون على العبور ، ويتخبطون تخبط العميان حين يتسابقون ! ويتساقطون تساقط العميان حين يسارعون متنافسين ! « فأنى يبصرون ؟ » !

وهم فى المشهد الثانى قد جمدوا فجأة فى مكانهم ، واستحالوا تماثيل لا تمضى ولا تعود ؛ بعد أن كانوا منذ لحظة عميانا يستبقون ويضطربون !

وإنهم ليبدون فى المشهدين كالدمى واللعب ، فى حال تثير السخرية والهزء . وقد كانوا من قبل يستخفون بالوعيد ويستهزئون !

* * *

ذلك كله حين يحين الموعد الذى يستعجلون . . فأما لو تركوا فى الأرض ، وعمروا طويلا وأمهلهم الوعد المرسوم بعض حين ؛ فإنهم صائرون إلى شر يحمدون معه التعجيل . . إنهم صائرون إلى شيخوخة وهرم ، ثم إلى خرف ونكسة فى الشعور والتفكير :

« ومن نعمره ننكسه فى الخلق . أفلا يعقلون » . .

والشيخوخة نكسة إلى الطفولة . بغير ملاحة الطفولة وبراءتها المحبوبة ! وما يزال الشيخ يتراجع ، وينسى ما علم ، وتضعف أعصابه ، ويضعف فكره ، ويضعف احتماله ، حتى يرتد طفلا . ولكن الطفل محبوب اللثغة ، تبسم له القلوب والوجوه عند كل حماقة . والشيخ مجتوى لا تقال له عثرة إلا من عطف ورحمة، وهو مثار السخرية كلما بدت عليه مخايل الطفولة وهو عجوز . وكلما استحمق وقد قوست ظهره السنون !

فهذه العاقبة كتلك تنتظر المكذبين ، الذين لا يكرمهم الله بالإيمان الراشد الكريم . .

Marfat.com

« وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ • لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ •

« أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ • وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ • وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ ؟ • وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ • لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ • فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ، إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ •

« أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ • وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ . قَالَ : مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ • قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ • الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ • أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ • إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ . فَيَكُونُ • فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » •

في هذا القطاع الأخير من السورة تستعرض كل القضايا التي تعالجها السورة . . قضية الوحي وطبيعته وقضية الألوهية والوحدانية . وقضية البعث والنشور . . تستعرض في مقاطع منفصلة مصحوبة بمؤثرات قوية في إيقاعات عميقة . كلها تتجه إلى إبراز يد القدرة وهي تعمل كل شيء في هذا الكون وتمسك بمقاليد الأمور كلها . ويتمثل هذا المعنى مركزاً في النهاية في الآية التي تختم السورة : « فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » . . فهذه اليد القوية المبتدعة خلقت الأنعام للبشر وذللتها لهم . وهي خلقت الإنسان من نطفة . وهي تحيي رميم العظام كما أنشأتها أول مرة . وهي جعلت من الشجر الأخضر ناراً . وهي أبدعت السماوات والأرض . وفي النهاية هي مالكة كل شيء في هذا الوجود . . وذلك قوام هذا القطاع الأخير . .

Marfat.com

« وما علمناه الشعر ـ وما ينبغى له ـ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين » . .

وردت قضية الوحى فى أول السورة : « يس والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . . . » . . والآن تجىء فى صورتها هذه للرد على ما كان يدعيه بعضهم من وصف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه شاعر ؛ ووصف القرآن الذى جاء به بأنه شعر . وما كان يخفى على كبراء قريش أن الأمر ليس كذلك . وأن ما جاءهم به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قول غير معهود فى لغتهم . وما كانوا من الغفلة بحيث لا يفرقون بين القرآن والشعر . إنما كان هذا طرفا من حرب الدعاية التى شنوها على الدين الجديد وصاحبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أوساط الجماهير . معتمدين فيها على جمال النسق القرآنى المؤثر ، الذى قد يجعل الجماهير تخلط بينه وبين الشعر إذا وجهت هذا التوجيه .

وهنا ينفى الله ـ سبحانه ـ أنه علم الرسول الشعر . وإذا كان الله لم يعلمه فلن يعلم . فما يعلم أحد شيئاً إلا ما يعلمه الله . .

ثم ينفى لياقة الشعر بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « وما ينبغى له » فللشعر منهج غير منهج النبوة . الشعر انفعال . وتعبير عن هذا الانفعال . والانفعال يتقلب من حال إلى حال . والنبوة وحى . على منهج ثابت . على صراط مستقيم . يتبع ناموس الله الثابت الذى يحكم الوجود كله . ولا يتبدل ولا يتقلب مع الأهواء الطارئة ، تقلب الشعر مع الانفعالات المتجددة التى لا تثبت على حال .

والنبوة اتصال دائم بالله ، وتلق مباشر عن وحى الله ، ومحاولة دائمة لرد الحياة إلى الله . بينما الشعر ـ فى أعلى صوره ـ أشواق إنسانية إلى الجمال والكمال مشوبة بقصور الإنسان وتصوراته المحدودة بحدود مداركه واستعداداته . فأما حين يهبط عن صوره العالية فهو انفعالات ونزوات قد تهبط حتى تكون صراخ جسد ، وفورة لحم ودم ! فطبيعة النبوة وطبيعة الشعر مختلفتان من الأساس . هذه ـ فى أعلى صورها ـ أشواق تصعد من الأرض . وتلك فى صميمها هداية تتنزل من السماء .

« إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » . .

Marfat.com

ذكر وقرآن . . وهما صفتان لشيء واحد . ذكر بحسب وظيفته . وقرآن بحسب تلاوته . فهو ذكر لله يشتغل به القلب ، وهو قرآن يتلى ويشتغل به اللسان . وهو منزل ليؤدى وظيفة محددة :

« لينذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين » . .

ويضع التعبير القرآنى الكفر فى مقابل الحياة . فيجعل الكفر موتا ، ويجعل استعداد القلبْ للإيمان حياة . ويبين وظيفة هذا القرآن بأنه نزل على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لينذر من به حياة . فيجدى فيهم الإنذار . فأما الكافرون فهم موتى لا يسمعون النذير ؛ وظيفة القرآن بالقياس إليهم هى تسجيل الاستحقاق للعذاب ، فإن الله لايعذب أحداً حتى تبلغه الرسالة ثم يكفر عن بينة ويهلك بلا حجة ولا معذرة !

وهكذا يعلم الناس أنهم إزاء هذا القرآن فريقان : فريق يستجيب فهو حى . وفريق لا يستجيب فهو ميت. ويعلم هذا الفريق أن قد حق عليه القول ، وحق عليهالعذاب !

***

والمقطع الثانى فى هذا القطاع يعرض قضية الألوهية والوحدانية ، فى إطار من مشاهدات القوم ، ومن نعم البارىء عليهم ، وهم لا يشكرون :

« أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون ؟ وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ؟ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون . فلا يحزنك قولهم إنا نعلم مايسرون وما يعلنون » . .

أو لم يروا ؟ فآية الله هنا مشهودة منظورة بين أيديهم ، ليست غائبة ولا بعيدة ، ولا غامضة تحتاج إلى تدبر أو تفكير . . إنها هذه الأنعام التى خلقها الله لهم وملكهم إياها . وذللها لهم يركبونها ويأكلون منها ويشربون ألبانها ، وينتفعون بها منافع شتى . . وكل ذلك من قدرة الله وتدبيره ؛ ومن إيداعه ما أودع من الخصائص فى الناس وفى الأنعام ، فجعلهم قادرين على تذليلها واستخدامها والانتفاع بها . وجعلها مذللة نافعة ملبية لشتى حاجات الإنسان . وما يملك الناس أن يصنعوا من ذلك كله شيئا . وما يملكون أن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له . وما يملكون أن يذللوا ذبابة لم يركب الله فى خصائصها أن تكون ذلولا لهم!..
« أفلا يشكرون ؟ » . .

Marfat.com

وحين ينظر الإنسان إلى الأمر بهذه العين وفى هذا الضوء الذى يشيعه القرآن الكريم . فإنه يحس انوه أنه مغمور بفيض من نعم الله . فيض يتمثل فى كل شىء حوله . وتصبح كل مرة يركب فيها دابة ، أو يأكل قطعة من لحم ، أو يشرب جرعة من لبن ، أو يتناول قطعة من سمن أو جبن . أو يلبس ثوبا من شعر أو صوف أو وبر . . . إلى آخره إلى آخره . . لمسة وجدانية تشعر قلبه بوجود الخالق ورحمته ونعمته . ويطرد هذا فى كل ماتمس يده من أشياء حوله ، وكل ما يستخدمه من حى أو جامد فى هذا الكون الكبير . وتعود حياته كلها تسبيحاً لله وحمداً وعبادة آناء الليل وأطراف النهار . .

ولكن الناس لايشكرون . وفيهم من اتخذ مع هذا كله آلهة من دون الله : « واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون » : وفى الماضى كانت الآلهة أصناما وأوثانا ، أو شجراً أو نجوماً ، أوْ ملائكة أو جناً . . . والوثنية ما تزال حتى اليوم فى بعض بقاع الأرض . ولكن الذين لا يعبدون هذه الآلهة لم يخلصوا للتوحيد . وقديتمثل شركهم اليوم فى الإيمان بقوى زائفة غير قوةالله ؛ وفى اعتمادهم على أسناد أخرى غير الله . والشرك ألوان ، تختلف باختلاف الزمان والمكان .

ولقد كانوا يتخذون تلك الآلهة يبتغون أن ينالوا بها النصر . بينما كانوا هم الذين يقومون بحماية تلك الآلهة أن يعتدى عليها معتد أو يصيبها بسوء ، فكانوا هم جنودها وحماتها المعدين لنصرتها : « وهم لهم جند محضرون » . . وكان هذا غاية فى سخف التصور والتفكير . غير أن غالبية الناس اليوم لم ترتق عن هذا السخف إلا من حيث الشكل . فالذين يؤلهون الطغاة والجبارين اليوم ، لا يبعدون كثيراً عن عباد تلك الأصنام والأوثان . فهم جند محضرون للطغاة . وهم الذين يدفعون عنهمويحمون طغيانهم . ثم هم فى الوقتذاته يخرون للطغيان راكعين!

إن الوثنية هى الوثنية فى شتىصورها . وحيثما اضطربتعقيدة التوحيد الخالصأى اضطراب جاءت الوثنية ، وكان الشرك ، وكانت الجاهلية ! ولا عصمة للبشرية إلا بالتوحيد الخالص الذى يفرد الله وحده بالألوهية . ويفرده وحده بالعبادة . ويفرده وحده بالتوجه والاعتماد . ويفرده وحده بالطاعة والتعظيم .

« فلا يحزنك قولهم . إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون » .

الخطاب للرسول – صلى الله عليه وسلم – وهو يواجه أولئك الذين اتخذوا من دون الله

Marfat.com

Marfat.com

آلهة . والذين لايشكرون ولا يذكرون. ليطمئن بالا من ناحيتهم . فهم مكشوفون لعلم الله . وكل مايدبرونه وما يملكونه تحت عينه . فلا على الرسول منهم . وأمرهم مكشوف للقدرة القادرة . والله من ورائهم محيط . .

ولقد هان أمرهم بهذا . وما عاد لهم من خطر يحسه مؤمن يعتمد على الله . وهو يعلم أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون . وأنهم فى قبضته وتحت عينه وهم لا يشعرون !

* * *

والمقطع الثالث فى هذا القطاع الأخير يتناول قضية البعث والنشور :

« أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه . قال : من يحيي العظام وهى رميم ؟ قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن . فيكون » . .

ويبدأ هذا المقطع بمواجهة الإنسان بواقعه هو ذاته فى خاصة نفسه . وهذا الواقع يصور نشأته وصيرورته مما يراه واقعاً فى حياته ، ويشهده بعينه وحسه مكرراً معاداً . ثم لا ينتبه إلى دلالته ، ولا يتخذ منه مصداقا لوعد الله ببعثه ونشوره بعد موته ودثوره .

« أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين » . .

فما النطفة التى لا يشك الإنسان فى أنها أصله القريب ؟ إنها نقطة من ماء مهين ، لا قوام ، ولا قيمة ! نقطة من ماء تحوى ألوف الخلايا . . خلية واحدة من هذه الألوف هى التى تصير جنينا . ثم تصير هذا الإنسان الذى يجادل ربه ويخاصمه ويطلب منه البرهان والدليل ! والقدرة الخالقة هى التى تجعل من هذه النطفة ذلك الخصيم المبين . وما أبعد النقلة بين المنشأ والمصير ! أفهذه القدرة يستعظم الإنسان عليها أن تعيده وتنشره بعد البلى والدثور ؟

« وضرب لنا مثلا ــ ونسى خلقه ــ قال : من يحيي العظام وهى رميم . قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » . .

ياللبساطة ! ويالمنطق الفطرة ! ومنطق الواقع القريب المنظور !

وهل تزيد النطفة حيوية أو قدرة أو قيمة على العظم الرميم المفتوت ؟ أو ليس من تلك

النطفة كان الإنسان ؟ أو ليست هذه هي النشأة الأولى ؟ أو ليس الذى حول تلك النطفة إنسانا ، وجعله خصيما مبينا بقادر على أن يحول العظم الرميم مخلوقا حيا جديدا ؟

إن الأمر أيسر وأظهر من أن يدور حوله سؤال . فما بال الجدل الطويل ؟ !

« قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة . وهو بكل خلق عليم » . .

ثم يزيدهم إيضاحا لطبيعة القدرة الخالقة ، وصنعها فيما بين أيديهم وتحت أعينهم مما يملكون :

« الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون » . .

والمشاهدة الأولية الساذجة تقنع بصدق هذه العجيبة ! العجيبة التى يمرون عليها غافلين . عجيبة أن هذا الشجر الأخضر الريان بالماء ، يحتك بعضه ببعض فيولد ناراً ؟ ثم يصير هو وقود النار . بعد اللدونة والاخضرار . . والمعرفة العلمية العميقة لطبيعة الحرارة التى يختزنها الشجر الأخضر من الطاقة الشمسية التى يمتصها ، ويحتفظ بها وهو ريان بالماء ناضر بالخضرة ؛ والتى تولد النار عند الاحتكاك ، كما تولد النار عند الاحتراق . . هذه المعرفة العلمية تزيد العجيبة بروزا فى الحس ووضوحا . والخالق هو الذى أودع الشجر خصائصه هذه . والذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . غير أننا لانرى الأشياء بهذه العين المفتوحة ولا نتدبرها بذلك الحس الواعى . فلا تكشف لنا عن أسرارها المعجبة . ولا تدلنا على مبدع الوجود . ولو فتحنا لها قلوبنا لباحت لنا بأسرارها ، ولعشنا معها فى عبادة دائمة وتسبيح !

ثم يستطرد فى عرض دلائل القدرة وتبسيط قضية الخلق والإعادة للبشر أجمعين :

« أو ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم » . .

والسماوات والأرض خلق عجيب هائل دقيق . . هذه الأرض التى نعيش عليها ويشاركنا ملايين الأجناس والأنواع ، ثم لانبلغ نحن شيئاً من حجمها ، ولا شيئاً من حقيقتها ، ولا نعلم عنها حتى اليوم إلا القليل . . هذه الأرض كلها تابع صغير من توابع الشمس التى تعيش أرضنا الصغيرة على ضوئها وحرارتها . . وهذه الشمس واحدة من مئة مليون فى المجرة الواحدة التى تتبعها شمسنا ، والتى تؤلف دنيانا القريبة ! وفى الكون مجرات أخرى كثيرة . أو دنيات كدنيانا القريبة . عد الفلكيون حتى اليوم منها مئة مليون مجرة بمناظيرهم المحدودة . وهم

Marfat.com

فى انتظار المزيد كلما أمكن تكبير المناظير والمراصد . وبين مجرتنا أو دنيانا والمجرة التالية لها نحو خمسين وسبعمئة ألف سنة ضوئية (السنة الضوئية تقدر بستة وعشرين مليون مليون من الأميال !) . . وهنالك كتل ضخمة من السدم التى يظن أنه من نثارها كانت تلك الشموس . وهذا هو الجزء الذى يدخل فى دائرة معارفنا الصغيرة المحدودة !

تلك الشموس التى لا يحصيها العد . لكل منها فلك تجرى فيه . ولمعظمها توابع ذات مدارات حولها كمدار الأرض حول الشمس . . وكلها تجرى وتدور فى دقة وفى دأب . لا تتوقف لحظة ولا تضطرب . وإلا تحطم الكون المنظور واصطدمت هذه الكتل الهائلة السابحة فى الفضاء الوسيع . .

هذا الفضاء الذى تسبح فيه تلك الملايين التى لا يحصيها العد ، كأنها ذرات صغيرة . لانحاول تصويره ولا تصوره . . فذلك شىء يدير الرؤوس !

« أو ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ » . .

وأين الناس من ذلك الخلق الهائل العجيب ؟

« بلى ! وهو الخلاق العليم » . .

ولكن الله ـ سبحانه ـ يخلق هذا وذلك ويخلق غيرهما بلا كلفة ولا جهد . ولا يختلف بالقياس إليه خلق الكبير وخلق الصغير :

« إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن. فيكون » . .

يكون هذا الشىء سماء أو أرضا . ويكون بعوضة أو نملة . هذا وذلك سواء أمام الكلمة . . كن . . فيكون !

ليس هناك صعب ولا سهل . وليس هنالك قريب ولا بعيد . . فتوجه الإرادة لخلق الشىء كاف وحده لوجوده كائنا مايكون . إنما يقرب الله للبشر الأمور ليدركوها بمقياسهم البشرى المحدود .

* * *

وعند هذا المقطع يجىء الإيقاع الأخير فى السورة . الإيقاع المصور لحقيقة العلاقة بين الوجود وخالق الوجود :

Marfat.com

Marfat.com

« فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء . وإليه ترجعون » . .

ولفظة ملكوت بصياغتها هذه تضخم وتعظم حقيقة هذه العلاقة . علاقة الملكية المطلقة لكل شىء فى الوجود . والسيطرة القابضة على كل شىء من هذا المملوك .

ثم إن إليه وحده المرجع والمصير . .

إنه الإيقاع الختامى المناسب لهذه الجولة الهائلة ، وللسورة كلها ، ولموضوعاتها المتعلقة بهذه الحقيقة الكبيرة ، التى يندرج فيها كل تفصيل . .

Marfat.com

سُورة الصّافات مكيّة
وآياتها ١٨٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« وَٱلصَّافَّاتِ صَفًّا ① فَٱلزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَٱلتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ * رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَارِقِ .

« إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ، وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ .

« فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ؟ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ * بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ * وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ .

« وَقَالُوا : إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ * أَوَآبَاؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ؟ * قُلْ : نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ * وَقَالُوا : يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ .

« مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ؟ * بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا : إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ * قَالُوا : بَلْ لَمْ تَكُونُوا

مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ
رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ *
إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ .

« إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ : لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ : أَإِنَّا
لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ * بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ * إِنَّكُمْ لَذَائِقُو
الْعَذَابِ الْأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

« إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ *
فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ
لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ *
كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : إِنِّي
كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ : أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا
لَمَدِينُونَ ؟

« قَالَ : هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ؟ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ : تَاللَّهِ إِنْ
كِدْتَ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ .

« أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ؟* إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ .

« أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ؟* إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ
تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ
مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ » ⑱

Marfat.com

Marfat.com

هذه السورة المكية ـ كسابقتها ـ قصيرة الفواصل ، سريعة الإيقاع ، كثيرة المشاهد والمواقف ، متنوعة الصور والظلال ، عميقة المؤثرات ، وبعضها عنيف الوقع ، عنيف التأثير.

وهى تستهدف ـ كسائر السور المكية ـ بناء العقيدة فى النفوس ، وتخليصها من شوائب الشرك فى كل صوره وأشكاله . ولكنها ـ بصفة خاصة ـ تعالج صورة معينة من صور الشرك التى كانت سائدة فى البيئة العربية الأولى . وتقف أمام هذه الصورة طويلا ؛ وتكشف عن زيفها وبطلانها بوسائل شتى . . تلك هى الصورة التى كانت جاهلية العرب تستسيغها ، وهى تزعم أن هناك قرابة بين الله ـ سبحانه ـ وبين الجن . وتستطرد فى تلك الأسطورة فتزعم أنه من التزاوج بين الله ـ تعالى ـ والجنة ولدت الملائكة . ثم تزعم أن الملائكة إناث ، وأنهن بنات الله !

هذه الأسطورة تتعرض لحملة قوية فى هذه السورة ؛ تكشف عن تهافتها وسخفها . ونظرا لأنها هى الموضوع البارز الذى تعالجه السورة ، فإنها تبدأ بالإشارة إلى طوائف من الملائكة : « والصافات صفا . فالزاجرات زجرا : فالتاليات ذكرا » . . ويتلوها حديث عن الشياطين المردة ، وتعرضهم للرجم بالشهب الثاقبة كى لا يقربوا من الملأ الأعلى . ولا يتسمعوا لما يدور فيه ؛ ولو كانوا حيث تزعم لهم أساطير الجاهلية ما طوردوا هذه المطاردة ! كذلك يشبه ثمار شجرة الزقوم التى يعذب بها الظالمون فى جهنم بأنها كرؤوس الشياطين فى معرض التقبيح والتفظيع ! وفى نهاية السورة تأتى الحملة المباشرة على تلك الأسطورة المتهافتة : « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ؟ أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ؟ ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين ؟ مالكم كيف تحكمون ؟ أفلا تذكرون ؟ أم لكم سلطان مبين ؟ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين . وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون .. سبحان الله عما يصفون ! » . .

وإلى جانب علاج هذه الصورة الخاصة من صور الشرك الجاهلية تتناول السورة جوانب العقيدة الأخرى التى تتناولها السور المكية . فتثبت فكرة التوحيد مستدلة بالكون المشهود : « إن إلهكم لواحد رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق » . . وتنص على أن الشرك هو السبب فى عذاب المعذبين فى ثنايا مشهد من مشاهد القيامة : « فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون . إنا كذلك نفعل بالمجرمين . إنهم كانوا إذا قيل لهم : لا إله إلا الله يستكبرون ،

ويقولون : أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ؟ بل جاء بالحق وصدق المرسلين . إنكم لذائقو العذاب الأليم . وما تجزون إلا ما كنتم تعملون » . .

كذلك تتناول قضية البعث والحساب والجزاء . « وقالوا : إن هذا إلا سحر مبين . أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ قل نعم وأنتم داخرون » . . ثم تعرض بهذه المناسبة مشهدا مطولا فريدا من مشاهد القيامة الحافلة بالمناظر والحركات والانفعالات والمفاجآت !

وتعرض لقضية الوحى والرسالة الذى ورد من قولهم : « أإنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ؟ » والرد عليهم : « بل جاء بالحق وصدق المرسلين » . .

وبمناسبة ضلالهم وتكذيبهم تعرض سلسلة من قصص الرسل : نوح وإبراهيم وبنيه . وموسى وهارون . وإلياس . ولوط . ويونس . تتكشف فيها رحمة الله ونصره لرسله وأخذه للمكذبين بالعذاب والتنكيل : « ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين . ولقد أرسلنا فيهم منذرين فانظر كيف كان عاقبة المنذرين . إلا عباد الله المخلصين » . .

وتبرز فى هذا القصص قصة إبراهيم خاصة مع ابنه اسماعيل . قصة الذبح والفداء وتبرز فيها الطاعة والاستسلام لله فى أروع صورها وأعمقها وأرفعها ؛ وتبلغ الذروة التى لا يبلغها إلا الإيمان الخالص الذى يرفع النفوس إلى ذلك الأفق السامق الوضيء .

* * *

والمؤثرات الموحية التى تصاحب عرض موضوعات السور وقضاياها ، تتمثل بشكل واضح فى :

مشهد السماء وكواكبها وشهبها ورجومها : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب . دحورا ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » . .

وفى مشاهد القيامة ومواقفها المثيرة ، ومفاجآتها الفريدة ، وانفعالاتها القوية . والمشاهد التى تحويها هذه السورة ذات طابع فريد حقا سنلمسه عند استعراضه تفصيلا فى مكانه من السورة .

وفى القصص ومواقفه وإيحاءاته . وبخاصة فى قصة إبراهيم وولده الذبيح إسماعيل – عليهما

Marfat.com

السلام وترتفع المؤثرات الموحية هنا إلى الذروة التى تهز القلوب هزا عميقا عنيفا .

ذلك إلى الإيقاع الموسيقى فى السورة وهو ذو طابع مميز يتفق مع صورها وظلالها ومشاهدها ومواقفها وإيحاءاتها المتلاحقة العميقة .

* * *

ويجرى سياق السورة فى عرض موضوعاتها فى ثلاثة أشواط رئيسية :

الشوط الأول يتضمن افتتاح السورة بالقسم بتلك الطوائف من الملائكة : والصافات صفا . فالزاجرات زجرا . فالتاليات ذكرا على وحدانية الله رب المشارق ، مزين السماء بالكواكب . ثم تجىء مسألة الشياطين وتسمعهم للملأ الأعلى ورجمهم بالشهب الثاقبة . يتلوها سؤالهم : « أهم أشد خلقا » أم تلك الخلائق : الملائكة والسماء والكواكب والشياطين والشهب؟ للتوصل من هذا إلى تسفيه ما كانوا يقولونه عن البعث ، وإثبات ما كانوا يستبعدونه ويستهزئون بوقوعه . ومن ثم يعرض ذلك المشهد المطول للبعث والحساب والنعيم والعذاب . وهو مشهد فريد . .

والشوط الثانى يبدأ بأن هؤلاء الضالين لهم نظائر فى السابقين ، الذين جاءتهم النذر فكان أكثرهم من الضالين . ويستطرد فى قصص أولئك المنذرين من قوم نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس ولوط ويونس ؛ وكيف كانت عاقبة المنذرين وعاقبة المؤمنين .

والشوط الثالث يتحدث عن تلك الأسطورة التى مر ذكرها . أسطورة الجن والملائكة . ويقرر كذلك وعد الله لرسله بالظفر والغلبة : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون » . . وينتهى بختام السورة بتنزيه الله سبحانه والتسليم على رسله والاعتراف بربوبيته : « سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين » . . وهى القضايا التى تتناولها السورة فى الصميم . .

والآن نأخذ فى التفصيل :

* * *

« والصافات صفا ، فالزاجرات زجرا ، فالتاليات ذكرا ، إن إلهكم لواحد . رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق » . .

Marfat.com

Marfat.com

والصافات والزاجرات والتاليات . . . طوائف من الملائكة ذكرها هنا بأعمالها التى يعلمها . والتى يجوز أن تكون هى الصافات قوائمها فى الصلاة ، أو أجنحتها فى ارتقاب أمر الله . والزاجرات لمن يستحق الزجر من العصاة فى أثناء قبض أرواحهم مثلا أو عند الحشر والسوق إلى جهنم أو فى أية حالة وفى أى موضع . والتاليات للذكر . القرآن أو غيره من كتب الله أو المسبحات بذكر الله .

يقسم الله سبحانه بهذه الطوائف من الملائكة على وحدانيته : « إن إلهكم لواحد » . . ومناسبة هذا القسم ـ كما أسلفنا ـ هو تلك الأسطورة التى كانت شائعة فى جاهلية العرب من نسبة الملائكة إلى الله ، واتخاذهم آلهة بما أنهم ـ بزعمهم ـ بنات الله !

ثم يعرف الله عباده بنفسه فى صفته المناسبة للوحدانية :

« رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق » . . .

وهذه السماوات والأرض قائمة حيال العباد ؛ تحدثهم عن الخالق البارىء المدبر لهذا الملكوت الهائل ؛ الذى لا يدعى أحد أنه يملك خلقه وتدبيره ؛ ولا يملك أحد أن يهرب من الاعتراف لخالقه بالقدرة المطلقة والربوبية الحقة . « وما بينهما » . . من هواء وسحاب ، وضوء ونور ، ومخلوقات دقيقة يعرف البشر شيئاً منها الحين بعد الحين ، ويخفى عليهم منها أكثر مما يكشف لهم !

والسماوات والأرض وما بينهما من الضخامة والعظمة والدقة والتنوع والجمال والتناسق بحيث لا يملك الإنسان نفسه أمامها ـ حين يستيقظ قلبه ـ من التأثر العميق ، والروعة البالغة، والتفكر الطويل . وما يمر الإنسان بهذا الخلق العظيم من غير ما تأثر ولا تدبر إلا حين يموت قلبه ، فيفقد التأثر والاستجابة لإيقاعات هذا الكون الحافل بالعجائب .

« ورب المشارق » . .

ولكل نجم مشرق ، ولكل كوكب مشرق ، فهى مشارق كثيرة فى كل جانب من جوانب السماوات الفسيحة . . وللتعبير دلالة أخرى دقيقة فى التعبير عن الواقع فى هذه الأرض التى نعيش عليها كذلك . فالأرض فى دورتها أمام الشمس تتوالى المشارق على بقاعها المختلفة ـ كما تتوالى المغارب ـ فكلما جاء قطاع منها أمام الشمس كان هناك مشرق على هذا القطاع ، وكان هناك مغرب على القطاع المقابل له فى الكرة الأرضية . حتى إذا تحركت الأرض كان هناك

مشرق آخر على القطاع التالى ومغرب آخر على القطاع المقابل له وهكذا ... وهى حقيقة ما كان يعرفها الناس فى زمان نزول القرآن الكريم ؛ ولكن خبرهم بها الله فى ذلك الزمان القديم !

وهذا النظام الدقيق فى توالى المشارق على هذه الأرض . وهذا البهاء الرائع الذى يغمر الكون فى مطالع المشارق .. كلاهما جدير بأن يوقع فى القلب البشرى من التأثرات الموحية ، ما يهتف به إلى تدبر صنعة الصانع المبدع ، وإلى الإيمان بوحدانية الخالق المدبر ، بما يبدو من آثار الصنعة الموحدة التى لا اختلاف فى طابعها الدقيق الجميل .

تلك هى مناسبة ذكر هذه الصفة من صفات الله الواحد فى هذا المقام . وسنرى أن ذكر السماء وذكر المشارق له مناسبة أخرى فيما يلى هذه الآيات من السورة . عند الحديث عن الكواكب والشهب والشياطين والرجوم . . .

* * *

« إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظا من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب ، دحورا ولهم عذاب واصب ، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » .

بعد ما مس فى مطلع السورة شطر الأسطورة الخاص بالملائكة ، عاد يمس هنا شطرها الثانى وهو الخاص بالشياطين . وكانوا يزعمون أن بين الله وبين الجنة نسبا . وبعضهم كانوا يعبدون الشياطين على هذا الأساس . وعلى أساس أن الشياطين يعرفون الغيب لاتصالهم بالملأ الأعلى . .

وبعد ذكر السماوات والأرض وما بينهما وذكر المشارق . إما مشارق النجوم والكواكب . وإما المشارق المتوالية على قطاعات الأرض . وإما هذه وتلك وأنوارها وأضواؤها . . يجىء ذكر الكواكب :

« إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » ..

ونظرة إلى السماء كافية لرؤية هذه الزينة ؛ ولإدراك أن الجمال عنصر مقصود فى بناء هذا الكون ؛ وأن صنعة الصانع فيه بديعة التكوين جميلة التنسيق ؛ وأن الجمال فيه فطرة عميقة لا عرض سطحى ؛ وأن تصميمه قائم على جمال التكوين كما هو قائم على كمال الوظيفة سواء بسواء . فكل شىء فيه بقدر ، وكل شىء فيه يؤدى وظيفته بدقة ؛ وهو فى مجموعه جميل .

Marfat.com

Marfat.com

والسماء . وتناثر الكواكب فيها ، أجمل مشهد تقع عليه العين . ولا تمل طول النظر إليه . وكل نجمة يوصوص بضوئها وكل كوكب يوصوص بنوره ؛ وكأنه عين محبة تخالسك النظر ؛ فإذا أنت حدقت فيها أغمضت وتوارت ؛ وإذا أنت التفت عنها أبرقت ولمعت ! وتتبع مواقعها وتغير منازلها ليلة بعد ليلة وآنا بعد آن متعة نفسية لا تملها النفس أبدا !

ثم تقرر الآية التالية أن لهذه الكواكب وظيفة أخرى ، وأن منها شهبا ترجم بها الشياطين كي لا تدنو من الملأ الأعلى :

« وحفظا من كل شيطان مارد . لايسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » ..

فمن الكواكب رجوم تحفظ السماء من كل شيطان عات متمرد وتذوده عن الاستماع إلى مايدور فى الملأ الأعلى ؛ فإذا حاول التسمع تلقفته الرجوم من كل جانب ، فتدحره دحرا، وله فى الآخرة عذاب موصول لا ينقطع . ولقد يخطف الشيطان المارد خطفة سريعة مما يدور فى الملأ الأعلى ، فيتبعه شهاب يلاحقه فى هبوطه فيصيبه ويحرقه حرقا .

ونحن لانعرف كيف يتسمع الشيطان المارد ؛ ولا كيف يخطف الخطفة ؛ ولا كيف يرجم بالشهاب الثاقب . لأن هذه كلها غيبيات تعجز طبيعتنا البشرية عن تصور كيفياتها ؛ ومجالنا فيها هو تصديق ماجاء من عند الله فيها . وهل نعلم عن شىء فى هذا الكون إلا القشور ؟!

والمهم أن هذه الشياطين التى تمنع من الوصول إلى الملأ الأعلى ، ومن التسمع لما يدور فيه هى التى يدعى المدعون أن بينها وبين الله نسبا ، ولو كان شىء من هذا صحيحا لتغير وجه المعاملة . ولما كان مصير الأنسباء والأصهار – بزعمهم – هو المطاردة والرجم والحرق أبدا !

* * *

وبعد ذكر الملائكة . وذكر السماوات والأرض وما بينهما . وذكر الكواكب التى تزين السماء الدنيا . وذكر الشياطين المردة والقذائف التى تلاحقها . يكلف الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يسألهم أهم أشد خلقا أم هذه الخلائق ؟ وإذا كانت هذه الخلائق أشد وأقوى فقيم يدهشون لقضية البعث ويسخرون منها ، ويستبعدون وقوعها ، وهى لا تقاس إلى خلق تلك الخلائق الكبرى :

« فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا ؟ إنا خلقناهم من طين لازب . بل عجبت ويسخرون .

وإذا ذكروا لا يذكرون . وإذا رأوا آية يستسخرون : وقالوا : إن هذا إلا سحر مبين . أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ؟ أوآباؤنا الأولون ؟ » .

فاستفتهم واسألهم إذا كانت الملائكة والسماوات والأرض وما بينهما والشياطين والكواكب والشهب كلها من خلق الله . فهل خلقهم هم أشد وأصعب من خلق هذه الأكوان والخلائق ؟

ولا ينتظر منهم جوابا ، فالأمر ظاهر ؛ إنما هو سؤال الاستنكار والتعجيب من حالهم العجيب . وغفلتهم عما حولهم ، والسخرية من تقديرهم للأمور . ومن ثم يعرض عليهم مادة خلقهم الأولى . وهي طين رخو لزج من بعض هذه الأرض ، التي هي إحدى تلك الخلائق :

« إنا خلقناهم من طين لازب » . .

فهم قطعا ليسوا أشد خلقا من تلك الخلائق ! وموقفهم إذن عجيب . وهم يسخرون من آيات الله ، ومن وعده لهم بالبعث والحياة . وسخريتهم هذه تثير العجب في نفس الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهم في موقفهم سادرون :

« بل عجبت ويسخرون . وإذا ذكروا لا يذكرون . وإذا رأوا آية يستسخرون » . .

وحق لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يعجب من أمرهم . فإن المؤمن الذي يرى الله في قلبه كما يراه محمد - صلى الله عليه وسلم - ويرى آيات الله واضحة هذا الوضوح ، كثيرة هذه الكثرة ، يعجب - لاشك - ويدهش كيف يمكن أن تعمى عنها القلوب ؟ وكيف يمكن أن تقف منها هذا الموقف العجيب !

وبينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعجب منهم هذا العجب، إذا هم يسخرون من القضية الواضحة التي يعرضها عليهم ، سواء في وحدانية الله ، أو في شأن البعث والنشور . وإذا هم مطموسون لا تتفتح قلوبهم للتذكير . وإذا هم يتلقون آيات الله بالسخرية الشديدة ، والتعجيب منهم إياها ، واستدعاء أسباب السخرية وطلبها طلبا كما يوحي لفظ « يستسخرون » !

ومن ذلك وصفهم القرآن بأنه سحر ، وعجبهم مما يعدهم به من البعث :

« وقالوا : إن هذا إلا سحر مبين . أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ » . .

Marfat.com

Marfat.com

لقد غفلوا عن آثار قدرة الله فيما حولهم ، وفى ذات أنفسهم . غفلوا عن آثار هذه القدرة فى خلق السماوات والأرض وما بينهما ؛ وفى خلق الكواكب والشهب ؛ وفى خلق الملائكة والشياطين ؛ وفى خلقهم هم أنفسهم من طين لازب . . غفلوا عن آثار القدرة فى هذا كله ووقفوا يستبعدون على هذه القدرة أن تعيدهم إذا ماتوا وصاروا ترابا وعظاما ، هم وآباؤهم الأولون ! وما فى هذا البعث والإعادة من غريب على تلك القدرة ولا بعيد ؛ لمن يتأمل هذا الواقع ويتدبره أقل تدبر ؛ فى ضوء هذه المشاهدات التى تحيط بهم فى الآفاق وفى أنفسهم .

* * *

وإذ كانوا لايتدبرون هذه المشاهدات فى هوادة ويسر ، وفى طمأنينة وهدوء . فهو يوقظهم إذن بشدة وعنف ، على مشهدهم فى الآخرة مبعوثين . ويصور لهم ذلك المشهد وهم فيه يضطربون[1] :

« قل : نعم وأنتم داخرون » ..

نعم ستبعثون أنتم وآباؤكم الأولون . ستبعثون وأنتم داخرون ، ذلولون ، مستسلمون . غير مستعصين ولا متأبين .. نعم . . ثم يدخل فى استعراض ذلك كيف يكون . وإذا هم أمام مشهد من المشاهد المطولة المتعددة الجوانب . المتنوعة الأساليب . المزدحمة بالمناظر الحية والحركات المتتابعة . يلتقى فيها الوصف بالحوار . فتسير على نسق الحكاية نترة ، ثم تنتقل إلى نسق الحوار أخرى . ويتخلل عرض الأحداث والحركات تعليقات وتعقيبات عليها . وبذلك ستكمل المشهد كل سمات الحياة :

« فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون » ..

هكذا فى ومضة خاطفة بمقدار ماتنبعث صيحة واحدة . تسمى « زجرة » للدلالة على لون من الشدة فيها ، والعنف فى توجيهها ، والاستعلاء فى مصدرها .. « فإذا هم ينظرون » .. فجأة وبلا تمهيد أو تحضير . وإذا هم يصيحون مبهوتين :

« قالوا : ياويلنا . هذا يوم الدين » ..

وبينما هم فى بهتتهم وبغتتهم إذا صوت يحمل إليهم التقريع من حيث لا يتوقعون :

« هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون » .. !

(١) نستعير هنا فى تفسير هذا المشهد صفحات من كتاب : « مشاهد القيامة فى القرآن » مع تصرف قليل.

وهكذا ينتقل السياق من الخبر إلى الخطاب موجها لمن كانوا يكذبون بيوم الدين . وإن ... هى إلا تقريعة واحدة حاسمة . ثم يوجه الأمر إلى الموكلين بالتنفيذ :

« احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم . وقفوهم إنهم مسؤولون » .

احشروا الذين ظلموا ومن هم على شاكلتهم من المذنبين ، فهم أزواج متشاكلون .. وفى الأمر - على ما فيه من لهجة جازمة - تهكم واضح فى قوله : « فاهدوهم إلى صراط الجحيم » .. فما أعجبها من هداية خير منها الضلال . وإنها لهى الرد المكافىء لما كان منهم من ضلال عن الهدى القويم . وإذ لم يهتدوا فى الدنيا إلى الصراط المستقيم ، فليهتدوا اليوم إلى صراط الجحيم !

وهاهم أولاء قد هدوا . هدوا إلى صراط الجحيم . ووقفوا على استعداد للسؤال . وهاهو ذا الخطاب يوجه إليهم بالتقريع فى صورة سؤال برىء !

« مالكم لا تناصرون ؟ » !

مالكم لا ينصر بعضكم بعضا ، وأنتم هنا جميعا ؟ وكلكم فى حاجة إلى الناصر المعين ؟ ! ومعكم آلهتكم التى كنتم تعبدون !

ولا جواب بطبيعة الحال ولا كلام ! إنما يرد التعليق والتعقيب :

« بل هم اليوم مستسلمون » ..

عابدين . ومعبودين !!!

ثم يعود السياق مرة أخرى إلى الحكاية ، ويعرض مشهدهم يجادل بعضهم بعضا :

« وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا : إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين » ..

أى كنتم توسوسون لنا عن يميننا - كما هو المعتاد فى حالة الوسوسة بالأسرار غالبا - فأنتم مسؤولون عما نحن فيه .

وعندئذ ينبرى المتهمون لتسفيه هذا الاتهام ، وإلقاء التبعة على موجهيه :

« قالوا : بل لم تكونوا مؤمنين » ..

فلم تكن وسوستنا هى التى أغوتكم بعد إيمان ، وأضلتكم بعد هدى ..

« وما كان لنا عليكم من سلطان » ..

Marfat.com

نرغمكم به على قبول مانراه ، ونضطركم إليه اضطراراً لا ترغبون فيه .

« بل كنتم قوما طاغين » . .

متجاوزين للحق ، ظالمين لا تقفون عند حد .

« فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون » . .

فاستحققنا نحن وأنتم العذاب ، وحق علينا الوعيد بأن نذوق العذاب .

وقد انزلقتم معنا بسبب استعدادكم للغواية ، وما فعلنا بكم إلا أنكم اتبعتمونا في غوايتنا :

« فأغويناكم إنا كنا غاوين » . .

وهنا يرد تعليق آخر ، وكأنه حكم يعلن على رؤوس الأشهاد ، يحمل أسبابه ، ويعرض ماكان منهم فى الدنيا مما حقق قول الله عليهم فى الآخرة :

« فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون . إنا كذلك نفعل بالمجرمين . إنهم كانوا إذا قيل لهم : لا إله إلا الله يستكبرون ؛ ويقولون : أإنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون » .

ثم يكمل التعليق متوجها فيه بالتأنيب والتقبيح لقائلى هذا الكلام المرذول :

« بل جاء بالحق وصدق المرسلين . إنكم لذائقو العذاب الأليم . وما تجزون إلا ما كنتم تعملون . إلا عباد الله المخلصين » . .

وعلى ذكر عباد الله المخلصين ـ الذين استثناهم من تذوق العذاب الأليم ـ يعرض صفحة هؤلاء العباد المخلصين فى يوم الدين . ويعود العرض متبعا نسق الإخبار المصور للنعيم الذى يتقلبون فى أعطافه ـ فى مقابل ذلك العذاب الأليم للمكذبين ـ :

« أولئك لهم رزق معلوم . فواكه وهم مكرمون . فى جنات النعيم . على سرر متقابلين . يطاف عليهم بكأس من معين . بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون . وعندهم قاصرات الطرف عين . كأنهن بيض مكنون ... » .

وهو نعيم مضاعف يجمع كل مظاهر النعيم . نعيم تستمتع به النفس ويستمتع به الحس . وتجد فيه كل نفس ما تشتهيه من ألوان النعيم .

فهم ـ أولا ـ عباد الله المخلصون . وفى هذه الإشارة أعلى مراتب التكريم . وهم ـ ثانيا ـ « مكرمون » فى الملأ الأعلى . وياله من تكريم ! ثم إن لهم « فواكه » وهم على « سرر متقابلين » . وهم يخدمون فلا يتكلفون شيئاً من الجهد فى دار الراحة والرضوان والنعيم :

Marfat.com

« يطاف عليهم بكأس من معين . بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون » . . وتلك أجمل أوصاف الشراب ، التي تحقق لذة الشراب ، وتنفي عقابيله . فلا خمار يصدع الرؤوس ، ولا منع ولا انقطاع يذهب بلذة المتاع ! « وعندهم قاصرات الطرف عين » حور حييات لا تمتد أبصارهن إلى غير أصحابهن حياء وعفة ، مع أنهن « عين » واسعات جميلات العيون ! وهن كذلك مصونات مع رقة ولطف ونعومة : « كأنهن بيض مكنون » . . لاتبتذله الأيدي ولا العيون !

ثم يمضي في الحكاية المصورة ؛ فإذا عباد الله المخلصون هؤلاء ـ بعد ما يسرت لهم كل ألوان المتاع ـ ينعمون بسمر هادئ ، يتذاكرون فيه الماضي والحاضر ـ وذلك في مقابل التخاصم والتلاحي الذي يقع بين المجرمين في أول المشهد ـ وإذا أحدهم يستعيد ماضيه ، ويقص على إخوانه طرفا مما وقع له :

« قال قائل منهم : إني كان لي قرين . يقول : أإنك لمن المصدقين . أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمدينون ؟ » . .

لقد كان صاحبه وقرينه ذاك يكذب باليوم الآخر ، ويسائله في دهشة : أهو من المصدقين بأنهم مبعوثون فمحاسبون بعد إذ هم تراب وعظام ؟ !

وبينما هو ماض في قصته يعرضها في سمره مع إخوانه ، يخطر له أن يتفقد صاحبه وقرينه ذاك ليعرف مصيره . وهو يعرف بطبيعة الحال أنه قد صار إلى الجحيم . فيتطلع ويدعو إخوانه إلى التطلع معه :

قال : « هل أنتم مطلعون ؟ فاطلع فرآه في سواء الجحيم » . .

عندئذ يتوجه إلى قرينه الذي وجده في وسط الجحيم . يتوجه إليه ليقول له : ياهذا . لقد كدت توردني موارد الردى بوسوستك . لولا أن الله قد أنعم علي ، فعصمني من الاستماع إليك:

« قال : تالله إن كدت لتردين . ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين » . .

أي لكنت من الذين يساقون إلى الموقف وهم كارهون .

وتثير رؤيته لقرينه في سواء الجحيم شعوره بجزالة النعمة التي نالها هو وإخوانه من عباد الله المخلصين . فيحب أن يؤكدها ويستعرضها ، ويطمئن إلى دوامها ، تلذذا بها وزيادة في المتاع بها فيقول :

Marfat.com

Marfat.com

« أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى ؟ وما نحن بمعذبين ؟ إن هذا لهو الفوز العظيم » . .

وهنا يرد تعليق يوقظ القلوب ويوجهها إلى العمل والتسابق لمثل هذا المصير :

« لمثل هذا » النعيم الذى لا يدركه فوت ، ولا يخشى عليه من نفاد ، ولا يعقبه موت ، ولا يتهدده العذاب. لمثل هذا فليعمل العاملون . . فهذا هو الذى يستحق الاحتفال . وما عداه مما ينفق فيه الناس أعمارهم على الأرض زهيد زهيد حين يقاس إلى هذا الخلود .

ولكى يتضح الفارق الهائل بين هذا النعيم الخالد الآمن الدائم الراضى ؛ والمصير الآخر الذى ينتظر الفريق الآخر . فإن السياق يستطرد إلى ما ينتظر هذا الفريق بعد موقف الحشر والحساب الذى ورد فى مطلع المشهد الفريد :

« أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ! إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كأنه رؤوس الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون . ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم . ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم » . .

أذلك النعيم المقيم خير منزلا ومقاما أم شجرة الزقوم ؟

وما شجرة الزقوم ؟

« إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كأنه رؤوس الشياطين » . .

والناس لا يعرفون رؤوس الشياطين كيف تكون ! ولكنها مفزعة ولا شك . ومجرد تصورها يثير الفزع والرعب . فكيف إذا كانت طلعا يأكلونه ويملأون منه البطون ؟ !

لقد جعل الله هذه الشجرة فتنة للظالمين . فحين سمعوا باسمها سخروا وقالوا : كيف تنبت شجرة فى الجحيم ولا تحترق . وقال قائل منهم هو أبو جهل ابن هشام يسخر ويتفكه : « يامعشر قريش هل تدرون ما شجرة الزقوم التى يخوفكم بها محمد ؟ قالوا : لا . قال : عجوة يثرب بالزبد ! والله لئن استمكنا منها لنزقمنها تزقما » ولكن شجرة الزقوم هذه شىء آخر غير ذلك الطعام الذى كانوا يعرفون !

« فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون » . .

فإذا شاكت حلوقهم وهى كرؤوس الشياطين ـ وحرقت بطونهم ـ وهى تنبت فى أصل الجحيم ولا تحترق لأنها من نوع الجحيم ! ـ وتطلعوا إلى برد الشراب ينقع الغلة ويطفىء

اللهيب . فإنهم لشاربون عليها ماء ساخنا مشوبا غـــير خالص : « ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم » . .

وبعد هـــذه الوجبة يغادرون تلك المائدة عائدين إلى مقرهم المقيم . ويا له من نزل ! ويا له من معاد !

« ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم » . . .

بذلك يختم المشهد الفريد . وينتهي الشوط الأول من السورة . وكأنما كان قطعة من الواقع المشهود .

« إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ * وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ .

« وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ .

« وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَإِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ؟ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ : إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ : أَلَا تَأْكُلُونَ ؟ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ؟ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ : أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ؟ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ؟ * قَالُوا : ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ * وَقَالَ : إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ

Marfat.com

Marfat.com

مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ : يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ، فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَى ؟ . قَالَ :
يَا أَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ
وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَا ، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا
لَهُوَ ٱلْبَلَاءُ ٱلْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ
إِبْرَاهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ
نَبِيًّا مِنَ ٱلصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ
مُبِينٌ .

« وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ *
وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ ٱلْغَالِبِينَ * وَآتَيْنَاهُمَا ٱلْكِتَابَ ٱلْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا ٱلصِّرَاطَ
ٱلْمُسْتَقِيمَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي ٱلْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ
نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ .

« وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : أَلَا تَتَّقُونَ ؟ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا
وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَالِقِينَ * ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ
لَمُحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ
إِلْيَاسِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ .

« وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَابِرِينَ *
ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟

« وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ
مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ * فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ
فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِٱلْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِن
يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ » ١٤٨

فى هـــذا الدرس يعود السياق من الجولة الأولى فى ساحة الآخرة ، وفى مجالى النعم ودارات العذاب ، يعود ليستأنف جولة أخرى فى تاريخ البشر مع آثار الذاهبين الأولين ، يعرض فيها قصة الهـدى والضلال منذ فجر البشرية الأولى ؛ فإذا هى قصة مكرورة معادة ؛ وإذا القوم الذين يواجهون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مكة بالكفر والضلال بقية من أولئك المكذبين الضالين . ويكشف لهؤلاء عما جرى لمن كان قبلهم ، ويلمس قلوبهم بهـذه الصفحات المطوية فى بطون التاريخ . ويطمئن المؤمنين برعاية الله التى لم تتخل فى الماضى عن المؤمنين .

وفى هذا السياق يستعرض طرفا من قصص نوح ، وإبراهيم ، وإسماعيل وإسحاق ، وموسى وهارون ، وإلياس ، ولوط ، ويونس . . ويقف وقفة أطول أمام قصة إبراهيم وإسماعيل . يعرض فيها عظمة الإيمان والتضحية والطاعة ، وطبيعة الإسلام الحقيقية كما هى فى نفسى إبراهيم وإسماعيل ، فى حلقة لا تعرض فى غير هـذه السورة ، ولا ترد إلا فى هذا السياق . . وهـذا القصص هو قوام هذا الدرس الأصيل . .

* * *

« إنهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون . ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين . ولقد أرسلنا فيهم منذرين . فانظر كيف كان عاقبة المنذرين . إلا عباد الله المخلصين » . .

إنهم عريقون فى الضلالة ، وهم فى الوقت ذاته مقلدون لا يفكرون ولا يتدبرون ؛ بل يطيرون معجلين يقفون خطى آبائهم الضالين غير ناظرين ولا متعقلين :

« إنهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون » . .

وهم وآباؤهم صورة من صور الضلال التى يمثلها أكثر الأولين :

« ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين » . .

وكان ضلالهم بعد الإنذار والتحذير :

« ولقد أرسلنا فيهم منذرين » . .

ولكن كيف كانت العاقبة ؟ كيف كانت عاقبة المكذبين ؟ وكيف كانت عاقبة عباد الله المخلصين ؟ إنها معروضة فى سلسلة القصص . وهذا الإعلان فى مقدمتها للتنبيه :

Marfat.com

Marfat.com

« فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ، إلا عباد الله المخلصين » ...

* * *

ويبدأ بقصة نوح فى إشارة سريعة تبين العاقبة ، وتقرر عناية الله بعباده المخلصين :

« ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون . ونجيناه وأهله من الكرب العظيم . وجعلنا ذريته هم الباقين . وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على نوح فى العالمين . إنا كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . ثم أغرقنا الآخرين » . .

وتتضمن هذه الإشارة توجه نوح بالنداء إلى ربه ، وإجابة دعوته إجابة كاملة وافية . إجابتها من خير مجيب . الله سبحانه . « فلنعم المجيبون » . . وتتضمن نجاته هو وأهله من الكرب العظيم . كرب الطوفان الذى لم ينج منه إلا من أراد له الله النجاة وقدر له الحياة . . وتتضمن قدر الله بأن يجعل من ذرية نوح عمارا لهذه الأرض وخلفاء . وأن يبقى ذكره فى الأجيال الآتية إلى آخر الزمان : « وتركنا عليه فى الآخرين » . . وتعلن فى الخافقين سلام الله على نوح . جزاء إحسانه : «سلام على نوح فى العالمين . إنا كذلك نجزى المحسنين » . . وأى جزاء بعد سلام الله . والذكر الباقى مدى الحياة ! أما مظهر الإحسان وسبب الجزاء فهو الإيمان : « إنه من عبادنا المؤمنين » .. وهذه هى عاقبة المؤمنين . . فأما غير المؤمنين من قوم نوح فقد كتب الله عليهم الهلاك والفناء : « ثم أغرقنا الآخرين » . . ومضت سنة الله منذ فجر البشرية البعيد . وفق ذلك الإجمال فى مقدمة القصص : « ولقد أرسلنا فيهم منذرين . فانظر كيف كان عاقبة المنذرين . إلا عباد الله المخلصين » . .

* * *

ثم تجىء قصة إبراهيم . تجىء فى حلقتين رئيسيتين : حلقة دعوته لقومه ، وتحطيم الأصنام ، وهمهم به ليقتلوه ، وحماية الله له وخذلان شانئيه ــ وهى حلقة تكررت من قبل فى سور القرآن ــ وحلقة جديدة لا تعرض فى غير هذه السورة . وهى الخاصة بحادث الرؤيا والذبح والفداء ، مفصلة المراحل والخطوات والمواقف ، فى أسلوبها الأخاذ وأدائها الرهيب ! ممثلة أعلى صور الطاعة والتضحية والفداء والتسليم فى عالم العقيدة فى تاريخ البشرية الطويل .

« وإن من شيعته لإبراهيم . إذ جاء ربه بقلب سليم . إذ قال لأبيه وقومه : ماذا تعبدون؟ أإفكا آلهة دون الله تريدون ؟ فما ظنكم برب العالمين ؟ » ..

هـذا هو افتتاح القصة ، والمشهد الأول فيها . . نقلة من نوح إلى إبراهيم . وبينهما صلة من العقيدة والدعوة والطريق . فهو من شيعة نوح على تباعد الزمان بين الرسولين والرسالتين ؛ ولـكنه المنهج الإلهي الواحد ، الذي يلتقيان عنده ويرتبطان به ويشتركان فيه .

ويبرز من صفة إبراهيم سلامة القلب وصحة العقيدة وخلوص الضمير :

« إذ جاء ربه بقلب سليم » . .

وهي صورة الاستسلام الخالص . تتمثل في مجيئه لربه . وصورة النقاء والطهارة والبراءة والاستقامة تتمثل في سلامة قلبه . والتعبير بالسلامة تعبير موح مصور لمدلوله . وهو في الوقت ذاته بسيط قريب المعنى واضح المفهوم . ومع أنه يتضمن صفات كثيرة من البراءة والنقاوة ، والإخلاص والاستقامة ... إلا أنه يبدو بسيطا غير معقد ، ويؤدي معناه بأوسع مما تؤديه هذه الصفات كلها مجتمعات ! وتلك إحدى بدائع التعبير القرآني الفريد .

وبهذا القلب السليم ، استنكر ما عليه قومه واستبشعه . استنكار الحس السليم لـكل ما تنبو عنه الفطرة الصادقة من تصور ومن سلوك :

« إذ قال لأبيه وقومه : ماذا تعبدون ؟ أإفـكا آلهة دون الله تريدون ؟ فما ظنكم برب العالمين ؟ » . . وهو يراهم يعبدون أصناما وأوثانا . فيهتف بهم هتاف الفطرة السليمة في استنكار شديد . « ماذا تعبدون ؟ » ماذا ؟ فإن ماتعبدونه ليس من شأنه أن يعبد ، ولا أن يكون له عابدون ! وما يعبده الإنسان في شبهة من حق . إنما هو الإفك المحض . والافتراء الذي لاشبهة فيه . فهل أنتم تقصدون إلى الإفك قصدا وإلى الافتراء عمدا : « أإفكا آلهة دون الله تريدون ؟ » وما هو تصوركم لله ؟ وهل يهبط وينحرف إلى هذا المستوى الذي تنكره الفطرة لأول وهلة : « فما ظنكم برب العالمين ؟ » . . وهي كلمة يبدو فيها استنكار الفطرة السليمة البريئة ، وهي تطلع على الأمر البين الذي يصدم الحس والعقل والضمير .

ويسقط السياق هنا ردهم عليه ، وحوارهم معه ؛ ويمضي مباشرة في المشهد التالي إلى عزمته التي قررها في نفسه تجاه هذا الإفك المكشوف :

«فنظر نظرة في النجوم . فقال : إني سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال : ألا تأكلون ؟ مالـكم لا تنطقون ؟ فراغ عليهم ضربا باليمين » . .

ويروى أنه كان للقوم عيد ـ ربما كان هو عيد النيروز ـ يخرجون فيه إلى الحدائق

Marfat.com

Marfat.com

والحلوات ، بعد أن يضعوا الثمار بين يدى آلهتهم لتباركها . ثم يعودون بعد الفسحة والمرح فيأخذون طعامهم المبارك ! وأن إبراهيم – عليه السلام – بعد أن يئس من استجابتهم له ؛ وأيقن بانحراف فطرتهم الانحراف الذى لا صلاح له ، اعتزم أمرا . وانتظر هذا اليوم الذى يبعدون فيه عن المعابد والأصنام لينفذ مااعتزم . وكان الضيق بما هم فيه من انحراف قد بلغ منه أقصاه وأتعب قلبه وقواه . فلما دعى إلى مغادرة المعبد قلب نظره إلى السماء وقال : « إنى سقيم » . لا طاقة لى بالخروج إلى المتنزهات والخلوات . فإنما يخرج إليها طلاب اللذة والمتاع ، أخلياء القلوب من الهم والضيق – وقلب إبراهيم لم يكن فى راحة ونفسه لم تكن فى استرواح. قال ذلك معبراً عن ضيقه وتعبه . وأفصح عنه ليتركوه وشأنه . ولم يكن هذا كذبا منه. إنما كان له أصل فى واقع حياته فى ذلك اليوم . وإن الضيق ليمرض ويسقم ذويه !

وكان القوم معجلين ليذهبوا مع عاداتهم وتقاليدهم ومراسم حياتهم فى ذلك العيد ؛ فلم يتلبثوا ليفحصوا عن أمره ، بل تولوا عنه مدبرين ، مشغولين بما هم فيه . وكانت هذه هى الفرصة التى يريد .

لقد أسرع إلى آلهتهم المدعاة . وأمامها أطايب الطعام وبواكير الثمار . فقال فى تهكم : « ألا تأكلون ! » .. ولم تجبه الأصنام بطبيعة الحال . فاستطرد فى تهكمه وعليه طابع الغيظ والسخرية : « مالكم لا تنطقون ؟ » . . وهى حالة نفسية معهودة . أن يوجه الإنسان كلامه إلى مايعلم حقيقته ، ويستيقن أنه لا يسمع ولا ينطق ! إنما هو الضيق بما وراء الآلهة المزعومة من القوم وتصورهم السخيف ! . . ولم تجبه الآلهة مرة أخرى ! ! وهنا أفرغ شحنة الغيظ المكتوم حركة لا قولا : « فراغ عليهم ضربا باليمين » . . وشفى نفسه من السقم والهم والضيق . . . !

وينتهى هذا المشهد فيليه مشهد جديد . وقد عاد القوم فاطلعوا على جذاذ الآلهة ! ويختصر السياق مايفصله فى سورة أخرى من سؤالهم عمن صنع بآلهتهم هذا الصنع ، واستدلالهم فى النهاية على الفاعل الجرىء . يختصر هذا ليقفهم وجها لوجه أمام إبراهيم !

« فأقبلوا إليه يزفون » . .

لقد تسامعوا بالخبر ، وعرفوا من الفاعل ، فأقبلوا إليه يسرعون الخطى ويحدثون حوله زفيفا .. وهم جمع كثير غاضب هائج ، وهو فرد واحد . ولكنه فرد مؤمن . فرد يعرف

Marfat.com

طريقه . فرد واضح التصور لإلهه . عقيدته معروفة له محدودة . يدركها فى نفسه ، ويراها فى الـكون من حوله . فهو أقوى من هذه الـكثرة الهائجة المائجة ، المدخولة العقيدة ، المضطربة التصور . ومن ثم يجبههم بالحق الفطرى البسيط لا يبالى كثرتهم وهياجهم وزفيفهم !

« قال : أتعبدون ما تنحتون ؟ والله خلقكم وماتعملون ؟ » . .

إنه منطق الفطرة يصرخ فى وجههم : « أتعبدون ماتنحتون ؟ » . . والمعبود الحق ينبغى أن يكون هو الصانع لا المصنوع : « والله خلقكم وما تعملون » . . فهو الصانع الوحيد الذى يستحق أن يكون المعبود .

ومع وضوح هذا المنطق وبساطته ، إلا أن القوم فى غفلتهم وفى اندفاعهم لم يستمعوا له ـ ومتى استمع الباطل إلى صوت الحق البسيط ؟ ـ واندفع أصحاب الأمر والنهى فيهم يزاولون طغيانهم فى صورته الغليظة :

« قالوا : ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم » . .

إنه منطق الحديد والنار الذى لا يعرف الطغاة منطقا سواه ؛ عند ما تعوزهم الحجة وينقصهم الدليل . وحينما تحرجهم كلمة الحق الخالصة ذات السلطان المبين .

ويختصر السياق هنا ماحدث بعد قولتهم تلك ، ليعرض العاقبة التى تحقق وعد الله لعباده المخلصين ووعيده لأعدائهم المكذبين :

« فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين » . .

وأين يذهب كيد العباد إذا كان الله يريد ؟ وماذا يملك أولئك الضعاف المهازيل ـ من الطغاة والمتجبرين وأصحاب السلطان وأعوانهم من الـكبراء ـ إذا كانت رعاية الله تحوط عباده المخلصين ؟ . .

***

ثم تجىء الحلقة الثانية من قصة إبراهيم . . لقد انتهى أمره مع أبيه وقومه . لقد أرادوا به الهلاك فى النار التى أسموها الجحيم ، وأراد الله أن يكونوا هم الأخسرين ؛ ونجاه من كيدهم أجمعين .

عندئذ استدبر إبراهيم مرحلة من حياته ليستقبل مرحلة ؛ وطوى صفحة لينشر صفحة :

« وقال : إنى ذاهب إلى ربى سيهدين » . .

Marfat.com

هذا إبراهيم الشيخ . المقطوع من الأهل والقرابة . المهاجر من الأرض والوطن . هاهو ذا يرزق فى كبرته وهرمه بغلام . طالما تطلع إليه . فلما جاءه جاء غلاما ممتازا يشهد له ربه بأنه حليم . وها هو ذا ما يكاد يأنس به ، وصباه يتفتح ، ويبلغ معه السعى ، ويرافقه فى الحياة . . ها هو ذا مايكاد يأنس ويستروح بهذا الغلام الوحيد ، حتى يرى فى منامه أنه يذبحه . ويدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية . فماذا ؟ إنه لا يتردد ، ولا يخالجه إلا شعور الطاعة ، ولا يخطر له إلا خاطر التسليم . .نعم إنها إشارة. مجرد إشارة. وليست وحيا صريحا ، ولا أمرا مباشرا . ولكنها إشارة من ربه . . وهذا يكفى . . هذا يكفى ليلبى ويستجيب . ودون أن يعترض . ودون أن يسأل ربه . . لماذا يارب أذبح ابنى الوحيد ؟ !

ولكنه لا يلبى فى انزعاج ، ولا يستسلم فى جزع ، ولا يطيع فى اضطراب . . كلا إنما هو القبول والرضى والطمأنينة والهدوء . يبدو ذلك فى كلماته لابنه وهو يعرض عليه الأمر الهائل فى هدوء وفى اطمئنان عجيب :

« قال : يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك . فانظر ماذا ترى » . .

فهى كلمات المالك لأعصابه ، المطمئن للأمر الذى يواجهه ، الواثق بأنه يؤدى واجبه . وهى فى الوقت ذاته كلمات المؤمن ، الذى لا يهوله الأمر فيؤديه ، فى اندفاع وعجلة ليخلص منه وينتهى ، ويستريح من ثقله على أعصابه !

والأمر شاق — مافى ذلك شك — فهو لا يطلب إليه أن يرسل بابنه الوحيد إلى معركة . ولا يطلب إليه أن يكلفه أمرا تنتهى به حياته . . إنما يطلب إليه أن يتولى هو بيده . يتولى ماذا ؟ يتولى ذبحه . . وهو — مع هذا — يتلقى الأمر هذا التلقى ، ويعرض على ابنه هذا العرض ؛ ويطلب إليه أن يتروى فى أمره ، وأن يرى فيه رأيه !

إنه لا يأخذ ابنه على غرة لينفذ إشارة ربه . وينتهى . إنما يعرض الأمر عليه كالذى يعرض المألوف من الأمر . فالأمر فى حسه هكذا . ربه يريد . فليكن مايريد . على العين والرأس . وابنه ينبغى أن يعرف . وأن يأخذ الأمر طاعة وإسلاما ، لا قهرا واضطرارا . لينال هو الآخر أجر الطاعة ، وليسلم هو الآخر ويتذوق حلاوة التسليم ! إنه يحب لابنه أن يتذوق لذة التطوع التى ذاقها ؛ وأن ينال الخير الذى يراه هو أبقى من الحياة وأفنى . .

فماذا يكون من أمر الغلام ، الذى يعرض عليه الذبح ، تصديقا لرؤيا رآها أبوه ؟

هكذا . . إنى ذاهب إلى ربى .. إنها الهجرة . وهى هجرة نفسية قبل أن تكون هجرة مكانية . هجرة يترك وراءه فيها كل شىء من ماضى حياته . يترك أباه وقومه وأهله وبيته ووطنه وكل مايربطه بهذه الأرض،وبهؤلاء الناس . ويدع وراءه كذلك كل عائق وكل شاغل. ويهاجر إلى ربه متخففا من كل شىء ، طارحا وراءه كل شىء ، مسلما نفسه لربه لايستبقى منها شيئاً . موقن أن ربه سيهديه ، وسيرعى خطاه ، وينقلها فى الطريق المستقيم .

إنها الهجرة الكاملة من حال إلى حال ، ومن وضع إلى وضع ، ومن أواصر شتى إلى آصرة واحدة لا يزحمها فى النفس شىء . إنه التعبير عن التجرد والخلوص والاستسلام والطمأنينة واليقين .

وكان إبراهيم حتى هذه اللحظة وحيداً لا عقب له ؛ وهو يترك وراءه أواصر الأهل والقربى ، والصحبة والمعرفة . وكل مألوف له فى ماضى حياته ، وكل مايشده إلى الأرض التى نشأ فيها ، والتى انحسم ما بينه وبين أهلها الذين ألقوه فى الجحيم ! فاتجه إلى ربه الذى أعلن أنه ذاهب إليه . اتجه إليه يسأله الذرية المؤمنة والخلف الصالح :

« رب هب لى من الصالحين » . .

واستجاب الله دعاء عبده الصالح المتجرد ، الذى ترك وراءه كل شىء ، وجاء إليه بقلب سليم . .

« فبشرناه بغلام حليم » . .

هو إسماعيل ـ كما يرجح سياق السيرة والسورة ـ وسنرى آثار حلمه الذى وصفه ربه به وهو غلام . ولنا أن نتصور فرحة إبراهيم الوحيد المفرد المهاجر المقطوع من أهله وقرابته . لنا أن نتصور فرحته بهذا الغلام ، الذى يصفه ربه بأنه حليم .

والآن آن نطلع على الموقف العظيم الكريم الفريد فى حياة إبراهيم . بل فى حياة البشر أجمعين . وآن أن نقف من سياق القصة فى القرآن أمام المثل الموحى الذى يعرضه الله للأمة المسلمة من حياة أبيها إبراهيم . .

« فلما بلغ معه السعى . قال : يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى . قال: ياأبت افعل ماتؤمر : ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » . .

يالله ! ويالروعة الإيمان والطاعة والتسليم . .

Marfat.com

إنه يرتقى إلى الأفق الذى ارتقى إليه من قبل أبوه :

« قال : ياأبت افعل ماتؤمر . ستجدنى - إن شاء الله - من الصابرين » . .

إنه يتلقى الأمر لا فى طاعة واستسلام فحسب . ولكن فى رضى كذلك وفى يقين . .

« ياأبت » . . فى مودة وقربى . فشبح الذبح لايزعجه ولا يفزعه ولا يفقده رشده . بل لايفقده أدبه ومودته .

« افعل ماتؤمر » . . فهو يحس ما أحسه من قبل قلب أبيه . يحس أن الرؤيا إشارة . وأن الإشارة أمر . وأنها تكفى لكى يلبى وينفذ بغير لجلجة ولا تمحل ولا ارتياب .

ثم هو الأدب مع الله ، ومعرفة حدود قدرته وطاقته فى الاحتمال ؛ والاستعانة بربه على ضعفه ونسبة الفضل إليه فى إعانته على التضحية ، ومساعدته على الطاعة :

« ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » . .

ولم يأخذها بطولة . ولم يأخذها شجاعة . ولم يأخذها اندفاعا إلى الخطر دون مبالاة . ولم يظهر لشخصه ظلا ولا حجما ولا وزنا . . إنما أرجع الفضل كله لله إن هو أعانه على ما يطلب إليه ، وأصبره على مايراد به : « ستجدنى - إن شاء الله - من الصابرين » . .

ياللأدب مع الله ! ويالروعة الإيمان . ويالنبل الطاعة . ويالعظمة التسليم !

ويخطو المشهد خطوة أخرى وراء الحوار والكلام . . يخطو إلى التنفيذ :

« فلما أسلما وتله للجبين » . .

ومرة أخرى يرتفع نبل الطاعة . وعظمة الإيمان . وطمأنينة الرضى وراء كل ما تعارف عليه بنو الإنسان . .

إن الرجل يمضى فيكب ابنه على جبينه استعدادا . وإن الغلام يستسلم فلا يتحرك امتناعا . وقد وصل الأمر إلى أن يكون عيانا .

لقد أسلما . . فهذا هو الإسلام . هذا هو الإسلام فى حقيقته . ثقة وطاعة وطمأنينة ورضى وتسليم . . وتنفيذ . . وكلاهما لا يجد فى نفسه إلا هذه المشاعر التى لا يصنعها غير الإيمان العظيم .

إنها ليست الشجاعة والجراءة . وليس الاندفاع والحماسة . لقد يندفع المجاهد فى الميدان ، يقتل ويقتل . ولقد يندفع الفدائى وهو يعلم أنه قد لا يعود . ولكن هذا كله شىء والذى

Marfat.com

يصنعه إبراهيم وإسماعيل هنا شيء آخر .. ليس هنا دم فائر ، ولا حماسة دافعة ولا اندفاع في عجلة تخفي وراءها الخوف من الضعف والنكوص ! إنما هو الاستسلام الواعي المتعقل القاصد المريد ، العارف بما يفعل، المطمئن لما يكون . لا بل هنا الرضى الهادئ، المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل !

وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أديا . كانا قد أسلما . كانا قد حققا الأمر والتكليف . ولم يكن باقيا إلا أن يذبح إسماعيل ، ويسيل دمه ، وتزهق روحه . . وهذا أمر لا يعني شيئاً في ميزان الله ، بعد ما وضع إبراهيم وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما . .

كان الابتلاء قد تم . والامتحان قد وقع . ونتائجه قد ظهرت . وغاياته قد تحققت . ولم يعد إلا الألم البدني . وإلا الدم المسفوح . والجسد الذبيح . والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء . ولا يريد دماءهم وأجسادهم في شيء . ومتى خلصوا له واستعدوا للأداء بكلياتهم فقد أدوا ، وقد حققوا التكليف ، وقد جازوا الامتحان بنجاح .

وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل صدقهما . فاعتبرهما قد أديا وحققا وصدقا :

« وناديناه أن ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا . إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم » . .

قد صدقت الرؤيا وحققتها فعلا . فالله لا يريد إلا الإسلام والاستسلام بحيث لا يبقى في النفس ما تكنه عن الله أو تعزه عن أمره أو تحتفظ به دونه ، ولو كان هو الابن فلذة الكبد . ولو كانت هي النفس والحياة . وأنت - ياإبراهيم - قد فعلت . جدت بكل شيء . وبأعز شيء . وجدت به في رضى وفي هدوء وفي طمأنينة وفي يقين . فلم يبق إلا اللحم والدم. وهذا ينوب عنه ذبح . أي ذبح من دم ولحم ! ويفدي الله هذه النفس التي أسلمت وأدت . يفديها بذبح عظيم . قيل : إنه كبش وجده إبراهيم مهيأ بفعل ربه وإرادته لذبحه بدلا من إسماعيل !

وقيل له :« إنا كذلك نجزي المحسنين » .. نجزيهم باختيارهم لمثل هذا البلاء . ونجزيهم بتوجيه قلوبهم ورفعها إلى مستوى الوفاء . ونجزيهم بإقدارهم وإصبارهم على الأداء . ونجزيهم كذلك باستحقاق الجزاء !

Marfat.com

ومضت بذلك سنة النحر فى الأضحى ، ذكرى لهذا الحادث العظيم الذى يرتفع منارة لحقيقة الإيمان . وجمال الطاعة . وعظمة التسليم . والذى ترجع إليه الأمة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم ، الذى تتبع ملته ، والذى ترث نسبه وعقيدته . ولتدرك طبيعة العقيدة التى تقوم بها أو تقوم عليها ، ولتعرف أنها الاستسلام لقدر الله فى طاعة راضية واثقة ملبية لا تسأل ربها لماذا ؟ ولا تتلجلج فى تحقيق إرادته عند أول إشارة منه وأول توجيه . ولا تستبقى لنفسها فى نفسها شيئاً ، ولا تختار فيما تقدمه لربها هيئة ولا طريقة لتقديمه إلا كما يطلب هو إليها أن تقدم !

ثم لتعرف أن ربها لا يريد أن يعذبها بالابتلاء ؛ ولا أن يؤذيها بالبلاء ، إنما يريد أن تأتيه طائعة ملبية وافية مؤدية . مستسلمة لا تقدم بين يديه ، ولا تتألى عليه ، فإذا عرف منها الصدق فى هذا أعفاها من التضحيات والآلام . واحتسبها لها وفاء وأداء . وقبل منها وفدّاها . وأكرمها كما أكرم أباها . .

« وتركنا عليه فى الآخرين » . .

فهو مذكور على توالى الأجيال والقرون . وهو أمة . وهو أبو الأنبياء . وهو أبو هذه الأمة المسلمة . وهى وارثة ملته . وقد كتب الله لها وعليها قيادة البشرية على ملة إبراهيم . فجعلها الله له عقبا ونسبا إلى يوم الدين .

« سلام على إبراهيم » . .

سلام عليه من ربه . سلام يسجل فى كتابه الباقى . ويرقم فى طوايا الوجود الكبير .

« كذلك نجزى المحسنين » . .

كذلك نجزيهم بالبلاء . والوفاء . والذكر . والسلام . والتكريم .

« إنه من عبادنا المؤمنين » . .

وهذا جزاء الإيمان . وتلك حقيقته فيما كشف عنه البلاء المبين .

ثم يتجلى عليه ربه بفضله مرة أخرى ونعمته فيهب له إسحاق فى شيخوخته . ويباركه ويبارك إسحاق . ويجعل إسحاق نبيا من الصالحين :

« وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق » . .

وتلاحق من بعدهما ذريتهما . ولكن وراثة هذه الذرية لهما ليست وراثة الدم والنسب

Marfat.com

إنما هى وراثة الملة والمنهج : فمن اتبع فهو محسن . ومن انحرف فهو ظالم لا ينفعه نسب قريب أو بعيد :

« ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين » .

* * *

ومن ذريتهما موسى وهارون :

« ولقد مننا على موسى وهارون . ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم . ونصرناهم فكانوا هم الغالبين . وآتيناهما الكتاب المستبين . وهديناهما الصراط المستقيم . وتركنا عليهما فى الآخرين. سلام على موسى وهارون. إنا كذلك نجزى المحسنين. إنهما من عبادنا المؤمنين » . .

وهذه اللمحة من قصة موسى وهارون تعنى بإبراز منة الله عليهما باختيارهما واصطفائهما . وبنجاتهما وقومهما « من الكرب العظيم » الذى تفصله القصة فى السور الأخرى . وبالنصر والغلبة على جلاديهم من فرعون وملئه . وبإعطائهما الكتاب الواضح المستبين . وهدايتهما إلى الصراط المستقيم . صراط الله الذى يهدى إليه المؤمنين . وبإبقاء ذكرهما فى الأجيال الآتية والقرون الأخيرة . وتنتهى هذه اللمحة بالسلام من الله على موسى وهارون. والتعقيب المتكرر فى السورة لتقرير نوع الجزاء الذى يلقاه المحسنون ، وقيمة الإيمان الذى يكرم من أجله المؤمنون . .

* * *

وتعقب تلك اللمحة لمحة مثلها عن إلياس ، والأرجح أنه النبى المعروف فى العهد القديم باسم إيلياء . وقد أرسل إلى قوم فى سورية كانوا يعبدون صنما يسمونه بعلا . وما تزال آثار مدينة بعلبك تدل على آثار هذه العبادة .

« وإن إلياس لمن المرسلين . إذ قال لقومه ألا تتقون ؟ أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين . الله ربكم ورب آبائكم الأولين ؟ فكذبوه فإنهم لمحضرون . إلا عباد الله المخلصين . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إلياسين . إنا كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين » .

ولقد دعا إلياس قومه إلى التوحيد ، مستنكرا عبادتهم لبعل ، وتركهم « أحسن الخالقين »

Marfat.com

ربهم ورب آبائهم الأولين . كما استنكر إبراهيم عبادة أبيه وقومه للأصنام . وكما استنكر كل رسول عبادة قومه الوثنيين .

وكانت العاقبة هي التكذيب . والله سبحانه يقسم ويؤكد أنهم سيحضرون مكرهين ليلقوا جزاء المكذبين . إلا من آمن منهم واستخلصه الله من عباده فيهم .

وتختم اللمحة القصيرة عن إلياس تلك الخاتمة المكررة المقصودة فى السورة ، لتكريم رسل الله بالسلام عليهم من قبله . ولبيان جزاء المحسنين . وقيمة إيمان المؤمنين .

وسيرة إلياس ترد هنا لأول مرة فى مثل تلك اللمحة القصيرة . ونقف لنلم بالناحية الفنية فى الآية : « سلام على إلياسين » فقد روعيت الفاصلة وإيقاعها الموسيقى فى إرجاع اسم إلياس بصيغة « إلياسين » على طريقة القرآن فى ملاحظة تناسق الإيقاع فى التعبير[1] .

* * *

ثم تأتى لمحة عن قصة لوط . التى ترد فى المواضع الأخرى تالية لقصة إبراهيم :

« وإن لوطا لمن المرسلين . إذ نجيناه وأهـله أجمعين . إلا عجوزا فى الغابرين . ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ؟ » . .

وهى أشبه باللمحة التى جاءت عن قصة نوح . فهى تشير إلى رسالة لوط ونجاته مع أهله إلا امرأته . وتدمير المكذبين الضالين . وتنتهى بلمسة لقلوب العرب الذين يمرون على دار قوم لوط فى الصباح والمساء ولا تستيقظ قلوبهم ولا تستمع لحديث الديار الخاوية . ولا تخاف عاقبة كعاقبتها الحزينة !

* * *

وتختم هذه اللمحات بلمحة عن يونس صاحب الحوت :

« وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا أنه كان من المسبحين . للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرة من يقطين . وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حين » . .

ولا يذكر القرآن أين كان قوم يونس . ولكن المفهوم أنهم كانوا فى بقعة قريبة من البحر .

---

(١) يراجع فصل التناسق الفنى فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » فقرة الإيقاع الموسيقى .

Marfat.com

Marfat.com

وتذكر الروايات أن يونس ضاق صدرا بتكذيب قومه . فأنذرهم بعذاب قريب . وغادرهم مغضبا آبقا . فقاده الغضب إلى شاطىء البحر حيث ركب سفينة مشحونة . وفى وسط اللجة ناوأتها الرياح والأمواج . وكان هـذا إيذانا عند القوم بأن من بين الركاب راكبا مغضوبا عليه لأنه ارتكب خطيئة . وأنه لابد أن يلقى فى الماء لتنجو السفينة من الغرق . فاقترعوا على من يلقونه من السفينة . فخرج سهم يونس ـ وكان معروفاً عندهم بالصلاح . ولكن سهمه خرج بشكل أكيد فألقوه فى البحر . أو ألقى هو نفسه . فالتقمه الحوت وهو « مليم » أى مستحق للوم ، لأنه تخلى عن المهمة التى أرسله الله بها ، وترك قومه مغاضبا قبل أن يأذن الله له . وعند ما أحس بالضيق فى بطن الحوت سبح الله واستغفره وذكر أنه كان من الظالمين. وقال : « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » . فسمع الله دعاءه واستجاب له . فلفظه الحوت . « فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون » . وقد خرج من بطن الحوت سقيما عاريا على الشاطىء . « فأنبتنا عليه شجرة من يقطين » . وهو القرع . يظلله بورقه العريض ويمنع عنه الذباب الذى يقال إنه لا يقرب هذه الشجرة . وكان هـذا من تدبير الله ولطفه . فلما استكمل عافيته رده الله إلى قومه الذين تركهم مغاضبا . وكانوا قد خافوا ما أنذرهم به من العذاب بعد خروجه ، فآمنوا ، واستغفروا ، وطلبوا العفو من الله فسمع لهم ولم ينزل بهم عذاب المكذبين : « فآمنوا فمتعناهم إلى حين » وكانوا مئة ألف يزيدون ولا ينقصون . وقد آمنوا أجمعين[1]

وهذه اللمحة بسياقها هنا تبين عاقبة الذين آمنوا ، بجانب ما تبينه القصص السابقة من عاقبة الذين لا يؤمنهن . فيختار قوم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إحدى العاقبتين كما يشاءون!!

وكذلك ينتهى هذا الشوط من السورة بعد تلك الجولة الواسعة على مدار التاريخ من لدن نوح ، مع المنذرين : المؤمنين منهم وغير المؤمنين ..

« فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ؟ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ؟ * أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ : * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى

(١) تراجع القصة فى سورة الأنبياء الجزء السابع عشر .

ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ؟ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ؟ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

« وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَباً ، وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ! * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ .

« فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ .

« وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ . *

« وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ : * لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ * فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

« وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ؟ * فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ ٱلْمُنْذَرِينَ * وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ .

« سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ » (١٨٢).

على ضوء ذلك القصص الذى سبق به الشوط الثانى فى السورة ، وما اشتمل عليه من حقيقة الصلة بين الله وعباده ، ومن أخذه المكذبين بهذه الحقيقة ، الذين يعبدون غير الله أو يشركون معه بعض خلقه . وعلى ضوء تلك الحقيقة ذاتها كما تضمنها الدرس الأول فى السورة .. يوجه فى هذا الشوط الأخير من السورة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يناقش معهم تلك الأسطورة التى يزعمون فيها أن الملائكة بنات الله . والأسطورة الأخرى التى يزعمون فيها أن بينه ــ سبحانه ــ وبين الجنة نسبا . وأن يواجههم بما كانوا يقولونه قبل

Marfat.com

أن تأتيهم هذه الرسالة من تمنيهم أن يرسل الله فيهم رسولا ، ومن أنهم على استعداد للهدى لو جاءهم رسول . وكيف كفروا عند ماجاءهم الرسول .. وتختم السورةُ بتسجيل وعد الله لرسله أنهم هم الغالبون ، وبتنزيه الله سبحانه عما يصفون . والتوجه بالحمد لله رب العالمين ..

***

«فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ؟ أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ؟ ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله . وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين ؟ مالكم كيف تحكمون؟ أفلا تذكرون ؟ أم لكم سلطان مبين ؟ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين » ..

إنه يحاصر أسطورتهم فى كل مساربها ؛ ويحاجهم بمنطقهم ومنطق بيئتهم التى يعيشون فيها. وهم كانوا يؤثرون البنين على البنات ؛ ويعدون ولادة الأنثى محنة ، ويعدون الأنثى مخلوقا أقل رتبة من الذكر . ثم هم الذين يدعون أن الملائكة إناث . وأنهم بنات الله !

فهو هنا يستطرد معهم وفق منطقهم ، ويأخذهم به ليروا مدى تهافت الأسطورة وسخفها حتى بمقاييسهم الشائعة :

« فاستفتهم .. ألربك البنات ولهم البنون » ؟

أإذا كان الإناث أقل رتبة كما يدعون ؛ جعلوا لربهم البنات واستأثروا هم بالبنين ؟ ! أو اختار الله البنات وترك لهم البنين ؟ ! إن هذا أو ذاك لا يستقيم ! فاسألهم عن هذا الزعم المتهافت السقيم .

واستفتهم كذلك عن منشأ الأسطورة كلها . من أين جاءهم علم أن الملائكة إناث ؟ وهل هم شهدوا خلقهم فعرفوا جنسهم ؟

« أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون؟ » .

ويستعرض نص مقولتهم المفتراة الكاذبة على الله :

« ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله . وإنهم لكاذبون »

وهم كاذبون حتى بحكم عرفهم الشائع ومنطقهم الجارى فى اصطفاء البنين على البنات . فكيف اصطفى الله البنات على البنين ؟

« أصطفى البنات على البنين » !

ويعجب من حكمهم الذى ينسون فيه منطقهم الجارى :

Marfat.com

« مالكم ؟ كيف تحكمون ؟ أفلا تذكرون ؟ » .

ومن أين تستمدون السند والدليل على الحكم المزعوم ؟

« أم لكم سلطان مبين ؟ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين » . .

والأسطورة الأخرى . أسطورة الصلة بينه ـ سبحانه ـ وبين الجنة :

« وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا . ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون » . .

وكانوا يزعمون أن الملائكة هم بنات الله ـ بزعمهم ـ ولدتهم له الجنة ! وذلك هو النسب والقرابة ! والجن تعلم أنها خلق من خلق الله . وأنها محضرة يوم القيامة بإذن الله . وما هكذا تكون معاملة النسب والصهر !

وهنا ينزه ذاته سبحانه عن هذا الإفك المتهافت :

« سبحان الله عما يصفون » . .

ويستثنى من الجن الذين يحضرون للعذاب مكرهين تلك الطائفة المؤمنة . وقد كان في الجن مؤمنون . .

« إلا عباد الله المخلصين » . .

ثم يتوجه الخطاب إلى المشركين وما يعبدون من آلهة مزعومة ، وما هم عليه من عقائد منحرفة . يتوجه الخطاب إليهم ، من الملائكة كما يبدو من التعبير :

« فإنكم وما تعبدون ، ما أنتم عليه بفاتنين ، إلا من هو صال الجحيم . وما منا إلا له مقام معلوم . وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون » .

أى إنكم وما تعبدون لا تفتنون على الله ولا تضلون من عباده إلا من هو محسوب من أهل الجحيم ، الذين قدر عليهم أن يصلوها . وما أنتم بقادرين على فتنة قلب مؤمن الفطرة محسوب من الطائعين . فللجحيم وقود من نوع معروف ، طبيعته تؤهله أن يستجيب للفتنة ؛ ويستمع للفاتنين .

ويرد الملائكة على الأسطورة ، بأن لكل منهم مقامه الذى لا يتعداه . فهم عباد من خلق الله . لهم وظائف فى طاعة الله . فهم يصفون للصلاة ، ويسبحون بحمد الله . ويقف كل منهم على درجة لا يتجاوز حده . والله هو الله .

***

Marfat.com

Marfat.com

ثم يعود للحديث عن المشركين الذين يطلقون هذه الأساطير ؛ فيعرض عهودهم ووعودهم، يوم كانوا يحسدون أهل الكتاب على أنهم أهل كتاب ؛ ويقولون لو كان عندنا ذكر من الأولين - من إبراهيم أو من جاء بعده - لكنا على درجة من الإيمان يستخلصنا الله من أجلها ويصطفينا :

« وإن كانوا ليقولون : لو أن عندنا ذكرا من الأولين . لكنا عباد الله المخلصين » . .

حتى إذا جاءهم ذكر هو أعظم ما جاء إلى هذه الأرض تنكروا لما كانوا يقولون :

« فكفروا به . فسوف يعلمون » . .

فالتهديد الخفي في قوله : « فسوف يعلمون » هو اللائق بالكفر بعد التمني والوعود ! وبمناسبة التهديد يقرر وعد الله لرسله بالنصر والغلبة :

« ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون » . .

والوعد واقع وكلمة الله قائمة . ولقد استقرت جذور العقيدة في الأرض ؛ وقام بناء الإيمان، على الرغم من جميع العوائق ، وعلى الرغم من تكذيب المكذبين ، وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة والمتبعين . ولقد ذهبت عقائد المشركين والكفار . وذهبت سطوتهم ودولتهم ؛ وبقيت العقائد التي جاء بها الرسل . تسيطر على قلوب الناس وعقولهم ، وتكيف تصوراتهم وأفهامهم. وما تزال على الرغم من كل شيء هي أظهر وأبقى ما يسيطر على البشر في أنحاء الأرض . وكل المحاولات التي بذلت لمحو العقائد الإلهية التي جاء بها الرسل ، وتغليب أية فكرة أو فلسفة أخرى قد باءت بالفشل. باءت بالفشل حتى في الأرض التي نبعت منها . وحقت كلمة الله لعباده المرسلين . إنهم لهم المنصورون وإن جنده لهم الغالبون .

هذه بصفة عامة . وهي ظاهرة ملحوظة . في جميع بقاع الأرض . في جميع العصور .

وهي كذلك متحققة في كل دعوة لله ، يخلص فيها الجند ، ويتجرد لها الدعاة . إنها غالبة منصورة مهما وضعت في سبيلها العوائق ، وقامت في طريقها العراقيل . ومهما رصد لها الباطل من قوى الحديد والنار ، وقوى الدعاية والافتراء ، وقوى الحرب والمقاومة . وإن هي إلا معارك تختلف نتائجها . ثم تنتهي إلى الوعد الذي وعده الله لرسله . والذي لا يخلف ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقه . الوعد بالنصر والغلبة والتمكين .

هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية . سنة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم

Marfat.com

فى دوراتها المنتظمة ؛ وكما يتعاقب الليل والنهار فى الأرض على مدار الزمان ؛ وكما تنبثق الحياة فى الأرض الميتة ينزل عليها الماء . . ولكنها مرهونة بتقدير الله ، يحققها حين يشاء . ولقد تبطىء آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة . ولكنها لا تخلف أبدا ولا تتخلف وقدتتحقق فى صورة لا يدركها البشر لأنهم يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة ، ولا يدركون تحقق السنة فى صورة جديدة إلا بعد حين !

ولقد يريد البشر صورة معينة من صور النصر والغلبة لجند الله وأتباع رسله . ويريد الله صورة أخرى أكمل وأبقى . فيكون مايريده الله . ولو تكلف الجند من المشقة وطول الأمد أكثر مما كانوا ينتظرون . . ولقد أراد المسلمون قبيل غزوة بدر أن تكون لهم عير قريش وأراد الله أن تفوتهم القافلة الرابحة الهينة ؛ وأن يقابلوا النفير وأن يقاتلوا الطائفة ذات الشوكة . وكان ماأراده الله هو الخير لهم وللإسلام . وكان هو النصر الذى أراده الله لرسوله وجنده ودعوته على مدى الأيام .

ولقد يهزم جنود الله فى معركة من المعارك ، وتدور عليهم الدائرة ، ويقسو عليهم الابتلاء ؛ لأن الله يعدهم للنصر فى معركة أكبر . ولأن الله يهيىء الظروف من حولهم ليؤتى النصر يومئذ ثماره فى مجال أوسع ، وفى خط أطول ، وفى أثر أدوم .

لقد سبقت كلمة الله ، ومضت إرادته بوعده ، وثبتت سنته لا تتخلف ولا تحيد :

« ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون » .

***

وعند إعلان هذا الوعد القاطع ، وهذه الكلمة السابقة ، يأمر الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتولى عنهم ، ويدعهم لوعد الله وكلمته ، ويترقب ليبصرهم وقد حقت عليهم الكلمة، ويدعهم ليبصروا ويروا رأى العين كيف تكون :

« فتول عنهم حتى حين . وأبصرهم فسوف يبصرون . أفبعذابنا يستعجلون ؟ فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين . وتول عنهم حتى حين . وأبصر فسوف يبصرون » . .

فتول عنهم ، وأعرض ولا تحفلهم ؛ ودعهم لليوم الذى تراهم فيه ويرون هم ما ينتهى إليه وعد الله فيك وفيهم . وإذا كانوا يستعجلون بعذابنا ، فياويلهم يوم ينزل بهم . فإنه إذا نزل بساحة قوم صبحهم بما يسوء ، وقد قدم له النذير .

Marfat.com

ويكرر الأمر بالإعراض عنهم والإهمال لشأنهم والتهديد الملفوف فى ذلك الأمر المخيف : « وتول عنهم حتى حين » . . كما يكرر الإشارة إلى هول ما سيكون : « وأبصر فسوف يبصرون » .. ويدعه مجملا يوحى بالهول المرهوب ..

* * *

ويختم السورة بتنزيه الله سبحانه واختصاصه بالعزة . وبالسلام من الله على رسله . وبإعلان الحمد لله الواحد .. رب العالمين بلا شريك ..

« سبحان ربك ـ رب العزة ـ عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين » . .

وهو الختام المناسب لموضوعات السورة . الملخص للقضايا التى عالجتها السورة .

سورة ص مكية
وآياتها ٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

« ص والقرآن ذي الذكر ① بل الذين كفروا في عزة وشقاق * كم أهلكنا
من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص * وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال
الكافرون : هذا ساحر كذاب * أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشيء
عجاب * وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد *
ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق * أأنزل عليه الذكر من بيننا؟
بل هم في شك من ذكري ، بل لما يذوقوا عذاب * أم عندهم خزائن رحمة ربك
العزيز الوهاب * أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب *
جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب * كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون
ذو الأوتاد * وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب * إن كل إلا
كذب الرسل فحق عقاب * وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق *
وقالوا : ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ⑯ » .

هذه السورة مكية ، تعالج من موضوعات السور المكية قضية التوحيد ، وقضية الوحي إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقضية الحساب في الآخرة . وتعرض هذه القضايا الثلاثة

Marfat.com

Marfat.com

فى مطلعها الذى يؤلف الشوط الأول منها . وهو الآيات الكريمة التى فوق هذا الكلام . وهى تمثل الدهش والاستغراب والمفاجأة التى تلقى بها كبار المشركين فى مكة دعوة النبى - صلى الله عليه وسلم - لهم إلى توحيد الله ؛ وإخبارهم بقصة الوحى واختياره رسولا من عند الله : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم . وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، أجعل الآلهة إلها واحدا : إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم : أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق . أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟ » . . كما تمثل استهزاءهم واستنكارهم لما أوعدهم به جزاء تكذيبهم من عذاب : « وقالوا : ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب » . .

لقد استكثروا أن يختار الله - سبحانه - رجلا منهم ، لينزل عليه الذكر من بينهم . وأن يكون هذا الرجل هو محمد ابن عبد الله . الذى لم تسبق له رياسة فيهم ولا إمارة ! ومن ثم سألهم الله فى مطلع السورة تعقيبا على استكثارهم هذا واستنكارهم وقولهم : « أأنزل عليه الذكر من بيننا » سألهم : « أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ؟ أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما ؟ فليرتقوا فى الأسباب » . . ليقول لهم : إن رحمة الله لا يمسكها شيء إذا أراد الله أن يفتحها على من يشاء . وإنه ليس للبشر شيء من ملك السماوات والأرض ، وإنما يفتح الله من رزقه ورحمته على من يشاء . وإنه يختار من عباده من يعلم استحقاقهم للخير ، وينعم عليهم بشتى الإنعامات بلا قيد ولا حد ، ولا حساب . . وفى هذا السياق جاءت قصة داود وقصة سليمان ؛ وما أغدق الله عليهما من النبوة والملك ، ومن تسخير الجبال والطير ، وتسخير الجن والريح ، فوق الملك وخزائن الأرض والسلطان والمتاع .

وهما - مع هذا كله - بشر من البشر ؛ يدركهما ضعف البشر وعجز البشر ؛ فتتداركهما رحمة الله ورعايته ، وتسد ضعفهما وعجزهما ، وتقبل منهما التوبة والإنابة ، وتسدد خطاهما فى الطريق إلى الله .

وجاء مع القصتين توجيه النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى الصبر على ما يلقاه من المكذبين ، والتطلع إلى فضل الله ورعايته كما تمثلها قصة داود وقصة سليمان : « اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا أيوب ذا الأيد إنه أواب . . . الخ » . .

كذلك جاءت قصة أيوب تصور ابتلاء الله للمخلصين من عباده بالضراء . وصبر أيوب

Marfat.com

مثل فى الصبر رفيع . وتصور حسن العاقبة ، وتداركه برحمة الله ، تغمره بفيضها ، وتمسح على آلامه بيدها الحانية . . وفى عرضها تأسية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللمؤمنين ، عما كانوا يلقونه من الضر والبأساء فى مكة ؛ وتوجيه إلى ما وراء الابتلاء من رحمة ، تفيض من خزائن الله عند ما يشاء .

وهـذا القصص يستغرق معظم السورة بعد المقدمة ، ويؤلف الشوط الثانى منها .

كذلك تتضمن السورة ردا على استعجالهم بالعذاب ، وقولهم : « ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب » .. فيعرض بها ـ بعد القصص ـ مشهد من مشاهد القيامة ، يصور النعيم الذى ينتظر المتقين . والجحيم التى تنتظر المكذبين . ويكشف عن استقرار القيم الحقيقية فى الآخرة بين هؤلاء وهؤلاء . حين يرى الملأ المتكبرون مصيرهم ومصير الفقراء الضعاف الذين كانوا يهزأون بهم فى الأرض ويسخرون ، ويستكثرون عليهم أن تنالهم رحمة الله ، وهم ليسوا من العظماء ولا الكبراء . وبينما المتقون لهم حسن مآب « جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب . وعندهم قاصرات الطرف أتراب » .. فإن للطاغين لشر مآب « جهنم يصلونها فبئس المهاد . هذا فليذوقوه حميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج » . . وهم يتلاعنون فى جهنم ويتخاصمون ، ويذكرون كيف كانوا يسخرون بالمؤمنين : « وقالوا : مالنا لا نرى رجالا كنا نعدُّهم من الأشرار أتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار ؟ » فإنهم لا يجدونهم فى جهنم . وقد عُرف أنهم هنالك فى الجنان ! فهذا هو جواب ذلك الاستعجال والاستهزاء !

وهذا المشهد يؤلف الشوط الثالث فى السورة .

كما يرد على استنكارهم لما يخبرهم به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أمر الوحى . ويتمثل هذا الرد فى قصة آدم فى الملأ الأعلى . حيث لم يكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حاضرا ؛ إنما هو إخبار الله له بما كان ، مما لم يشهده ـ غير آدم ـ إنسان . . وفى ثنايا القصة يتبين أن الذى أردى إبليس ، وذهب به إلى الطرد واللعنة ، كان هو حسده لآدم ـ عليه السلام ـ واستكثاره أن يؤثره الله عليه ويصطفيه . كما أنهم هم يستكثرون على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يصطفيه الله من بينهم بتنزيل الذكر ؛ فى موقفهم شبه واضح من موقف إبليس المطرود اللعين !

Marfat.com

وتختم السورة بختام هذا الشوط الرابع والأخير فيها ؛ بقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم : إن ما يدعوهم إليه لا يتكلفه من عنده ، ولا يطلب عليه أجرا ، وإن له شأنا عظيما سوف يتجلى : « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين. ولتعلمن نبأه بعد حين » . .

* * *

هذه الأشواط الأربعة التي تجرى بموضوعات السورة هذا المجرى ؛ تجول بالقلب البشرى فى مصارع الغابرين ، الذين طغوا وتجبروا واستعلوا على الرسل والمؤمنين ، ثم انتهوا إلى الهزيمة والدمار والخذلان : « جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب . كذبت قبلهم قوم نوح وفرعون ذو الأوتاد . وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب . إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب » .

تعرض على القلب البشرى هذه الصفحة . صفحة الهزيمة والدمار والهلاك للطغاة المكذبين . ثم تعرض بإزائها صفحة العز والتمكين والرحمة والرعاية لعباد الله المختارين ، فى قصص داود وسليمان وأيوب .

هذا وذلك فى واقع الأرض . . ثم تطوف بهذا القلب فى يوم القيامة وما وراءه من صور النعيم والرضوان . وصور الجحيم والغضب . حيث يرى لونا آخر مما يلقاه الفريقان فى دار البقاء . بعد ما لقياه فى دار الفناء . .

والجولة الأخيرة فى قصة البشرية الأولى وقصة الحسد والغواية من العدو الأول ، الذى يقود خطى الضالين عن عمد وعن سابق إصرار . وهم غافلون .

كذلك ترد فى ثنايا القصص لفتة تلمس القلب البشرى وتوقظه إلى الحق الكامن فى بناء السماء والأرض . وأنه الحق الذى يريد الله بإرسال الرسل أن يقره بين الناس فى الأرض . فهذا من ذلك : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا » . . وهى لفتة لها فى القرآن نظائر . وهى حقيقة أصيلة من حقائق هذه العقيدة التى هى مادة القرآن المكى الأصيلة . .

والآن نأخذ فى التفصيل . . .

* * *

Marfat.com

« ص . والقرآن ذى الذكر . بل الذين كفروا فى عزة وشقاق . كم أهلكنا من قبلهم من قرن . فنادوا ولات حين مناص » . .

هذا الحرف . . « صاد » يقسم به الله سبحانه كما يقسم بالقرآن ذي الذكر . وهذا الحرف من صنعة الله تعالى . فهو موجده . موجده صوتاً فى حناجر البشر ؛ وموجده حرفاً من حروف الهجاء التى يتألف من جنسها التعبير القرآنى . وهى فى متناول البشر ولكن القرآن ليس فى متناولهم لأنه من عند الله . وهو متضمن صنعة الله التى لا يملك البشر الإتيان بمثلها لا فى القرآن ولا فى غير القرآن . وهذا الصوت . . « صاد » . . الذى تخرجه حنجرة الإنسان ، إنما يخرج هكذا من هذه الحنجرة بقدرة الخالق المبدع ، الذى صنع الحنجرة وما تخرجه من أصوات . وما يملك البشر أن يصنعوا مثل هذه الحنجرة الحية التى تخرج هذه الأصوات ! وإنها لمعجزة خارقة لو كان الناس يتدبرون الخوارق المعجزة فى كل جزئية من جزئيات كيانهم القريب ! ولو عقلوها مادهشوا لوحى يوحيه الله لبشر يختاره منهم . فالوحى ليس أكثر غرابة من إبداع تكوينهم هذه الخصائص المعجزات !

« صاد . والقرآن ذى الذكر » . .

والقرآن يشتمل الذكر كما يشتمل غيره من التشريع والقصص والتهذيب . . ولكن الذكر والاتجاه إلى الله هو الأول . وهو الحقيقة الأولى فى هذا القرآن . بل إن التشريع والقصص وغيرها إن هى إلا بعض هذا الذكر . فكلها تذكر بالله وتوجه القلب إليه فى هذا القرآن . وقد يكون معنى ذى الذكر . أى المذكور المشهور . وهو وصف أصيل للقرآن :

« بل الذين كفروا فى عزة وشقاق » . .

وهذا الإضراب فى التعبير يلفت النظر . فهو يبدو كأنه انقطاع عن الموضوع الأول . موضوع القسم بصاد وبالقرآن ذى الذكر . هذا القسم الذى لم يتم فى ظاهر التعبير . لأن المقسم عليه لم يذكر واكتفى بالقسم به ثم أخذ يتحدث بعده عن المشركين . وماهم فيه من استكبار ومن مشاقة . ولكن هذا الانقطاع عن القضية الأولى هو انقطاع ظاهرى ، يزيد الاهتمام بالقضية التى تليه . لقد أقسم بصاد وبالقرآن ذى الذكر فدل على أنه أمر عظيم ، يستحق أن يقسم به الله سبحانه . ثم عرض إلى جانب هذا استكبار المشركين ومشاقتهم فى هذا القرآن . فهى قضية واحدة قبل حرف الإضراب « بل » وبعده . ولكن هذا الالتفات فى الأسلوب

يوجه النظر بشدة إلى المفارقة بين تعظيم الله ـ سبحانه ـ لهذا القرآن ، واستكبار المشركين عنه ومشاقتهم فيه . وهو أمر عظيم !

وعقب على الاستكبار والمشاقة ، بصفحة الهلاك والدمار لمن كان قبلهم ، ممن كذبوا مثلهم ، واستكبروا استكبارهم ، وشاقوا مشاقتهم . ومشهدهم وهم يستغيثون فلا يغاثون ، وقد تخلى عنهم الاستكبار وأدركتهم الذلة ، وتخلوا عن الشقاق ولجأوا إلى الاستعطاف . ولكن بعد فوات الأوان :

« كم أهلكنا من قبلهم من قرن ، فنادوا ، ولات حين مناص » !

فلعلهم حين يتملون هذه الصفحة أن يطامنوا من كبريائهم ؛ وأن يرجعوا عن شقاقهم . وأن يتمثلوا أنفسهم فى موقف أولئك القرون . ينادون ويستغيثون . وفى الوقت أمامهم فسحة ، قبل أن ينادوا ويستغيثوا ، ولات حين مناص . ولا موضع حينذاك للغوث ولا للخلاص !

* * *

يطرق قلوبهم تلك الطرقة ، ويوقع عليها هذا الإيقاع قبل أن يعرض تفصيل تلك العزة وهذا الشقاق .. ثم يفصل الأمر ويحكى ما هم فيه من عزة وشقاق :

« وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون : هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشىء عجاب ! وانطلق الملأ منهم : أن امشوا واصبروا على آلهتكم . إن هذا لشىء يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة . إن هذا إلا اختلاق » . .

هذه هى العزة : « أأنزل عليه الذكر من بيننا » . . وذلك هو الشقاق : « أجعل الآلهة إلها واحدا ..؟ » .. « ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ..! » . . « هذا ساحر كذاب » . . « إن هذا إلا اختلاق » .. الخ . الخ ..

وقصة العجب من أن يكون الرسول بشرا قصة قديمة ، مكرورة معادة ، قالها كل قوم وتعللوا بها منذ بدء الرسالات . وتكرر إرسال الرسل من البشر ؛ وظل البشر مع هذا يكررون الاعتراض :

« وعجبوا أن جاءهم منذر منهم » . .

وأوجب شىء وأقرب شىء إلى الحكمة والمنطق أن يكون المنذر منهم . بشراً يدرك

Marfat.com

كيف يفكر البشر وكيف يشعرون ؛ ويحس ما يعتلج فى نفوسهم ، وما يشتجر فى كيانهم ، وما يعانون من نقص وضعف ، وما يجدون من ميول ونزعات ، وما يستطيعون أو لا يستطيعون من جهد وعمل ، وما يعترضهم من عوائق وعقبات ، وما يعتريهم من مؤثرات واستجابات ...

بشراً يعيش بين البشر - وهو منهم - فتكون حياته قدوة لهم ؛ وتكون لهم فيه أسوة . وهم يحسون أنه واحد منهم ، وأن بينهم وبينه شبهاً وصلة . فهم مطالبون إذن بالمنهج الذى يأخذ به نفسه ، ويدعوهم لاتباعه . وهم قادرون على الأخذ بهذا المنهج فقد حققه أمامهم بشر منهم فى واقع حياته ...

بشراً منهم . من جيلهم . ومن لسانهم . يعرف مصطلحاتهم وعاداتهم وتقاليدهم وتفصيلات حياتهم . ويعرفون لغته ، ويفهمون عنه ، ويتفاهمون معه ، ويتجاوبون وإياه . ومن ثم لا تقوم بينه وبينهم جفوة من اختلاف جنسه . أو اختلاف لغتــه . أو اختلاف طبيعة حياته أو تفصيلات حياته .

ولكن أوجب شىء وأقربه إلى أن يكون ، هو الذى كان دائما موضع العجب ، ومحط الاستنكار ، وموضوع التكذيب ! ذلك أنهم كانوا لا يدركون حكمة هذا الاختيار ؛ كما كانوا يخطئون تصور طبيعة الرسالة . وبدلا من أن يروها قيادة واقعية للبشرية فى الطريق إلى الله . كانوا يتصورونها خيالية غامضة محوطة بالأسرار التى لا يصح أن تكون مفهومة هكذا وقريبة ! كانوا يريدونها مثلا خيالية طائرة لا تلمس بالأيدى، ولا تبصر فى النور ، ولا تدرك فى وضوح، ولا تعيش واقعية فى دنيا الناس ! وعندئذ يستجيبون لها كأسطورة غامضة كما كانوا يستجيبون للأساطير التى تؤلف عقائدهم المتهافتة !

ولكن الله أراد للبشرية - وبخاصة فى الرسالة الأخيرة - أن تعيش بهذه الرسالة عيشة طبيعية واقعية . عيشة طيبة ونظيفة وعالية ، ولكنها حقيقة فى هذه الأرض . لا وهما ولا خيالا ولا مثلا طائرا فى سماء الأساطير والأحلام ! يعز على التحقيق ويهرب فى ضباب الخيالات والأوهام !

« وقال الكافرون : هذا ساحر كذاب » . .

قالوا كذلك استبعادا لأن يكون الله قد أوحى إلى رجل منهم . وقالوه كذلك تنفيراً

Marfat.com

للعامة من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتهويشاً على الحق الواضح فى حديثه ، والصدق المعروف عن شخصه .

والحق الذى لا مرية فيـه أن كبراء قريش لم يصدقوا أنفسهم لحظة وهم يقولون عن محمد ابن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى يعرفونه حق المعرفة : إنه ساحر وإنه كذاب ! إنما كان هذا سلاحا من أسلحة التهويش والتضليل وحرب الخداع التى يتقنها الـكبراء ؛ ويتخذونها لحماية أنفسهم ومراكزهم من خطر الحق الذى يتمثل فى هـذه العقيدة ؛ ويزلزل القيم الزائفة والأوضاع الباطلة التى يستند إليها أولئك الـكبراء !

ولقد نقلنا من قبل وننقل هنا واقعة الاتفاق بين كبراء قريش على استخدام حرب الدعاية ضد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والحق الذى جاء به ، لحماية أنفسهم وأوضاعهم بين الجماهير فى مكة . ولصد القبائل التى كانت تفد إلى مكة فى موسم الحج ، عن الدين الجديد وصاحبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

قال ابن إسحاق : إن الوليد ابن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ـ وكان ذا سن فيهم ـ وقد حضر الموسم . فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً . ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ، ويرد قولكم بعضه بعضا . قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقل به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول : كاهن . قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الـكهان ، فما هو بزمزمة الـكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول : مجنون . قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر . قالوا : فنقول . ساحر . قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم . قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق[1] ، وإن فرعه لجناة[2] . وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيـه لأن تقولوا : هو ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته . فتفرقوا عنه

(١) العذق : الـكثير الشعب والأطراف . (٢) جناة : أى فيه ثمر يجنى .

Marfat.com

بذلك . فجعلوا يجلسون بسبل الناس – حين قدموا الموسم – لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا له أمره . . .

فذلك كان شأن الملأ من قريش فى قولهم : ساحر كذاب . وهم يعلمون أنهم يكذبون فيما يقولون . ويعرفون أنه لم يكن – صلى الله عليه وسلم – بساحر ولا كذاب !

وعجبوا كذلك من دعوته إياهم إلى عبادة الله الواحد . وهى أصدق كلمة وأحقها بالاستماع: « أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هـذا لشىء عجاب . وانطلق الملأ منهم : أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشىء يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق » .

ويصور التعبير القرآنى مدى دهشتهم من هذه الحقيقة الفطرية القريبة . . « أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ » كأنه الأمر الذى لا يتصوره متصور ! « إن هذا لشىء عجاب » . . حتى البناء اللفظى « عجاب » يوحى بشدة العجب وضخامته وتضخيمه !

كما يصور طريقتهم فى مقاومة هـذه الحقيقة فى نفوس الجماهير ، وتثبيتهم على ماهم عليه من عقيدة موروثة متهافتة . وإيهامهم أن وراء الدعوة الجديدة خبيئاً غير ظاهرها ؛ وأنهم هم الكبراء العليمون ببواطن الأمور ، مدركون لما وراء هذه الدعوة من خبء ! « وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد » . . فليس هو الدين ، وليست هى العقيدة ، إنما هو شىء آخر يراد من وراء هـذه الدعوة . شىء ينبغى أن تدعه الجماهير لأربابه ، ولمن يحسنون فهم الخبآت وإدراك المناورات ! وتنصرف هى إلى عادتها الموروثة ، وآلهتها المعروفة ، ولا تعنى نفسها بما وراء المناورة الجديدة ! فهناك أربابها الكفيلون بمقاومتها. فلتطمئن الجماهير ، فالكبراء ساهرون على مصالحهم وعقائدهم وآلهتهم !

إنها الطريقة المألوفة المكرورة التى يصرف بها الطغاة جماهيرهم عن الاهتمام بالشؤون العامة ، والبحث وراء الحقيقة ، وتدبر ما يواجههم من حقائق خطرة . ذلك أن اشتغال الجماهير بمعرفة الحقائق بأنفسهم خطر على الطغاة ، وخطر على الكبراء ، وكشف للأباطيل التى يغرقون فيها الجماهير . وهم لا يعيشون إلا بإغراق الجماهير فى الأباطيل !

ثم يموهون على الناس بظواهر العقيدة القريبة منهم . عقيدة أهل الكتاب . بعدما دخلت إليها الأساطير التى حرفتها عن التوحيد الخالص فيقولون :

« ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة . إن هذا إلا اختلاق » .

Marfat.com

وكانت عقيدة التثليث قد شاعت فى المسيحية. وأسطورة العزير قد شاعت كذلك فى اليهودية. فكبراء قريش كانوا يشيرون إلى هـذا وهم يقولون : « ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة » . . ما سمعنا بهذا التوحيد المطلق لله . الذى جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فما يقول إذن إلا اختلاقا !

ولقد حرص الإسلام حرصاً شديداً على تجريد عقيدة التوحيد وتخليصها من كل ماعلق بها من الأساطير والأوشاب والانحرافات التى طرأت على العقائد التى سبقته . حرص هذا الحرص لأن التوحيد حقيقة أولية كبيرة يقوم عليها هذا الوجود كله ؛ ويشهد بها هذا الوجود شهادة واضحة أكيدة . ولأن هذا التوحيد فى الوقت ذاته قاعدة لاتصلح الحياة البشرية كلها فى أصولها وفروعها إلا إذا قامت عليها .

ويحسن ونحن نستعرض مقاومة قريش لهذه العقيدة ودهشتها وعجبها من جعل الآلهة إلها واحدا. ومقاومة المشركين قبل قريش على مدار القرون ومدار الرسالات لهذه الحقيقة كذلك. وإصرار كل رسول عليها ، وقيام كل رسالة على أساسها . والجهد الضخم الذى بذل فى إقرار هذه الحقيقة فى نفوس البشر على مدار الزمان . . يحسن أن نتوسع قليلا فى بيان قيمة هـذه الحقيقة .

إنها حقيقة أولية كبيرة يقوم عليها الوجود ، ويشهد بها كل ما فى الوجود . .

إن وحدة النواميس الكونية التى تتحكم فى هذا الكون الذى نراه واضحة ؛ وناطقة بأن الإرادة التى أنشأت هذه النواميس لابد أن تكون واحدة . . وحيثما نظرنا إلى هذا الكون واجهتنا هذه الحقيقة . حقيقة وحدة النواميس . وحدة تشى بوحدة الإرادة .

كل ما فى هذا الكون فى حركة دائمة منتظمة .. الذرة الصغيرة وهى الوحدة الأولى لكل ما فى الكون من شىء ـ حى أو غير حى ـ فى حركة مستمرة . فهى مؤلفة من الكترونات تتحرك حول النواة المؤلفة من بروتونات . كما تدور الكواكب حول الشمس فى المجموعة الشمسية . وكما تدور المجرة المؤلفة من مجموعات شمسية ومن كتل سديمية حول نفسها .. واتجاه الدورة فى الكواكب وفى الشمس وفى المجرة اتجاه واحد من الغرب إلى الشرق . عكس دورة الساعة ![1] .

(١) عن كتاب : مع الله فى السماء للدكتور أحمد زكى المدير السابق لجامعة القاهرة .

Marfat.com

والعناصر التي تتكون منها الأرض وبقية الكواكب السيارة واحدة . وعناصر النجوم هي كذلك من عناصر الأرض. والعناصر مؤلفة من ذرات . والذرات مؤلفة من الكترونات وبروتونات ونيوترونات .. كلها مؤلفة من هذه اللبنات الثلاث بلا استثناء ..

« وفى الوقت الذى ترد فيه المادة إلى ثلاث لبنات . يرد العلماء « القوى » إلى أصل واحد: الضوء والحرارة . الأشعة السينية ، الأشعة اللاسلكية ، الأشعة الجيمية . وكل إشعاع فى الدنيا .. كلها صور متعددة لقوة واحدة . تلك القوة المغناطيسية الكهربائية . إنها جميعا تسير بسرعة واحدة ، وما اختلافها إلا اختلاف موجة .

« المادة ثلاث لبنات . والقوى موجات متأصلات .

« ويأتى اينشتين وفى نظريته النسبية الخاصة ، يكافىء بين المادة والقوى ؛ ويقول : إن المادة والقوى شيء سواء . وتخرج التجارب تصدق دعواه . وخرجت تجربة أخيرة صدقت دعواه بأعلى صوت تسمعه الدنيا . ذلك انفلاق الذرة فى القنبلة اليودينوتية .

« المادة والقوى إذن شيء سواء »[1] .

هذه هى الوحدة فى تكوين الكون كما عرفها الإنسان أخيراً فى تجاربه المحسوسة . . وهناك الوحدة الظاهرة فى نظام الكون كما أشرنا إلى قانون الحركة الدائبة . ثم هى الحركة المنظمة المنسقة التى لا يشذ فيها شيء فى هذا الكون . ولا يضطرب فيها شيء .. توازن هذه الحركة فى جميع الكائنات بحيث لا يعطل بعضها بعضا ولا يصدم بعضها بعضا . وأقرب مثل هذه الكواكب والنجوم والمجرات الضخمة التى تسبح فى الفضاء : « وكل فى فلك يسبحون » . . والتى تشهد بأن مجريها فى هذا الفضاء ، المنظم لحركتها وأبعادها ومواقعها واحد لا يتعدد ، عارف بطبيعتها وحركتها . مقدر لهذا كله فى تصميم هذا الكون العجيب .

ونكتفى بهذه اللمحة الخاطفة فى تتبع حقيقة الوحدة التى ينطق بها نظام هذا الكون ويشهد بها كل مافيه .

وهى حقيقة لا يستقيم أمر هذه البشرية إلا عليها . فوضوح هذه الحقيقة فى الضمير البشرى ذو أهمية بالغة فى تصور البشر للكون من حولهم ، ولموضعهم هم فى هذا الكون ، ولعلاقتهم بكل ما فيه من أشياء وأحياء . ثم فى تصورهم لله الواحد ولحقيقة ارتباطهم به ، وبما

(١) كتاب : « مع الله فى السماء » للدكتور أحمد زكى مدير جامعة القاهرة السابق .

Marfat.com

Marfat.com

عداه ومن عداه فى هذا الوجود . . وكل ذلك ذو أهمية بالغة فى تكييف مشاعر البشر وتصورهم لكل شؤون الحياة .

والمؤمن بالله الواحد ، المدرك لمعنى هذه الوحدانية ، يكيف علاقته بربه على هذا الأساس، ويضع علاقته بمن عدا الله وبما عداه ، فى موضعها الذى لا تتعداه . فلا تتوزع طاقاته ومشاعره بين آلهة مختلفة الأمزجة ! ولا بين متسلطين عليه غير الله ممن خلق الله !

والمؤمن بأن الله الواحد هو مصدر هذا الوجود الواحد يتعامل مع الوجود ومن فيه وما فيه على أساس من التعارف والتعاون والألفة والمودة ، يجعل للحياة طعما وشكلا غير ما لها فى نفس من لا يؤمن بهذه الوحدة ، ولا يحسها بينه وبين كل ماحوله ومن حوله .

والمؤمن بوحدة الناموس الإلهى فى الكون يتلقى تشريعات الله له وتوجيهاته تلقيا خاصا ، لينسق بين القانون الذى يحكم حياة البشر والناموس الذى يحكم الكون كله ؛ ويؤثر قانون الله ، لأنه هو الذى ينسق بين حركة البشر وحركة الكون العام .

وعلى الجملة فإن إدراك هذه الحقيقة ضرورى لصلاح الضمير البشرى واستقامته واستنارته وتصالحه مع الكون من حوله . وتنسيق حركته مع الحركة الكونية العامة . ووضوح الارتباطات بينه وبين خالقه . ثم بينه وبين الكون حوله . ثم بينه وبين كل مافى الكون من أحياء ومن أشياء ! وما يتبع هذا من تأثرات أخلاقية وسلوكية واجتماعية وإنسانية عامة فى كل مجال من مجالات الحياة(١) .

ومن ثم كان هذا الحرص على إقرار عقيدة التوحيد . وكان هذا الجهد الموصول المكرور مع كل رسالة وكل رسول . وكان هذا الإصرار من الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ على كلمة التوحيد بلا هوادة .

وفى القرآن الكريم يتضح الحرص والجهد والإصرار فى تكرار عرض قضية التوحيد ومقتضياتها فى السور المكية على وجه التخصيص وفى السور المدنية كذلك فى صور تناسب طبيعة الموضوعات التى تعالجها السور المدنية .

وهذه هى الحقيقة التى كان المشركون يعجبون ذلك العجب من إصرار محمد ـ صلى الله

---

(١) أرجو أن يوفق الله إلى تفصيل هذا كله فى كتاب : « فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان » .

عليه وسلم ـ عليها ويحاورونه فيها ويداورونه ، ويعجبون الناس منه ومنها ، ويصرفونهم عنها بكل وسيلة .

* * *

وقد مضوا بعد هذا يعجبون من اختياره ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليكون رسولا :

« أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟ » . .

وما كان فى هذا من غرابة . ولكنه كان الحسد ، الحسد الذى يدعو إلى العناد والمكابرة والشقاق .

قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد ابن مسلم ابن شهاب الزهرى ، أنه حدث ، أن أبا سفيان ابن حرب وأبا جهل ابن هشام ، والأخنس ابن شريق ابن عمرو ابن وهب الثقفى حليف بنى زهرة ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يصلى من الليل فى بيته . فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ؛ فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا . ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ماقالوه أول مرة . ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض . لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك . ثم تفرقوا . . فلما أصبح الأخنس ابن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته ، فقال : أخبرنى ياأبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . فقال : ياأبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف مايراد بها ، وسمعت أشياء ماعرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذى حلفت به كذلك ! قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه فى بيته ، فقال : ياأبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لانؤمن به أبدا ولا نصدقه ! فقام عنه الأخنس وتركه . .

Marfat.com

فهو الحسد كما نرى . يقعد بأبى جهل عن الاعتراف بالحق الذى غالب نفسه عليه فغلبته ثلاث ليال ! هو الحسد أن يكون محمد قد بلغ إلى مالا مطمع فيه لطامع . وهو السر فى قولة من كانوا يقولون :

« أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟ » . .

وهم الذين كانوا يقولون : « لولا أنزل هـذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » . . يقصدون بالقريتين مكة والطائف، وفيهما كان كبراء المشركين وعظماؤهم الحاكمون المسودون؛ الذين كانوا يتطلعون إلى السيادة عن طريق الدين ، كلما سمعوا أن نبياً جديدا قد أظل زمانه . والذين صدموا صدمة الحسد والكبر حينما اختار الله — على علم — نبيه محمدا — صلى الله عليه وسلم — وفتح له من أبواب رحمته وأفاض عليه من خزائنها ما علم أنه يستحقه دون العالمين .

ويرد على تساؤلهم ذاك رداً تفوح منه رائحة التهكم والإنذار والتهديد :

« بل هم فى شك من ذكرى . بل لما يذوقوا عذاب » . .

إنهم يسألون : « أأنزل عليه الذكر من بيننا ! » . . وهم فى شك من الذكر ذاته ، لم تستيقن نفوسهم أنه من عند الله ؛ وإن كانوا يمارون فى حقيقته ، وهو فوق المألوف من قول البشر مما يعرفون .

ثم يضرب عن قولهم فى الذكر ، وعن شكهم فيه ، ليستقبل بهم تهديدا بالعذاب ، « بل لما يذوقوا عذاب » . . وكأنما ليقول : إنهم يقولون مايقولون لأنهم فى منجاة بعد من العذاب ؛ فأما حين يذوقونه فلن يقولوا من هذا شيئاً ، لأنهم حينئذ سيعرفون !

ثم يعقب على استكثارهم رحمة الله لمحمد فى اختياره رسولا من بينهم ، بسؤالهم إن كانوا يملكون خزائن رحمة الله ، حتى يتحكموا فيمن يعطون ومن يمنعون :

« أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ؟ » . .

ويندد بسوء أدبهم مع الله ، وتدخلهم فيما ليس من شأن العبيد . والله يعطى من يشاء ويمنع من يريد . وهو العزيز القادر الذى لايملك أحد أن يقف لإرادته . وهو الوهاب الكريم الذى لا ينفد عطاؤه .

وهم يستكثرون على محمد — صلى الله عليه وسلم — أن يختاره الله . فبأى حق وبأية صفة يوزعون عطاء الله ؟ وهم لا يملكون خزائن رحمته ؟!

Marfat.com

« أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما ؟ » .

وهى دعوى لا يجرؤون على ادعائها . ومالك السماوات والأرض وما بينهما هو الذى يمنح ويمنع ، ويصطفى من يشاء ويختار . وإذ لم يكن لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فما بالهم يدخلون فى شؤون المالك المتصرف فيما يملك بما يشاء ؟

وعلى سبيل التهكم والتبكيت عقب على السؤال عما إذا كان لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما . بأنه إن كان الأمر كذلك « فليرتقوا فى الأسباب » . . ليشرفوا على السماوات والأرض وما بينهما ، ويتحكموا فى خزائن الله ؟ ويعطوا من يشاءون ويمنعوا من يشاءون . كما هو مقتضى اعتراضهم على اختيار الله المالك المتصرف فيما يملك بما يشاء !

ثم أنهى هذا الفرض التهكمى بتقرير حقيقتهم الواقعية :

« جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب » . .

إنهم ما يزيدون على أن يكونوا جندا مهزوما ملقى «هنالك» بعيدا ؛ لا يقرب من تصريف هذا الملك وتدبير تلك الخزائن . ولا شأن له فيما يجرى فى ملك الله ؛ ولا قدرة له على تغيير إرادة الله ؛ ولا قوة له على اعتراض مشيئة الله . . « جند ما » . . جند مجهول منكر هين الشأن، « مهزوم » . . كأن الهزيمة صفة لازمة له ، لاصقة به ، مركبة فى كيانه ! « من الأحزاب » . . المختلفة الاتجاهات والأهواء !

وما يبلغ أعداء الله ورسوله إلا أن يكونوا فى هـذا الموضع الذى تصوره ظلال التعبير القرآنى ، الموحية بالعجز والضعف والبعد عن دائرة التصريف والتدبير . مهما تبلغ قوتهم ، ويتطاول بطشهم ، ويتجبروا فى الأرض فترة من الزمان .

ويضرب الله الأمثال لأولئك المتجبرين على مدار القرون ؛ فإذا هم « جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب » :

« كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة . أولئك الأحزاب . إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب » . .

فهذه أمثلة ممن سبقوا قريشاً فى التاريخ . قوم نوح . وعاد . وفرعون صاحب الأهرام التى تقوم فى الأرض كالأوتاد . وثمود . وقوم لوط . وقوم شعيب أصحاب الأيكة ــ الغابة الملتفة ــ

Marfat.com

« أولئك الأحزاب » ! الذين كذبوا الرسل. فماذا كان من شأنهم وهم طغاة بغاة متجبرون ؟..
« فحق عقاب » . . وكان ما كان من أمرهم . وذهبوا فلم يبق منهم غير آثار تنطق بالهزيمة والاندحار !

ذلك كان شأن الأحزاب الغابرة فى التاريخ . . فأما هؤلاء فمتروكون - فى عمومهم - إلى الصيحة التى تنهى الحياة فى الأرض . قبيل يوم الحساب :

« وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق » . .

هـذه الصيحة إذا جاءت لا تستأخر ولو فترة قصيرة مقدار فواق ناقة . وهى المسافة بين الحلبتين ! لأنها تجىء فى موعدها المحدد ، الذى لايستقدم ولا يستأخر . كما قدر الله لهذه الأمة الأخيرة أن ينظرها ويمهلها ، فلا يأخذها بالدمار والهلاك كما أخذ من قبل أولئك الأحزاب .

وكان هذا رحمة بهم من الله . ولـكنهم لم يعرفوا قدر هذه الرحمة ، ولم يشكروا الله هذه المنة . فاستعجلوا جزاءهم ، وطلبوا أن يوفيهم الله حظهم ونصيبهم، قبل اليوم الذى أنظرهم إليه :

« وقالوا : ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب » . .

وعند هذا الحد يتركهم السياق . ويلتفت إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - يسليه عن حماقة القوم وسوء أدبهم مع الله ، واستعجالهم بالجزاء ، وتـكذيبهم بالوعيد ، وكفرهم برحمة الله . . . ويدعوه أن يذكر ما وقع للرسل قبله من ابتلاء . وما نالهم من رحمة الله بعد البلاء . .

« وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ⑰ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ .

« وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا : لَا تَخَفْ ، خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ، فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ، وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ، وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ

Marfat.com

فقالَ : أكْفِلْنِيهَا ، وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ * قَالَ : لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، إِلَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ ـ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ـ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ، فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ .

« يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ ، إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ ٱلْحِسَابِ .

« وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً . ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ؟ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ؟ * كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو ٱلْأَلْبَابِ .

« وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ ، نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ * فَقَالَ : إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ ، فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ .

« وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ، ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ : رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ، إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَٱلشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ * هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ .

« وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا

Marfat.com

Marfat.com

وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ، إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ .

« وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ، ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ .

« وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ » ﴿٤٨﴾

هذا الدرس كله قصص وأمثلة من حياة الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ تعرض كي يذكرها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويدع ما يعانيه من قومه من تكذيب واتهام وتعجيب وافتراء ؛ ويصبر على ما يواجهونه به مما تضيق به الصدور .

وهذا القصص يعرض ـ فى الوقت ذاته ـ آثار رحمة الله بالرسل قبله : وما أغدق عليهم من نعمة وفضل ، وما آتاهم من ملك وسلطان ومن رعاية وإنعام . وذلك ردا على عجب قومه من اختيار الله له . وما هو ببدع من الرسل . وفيهم من آتاه الله إلى جانب الرسالة الملك والسلطان ؛ وفيهم من سخر له الجبال يسبحن معه والطير ؛ وفيهم من سخر له الريح والشياطين.. كداود وسليمان . . فما وجه العجب فى أن يختار الله محمدا الصادق لينزل عليه الذكر من بين قريش فى آخر الزمان ؟

كذلك يصور هـذا القصص رعاية الله الدائمة لرسله ، وحياطتهم بتوجيهه وتأديبه . فقد كانوا بشرا ـ كما أن محمدا صلى الله عليه وسلم بشر ـ وكان فيهم ضعف البشر . وكان الله يرعاهم فلا يدعهم لضعفهم ؛ إنما يبين لهم ويوجههم ، ويبتليهم ليغفر لهم ويكرمهم . وفى هذا ما يطمئن قلب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى رعاية ربه له ، وحمايته وحياطته فى كل خطوة يخطوها فى حياته .

* * *

« اصبر على مايقولون ، واذكر عبدنا أيوب ذا الأيد ، إنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه

يسبحن بالعشى والإشراق . والطير محشورة كل له أواب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » . .

« اصبر » . . إنها الإشارة إلى الطريق المطروق فى حياة الرسل – عليهم صلوات الله – الطريق الذى يضمهم أجمعين . فكلهم سار فى هذا الطريق . كلهم عانى . وكلهم ابتلى . وكلهم صبر . وكان الصبر هو زادهم جميعا . وطابعهم جميعا . كل حسب درجته فى سلم الأنبياء . . لقد كانت حياتهم كلها تجربة مفعمة بالابتلاءات ؛ مفعمة بالآلام ؛ وحتى السراء كانت ابتلاء وكانت محكا للصبر على النعماء بعد الصبر على الضراء . وكلتاهما فى حاجة إلى الصبر والاحتمال . .

ونستعرض حياة الرسل جميعا – كما قصها علينا القرآن الكريم – فنرى الصبر كان قوامها ، وكان العنصر البارز فيها . ونرى الابتلاء والامتحان كان مادتها وماءها . .

لكأنما كانت تلك الحياة المختارة – بل إنها لكذلك – صفحات من الابتلاء والصبر معروضة للبشرية ، لتسجل كيف تنتصر الروح الإنسانية على الآلام والضرورات ؛ وكيف تستعلى على كل ما تعتز به فى الأرض ؛ وتتجرد من الشهوات والمغريات ؛ وتخلص لله وتنجح فى امتحانه ، وتختاره على كل شىء سواه . . ثم لتقول للبشرية فى النهاية : هذا هو الطريق . هذا هو الطريق إلى الاستعلاء ، وإلى الارتفاع . هذا هو الطريق إلى الله .

« اصبر على ما يقولون » . . وقد قالوا : « هذا ساحر كذاب » . . وقالوا : « أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشىء عجاب » . . وقالوا : « أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟ » . . وغير ذلك كثير . والله يوجه نبيه إلى الصبر على ما يقولون . ويوجهه إلى أن يعيش بقلبه مع نماذج أخرى غير هؤلاء الكفار . نماذج مستخلصة كريمة . هم إخوانه من الرسل الذين كان يذكرهم – صلى الله عليه وسلم – ويحس بالقرابة الوثيقة بينه وبينهم ؛ ويتحدث عنهم حديث الأخوة والنسب والقرابة . وهو يقول . . رحم الله أخى فلاناً . . أو أنا أولى بفلان .

« اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب » . .

يذكر داود هنا بأنه ذو القوة . وبأنه أواب . . وقد جاء من قبل ذكر قوم نوح وعاد وفرعون ذى الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة . . وهم طغاة بغاة . كان مظهر قوتهم هو الطغيان والبغى والتكذيب . فأما داود فقد كان ذا قوة ، ولكنه كان أوابا ، يرجع إلى ربه طائعا تائبا عابدا ذاكرا . وهو القوى ذو الأيد والسلطان .

Marfat.com

Marfat.com

وقد مضى فى سورة البقرة بدء قصة داود ، وظهوره فى جيش طالوت ، فى بنى إسرائيل - من بعد موسى - إذ قالوا لنبي لهم: ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله . فاختار لهم طالوت ملكا . ولقى بهم عدوهم الجبار جالوت وجنوده . وقتل داود جالوت . وكان إذ ذاك فتى . ومنذ ذلك الحين ارتفع نجمه حتى ولى الملك أخيراً ؛ وأصبح ذا سلطان . ولكنه كان أوابا رجاعا إلى ربه بالطاعة والعبادة والذكر والاستغفار .

ومع النبوة والملك آتاه الله من فضله قلبا ذاكرا وصوتا رخيما ، يرجع به تراتيله التى يمجد فيها ربه . وبلغ من قوة استغراقه فى الذكر ، ومن حسن حظه فى الترتيل ، أن تزول الحواجز بين كيانه وكيان هذا الكون . وتتصل حقيقته بحقيقة الجبال والطير فى صلتها كلها ببارئها ، وتمجيدها له وعبادتها . فإذا الجبال تسبح معه ، وإذا الطير مجموعة عليه ، تسبح معه لمولاها ومولاه :

« إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق . والطير محشورة كل له أواب » ..

ولقد يقف الناس مدهوشين أمام هذا النبأ . . الجبال الجامدة تسبح مع داود بالعشى والإشراق ، حينما يخلو إلى ربه ، يرتل ترانيمه فى تمجيده وذكره . والطير تتجمع على نغماته لتسمع له وترجع معه أناشيده . . لقد يقف الناس مدهوشين للنبأ ، إذ يخالف مألوفهم ، ويخالف ما اعتادوا أن يحسوه من العزلة بين جنس الإنسان ، وجنس الطير ، وجنس الجبال!

ولكن فيم الدهش ؟ وفيم العجب ؟ إن لهذه الخلائق كلها حقيقة واحدة . وراء تميز الأجناس والأشكال والصفات والسمات . حقيقة واحدة يجتمعون فيها ببارىء الوجود كله : أحيائه وأشيائه جميعا . وحين تصل صلة الإنسان بربه إلى درجة الخلوص والإشراق والصفاء ، فإن تلك الحواجز تنزاح ؛ وتنساح الحقيقة المجردة لكل منهم . فتتصل من وراء حواجز الجنس والشكل والصفة والسمة التى تميزهم وتعزلهم فى مألوف الحياة !

وقد وهب الله عبده داود هذه الخاصية ؛ وسخر الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق . وحشر عليه الطير ترجع مع ترانيمه تسبيحا لله . وكانت هذه هبة فوق الملك والسلطان ، مع النبوة والاستخلاص .

« وشددنا ملكه . وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » ..

فكان ملكه قويا عزيزا . وكان يسوسه بالحكمة والحزم جميعا . وفصل الخطاب قطعه

Marfat.com

والجزم فيه برأى لا تردد فيه . وذلك مع الحكمة ومع القوة غاية الكمال فى الحكم والسلطان فى عالم الإنسان .

ومع هذا كله فقد تعرض داود للفتنة والابتلاء ؛ وكانت عين الله عليه لترعاه وتقود خطاه، وكانت يد الله معه تكشف له ضعفه وخطأه ، وتوقيه خطر الطريق وتعلمه كيف يتوقاه :

« وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ؟ إذ دخلوا على داود ففزع منهم . قالوا : لا تخف . خصمان بغى بعضنا على بعض . فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط . واهدنا إلى سواء الصراط . إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ، فقال : أكفلنيها ، وعزنى فى الخطاب . قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ وقليل ماهم ـ وظن داود أنما فتناه . فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب » . .

وبيان هذه الفتنة أن داود النبى الملك ، كان يخصص بعض وقته للتصرف فى شؤون الملك، وللقضاء بين الناس . ويخصص البعض الآخر بالخلوة والعبادة وترتيل أناشيده تسبيحا لله فى المحراب . وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس .

وفى ذات يوم فوجىء بشخصين يتسوران المحراب المغلق عليه . ففزع منهم . فما يتسور المحراب هكذا مؤمن ولا أمين ! فبادرا يطمئنانه . « قالوا : لا تخف . خصمان بغى بعضنا على بعض » . وجئنا للتقاضى أمامك « فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط » . . وبدأ أحدهما فعرض خصومته : « هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة . فقال : أكفلنيها (أى اجعلها لى وفى ملكى وكفالتى) « وعزنى فى الخطاب » (أى شدد على فى القول وأغلظ) .

والقضية ـ كما عرضها أحد الخصمين ـ تحمل ظلما صارخا مثيرا لا يحتمل التأويل . ومن ثم اندفع داود يقضى على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة ؛ ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثا ، ولم يطلب إليه بيانا ، ولم يسمع له حجة . ولكنه مضى يحكم : « قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه . وإن كثيرا من الخلطاء ـ (أى الأقرباء المخالطين بعضهم لبعض) ـ ليبغى بعضهم على بعض . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم » . .

ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان : فقد كانا ملكين جاءا للامتحان !

امتحان النبي الملك الذى ولاه الله أمر الناس ، ليقضى بينهم بالحق والعدل ، وليتبين الحق قبل إصدار الحكم . وقد اختارا أن يعرضا عليه القضية فى صورة صارخة مثيرة .. ولكن القاضى عليه ألا يستثار ، وعليه ألا يتعجل . وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد . قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته؛ فقد يتغير وجه المسألة كله ، أو بعضه ، وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعا أو كاذبا أو ناقصا !

عند هذا تنبه داود إلى أنه الابتلاء :

« وظن داود أنما فتناه » . .

وهنا أدركته طبيعته .. إنه أواب .. « فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب » .

« فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » . . وخاضت بعض التفاسير مع الإسرائيليات حول هذه الفتنة خوضا كبيرا . تتنزه عنه طبيعة النبوة . ولا يتفق إطلاقا مع حقيقتها . حتى الروايات التى حاولت تخفيف تلك الأساطير سارت معها شوطا . وهى لا تصلح للنظر من الأساس . ولا تتفق مع قول الله تعالى : « وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » . .

والتعقيب القرآنى الذى جاء بعد القصة يكشف كذلك عن طبيعة الفتنة ؛ ويحدد التوجيه المقصود بها من الله لعبده الذى ولاه القضاء والحكم بين الناس :

« ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق . ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد . بما نسوا يوم الحساب » . .

فهى الخلافة فى الأرض ، والحكم بين الناس بالحق ، وعدم اتباع الهوى . واتباع الهوى – فيما يختص بنبي – هو السير مع الانفعال الأول ، وعدم التريث والتثبت والتبين . . مما ينتهى مع الاستطراد فيه إلى الضلال . أما عقب الآية المصور لعاقبة الضلال فهو حكم عام مطلق على نتائج الضلال عن سبيل الله . وهو نسيان الله والتعرض للعذاب الشديد يوم الحساب .

ومن رعاية الله لعبده داود ، أنه نبهه عند أول لفتة . ورده عند أول اندفاعة . وحذره النهاية البعيدة . وهو لم يخط إليها خطوة ! وذلك فضل الله على المختارين من عباده . فهم ببشريتهم قد تعثر أقدامهم أقل عثرة ، فيقيلها الله ، ويأخذ بيدهم ، ويعلمهم ، ويوفقهم إلى الإنابة ، ويغفر لهم ، ويغدق عليهم ، بعد الابتلاء . .

* * *

Marfat.com

Marfat.com

وعند تقرير مبدإ الحق فى خلافة الأرض ، وفى الحكم بين الناس . . وقبل أن تمضى قصة داود إلى نهايتها فى السياق .. يرد هـذا الحق إلى أصله الكبير . أصله الذى تقوم عليه السماء والأرض وما بينهما . أصله العريق فى كيان هذا الكون كله . وهو أشمل من خلافة الأرض ، ومن الحكم بين الناس . وهو أكبر من هذه الأرض . كما أنه أبعد مدى من الحياة الدنيا . إذ يتناول صميم الكون كما يتناول الحياة الآخرة . ومنه وعليه جاءت الرسالة الأخيرة ، وجاء الكتاب المفسر لذلك الحق الشامل الكبير :

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا . ذلك ظن الذين كفروا . فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ؟ أم نجعل المتقين كالفجار ؟ كتاب أنزلناه إليك مبارك ، ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب » . .

وهكذا : فى هـذه الآيات الثلاث ، تتقرر تلك الحقيقة الضخمة الهائلة الشاملة الدقيقة العميقة . بكل جوانبها وفروعها وحلقاتها . .

إن خلق السماء والأرض وما بينهما لم يكن باطلا ، ولم يقم على الباطل . إنما كان حقا وقام على الحق . ومن هذا الحق الكبير تتفرع سائر الحقوق . الحق فى خلافة الأرض . والحق فى الحكم بين الخلق . والحق فى تقويم مشاعر الناس وأعمالهم ؛ فلا يكون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ؛ ولا يكون وزن المتقين كوزن الفجار . والحق الذى جاء به الكتاب المبارك الذى أنزله الله ليتدبروا آياته وليتذكر أصحاب العقول ما ينبغى أن يتذكروه من هذه الحقائق الأصيلة ، التى لا يتصورها الكافرون ، لأن فطرتهم لا تتصل بالحق الأصيل فى بناء هذا الكون ، ومن ثم يسوء ظنهم بربهم ولا يدركون من أصالة الحق شيئا .. « ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » . .

إن شريعة الله للناس طرف من ناموسه فى خلق الكون . وإن كتابه المنزل بيان للحق الذى يقوم عليه الناموس . وإن العدل الذى يطالب به الخلفاء فى الأرض والحكام بين الناس إنما هو طرف من الحق الكلى ، لا يستقيم أمر الناس إلا حين يتناسق مع بقية الأطراف . وإن الانحراف عن شريعة الله والحق فى الخلافة والعدل فى الحكم إنما هو انحراف عن الناموس الكونى الذى قامت عليه السماء والأرض ؛ وهو أمر عظيم إذن ، وشر كبير ، واصطدام مع القوى الكونية الهائلة لابد أن يتحطم فى النهاية ويزهق . فما يمكن أن يصمد ظالم باغ منحرف عن

سنة الله وناموس الكون وطبيعة الوجود . . ما يمكن أن يصمد بقوته الهزيلة الضئيلة لتلك القوى الساحقة الهائلة ، ولعجلة الكون الجبارة الطاحنة !

وهذا ما ينبغي أن يتدبره المتدبرون وأن يتذكره أولو الألباب . .

* * *

وبعد هذا التعقيب المعترض فى صلب القصة لكشف تلك الحقيقة الضخمة ، يمضى السياق يعرض نعمة الله على داود فى عقبه وولده سليمان ؛ وماوهبه الله من ألوان الإنعام والإفضال . كما يعرض فتنته وابتلاءه ورعاية الله له ، وإغداقه عليه بعد الفتنة والابتلاء :

« ووهبنا لداود سليمان . نعم العبد . إنه أواب . إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد . فقال : إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب . ردوها علىّ . فطفق مسحا بالسوق والأعناق . ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب . قال : رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ، إنك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين فى الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » . .

والإشارتان الواردتان هنا عن الصافنات الجياد وهى الخيل الكريمة . وعن الجسد الذى ألقى على كرسى سليمان . . كلتاهما إشارتان لم تسترح نفسى لأى تفسير أو رواية مما احتوته التفاسير والروايات عنهما . فهى إما إسرائيليات منكرة ، وإما تأويلات لا سند لها . ولم أستطع أن أتصور طبيعة الحادثين تصورا يطمئن إليه قلبى ، فأصوره هنا وأحكيه . ولم أجد أثرا صحيحا أركن إليه فى تفسيرهما وتصويرهما سوى حديث صحيح . صحيح فى ذاته ولكن علاقته بأحد هذين الحادثين ليست أكيدة . هذا الحديث هو ما رواه أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخرجه البخارى فى صحيحه مرفوعا . ونصه : « قال سليمان : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة . كل واحدة تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله . ولم يقل : إن شاء الله . فطاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل . والذى نفسى بيده ، لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون » . . وجائز أن تكون هذه هى الفتنة التى تشير إليها الآيات هنا ، وأن يكون الجسد هو هذا الوليد الشق . ولكن هذا مجرد احتمال . . أما قصة الخيل فقيل : إن سليمان ـ عليه السلام ـ استعرض خيلا له بالعشى .

Marfat.com

ففاتته صلاة كان يصليها قبل الغروب . فقال ردوها علىّ . فردوها عليه فجعل يضرب أعناقها وسيقانها جزاء ما شغلته عن ذكر ربه . ورواية أخرى أنه إنما جعل يمسح سوقها وأعناقها إكراما لها لأنها كانت خيلا فى سبيل الله . . وكلتا الروايتين لا دليل عليها . ويصعب الجزم بشىء عنها .

ومن ثم لا يستطيع متثبت أن يقول شيئاً عن تفصيل هذين الحادثين المشار إليهما فى القرآن .

وكل مانخرج به هو أنه كان هناك ابتلاء من الله وفتنة لنبى الله سليمان — عليه السلام — فى شأن يتعلق بتصرفاته فى الملك والسلطان كما يبتلى الله أنبياءه ليوجههم ويرشدهم ، ويبعد خطاهم عن الزلل . وأن سليمان أناب إلى ربه ورجع ، وطلب المغفرة ؛ واتجه إلى الله بالدعاء والرجاء :

« قال : رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب » . .

وأقرب تأويل لهذا الطلب من سليمان — عليه السلام — أنه لم يرد به أثرة . إنما أراد الاختصاص الذى يتجلى فى صورة معجزة . فقد أراد به النوع . أراد به ملكا ذا خصوصية تميزه من كل ملك آخر يأتى بعده . وذا طبيعة معينة ليست مكررة ولا معهودة فى الملك الذى يعرفه الناس .

وقد استجاب له ربه ، فأعطاه فوق الملك المعهود ، ملكا خاصا لا يتكرر :

« فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين فى الأصفاد » . .

وتسخير الريح لعبد من عباد الله بإذن الله ؛ لا يخرج فى طبيعته عن تسخير الريح لإرادة الله . وهى مسخرة لإرادته تعالى ولا شك ، تجرى بأمره وفق نواميسه ؛ فإذا يسر الله لعبد من عباده فى فترة من الفترات أن يعبر عن إرادة الله سبحانه وأن يوافق أمره أمر الله فيها ؛ وأن تجرى الريح رخاء حيث أراد ؛ فذلك أمر ليس على الله بمستبعد . ومثله يقع فى صور شتى . والله سبحانه يقول فى القرآن للرسول — صلى الله عليه وسلم — « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ، ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا » . . فما معنى هذا ؟ معناه أنهم إذا لم ينتهوا فستتجه إرادتنا إلى تسليطك عليهم وإخراجهم من المدينة .

Marfat.com

Marfat.com

وسيتم هذا بتوجيه إرادتك أنت ورغبتك إلى قتالهم وإخراجهم ؛ فتتم إرادتنا بهم عن طريقك. فهذا لون من توافق أمر الله – سبحانه – وأمر النبي – صلى الله عليه وسلم – وإرادة الله وأمره هما الأصلان . وهما يتجليان فى إرادة الرسول وأمره وفق ما أراد الله . وهذا يقرب إلينا معنى تسخير الريح لأمر سليمان – عليه السلام – تسخيرها لأمره المطابق لأمر الله فى توجيه هذه الرياح ، الممثل لأمر الله المعبر عنه على كل حال .

كذلك سخر له الشياطين لتبنى له ما يشاء ؛ وتغوص له فى البحر والأرض فى طلب مايشاء . وأعطاه السلطة لعقاب المخالفين والمفسدين ممن سخرهم له وتكبيلهم بالأصفاد مقرونة أيديهم إلى أرجلهم . أو مقرنين اثنين اثنين أو أكثر فى القيود عند الاقتضاء .

ثم قيل له : إنك مطلق اليد فيما وهب الله لك من سلطة ومن نعمة . تعطى من تشاء كيف تشاء . وتمسك عمن تشاء قدر ما تشاء :

« هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب » . .

وذلك زيادة فى الإكرام والمنة . ثم زاد على هذا كله أن له عند ربه قربى فى الدنيا وحسن مآب فى الآخرة :

« وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » . .

وتلك درجة عظيمة من الرعاية والرضى والإنعام والتكريم .

* * *

ثم نمضى مع قصة الابتلاء والصبر ، والإنعام بعد ذلك والإفضال . نمضى فى السياق مع قصة أيوب :

«واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب . اركض برجلك . هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب . وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث ، إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب » . .

وقصة ابتلاء أيوب وصبره ذائعة مشهورة ؛ وهى تضرب مثلا للابتلاء والصبر . ولكنها مشوبة بإسرائيليات تطغى عليها . والحد المأمون فى هذه القصة هو أن أيوب – عليه السلام – كان كما جاء فى القرآن عبدا صالحا أوابا ؛ وقد ابتلاه الله فصبر صبرا جميلا ، ويبدو أن ابتلاءه

Marfat.com

كان بذهاب المال والأهل والصحة جميعا . ولكنه ظل على صلته بربه ، وثقته به ، ورضاه بما قسم له .

وكان الشيطان يوسوس لخلصائه القلائل الذين بقوا على وفائهم له ، ومنهم زوجته ، بأن الله لو كان يحب أيوب ما ابتلاه . وكانوا يحدثونه بهذا فيؤذيه فى نفسه أشد مما يؤذيه الضر والبلاء. فلما حدثته امرأته ببعض هذه الوسوسة حلف لئن شفاه الله ليضربنها عددا عينه - قيل مئة .

وعندئذ توجه إلى ربه بالشكوى مما يلقى من إيذاء الشيطان ، ومداخله إلى نفوس خلصائه، ووقع هذا الإيذاء فى نفسه :

« أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب » ..

فلما عرف ربه منه صدقه وصبره ، ونفوره من محاولات الشيطان ، وتأذيه بها ، أدركه برحمته . وأنهى ابتلاءه ، ورد عليه عافيته . إذ أمره أن يضرب الأرض بقدمه فتتفجر عين باردة يغتسل منها ويشرب فيشفى ويبرأ :

« اركض برجلك . هذا مغتسل بارد وشراب » ..

ويقول القرآن الكريم :

« ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب » ..

وتقول بعض الروايات : إن الله أحيا له أبناءه ووهب له مثلهم ، وليس فى النص ما يحتم أنه أحيا له من مات . وقد يكون معناه أنه بعودته إلى الصحة والعافية قد استرد أهله الذين كانوا بالنسبة إليه كالمفقودين . وأنه رزقه بغيرهم زيادة فى الإنعام والرحمة والرعاية . مما يصلح ذكرى لذوى العقول والإدراك .

والمهم فى معرض القصص هنا هو تصوير رحمة الله وفضله على عباده الذين يبتليهم فيصبرون على بلائه وترضى نفوسهم بقضائه .

فأما قسمه ليضربن زوجه . فرحمة من الله به وبزوجه التى قامت على رعايته وصبرت على بلائه وبلائها به ، أمره الله أن يأخذ مجموعة من العيدان بالعدد الذى حدده . فيضربها به ضربة واحدة . تجزىء عن يمينه ، فلا يحنث فيها :

« وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث » ..

هذا التيسير ، وذلك الإنعام ، كانا جزاء على ماعلمه الله من عبده أيوب من الصبر على البلاء وحسن الطاعة والالتجاء :

« إنا وجدناه صابرا ، نعم العبد ، إنه أواب » . .

* * *

وبعد عرض هذه القصص الثلاثة بشيء من التفصيل ؛ ليذكره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويصبر على مايلاقيه . يجمل السياق الإشارة إلى مجموعة من الرسل . في قصصهم من البلاء والصبر ، ومن الإنعام والإفضال ، ما في قصص داود وسليمان وأيوب ـ عليهم السلام ـ ومنهم سابقون على هؤلاء معروف زمانهم . ومنهم من لا نعرف زمانه ، لأن القرآن والمصادر المؤكدة لدينا لم تحدده :

« واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصه ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار ... » . .

وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ـ وكذلك إسماعيل ـ كانوا قبل داود وسليمان قطعا . ولكن لانعرف أين هم من زمان أيوب . وكذلك اليسع وذو الكفل . ولم يرد عنهما في القرآن إلا إشارات سريعة . وهناك نبي من أنبياء بني إسرائيل اسمه بالعبرية : «إليشع» وهو اليسع بالعربية على وجه الترجيح . فأما ذو الكفل فلا نعرف عنه شيئاً إلا صفته هذه « من الأخيار » . .

ويصف الله سبحانه : إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، بأنهم « أولى الأيدى والأبصار » . . كناية عن العمل الصالح بالأيدى والنظر الصائب أو الفكر السديد بالأبصار . وكأن من لا يعمل صالحا لا يد له . ومن لا يفكر تفكيراً سليما لا عقل له أو لا نظر له !

كما يذكر من صفتهم التكريمية أن الله أخلصهم بصفة خاصة ليذكروا الدار الآخرة ، ويتجردوا من كل شيء سواها : « إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار » . . فهذه ميزتهم ورفعتهم . وهذه جعلتهم عند الله مختارين أخيارا : « وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار » . .

وكذلك يشهد الله ـ سبحانه ـ لإسماعيل واليسع وذى الكفل أنهم من الأخيار . ويوجه خاتم أنبيائه وخير رسله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليذكرهم ويعيش بهم ، ويتأمل صبرهم ورحمة الله بهم . ويصبر على مايلقاه من قومه المكذبين الضالين . فالصبر هو طريق الرسالات .

Marfat.com

Marfat.com

وطريق الدعوات . والله لايدع عباده الصابرين حتى يعوضهم من صبرهم خيرا ورحمة وبركة واصطفاء .. وما عند الله خير . وهان كيد الكائدين وتكذيب المكذبين إلى جانب رحمة الله ورعايته وإنعامه وإفضاله .

« هَٰذَا ذِكْرٌ ، وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ⁽٤٩⁾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ * مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ * وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ * هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ * إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ .

« هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ * هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ .

« هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ . لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ، إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ * قَالُوا : بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ، أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ، فَبِئْسَ الْقَرَارُ * قَالُوا : رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ .

« وَقَالُوا : مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا ؟ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ .

إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ » ⁽٦٤⁾

كانت الجولة الماضية حياة وذكرى مع المختارين من عباد الله . مع الابتلاء والصبر . والرحمة والإفضال . كان هذا ذكرا لتلك الحيوات الرفيعة فى الأرض وفى هذه الدنيا . . ثم يتابع السياق خطاه مع عباد الله المتقين ، ومع المكذبين الطاغين إلى العالم الآخر وفى الحياة الباقية .. يتابعه فى مشهد من مشاهد القيامة . نستعير لعرضه صفحات من كتاب مشاهد القيامة فى القرآن مع تصرف قليل :

Marfat.com

الجزء الثالث والعشرون

يبدأ المشهد بمنظرين متقابلين تمام التقابل فى المجموع وفى الأجزاء ، وفى السمات والهيئات : منظر « التقين » لهم « حسن مآب » . ومنظر « الطاغين » لهم « شر مآب » . فأما الأولون فلهم جنات عدن مفتحة لهم الأبواب . ولهم فيها راحة الاتكاء ، ومتعة الطعام والشراب . ولهم كذلك متعة الحوريات الشواب . وهن مع شبابهن « قاصرات الطرف » لايتطلعن ولا يعددن بأبصارهن . وكلهن شواب أتراب . وهو متاع دائم ورزق من عند الله « ماله من نفاد » .

وأما الآخرون فلهم مهاد . ولكن لا راحة فيه . إنه جهنم « فبئس المهاد » ! ولهم فيه شراب ساخن وطعام مقيء . إنه مايغسق ويسيل من أهل النار ! أو لهم صنوف أخرى من جنس هذا العذاب . يعبر عنها بأنها « أزواج » !

ثم يتم المشهد بمنظر ثالث حى شاخص بما فيه من حوار : فهاهى ذى جماعة من أولئك الطاغين من أهل جهنم . كانت فى الدنيا متوادة متحابة . فهى اليوم متناكرة متنابزة . كان بعضهم على لبعض فى الضلال . وكان بعضهم يتعالى على المؤمنين ، ويهزأ من دعوتهم ودعواهم فى النعيم . كما يصنع الملأ من قريش وهم يقولون : « أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟ » . .

هاهم أولاء يقتحمون النار فوجا بعد فوج . وهاهم أولاء يقول بعضهم لبعض : « هذا فوج مقتحم معكم » . . فماذا يكون الجواب ؟ يكون الجواب فى اندفاع وحنق : « لامرحبا بهم إنهم صالو النار » ! فهل يسكت المشتومون ؟ كلا ! إنهم يردون : « قالوا : بل أنتم لا مرحبا بكم . أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار ! » . . فلقد كنتم أنتم السبب فى هذا العذاب . وإذا دعوة فيها الحنق والضيق والانتقام : « قالوا : ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار » ! .

ثم ماذا ؟ ثم هاهم أولاء يفتقدون المؤمنين ، الذين كانوا يتعالون عليهم فى الدنيا ، ويظنون بهم شرا ، ويسخرون من دعواهم فى النعيم . هاهم أولاء يفتقدونهم فلا يرونهم معهم مقتحمين فى النار ، فيتساءلون : أين هم ؟ أين ذهبوا ؟ أم تراهم هنا ولكن زاغت عنهم أبصارنا ؟ : « وقالوا : ما لنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار أتخذناهم سخريا[1] ؟ أم زاغت عنهم الأبصار ؟ » . . بينما هؤلاء الرجال الذين يتساءلون عنهم هناك فى الجنان !

---

(١) هناك قراءة لا تجعل جملة « أتخذناهم سخريا » استفهامية . ولكن إخبارية وقد اخترنا هذه القراءة لأن المعنى على أساسها أدق وأوضح . وتكون أتخذناهم سخريا تكملة للجملة قبلها ووصفا لرجالا .

ويختم المشهد بتقرير واقع أهل النار :

« إن ذلك لحق تخاصم أهل النار » ! !

فما أبعد مصيرهم عن مصير المتقين . الذين كانوا يسخرون منهم ، ويستكثرون اختيار الله لهم . وما أبأس نصيبهم الذى كانوا يستعجلون به وهم يقولون : « ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب » !

« قُلْ : إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ ، وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ .

« قُلْ : هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ : إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ .

« فَسَجَدَ ٱلْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ * قَالَ : يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ؟ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ * قَالَ : أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ : فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ * قَالَ : رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ : فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنْظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ * قَالَ : فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ * قَالَ : فَالْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ .

« قُلْ : مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » ﴿٨٨﴾

هذا الدرس الأخير فى السورة يعود إلى تقرير القضايا التى عرضت فى مقدمتها : قضية التوحيد . والوحى . وقضية الجزاء فى الآخرة . ويستعرض قصة آدم دليلا على الوحى بما دار

Marfat.com

Marfat.com

فى الملأ الأعلى ذات يوم . وما تقرر يوم ذاك من الحساب على الهدى والضلال فى يوم الحساب. كما تتضمن القصة لونا من الحسد فى نفس الشيطان هو الذى أرداه وطرده من رحمة الله ؛ حينما استكثر على آدم فضل الله الذى أعطاه . كذلك تصور المعركة المستمرة بين الشيطان وأبناء آدم ، والتى لايهدأ أوارها ولا تضع أوزارها . والتى يهدف من ورائها إلى إيقاع أكبر عدد منهم فى حبائله ، لإيرادهم النار معه ، انتقاما من أبيهم آدم ، وقد كان طرده بسببه . وهى معركة معروفة الأهداف . ولكن أبناء آدم يستسلمون لعدوهم القديم !

وتختم السورة بتوكيد قضية الوحى ،وعظمة ماوراءه،مما يغفل عنه المكذبون الغافلون..

***

« قل : إنما أنا منذر ، وما من إله إلا الله الواحد القهار . رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار » . .

قل لأولئك المشركين ، الذين يدهشون ويعجبون ويقولون : « أجعل الآلهة إلها واحدا؟ إن هذا لشىء عجاب » . . قل لهم : إن هـذه هى الحقيقة : « وما من إله إلا الله الواحد القهار » . . وقل لهم : إنه ليس لك من الأمر ، وليس عليك منه إلا أن تنذر وتحذر ؛ وتدع الناس بعد ذلك إلى الله الواحد القهار: « رب السماوات والأرض وما بينهما » . . فليس له من شريك . وليس من دونه ملجأ فى السماوات أو فى الأرض أو فيما بينهما . وهو « العزيز » القوى القادر . وهو « الغفار » الذى يتجاوز عن الذنب ويقبل التوبة ، ويغفر لمن يثوبون إلى حماه .

وقل لهم : إن ماجئتهم به وما يعرضون عنه أكبر وأعظم مما يظنون . وإن وراءه ما وراءه مما هم عنه غافلون :

« قل : هو نبأ عظيم . أنتم عنه معرضون » . .

وإنه لأمر أعظم بكثير من ظاهره القريب . إنه أمر من أمر الله فى هـذا الوجود كله . وشأن من شؤون هذا الكون بكامله . إنه قدر من قدر الله فى نظام هـذا الوجود . ليس منفصلا ولا بعيدا عن شأن السماوات والأرض ، وشأن الماضى السحيق والمستقبل البعيد .

ولقد جاء هـذا النبأ العظيم ليتجاوز قريشا فى مكة ، والعرب فى الجزيرة ، والجيل الذى

عاصر الدعوة فى الأرض . ليتجاوز هذا المدى المحدود من المكان والزمان ؛ ويؤثر فى مستقبل البشرية كلها فى جميع أعصارها وأقطارها ؛ ويكيف مصائرها منذ نزوله إلى الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ولقد نزل فى أوانه المقدر له فى نظام هذا الكون كله ، ليؤدى دوره هذا فى الوقت الذى قدره الله له .

ولقد حول خط سير البشرية إلى الطريق الذى خطته يد القدر بهذا النبأ العظيم . سواء فى ذلك من آمن به ومن صدّ عنه . ومن جاهد معه ومن قاومه . فى جيله وفى الأجيال التى تلته . ولم يمر بالبشرية فى تاريخها كله حادث أو نبأ ترك فيها من الآثار ماتركه هذا النبأ العظيم.

ولقد أنشأ من القيم والتصورات ، وأرسى من القواعد والنظم فى هذه الأرض كلها ، وفى أجيال البشرية جميعها ، مالم يكن العرب يتصورونه ولو فى الخيال !

وما كانوا يدركون فى ذلك الزمان أن هذا النبأ إنما جاء ليغير وجه الأرض ؛ ويوجه سير التاريخ ؛ ويحقق قدر الله فى مصير هذه الحياة ؛ ويؤثر فى ضمير البشرية وفى واقعها ؛ ويصل هذا كله بخط سير الوجود كله ، وبالحق الكامن فى خلق السماوات والأرض ومابينهما . وأنه ماض كذلك إلى يوم القيامة . يؤدى دوره فى توجيه أقدار الناس وأقدار الحياة .

والمسلمون اليوم يقفون من هذا النبأ كما وقف منه العرب أول الأمر . لا يدركون طبيعته وارتباطها بطبيعة الوجود ؛ ولا يتدبرون الحق الكامن فيه ليعلموا أنه طرف من الحق الكامن فى بناء الوجود ؛ ولا يستعرضون آثاره فى تاريخ البشرية وفى خط سيرها الطويل استعراضا واقعيا ، يعتمدون فيه على نظرة مستقلة غير مستمدة من أعداء هذا النبأ الذين يهمهم دائما أن يصغروا من شأنه فى تكييف حياة البشر وفى تحديد خط التاريخ . . ومن ثم فإن المسلمين لا يدركون حقيقة دورهم سواء فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل . وأنه دور ماض فى هذه الأرض إلى آخر الزمان . .

ولقد كان العرب الأولون يظنون أن الأمر هو أمرهم وأمر محمد ابن عبد الله – صلى الله عليه وسلم – واختياره من بينهم ، لينزل عليه الذكر . وكانوا يحصرون همهم فى هذه الشكلية. فالقرآن يوجه أنظارهم بهذا إلى أن الأمر أعظم من هذا جدا . وأنه أكبر منهم ومن محمد ابن عبد الله – صلى الله عليه وسلم – وأن محمدا ليس إلا حاملا لهذا النبأ ومبلغا ؛ وأنه لم يبتدعه ابتداعا ؛ وما كان له أن يعلم ما وراءه لولا تعليم الله إياه ؛ وما كان حاضرا ما دار فى الملأ الأعلى منذ البدء إنما أخبره الله :

Marfat.com

« ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون . إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين » . .

* * *

وعند هذا يأخذ السياق فى عرض قصة البشرية ؛ وما دار فى الملأ الأعلى بشأنها منذ البدء . مما يحدد خط سيرها ، ويرسم أقدارها ومصائرها . وهو ما أرسل محمد - صلى الله عليه وسلم - ليبلغه وينذر به فى آخر الزمان :

« إذ قال ربك للملائكة : إنى خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » . .

وما ندرى نحن كيف قال الله أو كيف يقول للملائكة . وما ندرى كذلك كيف يتلقى الملائكة عن الله ولا ندرى عن كنههم إلا ما بلغنا من صفاتهم فى كتاب الله . ولا حاجة بنا إلى الخوض فى شىء من هـذا الذى لا طائل وراء الخوض فيه . إنما نمضى إلى مغزى القصة ودلالتها كما يقصها القرآن .

لقد خلق الله هذا الكائن البشرى من الطين . كما أن سائر الأحياء فى الأرض خلقت من طين . فمن الطين كل عناصرها . فيما عدا سر الحياة الذى لا يدرى أحد من أين جاء ولا كيف جاء . ومن الطين كل عناصر ذلك الكائن البشرى فيما عدا ذلك السر . وفيما عدا تلك النفخة العلوية التى جعلت منه إنسانا . من الطين كل عناصر جسده . فهو من أمه الأرض . ومن عناصرها تكون . وهو يستحيل إلى تلك العناصر حينما يفارقه ذلك السر الإلهى المجهول ؛ وتفارقه معه آثار تلك النفخة العلوية التى حددت خط سيره فى الحياة .

ونحن نجهل كنه هـذه النفخة ؛ ولكننا نعرف آثارها . فآثارها هى التى ميزت هـذا الكائن الإنسانى عن سائر الخلائق فى هـذه الأرض . ميزته بخاصية القابلية للرقى العقلى والروحى . هى التى جعلت عقله ينظر تجارب الماضى ، ويصمم خطط المستقبل . وجعلت روحه يتجاوز المدرك بالحواس والمدرك بالعقول ، ليتصل بالمجهول للحواس والعقول .

وخاصية الارتقاء العقلى والروحى خاصية إنسانية بحتة ، لا يشاركه فيها سائر الأحياء فى هذه الأرض . وقد عاصر مولد الإنسان الأول أجناس وأنواع شتى من الأحياء . ولم يقع فى هذا التاريخ الطويل أن ارتقى نوع أو جنس - ولا أحد أفراده - عقليا أو روحيا . حتى مع التسليم بوقوع الارتقاء العضوى .

لقد نفخ الله من روحه فى هـذا الكائن البشرى ، لأن إرادته اقتضت أن يكون خليفة

Marfat.com

فى الأرض ؛ وأن يتسلم مقاليد هـــذا الكوكب فى الحدود التى قدرها له . حدود العمارة ومقتضياتها من قوى وطاقات .

لقد أودعه القدرة على الارتقاء فى المعرفة . ومن يومها وهو يرتقى كلما اتصل بمصدر تلك النفخة ، واستمد من هذا المصدر فى استقامة . فأما حين ينحرف عن ذلك المصدر العلوى فإن تيارات المعرفة فى كيانه وفى حياته لا تتناسق ، ولا تتجه الاتجاه المتكامل المتناسق المتجه إلى الأمام ؛ وتصبح هـذه التيارات المتعارضة خطرا على سلامة اتجاهه . إن لم تقده إلى نكسة فى خصائصه الإنسانية ، تهبط به فى سلم الارتقاء الحقيقى . ولو تضخمت علومه وتجاربه فى جانب من جوانب الحياة .

وماكان لهذا الكائن الصغير الحجم ، المحدود القوة ، القصير الأجل ، المحدود المعرفة . . ماكان له أن ينال شيئاً من هذه الكرامة لولا تلك اللطيفة الربانية الكريمة . . وإلا فمن هو؟ إنه ذلك الخلق الصغير الضئيل الهزيل الذى يحيا على هذا الكوكب الأرضى مع ملايين الأنواع والأجناس من الأحياء . وما الكوكب الأرضى إلا تابع صغير من توابع أحد النجوم . ومن هذه النجوم ملايين الملايين فى ذلك الفضاء الذى لا يدرى إلا الله مداه . . فماذا يبلغ هـذا الإنسان لتسجد له ملائكة الرحمان ؛ إلا بهـذا السر اللطيف العظيم ؟ إنه بهذا السر كريم كريم . فإذا تخلى عنه أو انفصم منه ارتد إلى أصله الزهيد . . من طين !

ولقد استجاب الملائكة لأمر ربهم كما هى فطرتهم :

« فسجد الملائكة كلهم أجمعون » . .

كيف ؟ وأين ؟ ومتى ؟ كل أولئك غيب من غيب الله . ومعرفته لا تزيد فى مغزى القصة شيئاً . هذا المغزى الذى يبرز فى تقدير قيمة هذا الإنسان المخلوق من الطين ؛ بعد ماارتفع عن أصله بتلك النفخة من روح الله العظيم .

سجد الملائكة امتثالا لأمر الله ، وشعورا بحكمته فيما يراه .

« إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين » . .

فهل كان إبليس من الملائكة ؟ الظاهر أنه لا . لأنه لو كان من الملائكة ماعصى . فالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . . وسيجىء أنه خلق من نار . والمأثور أن الملائكة خلق من نور . . ولكنه كان مع الملائكة وكان مأمورا بالسجود . ولم يخص بالذكر الصريح عند الأمر إهمالا لشأنه بسبب ماكان من عصيانه . إنما عرفنا أن الأمر كان قد وجه إليه من توجيه التوبيخ إليه :

Marfat.com

Marfat.com

«قال : ياإبليس ما منعك أن تسجدلماخلقت بيدى ؟ أستكبرت ؟ أم كنت من العالين؟» .

ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ؟ والله خالق كل شيء . فلابد أن تكون هناك خصوصية فى خلق هذا الإنسان تستحق هـذا التنويه . هى خصوصية العناية الربانية بهذا الكائن وإيداعه نفخة من روح الله دلالة على هذه العناية .

أستكبرت ؟ عن أمرى « أم كنت من العالين ؟ » الذين لا يخضعون ؟

« قال : أنا خير منه . خلقتنى من نار وخلقته من طين » !

إنه الحسد ينضح من هـذا الرد . والغفلة أو الإغفال للعنصر الكريم الزائد على الطين فى آدم ، والذى يستحق هذا التكريم . وهو الرد القبيح الذى يصدر عن الطبيعة التى تجردت من الخير كله فى هذا الموقف المشهود .

هنا صدر الأمر الإلهى العالى بطرد هذا المخلوق المتمرد القبيح :

« قال : فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين » ..

ولا نملك أن نحدد عائد الضمير فى قوله : « منها » فهل هى الجنة ؟ أم هل هى رحمة الله . . هذا وذلك جائز . ولا محل للجدل الكثير . فإنما هو الطرد واللعنة والغضب جزاء التمرد والتجرؤ على أمر الله الكريم .

هنا تحول الحسد إلى حقد . وإلى تصميم على الانتقام فى نفس إبليس :

« قال : رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون » . .

واقتضت مشيئة الله للحكمة المقدرة فى علمه أن يجيبه إلى ما طلب ، وأن يمنحه الفرصة التى أراد :

« قال : فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم » ..

وكشف الشيطان عن هدفه الذى ينفق فيه حقده :

« قال . فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين » ..

وبهذا تحدد منهجه وتحدد طريقه . إنه يقسم بعزة الله ليغوين جميع الآدميين . لا يستثنى إلا من ليس له عليهم سلطان . لا تطوعا منه ولكن عجزا عن بلوغ غايته فيهم ! وبهذا يكشف عن الحاجز بينه وبين الناجين من غوايته وكيده ؛ والعاصم الذى يحول بينهم وبينه . إنه عبادة الله التى تخلصهم لله . هـــذا هو طوق النجاة . وحبل الحياة ! .. وكان هذا وفق إرادة الله وتقديره فى الردى والنجاة . فأعلن ـ سبحانه ـ إرادته . وحدد المنهج والطريق :

« قال : فالحق . والحق أقول . لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » .

والله يقول الحق دائما . والقرآن يقرر هذا ويؤكد الإشارة إليه فى هذه السورة فى شق

صوره ومناسباته . فالخصم الذين تسوروا المحراب على داود يقولون له : « فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط » .. والله ينادى عبده داود : « فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى » .. ثم يعقب على هذا بالإشارة إلى الحق الكامن فى خلق السماوات والأرض : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا . ذلك ظن الذين كفروا » .. ثم يجىء ذكر الحق على لسان القوى العزيز : « قال فالحق والحق أقول » .. فهو الحق الذى تتعدد مواضعه وصوره ، وتتحد طبيعته وكنهه . ومنه هذا الوعد الصادق :

« لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » ..

وهى المعركة إذن بين الشيطان وأبناء آدم ، يخوضونها على علم . والعاقبة مكشوفة لهم فى وعد الله الصادق الواضح المبين . وعليهم تبعة ما يختارون لأنفسهم بعد هذا البيان . وقد شاءت رحمة الله ألا يدعهم جاهلين ولا غافلين . فأرسل إليهم المنذرين .

***

وفى نهاية الشوط وختام السورة يكلف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يلقى إليهم بالقول الأخير :

« قل : ما أسألكم عليه من أجر ؛ وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين » ..

إنها الدعوة الخالصة للنجاة ، بعد كشف المصير وإعلان النذير . الدعوة الخالصة التى لا يطلب صاحبها أجرا . وهو الداعية السليم الفطرة ، الذى ينطق بلسانه ، لا يتكلف ولا يتصنع ، ولا يأمر إلا بما يوحى منطق الفطرة القريب . وإنه للتذكير للعالمين أجمعين فقد ينسون ويغفلون. وإنه للنبأ العظيم الذى لا يلقون بالهم إليه اليوم ، وليعلمن نبأه بعد حين . نبأه فى الأرض ـ وقد علموه بعد سنوات من هذا القول ـ ونبأه فى اليوم المعلوم . عندما يحق وعد الله اليقين: « لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » ..

إنه الختام الذى يتناسق مع افتتاح السورة ومع موضوعها والقضايا التى تعالجها . وهو الإيقاع المدوى العميق ، الموحى بضخامة ما سيكون : « ولتعلمن نبأه بعد حين » ..

تم الجزء الثالث والعشرون . ويليه الجزء الرابع والعشرون مبدوءاً بسورة الزمر [1]

(١) ينتهى الجزء الثالث والعشرون بالآية ٣١ من سورة الزمر ولكننا آثرنا عرض السورة كاملة فى الجزء الرابع والعشرين

Marfat.com

Marfat.com

في ظلال القرآن

الجزء الرابع والعشرون

بقلم

سيد قطب

بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة الزمر وغافر وفصلت

Marfat.com

سُورة الزُمَر
وآياتُها ٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ① إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ؛ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ
مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ،
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ * لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، سُبْحَانَهُ ! هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ،
يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي
لِأَجَلٍ مُسَمًّى ، أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ * خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا
زَوْجَهَا ، وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا
مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ
تُصْرَفُونَ ؟ * إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ، وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ، وَإِنْ
تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ
فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » ⑦

Marfat.com

Marfat.com

هذه السورة تكاد تكون مقصورة على علاج قضية التوحيد . وهى تطوف بالقلب البشرى فى جولات متعاقبة ؛ وتوقع على أوتاره إيقاعات متلاحقة ؛ وتهزه هزا عميقا متواصلا لتطبع فيه حقيقة التوحيد وتمكنها ، وتنفى عنه كل شبهة وكل ظل يشوب هذه الحقيقة . ومن ثم فهى ذات موضوع واحد متصل من بدئها إلى ختامها ؛ يعرض فى صور شتى .

ومنذ افتتاح السورة تبرز هذه القضية الواحدة التى تكاد السورة تقتصر على علاجها : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين . ألا لله الدين الخالص ... الخ » ... وتتردد فى مقاطعها على فترات متقاربة فيها إما نصاً وإما مفهوما . .

نصاً كقوله : « قل : إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين . وأمرت أن أكون أول المسلمين . قل : إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل : الله أعبد مخلصاً له دينى فاعبدوا ماشئتم من دونه ... الخ» . . أو قوله : « قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ؟ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » .

ومفهوما كقوله : « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ، ورجلا سلما لرجل . هل يستويان مثلا : الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون » . . أو قوله : « أليس الله بكاف عبده ؟ ويخوفونك بالذين من دونه ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، ومن يهد الله فما له من مضل . أليس الله بعزيز ذى انتقام ؟ » . .

وإلى جانب حقيقة التوحيد التى تعالج السورة أن تطبعها فى القلب وتمكنها نجد فى السورة توجيهات وإيحاءات لإيقاظ هذا القلب واستجاشته وإثارة حساسيته ، وإرهافه للتلقى والتأثر والاستجابة . ذلك كقوله : « والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى . فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب » . . « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله : ذلك هدى الله يهدى به من يشاء . ومن يضلل الله فما له من هاد » . . « وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ، ثم إذا خوله نعمة منه نسى ماكان يدعو إليه من قبل . وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله . قل : تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار » . .

وهناك ظاهرة ملحوظة فى جو السورة . . إن ظل الآخرة يجللها من أولها إلى آخرها . وسياقها يطوف بالقلب البشرى هناك فى كل شوط من أشواطها القصيرة ؛ ويعيش به فى ظلال العالم الآخر معظم الوقت ! وهذا هو مجال العرض الأول فيها والمؤثر البارز المتكرر فى ثناياها. ومن ثم تتلاحق فيها مشاهد القيامة أو الإشارة إليها فى كل مقطع من مقاطعها الكثيرة . مثل هذه الإشارات : « أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ؟ » . . « قل : إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم » . . « أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار ؟ » .. «أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ؟» .. « ولعذاب الآخرة أكبر لوكانوا يعلمون » . . « أليس فى جهنم مثوى للكافرين ؟ » . . « ولو أن للذين ظلموا مافى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من العذاب يوم القيامة ؛ وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون » . . « وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون . واتبعوا أحسن ماأنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لاتشعرون . أن تقول نفس : ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين . أوتقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين . . » . . وهذا غير المشاهد الكاملة التى تشغل حيزا من السورة كبيرا، وتظلل جوها بظلال الآخرة .

أما المشاهد الكونية التى لاحظنا كثرتها وتنوعها فى السور المكية فى ثنايا عرضها لحقائق العقيدة فهى قليلة فى هذه السورة . .

هنالك مشهد كونى يرد فى مطلعها : « خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى . ألا هو العزيز الغفار » . .

ومشهد آخر فى وسطها : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ؛ ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ؛ ثم يهيج فتراه مصفرا ؛ ثم يجعله حطاما ؟ إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب » . .

وهناك إشارات سريعة إلى خلق السماوات والأرض غير هذين المشهدين البارزين .
كذلك تتضمن السورة لمسات من واقع حياة البشر ، وفى أغوار نفوسهم ، تتوزع فى ثناياها

Marfat.com

يرد فى مطالعها عن نشأة البشرية : « خلقكم من نفس واحدة ؛ ثم جعل منها زوجها .. وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج . يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث . ذلكم الله ربكم له الملك . لاإله إلا هو . فأنى تصرفون ؟ » .

ويرد عن طبيعة النفس البشرية فى الضراء والسراء : « وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ؛ ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل . . . الخ » .. « فإذا مس الإنسان ضر دعانا ؛ ثم إذا خولناه نعمة منا قال : إنما أوتيته على علم . بل هى فتنة .. » ..

ويرد فى تصوير أنفس البشر فى قبضة الله فى كل حالة : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ؛ فيمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . .

ولكن ظل الآخرة وجوها يظل مسيطرا على السورة كلها كما أسلفنا . حتى تختم بمشهد خاشع يرسم ظل ذلك اليوم وجوه : « وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، وقضى بينهم بالحق ، وقيل : الحمد لله رب العالمين » .

هذا الظل يتناسق مع جو السورة ، ولون اللمسات التى تأخذ القلبَ البشرى بها . فهى أقرب إلى جو الخشية والخوف والفزع والارتعاش . ومن ثم نجد الحالات التى ترسمها للقلب البشرى هى حالات ارتعاشه وانتفاضه وخشيته . نجد هذا فى صورة القانت آناء الليل ساجداً وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه . وفى صورة الذين يخشون ربهم تقشعر جلودهم لهذا القرآن ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . كما نجده فى التوجيه إلى التقوى والخوف من العذاب ، والتخويف منه : « قل : ياعباد الذين آمنوا اتقوا ربكم » . « قل : إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم » . . « لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل . ذلك يخوف الله به عباده . ياعباد فاتقون » .. ثم نجده فى مشاهد القيامة وما فيها من فزع ومن خشية ، وما فيها كذلك من إنابة وخشوع .

* * *

والسورة تعالج الموضوع الواحد الرئيسى فيها فى جولات قصيرة متتابعة ؛ تكاد كل جولة منها تختم بمشهد من مشاهد القيامة ، أوظل من ظلالها . وسنحاول أن نستعرض هذه الجولات المتتابعة كما وردت فى السياق . إذ أنه يصعب تقسيم السورة إلى دروس كبيرة . وكل مجموعة

Marfat.com

Marfat.com

قليلة من آياتها تصلح حلقة تعرض فى موضعها . ومجموع هذه الحلقات يتناول حقيقة واحدة حقيقة التوحيد الكبيرة . .

* * *

« تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ، فاعبد الله مخلصاً له الدين . ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلاليقربونا إلى الله زلفى . إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون . إن الله لايهدى من هو كاذب كفار » .

تبدأ السورة بهذا التقرير الحاسم .

« تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » . .

العزيز القادر على تنزيله .

الحكيم الذى يعلم فيم أنزله ولماذا أنزله ؛ ويفعل ذلك بحكمة وتقدير وتدبير .

ولا يتلبث السياق عند هذه الحقيقة طويلا ؛ فهى مقدمة للقضية الأصيلة التى تكاد السورة تكون وقفا عليها ؛ والتى نزل الكتاب لتقريرها وتوكيدها . قضية توحيد الله ، وإفراده بالعبادة ، وإخلاص الدين له ، وتنزيهه عن الشرك فى كل صورة من صوره ؛ والاتجاه إليه مباشرة بلا وسيط ولا شفيع :

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق » .

وأساس الحق الذى أنزل به الكتاب ، هو الوحدانية المطلقة التى يقوم عليها الوجود . وفى الآية الخامسة من السورة يجىء : « خلق السماوات والأرض بالحق » . فهو الحق الواحد الذى قامت به السماوات والأرض ، وأنزل به هذا الكتاب . الحق الواحد الذى تشهد به وحدة النظام الذى يصرف السماوات والأرض ؛ والذى ينطق به هذا الكتاب. الحق الذى يتسم به كل ما خرج من يد الصانع المبدع فى هذا الوجود . .

« فاعبد الله مخلصاً له الدين » .

والخطاب لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى أنزل إليه الكتاب بالحق . وهو منهجه الذى يدعو إليه الناس كافة . . عبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له ، وقيام الحياة كلها على أساس هذا التوحيد .

وتوحيد الله وإخلاص الدين له ، ليس كلمة تقال باللسان ؛ إنما هو منهاج حياة كامل . يبدأ من تصور واعتقاد فى الضمير ؛ وينتهى إلى نظام يشمل حياة الفرد والجماعة .

Marfat.com

والقلب الذى يوحد الله . يدين لله وحده ، ولا يحنى هامته لأحد سواه ، ولا يطلب شيئاً من غيره ولا يعتمد على أحد من خلقه . فالله وحده هو القوى عنده ، وهو القاهر فوق عباده . والعباد كلهم ضعاف مهازيل ، لايملكون له نفعا ولا ضرا ؛ فلا حاجة به إلى أن يحنى هامته لواحد منهم . وهم مثله لايملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا . والله وحده هو المانح المانع ، فلا حاجة به إلى أن يتوجه لأحد غيره وهو الغنى والخلق كلهم فقراء .

والقلب الذى يوحد الله ، يؤمن بوحدة الناموس الإلهى الذى يصرف الوجود كله ؛ ويؤمن إذن بأن النظام الذى اختاره الله للبشر هو طرف من ذلك الناموس الواحد ، لاتصلح حياة البشر ولا تستقيم مع الكون الذى يعيشون فيه إلا باتباعه . ومن ثم لايختار غير مااختاره الله من النظم ، ولا يتبع إلا شريعة الله المتسقة مع نظام الوجود كله ونظام الحياة .

والقلب الذى يوحد الله يدرك القرابة بينه وبين كل ماأبدعت يد الله فى هذا الكون من أشياء وأحياء ؛ ويحيا فى كون صديق يعاطفه ويتجاوب معه ؛ ويحس يد الله فى كل ماحوله ، فيعيش فى أنس بالله وبدائعه التى تلمسها يداه وتقع عليها عيناه . ويشعر كذلك بالتحرج من إيذاء أحد ، أو إتلاف شىء أو التصرف فى أحد أو فى شىء إلا بما أمره الله . خالق كل شىء ، ومحيي كل حى . ربه ورب كل شىء وكل حى ..

وكذلك تبدو آثار التوحيد فى التصورات والمشاعر ، كما تبدو فى السلوك والتصرفات . وترسم للحياة كلها منهاجا كاملا واضحا متميزا . ولا يعود التوحيد كلمة تقال باللسان . ومن ثم تلك العناية بتقرير عقيدة التوحيد وتوضيحها وتكرار الحديث عنها فى الكتاب الذى أنزله الله : وهو حديث يحتاج إلى تدبره كل أحد ، فى كل عصر ، وفى كل بيئة . فالتوحيد بمعناه ذاك معنى ضخم شامل يحتاج إلى فهم وإدراك .

« ألا لله الدين الخالص » ..

يعلنها هكذا مدوية عالية فى ذلك التعبير المجلجل . بأداة الافتتاح « ألا » وفى أسلوب القصر « لله الدين الخالص » . فيؤكد معناها بالبناء اللفظى للعبارة . . فهى القاعدة التى تقوم عليها الحياة كلها . بل التى يقوم عليها الوجود كله . ومن ثم ينبغى أن ترسخ وتتضح وتعلن فى هذا الأسلوب الجازم الحاسم : « ألا لله الدين الخالص » ..

ثم يعالج الأسطورة المعقدة التى كان المشركون يواجهون بها دعوة التوحيد .

« والذين اتخذوا من دونه أولياء ماتعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . إن الله يحكم بينهم فى ماهم فيه يختلفون . إن الله لايهدى من هو كاذب كفار » . .

فلقد كانوا يعلنون أن الله هو خالقهم وخالق السماوات والأرض . . ولكنهم لم يكونوا يسيرون مع منطق الفطرة فى إفراد الخالق إذن بالعبادة ، وفى إخلاص الدين لله بلا شريك . إنما كانوا يبتدعون أسطورة بنوة الملائكة لله سبحانه . ثم يصوغون للملائكة تماثيل يعبدونها فيها . ثم يزعمون أن عبادتهم لتماثيل الملائكة ــ وهى التى دعوها آلهة أمثال اللات والعزى ومناة ــ ليست عبادة لها فى ذاتها ؛ إنما هى زلفى وقربى لله . كى تشفع لهم عنده ، وتقربهم منه!

وهو انحراف عن بساطة الفطرة واستقامتها ، إلى هذا التعقيد والتحريف . فلا الملائكة بنات الله . ولا الأصنام تماثيل للملائكة . ولا الله ــ سبحانه ــ يرضى بهذا الانحراف . ولا هو يقبل فيهم شفاعة . ولا هو يقربهم إليه عن هذا الطريق !

وإن البشرية لتنحرف عن منطق الفطرة كلما انحرفت عن التوحيد الخالص البسيط الذى جاء به الإسلام ، وجاءت به العقيدة الإلهية الواحدة مع كل رسول . وإنا لنرى اليوم فى كل مكان عبادة للقديسين والأولياء تشبه عبادة العرب الأولين للملائكة ــ أو تماثيل الملائكة ــ تقربا إلى الله ــ بزعمهم ــ وطلبا لشفاعتهم عنده . وهو سبحانه يحدد الطريق إليه . طريق التوحيد الخالص الذى لايتلبس بوساطة أو شفاعة على هذا النحو الأسطورى العجيب !

« إن الله لايهدى من هو كاذب كفار » . .

فهم يكذبون على الله . يكذبون عليه بنسبة بنوة الملائكة إليه ؛ ويكذبون عليه بأن هذه العبادة تشفع لهم عنده ! وهم يكفرون بهذه العبادة ؛ ويخالفون فيها عن أمر الله الواضح الصريح .

والله لايهدى من يكذب عليه ، ويكفر به . فالهداية جزاء على التوجه والإخلاص والتحرج ، والرغبة فى الهدى ، وتحرى الطريق . فأما الذين يكذبون ويكفرون فهم لايستحقون هداية الله ورعايته . وهم يختارون لأنفسهم البعد عن طريقه .

ثم يكشف عن سخف ذلك التصور وتهافته :

« لوأراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق مايشاء . سبحانه ! هو الله الواحد القهار » .

وهو فرض جدلى لتصحيح التصور . فالله لوأراد أن يتخذ ولدا لاختار مايشاء من بين خلقه ؛ فإرادته مطلقة غير مقيدة . ولكنه ــ سبحانه ــ نزه نفسه عن اتخاذ الولد . فليس لأحد

Marfat.com

أن ينسب إليه ولدا ، وهذه إرادته ، وهذه مشيئته ، وهذا تقديره ؟ وهذا تنزيهه لذاته عن الولد والشريك :

« سبحانه ! هو الله الواحد القهار » ..

وما اتخاذه الولد ؟ وهو مبدع كل شيء ؟ وخالق كل شيء ، ومدبر كل شيء ؟ وكل شيء وكل أحد ملكه يفعل به مايشاء :

« خلق السماوات والأرض بالحق ، يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ؛ وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى . ألا هو العزيز الغفار » ..

وهذه اللفتة إلى ملكوت السماوات والأرض ، وإلى ظاهرة الليل والنهار ، وإلى تسخير الشمس والقمر توحى إلى الفطرة بحقيقة الألوهية التى لايليق معها أن يكون هناك ولد ولا شريك . فالذى يخلق هذا الخلق وينشئه إنشاء ، لايحتاج إلى الولد ولا يكون معه شريك .

وآية الوحدانية ظاهرة فى طريقة خلق السماوات والأرض ، وفى الناموس الذى يحكم الكون . والنظر المجرد إلى السماوات والأرض يوحى بوحدة الإرادة الخالقة المدبرة . وما كشفه الإنسان - حتى اليوم - من دلائل الوحدة فيه الكفاية . فقد اتضح أن الكون المعروف للبشر مؤلف كله من ذرات متحدة فى ماهيتها ، وأنها بدورها تتألف من إشعاعات ذات طبيعة واحدة . وقد اتضح كذلك أن جميع الذرات وجميع الأجرام التى تتألف منها سواء فى ذلك الأرض التى نسكنها أم الكواكب والنجوم الأخرى فى حركة دائمة ، وأن هذه الحركة قانون ثابت لايتخلف لا فى الذرة الصغيرة ولا فى النجم الهائل . واتضح أن لهذه الحركة نظاما ثابتا هو الآخر يوحى بوحدة الخلق ووحدة التدبير . . وفى كل يوم يكشف الإنسان عن جديد من دلائل الوحدة فى تصميم هذا الوجود . ويكشف عن حق ثابت فى هذا التصميم لايتقلب مع هوى ، ولا ينحرف مع ميل ، ولا يتخلف لحظة ولا يحيد .

« خلق السماوات والأرض بالحق » ..

وأنزل الكتاب بالحق .. فهو الحق الواحد فى ذلك الكون وفى هذا الكتاب .. وكلاهما صادر من مصدر واحد . وكلاهما آية على وحدة المبدع العزيز الحكيم .

« يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » ..

وهو تعبير عجيب يقسر الناظر فيه قسرا على الالتفات إلى ما كشف حديثا عن كروية

Marfat.com

الأرض ومع أننى فى هذه الظلال حريص على ألا أحمل القرآن على النظريات التى يكشفها الإنسان ، لأنها نظريات تخطىء وتصيب ، وتثبت اليوم وتبطل غدا . والقرآن حق ثابت يحمل آية صدقه فى ذاته ، ولايستمدها من موافقة أو مخالفة لما يكشفه البشر الضعاف المهازيل !

مع هذا الحرص فإن هذا التعبير يقسرنى قسرا على النظر فى موضوع كروية الأرض . فهو يصور حقيقة مادية ملحوظة على وجه الأرض . فالأرض الكروية تدور حول نفسها فى مواجهة الشمس ؛ فالجزء الذى يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء ويكون نهارا . ولكن هذا الجزء لايثبت لأن الأرض تدور . وكلما تحركت بدأ الليل يغمر السطح الذى كان عليه النهار . وهذا السطح مكور فالنهار كان عليه مكورا والليل يتبعه مكورا كذلك. وبعد فترة يبدأ النهار من الناحية الأخرى يتكور على الليل . وهكذا فى حركة دائبة : « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » . . واللفظ يرسم الشكل ، ويحدد الوضع ، ويعين نوع طبيعة الأرض وحركتها . وكروية الأرض ودورانها يفسران هذا التعبير تفسيرا أدق من أى تفسير آخر لايستصحب هذه النظرية .

« وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى » .

والشمس تجرى فى مدارها . والقمر يجرى فى مداره . وهما مسخران بأمر الله . فما يزعم أحد أنه يجريهما . وما يقبل منطق الفطرة أن يجريا بلا محرك ، يدبرهما بمثل هذا النظام الدقيق الذى لايختل شعرة فى ملايين السنين . وستجرى الشمس وسيجرى القمر « لأجل مسمى » . . لايعلمه إلا الله سبحانه .

« ألا هو العزيز الغفار » . .

فمع القوة والقدرة والعزة ، هو غفار لمن يتوب إليه وينيب ، ممن يكذبون عليه ويكفرون به ، ويتخذون معه آلهة ، ويزعمون له ولدا ــ وقد سبق حديثهم ــ والطريق أمامهم مفتوح ليرجعوا إلى العزيز الغفار . .

* * *

ومن تلك اللفتة إلى آفاق الكون الكبير ، ينتقل إلى لمسة فى أنفس العباد ؛ ويشير إلى آية الحياة القريبة منهم فى أنفسهم وفى الأنعام المسخرة لهم :

« خلقكم من نفس واحدة . ثم جعل منها زوجها . وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج.

Marfat.com

Marfat.com

يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث . ذلكم الله ربكم له الملك . لا إله إلا هو فأنى تصرفون ؟ »

وحين يتأمل الإنسان فى نفسه . نفسه هذه التى لم يخلقها . والتى لا يعلم عن خلقها إلا مايقصه الله عليه . وهى نفس واحدة . ذات طبيعة واحدة . وذات خصائص واحدة . خصائص تميزها عن بقية الخلائق ، كما أنها تجمع كل أفرادها فى إطار تلك الخصائص . فالنفس الإنسانية واحدة فى جميع اللايين المنبثين فى الأرض فى جميع الأجيال وفى جميع البقاع . وزوجها كذلك منها . فالمرأة تلتقى مع الرجل فى عموم الخصائص البشرية ـ رغم كل اختلاف فى تفصيلات هذه الخصائص ـ مما يشى بوحدة التصميم الأساسى لهذا الكائن البشرى . الذكر والأنثى . ووحدة الإرادة المبدعة لهذه النفس الواحدة بشقيها .

وعند الإشارة إلى خاصية الزوجية فى النفس البشرية ترد الإشارة إلى هذه الخاصية فى الأنعام كذلك . مما يشى بوحدة القاعدة فى الأحياء جميعا :

« وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » :

والأنعام الثمانية كما جاءت فى آية أخرى : هى الضأن والمعز والبقر والإبل . من كل ذكر وأنثى . وكل من الذكر والأنثى يسمى زوجا عند اجتماعهما . فهى ثمانية فى مجموعها . . والتعبير يعبر عن تسخيرها للإنسان بأنه إنزال لها من عند الله . فهذا التسخير منزل من عنده . منزل من عليائه إلى عالم البشر . ومأذون لهم فيه من عنده تعالى .

ثم يعود ـ بعد هذه الإشارة إلى وحدة خاصية الزوجية فى الناس والأنعام ـ إلى تتبع مراحل الخلق للأجنة فى بطون أمهاتها :

« يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق » . .

من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام . إلى الخلق الواضح فيه عنصر البشرية .

« فى ظلمات ثلاث » . .

ظلمة الكيس الذى يغلف الجنين . وظلمة الرحم الذى يستقر فيه هذا الكيس . وظلمة البطن الذى تستقر فيه الرحم . ويد الله تخلق هذه الخلية الصغيرة خلقا من بعد خلق . وعين الله ترعى هذه الخليقة وتودعها القدرة على النمو . والقدرة على التطور . والقدرة على الارتقاء . والقدرة على السير فى تمثيل خطوات النفس البشرية كما قدر لها بارئها .

Marfat.com

وتتبع هذه الرحلة القصيرة الزمن ، البعيدة الآماد ؛ وتأمل هذه التغيرات والأطوار ؛ وتدبر تلك الخصائص العجيبة التى تقود خطى هذه الخلية الضعيفة فى رحلتها العجيبة ... فى تلك الظلمات وراء علم الإنسان وقدرته وبصره ..

هذا كله من شأنه أن يقود القلب البشرى إلى رؤية يد الخالق المبدع . رؤيتها بآثارها الحية الواضحة الشاخصة . والإيمان بالوحدانية الظاهرة الأثر فى طريقة الخلق والنشأة . فكيف يصرف قلب عن رؤية هذه الحقيقة ؟ :

« ذلكم الله ربكم له الملك . لاإله إلا هو . فأنى تصرفون ؟ » ..

* * *

وأمام هذه الرؤية الواضحة لآية الوحدانية المطلقة ، وآية القدرة الكاملة ، يقفهم أمام أنفسهم . فى مفرق الطريق بين الكفر والشكر . وأمام التبعة الفردية المباشرة فى اختيار الطريق . ويلوح لهم بنهاية الرحلة ، ومايتنظرهم هناك من حساب ، يتولاه الذى يخلقهم فى ظلمات ثلاث . والذى يعلم ماتكن صدورهم من خفايا الصدور :

« إن تكفروا فإن الله غنى عنكم . ولا يرضى لعباده الكفر . وإن تشكروا يرضه لكم . ولا تزر وازرة وزر أخرى . ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون . إنه عليم بذات الصدور » . .

إن هذه الرحلة فى بطون الأمهات هى مرحلة فى الطريق الطويل . تليها مرحلة الحياة خارج البطون . ثم تعقبها الرحلة الأخيرة مرحلة الحساب والجزاء . بتدبير المبدع العليم الخبير .

والله ـ سبحانه ـ غنى عن العباد الضعاف المهازيل . إنما هى رحمته وفضله أن يشملهم بعنايته ورعايته . وهم من هم من الضعف والهزال !

« إن تكفروا فإن الله غنى عنكم » . .

فإيمانكم لايزيد فى ملكه شيئاً . وكفركم لاينقص منه فتيلا . ولكنه لايرضى عن كفر الكافرين ولا يحبه :

« ولا يرضى لعباده الكفر » :

« وإن تشكروا يرضه لكم » ..

ويعجبه منكم، ويحبه لكم، ويجزيكم عليه خيرا.

وكل فرد مأخوذ بعمله، محاسب على كسبه؛ ولا يحمل أحد عبء أحد. فلكل حمله وعبؤه:

«ولا تزر وازرة وزر أخرى»..

والمرجع فى النهاية إلى الله دون سواه؛ ولا مهرب منه ولا ملجأ عند غيره:

«ثم إليه مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون»..

ولا يخفى عليه من أمركم شىء:

«إنه عليم بذات الصدور»..

هذه هى العاقبة. وتلك هى دلائل الهدى. وهذا هو مفرق الطريق.. ولكل أن يختار. عن بينة. وعن تدبر. وبعد العلم والتفكير..

« وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ، ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ، وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ . قُلْ : تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ، إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ ⑧

« أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ ، وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ؟ قُلْ : هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو ٱلْأَلْبَابِ .

« قُلْ : يَا عِبَادِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةٌ ، إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ » ⑩

فى الجولة الأولى لمس قلوبهم بعرض قصة وجودهم؛ وخلقهم من نفس واحدة؛ وتزويجها من جنسها؛ وخلق الأنعام أزواجا كذلك؛ وخلقهم فى بطون أمهاتهم فى ظلمات ثلاث. وأشعرهم يد الله تمنحهم خصائص جنسهم البشرى أول مرة؛ ثم تمنحهم خصائص البقاء والارتقاء. وهنا يلمس قلوبهم لمسة أخرى وهو يعرض عليهم صورتهم فى الضراء وصورتهم فى السراء؛

Marfat.com

ويريهم تقلبهم وضعفهم وادعاءهم وقلة ثباتهم على نهج ؛ إلا حين يتصلون بربهم ، ويتطلعون إليه ، ويقنتون له ، فيعرفون الطريق ، ويعلمون الحقيقة ؛ وينتفعون بما وهبهم الله من خصائص الإنسان .

* * *

« وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه . ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل ، وجعل لله أندادا ، ليضل عن سبيله . قل : تمتع بكفرك قليلا ، إنك من أصحاب النار » . .

إن فطرة الإنسان تبرز عارية حين يمسه الضر ؛ ويسقطعنها الركام ؛ وتزول عنها الحجب، وتتكشف عنها الأوهام ؛ فتتجه إلى ربها ، وتنيب إليه وحده ؛ وهى تدرك أنه لايكشف الضر غيره . وتعلم كذب ما تدعى من شركاء أو شفعاء .

فأما حين يذهب الضر ويأتى الرخاء ، ويخوله الله نعمة منه ، ويرفع عنه البلاء . فإن هذا الإنسان الذى تعرت فطرته عند مس الضر يعود فيضع عليها الركام ، وينسى تضرعه وإنابته وتوحيده لربه . وتطلعه إليه فى المحنة وحده ، حين لم يكن غيره يملك أن يدفع عنه محنته . . ينسى هذا كله ويذهب يجعل لله أندادا . إما آلهة يعبدها كما كان فى جاهليته الأولى ؛ وإما قيما وأشخاصا وأوضاعا يجعل لها فى نفسه شركة مع الله ، كما يفعل فى جاهلياته الكثيرة ! فإذا هو يعبد شهواته وميوله ومطامعه ومخاوفه وماله وأولاده وحكامه وكبراءه كما يعبد الله أو أخلص عبادة ؛ ويحبها كما يحب الله أو أشد حبا ! والشرك ألوان . فيها الخفى الذى لايحسبه الناس شركا ، لأنه لايأخذ شكل الشرك المعروف وإنما هو من الشرك فى الصميم .

وتكون العاقبة هى الضلال عن سبيل الله . فسبيل الله واحد لايتعدد . وإفراده بالعبادة والتوجه والحب هو وحده الطريق إليه . والعقيدة فى الله لاتحتمل شركة فى القلب . لاتحتمل شركة من مال ولا ولد ولا وطن ولا أرض ولا صديق ولا قريب ، فأيما شركة قامت فى القلب من هذا وأمثاله فهى اتخاذ أنداد لله ، وضلال عن سبيل الله ، منته إلى النار بعد قليل من المتاع فى هذه الأرض :

« قل : تمتع بكفرك قليلا : إنك من أصحاب النار » . .

وكل متاع فى هذه الأرض قليل مهما طال . وأيام الفرد على هذه الأرض معدودة مهما

عمر . بل إن حياة الجنس البشرى كله على الأرض لمتاع قليل ، حين يقاس إلى أيام الله !

* * *

وإلى جانب هذه الصورة النكدة من الإنسان ، يعرض صورة أخرى . . صورة القلب الخائف الوجل ، الذى يذكر الله ولاينساه فى سراء ولاضراء ؛ والذى يعيش حياته على الأرض فى حذر من الآخرة ؛ وفى تطلع إلى رحمة ربه وفضله ؛ وفى اتصال بالله ينشأ عنه العلم الصحيح المدرك لحقائق الوجود :

« أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائماً ، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ؟ قل : هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ؟ إنما يتذكر أولو الألباب » .

وهى صورة مشرقة مرهفة . فالقنوت والطاعة والتوجه ــ وهو ساجد وقائم ــ وهذه الحساسية المرهفة ــ وهو يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ــ وهذا الصفاء وهذه الشفافية التى تفتح البصيرة . وتمنح القلب نعمة الرؤية والالتقاط والتلقى . . هذه كلها ترسم صورة مشرقة وضيئة من البشر تقابل تلك الصورة النكدة المطموسة التى رسمتها الآية السابقة . فلا جرم يعقد هذه الموازنة :

« قل : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ » . .

فالعلم الحق هو المعرفة . هو إدراك الحق . هو تفتح البصيرة . هو الاتصال بالحقائق الثابتة فى هذا الوجود . وليس العلم هو المعلومات المفردة المنقطعة التى تزحم الذهن ، ولا تؤدى إلى حقائق الكون الكبرى ، ولا تمتد وراء الظاهر المحسوس .

وهذا هو الطريق إلى العلم الحقيقى والمعرفة المستنيرة . . هذا هو . . القنوت لله.وحساسية القلب ، واستشعار الحذر من الآخرة ، والتطلع إلى رحمة الله وفضله ؛ ومراقبة الله هذهالمراقبة الواجفةالخاشعة . . هذا هو الطريق ، ومن ثم يدرك اللب ويعرف ، وينتفع بما يرى ومايسمع وما يجرب ؛ وينتهى إلى الحقائق الكبرى الثابتة من وراء المشاهدات والتجارب الصغيرة . فأما الذين يقفون عند حدود التجارب المفردة ، والمشاهدات الظاهرة ، فهم جامعو معلومات وليسوا بالعلماء . .

« إنما يتذكر أولو الألباب » . .

وإنما يعرف أصحاب القلوب الواعية المتفتحة المدركة لما وراء الظواهر من حقائق . المنتفعة بما ترى وتعلم ، التى تذكر الله فى كل شىء تراه وتلمسه ولا تنساه ، ولا تنسى يوم لقاه . .

* * *

Marfat.com

وبعد عرض هاتين الصورتين يتجه إلى الذين آمنوا يناديهم ليتقوا ويحسنوا ؛ ويتخذوا من حياتهم القصيرة على هذه الأرض وسيلة للكسب الطويل فى الحياة الآخرة :

« قل : ياعباد الذين آمنوا اتقوا ربكم . للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة . وأرض الله واسعة . إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . .

وفى التعبير : « قل : ياعباد الذين آمنوا » التفاتة خاصة . فهو فى الأصل : قل لعبادى الذين آمنوا . . قل لهم : اتقوا ربكم . ولكنه جعله يناديهم ، لأن فى النداء إعلانا وتنبيها . والرسول — صلى الله عليه وسلم — لا يقول لهم : « ياعبادى » فهم عباد الله. فهناك هذه الالتفاتة فى أثناء تكليفه بتبليغهم أن يناديهم باسم الله . فالنداء فى حقيقته من الله . وما محمد — صلى الله عليه وسلم — إلا مبلغ عنه للنداء .

« قل : ياعباد الذين آمنوا . اتقوا ربكم » . .

والتقوى هى تلك الحساسية فى القلب، والتطلع إلى الله فى حذر وخشية ، وفى رجاء وطمع ، ومراقبة غضبه ورضاه فى توفز وإرهاف . . إنها تلك الصورة الوضيئة المشرقة ، التى رسمتها الآية السابقة لذلك الصنف الخاشع القانت من عباد الله .

« للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة » . .

وما أجزل الجزاء ! حسنة فى الدنيا القصيرة الأيام الهزيلة المقام . تقابلها حسنة فى الآخرة دار البقاء والدوام . ولكنه فضل الله على هذا الإنسان . الذى يعرف منه ضعفه وعجزه وضآلة جهده . فيكرمه ويرعاه !

« وأرض الله واسعة » .

فلا يقعد بكم حب الأرض ، وإلف المكان ، وأواصر النسب والقربى والصحبة فى دار عن الهجرة منها ، إذا ضاقت بكم فى دينكم ، وأعجزكم فيها الإحسان . فإن الالتصاق بالأرض فى هذه الحالة مدخل من مداخل الشيطان ؛ ولون من اتخاذ الأنداد لله فى قلب الإنسان .

وهى لفتة قرآنية لطيفة إلى مداخل الشرك الخفية فى القلب البشرى ، فى معرض الحديث عن توحيد الله وتقواه ، تنبىء عن مصدر هذا القرآن . فما يعالج القلب البشرى هذا العلاج إلا خالقه البصير به ، العليم بخفاياه .

والله خالق الناس يعلم أن الهجرة من الأرض عسيرة على النفس ، وأن التجرد من تلك الوشائج أمرشاق ، وأن ترك مألوف الحياة ووسائل الرزق واستقبال الحياة فى أرض جديدة

Marfat.com

تكليف صعب على بنى الإنسان : ومن ثم يشير فى هذا الموضع إلى الصبر وجزائه المطلق عند الله بلا حساب :

« إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . .

فيأخذ قلوبهم بهذه اللمسة فى موضعها المناسب ، ويعالج ما يشق على تلك القلوب الضعيفة العلاج الشافى ، وينسم عليها فى موقف الشدة نسمة القرب والرحمة . ويفتح لها أبواب العوض عن الوطن والأرض والأهل والإلف عطاء من عنده بغير حساب . . فسبحان العليم بهذه القلوب . الخبير بمداخلها ومساربها ، المطلع فيها على خفى الدبيب .

« قُلْ : إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ ٱلدِّينَ ⑪ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِنِّى أَخَافُ – إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى – عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

« قُلِ : ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِى * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ . قُلْ : إِنَّ ٱلْخَاسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ . أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ * لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ ٱلنَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ، ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ، يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ .

« وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا ٱلطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ، فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَاهُمُ ٱللَّهُ ، وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ .

« أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِى ٱلنَّارِ ؟

« لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَعْدَ ٱللَّهِ ، لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ » ⑳

هذا المقطع كله يظلله جو الآخرة ، وظل الخوف من عذابها ، والرجاء فى ثوابها . ويبدأ بتوجيه الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى إعلان كلمة التوحيد الخالصة ؛ وإعلان خوفه – وهو

Marfat.com

النبي المرسل - من عاقبة الانحراف عنها ، وإعلان تصميمه على منهجه وطريقه . وتركهم هم إلى منهجهم وطريقهم . وبيان عاقبة هذا الطريق وذاك ، يوم يكون الحساب .

* * *

« قل : إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ؛ وأمرت لأن أكون أول المسلمين . قل : إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم » . .

وهذا الإعلان من النبي - صلى الله عليه وسلم - بأنه مأمور أن يعبد الله وحده . ويخلص له الدين وحده ؛ وأن يكون بهذا أول المسلمين ؛ وأنه يخاف عذاب يوم عظيم إن هو عصى ربه .. هذا الإعلان ذو قيمة كبرى فى تجريد عقيدة التوحيد كما جاء بها الإسلام . فالنبى - صلى الله عليه وسلم - فى هذا المقام هو عبد لله . هذا مقامه لا يتعداه . وفى مقام العبادة يقف العبيد كلهم صفا ، وترتفع ذات الله سبحانه متفردة فوق جميع العباد . . وهذا هو المراد .

وعند ذلك يقر معنى الألوهية ، ومعنى العبودية ، ويتميزان ، فلا يختلطان ولا يشتبهان ، وتتجرد صفة الوحدانية لله سبحانه بلا شريك ولا شبيه . وحين يقف محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى مقام العبودية لله وحده يعلن هذا الإعلان ، ويخاف هذا الخوف من العصيان . فليس هنالك مجال لدعوى شفاعة الأصنام أو الملائكة بعبادتهم من دون الله أو مع الله بحال من الأحوال .

ومرة أخرى يكرر الإعلان مع الإصرار على الطريق ، وترك المشركين لطريقهم ونهايته الأليمة :

« قل : الله أعبد مخلصا له دينى فاعبدوا ماشئتم من دونه . قل : إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . ألا ذلك هو الخسران المبين » . .

مرة أخرى يعلن : إننى ماض فى طريقى . أخص الله بالعبادة ، وأخلص له الدينونة . فأما أنتم فامضوا فى الطريق التى تريدون ؛ واعبدوا ماشئتم من دونه . ولكن هنالك الخسران الذى ما بعده خسران . خسران النفس التى تنتهى إلى جهنم . وخسران الأهل سواء كانوا مؤمنين أم كافرين . فإن كانوا مؤمنين فقد خسرهم المشركون لأن هؤلاء إلى طريق وهؤلاء إلى طريق . وإن كانوا مشركين مثلهم فكأنهم خسر نفسه بالجحيم .. « ألا ذلك هو الخسران المبين » . .

ثم يعرض مشهد الخسران المبين :

« لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل . ذلك يخوف الله به عباده . ياعباد فاتقون » . .

Marfat.com

وهو مشهد رعيب حقا . مشهد النار فى هيئة ظلل من فوقهم وظلل من تحتهم ، وهم فى طيات هذه الظلل المعتمة تلفهم وتحتوى عليهم . وهى من النار !

إنه مشهد رعيب . يعرضه الله لعباده وهم بعد فى الأرض يملكون أن ينأوا بأنفسهم عن طريقه . ويخوفهم مغبته لعلهم يجتنبونه :

« ذلك يخوف الله به عباده » . .

ويناديهم ليحذروا ويتقوا ويسلموا :

« ياعباد فاتقون » .

وعلى الضفة الأخرى يقف الناجون ، الذين خافوا هذا المصير المشؤوم :

« والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى . فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله . وأولئك هم أولو الألباب » . .

والطاغوت صياغة من الطغيان ؟ نحو ملكوت وعظموت ورحموت . تفيد المبالغة والضخامة . والطاغوت كل ماطغا وتجاوز الحد . والذين اجتنبوا عبادتها هم الذين اجتنبوا عبادة غير المعبود فى أية صورة من صور العبادة . وهم الذين أنابوا إلى ربهم . وعادوا إليه ، ووقفوا فى مقام العبودية له وحده .

هؤلاء « لهم البشرى » صادرة إليهم من الملأ الأعلى . والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبلغها لهم بأمر الله : « فبشر عباد » . . إنها البشرى العلوية يحملها إليهم رسول كريم . وهذا وحده نعيم !

هؤلاء من صفاتهم أنهم يستمعون مايستمعون من القول ، فتلتقط قلوبهم أحسنه وتطرد ماعداه ، فلا يلحق بها ولا يلصق إلا الكلم الطيب ، الذى تزكو به النفوس والقلوب . . والنفس الطيبة تفتح للقول الطيب فتتلقاه وتستجيب له . والنفس الخبيثة لا تتفتح إلا للخبيث من القول ولا تستجيب إلا له .

« أولئك الذين هداهم الله » . .

فقدعلم الله فى نفوسهم خيرا فهداهم إلى استماع أحسن القول والاستجابة له . والهدى هدى الله .

« وأولئك هم أولو الألباب » . .

فالعقل السليم هو الذى يقود صاحبه إلى الزكاة ، وإلى النجاة . ومن لايتبع طريق الزكاة والنجاة فكأنه مسلوب العقل محروم من هذه النعمة التى أعطاها له الله .

Marfat.com

Marfat.com

وقبل أن يعرض مشهد هؤلاء فى نعيمهم فى الآخرة يقرر أن عبدة الطاغوت قد وصلوا فعلا إلى النار . وأن أحدا لايملك أن ينقذهم من هذه النار :

« أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار ؟ » ..

والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وإذا كان هو لايملك إنقاذهم من النار التى هم فيها فمن يملكها إذن سواه ؟

وأمام مشهد هؤلاء فى النار ـ وكأنهم فيها فعلا الآن . مادام قد حق عليهم العذاب ـ يعرض مشهد الذين اتقوا ربهم ، وخافوا ماخوفهم الله :

« لـكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية ، تجرى من تحتها الأنهار . وعد الله . لايخلف الله الميعاد » ..

ومشهد الغرف المبنية ، من فوقها غرف ، تجرى الأنهار من تحتها .. هذا المشهد يتقابل مع مشهد ظلل النار هناك من فوقهم ومن تحتهم . هذا التقابل الذى ينسقه التعبير القرآنى وهو يرسم المشاهد للأنظار .

ذلك وعد الله . ووعد الله واقع . لايخلف الله الميعاد .

ولقد عاش المسلمون الذين تلقوا هذا القرآن أول مرة . عاشوا هذه المشاهد فعلا وواقعا . فلم تكن فى نفوسهم وعدا أو وعيدا يتلقونهما من مستقبل بعيد . إنما كان هذا وذلك واقعا تشهده قلوبهم وتحسه وتراه . وتتأثر وترتعش وتستجيب لمرآه . ومن ثم تحولت نفوسهم ذلك التحول ؛ وتكيفت حياتهم على هذه الأرض بذلك الواقع الأخروى ، الذى كانوا يعيشونه ويحيون به وهم بعد فى الحياة ! وهكذا ينبغى أن يتلقى المسلم وعد الله .

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَابِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ، ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ، ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ؟ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ، أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ .

« اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ. ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ؛ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ.

أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ : ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ * كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.

« وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ، وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » ٢٩

في هذا المقطع من السورة لفتة إلى حياة النبات في الأرض عقب إنزال الماء من السماء ؛ وانتهائها إلى غايتها القريبة ، وكثيرا مايضرب هذا مثلا للحياة الدنيا في حقيقتها الزائلة — وتوجيه لأولي الألباب الذين يذكرون ويتدبرون ليتدبروا هذا المثل ويذكروه . وعلى ذكر إنزال الماء من السماء يشير إلى الكتاب المنزل من السماء كذلك لتحيا به القلوب وتنشرح له الصدور ؛ مع تصوير موح لاستجابة القلوب المفتوحة لهذا الكتاب ، بخشية وقشعريرة ثم لين وطمأنينة . وتصوير كذلك لعاقبة المستجيبين لذكر الله ، والقاسية قلوبهم من ذكر الله ، وفي النهاية يتجه إلى حقيقة التوحيد ، فيضرب مثالا لمن يعبد إلها واحدا ومن يعبد آلهة متعددة . وهما لايستويان مثلا ولا يتفقان حالا . كما لايستوي حال العبد الذي يملكه سادة متنازعون والعبد الذي يعمل لسيد واحد لاينازعه أحد فيه !

* * *

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فسلكه ينابيع في الأرض ، ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يجعله حطاما ؟ إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب» .

Marfat.com

إن هذه الظاهرة التى يوجه القرآن إليها الأنظار للتأمل والتدبر ، ظاهرة تتكرر فى أنحاء الأرض ، حتى لتذهب الألفة بجدتها وما فيها من عجائب فى كل خطوة من خطواتها . والقرآن يوجه النظر إلى رؤية يد الله وتتبع آثارها فى كل خطوة من خطوات الحياة .

فهذا الماء النازل من السماء .. ماهو وكيف نزل ؟ إننا نمر بهذه الخارقة سراعا لطول الألفة وطول التكرار . إن خلق الماء فى ذاته خارقة . ومهما عرفنا أنه ينشأ من اتحاد ذرتى أيدروجين بذرة أكسوجين تحت ظروف معينة ، فإن هذه المعرفة خليقة بأن توقظ قلوبنا إلى رؤية يد الله التى صاغت هذا الكون بحيث يوجد الأيدروجين ويوجد الأكسوجين وتوجد الظروف التى تسمح باتحادهما ، وبوجود الماء من هذا الاتحاد . ومن ثم وجود الحياة فى هذه الأرض . ولولا الماء ماوجدت حياة . إنها سلسلة من التدبير حتى تصل إلى وجود الماء ووجود الحياة . والله من وراء هذا التدبير ، وكله مما صنعت يداه . . ثم نزول هذا الماء بعد وجوده وهو الآخر خارقة جديدة ، ناشئة من قيام الأرض والكون على هذا النظام الذى يسمح بتكون الماء ونزوله وفق تدبير الله .

ثم تجىء الخطوة التالية لإنزال الماء :

« فسلكه ينابيع فى الأرض » . .

سواء فى ذلك الأنهار الجارية على سطح الأرض ؛ أو الأنهار الجارية تحت طباقها مما يتسرب من المياه السطحية ، ثم يتفجر بعد ذلك ينابيع وعيونا ، أو يتكشف آبارا . ويد الله تمسكه فلا يذهب فى الأغوار البعيدة التى لايظهر منها أبدا !

« ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه » . .

والحياة النباتية التى تعقب نزول الماء وتنشأ عنه ؛ خارقة يقف أمامها جهد الإنسان حسيرا . ورؤية النبتة الصغيرة وهى تشق حجاب الأرض عنها ؛ وتزيح أثقال الركام من فوقها ؛ وتتطلع إلى الفضاء والنور والحرية ؛ وهى تصعد إلى الفضاء رويدا رويدا . . هذه الرؤية كفيلة بأن تملأ القلب المفتوح ذكرى ؛ وأن تثير فيه الإحساس بالله الخالق المبدع الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . والزرع المختلف الألوان فى البقعة الواحدة . بل فى النبتة الواحدة . بل فى الزهرة الواحدة إن هو إلا معرض لإبداع القدرة ؛ يُشعر الإنسان بالعجز المطلق عن الإتيان بشىء منه أصلا !

Marfat.com

هذا الزرع النامى اللدن الرخص الطرى بالحياة ، يبلغ تمامه ، ويستوفى أيامه :

« ثم يهيج فتراه مصفرا » . .

وقد بلغ غايته المقدرة له فى ناموس الوجود ، وفى نظام الكون ، وفى مراحل الحياة ، فينضج للحصاد :

« ثم يجعله حطاما » . .

وقد استوفى أجله ، وأدى دوره ، وأنهى دورته كما قدر له واهب الحياة . .

« إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب » . .

الذين يتدبرون فيذكرون ، وينتفعون بما وهبهم الله من عقل وإدراك .

☆☆☆

« أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ؟ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله . أولئك فى ضلال مبين . الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ؛ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ؛ ومن يضلل الله فما له من هاد » . .

وكما ينزل الماء من السماء ؛ فينبت لهم به زرعا مختلفا ألوانه ؛ كذلك ينزل من السماء ذكرا تتلقاه القلوب الحية ؛ فتتفتح وتنشرح وتتحرك حركة الحياة ، وتتلقاه القلوب القاسية كما تتلقاه الصخرة القاسية التى لاحياة فيها ولا نداوة !

والله يشرح للإسلام قلوبا يعلم منها الخير ، ويصلها بنوره فتشرق به وتستضىء . والفرق بين هذه القلوب وقلوب أخرى قاسية فرق بعيد . « فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » . .

« أولئك فى ضلال مبين » . .

وهذه الآية تصور حقيقة القلوب التى تتلقى الإسلام فتنشرح له وتندى به . وتصور حالها مع الله . حال الانشراح والتفتح والنداوة والبشاشة ، والإشراق والاستنارة . كما تصور حقيقة القلوب الأخرى فى قساوتها وغلظتها وموتها وجفافها ، وعتمتها وظلامها . ومن يشرح الله صدره للإسلام ويمد له من نوره ، ليس قطعا كالقاسية قلوبهم من ذكر الله . وشتان شتان بين هؤلاء وهؤلاء .

Marfat.com

كذلك تصور الآية الثانية هيئة تلقى المؤمنين لهذا القرآن . هذا الكتاب المتناسق الذى لااختلاف فى طبيعته ، ولا فى اتجاهاته ، ولا فى روحه ، ولا فى خصائصه . فهو « متشابه » وهو « مثانى » تكرر مقاطعه وقصصه وتوجيهاته ومشاهده . ولكنها لاتختلف ولا تتعارض ، إنما تعاد فى مواضع متعددة وفق حكمة تتحقق فى الإعادة والتكرار . فى تناسق وفى استقرار على أصول ثابتة متشابهة . لاتعارض فيها ولا اصطدام .

والذين يخشون ربهم ويتقونه ، ويعيشون فى حذر وخشية ، وفى تطلع ورجاء ، يتلقون هذا الذكر فى وجل وارتعاش ، وفى تأثر شديدتقشعر منه الجلود ؛ ثم تهدأ نفوسهم ، وتأنس قلوبهم بهذا الذكر ؛ فتلين جلودهم وقلوبهم وتطمئن إلى ذكر الله . .

وهى صورة حية حساسة ترسمها الكلمات ، فتكاد تشخص فيها الحركات .

« ذلك هدى الله يهدى به من يشاء » . .

فما ترتعش القلوب هكذا إلاحين تحركها أصبع الرحمان إلى الهدى والاستجابة والإشراق . والله يعلم من حقيقة القلوب ما يجازيها عليه بالهدى أو بالضلال :

« ومن يضلل الله فماله من هاد » . .

فهو يضله بما يعلمه من حقيقته المستقرة على الضلال ، التى لا تقبل الهدى ولا تجنح إليه بحال .

ثم يعرض ما ينتظر أهل الضلال يوم القيامة فى مشهد بائس فى موعد حصاد الأعمال !

« أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ؟ وقيل للظالمين : ذوقوا ما كنتم تكسبون » . .

والإنسان يتقى وجهه عادة بيديه وجسمه . فأما هنا فهو لا يملك أن يدفع عن نفسه النار بيديه ولا برجليه ، فيدفعها بوجهه ، ويتقى به سوء العذاب . مما يدل على الهول والشدة والاضطراب . وفى زحمة هذا العذاب يتلقى التأنيب ، وتدفع إليه حصيلة حياته ويالها من حصيلة :

« وقيل : ذوقوا ما كنتم تكسبون » !

ويلتفت من هذا المشهد إلى الحديث عن المكذبين الذين يواجهون محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليعرض عليهم ما جرى للمكذبين قبلهم لعلهم يتداركون أنفسهم :

« كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون . فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا . ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » . .

فهذه حال المكذبين فى الدنيا والآخرة . فى الدنيا أذاقهم الله الخزى . وفى الآخرة ينتظرهم

Marfat.com

العذاب الأكبر . وسنة الله ماضية لا تتخلف . ومصارع القرون من قبلهم شاهدة . ووعيد الله لهم فى الآخرة قائم. والفرصة أمامهم سانحة. وهذا الذكر لمن يتعظ ويذكر «لو كانوا يعلمون»!

***

« ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ، قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون . ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل ، هل يستويان مثلا ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » . .

يضرب الله المثل للعبد الموحد والعبد المشرك بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضا فيه ، وهو بينهم موزع ؛ ولكل منهم فيه توجيه ، ولكل منهم عليه تكليف ؛ وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق ؛ ولا يملك أن يرضى أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة التى تمزق اتجاهاته وقواه ! وعبد يملكه سيد واحد ، وهو يعلم ما يطلبه منه ، ويكلفه به ، فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح . .

« هل يستويان مثلا ؟ » . .

إنهما لا يستويان. فالذى يخضع لسيد واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين . وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه ، ووضوح الطريق . والذى يخضع لسادة متشاكسين معذب مقلقل لا يستقر على حال ولا يرضى واحدا منهم فضلا على أن يرضى الجميع !

وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك فى جميع الأحوال . فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذى يقطع الرحلة على هذه الأرض على هدى ، لأن بصره أبدا معلق بنجم واحد على الأفق فلا يلتوى به الطريق . ولأنه يعرف مصدرا واحدا للحياة والقوة والرزق ، ومصدرا واحدا للنفع والضر ، ومصدرا واحدا للمنح والمنع ، فتستقيم خطاه إلى هذا المصدر الواحد ، يستمد منه وحده ، ويعلق يديه بحبل واحد يشد عروته . ويطمئن اتجاهه إلى هدف واحد لا يزوغ عنه بصره . ويخدم سيدا واحدا يعرف ماذا يرضيه فيفعله وماذا يغضبه فيتقيه . . وبذلك تتجمع طاقته كذلك وتتوحد ، فينتج بكل طاقته وجهده وهو ثابت القدمين على الأرض متطلع إلى إله واحد فى السماء . .

ويعقب على ذلك المثل الناطق الموحى ، بالحمد لله الذى اختار لعباده الراحة والأمن والطمأنينة والاستقامة والاستقرار . وهم مع هذا ينحرفون ، وأكثرهم لا يعلمون . .

Marfat.com

وهذا مثل من الأمثلة التي يضربها القرآن للناس لعلهم يتذكرون . وهو قرآن عربي ، مستقيم ، واضح ، لالبس فيه ولا عوج ولا انحراف . يخاطب الفطرة بمنطقها القريب المفهوم .

« إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ؟ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ؟ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ » ۝٣٥

هذا المقطع تعقيب على ما قبله . فبعد أن عرض آية الماء النازل من السماء ، وآية الزرع الذي يخرج بهذا الماء ، وآية الكتاب النازل من عند الله ؛ وأشار إلى مايضربه في القرآن من الأمثال « ولكن أكثرهم لايعلمون » عقب على هذا بأن أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأمرهم موكول إلى الله ؛ وأنه هو الذي يحكم بينهم بعد الموت ، فيجازي الكاذبين المكذبين بما يستحقون ؛ ويجازي الصادقين المصدقين جزاء المحسنين .

* * *

« إنك ميت وإنهم ميتون ، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » ..

إنه الموت نهاية كل حي ؛ ولايتفرد بالبقاء إلا الله . وفي الموت يستوي كل البشر بما فيهم محمد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وذكر هذه الحقيقة هنا حلقة من حلقات التوحيد الذي تقرره السورة كلها وتؤكده . ثم يلي ذلك تقرير مابعد الموت . فالموت ليس نهاية المطاف . إنما هو حلقة لها ما بعدها من حلقات النشأة المقدرة المدبرة ، التي ليس شيء منها عبثا ولا سدى . فيوم القيامة يختصم العباد فيما كان بينهم من خلاف . ويجيء رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أمام ربه ويوقف القوم للخصومة فيما كانوا يقولونه ويأتونه ، ويواجهون به ماأنزل الله إليهم من الهدى .

Marfat.com

« فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه ؟ أليس فى جهنم مثوى للكافرين ؟ »

سؤال للتقرير . فليس هنالك من هو أظلم ممن كذب على الله فزعم أن له بنات وأنه له شركاء ؛ وكذب بالصدق الذى جاء به رسوله ؛ فلم يصدق بكلمة التوحيد . إنه الكفر . وفى جهنم مثوى للكافرين . على سبيل التقرير الذى يرد فى صورة سؤال لزيادة الإيضاح والتوكيد.

هـذا طرف من الخصومة . فأما الطرف الآخر فهو الذى جاء بالصدق من عند الله . وصدق به فبلغه عن عقيدة واقتناع . ويشترك مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذه الصفة كل الرسل قبله . كما يشاركه فيها كل من دعا إلى هذا الصدق وهو مقتنع به مؤمن بأنه الحق ، يشارك قلبه لسانه فيما يدعو إليه . . « أولئك هم المتقون » . .

ويتوسع فى عرض صفحة المتقين هؤلاء وماأعده لهم من جزاء :

« لهم مايشاءون عند ربهم ، ذلك جزاء المحسنين » .

وهو تعبير جامع ، يشمل كل مايخطر للنفس المؤمنة من رغائب ، ويقرر أن هذا « لهم » عند ربهم ، فهو حقهم الذى لايخيب ولايضيع . . « ذلك جزاء المحسنين » . .

ذلك ليحقق الله ماأراده لهم من خير ومن كرامة ، ومن فضل يزيد على العدل يعاملهم به ، متفضلا محسنا :

« ليكفر عنهم أسوأ الذى عملوا ؛ ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون » . .

فالعدل أن تحسب الحسنات وتحسب السيئات ؛ ثم يكون الجزاء .

والفضل هو هذا الذى يتجلى به الله على عباده المتقين هؤلاء . . أن يكفر عنهم أسوأ أعمالهم فلا يبقى لها حساب فى ميزانهم . وأن يجزيهم أجرهم بحساب الأحسن فيما كانوا يعملون ، فتزيد حسناتهم وتعلو وترجح فى الميزان .

إنه فضل الله يؤتيه من يشاء . كتبه الله على نفسه بوعده . فهو واقع يطمئن إليه المتقون المحسنون . .

« أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ؟ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِ ! وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ . أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ؟

Marfat.com

Marfat.com

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ : ٱللَّهُ . قُلْ : أَفَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ؟ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ؟ قُلْ : حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ .

« قُلْ : يَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ؛ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ * إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ؛ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ * ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ ، وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

« أَمِ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَاءَ ؟ قُلْ : أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ؟ * قُلْ : لِلَّهِ ٱلشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ، لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

« وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ؛ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * قُلِ : ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ عَالِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، وَبَدَا لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ، ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ : إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ، بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ؛ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ، وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ؟ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » ⑸

هذه الجولة أوسع مقاطع السورة . وهى تتناول حقيقة التوحيد من جوانب متعددة فى لمسات متنوعة . تبدأ بتصوير حقيقة القلب المؤمن وموقفه بإزاء قوى الأرض واعتداده بالقوة الوحيدة ؛ واعتماده عليها دون مبالاة بسواها من القوى الضئيلة الهزيلة . ومن ثم ينفض يده من هذه القوى الوهمية ويكل أمره وأمر المجادلين له إلى الله يوم القيامة ؛ ويمضى فى طريقه ثابتا واثقا مستيقنا بالمصير .

يتلو هذا بيان وظيفة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنه ليس وكيلا على العباد فى هداهم وضلالهم . إنما الله هو المسيطر عليهم ؛ الآخذ بناصيتهم فى كل حالة من حالاتهم . وليس لهم من دونه شفيع فإن لله الشفاعة جميعا . وإليه ملك السماوات والأرض . وإليه المرجع والمصير .

ثم يصف المشركين وانقباض قلوبهم عند ذكر كلمة التوحيد وانبساطها عند ذكر كلمة الشرك . ويعقب على هذا بدعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى إعلان كلمة التوحيد خالصة ، وترك أمر المشركين لله . ويصورهم يوم القيامة وهم يودون لو يفتدون بملء الأرض ومثله معه . وقد تكشف لهم من الله مايذهل ويخيف !

ذلك . وهم يدعون الله وحده إذا أصابهم الضر . فإذا وهبهم منه نعمة ادعوا دعاوى عريضة وقال قائلهم : إنما أوتيته على علم عندى ! الكلمة التى قالها الذين من قبلهم فأخذهم الله القادر على أن يأخذ هؤلاء . وما هم بمعجزين . وما كان بسط الرزق وقبضه إلا سنة من سنن الله ، تجرى وفق حكمته وتقديره وهو وحده الباسط القابض : «إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون» ..

* * *

« أليس الله بكاف عبده ؟ ويخوفونك بالذين من دونه . ومن يضلل الله فماله من هاد . ومن يهد الله فماله من مضل . أليس الله بعزيز ذى انتقام ؟ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله . قل : أفرأيتم ماتدعون من دون الله ، إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟ قل : حسبى الله ، عليه يتوكل المتوكلون . قل : ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم » ..

هذه الآيات الأربع تصور منطق الإيمان الصحيح ، فى بساطته وقوته ، ووضوحه ، وعمقه. كما هو فى قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكما ينبغى أن يكون فى قلب كل مؤمن

Marfat.com

برسالة ، وكل قائم بدعوة . وهى وحدها دستوره الذى يغنيه ويكفيه ، ويكشف له الطريق الواصل الثابت المستقيم .

وقد ورد فى سبب نزولها أن مشركى قريش كانوا يخوفون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من آلهتهم ، ويحذرونه من غضبها ، وهو يصفها بتلك الأوصاف المزرية بها ، ويوعدونه بأنه إن لم يسكت عنها فستصيبه بالأذى . . .

ولكن مدلول هذه الآيات أوسع وأشمل . فهى تصور حقيقة المعركة بين الداعية إلى الحق وكل ما فى الأرض من قوى مضادة . كما تصور الثقة واليقين والطمأنينة فى القلب المؤمن ، بعد وزن هذه القوى بميزانها الصحيح :

« أليس الله بكاف عبده » ؟

بلى ! فمن ذا يخيفه ، وماذا يخيفه ؟ إذا كان الله معه ؟ وإذا كان هو قد اتخذ مقام العبودية وقام بحق هذا المقام ؟ ومن ذا يشك فى كفاية الله لعبده وهو القوى القاهر فوق عباده ؟

« ويخوفونك بالذين من دونه » . .

فكيف يخاف ؟ والذين من دون الله لا يخيفون من يحرسه الله . وهل فى الأرض كلها إلا من هم دون الله ؟

إنها قضية بسيطة واضحة ، لا تحتاج إلى جدل ولا كد ذهن . . إنه الله . ومَن هم دون الله . وحين يكون هذا هو الموقف لا يبقى هنالك شك ولا يكون هناك اشتباه .

وإرادة الله هى النافذة ومشيئته هى الغالبة . وهو الذى يقضى فى العباد قضاءه . فى ذوات أنفسهم ، وفى حركات قلوبهم ومشاعرهم :

« ومن يضلل الله فما له من هاد . ومن يهد الله فما له من مضل » . . .

وهو يعلم من يستحق الضلالة فيضله ، ومن يستحق الهدى فيهديه . فإذا قضى بقضائه هكذا أو هكذا فلا مبدل لما يشاء .

« أليس الله بعزيز ذى انتقام » ؟

بلى . وإنه لعزيز قوى . وإنه ليجازى كلا بما يستحق . وإنه لينتقم ممن يستحق الانتقام . فكيف يخشى أحدا أو شيئا من يقوم بحق العبودية له ، وهو كافله وكافيه ؟

Marfat.com

ثم يقرر هذه الحقيقة فى صورة أخرى منتزعة من منطقهم هم أنفسهم ، ومن واقع مايقررونه من حقيقة الله فى فطرتهم :

« ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ؟ ليقولن الله . قل : أفرأيتم ماتدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ؟ أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟ قل : حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون » . .

لقد كانوا يقررون – حين يسألون – أن الله هو خالق السماوات والأرض . وماتملك فطرة أن تقول غير هذا ، وما يستطيع عقل أن يعلل نشأة السماوات والأرض إلا بوجود إرادة عليا . فهو يأخذهم ويأخذ العقلاء جميعا بهذه الحقيقة الفطرية الواضحة . . إذا كان الله هو خالق السماوات والأرض . فهل يملك أحد أو شىء فى هذه السماوات والأرض أن يكشف ضرا أراد الله أن يصيب به عبدا من عباده ؟ أم يملك أحد أو شىء فى هذه السماوات والأرض أن يحبس رحمة أراد الله أن تنال عبدا من عباده ؟

والجواب القاطع : أن لا . . فإذا تقرر هـــذا فما الذى يخشاه داعية إلى الله ؟ ماالذى يخشاه وما الذى يرجوه ؟ وليس أحد بكاشف الضر عنه ؟ وليس أحد بمانع الرحمة عنه ؟ وما الذى يقلقه أو يخيفه أو يصده عن طريقه ؟

إنه متى استقرت هذه الحقيقة فى قلب مؤمن فقد انتهى الأمر بالنسبة إليه . وقد انقطع الجدل . وانقطع الخوف . وانقطع الأمل . إلا فى جناب الله سبحانه . فهو كاف عبده . وعليه يتوكل وحده :

« قل : حسبى الله . عليه يتوكل المتوكلون » . .

ثم إنها الطمأنينة بعد هذا والثقة واليقين . الطمأنينة التى لاتخاف . والثقة التى لاتقلق واليقين الذى لايتزعزع . والمضى فى الطريق على ثقة بنهاية الطريق :

« قل : ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم » . .

ياقوم اعملوا على طريقتكم وعلى حالكم . إنى ماض فى طريقى لا أميل ولا أخاف ولاأقلق . وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه فى الدنيا ، ويحل عليه عذاب مقيم فى الآخرة . .

Marfat.com

Marfat.com

لقد قضى الأمر بعد عرض الحقيقة البسيطة التى تنطق بها الفطرة ويشهد بها الوجود . . إن الله هو خالق السماوات والأرض . القاهر فوق السماوات والأرض . وهو صاحب هذه الدعوة التى يحملها الرسل ويتولاها الدعاة . فمن ذا فى السماوات والأرض يملك لرسله شيئاً أو لدعاته ؟ ومن ذا يملك أن يدفع عنهم ضرا أو يمسك عنهم رحمة ؟ وإذا لم يكن . فماذا يخشون وماذا يرجون عند غير الله ؟

ألا لقد وضح الأمر ولقد تعين الطريق ؛ ولم يعد هناك مجال لجدال أو محال !

* * *

تلك حقيقة الوضع بين رسل الله وسائر قوى الأرض التى تقف لهم فى الطريق . فما حقيقة وظيفتهم وما شأنهم مع المكذبين ؟

« إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق . فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها . وماأنت عليهم بوكيل . الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . أم اتخذوا من دون الله شفعاء ؟ قل : أو لو كانوا لايملكون شيئا ولا يعقلون ؟ قل : لله الشفاعة جميعا . له ملك السماوات والأرض ، ثم إليه ترجعون » . .

« إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق » . . الحق فى طبيعته . والحق فى منهجه . والحق فى شريعته . الحق الذى تقوم عليه السماوات والأرض ؛ ويلتقى عليه نظام البشرية فى هذا الكتاب ونظام الكون كله فى تناسق . هذا الحق نزل « للناس » ليهتدوا به ويعيشوا معه ويقوموا عليه . وأنت مبلغ . وهم بعد ذلك وما يشاءون لأنفسهم من هدى أو ضلال ، ومن نعيم أو عذاب . فكل مورد نفسه مايشاء ؛ وماأنت بمسيطر عليهم ولا بمسؤول عنهم :

« فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنت عليهم بوكيل » . .

إنما الوكيل عليهم هو الله . وهم فى قبضته فى صحوهم ونومهم وفى كل حالة من حالاتهم ، وهو يتصرف بهم كما يشاء :

« الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها . فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى » . .

فالله يستوفى الآجال للأنفس التى تموت . وهو يتوفاها كذلك فى منامها ـ وإن لم

Marfat.com

تمت بعد ـ ولكنها فى النوم متوفاة إلى حين . فالتى حان أجلها يمسكها فلا تستيقظ . والتى لم يحن أجلها بعد يرسلها فتصحو . إلى أن يحل أجلها المسمى . فالأنفس فى قبضته دائما فى صحوها ونومها .

« إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ..

* * *

إنهم هكذا فى قبضة الله دائما . وهو الوكيل عليهم . ولست عليهم بوكيل . وإنهم إن يهتدوا فلأنفسهم وإن يضلوا فعليها . وإنهم محاسبون إذن وليسوا بمتروكين .. فماذا يرجون إذن للفكاك والخلاص ؟

« أم اتخذوا من دون الله شفعاء ؟ قل : أو لو كانوا لايملكون شيئا ولا يعقلون ؟ قل : لله الشفاعة جميعا . له ملك السماوات والأرض ، ثم إليه ترجعون » ..

وهو سؤال للتهكم والسخرية من زعمهم أنهم يعبدون تماثيل الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى ! « أو لو كانوا لايملكون شيئا ولا يعقلون ؟ » .. يعقبه تقرير جازم بأن لله الشفاعة جميعا . فهو الذى يأذن بها لمن يشاء على يد من شاء . فهل مما يؤهلهم للشفاعة أن يتخذوا من دون الله شركاء ؟ !

« له ملك السماوات والأرض » .. فليس هنالك خارج على إرادته فى هذا الملك .. « ثم إليه ترجعون » .. فلا مهرب ولا مفر من الرجوع إليه وحده فى نهاية المطاف ..

* * *

وفى هذا الموقف الذى يتفرد فيه الله سبحانه بالملك والقهر يعرض كيف هم ينفرون من كلمة التوحيد ويهشون لكلمة الشرك ، الذى ينكره كل ما حولهم فى الوجود :

« وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » ..

والآية تصف واقعة حال على عهد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين كان المشركون يهشون ويبشون إذا ذكرت آلهتهم ؛ وينقبضون وينفرون إذا ذكرت كلمة التوحيد . ولكنها تصف حالة نفسية تتكرر فى شتى البيئات والأزمان . فمن الناس من تشمئز قلوبهم وتنقبض نفوسهم

Marfat.com

كلما دعوا إلى الله وحده إلها ، وإلى شريعة الله وحدها قانونا ، وإلى منهج الله وحده نظاما حتى إذا ذكرت المناهج الأرضية والنظم الأرضية والشرائع الأرضية هشوا وبشوا ورحبوا بالحديث ، وفتحوا صدورهم للأخذ والرد . هؤلاء هم بعينهم الذين يصور الله نموذجا منهم فى هذه الآية ، وهم بذاتهم فى كل زمان ومكان . هم الممسوخو الفطرة ، المنحرفو الطبيعة ، الضالون المضلون ، مهما تنوعت البيئات والأزمنة ، ومهما تنوعت الأجناس والأقوام .

والجواب على هذا المسخ والانحراف والضلال هومالقنه الله لرسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى مواجهة مثل هذه الحال :

« قل : اللهم فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون » . .

إنه دعاء الفطرة التى ترى السماء والأرض ؛ ويتعذر عليها أن تجد لها خالقا إلا الله فاطر السماوات والأرض ، فتتجه إليه بالاعتراف والإقرار . وتعرفه بصفته اللائقة بفاطر السماوات والأرض . « عالم الغيب والشهادة » المطلع على الغائب والحاضر ، والباطن والظاهر . « أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون » . . فهو وحده الحكم يوم يرجعون إليه . وهم لابد راجعون .

* * *

وبعد هذا التلقين يعرض حالهم الفزعة يوم يرجعون للحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون :

« ولو أن للذين ظلموا مافى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة ، وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون . وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » . .

إنه الهول الملفوف فى ثنايا التعبير الرهيب . فلوأن لهؤلاء الظالمين ــ الظالمين بشركهم وهو الظلم العظيم ــ لو أن لهؤلاء « مافى الأرض جميعا » . . ممايحرصون عليه ويناون عن الإسلام اعتزازا به . « ومثله معه » . . لقدموه فدية مما يرون من سوء العذاب يوم القيامة . .

وهول آخر يتضمنه التعبير الملفوف : « وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون » . . ولا يفصح عما بدا لهم من الله ولم يكونوا يتوقعونه . لايفصح عنه ولكنه هكذا هائل مذهل مخيف .. فهوالله . اللهالذى يبدونه لهؤلاءالضعاف مالايتوقعون ! هكذا بلا تعريف ولاتحديد!

Marfat.com

« وبدا لهم سيئات ما كسبوا ، وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون » . .

وهذه كذلك تزيد الموقف سوءا . حين يتكشف لهم قبح مافعلوا ؛ وحين يحيط بهم ماكانوا به يستهزئون من الوعيد والنذير . وهم فى ذلك الموقف الأليم الرعيب . .

* * *

وبعد هذا المشهد المعترض لبيان حالهم يوم يرجعون إلى الله الذى به يشركون ، والذى تشمئز قلوبهم حين يذكر وحده ، وتستبشر حينما تذكر آلهتهم المدعاة . بعد هذا يعود إلى تصوير حالهم العجيب . فهم ينكرون وحدانية الله . فأما حين يصيبهم الضر فهم لايتوجهون إلا له وحده ضارعين منيبين . حتى إذا تفضل عليهم وأنعم راحوا يتبجحون وينكرون :

« فإذا مس الإنسان ضر دعانا . ثم إذا خولناه نعمة منا ، قال : إنما أوتيته على علم . بل هى فتنة ولكن أكثرهم لايعلمون » . .

والآية تصور نموذجا مكررا للإنسان ، مالم تهتد فطرته إلى الحق ، وترجع إلى ربها الواحد ، وتعرف الطريق إليه ، فلا تضل عنه فى السراء والضراء .

إن الضر يسقط عن الفطرة ركام الأهواء والشهوات ، ويعريها من العوامل المصطنعة التى تحجب عنها الحق الكامن فيها وفى ضمير هذا الوجود . فعندئذ ترى الله وتعرفه وتتجه إليه وحده . حتى إذا مرت الشدة وجاء الرخاء ، نسى هذا الإنسان ماقاله فى الضراء ، وانحرفت فطرته بتأثير الأهواء . وقال عن النعمة والرزق والفضل : « إنما أوتيته على علم » . . قالها قارون ، وقالها كل مخدوع بعلم أو صنعة أو حيلة يعلل بها مااتفق له من مال أو سلطان . غافلا عن مصدر النعمة ، وواهب العلم والقدرة ، ومسبب الأسباب ، ومقدر الأرزاق .

« بل هى فتنة . ولكن أكثرهم لايعلمون » . .

هى فتنة للاختبار والامتحان . ليتبين إن كان سيشكر أو سيكفر ؛ وإن كان سيصلح بها أم سيفسد ؛ وإن كان سيعرف الطريق أم يجنح إلى الضلال .

والقرآن ــ رحمة بالعباد ــ يكشف لهم عن السر ، وينبههم إلى الخطر ، ويحذرهم الفتنة . فلا حجة لهم ولاعذر بعد هذا البيان .

وهو يلمس قلوبهم بعرض مصارع الغابرين قبلهم . مصارعهم بمثل هذه الكلمة الضالة التي يقولها قائلهم : « إنما أوتيته على علم » ..

« قد قالها الذين من قبلهم ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فأصابهم سيئات ما كسبوا . والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وماهم بمعجزين » ..

هي ذاتها هذه الكلمة الضالة قالها الذين من قبلهم ، فانتهت بهم إلى السوء والوبال . ولم يغن عنهم علمهم ولا مالهم ولا قوتهم شيئا . وهؤلاء سيصيبهم ما أصاب الغابرين . فسنة الله لا تتبدل « وماهم بمعجزين » .. فالله لا يعجزه خلقه الضعاف المهازيل !

فأما ما أعطاهم الله من نعمة ، وما وهبهم من رزق ، فإنه يتبع إرادة الله وفق حكمته وتقديره في بسط الرزق وقبضه ، ليبتلي عباده ، ولينفذ مشيئته كما يريد :

« أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » ..
فلا يجعلوا آيات الله سببا في الكفر والضلال . وهي جاءت للهدى والإيمان ..

« قُلْ يَاعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ ٱللَّهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ : يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ ٱللَّهِ ، وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ : لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ : لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ * بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ .

« وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ؟ * وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » ﴿٦١﴾

Marfat.com

ولما صور الله الحال المفزعة التي يكون عليها الظالمون يوم القيامة في قوله : « ولو أن للذين ظلموا مافي الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة ، وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون، وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » .. عاد يفتح أبواب رحمته على مصاريعها بالتوبة . ويطمع في رحمته ومغفرته أهل المعاصي مهما يكونوا قد أسرفوا في المعصية . ويدعوهم إلى الأوبة إليه غير قانطين ولا يائسين . ومع الدعوة إلى الرحمة والمغفرة صورة ماينتظرهم لو لم يئوبوا ويتوبوا ، ولو لم ينتهزوا هذه الفرصة المتاحة قبل إفلاتها وفوات الأوان ..

* * *

« قل : ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعا . إنه هو الغفور الرحيم » ..

إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية . كائنة ما كانت . وإنها الدعوة للأوبة . دعوة العصاة المسرفين الشاردين المبعدين في تيه الضلال . دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله. إن الله رحيم بعباده . وهو يعلم ضعفهم وعجزهم . ويعلم العوامل المسلطة عليهم من داخل كيانهم ومن خارجه . ويعلم أن الشيطان يقعد لهم كل مرصد . ويأخذ عليهم كل طريق . ويجلب عليهم بخيله ورجله . وأنه جاد كل الجد في عمله الخبيث ! ويعلم أن بناء هذا المخلوق الإنساني بناء واه . وأنه مسكين سرعان مايسقط إذا أفلت من يده الحبل الذي يربطه والعروة التي تشده. وأن ماركب في كيانه من وظائف ومن ميول ومن شهوات سرعان ما ينحرف عن التوازن فيشط به هنا أو هناك ؛ ويوقعه في المعصية وهو ضعيف عن الاحتفاظ بالتوازن السليم ..

يعلم الله ـ سبحانه ـ عن هذا المخلوق كل هذا فيمد له في العون ؛ ويوسع له في الرحمة ؛ ولا يأخذه بمعصيته حتى يهيء له جميع الوسائل ليصلح خطأه ويقيم خطاه على الصراط . وبعد أن يلج في المعصية ، ويسرف في الذنب ، ويحسب أنه قد طرد وانتهى أمره ، ولم يعد يقبل ولا يستقبل . في هذه اللحظة لحظة اليأس والقنوط ، يسمع نداء الرحمة الندى اللطيف :

« قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعا . إنه هو الغفور الرحيم » ..

وليس بينه ـ وقد أسرف في المعصية ، ولج في الذنب ، وأبق عن الحمى ، وشرد عن

Marfat.com

Marfat.com

الطريق – ليس بينه وبين الرحمة الندية الرخية ، وظلالها السمحة المحيية . ليس بينه وبين هذا كله إلا التوبة . التوبة وحدها . الأوبة إلى الباب المفتوح الذى ليس عليه بواب يمنع ، والذى لايحتاج من يلج فيه إلى استئذان :

« وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون . واتبعوا أحسن ماأنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لاتشعرون » ..

الإنابة . والإسلام . والعودة إلى أفياء الطاعة وظلال الاستسلام . . هذا هو كل شيء . بلا طقوس ولا مراسم ولا حواجز ولا وسطاء ولاشفعاء !

إنه حساب مباشر بين العبد والرب . وصلة مباشرة بين المخلوق والخالق . من أراد الأوبة من الشاردين فليؤب . ومن أراد الإنابة من الضالين ، فلينب . ومن أراد الاستسلام من العصاة فليستسلم . وليأت . . ليأت وليدخل فالباب مفتوح . والفيء والظل والندى والرخاء : كله وراء الباب لاحاجب دونه ولا حسيب !

وهيا . هيا قبل فوات الأوان . هيا « من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون » . . فما هنالك من نصير . هيا فالوقت غير مضمون . وقد يفصل فى الأمر وتغلق الأبواب فى أية لحظة من لحظات الليل والنهار . هيا . « واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم » . . وهو هذا القرآن بين أيديكم .. « من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لاتشعرون » . .

هيا قبل أن تتحسروا على فوات الفرصة ، وعلى التفريط فى حق الله ، وعلى السخرية بوعـــد الله :

« أن تقول نفس : ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله . وإن كنت لمن الساخرين » ..

أوتقول إن الله كتب على الضلال ولوكتب على الهدى لاهتديت واتقيت : « أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين » . .

وهى علالة لاأصل لها . فالفرصة هاهى ذى سانحة ، ووسائل الهدى ماتزال حاضرة . وباب التوبة هاهو ذامفتوح !

« أو تقول حين ترى العذاب : لو ان لى كرة فأكون من المحسنين » ..

وهى أمنية لاتنال . فإذا انتهت هذه الحياة فلا كرة ولا رجوع . وهاأنتم أولاء فى دار العمل . وهى فرصة واحدة إذا انقضت لاتعود . وستسألون عنها مع التبكيت والترذيل :

Marfat.com

« بلى . قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين » !

* * *

ثم يمضى السياق وقد وصل بالقلوب والمشاعر إلى ساحة الآخرة .. يمضى فى عرض مشهد المكذبين والمتقين ، فى ذلك الموقف العظيم :

« ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة . أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ؟ وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم ، لايمسهم السوء ولا هم يحزنون » ..

وهذا هو المصير الأخير . فريق مسود الوجوه من الخزى ، ومن الكمد ، ومن لفح الجحيم . هو فريق المتكبرين فى هذه الأرض ، الذين دعوا إلى الله ، وظلت الدعوة قائمة حتى بعد الإسراف فى المعصية ، فلم يلبوا هاتف النجاة . فهم اليوم فى خزى تسود له الوجوه . وفريق ناج فائز لايمسه السوء ولا يخالطه الحزن . هو فريق المتقين ، الذين عاشوا فى حذر من الآخرة ، وفى طمع فى رحمة الله . فهم اليوم يجدون النجاة والفوز والأمن والسلامة : « لايمسهم السوء ولا هم يحزنون » ..

ومن شاء بعد هذا فليلب النداء إلى الرحمة الندية الظليلة وراء الباب المفتوح . ومن شاء فليبق فى إسرافه وفى شروره حتى يأخذهم العذاب وهم لا يشعرون !

« اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ؛ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

« قُلْ : أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ؟ * وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ .

« وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ! * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ

يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ، وَوُضِعَ ٱلْكِتَابُ ، وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ .

« وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا ، حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ، وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا : أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ، يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ، وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ؟ قَالُوا : بَلَى ، وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ * قِيلَ ٱدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَراً ، حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ، وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ، وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ .

« وَتَرَى ٱلْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ » ﴿٧٥﴾

Marfat.com

هذا القطاع الأخير فى السورة ، يعرض حقيقة التوحيد من جانب وحدانية الخالق الذى خلق كل شيء ، المالك المتصرف فى كل شيء . فتبدو دعوة المشركين للنبي – صلى الله عليه وسلم – إلى مشاركتهم عبادة آلهتهم فى مقابل أن يشاركوه عبادة إلهه ! تبدو هذه الدعوة مستغربة ، والله هو خالق كل شيء ، وهو المتصرف فى ملكوت السماوات والأرض بلا شريك . فأنى يعبد معه غيره ، وله وحده مقاليد السماوات والأرض ؟!

« وماقدروا الله حق قدره » وهم يشركون به وهو وحده المعبود القادر القاهر « والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه » . . وبمناسبة تصوير هذه الحقيقة على هذا النحو يوم القيامة يعرض مشهدا فريدا من مشاهد القيامة ، ينتهى بموقف الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، وينطق الوجود كله بحمده : « وقيل الحمد لله رب

Marfat.com

العالمين » .. فتكون هذه هى كلمة الفصل فى حقيقة التوحيد .

* * *

« الله خالق كل شىء ، وهو على كل شىء وكيل . له مقاليد السماوات والأرض . والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون » ..

إنها الحقيقة التى ينطق بها كل شىء . فما يملك أحد أن يدعى أنه خلق شيئا . ومايملك عقل أن يزعم أن هذا الوجود وجد من غير مبدع . وكل مافيه ينطق بالقصد والتدبير ؛ وليس أمر من أموره متروكا لقى أو للمصادفة من الصغير إلى الكبير : «وهو على كل شىء وكيل» ..

وإلى الله قياد السماوات والأرض . فهو يصرفها وفق مايريد ؛ وهى تسير وفق نظامه الذى قدره ؛ وماتتدخل إرادة غير إرادته فى تصريفها ، على ماتشهد الفطرة ، وينطق الواقع ؛ ويقر العقل والضمير .

« والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون » ..

خسروا الإدراك الذى يجعل حياتهم فى الأرض متسقة مع حياة الكون كله ؛ وخسروا راحة الهدى وجمال الإيمان وطمأنينة الاعتقاد وحلاوة اليقين . وخسروا فى الآخرة أنفسهم وأهليهم . فهم الخاسرون الذين ينطبق عليهم لفظ « الخاسرون » !

* * *

وعلى ضوء هذه الحقيقة التى تنطق بها السماوات والأرض ، ويشهد بها كل شىء فى الوجود ، يلقن الرسول — صلى الله عليه وسلم — استنكار مايعرضونه عليه من مشاركتهم عبادة آلهتهم فى مقابل أن يعبدوا معه إلهه . كأن الأمر أمر صفقة يساوم عليها فى السوق !

« قل : أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ؟ » ..

وهو الاستنكار الذى تصرخ به الفطرة فى وجه هذا العرض السخيف الذى ينبىء عن الجهل المطلق المطبق المطموس .

ويعقب عليه بتحذير من الشرك . يبدأ أول مايبدأ بالأنبياء والمرسلين . وهم — صلوات الله عليهم — لا يتطرق إلى قلوبهم طائف الشرك أبدا . ولكن التحذير هنا ينبه سواهم من أقوامهم إلى تفرد ذات الله سبحانه فى مقام العبادة ، وتوحد البشر فى مقام العبودية ، بما فيهم الأنبياء والمرسلون :

« ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك : لئن أشركت ليحبطن عملك ، ولتكونن من الخاسرين » ..

ويختم هذا التحذير من الشرك بالأمر بالتوحيد . توحيد العبادة والشكر على الهدى واليقين، وعلى آلاء الله التى تغمر عباده ، ويعجزون عن إحصائها ، وهم فيها مغمورون :

« بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » ..

***

« وماقدروا الله حق قدره » ..

نعم . ماقدروا الله حق قدره ، وهم يشركون به بعض خلقه . وهم لايعبدونه حق عبادته . وهم لايدركون وحدانيته وعظمته . وهم لا يستشعرون جلاله وقوته .

ثم يكشف لهم عن جانب من عظمة الله وقوته . على طريقة التصوير القرآنية ، التى تقرب للبشر الحقائق الكلية فى صورة جزئية ، يتصورها إدراكهم المحدود :

« والأرض جميعا قبضته يوم القيامة . والسماوات مطويات بيمينه . سبحانه وتعالى عما يشركون » . .

وكل مايرد فى القرآن وفى الحديث من هذه الصور والمشاهد إنما هو تقريب للحقائق التى لايملك البشر إدراكها بغير أن توضع لهم فى تعبير يدركونه ، وفى صورة يتصورونها . ومنه هذا التصوير لجانب من حقيقة القدرة المطلقة ، التى لاتتقيد بشكل ، ولا تتحيز فى حيز ، ولا تتحدد بحدود(١) .

***

ثم يأخذ فى مشهد من مشاهد القيامة يبدأ بالنفخة الأولى ، وينتهى بانتهاء الموقف ، وسوق أهل النار إلى النار . وأهل الجنة إلى الجنة . وتفرد الله ذى الجلال . وتوجه الوجود لذاته بالتسبيح والتحميد .

وهو مشهد رائع حافل ، يبدأ متحركا ، ثم يسير وئيدا ، حتى تهدأ كل حركة ، وتسكن

---

(١) يراجع بتوسع فصل : التصوير الفنى . وفصل : التخييل الحسى والتجسيم . فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

Marfat.com

كل نأمة، ويخيم على ساحة العرض جلال الصمت ، ورهبة الخشوع ، بين يدى الله الواحد القهار !

هاهى ذى الصيحة الأولى تنبعث ، فيصعق من يكون باقيا على ظهر الأرض من الأحياء ، ومن فى السماوات كذلك ـ إلا من شاء الله ـ ولا نعلم كم يمضى من الوقت حتى تنبعث الصيحة الثانية :

« ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله . ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » ..

ولا تذكر الصيحة الثالثة هنا . صيحة الحشر والتجميع . ولاتصور ضجة الحشر وعجيج الزحام . لأن هذا المشهد يرسم هنا فى هدوء ، ويتحرك فى سكون .

« وأشرقت الأرض بنور ربها » ..

أرض الساحة التى يتم فيها الاستعراض . ونور ربها الذى لانور غيره فى هذا المقام ..

« ووضع الكتاب » .. الحافظ لأعمال العباد ..

« وجىء بالنبيين والشهداء » .. ليقولوا كلمة الحق التى يعلمون .. وطوى كل خصام وجدال ـ فى هذا المشهد ـ تنسيقا لجوه مع الجلال والخشوع الذى يسود الموقف العام :

« وقضى بينهم بالحق وهم لايظلمون . ووفيت كل نفس ماعملت وهو أعلم بما يفعلون » .

فلا حاجة إلى كلمة تقال ، ولا إلى صوت واحد يرتفع . ومن ثم تجمل وتطوى عملية الحساب والسؤال والجواب التى تعرض فى مشاهد أخرى . لأن المقام هنا مقام روعة وجلال .

« وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا » . « حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها » ..

واستقبلهم خزنتها يسجلون استحقاقهم لها ويذكرونهم بأسباب مجيئهم إليها :

« وقال لهم خزنتها : ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا »؟

« قالوا : بلى . ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين » ..

فالموقف موقف إذعان وتسليم . لاموقف مخاصمة ولا مجادلة . وهم مقرون مستسلمون !

« قيل : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها . فبئس مثوى المتكبرين » !

ذلك ركب جهنم ركب المتكبرين . فكيف ركب الجنة ؟ ركب المتقين ؟

« وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا . حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها . وقال لهم خزنتها : سلام عليكم . طبتم . فادخلوها خالدين » ..

Marfat.com

Marfat.com

فهو الاستقبال الطيب . والثناء المستحب . وبيان السبب . « طبتم » وتطهرتم . كنتم طيبين . وجئتم طيبين . فما يكون فيها إلا الطيب . وما يدخلها إلا الطيبون . وهو الخلود فى ذلك النعيم ..

هنا تهينم أصوات أهل الجنة بالتسبيح والتحميد :

«وقالوا : الحمدلله . الذى صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض ، نتبوأ من الجنة حيث نشاء» . فهذه هى الأرض التى تستحق أن تورث . وهم يسكنون فيها حيث شاءوا ، وينالون منها الذى يريدون . .

« فنعم أجر العاملين » . .

ثم يختم المشهد بما يغمر النفس بالروعة والرهبة والجلال ، وما يتسق مع جو المشهد كله وظله ، وما يختم سورة التوحيد أنسب ختام ؛ والوجود كله يتجه إلى ربه بالحمد ؛ فى خشوع واستسلام . وكلمة الحمد ينطق بها كل حى وكل موجود فى استسلام :

« وترى الملائكة حافين من حول العرش ، يسبحون بحمد ربهم ، وقضى بينهم بالحق ، وقيل : الحمد لله رب العالمين » . .

Marfat.com

سورة غافر
وآياتها ٨٥

بسم الله الرحمن الرحيم

« حم ① تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذي الطول ، لا إله إلا هو ، إليه المصير .

« ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ، فلا يغررك تقلبهم في البلاد * كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، فأخذتهم ، فكيف كان عقاب ؟ * وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار .

« الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم * وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم .

« إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون * قالوا : ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا ،

Marfat.com

فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ؟ * ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ، وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ، فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ .

« هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ ، وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ رِزْقًا ، وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ * فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ * رَفِيعُ ٱلدَّرَجَاتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ * يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ؟ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ * ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ، إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ .

« وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ * يَعْلَمُ خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ * وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ ، وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ، إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ » (٢٠)

هذه السورة تعالج قضية الحق والباطل . قضية الإيمان والكفر . قضية الدعوة والتكذيب وأخيرا قضية العلو فى الأرض والتجبر بغير الحق ، وبأس الله الذى يأخذ العالين المتجبرين . . وفى ثنايا هذه القضية تلم بموقف المؤمنين المهتدين الطائعين ونصر الله إياهم ، واستغفار الملائكة لهم ، واستجابة الله لدعائهم ، وما ينتظرهم فى الآخرة من نعيم .

وجو السورة كله ـ من ثم ـ كأنه جو معركة . وهى المعركة بين الحق والباطل ، وبين الإيمان والطغيان ، وبين المتكبرين المتجبرين فى الأرض وبأس الله الذى يأخذهم بالدمار والتنكيل . تنسم خلال هذا الجو نسمات الرحمة والرضوان حين يجىء ذكر المؤمنين !

ذلك الجو يتمثل فى عرض مصارع الغابرين ، كما يتمثل فى عرض مشاهد القيامة ـ وهذه وتلك تتناثر فى سياق السورة وتتكرر بشكل ظاهر ـ وتعرض فى صورها العنيفة المرهوبة المخيفة متناسقة مع جو السورة كله ، مشتركة فى طبع هذا الجو بطابع العنف والشدة .

ولعله مما يتفق مع هذه السمة افتتاح السورة بإيقاعات ذات رنين خاص : « غافر الذنب .

Marfat.com

وقابل التوب . شديد العقاب . ذى الطول . لا إله إلا هو . إليه المصير » . . فكأنما هى مطارق منتظمة الجرس ثابتة الوقع، مستقرة المقاطع ، ومعانيها كذلك مساندة لإيقاعها الموسيقى!

كذلك نجد كلمة الباس . وبأس الله . وبأسنا .. مكررة تتردد فى مواضع متفرقة من السورة . وهناك غيرها من ألفاظ الشدة والعنف بلفظها أو بمعناها .

* * *

وعلى العموم فإن السورة كلها تبدو وكأنها مقارع ومطارق تقع على القلب البشرى وتؤثر فيه بعنف وهى تعرض مشاهد القيامة ومصارع الغابرين . وقد ترق أحيانا فتتحول إلى لمسات وإيقاعات تمس هذا القلب برفق ، وهى تعرض حملة العرش ومن حوله يدعون ربهم ليتكرم على عباده المؤمنين ، أو وهى تعرض عليه الآيات الكونية والآيات الكامنة فى النفس البشرية .

ونضرب بعض الأمثال التى ترسم جو السورة وظلها من هذه وتلك ..

من مصارع الغابرين : « كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق . فأخذتهم . فكيف كان عقاب ؟ » .. أولم يسيروا فى الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ، كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض ، فأخذهم الله بذنوبهم ؛ وما كان لهم من الله من واق . ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا ، فأخذهم الله ، إنه قوى شديد العقاب » ..

ومن مشاهد القيامة : « وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين . ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » .. « الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون . . »

ومن اللمسات الندية مشهد حملة العرش فى دعائهم الخاشع المنيب : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا . ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته . وذلك هو الفوز العظيم » . .

ومن اللمسات الموحية عرض آيات الله فى الأنفس وفى الآفاق : « هو الذى خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم يخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخا.

Marfat.com

ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلا مسمى ، ولعلكم تعقلون . هو الذى يحيي ويميت . فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » .. « الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا . إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لايشكرون . ذلكم الله ربكم خالق كل شىء . لاإله إلا هو فأنى تؤفكون ؟ » .. « الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم . ورزقكم من الطيبات . ذلكم الله ربكم . فتبارك الله رب العالمين » .

وهذه وتلك تصور جو السورة وترسم ظلها ، وتتناسق مع موضوعها وطابعها .

* * *

ويجرى سياق السورة بموضوعاتها فى أربعة أشواط متميزة .

يبدأ الشوط الأول منها بافتتاح السورة بالأحرف المقطعة : « حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم » تتلوها تلك الإيقاعات الرصينة الثابتة : « غافر الذنب . وقابل التوب . شديد العقاب ذى الطول . لاإله إلا هو . إليه المصير » .. ثم تقرر أن الوجود كله مسلم مستسلم لله . وأنه لايجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فيشذون عن سائر الوجود بهذا الجدال . ومن ثم فهم لايستحقون أن يأبه لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مهما تقلبوا فى الخير والمتاع . فإنما هم صائرون إلى ماصارت إليه أحزاب المكذبين قبلهم ؛ وقد أخذهم الله أخذا ، بعقاب يستحق العجب والإعجاب ! ومع الأخذ فى الدنيا فإن عذاب الآخرة ينتظرهم هناك .. ذلك بينما حملة العرش ومن حوله يعلنون إيمانهم بربهم ، ويتوجهون إليه بالعبادة ، ويستغفرون للذين آمنوا من أهل الأرض ، ويدعون لهم بالمغفرة والنعيم والفلاح .. وفى الوقت ذاته يعرض مشهد الكافرين يوم القيامة وهم ينادون من أرجاء الوجود المؤمن المسلم المستسلم : « لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون » .. وهم فى موقف الذلة والانكسار بعد الاستكبار ، يقرون بذنبهم ، ويعترفون بربهم ، فلا ينفعهم الاعتراف والإقرار ، إنما يذكرون بما كان منهم من شرك واستكبار .. ومن هذا الموقف بين يدى الله فى الآخرة يعود بالناس إلى الله فى الدنيا .. « هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا » ويذكرهم لينيبوا إلى ربهم ويوحدوه : « فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » . ويشير إلى الوحى والإنذار بذلك اليوم العصيب . ويستطرد إلى مشهدهم يوم القيامة : « يوم هم بارزون لايخفى على الله منهم شىء » وقد توارى الجبارون والمتكبرون والمجادلون : « لمن الملك اليوم ؟

لله الواحد القهار » . . ويستمر فى عرض صور من هذا اليوم الذى يتفرد الله جل جلاله فيه بالحكم والقضاء . ويتوارى فيه ويضمحل مايعبدون من دونه ، كما يتوارى الطغاة والفجار..

ويبدأ الشوط الثانى بلفتة إلى مصارع الغابرين قبلهم . مقدمة لعرض جانب من قصة موسى – عليه السلام – مع فرعون وهامان وقارون . تمثل موقف الطغيان من دعوة الحق . وتعرض فيها حلقة جديدة لم تعرض فى قصة موسى من قبل ، ولا تعرض إلا فى هذه السورة . وهى حلقة ظهور رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه . يدفع عن موسى ماهموا بقتله ؛ ويصدع بكلمة الحق والإيمان فى تلطف وحذر فى أول الأمر ، ثم فى صراحة ووضوح فى النهاية . ويعرض فى جدله مع فرعون حجج الحق وبراهينه قوية ناصعة ؛ ويحذرهم يوم القيامة ، ويمثل لهم بعض مشاهده فى أسلوب مؤثر ؛ ويذكرهم موقفهم وموقف الأجيال قبلهم من يوسف – عليه السلام – ورسالته .. ويستطرد السياق بالقصة حتى يصل طرفها بالآخرة . فإذا هم هناك . وإذا هم يتحاجون فى النار . وإذا حوار بين الضعفاء والذين استكبروا ، وحوار لهم جميعا مع خزنة جهنم يطلبون فيه الخلاص . ولات حين خلاص ! وفى ظل هذا المشهد يوجه الله رسوله – صلى الله عليه وسلم – إلى الصبر والثقة بوعد الله الحق ، والتوجه إلى ربه بالتسبيح والحمد والاستغفار .

فأما الشوط الثالث فيبدأ بتقرير أن الذين يجادلون فى آيات الله بغير حجة ولا برهان إنما يدفعهم إلى هذا كبر فى نفوسهم عن الحق ، وهم أصغر وأضأل من هذا الكبر . ويوجه القلوب حينئذ إلى هذا الوجود الكبير الذى خلقه الله ، وهو أكبر من الناس جميعا . لعل المتكبرين يتصاغرون أمام عظمة خلق الله ؛ وتتفتح بصيرتهم فلا يكونون عميا : « وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء . قليلا ماتتذكرون » . ويذكرهم بمجىء الساعة ، ويوجههم إلى دعوة الله الذى يستجيب للدعاء . فأما الذين يستكبرون فسيدخلون جهنم أذلاء صاغرين . ويعرض فى هذا الموقف بعض آيات الله الكونية التى يمرون عليها غافلين . يعرض الليل سكنا والنهار مبصرا . والأرض قرارا والسماء بناء . ويذكرهم بأنفسهم وقد صورهم فأحسن صورهم . ويوجههم إلى دعوة الله مخلصين له الدين . ويلقن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يبرأ من عبادتهم ، ويعلن نهى ربه له عن آلهتهم ، وأمره له بالإسلام لرب العالمين . ويلمس قلوبهم بأن الله الواحد هو الذى أنشأهم من تراب ثم من نطفة .. وهو

Marfat.com

الذى يحي ويميت . ثم يعود فيعجب رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أمر الذين يجادلون فى الله ؟ وينذرهم عذاب يوم القيامة فى مشهد عنيف : « إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون » . . وإذ يتخلى عنهم ماأشركوا وينكرون هم أنهم كانوا يعبدون شيئا ! وينتهى بهم الأمر إلى جهنم يقال لهم : « ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين » .. وعلى ضوء هذا المشهد يوجه الله رسوله إلى الصبر مرة أخرى ، والثقة بأن وعد الله حق . سواء أبقاه حتى يشهد بعض مايعدهم أو توفاه قبل أن يراه . فسيتم الوعد هناك ..

والشوط الأخير فى السورة يتصل بالشوط الثالث . فبعد توجيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للصبر والانتظار يذكر أن الله قد أرسل رسلا قبله كثيرين . « وماكان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله » . . على أن فى الكون آيات قائمة ، وبين أيديهم آيات قريبة ؛ ولكنهم يغفلون عن تدبرها .. هذه الأنعام المسخرة لهم . من سخرها ؟ . وهذه الفلك التى تحملهم أليست آية يرونها ! ومصارع الغابرين ألا تثير فى قلوبهم العظة والتقوى ؟ ويختم السورة بإيقاع قوى على مصرع من مصارع المكذبين ، وهم يرون بأس الله فيؤمنون ؛ « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا . سنة الله التى قد خلت فى عباده ، وخسر هنالك الكافرون » .. هذا الختام الذى يصور نهاية المتكبرين ، ويتفق مع جو السورة وظلها وطابعها الأصيل .

فلنسر الآن مع سياق السورة بالتفصيل ..

* * *

«حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب، ذى الطول ، لاإله إلا هو ، إليه المصير » ..

هذه السورة بدء سبع سور كلها تبدأ بالحرفين : « حا . ميم » . منها سورة واحدة يذكر فيها بعد هذين الحرفين ثلاثة حروف أخر : « عين . سين . قاف » . وقد سبق الحديث عن الأحرف المقطعة فى أوائل السور . وأنها إشارة إلى صياغة هذا القرآن منها . وهو معجز لهم مع تيسير هذه الأحرف لهم ومعرفتهم بها ، وهى أحرف لغتهم التى يتحدثونها ويكتبونها .

وتلها الإشارة إلى تنزيل الكتاب . إحدى الحقائق التى يتكرر الحديث عنها فى السور المكية بوجه خاص ، فى معرض بناء العقيدة :

« تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم » ..

Marfat.com

وهى مجرد إشارة ينتقل السياق منها إلى التعريف ببعض صفات الله الذى نزل هـذا الـكتاب . وهى مجموعة من الصفات ذات علاقة موضوعية بمحتويات السورة كلها وقضاياها :

« العزيز العليم ، غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذى الطول . لا إله إلا هو ، إليه المصير » . .

العزة . والعلم . وغفران الذنب . وقبول التوبة . وشدة العقاب . والفضل والإنعام . ووحدانية الألوهية ، ووحدانية المرجع والمصير . .

وكل موضوعات السورة تتعلق بهذه المعانى ، التى جاءت فى مطلع السورة . والتى سيقت فى إيقاعات ثابتة الجرس ، قوية التركيب ، توحى بالاستقرار والثبات والرسوخ .

والله ـ سبحانه ـ يعرف نفسه لعباده بصفاته ، ذات الأثر فى حياتهم ووجودهم ، ويلمس بها مشاعرهم وقلوبهم ؛ فيثير رجاءهم وطمعهم ، كما يثير خوفهم وخشيتهم ، ويشعرهم بأنهم فى قبضته لامهرب لهم من تصريفه . ومنها هذه الصفات :

« العزيز » : القوى القادر الذى يغلب ولا يغلب ، والذى يصرف الأمر لا يقدر عليه أحد ، ولا يعقب عليه أحد .

« العليم » .. الذى يصرف الوجود عن علم وعن خبرة ، فلا يخفى عليه شىء ، ولا يند عن علمـه شىء .

« غافر الذنب » .. الذى يعفو عن ذنوب العباد ، بما يعلمه ـ سبحانه ـ من استحقاقهم للغفران .

« وقابل التوب » .. الذى يتوب على العصاة ، ويتقبلهم فى حماه ، ويفتح لهم بابه بلا حجاب .

« شديد العقاب » الذى يدمر على المستكبرين ويعاقب المعاندين ، الذين لا يتوبون ولا يستغفرون .

« ذى الطول » .. الذى يتفضل بالإنعام ، ويضاعف الحسنات ، ويعطى بغير حساب .

« لا إله إلا هو » .. فله الألوهية وحده لا شريك له فيها ولا شبيه .

« إليه المصير » .. فلا مهرب من حسابه ولا مفر من لقائه . وإليه الأوبة والمعاد .

وهكذا تتضح صلته بعباده وصلة عباده به . تتضح فى مشاعرهم وتصوراتهم وإدراكهم ، فيعرفون كيف يعاملونه فى يقظة وفى حساسية ؛ وفى إدراك لـمـا يغضبه وما يرضيه .

وقد كان أصحاب العقائد الأسطورية يعيشون مع آلهتهم فى حيرة ، لا يعرفون عنها شيئا

Marfat.com

Marfat.com

مضبوطا ؛ ولا يتبينون ماذا يسخطها وماذا يرضيها ، ويصورونها متقلبة الأهواء ، غامضة الاتجاهات ، شديدة الانفعالات ، ويعيشون معها فى قلق دائم يتحسسون مواضع رضاها ، بالرقى والتمائم والضحايا والذبائح ، ولايدرون سخطت أم رضيت إلا بالوهم والتخمين !

فجاء الإسلام واضحا ناصعا ، يصل الناس بإلههم الحق ، ويعرفهم بصفاته ، ويبصرهم بمشيئته ويعلمهم كيف يتقربون إليه،وكيف يرجون رحمته ، ويخشون عذابه ، على طريق واضح قاصد مستقيم.

* * *

« مايجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا ، فلا يغررك تقلبهم فى البلاد . كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، فأخذتهم ، فكيف كان عقاب ؟ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار » . .

بعد تقرير تلك الصفات العلوية ، وتقرير الوحدانية ، يقرر أن هذه الحقائق مسلمة من كل من فى الوجود ، وكل مافى الوجود ، ففطرة الوجود كله مرتبطة بهذه الحقائق ، متصلة بها الاتصال المباشر ، الذى لاتجادل فيه ولا تماحل . والوجود كله مقتنع بآيات الله الشاهدة بحقيقته ووحدانيته . ومامن أحد يجادل فيها إلا الذين كفروا وحدهم ، شذوذا عن كل مافى الوجود وكل من فى الوجود :

« مايجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا » . .

فهم وحدهم من بين هذا الوجود الهائل يشذون ؛ وهم وحدهم من بين هذا الخلق العظيم ينحرفون . وهم - بالقياس إلى هذا الوجود - أضعف وأقل من النمل بالقياس إلى هذه الأرض. وهم حين يقفون فى صف يجادلون فى آيات الله ؛ ويقف الوجود الهائل كله فى صف معترفا بخالق الوجود مستندا إلى قوة العزيز الجبار .. هم فى هذا الموقف مقطوع بمصيرهم ، مقضى فى أمرهم ؛ مهما تبلغ قوتهم ؛ ومهما يتهيأ لهم من أسباب المال والجاه والسلطان :

« فلا يغررك تقلبهم فى البلاد » . .

فمهما تقلبوا ، وتحركوا ، وملكوا ، واستمتعوا ، فهم إلى اندحار وهلاك وبوار . ونهاية المعركة معروفة . إن كان ثمت معركة يمكن أن تقوم بين قوة الوجود وخالقه ، وقوة هؤلاء الضعاف المساكين !

Marfat.com

ولقد سبقتهم أقوام وأحزاب على شاكلتهم ، توحى عاقبتهم بعاقبة كل من يقف فى وجه القوة الطاحنة العارمة التى يتعرض لها من يعرض نفسه لبأس الله :

« كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم . فكيف كان عقاب ؟ » ..

فهى قصة قديمة من عهد نوح . ومعركة ذات مواقع متشابهة فى كل زمان . وهذه الآية تصور هذه القصة . قصة الرسالة والتكذيب والطغيان على مدى القرون والأجيال كما تصور العاقبة فى كل حال .

رسول يجىء . فيكذبه طغاة قومه . ولا يقفون عند مقارعة الحجة بالحجة ، إنما هم يلجأون إلى منطق الطغيان الغليظ ، فيهمون أن يبطشوا بالرسول ، ويموهون على الجماهير بالباطل ليغلبوا به الحق .. هنا تتدخل يد القدرة الباطشة ، فتأخذهم أخذا يعجب ويدهش ، ويستحق التعجيب والاستعراض :

« فكيف كان عقاب ؟ » ..

ولقد كان عقابا مدمرا قاضيا عنيفا شديدا ، تشهد به مصارع القوم الباقية آثارها ، وتنطق به الأحاديث والروايات .

ولم تنته المعركة . فهى ممتدة الآثار فى الآخرة :

« وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار » ..

ومتى حقت كلمة الله على أحد فقد وقعت ، وقضى الأمر ، وبطل كل جدال .

وهكذا يصور القرآن الحقيقة الواقعة . حقيقة المعركة بين الإيمان والكفر ، وبين الحق والباطل ، وبين الدعاة إلى الله الواحد والطغاة الذين يستكبرون فى الأرض بغير الحق . وهكذا نعلم أنها معركة قديمة بدأت منذ فجر البشرية . وأن ميدانها أوسع من الأرض كلها ، لأن الوجود كله يقف مؤمنا بربه مسلما مستسلما ، ويشذ منه الذين كفروا يجادلون فى آيات الله وحدهم دون سائر هذا الكون الكبير . ونعلم كذلك نهاية المعركة – غير المتكافئة – بين صف الحق الطويل الضخم الهائل وشرذمة الباطل القليلة الضئيلة الهزيلة ، مهما يكن تقلبها فى البلاد، ومهما يكن مظهرها من القوة والسيطرة والمتاع !

Marfat.com

هذه الحقيقة ـ حقيقة المعركة والقوى البارزة فيها ، وميدانها فى الزمان والمكان ـ يصورها القرآن لتستقر فى القلوب ؛ وليعرفها ـ على وجه خاص ـ أولئك الذين يحملون دعوة الحق والإيمان فى كل زمان ومكان ؛ فلا تتعاظمهم قوة الباطل الظاهرة ، فى فترة محدودة من الزمان ، ورقعة محدودة من المكان ؛ فهذه ليست الحقيقة . إنما الحقيقة هى التى يصورها لهم كتاب الله ، وتنطق بها كلمة الله . وهو أصدق القائلين . وهو العزيز العليم .

* * *

ويتصل بتلك الحقيقة الأولى أن حملة العرش ومن حوله ـ وهم من بين القوى المؤمنة فى هذا الوجود ـ يذكرون المؤمنين من البشر عند ربهم ، ويستغفرون لهم ، ويستنجزون وعد الله إياهم ؛ بحكم رابطة الإيمان بينهم وبين المؤمنين .

« الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا . ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ؛ إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ـ ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ـ وذلك هو الفوز العظيم » .

ونحن لانعرف ماهو العرش ؟ ولانملك صورة له ، ولا نعرف كيف يحمله حملته ، ولا كيف يكون من حوله ، حوله ؛ ولا جدوى من الجرى وراء صور ليس من طبيعة الإدراك البشرى أن يلم بها ، ولا من الجدل حول غيبيات لم يطلع الله أحدا من المتجادلين عليها ؛ وكل مايتصل بالحقيقة التى يقررها سياق السورة أن عبادا مقربين من الله ، «يسبحون بحمد ربهم». « ويؤمنون به » . . وينص القرآن على إيمانهم ـ وهو مفهوم بداهة ـ ليشير إلى الصلة التى تربطهم بالمؤمنين من البشر . . هؤلاء العباد المقربون يتوجهون بعد تسبيح الله إلى الدعاء للمؤمنين من الناس بخير مايدعو به مؤمن لمؤمن .

وهم يبدأون دعاءهم بأدب يعلمنا كيف يكون أدب الدعاء والسؤال . يقولون :

« ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما » . .

يقدمون بين يدى الدعاء بأنهم ـ فى طلب الرحمة للناس ـ إنما يستمدون من رحمة الله التى

وسعت كل شيء ، ويحيلون إلى علم الله الذى وسع كل شيء ؛ وأنهم لا يقدمون بين يدى الله بشيء ؟ إنما هي رحمته وعلمه منهما يستمدون وإليهما يلجأون :

« فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم » .

وتلتقى هذه الإشارة إلى المغفرة والتوبة بمطلع السورة ، وبصفة الله هناك : « غافر الذنب وقابل التوب » . . كما تلتقى الإشارة إلى عذاب الجحيم ، بصفة الله : « شديد العقاب » . .

ثم يرتقون فى الدعاء من الغفران والوقاية من العذاب إلى سؤال الجنة واستنجاز وعد الله لعباده الصالحين :

« ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم . إنك أنت العزيز الحكيم » . .

ودخول الجنة نعيم وفوز . يضاف إليه صحبة من صلح من الآباء والأزواج والذريات. وهى نعيم آخر مستقل . ثم هى مظهر من مظاهر الوحدة بين المؤمنين أجمعين . فعند عقدة الإيمان يلتقى الآباء والأبناء والأزواج ، ولولا هذه العقدة لتقطعت بينهم الأسباب :

والتعقيب على هذه الفقرة من الدعاء : « إنك أنت العزيز الحكيم » يشير إلى القوة كما يشير إلى الحكمة . وبها يكون الحكم فى أمر العباد .

« وقهم السيئات . ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته. وذلك هو الفوز العظيم » . .

وهذه الدعوة ـ بعد الدعاء بإدخالهم جنات عدن ـ لفتة إلى الركيزة الأولى فى الموقف العصيب. فالسيئات هى التى توبق أصحابها فى الآخرة ، وتوردهم مورد التهلكة . فإذا وقى الله عباده المؤمنين منها وقاهم نتائجها وعواقبها . وكانت هذه هى الرحمة فى ذلك الموقف . وكانت كذلك أولى خطوات السعادة. «وذلك هو الفوز العظيم » . . فمجرد الوقاية من السيئات هو أمر عظيم!

* * *

وبينما أن حملة العرش ومن حوله يتجهون إلى ربهم بهذا الدعاء لإخوانهم المؤمنين . نجد الذين كفروا فى الموقف الذى تتطلع كل نفس فيه إلى المعين وقد عز المعين . نجد الذين كفروا هؤلاء ـ وقد انبتت العلاقات بينهم وبين كل أحد وكل شيء فى الوجود وإذا هم ينادون من

Marfat.com

Marfat.com

كل مكان بالترذيل والمقت والتأنيب . وإذاهم فى موقف الذلة بعد الاستكبار. وفى موقف الرجاء ولات حين رجاء :

«إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون قالوا : ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا ، فهل إلى خروج من سبيل ؟ ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم ، وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلى الكبير » . .

والمقت : أشد الكره . وهم ينادون من كل جانب . إن مقت الله لكم يوم كنتم تدعون إلى الإيمان فتكفرون ، أشد من مقتكم لأنفسكم وأنتم تطلعون اليوم على ماقادتكم إليه من شر ونكر ، بكفرها وإعراضها عن دعوة الإيمان ، قبل فوات الأوان .. وما أوجع هذا التذكير وهذا التأنيب فى ذلك الموقف المرهوب العصيب !

والآن ـ وقد سقط عنهم غشاء الخداع والضلال ـ يعرفون أن المتجه لله وحده فيتجهون :

« قالوا : ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ، فاعترفنا بذنوبنا ، فهل إلى خروج من سبيل» . .

وهى كلمة الذليل اليائس البائس . . « ربنا » . . وقد كانوا يكفرون وينكرون . أحييتنا أول مرة فنفخت الروح فى الموات فإذا هو حياة ، وإذا نحن أحياء . ثم أحييتنا الأخرى بعد موتنا ، لجئنا إليك . وإنك لقادر على إخراجنا مما نحن فيه . وقد اعترفنا بذنوبنا . « فهل إلى خروج من سبيل ؟ » . بهذا التنكير الموحى باللهفة واليأس المرير .

هنا ـ فى ظل هذا الموقف البائس ـ يجبهم بسبب هذا المصير :

«ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم ، وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلى الكبير» .

فهذا هو الذى يقودكم إلى ذلك الموقف الذليل . إيمانكم بالشركاء ، وكفركم بالوحدانية . فالحكم لله العلى الكبير : وهما صفتان تناسبان موقف الحكم . الاستعلاء على كل شىء ، والكبر فوق كل شىء . فى موقف الفصل الأخير .

* * *

وفى ظل هذا المشهد يستطرد إلى شىء من صفة الله تناسب موقف الاستعلاء ؛ ويوجه المؤمنين فى هذا المقام إلى التوجه إليه بالدعاء ، موحدين ، مخلصين له الدين ؛ كما يشير إلى الوحى للإنذار بيوم التلاق ، الفصل والجزاء ، يوم يتفرد الله بالملك والقهر والاستعلاء :

Marfat.com

« هو الذى يريكم آياته ، وينزل لكم من السماء رزقا ، وما يتذكر إلا من ينيب . فادعوا الله مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون . رفيع الدرجات ، ذو العرش ، يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون لايخفى على الله منهم شىء . لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت . لاظلم اليوم . إن الله سريع الحساب » . .

« هو الذى يريكم آياته » .. وآيات الله ترى فى كل شىء فى هـذا الوجود . فى المجالى الكبيرة من شمس وكواكب ، وليل ونهار ، ومطر وبرق ورعد .. وفى الدقائق الصغيرة من الذرة والخلية والورقة والزهرة .. وفى كل منها آية خارقة ، تتبدى عظمتها حين يحاول الإنسان أن يقلدها ـ بله أن ينشئها ـ وهيهات هيهات التقليد الكامل الدقيق ، لأصغر وأبسط ماأبدعته يد الله فى هذا الوجود.

« وينزل عليكم من السماء رزقا » .. عرف الناس منه المطر ، أصل الحياة فى هذه الأرض. وسبب الطعام والشراب . وغير المطر كثير يكشفه الناس يوما بعد يوم . ومنه هذه الأشعة المحيية التى لولاها ماكانت حياة على هذا الكوكب الأرضى . ولعل من هذا الرزق تلك الرسالات المنزلة ، التى قادت خطى البشرية منذ طفولتها ونقلت أقدامها فى الطريق المستقيم ، وهدتها إلى مناهج الحياة الموصولة بالله ، وناموسه القويم .

« وما يتذكر إلا من ينيب » .. فالذى ينيب إلى ربه يتذكر نعمه ويتذكر فضله ويتذكر آياته التى ينساها غلاظ القلوب .

وعلى ذكر الإنابة وما تثيره فى القلب من تذكر وتدبر يوجه الله المؤمنين ليدعوا الله وحده ويخلصوا له الدين ، غير عابئين بكره الكافرين :

« فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » :

ولن يرضى الكافرون من المؤمنين أن يخلصوا دينهم لله ، وأن يدعوه وحده دون سواه . ولا أمل فى أن يرضوا عن هذا مهما لاطفهم المؤمنون أوهادنوهم أو تلمسوا رضاهم بشتى الأساليب . فليمض المؤمنون فى وجهتهم ، يدعون ربهم وحده ، ويخلصون له عقيدتهم ، ويصغون له قلوبهم . ولا عليهم رضى الكافرون أم سخطوا . وماهم يوما براضين !

Marfat.com

ثم يذكر من صفات الله فى هذا المقام الذى يوجه المؤمنين فيه إلى عبادة الله وحده ولو كره الكافرون. يذكر من هذه الصفات أنه سبحانه:

« رفيع الدرجات ذو العرش، يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده » ..

فهو -سبحانه- وحده صاحب الرفعة والمقام العالى، وهوصاحب العرش المسيطر المستعلى. وهو الذى يلقى أمره المحيي للأرواح والقلوب على من يختاره من عباده. وهذا كناية عن الوحى بالرسالة. ولكن التعبير عنه فى هذه الصيغة يبين أولا حقيقة هذا الوحى، وأنه روح وحياة للبشرية، ويبين ثانيا أنه يتنزل من علو على المختارين من العباد.. وكلها ظلال متناسقة مع صفة الله « العلى الكبير » ..

فأما الوظيفة البارزة لمن يختاره الله من عباده فيلقى عليه الروح من أمره، فهى الإنذار:

« لينذر يوم التلاق » ..

وفى هذا اليوم يتلاقى البشر جميعا. ويتلاقى الناس وأعمالهم التى قدموا فى الحياة الدنيا ويتلاقى الناس والملائكة والجن وجميع الخلائق التى تشهد ذلك اليوم المشهود. وتلتقى الخلائق كلها بربها فى ساحة الحساب. فهو يوم التلاقى بكل معانى التلاقى.

ثم هو اليوم الذى يبرزون فيه بلا ساتر ولا واق ولا تزييف ولا خداع:

« يوم هم بارزون لايخفى على الله منهم شىء » ..

والله لايخفى عليه منهم شىء فى كل وقت وفى كل حال. ولكنهم فى غير هذا اليوم قد يحسبون أنهم مستورون، وأن أعمالهم وحركاتهم خافية، أما اليوم فيحسون أنهم مكشوفون، ويعلمون أنهم مفضوحون؛ ويقفون عارين من كل ساتر حتى ستار الأوهام!

ويومئذ يتضاءل المتكبرون، وينزوى المتجبرون، ويقف الوجودكله خاشعا، والعباد كلهم خضعا. ويتفرد مالك الملك الواحد القهار بالسلطان. وهو سبحانه متفرد به فى كل آن. فأما فى هذا اليوم فينكشف هذا للعيان، بعد انكشافه للجنان. ويعلم هذا كل منكر ويستشعره كل متكبر. وتصمت كل نأمة وتسكن كل حركة. وينطلق صوت جليل رهيب يسأل ويجيب، فما فى الوجود كله يومئذ من سائل غيره ولا مجيب:

« لمن الملك اليوم؟ » .. « لله الواحد القهار » ..

Marfat.com

« اليوم تجزى كل نفس بما كسبت . لاظلم اليوم . إن الله سريع الحساب ».

اليوم يوم الجزاء الحق . اليوم يوم العدل . اليوم يوم القضاء الفصل . بلاإمهال ولاإبطاء . ويخيم الجلال والصمت ، ويغمر الموقف رهبة وخشوع ، وتسمع الخلائق وتخشع ، ويقضى الأمر ، وتطوى صحائف الحساب .

ويتسق هذا الظل مع قوله عن الذين يجادلون فى آيات الله – فى مطلع السورة – : « فلا يغررك تقلبهم فى البلاد » . . فهذه نهاية التقلب فى الأرض ، والاستعلاء بغير الحق ، والتجبر والتكبر والثراء والمتاع .

* * *

ويستطرد السياق يوجه الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى إنذار القوم بذلك اليوم ، فى مشهد من مشاهد القيامة يتفرد فيه الله بالحكم والقضاء ؛ بعد ماعرضه عليهم فى صورة حكاية لم يوجه لهم فيها الخطاب :

« وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع . يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لايقضون بشىء إن الله هو السميع البصير » . .

والآزفة . . القريبة والعاجلة . . وهى القيامة . واللفظ يصورها كأنها مقتربة زاحفة . والأنفاس من ثم مكروبة لاهثة ، وكأنما القلوب المكروبة تضغط على الحناجر ؛ وهم كاظمون لأنفاسهم ولآلامهم ولمخاوفهم ، والكظم يكربهم ، ويثقل على صدورهم ؛ وهم لايجدون حميا يعطف عليهم ولا شفيعا ذا كلمة تطاع فى هذا الموقف العصيب المكروب !

وهم بارزون فى هذا اليوم لايخفى على الله منهم شىء ، حتى لفتة العين الخائنة ، وسر الصدر المستور :

« يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » :.

والعين الخائنة تجتهد فى إخفاء خيانتها . ولكنها لاتخفى على الله . والسر المستور تخفيه الصدور ، ولكنه مكشوف لعلم الله .

والله وحده هو الذى يقضى فى هذا اليوم قضاء الحق . وآلهتهم المدعاة لاشأن لها ولا حكم ولا قضاء:

« والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لايقضون بشىء » .

والله يقضى بالحق عن علم وعن خبرة ، وعن سمع وعن رؤية . فلايظلم أحدا ولاينسى شيئا: إن الله هو السميع البصير » . .

Marfat.com

« أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا : سَاحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا : اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ، وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ : ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ، أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ * وَقَالَ مُوسَىٰ : إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ .

« وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ : رَبِّيَ اللَّهُ ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ، فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ؟ قَالَ فِرْعَوْنُ : مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ ، وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ .

« وَقَالَ الَّذِي آمَنَ : يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ * وَيَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ، حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ : لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ، كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ

Marfat.com

مَقْتًا عِنْدَ ٱللَّهِ وَعِنْدَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ، كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ .

« وَقَالَ فِرْعَوْنُ : يَاهَامَانُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ ٱلسَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ، وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا . وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ .

« وَقَالَ ٱلَّذِي آمَنَ : يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا مَتَاعٌ ، وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى ٱلنَّارِ ؟* تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّارِ * لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ ، وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى ٱللَّهِ ، وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ، وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى ٱللَّهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ .

« فَوَقَاهُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ، وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ ٱلْعَذَابِ * ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ .

« وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا : إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ ٱلنَّارِ ؟* قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا : إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ، إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ : ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ ٱلْعَذَابِ * قَالُوا : أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ ؟ قَالُوا : بَلَىٰ . قَالُوا : فَٱدْعُوا ، وَمَا دُعَاءُ ٱلْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ .

« إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ آمَنُوا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ ٱلظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ، وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ ٱلدَّارِ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ ،

Marfat.com

وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ * هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥)»

سبق أن أجملنا موضوع هذا الشوط من السورة . وقبل الاستعراض التفصيلي له نلاحظ أن هذه الحلقة من القصة تجيء هنا متمشية بموضوعها مع موضوع السورة ، ومتمشية بطريقة التعبير فيها – وأحيانا بعباراتها ذاتها – مع طريقة التعبير في السورة كذلك ، وتكرر بعض عباراتها . وعلى لسان الرجل المؤمن من آل فرعون ترد معان وتعبيرات وردت من قبل في السورة . فهو يذكر فرعون وهامان وقارون بأنهم يتقلبون في البلاد ، ويحذرهم يوما مثل يوم الأحزاب ، كما يحذرهم يوم القيامة الذي عرضت مشاهده في مطالع السورة كذلك . وتحدث عن الذين يجادلون في آيات الله ومقت الله لهم ومقت المؤمنين كما جاء ذلك في الشوط الأول . ثم يعرض السياق مشهدهم في النار أذلاء ضارعين يدعون فلا يستجاب لهم ، كما عرض مشهد أمثالهم من قبل في السورة .

وهكذا وهكذا مما يوحي بأن منطق الإيمان ومنطق المؤمنين واحد ، لأنه يستمد من الحق الواحد . ومما ينسق جو السورة ، ويجعل لها « شخصية » موحدة الملامح . وهي الظاهرة الملحوظة في كل سور القرآن .

* * *

« أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ، كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض ، فأخذهم الله بذنوبهم . وما كان لهم من الله من واق . ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ، فكفروا ، فأخذهم الله ، إنه قوي شديد العقاب » ..

هذا المعبر بين قصة موسى – عليه السلام – وموضوع السورة قبلها يذكر المجادلين في آيات الله من مشركي العرب بعبرة التاريخ قبلهم ؛ ويوجههم إلى السير في الأرض ، ورؤية مصارع الغابرين ، الذين وقفوا موقفهم . وكانوا أشد منهم قوة وآثارا في الأرض . ولكنهم

ـ مع هذه القوة والعمارة ـ كانوا ضعافا أمام بأس الله . وكانت ذنوبهم تعزلهم عن مصدر القوة الحقيقية ، وتستعدى عليهم قوى الإيمان ومعها قوة الله العزيز القهار : « فأخذهم الله بذنوبهم . وما كان لهم من الله من واق » . . ولا واقى إلا الإيمان والعمل الصالح والوقوف فى جبهة الإيمان والحق والصلاح . فأما التكذيب بالرسل وبالبينات فنهايته إلى الدمار والنكال :

« ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات، فكفروا، فأخذهم الله ، إنه قوى شديد العقاب » . .

* * *

وبعد هذه الإشارة الكلية المجملة يبدأ فى عرض نموذج من نماذج الذين كانوا من قبلهم ، وكانوا أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض . فأخذهم الله بذنوبهم . وهم فرعون وقارون وهامان. ومن معهم من المتجبرين الطغاة .

وتنقسم هذه الحلقة من قصة موسى ـ عليه السلام ـ إلى مواقف ومناظر ، تبدأ من موقف عرض الرسالة على فرعون وملئه . وتنتهى هنالك فى الآخرة ، وهم يتحاجون فى النار . وهى رحلة مديدة . ولكن السياق يختار « لقطات » معينة من هذه الرحلة ، هى التى تؤدى الغرض من هذه الحلقة فى هذه السورة بالذات :

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ، إلى فرعون وهامان وقارون ، فقالوا : ساحر كذاب » . .

هذا هو موقف اللقاء الأول . موسى ومعه آيات الله ، ومعه الهيبة المستمدة من الحق الذى بيده . وفرعون وهامان وقارون . ومعهم باطلهم الزائف وقوتهم الظاهرة ومركزهم الذى يخافون عليه من مواجهة الحق ذى السلطان . . عندئذ لجأوا إلى الجدال بالباطل ليدحضوا به الحق : « فقالوا : ساحر كذاب » . .

* * *

ويجمل السياق تفصيل ماحدث بعد هذا الجدال ، ويطوى موقف المباراة مع السحرة ، وإيمانهم بالحق الذى غلب باطلهم ولقف ما يأفكون . ويعرض الموقف الذى تلا هذه الأحداث :

« فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا : اقتلوا أبناء الذين آمنوا واستحيوا نساءهم » .

ويعقب عليه قبل أن تكمل الآية :

Marfat.com

« وما كيد الكافرين إلا فى ضلال » . .

إنه منطق الطغيان الغليظ ، كلما أعوزته الحجة ، وخذله البرهان ، وخاف أن يستعلى الحق ، بما فيه من قوة وفصاحة ووضوح ، وهو يخاطب الفطرة فتصغى له وتستجيب . كما استجاب السحرة الذين جىء بهم ليغلبوا موسى وما معه ، فانقلبوا أول المؤمنين بالحق فى مواجهة فرعون الجبار .

فأما فرعون وهامان وقارون فقالوا :

« اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم » . .

ولقد كان فرعون ـ فى أيام مولد موسى ـ قد أصدر مثل هذا الأمر . وهناك أحد احتمالين فيما حدث بعد ذلك الأمر الأول . . الاحتمال الأول أن فرعون الذى أصدر ذلك الأمر كان قد مات وخلفه ابنه أو ولى عهده ، ولم يكن الأمر منفذا فى العهد الجديد ، حتى جاء موسى وواجه الفرعون الجديد ، الذى كان يعرفه وهو ولى للعهد ، ويعرف تربيته فى القصر ، ويعرف الأمر الأول بتذبيح الذكور وترك الإناث من بنى إسرائيل . فحاشيته تشير إلى هذا الأمر ، وتوحى بتخصيصه بمن آمنوا بموسى ، سواء كانوا من السحرة أو من بنى إسرائيل القلائل الذين استجابوا له على خوف من فرعون وملئه . . والاحتمال الثانى : أنه كان فرعون الأول الذى تبنى موسى ، ما يزال على عرشه . وقد تراخى تنفيذ الأمر الأول بعد فترة أو وقف العمل به بعد زوال حدته . فالحاشية تشير بتجديده ، وتخص به الذين آمنوا مع موسى وحدهم للإرهاب والتخويف .

فأما فرعون فكان له فيما يبدو رأى آخر ، أو اقتراح إضافى فى أثناء التآمر . ذلك أن يتخلص من موسى نفسه . فيستريح !

« وقال فرعون : ذرونى أقتل موسى ، وليدع ربه ، إنى أخاف أن يبدل دينكم ، أو أن يظهر فى الأرض الفساد » . .

ويبدو من قوله : « ذرونى أقتل موسى » . . أن رأيه هذا كان يجد ممانعة وممارضة ـ من ناحية الرأى ـ كأن يقال مثلا : إن قتل موسى لاينهى الإشكال . فقد يوحى هذا للجماهير بتقديسه واعتباره شهيدا ، والحماسة الشعورية له وللدين الذى جاء به ، وبخاصة بعد إيمان السحرة فى مشهد شعبى جامع ، وإعلانهم سبب إيمانهم ، وهم الذين جىء بهم ليبطلوا عمله ويناوئوه . . وقد يكون بعض مستشارى الملك أحس فى نفسه رهبة أن ينتقم إله موسى له ،

Marfat.com

ويبطش بهم . وليس هذا ببعيد ، فقد كان الوثنيون يعتقدون بتعدد الآلهة ، ويتصورون بسهولة أن يكون لموسى إله ينتقم له ممن يعتدون عليه ! ويكون قول فرعون : « وليدع ربه » .. ردا على هذا التلويح ! وإن كان لايبعد أن هذه الكلمة الفاجرة من فرعون ، كانت تبجحا واستهتارا ، لقي جزاءه في نهاية المطاف كما سيجيء .

ولعله من الطريف أن نقف أمام حجة فرعون في قتل موسى :

« إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد » ..

فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال الوثني ، عن موسى رسول الله - عليه السلام -

« إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد » ؟!!

أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح ؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل ؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادىء ؟

إنه منطق واحد ، يتكرر كلما التقى الحق والباطل ، والإيمان والكفر . والصلاح والطغيان على توالي الزمان واختلاف المكان . والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين .

فأما موسى - عليه السلام - فالتجأ إلى الركن الركين والحصن الحصين ، ولاذ بالجناب الذي يحمي اللائذين ، ويجير المستجيرين :

« وقال موسى : إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لايؤمن بيوم الحساب » ..

قالها . واطمأن . وسلم أمره إلى المستعلي على كل متكبر ، القاهر لكل متجبر ، القادر على حماية العائذين به من المستكبرين . وأشار إلى وحدانية الله ربه وربهم لم ينسها أو يتركها أمام التهديد والوعيد . كما أشار إلى عدم الإيمان بيوم الحساب . فما يتكبر متكبر وهو يؤمن بيوم الحساب ، وهو يتصور موقفه يومئذ حاسرا خاشعا خاضعا ذليلا ، مجردا من كل قوة ، ماله من حميم ولا شفيع يطاع .

* * *

هنا انتدب رجل من آل فرعون ، وقع الحق في قلبه ، ولكنه كتم إيمانه . انتدب يدفع عن موسى ، ويحتال لدفع القوم عنه ، ويسلك في خطابه لفرعون وملئه مسالك شتى ، ويتدسس إلى قلوبهم بالنصيحة ويثير حساسيتها بالتخويف والإقناع :

Marfat.com

« وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلا أن يقول : ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب . ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟ قال فرعون : ماأريكم إلا ماأرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد . وقال الذى آمن : ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلما للعباد . وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فماله من هاد . ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات،فما زلتم فى شك مما جاءكم به،حتى إذا هلك قلتم:لن يبعث الله من بعده رسولا. كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » ..

إنها جولة ضخمة هذه التى جالها الرجل المؤمن مع المتآمرين من فرعون وملئه . وإنه منطق الفطرة المؤمنة فى حذر ومهارة وقوة كذلك .

إنه يبدأ بتفظيع ماهم مقدمون عليه : « أتقتلون رجلا أن يقول : ربى الله » .. فهل هذه الكلمة البريئة المتعلقة باعتقاد قلب ، واقتناع نفس ، تستحق القتل ، ويرد عليها بإزهاق روح؟ إنها فى هذه الصورة فعلة منكرة بشعة ظاهرة القبح والبشاعة .

ثم يخطو بهم خطوة أخرى . فالذى يقول هذه الكلمة البريئة : « ربى الله » .. يقولها ومعه حجته ، وفى يده برهانه : « وقد جاءكم بالبينات من ربكم » .. يشير إلى تلك الآيات التى عرضها موسى – عليه السلام – ورأوها ، وهم – فيما بينهم وبعيدا عن الجماهير – يصعب أن يماروا فيها !

ثم يفرض لهم أسوأ الفروض ؛ ويقف معهم موقف المنصف أمام القضية ، تمشيا مع أقصى فرض يمكن أن يتخذوه : « وإن يك كاذبا فعليه كذبه » .. وهو يحمل تبعة عمله ، ويلقى جزاءه ، ويحتمل جريرته . وليس هذا بمسوغ لهم أن يقتلوه على أية حال !

وهناك الاحتمال الآخر ، وهو أن يكون صادقا . فيحسن الاحتياط لهذا الاحتمال ، وعدم التعرض لنتائجه : « وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم » .. وإصابتهم ببعض الذى يعدهم

Marfat.com

هو كذلك أقل احتمال فى القضية ، فهو لايطلب إليهم أكثر منه . وهذا منتهى الإنصاف فى الجدل والإفحام .

ثم يهددهم من طرف خفى ، وهو يقول كلاما ينطبق على موسى كما ينطبق عليهم : « إن الله لايهدى من هو مسرف كذاب » .. فإذا كان موسى فإن الله لايهديه ولايوفقه ، فدعوه يلاقى منه جزاءه . واحذروا أن تكونوا أنتم الذين تكذبون على موسى وربه وتسرفون ، فيصيبكم هذا المآل !

وحين يصل بهم إلى فعل الله بمن هو مسرف كذاب ، يهجم عليهم مخوفا بعقاب الله ، محذر من بأسه الذى لاينجيهم منه ماهم فيه من ملك وسلطان ، مذكرا إياهم بهذه النعمة التى تستحق الشكران لا الكفران :

« ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض . فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟» . .

إن الرجل يشعر بما يشعر به القلب المؤمن ، من أن بأس الله أقرب مايكون لأصحاب الملك والسلطان فى الأرض ؛ فهم أحق الناس بأن يحذروه ، وأجدر الناس بأن يحسوه ويتقوه ، وأن يبيتوا منه على وجل ، فهو يتربص بهم فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار . ومن ثم يذكرهم بماهم فيه من الملك والسلطان ، وهو يشير إلى هذا المعنى المستقر فى حسه البصير . ثم يجمل نفسه فيهم وهو يذكرهم ببأس الله : « فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟ » ليشعرهم أن أمرهم يهمه ، فهو واحد منهم ، ينتظر مصيره معهم ؛ وهو إذن ناصح لهم مشفق عليهم ، لعل هذا أن يجعلهم ينظرون إلى تحذيره باهتمام ، ويأخذونه مأخذ البراءة والإخلاص . وهو يحاول أن يشعرهم أن بأس الله إن جاء فلا ناصر منه ولا مجير عليه ، وأنهم إزاءه ضعاف ضعاف .

هنا يأخذ فرعون ما يأخذ كل طاغية توجه إليه النصيحة . تأخذه العزة بالإثم . ويرى فى النصح الخالص افتياتا على سلطانه ، ونقصا من نفوذه ، ومشاركة له فى النفوذ والسلطان :

« قال فرعون : ماأريكم إلا ماأرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » ..

إننى لاأقول لكم إلا ماأراه صوابا ، وأعتقده نافعا . وإنه لهو الصواب والرشد بلاشك ولا جدال ! وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب ؟! وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون ؟! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأيا ؟! وإلا فلم كانوا طغاة ؟ !

ولكن الرجل المؤمن يجد من إيمانه غير هذا ؛ ويجد أن عليه واجبا أن يحذر وينصح

Marfat.com

ويبدى من الرأى مايراه . ويرى من الواجب عليه أن يقف إلى جوار الحق الذى يعتقده كائنا ما كان رأى الطغاة . ثم هو يطرق قلوبهم بإيقاع آخر لعلها تحس وتستيقظ وترتعش وتلين . يطرق قلوبهم بلفتها على مصارع الأحزاب قبلهم.وهى شاهدة ببأس الله فى أخذ المكذبين والطغاة :

« وقال الذى آمن : ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم . وما الله يريد ظلما للعباد » ..

ولكل حزب كان يوم . ولكن الرجل المؤمن يجمعها فى يوم واحد : « مثل يوم الأحزاب » فهو اليوم الذى يتجلى فيه بأس الله . وهو يوم واحد فى طبيعته على تفرق الأحزاب . . «وما الله يريد ظلما للعباد » إنما يأخذهم بذنوبهم،ويصلح من حولهم ومن بعدهم بأخذهم بأيام الله .

ثم يطرق على قلوبهم طرقة أخرى ، وهو يذكرهم بيوم آخر من أيام الله . يوم القيامة . يوم التنادى :

« وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم . ومن يضلل الله فما له من هاد » ..

وفى ذلك اليوم ينادى الملائكة الذين يحشرون الناس للموقف . وينادى أصحاب الأعراف على أصحاب الجنة وأصحاب النار . وينادى أصحاب الجنة أصحاب النار ، وأصحاب النار أصحاب الجنة . . فالتنادى واقع فى صور شتى . وتسميته « يوم التناد » تلقى عليه ظل التصايح وتناوح الأصوات من هنا ومن هناك ، وتصور يوم زحام وخصام . وتتفق كذلك مع قول الرجل المؤمن:«يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم » .. وقد يكون ذلك فرارهم عند هول جهنم ، أو محاولتهم الفرار . ولاعاصم يومئذ ولات حين فرار . وصورة الفزع والفرار هى أولى الصور هنا للمستكبرين المتجبرين فى الأرض ، أصحاب الجاه والسلطان !

« ومن يضلل الله فماله من هاد » . . ولعل فيها إشارة خفية إلى قولة فرعون : « وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ».. وتلميحاً بأن الهدى هدى الله . وأن من أضله الله فلا هادى له . والله يعلم من حال الناس وحقيقتهم من يستحق الهدى ومن يستحق الضلال .

وأخيرا يذكرهم بموقفهم من يوسف ، ومن ذريته كان موسى ـ عليهما السلام ـ وكيف

Marfat.com

Marfat.com

وقفوا موقف الشك من رسالته وماجاءهم به من الآيات ، فلا يكرروا الموقف من موسى ، وهو يصدق ماجاءهم به يوسف ، فكانوا منه فى شك وارتياب . ويكذب ماجزموا به من أن الله لن يبعث من بعده رسولا ، وهاهو ذا موسى يجيء على فترة من يوسف ويكذب هذا المقال :

« ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ، فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم : لن يبعث الله من بعده رسولا . كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم . كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا . كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » . .

وهذه هى المرة الوحيدة فى القرآن التى يشار فيها إلى رسالة يوسف ـ عليه السلام ـ للقوم فى مصر . وقد عرفنا من سورة يوسف ، أنه كان قد وصل إلى أن يكون على خزائن الأرض ، المتصرف فيها . وأنه أصبح « عزيز مصر » وهو لقب قد يكون لكبير وزراء مصر . وفى السورة كذلك ما قد يؤخذ منه أنه جلس على عرش مصر ـ وإن لم يكن ذلك مؤكدا ـ وذلك قوله :

« ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال : ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا » . .

وقد يكون العرش الذى رفع عليه أبويه شيئا آخر غير عرش المملكة المصرية الفرعونية . وعلى أية حال فقد وصل يوسف إلى مكان الحكم والسلطان . ومن ثم نملك أن نتصور الحالة التى يشير إليها الرجل المؤمن . حالة شكهم فيما جاءهم به يوسف من قبل ، مع مصانعة يوسف صاحب السلطان وعدم الجهر بتكذيبه وهو فى هذا المكان ! « حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا » . . وكأنما استراحوا لموته ، فراحوا يظهرون ارتياحهم فى هذه الصورة ، ورغبتهم عما جاءهم به من التوحيد الخالص ، الذى يبدو مما تكلم به فى سجنه مع صاحبى السجن : « أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » . . فزعموا أن لن يجيئهم من بعده رسول ، لأن هذه كانت رغبتهم . وكثيرا ما يرغب المرء فى شيء ثم يصدق تحققه ، لأن تحققه يلبى هذه الرغبة !

والرجل المؤمن يشتد هنا وهو يشير إلى هذا الارتياب والإسراف فى التكذيب فيقول :

« كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » . .

فينذرهم بإضلال الله الذى ينتظر كل مسرف مرتاب فى عقيدته وقد جاءته معها البينات ثم يشتد فى مواجهتهم بمقت الله ومقت المؤمنين لمن يجادل فى آيات الله بغير حجة ولا برهان. وهم يفعلون هذا فى أبشع صورة . ويندد بالتكبر والتجبر ، وينذر بطمس الله لقلوب المتكبرين المتجبرين !

« الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا . كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » . .

والتعبير على لسان الرجل المؤمن يكاد يكون طبق الأصل من التعبير المباشر فى مطالع السورة . المقت للمجادلين فى آيات الله بغير برهان ، والإضلال للمتكبرين المتجبرين حتى ما يبقى فى قلوبهم موضع للهدى ، ولا منفذ للإدراك .

* * *

وعلى الرغم من هذه الجولة الضخمة التى أخذ الرجل المؤمن قلوبهم بها ؛ فقد ظل فرعون فى ضلاله ، مصرا على التنكر للحق . ولكنه تظاهر بأنه آخذ فى التحقق من دعوى موسى . ويبدو أن منطق الرجل المؤمن وحجته كانت من شدة الوقع بحيث لم يستطع فرعون ومن معه تجاهلها . فاتخذ فرعون لنفسه مهربا جديدا :

« وقال فرعون : ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى . وإنى لأظنه كاذبا . وكذلك زين لفرعون سوء عمله ، وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب » . .

ياهامان ابن لى بناء عاليا لعلى أبلغ به أسباب السماوات ، لأنظر وأبحث عن إله موسى هناك « وإنى لأظنه كاذبا » . . هكذا يموه فرعون الطاغية ويحاور ويداور ، كى لا يواجه الحق جهرة ، ولا يعترف بدعوة الوحدانية التى تهز عرشه ، وتهدد الأساطير التى قام عليها ملكه . وبعيد عن الاحتمال أن يكون هذا فهم فرعون وإدراكه . وبعيد أن يكون جادا فى البحث عن إله موسى على هذا النحو المادى الساذج . وقد بلغ فراعنة مصر من الثقافة حدا يبعد معه هذا التصور . إنما هو الاستهتار والسخرية من جهة . والتظاهر بالإنصاف والتثبت من جهة

Marfat.com

أخرى . وربما كانت هذه خطة للتراجع أمام مطارق المنطق المؤمن فى حديث الرجل المؤمن ! وكل هذه الفروض تدل على إصراره على ضلاله ، وتبجحه فى جحوده : « وكذلك زين لفرعون سوء عمله ، وصد عن السبيل » . . وهو مستحق لأن يصد عن السبيل ، بهذا المراء الذى يميل عن الاستقامة وينحرف عن السبيل .

ويعقب السياق على هذا المكر والكيد بأنه صائر إلى الخيبة والدمار :

« وما كيد فرعون إلا فى تباب » . .

* * *

وأمام هذه المراوغة ، وهذا الاستهتار ، وهذا الإصرار ألقى الرجل المؤمن كلمته الأخيرة مدوية صريحة ، بعد مادعا القوم إلى اتباعه فى الطريق إلى الله ، وهو طريق الرشاد . وكشف لهم عن قيمة هذه الحياة الزائلة ؛ وشوقهم إلى نعيم الحياة الباقية ؛ وحذرهم عذاب الآخرة ؛ وبين لهم مافى عقيدة الشرك من زيف ومن بطلان :

« وقال الذى آمن : ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد . ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هى دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب . وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار . تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لاجرم أن ماتدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأن مردنا إلى الله ، وأن المسرفين هم أصحاب النار . فستذكرون ماأقول لكم ، وأفوض أمرى إلى الله . إن الله بصير بالعباد » . .

إنها الحقائق التى تقررت من قبل فى صدر السورة ، يعود الرجل المؤمن فيقررها فى مواجهة فرعون وملئه . إنه يقول فى مواجهة فرعون :

« ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد » . .

وقد كان فرعون منذ لحظات يقول : « وماأهديكم إلا سبيل الرشاد » فهو التحدى الصريح الواضح بكلمة الحق لايخشى فيها سلطان فرعون الجبار ، ولا ملأه المتآمرين معه من أمثال هامان وقارون . وزيرى فرعون فيما يقال .

Marfat.com

Marfat.com

ويكشف لهم عن حقيقة الحياة الدنيا : « إنما هذه الحياة الدنيا متاع » .. متاع زائل لاثبات له ولادوام . « وإن الآخرة هى دار القرار » .. فهى الأصل وإليها النظر والاعتبار .

ويقرر لهم قاعدة الحساب والجزاء فى دار القرار :

« من عمل سيئةفلا يجزى إلامثلها . ومن عمل صالحا من ذكر أوأنثىوهو مؤمن،فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب » ..

فقد اقتضى فضل الله أن تضاعف الحسنات ولا تضاعف السيئات ، رحمة من الله بعباده ، وتقديرا لضعفهم ، وللجواذب والموانع لهم فى طريق الخير والاستقامة ، فضاعفلهم الحسنات ، وجعلها كفارة للسيئات . فإذا هم وصلوا إلى الجنة بعد الحساب ، رزقهم الله فيها بغير حساب .

ويستنكر الرجل المؤمن أن يدعوهم إلى النجاة فيدعونه إلى النار ، فيهتف بهم فى استنكار « ياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ؟ » ..

وهم لم يدعوه إلى النار . إنما دعوه إلى الشرك . وماالفرق بين الدعوة إلى الشرك والدعوة إلى النار ؟ إنها قريب من قريب . فهو يبدل الدعوة بالدعوة فىتعبيره فى الآية التالية :

« تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم . وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار » ..

وشتان بين دعوة ودعوة . إن دعوته لهم واضحة مستقيمة . إنه يدعوهم إلى العزيز الغفار. يدعوهم إلى إلهواحد تشهد آثاره فى الوجود بوحدانيته ، وتنطق بدائع صنعته بقدرته وتقديره . يدعوهم إليه ليغفر لهم وهو القادر على أن يغفر ، الذى تفضل بالغفران : « العزيز الغفار » .. فإلى أى شىء يدعونه ؟ يدعونه للكفر بالله . عن طريق إشراك مالا علم له به من مدعيات وأوهام وألغاز !

ويقرر من غير شك ولا ريبة أن هؤلاء الشركاء ليس لهم من الأمر شىء ، وليس لهم شأن لا فى دنيا ولا فى آخرة ، وأن المرد لله وحده ، وأن المسرفين المتجاوزين للحد فى الادعاء سيكونون أهل النار :

« لاجرم أن ماتدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة . وأن مردنا إلى الله . وأن المسرفين هم أصحاب النار » .

وماذا يبقى بعد هذا البيان الواضح الشاملا للحقائق الرئيسية فى العقيدة ؟ وقد جهر بها

الرجل فى مواجهة فرعون وملئه بلا تردد ولا تلعثم ، بعد ما كان يكتم إيمانه ، فأعلن عنه هذا الإعلان ؟ لايبقى إلا أن يفوض أمره إلى الله ، وقد قال كلمة وأراح ضميره ، مهددا إياهم بأنهم سيذكرون كلمته هذه فى موقف لاتنفع فيه الذكرى . والأمر كله إلى الله :

« فستذكرون ماأقول لكم ، وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد » .

وينتهى الجدل والحوار . وقد سجل مؤمن آل فرعون كلمته الحق خالدة فى ضمير الزمان.

* * *

ويجمل السياق حلقات القصة بعد هذا . وماكان بين موسى وفرعون وبنى إسرائيل . إلى موقف الغرق والنجاة : ويقف ليسجل « لقطات » بعدهذا الموقف الأخير . وبعد الحياة:

« فوقاه الله سيئات مامكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدوا وعشيا،ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب .

« وإذ يتحاجون فى النار ، فيقول الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعا ، فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ؟ قال الذين استكبروا : إنا كل فيها ، إن الله قد حكم بين العباد . وقال الذين فى النار لخزنة جهنم : ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب . قالوا : أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : بلى . قالوا : فادعوا ومادعاء الكافرين إلا فى ضلال » . .

لقد طويت الدنيا ، وعرضت أول صفحة بعدها . فإذا الرجل المؤمن الذى قال كلمة الحق ومضى ، قد وقاه الله سيئات مكر فرعون وملئه ، فلم يصبه من آثارها شىء فى الدنيا ، ولا فيما بعدها أيضا . بينما حاق بآل فرعون سوء العذاب :

«النار يعرضون عليهاغدوا وعشيا . ويوم تقوم الساعة أدخلوا آلفرعون أشدالعذاب» .

والنص يلهم أن عرضهم على النار غدوا وعشيا ، هو فى الفترة من بعد الموت إلى قيام الساعة . وقد يكون هذا هو عذاب القبر . إذ أنه يقول بعد هذا:«ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » .. فهو إذن عذاب قبل يوم القيامة . وهو عذاب سيء . عرض على النار فى الصباح وفى المساء . إماللتعذيب برؤيتها وتوقع لذعها وحرها ــوهو عذاب شديد وإما لمزاولتها فعلا . فكثيرا مايستعمل لفظ العرض للمس والمزاولة . وهذه أدهى .. ثم إذا كان يوم القيامة أدخلوا أشد العذاب !

Marfat.com

فأما فى الآية التالية فقد كانت القيامة فعلا ، والسياق يلتقط لهم موقفا فى النار ! وهم يتحاجون فيها :

«فيقول الضعفاء للذين استكبروا: إنا كنا لكم تبعا . فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار؟» .

إن الضعفاء إذن فى النار مع الذين استكبروا . لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيولا وإمعات ! ولم يخفف عنهم أنهم كانوا غنما تساق ! لارأى لهم ولا إرادة ولا اختيار !

لقد منحهم الله الكرامة . كرامة الإنسانية . وكرامة التبعة الفردية . وكرامة الاختيار والحرية . ولكنهم هم تنازلوا عن هذا جميعا . تنازلوا وانساقوا وراء الكبراء والطغاة والملأ والحاشية . لم يقولوا لهم : لا . بل لم يفكروا أن يقولوها . بل لم يفكروا أن يتدبروا ما يقولونه لهم ومايقودونهم إليه من ضلال .. «إنا كنا لكم تبعا» .. وماكان تنازلهم عما وهبهم الله واتباعهم الكبراء ليكون شفيعا لهم عند الله . فهم فى النار . ساقهم إليها قادتهم كما كانوا يسوقونهم فى الحياة . سوق الشياه ! ثم هاهم أولاء يسألون كبراءهم : «فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ؟» .. كما كانوا يوهمونهم فى الأرض أنهم يقودونهم فى طريق الرشاد ، وأنهم يحمونهم من الفساد ، وأنهم يمنعونهم من الشر والضر وكيد الأعداء !

فأما الذين استكبروا فيضيقون صدرا بالذين استضعفوا ، ويجيبونهم فى ضيق وبرم وملالة. وفى إقرار بعد الاستكبار :

« قال الذين استكبروا : إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد » ..

« إنا كل فيها » .. إنا كل ضعاف لانجد ناصرا ولا معينا . إنا كل فى هذا الكرب والضيق سواء . فما سؤالكم لنا وأنتم ترون الكبراء والضعاف سواء ؟

« إن الله قد حكم بين العباد » .. فلا مجال لمراجعة فى الحكم ، ولا مجال لتغيير فيه أو تعديل. وقد قضى الأمر ، ومامن أحد من العباد يخفف شيئا من حكم الله .

وحين أدرك هؤلاء وهؤلاء أن لاملجأ من الله إلا إليه ، اتجه هؤلاء وهؤلاء لخزنة جهنم فى ذلة تعم الجميع ، وفى ضراعة تسوى هؤلاء بهؤلاء :

« وقال الذين فى النار لخزنة جهنم : ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب » ..

إنهم يستشفعون حراس جهنم ، ليدعوا ربهم . فى رجاء يكشف عن شدة البلاء : « ادعوا

Marfat.com

ربكم يخفف عنا يوما من العذاب » .. يوما . يوما ، يوما فقط. يوما يلقطون فيه أنفاسهم ويستريحون . فيوم واحد يستحق الشفاعة واللهفة والدعاء .

ولكن خزنة جهنم لايستجيبون لهذه الضراعة البائسة الذليلة الملهوفة . فهم يعرفون الأصول . ويعرفون سنة الله ، ويعرفون أن الأوان قد فات . وهم لهذا يزيدون المعذبين عذابا بتأنيبهم وتذكيرهم بسبب هذا العذاب :

« قالوا : أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ . . قالوا : بلى »

وفي السؤال وفي جوابه مايغني عن كل حوار . وعندئذ نفض الخزنة أيديهم منهم ، وأسلموهم إلى اليأس مع السخرية والاستهتار :

« قالوا : فادعوا » ..

إن كان الدعاء يغير من حالكم شيئا ، فتولوا أنتم الدعاء :

وتعقب الآية قبل تمامها على هذا الدعاء :

« ومادعاء الكافرين إلا في ضلال » ..

لايبلغ . ولايصل . ولاينتهي إلى جواب . إنما هو الإهمال والازدراء للكبراء والضعفاء سواء.

✲ ✲ ✲

عند هذا الموقف الحاسم يجيء التعقيب الأخير على الحلقة كلها ، وعلى ماتقدمها من الإشارة إلى الأحزاب التي تعرضت لبأس الله ، بعد التكذيب والاستكبار .

«إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد . يوم لاينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار . ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب هدى وذكرى لأولي الألباب . فاصبر إن وعد الله حق . واستغفر لذنبك ، وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار » . .

هذا التعقيب الجازم ، يناسب ذلك الموقف الحاسم . ولقد اطلعت منه البشرية على مثل من نهاية الحق والباطل . نهايتهما في هذه الأرض ونهايتهما كذلك في الآخرة . ورأت كيف كان مصير فرعون وملئه في الحياة الدنيا ، كما رأوهم يتحاجون في النار ، وينتهون إلى إهمال وصغار . وذلك هو الشأن في كل قضية كما يقرر القرآن :

Marfat.com

Marfat.com

« إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . يوم لاينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار » ..

فأما فى الآخرة فقد لايجادل أحد من المؤمنين بالآخرة فى هذه النهاية . ولا يجد مايدعوه إلى المجادلة . وأما النصر فى الحياة الدنيا فقد يكون فى حاجة إلى جلاء وبيان .

إن وعد الله قاطع جازم : « إنالننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا .. » .. بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ومنهم من يهاجرمن أرضه وقومه مكذبامطرودا ، وأن المؤمنين فيهم من يسام العذاب ، وفيهم من يلقى فى الأخدود ، وفيهم من يستشهد ، وفيهم من يعيش فى كرب وشدة واضطهاد .. فأين وعد الله لهم بالنصر فىالحياة الدنيا ؟ ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل ، ويفعل بها الأفاعيل !

ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور. ويغفلون عن قيم كثيرةوحقائق كثيرةفىالتقدير .

إن الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان ، وحيز محدود من المكان . وهى مقاييس بشرية صغيرة . فأما القياس الشامل فيعرض القضية فى الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان ، ولا يضع الحدود بين عصر وعصر ولا بين مكان ومكان . ولونظرنا إلى قضية الاعتقاد والإيمان فى هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك . وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها . فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتى خارج وجودها . وأول مايطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها !

والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صور معينة معهودة لهم ، قريبة الرؤية لأعينهم . ولكن صور النصر شتى.وقد يتلبس بعضهابصور الهزيمةعند النظرة القصيرة. إبراهيمعليهالسلام وهو يلقى فى النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها .. أكان فى موقف نصر أم فى موقف هزيمة ؟ مامن شك ــ فى منطق العقيدة ــ أنه كان فى قمة النصر وهو يلقى فى النار . كماأنه انتصر مرةأخرى وهوينجومن النار . هذه صورة وتلك صورة . وهما فى الظاهر بعيد من بعيد . فأما فى الحقيقة فهما قريب من قريب ! .. والحسين ــ رضوان الله عليه ــ وهو يستشهد فى تلك الصورة العظيمة من جانب ، المفجعة من جانب ؟أ كانت هذه نصرا أم هزيمة؟ فى الصورة الظاهرة وبالمقياس الصغير كانت هزيمة . فأما فى الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصرا . فما من شهيد فى الأرض تهتز له الجوانح بالحب والعطف ، وتهفو له القلوب

وتجيش بالغيرة والفداء كالحسين رضوان الله عليه . يستوى فى هذا التشيعون وغير التشيعين . من المسلمين . وكثير من غير المسلمين !

وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام ، كما نصرها باستشهاده . وما كان يملك أن يودع القلوب من المعانى الكبيرة ، ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة ، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التى يكتبها بدمه ، فتبقى حافزا محركا للأبناء والأحفاد . وربما كانت حافزا محركا لخطى التاريخ كله مدى أجيال ..

ماالنصر ؟ وما الهزيمة ؟ إننا فى حاجة إلى أن نراجع ماستقر فى تقديرنا من الصور . ومن القيم . قبل أن نسأل : أين وعد الله لرسله وللمؤمنين بالنصر فى الحياة الدنيا !

على أن هناك حالات كثيرة يتم فيها النصر فى صورته الظاهرة القريبة . ذلك حين تتصل هذه الصورة الظاهرة القريبة بصورة باقية ثابتة . لقد انتصر محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى حياته . لأن هذا النصر يرتبط بمعنى إقامة هذه العقيدة بحقيقتها الكاملة فى الأرض . فهذه العقيدة لايتم تمامها إلا بأن تهيمن على حياة الجماعة البشرية وتصرفها جميعا . من القلب الفرد إلى الدولة الحاكمة . فشاء الله أن ينتصر صاحب هذه العقيدة فى حياته ، ليحقق هذه العقيدة فى صورتها الكاملة ، ويترك هذه الحقيقة مقررة فى واقعة تاريخية محددة مشهودة . ومن ثم اتصلت صورة النصر القريبة بصورة أخرى بعيدة ، واتحدت الصورة الظاهرة مع الصورة الحقيقية . وفق تقدير الله وترتيبه .

وهنالك اعتبار آخر تحسن مراعاته كذلك . إن وعد الله قائم لرسله وللذين آمنوا . ولابد أن توجد حقيقة الإيمان فى القلوب التى ينطبق هذا الوعد عليها . وحقيقة الإيمان كثيرا مايتجوز الناس فيها . وهى لاتوجد إلا حين يخلو القلب من الشرك فى كل صوره وأشكاله . وإن هنالك لأشكالا من الشرك خفية ؛ لايخلص منها القلب إلا حين يتجه لله وحده ، ويتوكل عليه وحده ، ويطمئن إلى قضاء الله فيه ، وقدره عليه ، ويحس أن الله وحده هو الذى يصرفه فلا خيرة له إلا ماختار الله . ويتلقى هذا بالطمأنينة والثقة والرضى والقبول . وحين يصل إلى هذه الدرجة فلن يقدم بين يدى الله ، ولن يقترح عليه صورة معينة من صور النصر أو صور الخير . فسيكل هذا كله لله . ويلتزم . ويتلقى كل مايصيبه على أنه الخير .. وذلك معنى من معانى النصر .. النصر على الذات والشهوات . وهو النصر الداخلى الذى لايتم نصر خارجى بدونه بحال من الأحوال .

Marfat.com

« إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . يوم لاينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار »

وقدرأينافى المشهدالسابق كيف لاتنفع الظالمين معذرتهم . وكيف باءوا باللعنةوبسوءالدار . فأما صورة من صور النصر فى قصة موسى فهو ذاك :

«ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى إسرائيل الكتابهدى وذكرى لأولىالألباب » . .

وكان هذا نموذجامن نماذج نصر الله . إيتاء الكتاب والهدى . ووراثة الكتاب والهدى. وهذا النموذج الذى ضربه الله مثلا فى قصة موسى ، يكشف لنا رقعة فسيحة ، نرى فيها صورة خاصة من صور النصر تشير إلى الاتجاه .

وهنا يجىء الإيقاع الأخير فى هذا المقطع ، توجيها لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومن كانوا معه من المؤمنينفى مكة فى موقف الشدة والمعاناة . ولكل من يأتى بعدهم من أمته، ويواجهون مثل الموقف الذى كانوا فيه :

« فاصبر . إن وعد الله حق . واستغفر لذنبك ، وسبح بحمد ربك ، بالعشى والإبكار » . .

الإيقاع الأخير . . الدعوة إلى الصبر . . الصبر على التكذيب . والصبر على الأذى . والصبر على نفخة الباطل وانتفاشه بالغلبة والسلطان فى فترة من الزمان . والصبر على طباع الناس وأخلاقهم وتصرفاتهم من هنا ومن هناك . والصبر على النفس وميولها وقلقها وتطلعها ورغبتها فى النصر القريب وما يتعلق به من رغائب وآمال . والصبر على أشياء كثيرة فى الطريق قد تجىء من جانب الأصدقاء قبل أن تجىء من جانب الأعداء !

« فاصبر . إن وعد الله حق » . . مهما يطل الأمد ، ومهما تتعقد الأمور ، ومهما تتقلب الأسباب . إنه وعد من يملك التحقيق ، ومن وعد لأنه أراد .

وفى الطريق ، خذ زاد الطريق :

« واستغفر لذنبك ، وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار » . .

هذا هو الزاد ، فى طريق الصبرالطويل الشاق . استغفار للذنب ، وتسبيح بحمد الرب . والاستغفار المصحوب بالتسبيح وشيك أن يجاب . وهو فى ذاته تربية للنفس وإعداد . وتطهير

Marfat.com

للقلب وزكاة . وهذه هى صورة النصر التى تتم فى القلب ، فتعقبها الصورة الأخرى فى واقع الحياة .

واختيار العشى والإبكار . إما كناية عن الوقت كله ـ فهذان طرفاه ـ وإما لأنهما آنان يصفو فيهما القلب ، ويتسع المجال للتدبر والسياحة مع ذكر الله .

هذا هو المنهج الذى اختاره الله لتوفير عدة الطريق إلى النصر وتهيئة الزاد . ولابد لكل معركة من عدة ومن زاد ...

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ، فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ، وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَلَا ٱلْمُسِيءُ ، قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ * إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ .

« ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ؟ * كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ .

« ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَاءَ بِنَاءً ، وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ ، ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ * هُوَ ٱلْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ، ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ .

« قُلْ : إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ ٱلْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي ، وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ

Marfat.com

Marfat.com

نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ، ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلُ ، وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى ، وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، فَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً ، فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ؟ * الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ، ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ * ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ : أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ؟ * مِنْ دُونِ اللهِ ؟ قَالُوا : ضَلُّوا عَنَّا ، بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئاً . كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ * ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ * ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ .

« فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ . فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ » ⑦⑦

هذا الشوط متصل تمام الاتصال بالشوط الذى قبله ، وهو استمرار للفقرة الأخيرة من الدرس الماضى . وتكلة لتوجيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للصبر على التكذيب والإيذاء والصد عن الحق والتبجح بالباطل . فبعد هذا التوجيه يكشف عن علة المجادلة فى آيات الله بغير حجة ولا برهان . إنه الكبر الذى يمنع أصحابه من التسليم بالحق وهم أصغر وأضأل من هذا الكبر الذى يحيك فى الصدور .

ومن ثم يجىء التنبيه إلى عظمة هذا الكون الذى خلقه الله، وصغر الناس جميعا بالقياس إلى السماوات والأرض . ويمضى الدرس يعرض بعض الآيات الكونية . وفضل الله فى تسخير بعضها للناس وهم أصغر منها وأضأل . ويشير إلى فضل الله على الناس فى ذوات أنفسهم . وهذه وتلك تشهد بوحدانية المبدع الذى يشركون به . ويوجه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى

Marfat.com

الجهر بكلمة التوحيد والإعراض عما يعبدون من دون الله . وينتهى الشوط بمشهد عنيف من مشاهد القيامة يسألون فيه عما يشركون سؤال التبكيت والترذيل . ويختم كما ختم الشوط الماضى. بتوجيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الصبر سواء أبقاه الله ليشهد بعض ماوعدهم ، أم توفاه إليه قبل مجىء وعد الله . فالأمر لله . وهم إليه راجعون على كل حال .

***

« إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ، إن فى صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه . فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير . لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لايعلمون . وما يستوى الأعمى والبصير ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء، قليلا ماتتذكرون . إن الساعة لآتية لاريب فيها ، ولكن أكثر الناس لايؤمنون . وقال ربكم : ادعونى أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » .

إن هذا المخلوق الإنسانى لينسى نفسه فى أحيان كثيرة ، ينسى أنه كائن صغير ضعيف ، يستمد القوة لامن ذاته ، ولكن من اتصاله بمصدر القوة الأول . من الله . فيقطع اتصاله هنا ثم يروح ينتفخ ، ويتورم ، ويتشامخ ، ويتعالى . يحيك فى صدره الكبر . يستمده من الشيطان الذى هلك بهذا الكبر . ثم سلط على الإنسان فأتاه من قبله !

وإنه ليجادل فى آيات الله ويكابر . وهى ظاهرة ناطقة معبرة للفطرة بلسان الفطرة . وهو يزعم لنفسه وللناس أنه إنما يناقش لأنه لم يقتنع ، ويجادل لأنه غير مستيقن . والله العليم بعباده ، السميع البصير المطلع على السرائر ، يقرر أنه الكبر . والكبر وحده . هو الذى يحيك فى الصدر . وهو الذى يدعو صاحبه إلى الجدال فيما لاجدال فيه . الكبر والتطاول إلى ماهو أكبر من حقيقته . ومحاولة أخذ مكان ليس له ، ولا تؤهله له حقيقته . وليست له حجة يجادل بها ، ولابرهان يصدع به . إنما هو ذلك الكبر وحده :

«إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم، إن فى صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه » ..

ولو أدرك الإنسان حقيقته وحقيقة هذا الوجود . ولو عرف دوره فأتقنه ولم يحاول أن يتجاوزه . ولو اطمأن إلى أنه كائن مما لايحصى عدده من كائنات مسخرة بأمر خالق الوجود ، وفق تقديره الذى لايعلمه إلا هو ، وأن دوره مقدر بحسب حقيقته فى كيان هذا الوجود . .

Marfat.com

لو أدرك هذا كله لاطمأن واستراح ، ولتطامن كذلك وتواضع ، وعاش فى سلام مع نفسه ومع الكون حوله . وفى استسلام لله وإسلام .

« فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير » ..

والاستعاذة بالله فى مواجهة الكبر توحى باستبشاعه واستفظاعه . فالإنسان إنما يستعيذ بالله من الشيء الفظيع القبيح ، الذى يتوقع منه الشر والأذى .. وفى الكبر هذا كله . وهو يتعب صاحبه ويتعب الناس من حوله ؛ وهو يؤذى الصدر الذى يحيك فيه ويؤذى صدور الآخرين . فهو شر يستحق الاستعاذة بالله منه .. « إنه هو السميع البصير » .. الذى يسمع ويرى، والكبر الذميم يتمثل فى حركة ترى وفى كلام يسمع . فهو يكل أمره إلى السميع البصير يتولاه بما يراه .

ثم يكشف للإنسان عن وضعه الحقيقى فى هذا الكون الكبير . وعن ضآلته بالقياس إلى بعض خلق الله الذى يراه الناس ، ويدركون ضخامته بمجرد الرؤية ، ويزيدون شعوراً به حين يعلمون حقيقته :

« لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس . ولكن أكثر الناس لايعلمون »

والسماوات والأرض معروضتان للإنسان يراهما ، ويستطيع أن يقيس نفسه إليهما . ولكنه حين « يعلم » حقيقة النسب والأبعاد وحقيقة الأحجام والقوى ، يطامن من كبريائه ، ويتصاغر ويتضاءل حتى ليكاد يذوب من الشعور بالضآلة . إلا أن يذكر العنصر العلوى الذى أودعه الله إياه ، والذى من أجله كرمه . فهو وحده الذى يمسك به أمام عظمة هذا الكون الهائل العظيم ..

ولمحة خاطفة عن السماوات والأرض تكفى لهذا الإدراك .

هذه الأرض التى نحيا عليها تابع صغير من توابع الشمس تبلغ كتلتها ثلاثة من مليون من كتلة الشمس ! ويبلغ حجمها أقل من واحد من مليون من حجم الشمس .

وهذه الشمس واحدة من نحو مئة مليون من الشموس فى المجرة القريبة منا ؛ والتى نحن منها . وقد كشف البشر – حتى اليوم – نحو مئة مليون من هذه المجرات ! متناثرة فى الفضاء الهائل من حولها تكاد تكون تائهة فيه !

والذى كشفه البشر جانب ضئيل صغير لايكاد يذكر من بناء الكون ! وهو - على ضآلته - هائل شاسع يدير الرؤوس مجرد تصوره . فالمسافة بيننا وبين الشمس نحو من ثلاثة وتسعين مليونا من الأميال . ذلك أنها رأس أسرة كوكبنا الأرضى الصغير . بل هى - على الأرجح - أم هذه الأرض الصغيرة . ولم تبعد أرضنا عن أحضان أمها بأكثر من هذه المسافة : ثلاثة وتسعين مليونا من الأميال !

أما المجرة التى تتبعها الشمس فقطرها نحو من مئة ألف مليون سنة . . ضوئية . . والسنة الضوئية تعنى مسافة ست مئة مليون مليون ميل ! لأن سرعة الضوء هى ستة وثمانون ومئة ألف ميل فى الثانية !

وأقرب المجرات الأخرى إلى مجرتنا تبعد عنا بنحو خمسين وسبعمئة ألف سنة ضوئية . . !

ونذكر مرة أخرى أن هذه المسافات وهذه الأبعاد وهذه الأحجام هى التى استطاع علم البشر الضئيل أن يكشف عنها . وعلم البشر هذا يعترف أن ما كشفه قطاع صغير فى هذا الكون العريض !

والله - سبحانه - يقول :

« لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس . ولكن أكثر الناس لايعلمون » . .

وليس على قدرة الله أكبر ولا أصغر . ولا أصعب ولا أيسر . فهو خالق كل شىء بكلمة . . إنما هى الأشياء كما تبدو فى طبيعتها ، وكما يعرفها الناس ويقدرونها . . فأين الإنسان من هذا الكون الهائل ؟ وأين يبلغ به كبره من هذا الخلق الكبير ؟

« وما يستوى الأعمى والبصير » . . « والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء » . .

فالبصير يرى ويعلم ، ويعرف قدره وقيمته ، ولايتطاول ، ولاينتفخ ولا يتكبر لأنه يرى ويبصر . والأعمى لا يرى ولايعرف مكانه ، ولانسبته إلى ماحوله ، فيخطىء تقدير نفسه وتقدير مايحيط به ، ويتخبط هنا وهنالك من سوء التقدير . . وكذلك لايستوى الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسىء . إن أولئك أبصروا وعرفوا فهم يحسنون التقدير . وهذا عمى وجهل فهو يسىء . . يسىء كل شىء . يسىء إلى نفسه ، ويسىء إلى الناس . ويسىء قبل كل شىء إدراك قيمته وقيمة ماحوله . ويخطىء فى قياس نفسه إلى ماحوله . فهو أعمى . . والعمى عمى القلوب !

« قليلا ماتتذكرون » . .

Marfat.com

Marfat.com

ولو تذكرنا لعرفنا . فالأمر واضح قريب . لايحتاج إلى أكثر من التذكر والتذكير .. ثم لو تذكرنا الآخرة ، ووثقنامن مجيئها ، وتصورنا موقفنا فيها ، واستحضرنا مشهدنا بها : « إن الساعة لآتية لاريب فيها ، ولكن أكثر الناس لايؤمنون » ..

ومن ثم فهم يجادلون ويستكبرون ،فلايذعنون للحق ، ولايعرفون مكانهم الحق ، فلايتجاوزوه. والتوجه إلى الله بالعبادة ، ودعاؤه والتضرع إليه ، مما يشفي الصدور من الكبر الذي تنتفخ به ، فيدعوها إلى الجدال في آيات الله بغير حجة ولا برهان . والله ـ سبحانه ـ يفتح لنا أبوابه لنتوجه إليه وندعوه ، ويعلن لنا ما كتبه على نفسه من الاستجابة لمن يدعوه ؛ وينذر الذين يستكبرون عن عبادته بما ينتظرهم من ذل وتنكيس في النار :

« وقال ربكم : ادعوني أستجب لكم . إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » . .

وللدعاء أدب لابد أن يراعى . إنه إخلاص القلب لله . والثقة بالاستجابة مع عدم اقتراح صورة معينةلها ، أو تخصيص وقت أو ظرف ، فهذا الاقتراح ليس من أدب السؤال . والاعتقاد بأن التوجه للدعاء توفيق من الله ، والاستجابة فضل آخر . وقد كان عمر ـ رضي الله عنه ـ يقول : « أنا لاأحمل هم الإجابة إنما أحمل هم الدعاء . فإذا ألهمت الدعاء كانت الإجابة معه » وهي كلمة القلب العارف ، الذي يدرك أن الله حين يقدر الاستجابة يقدر معها الدعاء . فهما ـ حين يوفق الله ـ متوافقان متطابقان .

فأما الذين يستكبرون عن التوجه لله فجزاؤهم الحق أن يوجهوا أذلاء صاغرين لجهنم ! وهذه نهاية الكبر الذي تنتفخ به قلوب وصدور في هذه الأرض الصغيرة ، وفي هذه الحياة الرخيصة ، وتنسى ضخامة خلق الله . فضلا على نسيانها عظمة الله . ونسيانها للآخرة وهي آتية لا ريب فيها . ونسيانها للموقف الذليل في الآخرة بعد النفخة والاستكبار.

* * *

ولما ذكر الذين يستكبرون عن عبادة الله ، شرع يعرض بعض نعم الله على الناس ، تلك النعم التي توحي بعظمته تعالى والتي لايشكرون الله عليها،بل يستكبرون عن عبادته والتوجه إليه:

« الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا . إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون . ذلكم الله ربكم خالق كل شيء ، لا إله إلا هو ، فأنى

تؤفكون ؟ كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون . الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء ، وصوركم فأحسن صوركم ، ورزقكم من الطيبات . ذلكم الله ربكم . فتبارك الله رب العالمين. هو الحى، لا إله إلا هو، فادعوه مخلصين له الدين، الحمد لله رب العالمين» . .

والليل والنهار ظاهرتان كونيتان . والأرض والسماء خلقان كونيان كذلك . وهى تذكر مع تصوير الله للبشر وإحسان صورهم ، ومع رزق الله لهم من الطيبات . . وتعرض كلها فى معرض نعم الله وفضله على الناس ، وفى معرض الوحدانية وإخلاص الدين لله . فيدل هذا على ارتباط هذه الظواهر والخلائق والمعانى ، وعلى وجود الصلة بينها ، ووجوب تدبرها فى محيطها الواسع ، وملاحظة الارتباط بينها والاتفاق .

إن بناء الكون على القاعدة التى بناه الله عليها ، ثم سيره وفق الناموس الذى قدره الله له ، هو الذى سمح بوجود الحياة فى هذه الأرض ونموها وارتقائها ، كما أنه هو الذى سمح بوجود الحياة الإنسانية فى شكلها الذى نعهده ، ووافق حاجات هذا الإنسان التى يتطلبها تكوينه وفطرته . وهو الذى جعل الليل مسكنا له وراحة واستجماما ، والنهار مبصرا معينا على الرؤية والحركة ، والأرض قرارا صالحا للحياة والنشاط ، والسماء بناء متماسكا لا يتداعى ولا ينهار ، ولا تختل نسبه وأبعاده ـ ولو اختلت لتعذر وجود الإنسان على هذه الأرض وربما وجود الحياة! وهو الذى سمح بأن تكون هناك طيبات من الرزق تنشأ من الأرض وتهبط من السماء فيستمتع بها هذا الإنسان ، الذى صوره الله فأحسن صورته ، وأودعه الخصائص والاستعدادات المتسقة مع هذا الكون ، الصالحة للظروف التى يعيش فيها مرتبطا بهذا الوجود الكبير . . فهذه كلها أمور مرتبطة متناسقة كما ترى ؛ ومن ثم يذكرها القرآن فى مكان واحد ، بهذا الترابط . ويتخذ منها برهانه على وحدانية الخالق . ويوجه فى ظلها القلب البشرى إلى دعوة الله وحده ، مخلصا له الدين ، هاتفا : الحمد لله رب العالمين . ويقرر أن الذى يصنع هذا ويدعه بهذا التناسق هو الذى يليق أن يكون إلها . وهو الله . رب العالمين . فكيف يصرف الناس عن هذا الحق الواضح المبين ؟

ونذكر هنا لمحات خاطفة تشير إلى بعض نواحى الارتباط فى تصميم هذا الكون وعلاقته بحياة الإنسان . مجرد لمحات تسير مع اتجاه هذه الإشارة المجملة فى كتاب الله . .

« لو كانت الأرض لا تدور حول نفسها فى مواجهة الشمس ما تعاقب الليل والنهار .

Marfat.com

Marfat.com

« لودارت الأرض حول نفسها أسرع مما تدور لتناثرت المنازل ، وتفككت الأرض ، وتناثرت هى الأخرى فى الفضاء . .

« لودارت الأرض حول نفسها أبطأ مما تدور لهلك الناس من حر ومن برد . وسرعة دوران الأرض حول نفسها ، هذه السرعة القائمة الكائنة اليوم ، هى سرعة توافق ما على الأرض من حياة حيوانية نباتية بأوسع معانيها .

« لولا دوران الأرض حول نفسها لفرغت البحار والمحيطات من مائها .

« ماذا يحدث لو استقام محور الأرض ، وجرت الأرض فى مدارها حول الشمس فى دائرة ، الشمس مركزها ؟ إذن لاختفت الفصول ، ولم يدر الناس ما صيف وما شتاء ، وما ربيع وما خريف (١) »

«لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هى بمقدار بضعة أقدام ، لامتص ثانى أكسيد الكربون الأوكسيجين . ولما أمكن وجود حياة النبات .

« ولو كان الهواء أرفع كثيرا مما هو فإن بعض الشهب التى تحترق الآن بالملايين فى الهواء الخارجى كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية ، وهى تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلا فى الثانية . وكان فى إمكانها أن تشعل كل شىء قابل للاحتراق . ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض ، ولكانت العاقبة مروعة . أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة كان يمزقه إربا من مجرد حرارة مروره .

« لو كان الأوكسيجين بنسبة ٥٠ فى المئة مثلا أو أكثر فى الهواء بدلا من ٢١ فى المئة فإن جميع المواد القابلة للاحتراق فى العالم تصبح عرضة للاشتعال . لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لابد أن تلهب الغابة حتى لتكاد تنفجر . ولو أن نسبة الأوكسيجين فى الهواء قد هبطت إلى ١٠ فى المئة أو أقل فإن الحياة ربما طابقت نفسها عليها فى خلال الدهور . ولكن فى هذه الحالة كان القليل من عناصر المدنية التى ألفها الإنسان ـ كالنار مثلا ـ تتوافر له (٢) »

(١) عن كتاب « مع الله . فى السماء » للدكتور أحمد زكى .
(٢) عن كتاب « العلم يدعو للإيمان » ترجمة محمود صالح الفلكى .

وهناك آلاف الموافقات فى تصميم هذا الكون لو اختل واحد منها أدنى اختلال ما كانت الحياة فى صورتها هذه التى نعرفها ، موافقة هكذا لحياة الإنسان .

فأما الإنسان ذاته فمن حسن صورته هذه الهيئة المتفردة بين سائر الأحياء؟وهذا الا كتمال من ناحية الأجهزة لأداء وظائفه جميعها فى يسر ودقة ؛ وهذا التوافق بين تكوينه والظروف الكونية العامة التى تسمح له بالوجود والحركة فى هذا الوسط الكونى كما هو كائن. وذلك كله فوق خاصيته الكبرى التى جعلت منه خليفة فى الأرض ، مجهزاً بأداة الخلافة الأولى : العقل والاتصال الروحى بما وراء الأشكال والأعراض .

ولو رحنا نبحث دقة التكوين الإنسانى وتناسق أجزائه ووظائفه – بوصفها داخلة فى قوله تعالى : « وصوركم فأحسن صوركم » – لوقفنا أمام كل عضو صغير ، بل أمام كل خلية مفردة ، فى هذا الكيان الدقيق العجيب .

ونضرب مثلا لهذه الدقة العجيبة فك الإنسان ووضع الأسنان فيه من الناحية الآلية البحتة . إن هذا الفك من الدقة بحيث إن بروز واحد على عشرة من المليمتر فى اللثة أو فى اللسان ، يزحم اللثة واللسان ؛ وبروز مثل هذا الحجم فى ضرس أو سن يجعله يصطك بما يقابله ويحتك ! ووجود ورقة كورقة السيجارة بين الفكين العلوى والسفلى يجعلها تتأثر بضغط الفكين عليها فتظهر فيها علامات الضغط لأنها من الدقة بحيث يلتقيان تماما ليمضغ الفك ويطحن ما هو فى سمك ورقة السيجارة !

ثم . . إن هذا الإنسان بتكوينه هذا مجهز ليعيش فى هذا الكون . . عينه هذه مقيسة على الذبذبات الضوئية التى تقتضى وظيفته فى الأرض أن يراها . وأذنه تلك مقيسة على الذبذبات الصوتية التى تقتضى وظيفته فى الأرض أن يسمعها . وكل حاسة فيه أو جارحة مصممة وفق الوسط المهيأ لحياته ، ومجهزة كذلك بالقدرة على التكيف المحدود عند تغير بعض الظروف .

إنه مخلوق لهذا الوسط . ليعيش فيه ، ويتأثر به ، ويؤثر فيه . وهناك ارتباط وثيق بين تصميم هذا الوسط وتكوين هذا الإنسان . وتصوير الإنسان على هذه الصورة ذو علاقة بوسطه . أى بالأرض والسماء . ومن ثم يذكر القرآن صورته فى نفس الآية التى يذكر فيها الأرض والسماء . . ألا إنه الإعجاز فى هذا القرآن . .

Marfat.com

Marfat.com

وتكفي هذه الإشارات بهذا الاختصار إلى دقة صنع الله وتناسقه بين الكون والإنسان .

ونقف وقفات سريعة أمام النصوص القرآنية :

« الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا » . .

إن السكون بالليل ضرورة لكل حى . ولا بد من فترة من الظلام تسكن فيه الخلايا الحية وتستكن لتزاول نشاطها فى النور . ولا يكفى مجرد النوم لتوفير هذا السكون . بل لابد من ليل . لابدمن ظلام .فالخلية الحية التى تتعرض لضوء مستمر تصل إلى حد من الإجهاد تتلف معه أنسجتها لأنها لم تتمتع بقسط ضرورى لها من السكون .

« والنهار مبصرا » . . والتعبير على هذا النحو تعبير مصور مشخص . وكأنما النهار حى يبصر ويرى . وإنما الناس هم الذين يبصرون فيه . لأن هذه هى الصفة الغالبة . .

وتقلب الليل والنهار على هذا النحو نعمة فى طيها نعم . ولو كان أحدهما سرمدا . بل لوكان أطول مما هو مرات معدودة لانعدمت الحياة . فلا عجب أن يقرن توالى الليل والنهار بذكر الفضل الذى لا يشكره أكثر الناس :

« إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون » . .

ويعقب على هاتين الظاهرتين الكونيتين ، بأن الذى خلقهما هو الذى يكون إلها يستحق هذا الاسم العظيم :

« ذلكم الله ربكم خالق كل شىء ، لا إله إلا هو ، فأنى تؤفكون ؟ » . .

وإنه لعجيب يستحق التعجيب أن يرى الناس يد الله فى كل شىء ، ويعلموا أنه الخالق لكل شىء معرفة حتمية مفروضة على العقل فرضا بحكم وجود الأشياء ، واستحالة ادعاء أحد أنها من خلقه ، وعدم استقامة القول بأنها وجدت من غير موجد . عجيب يستحق التعجيب أن يكون هذا كله ، ثم ينحرف الناس عن الإيمان والإقرار . . « فأنى تؤفكون ؟ » . .

ولكنه هكذا يصرف ناس عن هذا الحق الواضح . هكذا كما يقع من المخاطبين الأولين بالقرآن . كذلك كان فى كل زمان ؛ بلا سبب ولا حجة ولا برهان :

« كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون » . .

وينتقل من ظاهرتى الليل والنهار،إلى تصميم الأرض لتكون قرارا،والسماء لتكون بناء:

« الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء » . .

Marfat.com

والأرض قرار صالح لحياة الإنسان بتلك الموافقات الكثيرة التى أشرنا إلى بعضها إجمالا. والسماء بناء ثابت النسب والأبعاد والحركات والدورات ومن ثم تضمن الاستقرار والثبات لحياة هذا الإنسان، المحسوب حسابها فى تصميم هذا الوجود، المقدرة فى بنائه تقديرا..

ويربط بتكوين السماء والأرض تكوين الإنسان ورزقه من الطيبات على النحو الذى أشرنا إلى بعض أسراره:

« وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات »..

ويعقب على هذه الآيات والهبات كما عقب على الأولى:

« ذلكم الله ربكم. فتبارك الله رب العالمين »..

ذلكم الذى يخلق ويقدر ويدبر، ويراعيكم ويقدر لكم مكانا فى ملكه.. ذلكم الله ربكم. « فتبارك الله ».. وعظمت بركته وتضاعفت. « رب العالمين ».. أجمعين.

« هو الحى »..

أجل. هو وحده الحى. الحى حياة ذاتية غير مكسوبة ولا مخلوقة. وغير مبتدئة ولا منتهية. وغير حائلة ولا زائلة. وغير متقلبة ولا متغيرة. وما من شىء له هذه الصفة من الحياة. سبحانه هو المتفرد بالحياة.

وهو المتفرد بالألوهية. بما أنه المتفرد بالحياة. فالحى الواحد هو الله:

« لا إله إلا هو »

ومن ثم.. « فادعوه مخلصين له الدين ».. واحمدوه فى الدعاء: « الحمد لله رب العالمين »..

* * *

وأمام هذه الآيات والهبات، وماتلاها من تعقيبات، وفى أشد اللحظات امتلاء بحقيقة الوحدانية، وحقيقة الألوهية. وحقيقة الربوبية. يجىء التلقين لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليعلن للقوم أنه منهى عن عبادة مايدعون من دون الله، مأمور بالإسلام لله رب العالمين:

« قل: إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله، لما جاءنى البينات من ربى، وأمرت أن أسلم لرب العالمين »..

أعلن لهؤلاء الذين يصرفون عن آيات الله ويجحدون هباته ، أنك نهيت عن عبادة مايدعون من دون الله . وقل لهم : إنى نهيت وانتهيت « لما جاءنى البينات من ربى » فعندى بينة ، وأنابها مؤمن ، ومن حق هذه البينة أن أقتنع بها وأصدق ، ثم أعلن كلمة الحق . . ومع الانتهاء عن عبادة غير الله – وهو سلب – الإسلام لرب العالمين – وهو إيجاب – ومن الشقين تتكامل العقيدة .

ثم يستعرض آية من آيات الله فى أنفسهم بعد ماستعرض آياته فى الآفاق . هى آية الحياة الإنسانية وأطوارها العجيبة ؛ وليتخذ من هذه الحياة مقدمة لتقرير حقيقة الحياة كلها بين يدى الله :

« هو الذى خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم يخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلا مسمى ، ولعلكم تعقلون . هو الذى يحي ويميت ، فإذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن . فيكون » . .

وهذه النشأة الإنسانية فيها مالم يدركه علم الإنسان ، لأنه كان قبل وجود الإنسان . وفيها مايشاهده ويراقبه . ولكن هذا إنما تم حديثا بعد نزول هذا القرآن بقرون !

فخلق الإنسان من تراب حقيقة سابقة على وجود الإنسان . والتراب أصل الحياة كلها على وجه هذه الأرض . ومنها الحياة الإنسانية .ولايعلم إلاالله كيف تمت هذه الخارقة ، ولا كيف تم هذا الحادث الضخم فى تاريخ الأرض وتاريخ الحياة . وأما تكاثر الإنسان بعد ذلك عن طريق التزاوج فيتم عن طريق التقاء خلية التذكير وهى النطفة بالبويضة ، واتحادهما ، واستقرارهما فى الرحم فى صورة علقة . . وفى نهاية المرحلة الجنينية يخرج الطفل بعد عدة تطورات كبرى فى طبيعة الخلية الأولى، تعد إذانحن نظرنا إليها بتدبرأطول وأكبر من الأطوار التى يمر بها الطفل من ولادته إلى أن ينتهى أجله، والتى يقف السياق عندبعض مراحلها البارزة : مرحلةالطفولة. ثم بلوغ الأشد حوالى الثلاثين . ثم الشيخوخة .وهى المراحل التى تمثل أقصى القوة بين طرفين من الضعف . « ومنكم من يتوفى من قبل » أن يبلغ هذه المراحل جميعا أوبعضها . « ولتبلغوا أجلا مسمى » مقدرا معلوما لاتستأخرون عنه ساعة ولاتستقدمون . « ولعلكم تعقلون » . . فمتابعة رحلة الجنين . ورحلةالوليد . وتدبر ماتشيران إليه من حسن الخلق والتقدير ، مماللعقل فيه دور كبير . .

Marfat.com

Marfat.com

ورحلة الجنين رحلة عجيبة ممتعة حقا . وقد عرفنا الكثير عنها بعد تقدم الطب وعلم الأجنة بشكل خاص . ولكن إشارة القرآن إليها بهذه الدقة منذ حوالى أربعة عشر قرنا أمر يستوقف النظر . ولا يمكن أن يمر عليه عاقل دون أن يقف أمامه يتدبره ويفكر فيه .

ورحلة الجنين ورحلة الطفل كلتاهما توقع على الحس البشرى وتلمس القلب الإنسانى فى أى بيئة وفى أى مرحلة من مراحل الرشد العقلى . وكل جيل يحس لهذه اللمسة وقعها على طريقته وحسب معلوماته . فيخاطب القرآن بها جميع أجيال البشر . . فيحسون . . ثم يستجيبون أو لا يستجيبون !

وهو يعقب عليها بعرض حقيقة الإحياء والإماتة . وحقيقة الخلق والإنشاء جميعا :

« هو الذى يحى ويميت . فإذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن : فيكون » . .

وتكثر الإشارة فى القرآن إلى آيتى الحياة والموت . لأنهما تلمسان قلب الإنسان بشدة وعمق . ثم لأنهما الظاهرتان البارزتان المكررتان فى كل مايقع عليه حس الإنسان . وللإحياء والإماتة مدلول أكبر مما يبدو لأول مرة . فالحياة ألوان . والموت ألوان . وإن رؤية الأرض الميتة . ثم رؤيتها تنبض بالحياة . ورؤية الشجرة الجافة الأوراق والأغصان فى موسم ، ثم رؤيتها والحياة تنبثق منها فى كل موضع ، وتخضر وتورق وتزهر ، كما لو كانت الحياة تتفجر منها وتفيض . ورؤية البيضة . . ثم الفرخ . ورؤية البذرة ثم النبتة . . وعكس هذه الرحلة . . من الحياة إلى الموت ، كالرحلة من الموت إلى الحياة . . كلها تلمس القلب وتستجيشه إلى قدر من التأثر والتدبر يختلف باختلاف النفوس والحالات .

ومن الحياة والموت إلى حقيقة الإنشاء وأداة الإبداع . وإن هى إلا الإرادة يتمثل اتجاهها إلى الخلق . خلق أى شىء . فى كلمة « كن » . . فإذا الوجود ينبثق على إثرها « فيكون » فتبارك الله أحسن الخالقين . .

* * *

وأمام نشأة الحياة البشرية . وفى ظل مشهد الحياة والموت . وحقيقة الإنشاء والإبداع . . يبدو الجدال فى آيات الله مستغربا مستنكرا ؛ ويبدو التكذيب بالرسل عجيبا نكيرا . ومن ثم يواجهه بالتهديد المخيف فى صورة مشهد من مشاهد القيامة العنيفة :

« ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون ؟ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون . إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون ، فى الحميم ثم فى النار يسجرون . ثم قيل لهم : أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟ قالوا : ضلوا عنا ، بل لم نكن ندعو من قبل شيئا . كذلك يضل الله الكافرين . ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تمرحون. ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها . فبئس مثوى المتكبرين » . .

إنه التعجيب من أمر الذين يجادلون فى آيات الله ، فى ظل استعراض هذه الآيات . مقدمة لبيان ما ينتظرهم هناك !

« ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون ؟ » . .

« الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا » . .

وهم كذبوا كتابا واحدا . ورسولا واحدا . ولكنهم إنما يكذبون بهذا كل ما جاء به الرسل . فهى عقيدة واحدة ، تتمثل فى أكمل صورها فى الرسالة الأخيرة . ومن ثم فهم كذبوا بكل رسالة وبكل رسول . . كل مكذب فى القديم والحديث صنع هذا حين كذب رسوله الذى جاءه بالحق الواحد وبعقيدة التوحيد .

« فسوف يعلمون » . .

ثم يعرض ماذا سوف يعلمون . .

إنها الإهانة والتحقير فى العذاب . لا مجرد العذاب . « إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون » . . بهذه المهانة كما تسحب الأنعام والوحوش ! وعلام التكريم ؟ وقد خلعوا عن أنفسهم شارة التكريم ؟ !

وبعد السحب والجر فى هذا العذاب وفى هذه المهانة، ينتهى بهم المطاف إلى ماء حار وإلى نار :

« فى الحميم ثم فى النار يسجرون » . .

أى يربطون ويحبسون ، على طريقة سجر الكلاب . أى يملأ لهم المكان ماء حارا ونارا موقدة . وإلى هذا ينتهون .

وبينما هم فى هذا العذاب المهين يوجه إليهم التبكيت والترذيل والإحراج والإعنات :

« ثم قيل لهم : أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟ » . .

فيجيبون إجابة المخدوع الذى انكشفت له خدعته، وهو يائس حسير .

Marfat.com

« قالوا : ضلوا عنا . بل لم نكن ندعو من قبل شيئا » . .

غابوا عنا فلم نعد نعرف لهم طريقا ، وما عادوا يعرفون لنا طريقا . بل لم نكن ندعو من قبل شيئا . فقد كانت كلها أوهاما وأضاليل !

وعلى إثر الجواب البائس يجيء التعقيب العام :

« كذلك يضل الله الكافرين » . .

ثم يوجه إليهم التأنيب الأخير :

« ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تمرحون . ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين » . .

حيث! وأين إذن كان السحب فى السلاسل والأغلال ، وكان الماء الحار والنار ؟ يبدو أنها كانت مقدمة للدخول فى جهنم للخلود . . « فبئس مثوى المتكبرين » . فمن الكبر نشأت هذه المهانة . وجزاء على الكبر كان هذا التحقير !

* * *

وأمام هذا المشهد . مشهد الذل والمهانة والعذاب الرعيب . وعاقبة الجدال فى آيات الله ، والكبر النافخ فى الصدور . . أمام هذا المشهد وهذه العاقبة يتجه السياق إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يوصيه بالصبر على ما يجده من كبر ومن جدال ، والثقة بوعد الله الحق على كل حال . سواء أراه الله بعض الذى يعدهم فى حياته ، أو قبضه إليه وتولى الأمر عنه . فالقضية كلها راجعة إلى الله ، وليس على الرسول إلا البلاغ ، وهم إليه راجعون :

« فاصبر إن وعد الله حق . فإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون » . .

وهنا نقف أمام لفتة تستحق التدبر العميق . إن هذا الرسول الذى يلاقى مايلاقى من الأذى والتكذيب والكبر والكنود ، يقال له مامفهومه : أد واجبك وقف عنده . فأماالنتائج فليست من أمرك . حتى شفاء صدره بأن يشهد تحقق بعض وعيد الله للمتكبرين المكذبين ليس له أن يعلق به قلبه ! إنه يعمل وكفى . يؤدى واجبه ويمضى . فالأمر ليس أمره . والقضية ليست قضيته. إن الأمر كله لله . والله يفعل به مايريد .

يالله ! ياللمرتقى العالى . ويالَلأدب الكامل . الذى يأخذ الله به أصحاب هذه الدعوة . فى شخص رسوله الكريم .

Marfat.com

Marfat.com

وإنه لأمر شاق على النفس البشرية . أمر يحتاج إلى الصبر على أشواق القلب البشري العنيفة . ألعله من أجل هذا كان التوجيه إلى الصبر في هذا الموضع من السورة . فلم يكن هذا تكرارا للأمر الذي سبق فيها . إنما كان توجيها إلى صبر من لون جديد . ربما كان أشق من الصبر على الإيذاء والكبر والتكذيب ؟ !

إن احتجاز النفس البشرية عن الرغبة في أن ترى كيف يأخذ الله أعداءه وأعداء دعوته، بينما يقع عليها العداء والخصومة من أولئك الأعداء ، أمر شديد على النفس صعيب . ولكنه الأدب الإلهي العالي ، والإعداد الإلهي لأصفيائه المختارين ، وتخليص النفس المختارة من كل شيء لها فيه أرب ، حتى ولو كان هذا الأرب هو الانتصار من أعداء هذا الدين !

ولمثل هذه اللفتة العميقة ينبغي أن تتوجه قلوب الدعاة إلى الله في كل حين . فهذا هو حزام النجاة في خضم الرغائب ، التي تبدو بريئة في أول الأمر ، ثم يخوض فيها الشيطان بعد ذلك وبعوم !

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ ، مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ . وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ . فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

« اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا ، وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ، وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ؟

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؟ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ

يَسْتَهْزِئُونَ * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا : آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ *
فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ـ سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ـ وَخَسِرَ
هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ » ﴿٨٥﴾

هذا الشوط استكمال للتعقيب فى آخر الدرس الماضى . استكمال لتوجيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين إلى الصبر ، حتى يأذن الله ، ويتحقق وعده ووعيده ، سواء تحقق هذا فى حياته ـ صلى الله عليه وسلم ـ أم استأخر بعد وفاته . فالأمر ليس أمره ، إنما هو أمر هذه العقيدة والمؤمنين بها والمجادلين فيها ، المستكبرين عنها . والحكم فى هذا الأمر هو الله . وهو الذى يقود حركتها ويوجه خطواتها كما يشاء .

فأما هذا الشوط الجديد ـ الذى تختم به السورة ـ فيستطرد فى عرض جوانب أخرى من هذه الحقيقة . .

إن قصة هذا الأمر قصة طويلة وقديمة ، ولم تبدأ برسالة الإسلام ورسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقبله كانت رسل . قص الله بعضهم عليه وبعضهم لم يقصصهم عليه . وكلهم ووجهوا بالتكذيب والاستكبار . وكلهم طولب بالآيات والخوارق . وكلهم تمنى لو يأتى الله بخارقة يذعن لها المكذبون . ولكن مامن آية إلا بإذن الله ، فى الوقت الذى يريده الله.فهى دعوته، وهو يصرفها كيف يشاء .

على أن آيات الله مبثوثة فى الكون ، معروضة للأنظار فى كل زمان ومكان . يتحدث منها هنا عن الأنعام ، والفلك ، ويشير إشارة عامة إلى سائرها الذى لايملك إنكاره أحد .

ويختم السورة بلمسةقوية عن مصارع الغابرين ،الذين وقفوا موقف المكذبين،وغرهم ما كانوا فيه من القوة والعمارة والعلم . ثم أدركتهم سنة الله : « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت فى عباده ، وخسر هنالك الكافرون » .

وبهذا الإيقاع تختم السورة التى دارت كلها على المعركة بين الحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والصلاح والطغيان حتى ختمت هذا الختام الأخير . .

***

Marfat.com

« ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك ؛ وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله،فإذا جاء أمر اللهقضى بالحق،وخسر هنالك المبطلون » . .

إن لهذا الأمر سوابق كثيرة ، قص الله على رسوله بعضها فى هذا الكتاب ، وبعضها لم يقصصه.وفيما قصه من أمر الرسل مايشير إلى الطريق الطويل الواصل الواضح المعالم ؛ ومايقرر السنة الماضية الجارية التى لا تتخلف ؛ وما يوضح حقيقة الرسالة ووظيفة الرسل وحدودها أدق إيضاح .

وتؤكد الآية حقيقة تحتاج إلى توكيدها فى النفس ؛ وتتكىء عليهالتقررها تقريرا شديدا:

« وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله » . .

فالنفس البشرية ــ ولو كانت نفس رسول ــ تتمنى وترغب أن تستعلى الدعوة وأن يذعن لها المكابرون سريعا . فتتطلع إلى ظهور الآية الخارقة التى تقهر كل مكابرة . ولكن الله يريد أن يلوذ عباده المختارون بالصبر المطلق ؛ ويروضوا أنفسهم عليه ؛ فيبين لهم أن ليس لهم من الأمر شىء ، وأن وظيفتهم تنتهى عند حد البلاغ ، وأن مجىء الآية هو الذى يتولاه حينما يريد. لتطمئن قلوبهم وتهدأ وتستقر ؛ ويرضوا بكل مايتم على أيديهم ويدعوا الأمر كله بعد ذلك لله.

ويريد كذلك أن يدرك الناس طبيعة الألوهية وطبيعة النبوة ، ويعرفوا أن الرسل بشر منهم ، اختارهم الله ، وحدد لهم وظيفتهم ، وماهم بقادرين ولا محاولين أن يتجاوزا حدود هذه الوظيفة .

كذلكليعلم الناس أن تأخير الآيات رحمة بهم؛فقد قضى فى تقديره بأن يدمر على المكذبين بعد ظهور الآيات . وإذن فهى مهلة ، وهى من الله رحمة :

« فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون » . .

ولم يعد هناك مجال لعمل ولا لتوبة ولا لرجعة بعد قضاء الله الأخير

* * *

ثم يوجه طلاب الخوارق إلى آيات الله الحاضرة التى ينسون وجودها بطول الألفة . وهى لو تدبروها بعض هذه الخوارق التى يطلبون ؛ وهى شاهدة كذلك بالألوهية ؛ لبطلان أى ادعاء بأن أحدا غير الله خلقها ، وأى ادعاء كذلك بأنها خلقت بلا خالق مدبر مريد :

Marfat.com

« الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ، ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ، ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم ، وعليها وعلى الفلك تحملون . ويريكم آياته ، فأى آيات الله تنكرون ؟ » . .

وخلق هذه الأنعام ابتداء آية خارقة كخلق الإنسان . فبث الحياة فيها وتركيبها وتصويرها كلها خوارق ، لايتطاول الإنسان إلى ادعائها ! وتذليل هذه الأنعام وتسخيرها للإنسان ، وفيها ماهو أضخم منه جسما وأشد منه قوة ، وهوجعلها : « الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ، ومنها تأكلون . . . » . وهذه لايستحق الاحترام أن يقول قائل : إنها هكذاوجدت والسلام ! وإنها ليست خارقةمعجزة بالقياس إلى الإنسان ! وإنها لاتدل على الخالق الذى أنشأها وسخرها بما أودعها من خصائص وأودع الإنسان ! ومنطق الفطرة يقر بغير هذا الجدال والمراء :

ويذكرهم بما فى هذه الآيات الخوارق من نعم كبار :

« لتركبوا منها ، ومنها تأكلون . ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم . وعليها وعلى الفلك تحملون » . .

والحاجات التى كانت فى الصدور والتى كانوا يبلغونها على الأنعام هى حاجات ضخمة فى ذلك الزمان . قبل نشوء كل وسائل النقل والسفر والاتصال إلا على هذه الأنعام . ومازال هناك حاجات تبلغ على هذه الأنعام حتى اليوم وغد . وهناك حتى اللحظة أسفار فى بعض الجبال لاتبلغها إلا الأنعام مع وجود القطار والسيارة والطيارة ، لأنها مجازات ضيقة لاتتسع لغير أقدام الأنعام !

« وعليها وعلى الفلك تحملون » . .

وهذه كتلك آية من آيات الله . ونعمة من نعمه على الإنسان . وسير الفلك على الماء قائم على نواميس وموافقات فى تصميم هذا الكون : سمائه وأرضه . يابسه ومائه . وفى طبيعة أشيائه وعناصره . لابد أن توجد حتى يمكن أن يسير الفلك على الماء . سواء سار بالشراع أم بالبخار أم بالذرة ، أم بغيرها من القوى التى أودعها الله هذا الكون ، ويسر استخدامها للإنسان . . ومن ثم تذكر فى معرض آيات الله ، وفى معرض نعمه على السواء .

وكم هنالك من آيات من هذا النوع الحاضر المتناثر فى الكون ، لايملك إنسان أن ينكره وهو جاد :

Marfat.com

« ويريكم آياته . فأى آيات الله تنكرون ؟ »

نعم إن هنالك من ينكر . وهنالك من يجادل فى آيات الله . وهنالك من يجادل بالباطل ليدحض به الحق . ولكن أحدا من هؤلاء لا يجادل إلا عن التواء ، أو غرض ، أو كبر ، أو مغالطة ، لغاية أخرى غير الحقيقة .

هنالك من يجادل لأنه طاغية كفرعون وأمثاله ، يخشى على ملكه ، ويخشى على عرشه ، لأن هذا العرش يقوم على أساطير يذهب بها الحق ، الذى يثبت بثبوت حقيقة الألوهية الواحدة !

وهنالك من يجادل لأنه صاحب مذهب فى الحكم كالشيوعية يتحطم إذا ثبتت حقيقة العقيدة السماوية فى نفوس البشر . لأنه يريد أن يلصق الناس بالأرض ؛ وأن يعلق قلوبهم بمعداتهم وشهوات أجسادهم ؛ وأن يفرغها من عبادة الله لتعبد المذهب أو تعبد الزعيم !

وهنالك من يجادل لأنه ابتلى بسيطرة رجال الدين - كما وقع فى تاريخ الكنيسة فى العصور الوسطى - ومن ثم فهو يريد الخلاص من هذه السيطرة . فيشتط فيرد على الكنيسة إلهها ، الذى تستعبد باسمه الناس !

وهنالك أسباب وأسباب . . غير أن منطق الفطرة ينفر من هذا الجدال ، ويقر بالحقيقة الثابتة فى ضمير الوجود ؛ والتى تنطق بها آيات الله بعد كل جدال !

* * *

وفى الختام يجىء ذلك الإيقاع القوى الأخير :

« أفلم يسيروا فى الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . فلما رأوا بأسنا قالوا : آمنا بالله وحده، وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا . سنة الله التى قد خلت فى عباده . وخسر هنالك الكافرون » . .

ومصارع الغابرين كثيرة فى تاريخ البشرية ؛ وبعضها مازال له آثار تحكى قصته ؛ وبعضها حفظته الروايات على الألسنة ، أو حفظته الأوراق والكتب . والقرآن كثيرا ما يوجه القلوب إليها ، لما فيها من دلالة على حقائق ثابتة فى خط سير البشرية ؛ ولما لها كذلك من أثر فى النفس

Marfat.com

الإنسانية عميق عنيف . والقرآن يخاطب الفطرة بما يعلمه منزل هذا القرآن من حقيقة الفطرة، ومساربها ومداخلها ، وأبوابها التى تطرق فتفتح ، بعضها بعد نقرة خفيفة وبعضها بعد طرقات كثيرة إن كان قد ران عليها الركام !

وهنا يسألهم وينشطهم للسير فى الأرض ، بعين مفتوحة ، وحس متوفز ، وقلب بصير . لينظروا ويتدبروا ماكان فى الأرض قبلهم ؛ ومايتعرضون هم لجريانه عليهم :

« أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ » . .

وقبل أن يذكر كيف كان هذه العاقبة ، يصف حال الذين من قبلهم ، ويقرن إليها حالهم هم لتتم الموازنة ، وتتم العبرة :

« كانوا أكثر منهم ، وأشد قوة وآثارا فى الأرض » . .

توافرت لهم الكثرة والقوة والعمران . ومن هؤلاء أجيال وأمم كانت قبل العرب ، قص الله على رسوله بعضها ، ولم يقصص عليه بعضها . ومنهم من كان العرب يعرفون قصته ويمرون بآثاره . .

« فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » . .

ولم تعصمهم قوة ولا كثرة ولاعمارة ،مما كانوا يعتزون به ويغترون . بل كان هذا هو أصل شقائهم ، وسبب هلاكهم :

« فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم » . .

والعلم ـ بغير إيمان ـ فتنة . فتنة تعمى وتطغى . ذلك أن هذا اللون من العلم الظاهرى يوحى بالغرور ، إذ يحسب صاحبه أنه يتحكم بعلمههذا فى قوى ضخمة ، ويملكمقدرات عظيمة، فيتجاوز بنفسهقدرهاومكانها ! وينسىالآماد الهائلة التى يجهلها . وهى موجودة فى هذا الكون؛ ولاسلطان له عليها . بل لاإحاطة له بها . بل لامعرفة له بغير أطرافها القريبة . وبذلك ينتفخ فيأخذ أكثر من حقيقته . ويستخفه علمه وينسى جهله . ولوقاس مايعلم إلى مايجهل . ومايقدر عليه فى هذا الكون إلى مايعجز حتى عن إدراك سره لطامن من كبريائه ، وخفف من فرحه الذى يستخفه .

وهؤلاء فرحوا بما عندهم من العلم . واستهزأوا بمن يذكرهم بما وراءه ؛

« وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » . .

Marfat.com

Marfat.com

فلما عاينوا بأس الله ، سقط عنهم القناع ، وأدركوا مدى الغرور ، واعترفوا بما كانوا ينكرون ، وأقروا بوحدانية الله ، وكفروا بشركائهم من دونه . ولكن الأوان كان قد فات :

« فلما رأوا بأسنا قالوا: آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا » . .

ذلك أن سنة الله قد جرت على أن لا تقبل التوبة بعد ظهور بأس الله : فهي توبة الفزع لاتوبة الإيمان :

« سنة الله التي قد خلت في عباده » . .

وسنة الله ثابتة لا تضطرب ولا تختلف ولا تحيد عن الطريق .

« وخسر هنالك الكافرون » .

* * *

وعلى هذا المشهد العنيف . مشهد بأس الله يأخذ المكذبين . ومشهدهم يستغيثون ويفزعون، ويعلنون كلمة الإذعان والتسليم . تختم السورة . فيتناسق هذا الختام مع جوها وظلها وموضوعها الأصيل .

ولقد مررنا في ثنايا السورة بقضايا العقيدة التي تعالجها السور المكية : قضية التوحيد ، وقضية البعث ، وقضية الوحي . . ولكنها لم تكن هي موضوع السورة البارز . إنما كانت المعركة بين الحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والصلاح والطغيان ، هي البارزة ، وكانت ملامح المعركة هي التي ترسم « شخصية السورة » . . وسماتها المميزة لها بين سور القرآن . . .

سورة فصلت
وآياتها ٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

« حم ۞ تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيرا ونذيرا ، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا : قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون * قل : إنما أنا بشر مثلكم ، يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ، فاستقيموا إليه واستغفروه ، وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم كافرون * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون .

« قل : أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ، وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي دخان ، فقال لها وللأرض : ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا : أتينا طائعين * فقضاهن سبع سماوات في يومين ، وأوحى في كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم .

« فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود * إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله ، قالوا : لو شاء ربنا لأنزل

Marfat.com

مَلَائِكَةً ، فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَقَالُوا : مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ؟ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ * وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ، فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ .

« وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ : لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ؟ قَالُوا : أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ، وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ .

« وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ * فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ، لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ .

« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا : رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا . وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

Marfat.com

وَفِي الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ .

« وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ ، وَعَمِلَ صَالِحًا ،وَقَالَ : إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » ٣٦.

قضية العقيدة بحقائقها الأساسية هي التي تعالجها هذه السورة .. الألوهية الواحدة . والحياة الآخرة . والوحي بالرسالة . يضاف إليها طريقة الدعوة إلى الله وخلق الداعية .

وكل ما في السورة هو شرح لهذه الحقائق ،واستدلال عليها . وعرض لآيات الله في الأنفس والآفاق ، وتحذير من التكذيب بها ، وتذكير بمصارع المكذبين في الأجيال السابقة ، وعرض لمشاهد المكذبين يوم القيامة .وبيان أن المكذبين من الجن والإنس هم وحدهم الذين لا يسلمون بهذه الحقائق ولا يستسلمون لله وحده ؛ بينما السماء والأرض والشمس والقمر والملائكة ... كلهم يسجدون لله ويخشعون ويسلمون ويستسلمون .

فعن حقيقة الألوهية الواحدة يرد في مطلع السورة : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد، فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين » .. و : « قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ؟ ذلك رب العالمين » .. ويحكى عن عاد وثمود أن رسلهم قالت لهم هذه الحقيقة ذاتها : « ألا تعبدوا إلا الله » .. وفي وسطها يرد: « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن » .. وفي نهايتها يرد عن الحقيقة ذاتها : « ويوم يناديهم أين شركائي ؟ قالوا : آذناك ما منا من شهيد » ..

وعن قضية الآخرة يرد تهديد للذين لا يؤمنون بالآخرة : « وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون » .. وتختم بقوله : « ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم، ألا إنه بكل شيء محيط » .. كما يرد ذكر هذه القضية في مشاهد القيامة وهي عرض لما يقع فيها يقوم على تأكيد وقوعها طبعا . بل إن هذا الطريق أشد توكيدا لهذه القضية وتشخيصا .

Marfat.com

وعن قضية الوحى يرد كلام كثير يكاد يجعل هذا الموضوع هو موضوع السورة الرئيسى . فهى تفتتح به فى تفصيل : « حم. تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون . وقالوا : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون . قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى . . . » . . وفى وسطها يجىء عن استقبال المشركين لهذا القرآن : « وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » . . ثم يرد تفصيل كثير لهذا الاستقبال والرد على أقوالهم فيه : « إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ، وإنه لكتاب عزيز ، لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . مايقال لك : إلا ما قد قيل للرسل من قبلك . إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم . ولوجعلناه قرآنا أعجميا لقالوا : لولا فصلت آياته ؟ أأعجمى وعربى ؟ قل : هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى . أولئك ينادون من مكان بعيد . . . » . .

وأما عن طريقة الدعوة وخلق الداعية فيرد قوله: « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا ، وقال : إننى من المسلمين . ولاتستوى الحسنة ولاالسيئة . ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم. ومايلقاها إلا الذين صبروا ، ومايلقاها إلاذو حظ عظيم. وإماينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم » . .

***

هذه القضايا تعرض فى حشد من المؤثرات الشعورية العميقة . تعرض فى المجال الكونى الحافل بالآيات العظام . وتعرض فى عالم النفس البشرية العجيبة التكوين . وتعرض فى مجال بشرى من مصارع الغابرين. وأخيرا تعرض فى جو من مشاهد القيامة وتأثيرها العميق ؛ وبعض هذه المشاهد فريد فى صوره ومواقفه يثير الدهش الشديد .

ومن بين المشاهد الكونية فى هذه السورة مشهد الخلق الأول للأرض والسماء بكثير من التفصيل المثير : « قل أإنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ؟ ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أوكرها . قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها . وزينا السماء الدنيا

Marfat.com

بمصابيح وحفظا . ذلك تقدير العزيز العليم » .. ومن بينها كذلك آيات الليل والنهار والشمس والقمر وعبادة الملائكة وخشوع الأرض بالعبادة ونبضها بالحياة : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر. لاتسجدوا للشمس ولاللقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون. فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لايسأمون . ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ؛ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت . إن الذى أحياها لمحي الموتى ، إنه على كل شيء قدير » ..أما النفس البشرية فيكشف عن حقيقتها فى هذه السورة ، وتعرض على أصحابها عارية من كل ستار : « لايسأم الإنسان من دعاء الخير ، وإن مسه الشر فيؤوس قنوط ،ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراءمسته ليقولن: هذا لى ، وماأظن الساعة قائمة،ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى ،فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ. وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض » ..

ومن مصارع الغابرين يصور مصرع عاد ومصرع ثمود : « فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق ، وقالوا :من أشد مناقوة؟ أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون . وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون . ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » . .

ومن مشاهد القيامة المؤثرة فى هذه السورة : « ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ؟ قالوا :أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء . وهو خلقكم أول مرة ،وإليه ترجعون » .. ومنها كذلك مشهد الحنق الواضح من المخدوعين على الخادعين : « وقال الذين كفروا : ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس ، نجعلهما تحت أقدامنا ، ليكونا من الأسفلين ! » . .

وهكذا تعرض حقائق العقيدة – فى السورة – فى هذا الحشد من المؤثرات العميقة . ولعل هذا الحشد المنوع من تلك المؤثرات يصف جو السورة ، ويصور طابعها ، ويرسم ظلالها . . والواقع أن القلب يجد أنه منذ مطلع السورة إلى ختامها أمام مؤثرات وإيقاعات تجول به

Marfat.com

Marfat.com

فى ملكوت السماوات والأرض ، وفى أغوار النفس ، وفى مصارع البشر ، وفى عالم القيامة ، وتوقع على أوتاره إيقاعات شتى كلها مؤثر عميق . .

* * *

ويجرى سياق السورة بموضوعاتها ومؤثراتها فى شوطين اثنين ، متماسكى الحلقات . .

الشوط الأول يبدأ بالآيات التى تتحدث عن تنزيل الكتاب وطبيعته وموقف المشركين منه . وتليها قصة خلق السماء والأرض . فقصة عاد وثمود . فمشهدهم فى الآخرة تشهد عليهم الأسماع والأبصار والجلود . ومن هنا يرتد إلى الحديث عنهم فى الدنيا وكيف ضلوا هذا الضلال ، فيذكر أن الله قيض لهم قرناء سوء من الجن والإنس . يزينون لهم مابين أيديهم وما خلفهم . ومن آثار هذا قولهم : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون . ثم موقفهم يوم القيامة حانقين على هؤلاء الذين خدعوهم من قرناء الجن والإنس ! وعلى الضفة الأخرى الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا . وهؤلاء تتنزل عليهم الملائكة ـ لاقرناء السوء ـ يطمئنونهم • ويبشرونهم ويعلنون ولايتهم لهم فى الدنيا والآخرة . ويلى هذا ماجاء عن الدعوة والداعية . . وبذلك ينتهى هذا الشوط .

• ويليه الشوط الثانى يتحدث عن آيات الله من الليل والنهار والشمس والقمر والملائكة العابدة ، والأرض الخاشعة ، والحياة التى تهتز فيها وتربو بعد الموات . ويلى هذا الحديث عن الذين يلحدون فى آيات الله وفى كتابه ، وهنا يجىء ذلك الحديث عن هذا الكتاب . ويشار إلى كتاب موسى واختلاف قومه فيه . ويوكل أمرهم إلى الله بعد الأجل المضروب . وهنا يرد حديث عن الساعة واختصاص علم الله بها . وعلمه بما تكنه الأكمام من ثمرات ، وما تكنه الأرحام من أنسال . ويعرض مشهد الكافرين وهم يسألون عن الشركاء . يلى هذا الحديث عن النفس البشرية عارية من أستارها . ومع حرص الإنسان على نفسه هكذا فإنه لا يحتاط لها فيكذب ويكفر ، غير محتاط لما يعقب هذا التكذيب من دمار وعذاب .

وتختم السورة بوعد من الله أن يكشف للناس عن آياته فى الأنفس والآفاق حتى يتبينوا ويثقوا : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد . ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم . ألا إنه بكل شىء محيط » . .

وتختم السورة بهذا الإيقاع الأخير . .

والآن نبدأ فى التفصيل . . .

* * *

« حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون . وقالوا : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب . فاعمل إننا عاملون . قل إنما أنا بشر مثلكم ، يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ، فاستقيموا إليه واستغفروه ؛ وويل للمشركين ، الذين لا يؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم كافرون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون » . .

سبق الحديث عن الافتتاح بالأحرف المقطعة فى سور شتى . وتكرار هذا الافتتاح : «حا. ميم » . . يتمشى مع طريقه القرآن فى تكرار الإشارة إلى الحقائق التى يلمس بها القلب البشرى ، لأن فطرة هذا القلب تحتاج إلى تكرار التنبيه ؛ فهو ينسى إذا طال عليه الأمد ؛ وهو يحتاج ابتداء إلى التكرار بطرق شتى لتثبيت أية حقيقة شعورية فيه . والقرآن يأخذ هذا القلب بما أودع فى فطرته من خصائص واستعدادات ، وفق مايعلم خالق هذا القلب ومصرفه بما يشاء .

« تنزيل من الرحمن الرحيم » . . وكأن « حا . ميم » اسم للسورة . أو لجنس القرآن . إذ أنها من جنس الأحرف التى صيغ منها لفظ هذا القرآن . وهى تقع مبتدأ .. و « تنزيل من الرحمن الرحيم » خبر المبتدأ .

وذكر الرحمان الرحيم عند ذكر تنزيل الكتاب ؛ يشير إلى الصفة الغالبة فى هذا التنزيل. صفة الرحمة . ومامن شك أن تنزيل هذا الكتاب جاء رحمة للعالمين . رحمة لمن آمنوا به واتبعوه . ورحمة كذلك لغيرهم . لامن الناس وحدهم ، ولكن للأحياء جميعا . فقد سن منهجا ورسم خطة تقوم على الخير للجميع . وأثر فى حياة البشرية ، وتصوراتها ، ومدركاتها ، وخط سيرها ؛ ولم يقتصر فى هذا على المؤمنين به إنما كان تأثيره عالميا ومطردا منذ أن جاء إلى العالمين. والذين يتتبعون التاريخ البشرى بإنصاف ودقة ؛ ويتتبعونه فى معناه الإنسانى العام ، الشامل لجميع أوجه النشاط الإنسانى ، يدركون هذه الحقيقة ، ويطمئنون إليها . وكثيرون منهم قد سجلوا هذا واعترفوا به فى وضوح .

« كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » . .

Marfat.com

والتفصيل المحكم ، وفق الأغراض والأهداف ، ووفق أنواع الطبائع والعقول ، ووفق البيئات والعصور ، ووفق الحالات النفسية وحاجاتها المتنوعة .. التفصيل المحكم وفق هذه الاعتبارات سمة واضحة فى هذا الكتاب . وقد فصلت هذه الآيات وفق تلك الاعتبارات .

فصلت قرآنا عربيا « لقوم يعلمون » .. لديهم الاستعداد للعلم والمعرفة والتمييز .

وقام هذا القرآن يؤدى وظيفته :

« بشيرا ونذيرا » ..

يبشر المؤمنين العاملين ، وينذر المكذبين المسيئين، ويبين أسباب البشرى وأسباب الإنذار ، بأسلوبه العربى المبين . لقوم لغتهم العربية . ولكن أكثرهم مع هذا لم يقبل ويستجب :

« فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون »

وقد كانوا يعرضون فلايسمعون فعلا ، ويتحامون أن يعرضوا قلوبهم لتأثير هذا القرآن القاهر . وكانوا يحضون الجماهير على عدم السماع كما سيجىء قولهم : «لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » ..

وأحيانا كانوا يسمعون ، وكأنهم لايسمعون ، لأنهم يقاومون أثر هذا القرآن فى نفوسهم ؛ فكأنهم صم لايسمعون !

« وقالوا : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون » ..

قالوا هذا إمعانا فى العناد ،وتيئيسا للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليكف عن دعوتهم ، لما كانوا يجدونه فى قلوبهم من وقع كلماته ، على حين يريدون عامدين ألايكونوا مؤمنين !

قالوا : قلوبنا فى أغطية فلاتصل إليها كلماتك . وفى أذاننا صمم فلاتسمع دعوتك . ومن بيننا وبينك حجاب ، فلا اتصال بيننا وبينك . فدعنا واعمل لنفسك فإننا عاملون لأنفسنا . أوأنهم قالوا غير مبالين : نحن لانبالى قولك وفعلك، وإنذارك ووعيدك . فإذا شئت فامض فى طريقك فإنا ماضون فى طريقنا . لانسمع لك وافعل ما أنت فاعل . وهات وعيدك الذى تهددنا به فإننا غير مبالين .

هذا نموذج مما كان يلقاه صاحب الدعوة الأول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يمضى فى طريقه يدعو ويدعو ، لايكف عن الدعوة ، ولاييأس من التيئيس ،ولايستبطىء وعد الله له ولاوعيده

Marfat.com

للمكذبين . كان يمضى مأمورا أن يعلن لهم أن تحقق وعيد الله ليس بيده ؛ فما هو إلا بشر يتلقى الوحى ، فيبلغ به ، ويدعو الناس إلى الله الواحد . وإلى الاستقامة على الطريق ، وينذر المشركين كما أمر أن يفعل . والأمر بعد ذلك لله لايملك منه شيئا ، فهو ليس إلا بشرا مأمورا:

« قل: إنما أنا بشر مثلكم ، يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ؛ فاستقيموا إليه،واستغفروه ، وويل للمشركين » . .

يالعظمة الصبر والاحتمال والإيمان والتسليم ! إنه لايدرك مافى الصبر على هذه الحال،والتبرؤ من كل حول وقوة فى مثل هذا الموقف ، واحتمال الإعراض والتكذيب فى تبجح واستهتار ، دون استعجال الآية التى تردع المعرضين المكذبين المستهترين .. إنه لايدرك مافى الصبر على هذا الحال من مشقة، ومن عظمة فى احتمال هذه المشقة، إلا من يكابد طرفا من هذا الموقف فى واقع الحياة . ثم يمضى فى الطريق !

ومن أجل هذا الموقف وأمثاله كان التوجيه إلى الصبر كثير الورود للأنبياء والرسل . فطريق الدعوة هو طريق الصبر . الصبر الطويل . وأول مايستوجب الصبر تلك الرغبة الملحة فى انتصار الدعوة ، ثم إبطاء النصر . بل إبطاء أماراته . ثم ضرورة التسليم لهذا والرضى به والقبول !

إن أقصى ما كان الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يؤمر به فى مقابلة التبجح والاستهتار أن يقول :

« وويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون » . . .

وتخصيص الزكاة فى هذا الموضع لابد كانت له مناسبة حاضرة ، لم نقف عليها ، فهذه الآية مكية . والزكاة لم تفرض إلا فى السنة الثانية من الهجرة فى المدينة . وإن كان أصل الزكاة كان معروفا فى مكة . والذى جد فى المدينة هو بيان أنصبتها فى المال ، وتحصيلها كفريضة معينة . أما فى مكة فقد كانت أمرا عاما يتطوع به المتطوعون،غير محدود،وأداؤه موكول إلى الضمير.. أما الكفر بالآخرة فهو عين الكفر الذى يستحق الويل والثبور .

وقد ذكر بعضهم أن المقصود بالزكاة هنا الإيمان والطهارة من الشرك . وهو محتمل كذلك فى مثل هذه الظروف .

***

Marfat.com

Marfat.com

ثم يمضى الداعية يكشف لهم عن شناعة الجرم الذى يرتكبونه بالشرك والكفر . يمضى بهم فى المجال الكونى العريض . مجال السماوات والأرض ، والكون الذى هم بالقياس إليه شئ ضئيل هزيل . يمضى بهم فى هذا المجال ليكشف لهم عن سلطان الله الذى يكفرون به فى فطرة هذا الكون الذى هم جزء منه . ثم ليخرجهم من الزاوية الضيقة الصغيرة التى ينظرون منها إلى هذه الدعوة ، حيث يرون أنفسهم وذواتهم كبيرة كبيرة ؛ ويشغلهم النظر إليها وإلى اختيار محمد — صلى الله عليه وسلم — من دونهم . والحرص على مكانتهم ومصالحهم .. إلى آخر هذه الاعتبارات الصغيرة .. يشغلهم هذا عن النظر إلى الحقيقة الضخمة التى جاءهم بها محمد ، وفصلها هذا القرآن . الحقيقة التى تتصل بالسماوات والأرض ؛ وتتصل بالبشرية كلها فى جميع أعصارها ؛ وتتصل بالحق الكبير الذى يتجاوز زمانهم ومكانهم وشخوصهم ؛ وتتصل بالكون كله فى الصميم :

« قل : أإنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ، وتجعلون له أندادا ؟ ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض : ائتيا طوعا أو كرها . قالتا : أتينا طائعين. فقضاهن سبع سماوات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا . ذلك تقدير العزيز العليم » ..

قل لهم : إنكم إذ تكفرون . إذ تلقون بهذه الكلمة الكبيرة فى استهتار . إنما تأتون أمرا عظيما ، مستنكرا قبيحا ، إنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض وجعل فيها رواسى من فوقها . وبارك فيها . وقدر فيها أقواتها . والذى خلق السماوات ونظم أمرها . وزين السماء الدنيا بمصابيح وحفظا . والذى أسلمت له السماء والأرض قيادهما طائعتين مستسلمتين .. وأنتم .. أنتم بعض سكان هذه الأرض تأبون وتستكبرون !

ولكن النسق القرآنى يعرض هذه الحقائق بطريقة القرآن التى تبلغ أعماق القلوب وتهزها هزا . فلنحاول أن نسير مع هذا النسق بالترتيب والتفصيل :

« قل : أإنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ، وتجعلون له أندادا . ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين » ..

Marfat.com

إنه يذكر حقيقة خلق الأرض فى يومين . ثم يعقب عليها قبل عرض بقية قصة الأرض . يعقب على الحلقة الأولى من قصة الأرض . « ذلك رب العالمين » ..وأنتم تكفرون به وتجعلون له أندادا . وهو خلق هذه الأرض التى أنتم عليها . فأى تبجح وأى استهتار وأى فعل قبيح ؟!

وما هذه الأيام : الاثنان اللذان خلق فيهما الأرض . والاثنان اللذان جعل فيهما الرواسى وقدر فيهما الأقوات ، وأحل فيهما البركة . فتمت بهما الأيام الأربعة ؟

إنها بلا شك أيام من أيام الله التى يعلم هو مداها . وليست من أيام هذه الأرض . فأيام هذه الأرض إنما هى مقياس زمنى مستحدث بعد ميلاد الأرض . وكما للأرض أيام ، هى مواعيد دورتها حول نفسها أمام الشمس ، فللكواكب الأخرى أيام ، وللنجوم أيام . وهى غير أيام الأرض . بعضها أقصر من أيام الأرض وبعضها أطول .

والأيام التى خلقت فيها الأرض أولا ، ثم تكونت فيها الجبال ، وقدرت فيها الأقوات ،هى أيام أخرى مقيسة بمقياس آخر ، لانعلمه ، ولكننا نعرف أنه أطول بكثير من أيام الأرض المعروفة .

وأقرب مانستطيع تصوره وفق ماوصل إليه علمنا البشرى أنها هى الأزمان التى مرت بها الأرض طورا بعد طور ، حتى استقرت وصلبت قشرتها وأصبحت صالحة للحياة التى نعلمها . وهذه قد استغرقت ــ فيما تقول النظريات التى بين أيدينا ــ نحو ألفى مليون سنة من سنوات أرضنا !

وهذه مجرد تقديرات علمية مستندة إلى دراسة الصخور وتقدير عمر الأرض بوساطتها . ونحن فى دراسة القرآن لانلجأ إلى تلك التقديرات على أنها حقائق نهائية . فهى فى أصلها ليست كذلك . وإن هى إلا نظريات قابلة للتعديل . فنحن لانحمل القرآن عليها ؛ إنما نجد أنها قد تكون صحيحة إذا رأينا بينها وبين النص القرآنى تقاربا ، ووجدنا أنها تصلح تفسيرا للنص القرآنى بغير تمحل . فنأخذ من هذا أن هذه النظرية أوتلك أقرب إلى الصحة لأنها أقرب إلى مدلول النص القرآنى .

والراجح الآن فى أقوال العلم أن الأرض كانت كرة ملتهبة فى حالة غازية كالشمس الآن ــ والأرجح أنها قطعة من الشمس انفصلت عنها لسبب غير متفق على تقديره ــ وأنها استغرقت

Marfat.com

أزمانا طويلة حتى بردت قشرتها وصلبت . وأن جوفها لايزال فى حالة انصهار لشدة الحرارة حيث تنصهر أقسى الصخور .

ولما بردت القشرة الأرضية جمدت وصلبت . وكانت فى أول الأمر صخرية صلبة . طبقات من الصخر بعضها فوق بعض .

وفى وقت مبكر جدا تكونت البحار من اتحاد الإيدروجين بنسبة ٢ والأكسجين بنسبة ١ ومن اتحادهما ينشأ الماء .

« والهواء والماء على أرضنا هذه قد تعاونا على تفتيت الصخر وتشتيته ، وحمله وترسيبه ، حتى كانت من ذلك تربة أمكن فيها الزرع . وتعاونا على نحر الجبال والنجاد ، وملء الوهاد ، فلاتكاد تجد فى شىء كان على الأرض أوهو كائن إلاأثر الهدم وأثر البناء »(١) .

« إن هذه القشرة الأرضية فى حركة دائمة ، وفى تغير دائم ، يهتز البحر بالموج فيؤثر فيها ، ويتبخر ماء البحر . تبخره الشمس ، فيصعد إلى السماء فيكون سحبا تمطر الماء عذبا ، فينزل على الأرض متدفقا ، فتكون السيول ، وتكون الأنهار ، تجرى فى هذه القشرة الأرضية فتؤثر فيها . تؤثر فى صخره فتحله فتبدل فيه من صخر صخرا . (أى تحوله إلى نوع آخر من الصخور) وهى من بعد ذلك تحمله وتنقله . ويتبدل وجه الأرض على القرون ، ومئات القرون وآلافها . وتعمل الثلوج الجامدة بوجه الأرض مايفعله الماء السائل . وتفعل الرياح بوجه الأرض مايفعل الماء. وتفعل الشمس بوجه الأرض مايفعله الماء والريح ، بما تطلق على هذا الوجه من نار ومن نور .والأحياء على الأرض تغير من وجهها كذلك . ويغير فيها ماينبثق فيها من جوف الأرض من براكين .

«وتسأل عالم الأرض ــ العالم الجيولوجى ، عن صخورهذه القشرة فيعدد لك من صخورها الشىء الكثير ، ويأخذ يحدثك عن أنواعها الثلاثة الكبرى .

« يحدثك عن الصخور النارية . تلك التى خرجت من جوف الأرض إلى ظهرها صخرا منصهرا . ثم برد . ويضرب لك منها مثلا بالجرانيت والبازلت . ويأتيك بعينة منها يشير لك فيها إلى مااحتوته من بلورات . بيضاء وحمراء أوسوداء ، ويقول لك : إن كل بلورة من هذه تدل على مركب كماوى ، له كيان بذاته . فهذه الصخور أخلاط . ويلفت فكرك إلى أنه من هذه الصخور النارية ومن أشباهها تكونت قشرة هذه الأرض عندما تمت الأرض تكونا

(١) عن كتاب « مع الله فى السماء » للدكتور أحمد زكى .

فى القديم الأقدم من الزمان . ثم قام يفعل فيها الماء ، هابطا من السماء أوجاريا فى الأرض ، أوجامدا فى الثلج ، وقام يفعل الهواء ويفعل الريح .. وقامت تفعل الشمس . قامت جميعها تغير من هذه الصخور . من طبيعتها ومن كيميائها . فولدت منها صخورا غير تلك الصخور حتى ما يكاد يجمعها فى منظر أو مخبر شيء .

« وينتقل بك الجيولوجى إلى الصنف الأكبر الثانى من الصخور. إلى الصخور التى أسموها بالمترسبة أوالراسبة ، وهى تلك الصخور التى اشتقت ، بفعل الماء والريح والشمس ، أوبفعل الأحياء من صخور أكثر فى الأرض أصالة وأعقد . وأسموها راسبة لأنها لاتوجد فى مواضعها الأولى . إنها حملت من بعد اشتقاق من صخورها الأولى ، أو وهى فى سبيل اشتقاق . حملها الماء أوحملتها الريح ، ثم هبطت ورسبت واستقرت حيث هى من الأرض .

« ويضرب لك الجيولوجى مثلا للصخور الراسبة بالحجر الجيرى الذى يتألف منه جبل كجبل المقطم ، ومن حجره تبنى القاهرة بيوتها . ويقول لك : إنه مركب كيماوى يعرف بكربونات الكلسيوم ، وإنه اشتق فى الأرض من عمل الأحياء أوعمل الكيمياء . ويضرب لك مثلا ، بالرمل ، ويقول لك : إن أكثره أكسيد السيلسيوم ، وإنه مشتق كذلك ، ومثلا آخر بالطفل والصلصال ، وكلها من أصول سابقة .

« وتسأل عن هذه الأصول السابقة التى منها اشتقت تلك الصخور الراسبة ، على اختلافها ، فتعلم أنها الصخور النارية. بدأت الأرض عندما انجمد سطحها من بعد انصهار ، فى قديم الأزل ، ولاشيء على هذا السطح المنجمد غير الصخر النارى . ثم جاء الماء ، وجاءت البحار ، وتفاعل الصخر النارى والماء . وشركها الهواء . شركها غازات متفاعلة ، وشركها رياحا عاصفة ، وشركتها الشمس ناراونورا . وتفاعلت كل هذه العوامل جميعا . وفقا لما أودع فيها من طبائع. فغيرت من صخر نارى صلد غير نافع ، إلى صخر نافع . صخر ينفع فى بناء المساكن ، وصخر ينفع فى استخراج المعادن . وأهم من هذا ، وأخطر من هذا ، أنها استخرجت من هذا الصخر النارى الصلد ، الذى لاينفع لحياة تقوم عليه ، استخرجت تربة ، رسبت على سطح الأرض ، مهدت لقدوم الأحياء والخلائق .

« إن الجرانيت لاينفع لحرث أوزرع أوسقيا ، ولكن تنفع تربة هشة لينة خرجت منه

Marfat.com

ومن أشباه له . وبظهور هذه التربة ظهر النبات ، وبظهور النبات ظهر الحيوان . وتمهدت الأرض لقيام رأس الخلائق على هذه الأرض . ذلك الإنسان . . . »[1] .

هذه الرحلة الطويلة كما يقدرها العلم الحديث ، قد تساعدنا على فهم معنى الأيام فى خلق الأرض وجعل الرواسى فوقها ، والباركة فيها ، وتقدير أقواتها فى أربعة أيام .. من أيام الله.. التى لانعرف ماهى ؟ ماطولها ؟ ولكننا نعرف أنها غير أيام هذه الأرض حتما ..

ونقف لحظة أمام كل فقرة من النص القرآنى قبل أن نغادر الأرض إلى السماء !

« وجعل فيها رواسى من فوقها » . . وكثيرا مايرد تسمية الجبال « رواسى » وفى بعض المواضع يعلل وجود هذه الرواسى « أن تميد بكم » أى إنها هى راسية ، وهى ترسى الأرض ، وتحفظ توازنها فلا تميد . . ولقد غبر زمان كان الناس يحسبون أن أرضهم هذه ثابتة راسخة على قواعد متينة ! ثم جاء زمان يقال لهم فيه الآن : إن أرضكم هذه إن هى إلا كرة صغيرة سابحة فى فضاء مطلق ، لاتستند إلى شىء . . ولعلهم يفزعون حين يقال لهم هذا الكلام أول مرة أو لعل منهم من ينظر بوجل عن يمينه وعن شماله خيفة أن تتأرجح به هذه الأرض أو تسقط فى أعماق الفضاء ! فليطمئن . فإن يد الله تمسكها أن تزول هى والسماء . ولئن زالتا إن أمسكها من أحد من بعده ! وليطمئن فإن النواميس التى تحكم هذا الكون متينة من صنع القوى العزيز !

ونعود إلى الجبال فنجد القرآن يقول إنها «رواسى» وأنها كذلك ترسى الأرض فلا تميد . ولعلها ــ كما قلنا فى موضع آخر من هذه الظلال ــ تحفظ التناسق بين القيمان فى المحيطات والمرتفعات فى الأرض فتتوازن فلا تميد .

وهذا عالم يقول :

« إن كل حدث يحدث فى الأرض ، فى سطحها أو فيما دون سطحها ، يكون من أثره انتقال مادة من مكان إلى مكان يؤثر فى سرعة دورانها . فليس المد والجزر هو العامل الوحيد فى ذلك . (أى فى بطء سرعة الأرض كما قال قبل هذه الفقرة) حتى ما تنقله الأنهار من مائها من ناحية فى الأرض إلى ناحية يؤثر فى سرعة الدوران . وما ينتقل من رياح يؤثر فى سرعة الدوران . وسقوط فى قاع البحار ، أو بروز فى سطح الأرض هنا أو هنا يؤثر فى سرعة

---

(1) كتاب « مع الله فى السماء » . .

Marfat.com

الدوران . . ومما يؤثر فى سرعة هذا الدوران أن تتمدد الأرض أو تنكمش بسبب ما . ولو انكماشا أو تمددا طفيفا لايزيد فى قطرها أو ينقص منه إلا بضع أقدام » (١)

فهذه الأرض الحساسة إلى هذا الحد ، لاعجب أن تكون الجبال الرواسى حافظة لتوازنها ومانعة : « أن تميد بكم » كما جاء فى القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا .

« وبارك فيها وقدر فيها أقواتها » .. وقد كانت هذه الفقرة تنقل إلى أذهان أسلافنا صورة الزرع النامى فى هذه الأرض وبعض ماخبأه الله فى جوف الأرض من معادن نافعة كالذهب والفضة والحديد ومالها . . فأما اليوم بعد ما كشف الله للإنسان أشياء كثيرة من بركته فى الأرض ومن أقواتها التى خزنها فيها على أزمان طويلة ، فإن مدلول هذه الفقرة يتضاعف فى أذهاننا . .

وقد رأينا كيف تعاونت عناصر الهواء فكونت الماء . وكيف تعاون الماء والهواء والشمس والرياح فكونت التربة الصالحة للزرع . وكيف تعاون الماء والشمس والرياح فكونت الأمطار أصل الماء العذب كله من أنهار ظاهرة وأنهار باطنة تظهر فى شكل ينابيع وعيون وآبار .. وهذه كلها من أسس البركة ومن أسس الأقوات .

وهناك الهواء . ومن الهواء أنفاسنا وأجسامنا ...

« إن الأرض كرة تلفها قشرة من صخر . وتلف أكثر الصخر طبقة من ماء . وتلف الصخر والماء جميعا طبقة من هواء . وهى طبقة من غاز سميكة . كالبحر ، لها أعماق . ونحن - بنى الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، نعيش فى هذه الأعماق ، هانئين بالذى فيها .

« فمن الهواء نستمد أنفاسنا ، من أكسجينه . ومن الهواء يبنى النبات جسمه ، من كربونه ، بل من أكسيد كربونه ، ذلك الذى يسميه الكيماويون ثانى أكسيد الكربون . يبنى النبات جسمه من أكسيد الفحم هذا . ونحن نأكل النبات . ونأكل الحيوان الذى يأكل النبات . ومن كليها نبنى أجسامنا . بقى من غازات الهواء النتروجين ، أى الأزوت ، فهذا لتخفيف الاكسيجين حتى لانحترق بأنفاسنا . وبقى بخار الماء وهذا لترطيب الهواء . وبقيت طائفة من غازات أخرى ، توجد فيه بمقادير قليلة هى - فى غير ترتيب - الأرجون ، والهليوم ،

(١) المرجع السابق

Marfat.com

Marfat.com

والنيون ، وغيرها . ثم الإدروجين . وهذه تخلفت ـ على الأكثر ـ فى الهواء من بقايا خلقة الأرض الأولى » (١) .

والمواد التى نأكلها والتى ننتفع بها فى حياتنا ـ والأقوات أوسع ممايؤكل فى البطون ـ كلها مركبات من العناصر الأصلية التى تحتويها الأرض فى جوفها أوفى جوها سواء . وعلى سبيل المثال هذا السكر ماهو ؟ إنه مركب من الكربون والايدروجين والاكسيجين . والماء علمنا تركيبه من الادروجين والاكسيجين .. وهكذا كل مانستخدمه من طعام أوشراب أولباس أوأداة . . إن هو إلامركب من بين عناصر هذه الأرض المودعة فيها ..

فهذا كله يشير إلى شىء من البركة وشىء من تقدير الأقوات . . فى أربعة أيام . . فقد تم هذا فى مراحل زمنية متطاولة . . هى أيام الله ، التى لا يعلم مقدارها إلا الله .

« ثم استوى إلى السماء وهى دخان . فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها . قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها . وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا . ذلك تقدير العزيز العليم » .

والاستواء هنا القصد . والقصدمن جانب الله تعالى هو توجه الإرادة.و«ثم» قد لاتكون للترتيب الزمنى ، ولكن للارتقاء المعنوى . والسماء فى الحس أرفع وأرقى .

« ثم استوى إلى السماء وهى دخان » .. إن هناك اعتقادا أنه قبل خلق النجوم كان هناك مايسمى السديم .وهذا السديم غاز . . دخان

« والسدم ـ من نيرة ومعتمة ـ ليس الذى بها من غاز وغبار إلا ماتبقى من خلق النجوم. إن نظرية الخلق تقول : إن المجرة كانت من غاز وغبار . ومن هذين تكونت بالتكثف النجوم . وبقيت لها بقية . ومن هذه البقية كانت السدم . ولا يزال من هذه البقية منتشرا فى هذه المجرة الواسعة مقدار من غاز وغبار ، يساوى ما تكونت منه النجوم . ولا تزال النجوم تجر منه بالجاذبية إليها . فهى تكنس السماء منه كنسا . ولكن الكناسين برغم أعدادهم الهائلة قليلون بالنسبة لما يراد كنسه من ساحات أكبر وأشد هولا » (٢)

---

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق

وهذا الكلام قد يكون صحيحا لأنه أقرب ما يكون إلى مدلول الحقيقة القرآنية : « ثم استوى إلى السماء وهى دخان » . . وإلى أن خلق السماوات تم فى زمن طويل . فى يومين من أيام الله .

ثم نقف أمام الحقيقة الهائلة :

« فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها . قالتا : أتينا طائعين » . .

إنها إيحاءة عجيبة إلى انقياد هذا الكون للناموس ، وإلى اتصال حقيقة هذا الكون بخالقه اتصال الطاعة والاستسلام لكلمته ومشيئته . فليس هنالك إذن إلا هذا الإنسان الذى يخضع للناموس كرها فى أغلب الأحيان . إنه خاضع حتما لهذا الناموس ، لا يملك أن يخرج عنه ، وهو ترس صغير جدا فى عجلة الكون الهائلة ؛ والقوانين الكونية الكلية تسرى عليه رضى أم كره . ولكنه هو وحده الذى لا ينقاد طائعا طاعة الأرض والسماء . إنما يحاول أن يتفلت ، وينحرف عن المجرى الهين اللين ؛ فيصطدم بالنواميس التى لابد أن تغلبه ــ وقد تحطمه وتسحقه ــ فيستسلم خاضعا غير طائع . إلا عباد الله الذين تصطلح قلوبهم وكيانهم وحركاتهم وتصوراتهم وإراداتهم ورغباتهم واتجاهاتهم . . تصطلح كلها مع النواميس الكلية ، فتأتى طائعة ، وتسير هينة لينة ، مع عجلة الكون الهائلة ، متجهة إلى ربها مع الموكب ، متصلة بكل ما فيه من قوى . . وحينئذ تصنع الأعاجيب ، وتأتى بالخوارق ، لأنها مصطلحة مع الناموس ، مستمدة من قوته الهائلة ، وهى منه وهو مشتمل عليها فى الطريق إلى الله « طائعين » . .

إننا نخضع كرها . فليتنا نخضع طوعا . ليتنا نلبى تلبية الأرض والسماء . فى رضى وفى فرح باللقاء مع روح الوجود الخاضعة المطيعة الملبية المستسلمة لله رب العالمين .

إننا نأتى أحيانا حركات مضحكة . . عجلة القدر تدور بطريقتها . وبسرعتها . ولوجهتها . وتدير الكون كله معها . وفق سنن ثابتة . . وتأتى نحن فنريد أن نسرع . أو أن نبطئ . نحن من بين هذا الموكب الضخم الهائل . نحن بما يطرؤ على نفوسنا ــ حين تنفك عن العجلة وتنحرف عن خط السير ــ من قلق واستعجال وأنانية وطمع ورغبة ورهبة . . ونظل نشرد هنا وهناك والموكب ماض . ونحتك بهذا الترس وذاك ونتألم . ونصطدم هنا وهناك ونتحطم . والعجلة ماضية فى سرعتها وبطريقتها إلى وجهتها . وتذهب قوانا وجهودنا كلها سدى . فأما حين تؤمن قلوبنا حقا ، وتستسلم لله حقا ، وتتصل بروح الوجود حقا . فإننا ــ حينئذ ــ نعرف دورنا على

Marfat.com

Marfat.com

حقيقته ؛ وننسق بين خطانا وخطوات القدر ؛ ونتحرك فى اللحظة المناسبة بالسرعة المناسبة ،فى المدى المناسب . نتحرك بقوة الوجود كله مستمدة من خالق الوجود . ونصنع أعمالا عظيمة فعلا . دون أن يدركنا الغرور . لأننا نعرف مصدر القوة التى صنعنا بها هذه الأعمال العظيمة . ونوقن أنها ليست قوتنا الذاتية . إنما هى كانت هكذا لأنها متصلة بالقوة العظمى .

ويالالرضى . ويالالسعادة . ويالالراحة . ويالالطمأنينة التى تغمر قلوبنا يومئذ فى رحلتنا القصيرة ، على هذا الكوكب الطائع الملبى ، السائر معنا فى رحلته الكبرى إلى ربه فى نهاية المطاف . .

ويالالسلام الذى يفيض فى أرواحنا ونحن نعيش فى كون صديق . كله مستسلم لربه ، ونحن معه مستسلمون . لا تشذ خطانا عن خطاه ، ولا يعادينا ولا نعاديه . لأننا منه . ولأننا معه فى الاتجاه :

« قالتا : أتينا طائعين » . . « فقضاهن سبع سماوات فى يومين » . . « وأوحى فى كل سماء أمرها » . .

واليومان قد يكونان هما اللذان تكونت فيهما النجوم من السدم . أو تم فيهما التكوين كما يعلمه الله . والوحى بالأمر فى كل سماء يشير إلى إطلاق النواميس العاملة فيها ، على هدى من الله وتوجيه ؛ أما ماهى السماء المقصودة فلا نملك تحديدا . فقد تكون درجة البعد سماء . وقد تكون المجرة الواحدة سماء . وقد تكون المجرات التى على أبعاد متفاوتة سماوات . . وقد يكون غير ذلك . مما تحتمله لفظة سماء وهو كثير .

« وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا » . .

والسماء الدنيا هى كذلك ليس لها مدلول واحد محدد . فقد تكون هى أقرب المجرات إلينا وهى المعروفة بسكة التبان والتى يبلغ قطرها مائة ألف مليون سنة ضوئية ! وقد يكون غيرها مما ينطبق عليه لفظ سماء . وفيه النجوم والكواكب المنيرة لنا كالمصابيح .

« وحفظا » . . من الشياطين . . كما يدل على هذا ماورد فى المواضع الأخرى من القرآن . . ولا نملك أن نقول عن الشياطين شيئا مفصلا . أكثر من الإشارات السريعة فى القرآن . فحسبنا هذا . .

Marfat.com

« ذلك تقدير العزيز العليم » . .

هل يقدر هذا كله ؟ ويمسك الوجود كله ، ويدبر الوجود كله . . إلا العزيز القوى القادر ؟ وإلا العليم الخبير بالموارد والمصادر ؟

***

فكيف - بعد هذه الجولة الكونية الهائلة - يكون موقف الذين يكفرون بالله ويجعلون له أندادا ؟ كيف . والسماء والأرض تقولان لربهما : « أتينا طائعين » وهذا النمل الصغير العاجز من البشر الذى يدب على الأرض يكفر بالله فى تبجح واستهتار ؟

وما يكون جزاء هذا التبجح وهذا الاستهتار ؟

« فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله . قالوا : لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ، فإنا بما أرسلتم به كافرون . فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق ، وقالوا : من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ؟ وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون . وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون . ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » . .

وهذا الإنذار المرهوب المخيف : « فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » يناسب شناعة الجرم وقبح الذنب ، وتبجح المشركين الذى حُكى فى مطلع السورة ، وشذوذ كفار البشر من موكب الوجود الكبير الذى عُرض قبل هذا الإنذار .

وقد روى ابن اسحاق قصة عن هذا الإنذار قال : حدثنى يزيد ابن زياد ، عن محمد ابن كعب القرظى ، قال : حدثت أن عتبة ابن ربيعة ، وكان سيدا ، قال يوما وهو جالس فى نادى قريش ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - جالس فى المسجد وحده : يامعشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ - وذلك حين أسلم حمزة - رضى الله عنه - ورأوا أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يزيدون ويكثرون - فقالوا : بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه . فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا ابن أخى . إنك منا حيث علمت من البسطة فى العشيرة

والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم . فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها . قال : فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « قل ياأبا الوليد أسمع » . قال : ياابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ؛ وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لانقطع أمرا دونك ؛ وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ؛ وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لاتستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء ، وبذلنا فيها أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .. أو كما قال .. حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يستمع منه قال : « أفرغت ياأبا الوليد ؟ » قال : نعم . قال : « فاستمع منى » . قال : أفعل . قال : « بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمان الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون » ثم مضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيها وهو يقرؤها عليه . فلما سمع عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره ، معتمدا عليهما ، يستمع منه حتى انتهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال : « قد سمعت ياأبا الوليد ماسمعت فأنت وذاك » فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ماوراءك ياأبا الوليد ؟ قال : ورائى أنى سمعت قولا والله ماسمعت مثله قط . والله ماهو بالسحر ، ولا بالشعر ، ولا بالكهانة . يامعشر قريش أطيعونى واجعلوها لى .. خلوا بين الرجل وبين ماهو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . قالوا . سحرك والله ياأبا الوليد بلسانه ! قال : هذا رأيى فاصنعوا مابدا لكم .

وقد روى البغوى فى تفسيره حديثا بسنده عن محمد ابن فضيل عن الأجلح - وهو ابن عبد الله الكندى الكوفى (قال ابن كثير : وقد ضُعف بعض الشىء) عن الزيال ابن حرملة عن جابر ابن عبد الله - رضى الله عنه - إلى قوله : « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » فأمسك عتبة على فيه . وناشده الرحم ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، واحتبس عنهم ... الخ ..

Marfat.com

ثم لما حدثوه فى هذا قال : « فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف . وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئا لم يكذب . فخشيت أن ينزل بكم العذاب » . .

فهذه صورة من وقع هذا الإنذار من فم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على قلب رجل لم يؤمن ! ولا نترك هذه الرواية قبل أن نقف وقفة قصيرة أمام صورة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأدب النفس الكبيرة وطمأنينة القلب المؤمن. وهو يستمع من عتبة إلى هذه الخواطر الصغيرة التى يعرضها عليه ، وقلبه مشغول بما هو أعظم ، حتى لتبدو هذه الخواطر مقززة تثير الاشمئزاز : ولكن الرسول -صلى الله عليه وسلم- يتلقاها حليما ، ويستمع كريما ، وهو مطمئن هادىء ودود . لا يعجل عتبة عن استكمال هذه الخواطر الصغيرة . حتى إذا انتهى قال فى هدوء وثبات وسماحة : « أفرغت ياأبا الوليد ؟ » . فيقول : نعم . فيقول : - صلى الله عليه وسلم «فاستمع منى» ولايفاجئه بالقول حتى يقول : أفعل. وعندئذ يتلو - صلى الله عليه وسلم - فى ثقة وفى طمأنينة وفى امتلاء روح قول ربه لاقوله : « بسم الله الرحمن الرحيم . حم . . . » . .

إنها صورة تلقى فى القلب المهابة . والثقة . والمودة . والاطمئنان . . ومن ثم كان يملك قلوب سامعيه . . الذين قد يقصدون إليه أول الأمر ساخرين أو حانقين !

صلى الله عليه وسلم . . وصدق الله العظيم : « الله أعلم حيث يجعل رسالة » . .

ونعود بعد هذه الوقفة القصيرة إلى النص القرآنى الكريم :

« فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . . . » . .

إنها جولة فى مصارع الغابرين ، بعد تلك الجولة فى ملكوت السماوات والأرض . جولة تهز القلوب المستكبرة برؤية مصارع المستكبرين :

« إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله » . .

الكلمة الواحدة التى جاء بها الرسل أجمعين . وقام عليها بنيان كل دين .

« قالوا : لو شاء ربنا لأنزل ملائكة . فإنا بما أرسلتم به كافرون » . .

وهى كذلك الشبهة المتكررة التى ووجه بها كل رسول . وما كان لرسول يخاطب البشر أن يكون إلا من البشر . يعرفهم ويعرفونه . ويجدون فيه قدوة واقعية ، ويعانى هو مايعانونه. ولكن عادا وثمودا أعلنوا كفرهم برسلهم ، لأنهم بشر لاملائكة كما كانوا يقترحون !

Marfat.com

Marfat.com

وإلى هنا أجمل مصير عاد وثمود . وهو واحد . إذ انتهى هؤلاء وهؤلاء إلى الأخذ بالصاعقة . ثم فصل قصة كل منهما بعض التفصيل :

« فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق . وقالوا : من أشد منا قوة ؟ » . .

إن الحق أن يخضع العباد لله ، وألا يستكبروا فى الأرض ، وهم من هم بالقياس إلى عظمة خلق الله . فكل استكبار فى الأرض فهو بغير الحق . استكبروا واغتروا « وقالوا : من أشد منا قوة ؟ » . .

وهو الشعور الكاذب الذى يحسه الطغاة . الشعور بأنه لم تعد هناك قوة تقف إلى قوتهم . وينسون :

« أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ؟ » . .

إنها بديهة أولية . . إن الذى خلقهم من الأصل أشد منهم قوة . لأنه هو الذى مكن لهم فى هذا القدر المحدود من القوة . ولكن الطغاة لا يذكرون :

« وكانوا بآياتنا يجحدون » . .

وبينما هم فى هذا المشهد يعرضون عضلاتهم ! ويتباهون بقوتهم . إذا المشهد التالى فى الآية التالية هو المصرع المناسب لهذا العجب المرذول :

« فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات . لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا » . .

إنها العاصفة الهوجاء المجتاحة الباردة فى أيام نحس عليهم . وإنه الخزى فى الحياة الدنيا . الخزى اللائق بالمستكبرين المتباهين المختالين على العباد . .

ذلك فى الدنيا . . وليسوا بمتروكين فى الآخرة :

« ولعذاب الآخرة أخزى . وهم لا ينصرون » . .

« وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » . .

ويظهر أن هذه إشارة إلى اهتدائهم بعد آية الناقة ، ثم ردتهم وكفرهم بعد ذلك . وإيثارهم العمى على الهدى . والضلال بعد الهدى عمى أشد العمى !

« فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون » . .

والهوان أنسب عاقبة . فليس هو العذاب فحسب ، وليس هو الهلاك فحسب . ولكنه كذلك الهوان جزاء على العمى بعد الإيمان .

« ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » . .

وتنتهي الجولة على مصرع عاد وثمود . والإنذار بهذا المصرع المخيف المرهوب. ويتكشف لهم سلطان الله الذي لا ترده قوة ولا يعصم منه حصن ، ولا يبقى على مستكبر مريد .

* * *

والآن وقد كشف لهم عن سلطان الله في فطرة الكون ؛ وسلطان الله في تاريخ البشر ، يطلعهم على سلطان الله في ذوات أنفسهم ، التي لا يملكون منها شيئا ، ولا يعصمون منها شيئا من سلطان الله . حتى سمعهم وأبصارهم وجلودهم تطيع الله وتعصيهم في الموقف المشهود، وتكون عليهم بعض الشهود :

« ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة ، وإليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون . فذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ، فأصبحتم من الخاسرين . فإن يصبروا فالنار مثوى لهم. وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين » . .

إنها المفاجأة الهائلة في الموقف العصيب . وسلطان الله الذي تطيعه جوارحهم وتستجيب . وهم يوصمون بأنهم أعداء الله . فما مصير أعداء الله ؟ إنهم يحشرون ويجمع أولهم على آخرهم وآخرهم على أولهم كالقطيع ! إلى أين ؟ إلى النار ! حتى إذا كانوا حيالها وقام الحساب ، إذا شهود عليهم لم يكونوا لهم في حساب . إن ألسنتهم معقودة لا تنطق ، وقد كانت تكذب وتفتري وتستهزئ . وإن أسماعهم وأبصارهم وجلودهم تخرج عليهم ، لتستجيب لربها طائعة مستسلمة ، تروي عنهم ما حسبوه سرا . فقد يستترون من الله . ويظنون أنه لا يراهم وهم يتخفون بنواياهم، ويتخفون بجرائمهم . ولم يكونوا ليستخفوا من أبصارهم وأسماعهم وجلودهم . وكيف وهي معهم ؟ بل كيف وهي أبعاضهم ؟ ! وهاهي ذي تفضح ما حسبوه مستورا عن الخلق أجمعين . وعن الله رب العالمين !

Marfat.com

بالمفاجأة بسلطان الله الخفى ، يغلبهم على أبعاضهم فتلبى وتستجيب !

« وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ؟ » ..

فإذا هى تجبهم بالحقيقة التى خفيت عليهم فى غير مواربة ولا مجاملة :

« قالوا : أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » ؟

أليس هو الذى جعل الألسنة هى الناطقة ؟ وإنه لقادر على أن يجعل سواها . وقد أنطق كل شىء فهو اليوم يتحدث وينطق ويبين .

« وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون » ..

فإليه المنشأ وإليه المصير ، ولامفر من قبضته فى الأول وفى الأخير .

وهذا ماأنكروه بالعقول . وهذا ما تقرره لهم الجلود !

وقد تكون بقية التعليق من حكاية أقوال أبعاضهم لهم . وقد تكون تعقيبا على الموقف العجيب :

« وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولاأبصاركم ولاجلودكم » ..

فما كان يخطر ببالكم أنها ستخرج عليكم ، وما كنتم بمستطيعين أن تستتروا منها لوأردتم!

« ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيرا مماتعملون » ..

وخدعكم هذا الظن الجاهل الأثيم وقادكم إلى الجحيم :

« فذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » ..

ثم يجىء التعقيب الأخير :

« فإن يصبروا فالنار مثوى لهم » ..

ياللسخرية ! فالصبر الآن صبر على النار ؛ وليس الصبر الذى يعقبه الفرج وحسن الجزاء . إنه الصبر الذى جزاؤه النار قرارا ومثوى يسوء فيه الثواء !

« وإن يستعتبوا فماهم من المعتبين » ..

فماعاد هناك عتاب ، وما عاد هناك متاب . وقد جرت العادة أن الذى يطلب العتاب يطلب

Marfat.com

من ورائه الصفح والرضى بعد إزالة أسباب الجفاء . فاليوم يغلق الباب فى وجه العتاب . لا الصفح والرضى الذى يعقب العتاب !

* * *

ثم يكشف لهم كذلك عن سلطان الله فى قلوبهم ، وهم بعد فى الأرض ، يستكبرون عن الإيمان بالله . فالله قد قيض لهم – بما اطلع على فساد قلوبهم – قرناء سوء من الجن ومن الأنس، يزينون لهم السوء ، وينتهون بهم إلى مواكب الذين كتب عليهم الخسران ، وحقت عليهم كلمة العذاب :

« وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم مابين أيديهم وماخلفهم ، وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ، إنهم كانوا خاسرين » . .

فلينظروا كيف هم فى قبضة الله الذى يستكبرون عن عبادته . وكيف أن قلوبهم التى بين جنوبهم تقودهم إلى العذاب والخسار .وقد قيض الله وأحضر قرناء يوسوسون لهم ، ويزينون لهم كل ماحولهم من السوء ، ويحسنون لهم أعمالهم فلايشعرون بمافيها من قبح . وأشدمايصيب الإنسان أن يفقد إحساسه بقبح فعله وانحرافه، وأن يرى كل شىء من شخصه حسنا ومن فعله! فهذه هى المهلكة وهذا هو المنحدر الذى ينتهى دائما بالبوار . وإذا هم فى قطيع السوء . فى الأمم التى حق عليها وعد الله من قبلهم من الجن والإنس . قطيع الخاسرين « إنهم كانوا خاسرين » . .

وكان من تزيين القرناء لهم دفعهم إلى محاربة هذا القرآن ، حين أحسوا بما فيه من سلطان:

« وقال الذين كفروا : لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » . .

كلمة كان يوصى بها الكبراء من قريش أنفسهم ويغرون بها الجماهير ؛ وقد عجزوا عن مغالبة أثر القرآن فى أنفسهم وفى نفوس الجماهير .

« لاتسمعوا لهذا القرآن » . . فهو كما كانوا يدعون يسحرهم ، ويغلب عقولهم ، ويفسد حياتهم . ويفرق بين الوالد وولده ، والزوج وزوجه . ولقد كان القرآن يفرق نعم ولكن بفرقان الله بين الإيمان والكفر ، والهدى والضلال . كان يستخلص القلوب له ، فلا تحفل بوشيجة غير وشيجته . . فكان هو الفرقان . .

« والغوا فيه لعلكم تغلبون » . .

Marfat.com

وهى مهاترة لا تليق . ولـكنه العجز عن المواجهة بالحجة والمقارعة بالبرهان ، ينتهى إلى المهاترة ، عند من يستـكبر على الإيمان .

ولقد كانوا يلغون بقصص اسفنديار ورستم كما فعل مالك ابن النضر ليصرف الناس عن القرآن . ويلغون بالصياح والهرج . ويلغون بالسجع والرجز . ولـكن هذا كله ذهب أدراج الرياح وغلب القرآن ، لأنه يحمل سر الغلب ، . إنه الحق . والحق غالب مهما جهد المبطلون !

وردا على قولتهم المنـكرة يجىء التهديد المناسب :

« فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ، ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون . ذلك جزاء أعداء الله النار ، لهم فيها دار الخلد ، جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون » ..

وسرعان مانجدهم فى النار .وسرعان مانشهد حنق المخدوعين ،الذين زين لهم قرناؤهم مابين أيديهم وماخلفهم ، وأغروهم بهذه المهلـكة التى انتهى إليها مطافهم :

« وقال الذين كفروا : ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس ،نجعلهما تحت أقدامنا ، ليكونا من الأسفلين » ..

إنه الحنق العنيف ، والتحرق على الانتقام : « نجعلهما تحت أقدامنا » .. « ليـكونا من الأسفلين » . وذلك بعد الموادة والمخادنة والوسوسة والتزيين !

* * *

هذه صلة . صلة الوسوسة والإغراء . وهناك صلة . صلة النصح والولاء . إنهم المؤمنون . الذين قالوا : ربنا الله ، ثم استقاموا على الطريق إليه بالإيمان والعمل الصالح . إن الله لايقيض لهؤلاء قرناء سوء من الجن والإنس ؛ إنما يكلف بهم ملائـكة يفيضون على قلوبهم الأمن والطمأنينة . ويبشرونهم بالجنة ، ويتولونهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة :

« إن الذين قالوا : ربنا الله . ثم استقاموا . تتنزل عليهم الملائـكة : ألاتخافوا ولاتحزنوا ، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . ولـكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولـكم فيها ماتدعون . نزلا من غفور رحيم » ..

والاستقامة على قولة : « ربنا الله » .. الاستقامة عليها بحقها وحقيقتها . الاستقامة عليها شعورا فى الضمير، وسلوكا فى الحياة .الاستقامة عليها والصبر على تكاليفها .. أمر ولاشك كبير .

Marfat.com

وعسير . ومن ثم يستحق عند الله هذا الإنعام الكبير .. صحبة الملائكة ، وولاءهم ، ومودتهم . هذه التي تبدو فيما حكاه الله عنهم . وهم يقولون لأوليائهم المؤمنين : لاتخافوا . لاتحزنوا . أبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة . ثم يصورون لهم الجنة التي يوعدون تصور الصديق لصديقه مايعلم أنه يسره علمه ورؤيته من حظه المرتقب : لكم فيها ماتشتهي أنفسكم ولكم فيها ماتدعون . ويزيدونها لهم جمالا وكرامة : نزلا من غفور رحيم . فهي من عند الله أنزلكم إياها بمغفرته ورحمته .. فأي نعيم بعد هذا النعيم ؟

***

ويختم هذا الشوط برسم صورة الداعية إلى الله ، ووصف روحه ولفظه ، وحديثه وأدبه . ويوجه إليها رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكل داعية من أمته . وكان قد بدأ السورة بوصف جفوة المدعوين وسوء أدبهم ، وتبجحهم النكير . ليقول للداعية : هذا هو منهجك مهما كانت الأمور :

« ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا . وقال : إنني من المسلمين ! ولاتستوي الحسنة ولاالسيئة . ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . ومايلقاها إلاالذين صبروا ، ومايلقاها إلاذو حظ عظيم . وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم » ..

إن النهوض بواجب الدعوة إلى الله ، في مواجهة التواءات النفس البشرية ، وجهلها ، واعتزازها بما ألفت ، واستكبارها أن يقال : إنها كانت على ضلالة ، وحرصها على شهواتها وعلى مصالحها ، وعلى مركزها الذي قد تهدده الدعوة إلى إله واحد ، كل البشر أمامه سواء ..

إن النهوض بواجب الدعوة في مواجهة هذه الظروف أمر شاق . ولكنه شأن عظيم :

« ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله ، وعمل صالحا ، وقال : إنني من المسلمين » ..

إن كلمة الدعوة حينئذ هي أحسن كلمة تقال في الأرض ، وتصعد في مقدمة الكلم الطيب إلى السماء . ولكن مع العمل الصالح الذي يصدق الكلمة ؛ ومع الاستسلام لله الذي تتوارى معه الذات . فتصبح الدعوة خالصة لله ليس للداعية فيها شأن إلا التبليغ .

ولاعلى الداعية بعد ذلك أن تتلقى كلمته بالإعراض ، أوبسوء الأدب ، أوبالتبجح في الإنكار . فهو إنما يتقدم بالحسنة . فهو في المقام الرفيع ؛ وغيره يتقدم بالسيئة . فهو في المكان الدون :

« ولا تستوي الحسنة ولاالسيئة » ..

وليس له أن يرد بالسيئة ، فإن الحسنة لايستوي أثرها ـ كما لاتستوي قيمتها ـ مع السيئة

Marfat.com

والصبر والتسامح ، والاستعلاء على رغبة النفس فى مقابلة الشر بالشر ، يرد النفوس الجامحة إلى الهدوء والثقة ، فتنقلب من الخصومة إلى الولاء ، ومن الجماح إلى اللين :

« ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » ..

وتصدق هذه القاعده فى الغالبية الغالبةمن الحالات . وينقلب الهياج إلى وداعة . والغضب إلى سكينة . والتبجح إلى حياء ؛ على كلمة طيبة ، ونبرة هادئة ، وبسمة حانية فى وجه هائج غاضب متبجح مفلوت الزمام !

ولو قوبل بمثل فعله ازداد هياجا وغضبا وتبجحا ومرودا . وخلع حياءه نهائيا ، وأفلت زمامه ، وأخذته العزة بالإثم .

غير أن تلك السماحة تحتاج إلى قلب كبير يعطف ويسمح وهو قادر على الإساءة والرد . وهذه القدرة ضرورية لتؤتى السماحة أثرها . حتى لا يصور الإحسان فى نفس المسىء ضعفا . ولئن أحس أنه ضعف لم يحترمه ، ولم يكن للحسنة أثرها إطلاقا .

وهذه السماحة كذلك قاصرة على حالات الإساءة الشخصية . لا العدوان على العقيدة وفتنة المؤمنين عنها . فأما فى هذا فهو الدفع والمقاومة بكل صورة من صورها . أو الصبر حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

وهذه الدرجة،درجة دفع السيئة بالحسنة، والسماحة التى تستعلى على دفعات الغيظ والغضب ، والتوازن الذى يعرف متى تكون السماحة ومتى يكون الدفع بالحسنى . درجة عظيمة لايلقاها كل إنسان . فهى فى حاجة إلى الصبر . وهى كذلك حظ موهوب يتفضل به الله على عباده الذين يحاولون فيستحقون :

« وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » ..

إنها درجة عالية إلى حد أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو الذى لم يغضب لنفسه قط ؛ وإذا غضب لله لم يقم لغضبه أحد . قيل له ـ وقيل لكل داعية فى شخصه ـ :

« وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنههو السميع العليم » ..

فالغضب قد ينزغ . وقد يلقى فى الروع قلة الصبر على الإساءة.أو ضيق الصدر عن السماحة . فالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم حينئذ وقاية ، تدفع محاولاته ، لاستغلال الغضب ، والنفاذ من ثغرته .

إن خالق هذا القلب البشرى ، الذى يعرف مداخله ومساربه ، ويعرف طاقته واستعداده ، ويعرف من أين يدخل الشيطان إليه ، يحوط قلبالداعية إلى الله من نزغات الغضب . أونزغات الشيطان . مما يلقاه فى طريقه مما يثير غضب الحليم .

Marfat.com

إنه طريق شاق . طريق السير فى مسارب النفس ودروبها وأشواكها وشعابها ، حتى يبلغ الداعية منها موضع التوجيه ؛ ونقطة القياد ! ! !

« وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ، وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ، إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ٣٧ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ .

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

« إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا . أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ، وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ * مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ، إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا : لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ؟ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ؟ قُلْ : هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ .

« مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ * إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا ، وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ، وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ : أَيْنَ شُرَكَائِي ؟ قَالُوا : آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ * وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ ، وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ .

Marfat.com

« لَا يَسْأَمُ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ ٱلْخَيْرِ ، وَإِنْ مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ، لَيَقُولَنَّ : هَٰذَا لِي ، وَمَا أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَائِمَةً ، وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ . فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ .

« قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ! مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ؟

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ؟ * أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ، أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ » (٥٤)

هذا شوط جديد مع القلب البشرى فى مجال الدعوة . يبدأ بجولة مع آيات الله الكونية : الليل والنهار والشمس والقمر، وفى المشركين من كان يسجد للشمس وللقمر مع الله . وهما من خلق الله . ويعقب على عرض هذه الآيات بأنهم إن استكبروا عن عبادة الله فهناك من هم أقرب منهم إلى الله يعبدونه . ثم هناك الأرض كلها فى مقام العبادة وهى تتلقى من ربها الحياة ، كما تلقوها فلم يتحركوا بها إلى الله . إنهم يلحدون فى آيات الله الكونية ، ويجادلون فى آياته القرآنية ؛ وهو قرآن عربى غير مشوب بأعجمية . وينتقل بهم إلى مشهد من مشاهد القيامة . ثم يعرض عليهم أنفسهم عارية بكل مافيها من ضعف وتقلب ونسيان ، وبكل مافيها من حرص على الخير وجزع من الضر . ثم هم لايقون أنفسهم من شر مايصيبها عند الله . وتنتهى السورة بوعد الله سبحانه أن يكشف للناس عن آياته فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، ويذهب مافى قلوبهم من ريب وشك . .

* * *

« ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . لا تسجدوا للشمس ولا للقمر . واسجدوا لله الذى خلقهن . إن كنتم إياه تعبدون » . .

Marfat.com

وهذه الآيات معروضة للأنظار ، يراها العالم والجاهل . ولها فى القلب البشرى روعة مباشرة . ولو لم يعلم الإنسان شيئا عن حقيقتها العلمية . فبينها وبين الكائن البشرى صلة أعمق من المعرفة العلمية . بينها وبينه هذا الاتصال فى النشأة ، وفى الفطرة ، وفى التكوين . فهومنها وهى منه . تكوينه تكوينها ، ومادته مادتها ، وفطرته فطرتها ، وناموسه ناموسها ، وإلهه إلهها . . فهو من ثم يستقبلها بحسه العميق فى هزة وإدراك مباشر لمنطقها العريق !

لهذا يكتفى القرآن غالبا بتوجيه القلب إليها ، وإيقاظه من غفلته عنها ، هذه الغفلة التى ترد عليه من طول الألفة تارة ، ومن تراكم الحواجز والموانع عليه تارة . فيجلوها القرآن عنه ، لينتفض جديدا حيا يقظا يعاطف هذا الكون الصديق ، ويتجاوب معه بالمعرفة القديمة العميقة الجذور .

وصورة من صور الانحراف تلك التى تشير إليها الآية هنا . فقد كان قوم يبالغون فى الشعور بالشمس والقمر شعورا منحرفا ضالا فيعبدونهما باسم التقرب إلى الله بعبادة أبهى خلائقه ! فجاء القرآن ليردهم عن هذا الانحراف ؛ ويزيل الغبش عن عقيدتهم المدخولة . ويقول لهم : إن كنتم تعبدون الله حقا فلا تسجدوا للشمس والقمر . . « واسجدوا لله الذى خلقهن » فالخالق هو وحده الذى يتوجه إليه المخلوقون أجمعين . والشمس والقمر مثلكم يتوجهون إلى خالقهما فتوجهوا معهم إلى الخالق الواحد الذى يستحق أن تعبدوه . ويعيد الضمير عليهما مؤنثا مجموعا: « خلقهن » باعتبار جنسهما وأخواتهما من الكواكب والنجوم ؛ ويتحدث عنهن بضمير المؤنث العاقل ليخلع عليهن الحياة والعقل ، ويصورهن شخوصا ذات أعيان !

فإن استكبروا بعد عرض هذه الآيات ، وبعد هذا البيان ، فلن يقدم هذا أو يؤخر ؛ ولن يزيد هذا أو ينقص . فغيرهم يعبد غير مستكبر :

« فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار ، وهم لا يسأمون » . .

وأقرب ما يرد على القلب عند ذكر « الذين عند ربك » الملائكة . ولكن قد يكون هنالك غير الملائكة من عباد الله المقربين ؛ وهل نعلم نحن شيئا إلا اليسير الضئيل ؟ !

هؤلاء . الذين عند ربك . وهم أرفع وأعلى . وهم أكرم وأمثل . لا يستكبرون كما يستكبر أولئك المنحرفون الضالون فى الأرض . ولا يفترون بقرب مكانهم من الله . ولا يفترون عن تسبيحه ليلا ونهارا « وهم لا يسأمون » . . فماذا يساوى أن يتخلف من أهل الأرض من يتخلف فى حقيقة العبودية لله من الجميع ؟

وهنالك الأرض ــ أمهم التى تقوتهم ــ الأرض التى منها خرجوا وإليها يعودون . الأرض

Marfat.com

التى هم على سطحها نمال تدب ولا طعام لها ولا شراب إلا ما تستمده منها .. هذه الأرض تقف خاشعة لله ، وهى تتلقى من يديه الحياة :

« ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت . إن الذى أحياها لمحيي الموتى ، إنه على كل شىء قدير » . .

ونقف لحظة أمام دقة التعبير القرآنى فى كل موضع . فخشوع الأرض هنا هو سكونها قبل نزول الماء عليها . فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت . وكأنما هى حركة شكر وصلاة على أسباب الحياة . ذلك أن السياق الذى وردت فيه هذه الآية سياق خشوع وعبادة وتسبيح ، فجىء بالأرض فى هذا المشهد ، شخصا من شخوص المشهد ، تشارك فيه بالشعور المناسب وبالحركة المناسبة . .

ونستعير هنا صفحة من كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » عن التناسق الفنى فى مثل هذا التعبير (١) :

« عبر القرآن عن الأرض قبل نزول المطر . وقبل تفتحها بالنبات ، مرة بأنها «هامدة» ، ومرة بأنها «خاشعة» . وقد يفهم البعض أن هذا مجرد تنويع فى التعبير . فلننظر كيف وردت هاتان الصورتان :

« لقد وردتا فى سياقين مختلفين على هذا النحو :

« وردت « هامدة » فى هذا السياق : « يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث ، فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة . لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ؛ ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ؛ ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ، لكى لا يعلم من بعد علم شيئا . وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج » (٢) . .

ووردت « خاشعة » فى هذا السياق : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن ، إن كنتم إياه تعبدون . فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار ، وهم لا يسأمون . ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » .

«وعند التأمل السريع فى هذين السياقين ، يتبين وجه التناسق فى «هامدة» و«خاشعة» . إن الجو فى السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج ؛ فمما يتسق معه تصوير الأرض « هامدة »

---

(١) ص ٩٨–١٠٠ من الطبعة الرابعة (٢) سورة الحج [٥] .

Marfat.com

ثم تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج . وإن الجو فى السياق الثانى هو جو عبادة وخشوع وسجود ، يتسق معه تصوير الأرض « خاشعة » فإذا نزل عليها الماء اهتزت وربت .

« ثم لا يزيد على الاهتزاز والإرباء هنا ، الإنبات والإخراج ، كما زاد هناك ، لأنه لا محل لها فى جو العبادة والسجود . ولم تجىء « اهتزت وربت » هنا للغرض الذي جاءتا من أجله هناك . إنهما تخيلان حركة للأرض بعد خشوعها . وهذه الحركة هى المقصودة هنا ، لأن كل مافى المشهد يتحرك حركة العبادة ، فلم يكن من الناسب أن تبقى الأرض وحدها خاشعة ساكنة، فاهتزت لتشارك العابدين المتحركين فى المشهد حركتهم ، ولكى لا يبقى جزء من أجزاء المشهد ساكنا ، وكل الأجزاء تتحرك من حوله . وهذا لون من الدقة فى تناسق الحركة المتخيلة يسمو على كل تقدير » الخ . الخ .

ونعود إلى النص القرآنى فنجد أن التعقيب فى نهاية الآية يشير إلى إحياء الموتى ، ويتخذ من إحياء الأرض نموذجا ودليلا :

« إن الذى أحياها لمحي الموتى ، إنه على كل شىء قدير » ..

ويتكرر فى القرآن عرض مثل هذا المشهد واتخاذه نموذجا للإحياء فى الآخرة ،ودليلا كذلك على القدرة . ومشهد الحياة فى الأرض قريب من كل قلب ، لأنه يلمس القلوب قبل أن يلمس العقول ، والحياة حين تنبض من بين الموات ، توحى بالقدرة المنشئة إيحاء خفيا ينبض فى أعماق الشعور . والقرآن يخاطب الفطرة بلغتها من أقرب طريق .

* * *

وأمام مشهد هذه الآيات الكونية ذات الأثر الشعورى العميق يجىء التنديد والتهديد لمن يلحدون فى هذه الآيات الظاهرة الباهرة ؛ فيكفرون بها ، أويغالطون فيها :

« إن الذين يلحدون فى آياتنا لايخفون علينا . أفمن يلقى فى النار خير ؟ أم من يأتى آمنا يوم القيامة . اعملوا ماشئتم إنه بما تعملون بصير » .

ويبدأ التهديد ملفوفا ولكنه مخيف : « لايخفون علينا » .. فهم مكشوفون لعلم الله . وهم مأخوذون بما يلحدون ، مهما غالطوا والتووا ، وحسبوا أنهم مفلتون من يد الله كما قد يفلتون بالمغالطة من حساب الناس .

ثم يصرح بالتهديد : « أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة ؟ » . . وهو تعريض بهم ، وبما ينتظرهم من الإلقاء فى النار والخوف والفزع ، بالمقابلة إلى مجىء المؤمنين آمنين .

Marfat.com

وتنتهى الآية بتهديد آخر ملفوف : « اعملوا ماشئتم . إنه بما تعملون بصير » .. ويا خوف من يترك ليعمل فيلحد فى آيات الله . والله بما يعمل بصير .

* * *

ويستطرد إلى الذين يكفرون بآيات الله القرآنية ،والقرآن كتاب عزيز قوى منيع الجانب ، لايدخل عليه الباطل من قريب ولا من بعيد :

« إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ، وإنه لكتاب عزيز ، لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه . تنزيل من حكيم حميد . مايقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك ، إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم . ولوجعلناه قرآنا أعجميا لقالوا : لولا فصلت آياته ! أأعجمى وعربى ؟ قل : هو للذين آمنوا هدى وشفاء . والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد » .

والنص يتحدث عن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ؛ ولايذكر ماذا هم ولا ماذا سيقع لهم. فلا يذكر الخبر : « إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم . . . » كأنما ليقال : إن فعلتهم لايوجد وصف ينطبق عليها ويكافئها لشدة بشاعتها !

لذلك يترك النص خبر « إن » لايأتى به ويمضى فى وصف الذكر الذى كفروا به لتفظيع الفعلة وتبشيعها :

«وإنه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه . تنزيل من حكيم حميد»..

وأنى للباطل أن يدخل على هذا الكتاب . وهو صادر من الله الحق . يصدع بالحق . ويتصل بالحق الذى تقوم عليه السماوات والأرض ؟

وأنى يأتيه الباطل وهو عزيز . محفوظ بأمر الله الذى تكفل بحفظه فقال : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

والمتدبر لهذا القرآن يجد فيه ذلك الحق الذى نزل به ، والذى نزل ليقره . يجده فى روحه ويجده فى نصه . يجده فى بساطة ويسر . حقا مطمئنا فطريا ، يخاطب أعماق الفطرة ، ويطبعها ويؤثر فيها التأثير العجيب .

وهو « تنزيل من حكيم حميد » . والحكمة ظاهرة فى بنائه ، وفى توجيهه ، وفى طريقة نزوله ، وفى علاجه للقلب البشرى من أقصر طريق . والله الذى نزله خليق بالحمد . وفى القرآن ما يستجيش القلب لحمده الكثير .

ثم يربط السياق بين القرآن وسائر الوحى قبله ؛ وبين رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ

Marfat.com

Marfat.com

وسائر الرسل قبله . ويجمع أسرة النبوة كلها فى ندوة واحدة تتلقى من ربها حديثا واحدا ، ترتبط به أرواحها وقلوبها ، وتتصل به طريقها ودعوتها ؛ ويحس المسلم الأخير أنه فرع من شجرة وارفة عميقة الجذور ، وعضو من أسرة عريقة قديمة التاريخ :

« مايقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك . إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم » . .

إنه وحى واحد ، ورسالة واحدة ، وعقيدة واحدة . وإنه كذلك استقبال واحد من البشرية ، وتكذيب واحد ، واعتراضات واحدة . . ثم هى بعد ذلك وشيجةواحدة ، وشجرة واحدة ، وأسرة واحدة ، وآلام واحدة ، وتجارب واحدة ، وهدف فى نهاية الأمر واحد ، وطريق واصل ممدود .

أى شعور بالأنس ، والقوة ، والصبر ، والتصميم . توحيه هذه الحقيقة لأصحاب الدعوة ، السالكين فى طريق سار فيها من قبل نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم جميعا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ؟

وأى شعور بالكرامة والاعتزاز والاستعلاء على مصاعب الطريق وعثرتها وأشواكها وعقباتها ، وصاحب الدعوة يمضى وهو يشعر أن أسلافه فى هذا الطريق هم تلك العصبة المختارة من بنى البشر أجمعين ؟

إنها حقيقة : « مايقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك » . . ولكن أى آثار هائلة عميقة ينشئها استقرار هذه الحقيقة فى نفوس المؤمنين ؟

وهذا ما يصنعه هذا القرآن ، وهو يقرر مثل هذه الحقيقة الضخمة ويزرعها فى القلوب .

ومما قيل للرسل وقيل لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاتم الرسل :

« إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم » . .

ذلك كى تستقيم نفس المؤمن وتتوازن . فيطمع فى رحمة الله ومغفرته فلا ييأس منها أبدا . ويحذر عقاب الله ويخشاه فلا يغفل عنه أبدا .

إنه التوازن طابع الإسلام الأصيل .

ثم يذكرهم بنعمة الله عليهم أن جعل هذا القرآن عربيا بلسانهم ؛ كما يشير إلى طريقتهم فى العنت والإلحاد والجدل والتحريف :

« ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا : لولا فصلت آياته ! أأعجمى وعربى ؟ » . .

فهم لا يصغون إليه عربيا ، وهم يخافون منه لأنه عربى يخاطب فطرة العرب بلسانهم . فيقولون:لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون.ولو جعله الله قرآنا أعجميا لاعترضوا

عليه أيضا ، وقالوا لولا جاء عربيا فصيحا مفصلا دقيقا ! ولو جعل بعضه أعجميا وبعضه عربيا لاعترضوا كذلك وقالوا أأعجمى وعربى ؟ ! فهو المراء والجدل والإلحاد .

والحقيقة التى تخلص من وراء هذا الجدل حول الشكل ، هى أن هذا الكتاب هدى للمؤمنين وشفاء، فقلوب المؤمنين هى التى تدرك طبيعته وحقيقته، فتهتدى به وتشتفى . فأما الذين لايؤمنون فقلوبهم مطموسة لاتخالطها بشاشة هذا الكتاب ، فهو وقر فى آذانهم ، وعمى فى قلوبهم . وهم لايتبينون شيئا . لأنهم بعيدون جداً عن طبيعة هذا الكتاب وهواتفه :

« قل : هو للذين آمنوا هدى وشفاء ،والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى، أولئك ينادون من مكان بعيد » ..

ويجد الإنسان مصداق هذا القول فى كل زمان وفى كل بيئة . فناس يفعل هذا القرآن فى نفوسهم فينشئها إنشاء ، ويحييها إحياء ؛ ويصنع بها ومنها العظائم فى ذاتها وفيما حولها . وناس يثقل هذا القرآن على آذانهم وعلى قلوبهم ، ولايزيدهم إلا صمماً وعمى . وماتغير القرآن .ولكن تغيرت القلوب . وصدق الله العظيم .

* * *

ويشير إلى موسى وكتابه واختلاف قومه فى هذا الكتاب . يشير إليه نموذجا للرسل الذين ورد ذكرهم من قبل إجمالا .وقد أجل الله حكمه فى اختلافهم ، وسبقت كلمته أن يكون الفصل فى هذا كله فى يوم الفصل العظيم :

« ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ، وإنهم لفى شك منه مريب » ..

وكذلك سبقت كلمة ربك أن يدع الفصل فى قضية الرسالة الأخيرة إلى ذلك اليوم الموعود. وأن يدع الناس يعملون ، ثم يجازون على مايعملون :

« من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، وماربك بظلام للعبيد » ..

لقد جاءت هذه الرسالة تعلن رشد البشرية ، وتضع على كاهلها عبء الاختيار ؛ وتعلن مبدأ التبعة الفردية . ولمن شاء أن يختار « وما ربك بظلام للعبيد » (١)..

* * *

وبمناسبة الإشارة إلى الأجل المسمى ، وتقرير عدل الله فيه ، يقرر أن أمر الساعة وعلمها إلى الله وحده ، ويصور علم الله فى بعض مجالاته صورة موحية تمس أعماق القلوب . وذلك فى الطريق إلى عرض مشهد من مشاهد القيامة يسأل فيه المشركون ويجيبون :

(١) إلى هنا ينتهى الجزء الرابع والعشرون . ولكننا آثرنا أن نتابع السورة إلى ختامها القريب .

Marfat.com

« إليه يرد علم الساعة ، وما تخرج من ثمرات من أكمامها ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . ويوم يناديهم : أين شركائى ؟ قالوا : آذناك مامنا من شهيد . وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل ، وظنوا مالهم من محيص » . .

والساعة غيب غائر فى ضمير المجهول. والثمرات فى أكمامها سر غير منظور، والحمل فى الأرحام غيب كذلك مستور . وكلها فى علم الله ، وعلم الله بها محيط . ويذهب القلب يتتبع الثمرات فى أكمامها ، والأجنة فى أرحامها . يذهب فى جنبات الأرض كلها يرقب الأكمام التى لا تحصى : ويتصور الأجنة التى لايحصرها خيال ! وترتسم فى الضمير صورة لعلم الله بقدر ما يطيق الضمير البشرى أن يتصور من الحقيقة التى ليس لها حدود .

ويتصور القطيع الضال من البشر ، واقفا أمام هذا العلم الذى لايند عنه خاف ولا مستور :

« ويوم يناديهم : أين شركائى ؟ » . .

هنا فى هذا اليوم الذى لايجدى فيه جدال ، ولاتحريف للكلم ولا محال . فماذا هم قائلون؟

« قالوا : آذناك مامنا من شهيد ؟ » . .

أعلمناك ، أن ليس منا اليوم من يشهد أنك لك شريك !

« وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل ، وظنوا مالهم من محيص » . .

فما عادوا يعرفون شيئا عن دعواهم السابقة. ووقع فى نفوسهم أن ليس لهم مخرج مما هم فيه. وتلك أمارة الكرب المذهل ، الذى ينسى الإنسان ماضيه كله ؛ فلا يذكر إلا ماهو فيه .

* * *

ذلك هو اليوم الذى لايحتاطون له، ولايحترسون منه ، مع شدة حرص الإنسان على الخير، وجزعه من الضر . . وهنا يصور لهم نفوسهم عارية من كل رداء، مكشوفة من كل ستار، عاطلة من كل تمويه :

« لايسأم الإنسان من دعاء الخير، وإن مسه الشر فيؤوس قنوط . ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ، ليقولن : هذا لى ، وماأظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى . فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ، ولنذيقنهم من عذاب غليظ . وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض » . .

إنه رسم دقيق صادق للنفس البشرية ، التى لاتهتدى بهدى الله ، فتستقيم على طريق . . رسم يصور تقلبها ، وضعفها ، ومراءها ، وحبها للخير ، وجحودها للنعمة . واغترارها بالسراء ، وجزعها من الضراء . . رسم دقيق عجيب . .

Marfat.com

Marfat.com

هذا الإنسان لايسأم من دعاء الخير . فهوملح فيه ، مكرر له ، يطلب الخير لنفسه ولا يمل طلبه . وإن مسه الشر . مجرد مس . فقد الأمل والرجاء ؛ وظن أن لا مخرج له ولا فرج ، وتقطعت به الأسباب ؛ وضاق صدره وكبر همه ؛ ويئس من رحمة الله وقنط من رعايته . ذلك أن ثقته بربه قليلة ، ورباطه به ضعيف !

وهذا الإنسان إذا أذاقه الله منه رحمة بعد ذلك الضر ، استخفته النعمة فنسى الشكر ؛ واستطاره الرخاء فغفل عن مصدره . وقال : هذا لى . نلته باستحقاقى وهو دائم على ! ونسى الآخرة واستبعد أن تكون : « وما أظن الساعة قائمة » . . وانتفخ فى عين نفسه فراح يتألى على الله ، ويحسب لنفسه مقاما عنده ليس له ، وهو ينكر الآخرة فيكفر بالله . ومع هذا يظن أنه لورجع إليه كانت له وجاهته عنده ! « ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى » ! وهو غرور . . عندئذ يجىء التهديد فى موضعه لهذا الغرور :

« فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ، ولنذيقنهم من عذاب غليظ » . .

وهذا الإنسان إذا أنعم الله عليه : استعظم وطغى . وأعرض ونأى بجانبه . فأما إذامسه الشر فيتخاذل ويتهاوى ، ويصغر ويتضاءل ، ويتضرع ولا يمل الضراعة . فهو ذو دعاء عريض !

أية دقة ، وأى تسجيل للصغيرة فى نفس الإنسان والكبيرة ! إنه خالقه الذى يصفه . خالقه الذى يعرف دروب نفسه . ويعرف أنها تظل تدور فى هذه الدروب المنحنية ، إلا أن تهتدى إلى الطريق المستقيم . . فتستقيم . .

وأمام هذه النفس العارية من كل رداء ، المكشوفة من كل ستار ، يسألهم : فماذا أنتم إذن صانعون إن كان هذا الذى تكذبون به ، من عند الله ، وكان هذا الوعيد حقا ؛ وكنتم تعرضون أنفسكم لعاقبة التكذيب والشقاق :

« قل : أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به ؟ من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ؟ » . .

إنه احتمال يستحق الاحتياط . فماذا أخذوا لأنفسهم من وسائل الاحتياط ؟ !

* * *

ويدعهم بعدئذ يفكرون ويحسبون . ويتجه إلى الكون العريض . يكشف عن بعض ما قدر فيه — وفى ذوات أنفسهم — من مقادير :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟ ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم . ألا إنه بكل شىء محيط » . .

إنه الإيقاع الأخير . وإنه لإيقاع كبير . . .

Marfat.com

إنه وعد الله لعباده – بنى الإنسان – أن يطلعهم على شىء من خفايا هذا الكون ، ومن خفايا أنفسهم على السواء . وعدهم أن يريهم آياته فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق. هذا الدين. وهذا الكتاب . وهذا المنهج . وهذا القول الذى يقوله لهم . ومن أصدق من الله حديثا ؟

ولقد صدقهم الله وعده ؛ فكشف لهم عن آياته فى الآفاق فى خلال القرون الأربعة عشر التى تلت هذا الوعد؛ وكشف لهم عن آياته فى أنفسهم. وما يزال يكشف لهم فى كل يوم عن جديد.

وينظر الإنسان فيرى البشر قد كشفوا كثيرا جدا منذ ذلك الحين . قد تفتحت لهم الآفاق . وتفتحت لهم مغاليق النفوس بالقدر الذى شاءه الله .

لقد عرفوا أشياء كثيرة . لو أدركوا كيف عرفوها وشكروا لكان لهم فيها خير كثير . عرفوا منذ ذلك الحين أن أرضهم التى كانوا يظنونها مركز الكون .. إن هى إلا ذرة صغيرة تابعة للشمس . وعرفوا أن الشمس كرة صغيرة منها فى الكون مئات الملايين . وعرفوا طبيعة أرضهم وطبيعة شمسهم – وربما طبيعة كونهم ، إن صح ما عرفوه !

وعرفوا الكثير عن مادة هذا الكون الذى يعيشون فيه. إن صح أن هناك مادة . عرفوا أن أساس بناء هذا الكون هو الذرة . وعرفوا أن الذرة تتحول إلى إشعاع . وعرفوا إذن أن الكون كله من إشعاع . . فى صور شتى : هى التى تجعل منه هذه الأشكال والأحجام !

وعرفوا الكثير عن كوكبهم الأرضى الصغير . عرفوا أنه كرة أو كالكرة . وعرفوا أنه يدور حول نفسه وحول الشمس . وعرفوا قاراته ومحيطاته وأنهاره . وكشفوا عن شىء من باطنه . وعرفوا الكثير من المخبوء فى جوف هذا الكوكب من الأقوات . والمنثور فى جوه من هذه الأقوات أيضا !

وعرفوا وحدة النواميس التى تربط كوكبهم بالكون الكبير ، وتصرف هذا الكون الكبير. ومنهم من اهتدى فارتقى من معرفة النواميس إلى معرفة خالق النواميس . ومنهم من انحرف فوقف عن ظاهر العلم لايتعداه . ولكن البشرية بعد الضلال والشرود من جراء العلم ، قد أخذت عن طريق العلم تثوب ، وتعرف أنه الحق عن هذا الطريق .

ولم تكن فتوح العلم والمعرفة فى أغوار النفس بأقل منها فى جسم الكون . فقد عرفوا عن الجسم البشرى وتركيبه وخصائصه وأسراره الشىء الكثير . عرفوا عن تكوينه وتركيبه ووظائفه وأمراضه ، وغذائه وتمثيله ، وعرفوا عن أسرار عمله وحركته ، ما يكشف عن خوارق لا يصنعها إلا الله .

Marfat.com

وعرفوا عن النفس البشرية شيئا .. إنه لا يبلغ ما عرفوه عن الجسم . لأن العناية كانت متجهة بشدة إلى مادة هذا الإنسان وآلية جسمه أكثر مما كانت متجهة إلى عقله وروحه . ولكن أشياء قد عرفت تشير إلى فتوح ستجيء ..

وما يزال الإنسان في الطريق !

ووعد الله ما يزال قائما : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ..

والشطر الأخير من الوعد قد بانت طلائعه منذ مطلع هذا القرن بشكل ملحوظ . فموكب الإيمان يتجمع من فجاج شتى . وعن طريق العلم المادي وحده يفد كثيرون ! وهناك أفواج وأفواج تتجمع من بعيد . ذلك على الرغم من موجة الإلحاد الطاغية التي كادت تغمر هذا الكوكب في الماضي . ولكن هذه الموجة تنحسر الآن . تنحسر - على الرغم من جميع الظواهر المخالفة - وقد لا يتم تمام هذا القرن العشرين الذي نحن فيه ، حتى يتم انحسارها أو يكاد إن شاء الله . وحتى يحق وعد الله الذي لا بد أن يكون :

« أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟ » ..

وهو الذي أعطى وعده عن علم وعن شهود .

« ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم » ..

ومن ثم يقع ما يقع منهم ، بسبب هذا الشك في اللقاء . وهو أكيد .

« ألا إنه بكل شيء محيط » ..

فأين يذهبون عن لقائه وهو بكل شيء محيط ؟

تم الجزء الرابع والعشرون . ويليه الجزء الخامس والعشرون مبدوءا بسورة الشورى

في ظلال القرآن

الجزء الخامس والعشرون

بقلم

سيد قطب

Marfat.com

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة الشورى والزخرف والدخان والجاثية

سورة الشورى مكية
وآياتها ٥٣

بسم الله الرحمن الرحيم

« حم * عسق ۞ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم * له ما في السماوات وما في الأرض وهو العلي العظيم * تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن في الأرض ، ألا إن الله هو الغفور الرحيم * والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل .

« وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها ، وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق في الجنة وفريق في السعير * ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ، ولكن يدخل من يشاء في رحمته ، والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير * أم اتخذوا من دونه أولياء ؟ فالله هو الولي ، وهو يحيي الموتى ، وهو على كل شيء قدير .

« وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ، ذلكم الله ربي عليه توكلت ، وإليه أنيب * فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا ، يذرؤكم فيه ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير * له مقاليد السماوات والأرض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شيء عليم .

Marfat.com

« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى: أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ، وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ * وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ * فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ، وَقُلْ: آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ، اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ، اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ، وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ.

« اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ * يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ، أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ.

« اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا، وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ.

« أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ؟ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا، وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ، لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا

Marfat.com

وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ . قُلْ : لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ ، وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ .

« أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً ، فَإِنْ يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ، وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَاطِلَ ، وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ »﴿٢٤﴾

هذه السورة تعالج قضية العقيدة كسائر السور المكية ؛ ولكنها تركز بصفة خاصة على حقيقة الوحى والرسالة ، حتى ليصح أن يقال : إنها هى المحور الرئيسى الذى ترتبط به السورة كلها ؛ وتأتى سائر الموضوعات فيها تبعا لتلك الحقيقة الرئيسية فيها .

هذا مع أن السورة تتوسع فى الحديث عن حقيقة الوحدانية،وتعرضها من جوانب متعددة؛ كما أنها تتحدث عن حقيقة القيامة والإيمان بها ؛ ويأتى ذكر الآخرة ومشاهدها فى مواضع متعددة منها . وكذلك تتناول عرض صفات المؤمنين وأخلاقهم التى يمتازون بها . كما تلم بقضية الرزق : بسطه وقبضه ؛ وصفة الإنسان فى السراء والضراء .

ولكن حقيقة الوحى والرسالة ، وما يتصل بها ، تظل ــ مع ذلك ــ هى الحقيقة البارزة فى محيط السورة ، والتى تطبعها وتظللها . وكأن سائر الموضوعات الأخرى مسوقة لتقوية تلك الحقيقة الأولى وتوكيدها .

ويسير سياق السورة فى عرض تلك الحقيقة ، وما يصاحبها من موضوعات أخرى بطريقة تدعو إلى مزيد من التدبر والملاحظة . فهى تعرض من جوانب متعددة . يفترق بعضها عن بعض بضع آيات تتحدث عن وحدانية الخالق . أو وحدانية الرازق . أو وحدانية المتصرف فى القلوب . أو وحدانية المتصرف فى المصير . . ذلك بينما يتجه الحديث عن حقيقة الوحى والرسالة إلى تقرير وحدانية الوحى ــ سبحانه ــ ووحدة الوحى . ووحدة العقيدة . ووحدة النهج والطرق وأخيرا وحدة القيادة البشرية فى ظل العقيدة .

ومن ثم يرتسم فى النفس خط الوحدانية بارزا واضحا ، بشتى معانيه وشتى ظلاله وشتى إيحاءاته ، من وراء موضوعات السورة جميعا . . ونضرب بعض الأمثلة من السورة إجمالا ، قبل أن نأخذ فى التفصيل :

Marfat.com

تبدأ بالأحرف المقطعة : « حا . ميم . عين . سين . قاف » . . يليها : « كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » . . مقررا وحدة مصدر الوحى فى الأولين والآخرين : « إليك وإلى الذين من قبلك » . .

ثم يستطرد السياق فى صفة الله العزيز الحكيم : « له مافى السماوات ومافى الأرض وهو العلى العظيم » . . مقررا وحدانية المالك لما فى السماوات والأرض واستعلاءه وعظمته على وجه الانفراد .

ثم يستطرد استطرادا آخر فى وصف حال الكون تجاه قضية الإيمان بالمالك الواحد،وتجاه الشرك الذى يشذ به بعض الناس : « تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن فى الأرض ، ألا إن الله هو الغفور الرحيم ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ، الله حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل » . . فإذا الكون كله مشغول بقضية الإيمان والشرك حتى أن السماوات ليكدن يتفطرن من شذوذ بعض أهل الأرض، بينما الملائكة يستغفرون لمن فى الأرض جميعا من هذه الفعلة الشنعاء التى جاء بها بعض المنحرفين !

وبعد هذه الجولة يعود السياق إلى الحقيقة الأولى : « وكذلك أوحينا إليك ، قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها،وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه،فريق فى الجنة وفريق فى السعير».. ثم يستطرد مع « فريق فى الجنة وفريق فى السعير » . . فيقرر أن لوشاء الله لجعلهم أمة واحدة . ولكن مشيئته اقتضت ـ بماله من علم وحكمة ـ أن يدخل من يشاء فى رحمته« والظالمون مالهم من ولى ولا نصير » . . ويقرر أن الله وحده هو الولى « وهو يحيي الموتى وهو على كل شىء قدير » . .

ومن ثم يعود إلى الحقيقة الأولى ، حقيقة الوحى والرسالة ، فيقرر أن الحكم فيما يختلف فيه البشر من شىء هو الله الذى أنزل هذا القرآن ليرجع إليه الناس فى كل اختلاف : « وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله . ذلكم الله ربى عليه توكلت ، وإليه أنيب » . .

ويستطرد مع الربوبية إلى وحدانية الخالق ، وتفرد ذاته . ووحدانية التصرف فى مقادير السماوات والأرض ،وفى بسط الرزق وقبضه . وفى علمه بكل شىء : « فاطر السماوات والأرض، جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، ومن الأنعام أزواجا ، يذرؤكم فيه ، ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير . له مقاليد السماوات والأرض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شىء عليم » . .

ثم يعود إلى الحقيقة الأولى : « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا ، والذى أوحينا

Marfat.com

إليك، وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى: أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه. كبر على المشركين ماتدعوهم إليه . الله يجتبي إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب .وماتفرقوا إلا من بعدماجاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من قبلهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب ... الخ » ..

وعلى مثل هذاالنسق تمضى السورة فى عرض هذه الحقيقة ؛محوطة بمثل هذا الجو ، وهذه الاستطرادات المتعلقة بقضايا العقيدة الأخرى ، المثبتة فى الوقت ذاته للحقيقة الأولى التى تبدو كأنها موضوع السورة الرئيسى .

وهذا النسق واضح وضوحا كاملا فى هذا الدرس الأول من السورة . فالقارىء يلتقى بعد كل بضع آيات بحقيقة الوحى والرسالة فى جانب من جوانبها .

فأما الدرس الثانى ويؤلف بقية السورة ، فيبدأ باستعراض بعض آيات الله فى بسط الرزق وقبضه ؛ وفى تنزيل الغيث برحمته ؛ وفى خلق السماوات والأرض ومابث فيهما من دابة ؛ وفى الفلك الجوارى فى البحر كالأعلام . ويستطرد من هذه الآيات إلى صفة المؤمنين التى تفردهم وتميز جماعتهم . فإلى مشهد من مشاهد القيامة يعرض صورة الظالمين لما رأوا العذاب : « يقولون هل إلى مرد من سبيل ، وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى » .. واستعلاء المؤمنين يومئذ ووقوفهم موقف المقرر لحال الظالمين :

« وقال الذين آمنوا : إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم » .. وفى ظل هذا المشهد يدعو الناس إلى إنقاذ أنفسهم من مثل هذا الموقف قبل فوات الأوان : « استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله ، مالكم من ملجأ يومئذ ، ومالكم من نكير » ..

ومن ثم يعود إلى الحقيقة الأولى فى السورة . حقيقة الوحى والرسالة . فى جانب من جوانبها : « فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ ... » .

ويمضى سياق السورة حتى ختامها يدور حول هذا المحور مباشرة أوغير مباشرة ، مع طابع الاستطراد بين كل إشارة وإشارة إلى تلك الحقيقة ،حتى يكون ختام السورة هذا البيان فى شأن الوحى والرسالة: « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلاوحيا أومن وراء حجاب ، أويرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ، إنه على حكيم . وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى

Marfat.com

ماالكتاب ولا الإيمان ؛ ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له مافى السماوات ومافى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور » ..

***

وبعد فمن وراء التركيز على حقيقة الوحى والرسالة فى سياق السورة كله يبرز هدف خاص لعرضها على هذا النحو وفى هذا التتابع .

هذا الهدف هو تعيين القيادة الجديدة للبشرين ممثلة فى الرسالةالأخيرة ، ورسولها ،والأمة المسلمة التى تتبع نهجه الإلهى الثابت القويم .

وتبدأ أول إشارة مع مطلع السورة « كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » . . لتقرر أن الله هو الموحى بجميع الرسالات لجميع الرسل ، وأن الرسالة الأخيرة هى امتداد لأمر مقرر مطرد من قديم .

وتأتى الإشارة الثانية بعد قليل :« وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها » ..لتقرر مركز القيادة الجديدة التى سترد الإشارة إليها فيما بعد .

وفى الإشارة الثالثة يقرر وحدة الرسالة بعد ماقرر فى الإشارة الأولى وحدة المصدر : « شرع لكم من الدين ماوصى بهنوحا والذى أوحينا إليك وماوصينابه إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه » ..

وتستطرد هذه الإشارة إلى تقرير أن التفرق قد وقع ، مخالفا لهذه التوصية ، ولم يقع عن جهل من أتباع أولئك الرسل الكرام ولكن عن علم . وقع بغيا وظلما وحسدا :« وماتفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم » . .

ثم تستطرذ كذلك إلى بيانحال الذين جاءوا من بعد أولئك الذين اختلفوا : « وإنالذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب » ..

وعند هذا الحديثينأنالبشرية قدآلت إلىفوضى وارتياب ،ولم تعد لها قيادةراشدةتقومعلى نهج ثابت قويم .. فرسالة السماء التى تقود البشرية قد آلت إلى اختلاف بين أتباعها . والذين جاءوا من بعدهم تلقوها فى ريبة وفى شك لاتستقيم معهما قيادة راشدة .

ومن ثم يعلن انتداب الرسالة الأخيرة وحاملها ــ صلىاللهعليهوسلم ــ لهذهالقيادة : «فلذلك فادع واستقم كما أمرتولاتتبع أهواءهم . وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرتلأعدل بينكم . الله ربنا وربكم ... الخ » ..ومن ثم تجىء صفة الجماعة المؤمنة المميزة لها طبيعية فى سياق هذه السورة ــ فى الدرس الثانى ــ بوصفها الجماعة التى ستقوم على قيادة هذهالبشرية على ذلك النهج الثابت القويم .

Marfat.com

وعلى ضوء هذه الحقيقة يصبح سياق السورة وموضوعها الرئيسى والموضوعات الأخرى فيه واضحة القصد والاتجاه . وتتبع هذا السياق بالتفصيل يزيد هذا الأمر وضوحا . .

* * *

« حم . عسق . كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم . له ما فى السماوات وما فى الأرض ، وهو العلى العظيم . تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن فى الأرض . ألا إن الله هو الغفور الرحيم . والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل » . .

سبق الحديث عن الأحرف المقطعة فى أوائل السور بما فيه الكفاية . وهى تذكر هنا فى مطلع السورة ، ويليها قوله تعالى :

« كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » . .

أى مثل ذلك ، وعلى هذا النسق ، وبهذه الطريقة يكون الوحى إليك وإلى الذين من قبلك. فهو كلمات وألفاظ وعبارات مصوغة من الأحرف التى يعرفها الناس ويفهمونها ويدركون معانيها؛ ولكنهم لا يملكون أن يصوغوا مثلها مما بين أيديهم من أحرف يعرفونها .

ومن الناحية الأخرى تتقرر وحدة الوحى . وحدة مصدره فالموحى هو الله العزيز الحكيم. والموحى إليهم هم الرسل على مدار الزمان . والوحى واحد فى جوهره على اختلاف الرسل واختلاف الزمان : « إليك وإلى الذين من قبلك » . .

إنها قصة بعيدة البداية، ضاربة فى أطواء الزمان . وسلسلة كثيرة الحلقات ، متشابكة الحلقات. ومنهج ثابت الأصول على تعدد الفروع .

وهذه الحقيقة ــ على هذا النحو ــ حين تستقر فى ضمائر المؤمنين تشعرهم بأصالة ما هم عليه وثباته ، ووحدة مصدره وطريقه . وتشدهم إلى مصدر هذا الوحى : « الله العزيز الحكيم » . . كما تشعرهم بالقرابة بينهم وبين المؤمنين أتباع الوحى فى كل زمان ومكان ، فهذه أسرتهم تضرب فى بطون التاريخ ، وتمتد جذورها فى شعاب الزمن ؛ وتتصل كلها بالله فى النهاية ، فيلتقون فيه جميعا . وهو « العزيز » القوى القادر « الحكيم » الذى يوحى لمن يشاء بما يشاء وفق حكمة وتدبير . فأنى يصرفون عن هذا المنهج الإلهى الواحد الثابت إلى السبل المتفرقة التى لا تؤدى إلى الله ؛ ولا يعرف لها مصدر ، ولا تستقيم على اتجاه قاصد قويم ؟

ويستطرد فى صفة الله الذى يوحى وحده إلى الرسل جميعا ؛ فيقرر أنه المالك الوحيد لما فى السماوات ومافى الأرض ، وأنه وحده العلى العظيم :

« له مافى السماوات ومافى الأرض ، وهو العلى العظيم » . .

وكثيرا ما يُخدع البشر فيحسبون أنهم يملكون شيئا ، لمجرد أنهم يجدون أشياء فى أيديهم، مسخرة لهم ، ينتفعون بها ، ويستخدمونها . فيما يشاءون . ولكن هذا ليس ملكا حقيقيا . إنما الملك الحقيقى لله ؛ الذى يوجد ويعدم ، ويحيي ويميت ؛ ويملك أن يعطى البشر ما يشاء ، ويحرمهم ما يشاء ؛ وأن يذهب بما فى أيديهم من شىء ، وأن يضع فى أيديهم بدلا مما أذهب . . الملك الحقيقى لله الذى يحكم طبائع الأشياء ، ويصرفها وفق الناموس المختار ، فتلبى وتطيع وتتصرف وفق ذلك الناموس . وكل مافى السماوات ومافى الأرض من شىء «لله» بهذا الاعتبار الذى لايشاركه فيه أحد سواه . . « وهو العلى العظيم » . . فليس هو الملك فحسب ، ولكنه ملك العلو والعظمة على وجه التفرد كذلك . العلو الذى كل شىء بالقياس إليه سفول ؛ والعظمة التى كل شىء بالقياس إليها ضآلة !

ومتى استقرت هذه الحقيقة استقرارا صادقا فى الضمائر ، عرف الناس إلى أين يتجهون فيما يطلبون لأنفسهم من خير ومن رزق ومن كسب . فكل مافى السماوات ومافى الأرض لله . والمالك هو الذى بيده العطاء . ثم إنه هو « العلى العظيم » الذى لا يصغر ولا يسفل من يمد يده إليه بالسؤال ؛ كما لو مدها للمخاليق ، وهم ليسوا بأعلياء ولا عظماء !

ثم يعرض مظهرا لخلوص الملكية لله فى الكون ، وللعلو والعظمة كذلك. يتمثل فى حركة السماوات تكاد تتفطر من روعة العظمة التى تستشعرها لربها ، ومن زيغ بعض من فى الأرض عنها . كما يتمثل فى حركة الملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لأهل الأرض من انحرافهم وتطاولهم :

« تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن فى الأرض . ألا إن الله هو الغفور الرحيم » . .

والسماوات هى هذه الخلائق الضخمة الهائلة التى نراها تعلونا حيثما كنا على ظهر هذه الأرض، والتى لانعلم إلا أشياء قليلة عن جانب منها صغير . وقد عرفنا حتى اليوم أن بعض مافى السماوات نحو من مئة ألف مليون مجموعة من الشموس. فى كل منها نحو مئة ألف مليون شمس كشمسنا هذه، التى مبلغ حجمها أكثر من مليون ضعف من حجم أرضنا الصغيرة ! وهذه المجموعات من الشموس التى أمكن لنا ـ نحن البشر ـ أن نرصدنا بمراصدها الصغيرة ، متناثرة فى فضاء السماء

Marfat.com

Marfat.com

مبعثرة،وبينها مسافات شاسعة تحسب بمئات الألوف والملايين من السنوات الضوئية.أي المحسوبة بسرعة الضوء، التي تبلغ ١٦٨,٠٠٠ ميل في الثانية!

هذه السماوات التي عرفنا منها هذا الجانب الصغير المحدود يكدن يتفطرن من فوقهن .. من خشيه الله وعظمته وعلوه، وإشفاقا من انحراف بعض أهل الأرض ونسيانهم لهذه العظمة التي يحسها ضمير الكون، فيرتعش، وينتفض، ويكاد ينشق من أعلى مكان فيه!

«والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض» ..

والملائكة أهل طاعة مطلقة، فقد كانوا أولى الخلق بالطمأنينة.ولكنهم دائبون في تسبيح ربهم،لما يحسون من علوه وعظمته، ولما يخشون من التقصير في حمده وطاعته. ذلك بينما أهل الأرض المقصرون الضعاف ينكرون وينحرفون؛ فيشفق الملائكة من غضب الله؛ ويروحون يستغفرون لأهل الأرض مما يقع في الأرض من معصية وتقصير. ويجوز أن يكون المقصود هو استغفار الملائكة للذين آمنوا، كالذي جاء في سورة غافر: «الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم، ويؤمنون به، ويستغفرون للذين آمنوا» .. وفي هذه الحالة يبدو: كم يشفق الملائكة من أية معصية تقع في الأرض، حتى من الذين آمنوا، وكم يرتاعون لها، فيستغفرون ربهم وهم يسبحون بحمده استشعارا لعلوه وعظمته؛ واستهوالا لأية معصية تقع في ملكه؛ واستدرارا لمغفرته ورحمته؛ وطمعا فيهما:

«ألا إن الله هو الغفور الرحيم» ..

فيجمع إلى العزة والحكمة، العلو والعظمة، ثم المغفرة والرحمة. ويعرف العباد ربهم بشتى صفاته.

وفي نهاية الفقرة - بعد تقرير تلك الصفات وأثرها في الكون كله- يعرض للذين يتخذون من دون الله أولياء. وقد بدا أن ليس في الكون غيره من ولي. ليعفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أمرهم، فما هو عليهم بوكيل، والله هو الحفيظ عليهم، وهو بهم كفيل:

«والذين اتخذوا من دونه أولياء، الله حفيظ عليهم، وما أنت عليهم بوكيل» ..

وتبدو للضمير صورة هؤلاء المناكيد التعساء؛ وهم يتخذون من دون الله أولياء؛ وأيديهم مما أمسكت خاوية، وليس هنالك إلا الهباء! تبدو للضمير صورتهم - في ضآلتهم وضآلة أوليائهم من دون الله. والله حفيظ عليهم. وهم في قبضته ضعاف صغار. فأما النبي - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنون معه،فهم معفون من التفكير في شأنهم، والاحتفال بأمرهم، فقد كفاهم الله هذا الاهتمام.

ولابد أن تستقر هذه الحقيقة فى ضمائر المؤمنين لتهدأ وتطمئن من هذا الجانب فى جميع الأحوال. سواء كان أولئك الذين يتخذون من دون الله أولياء أصحاب سلطان ظاهر فى الأرض، أم كانوا من غير ذوى السلطان . تطمئن فى الحالة الأولى لهوان شأن أصحاب السلطان الظاهر - مهما تجبروا - ما داموا لا يستمدون سلطانهم هذا من الله ؛ والله حفيظ عليهم ؛ وهو من ورائهم محيط ؛ والكون كله مؤمن بربه من حولهم ، وهم وحدهم المنحرفون كالنغمة النشاز فى اللحن المتناسق ! وتطمئن فى الحالة الثانية من ناحية أن ليس على المؤمنين من وزر فى تولى هؤلاء غير الله ؛ فهم ليسوا بوكلاء على من ينحرفون من الخلق ؛ وليس عليهم إلا النصح والبلاغ. والله هو الحفيظ على قلوب العباد .

ومن ثم يسير المؤمنون فى طريقهم . مطمئنين إلى أنه الطريق الموصول بوحى الله . وأن ليس عليهم من ضير فى انحراف المنحرفين عن الطريق . كائنا ما يكون هذا الانحراف . .

***

ثم يعود إلى الحقيقة الأولى :

« وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها ، وتنذر يوم الجمع لاريب فيه ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير . ولوشاء الله لجعلهم أمة واحدة ، ولكن يدخل من يشاء فى رحمته ، والظالمون مالهم من ولى ولا نصير . أم اتخذوا من دونه أولياء ؟ فالله هو الولى .وهو يحيى الموتى . وهو على كل شىء قدير » . .

« وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا ... » . .

يعطف هذا الطرف من حقيقة الوحى على ذلك الطرف الذى بدأ به السورة . والمناسبة هنا بين تلك الأحرف المقطعة ، وعربية القرآن ، مناسبة ظاهرة . فهذه أحرفهم العربية ، وهذا قرآنهم العربى . نزل الله به وحيه فى هذه الصورة العربية ، ليؤدى به الغاية المرسومة :

« لتنذر أم القرى ومن حولها » . .

وأم القرى مكة المكرمة. المكرمة ببيت الله العتيق فيها . وقد اختار الله أن تكون هى - وماحولها من القرى - موضع هذه الرسالة الأخيرة ؛ وأنزل القرآن بلغتها العربية لأمر يعلمه ويريده . و « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

وحين ننظر اليوم من وراء الحوادث واستقرائها ،ومن وراء الظروف ومقتضياتها ، وبعد ماسارت هذه الدعوة فى الخط الذى سارت فيه ، وأنتجت فيه نتاجها .. حين ننظر اليوم هذه النظرة ندرك طرفا من حكمة الله فى اختيار هذه البقعة من الأرض، فى ذلك الوقت من الزمان ،

Marfat.com

Marfat.com

لتكون مقر الرسالة الأخيرة، التي جاءت للبشرية جميعا. والتي تتضح عالميتها منذ أيامها الأولى .

كانت الأرض المعمورة ـ عند مولد هذه الرسالة الأخيرة ـ تكاد تتقسمها امبراطوريات أربعة : الامبراطورية الرومانية فى أوربا وطرف من آسيا وإفريقية. والامبراطورية الفارسية وتمد سلطانها على قسم كبير من آسيا وإفريقية . والامبراطورية الهندية . ثم الامبراطورية الصينية . وتكادان تكونان مغلقتين على أنفسهما ومعزولتين بعقائدهما واتصالاتهما السياسية وغيرها وهذه العزلة كانت تجعل الامبراطوريتين الأوليين هما ذواتا الأثر الحقيقى فى الحياة البشرية وتطوراتها .

وكانت الديانتان السماويتان قبل الاسلام ـ اليهودية والنصرانية ـ قد انتهتا إلى أن تقعا ـ فى صورة من الصور ـ تحت نفوذ هاتين الامبراطوريتين ، حيث تسيطر عليهما الدولة فى الحقيقة، ولا تسيطران على الدولة ! فضلا على ما أصابهما من انحراف وفساد .

ولقد وقعت اليهودية فريسة لاضطهاد الرومان تارة ، ولاضطهاد الفرس تارة ، ولم تعد تسيطر فى هذه الأرض على شيء يذكر على كل حال ؛ وانتهت ـ بسبب عوامل شتى ـ إلى أن تكون ديانة مغلقة على بنى إسرائيل ، لا مطمع لها ولا رغبة فى أن تضم تحت جناحها شعوبا أخرى !

وأما المسيحية فقد ولدت فى ظل الدولة الرومانية . التى كانت تسيطر حين الميلاد على فلسطين وسورية ومصر وبقية المناطق التى انتشرت فيها المسيحية سرا ؛ وهى تتخفى من مطاردة الامبراطورية الرومانية التى اضطهدت العقيدة الجديدة اضطهادا فظيعا ، تخللته مذابح شملت عشرات الألوف فى قسوة ظاهرة . فلما انقضى عهد الاضطهاد الرومانى ، ودخل الامبراطور الرومانى فى المسيحية ، دخلت معه أساطير الرومان الوثنية ، ومباحث الفلسفة الإغريقية الوثنية كذلك ؛ وطبعت المسيحية بطابع غريب عليها ؛ فلم تعد هى المسيحية السماوية الأولى . كما أن الدولة ظلت فى طبيعتها لا تتأثر كثيرا بالديانة ؛ وظلت هى المهيمنة ، ولم تهيمن العقيدة عليها أصلا . وذلك كله فضلا على ما انتهت إليه المذاهب المسيحية المتعددة من تطاحن شامل ـ فيما بينها ـ مزق الكنيسة ، وكاد يمزق الدولة كلها تمزيقا . وأوقع فى الاضطهاد البشع المخالفين للمذهب الرسمى للدولة . وهؤلاء وهؤلاء كانوا فى الانحراف عن حقيقة المسيحية سواء !

وفى هذا الوقت جاء الإسلام . جاء لينقذ البشرية كلها مما انتهت إليه من انحلال وفساد واضطهاد وجاهلية عمياء فى كل مكان معمور . وجاء ليهيمن على حياة البشرية ويقودها فى الطريق إلى الله على هدى وعلى نور. ولم يكن هنالك بد من أن يسيطر الإسلام لتحقيق هذه النقلة

الضخمة فى حياة البشر . ثم يكن هنالك بد من أن يبدأ رحلته من أرض حرة لا سلطان فيها لامبراطورية من تلك الامبراطوريات ؛ وأن ينشأ قبل ذلك نشأة حرة لا تسيطر عليه فيها قوة خارجة على طبيعته ؛ بل يكون فيها هو المسيطر على نفسه وعلى من حوله . وكانت الجزيرة العربية ، وأم القرى وما حولها بالذات، هى أصلح مكان على وجه الأرض لنشأة الإسلام يومئذ، وأصلح نقطة يبدأ منها رحلته العالمية التى جاء من أجلها منذ اللحظة الأولى .

لم تكن هناك حكومة منظمة ذات قوانين وتشريعات وجيوش وشرطة وسلطان شامل فى الجزيرة . تقف للعقيدة الجديدة . بسلطانها المنظم ، وتخضع لها الجماهير خضوعا دقيقا ، كما هو الحال فى الامبراطوريات الأربعة .

ولم تكن هنالك ديانة ثابتة كذلك ذات معالم واضحة ؛ فقد كانت الوثنية الجاهلية ممزقة ، ومعتقداتها وعباداتها شتى . وكان للعرب آلهة شتى من الملائكة والجن والكواكب والأصنام. ومع أنه كان للكعبة وقريش سلطان دينى عام فى الجزيرة ، فإنه لم يكن ذلك السلطان المحكم الذى يقف وقفة حقيقية فى وجه الدين الجديد .ولولا المصالح الاقتصادية والأوضاع الخاصة لرؤساء قريش ماوقفوا هذه الوقفة فى وجه الإسلام . فقد كانوا يدركون ما فى عقائدهم من خلخلة واضطراب .

وكانت خلخلة النظام السياسى للجزيرة إلى جانب خلخلة النظام الدينى ، أفضل ظرف يقوم فيه دين جديد ، متحررا من كل سلطان عليه فى نشأته ، خارج عن طبيعته .

وفى وسط هذه الخلخلة كان للأوضاع الاجتماعية فى الجزيرة قيمتها كذلك فى حماية نشأة الدعوة الجديدة . كان النظام القبلى هو السائد . وكان للعشيرة وزنها فى هذا النظام . فلما قام محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدعوته وجد من سيوف بنى هاشم حماية له ؛ ووجد من التوازن القبلى فرصة ، لأن العشائر كانت تشفق من إثارة حرب على بنى هاشم بسبب حمايتهم لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم على غير دينه . بل إنها كانت تشفق من الاعتداء على كل من له عصبية من القلائل الذين أسلموا فى أول الدعوة ، وتدع تأديبه ـ أو تعذيبه ـ لأهله أنفسهم . والموالى الذين عذبوا لإسلامهم عذبهم سادتهم . ومن ثم كان أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ يشترى هؤلاء الموالى ويعتقهم ، فيمتنع تعذيبهم بهذا الإجراء ، وتمتنع فتنتهم عن دينهم . . ولا يخفى ما فى هذا الوضع من ميزة بالقياس إلى نشأة الدين الجديد .

ثم كانت هنالك صفات الشعب العربى نفسه من الشجاعة والأريحية والنخوة . وهى استعدادات ضرورية لحمل العقيدة الجديدة والنهوض بتكاليفها .

Marfat.com

Marfat.com

وقد كانت الجزيرة فى ذلك الزمان تزخر بحضانة عميقة لبذور نهضة؛وكانت تجيش بكفايات واستعدادات وشخصيات تتهيأ لهذه النهضة المذخورة لها فى ضمير الغيب ؛ وكانت قد حفلت بتجارب إنسانية معينة من رحلاتها إلى أطراف امبراطوريتى كسرى وقيصر . وأشهرها رحلة الشتاء إلى الجنوب ورحلة الصيف إلى الشمال . المذكورتان فى القرآن فى قوله تعالى: «لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » . وتضافرت أسباب كثيرة لحشد رصيد ضخم من التجارب مع التفتح والتأهب لاستقبال المهمة الضخمة التى اختيرت لها الجزيرة . فلما جاءها الإسلام استغل هذا الرصيد كله ، ووجه هذه الطاقة المختزنة ، التى كانت تتهيأ كنوزها للتفتح ؛ ففتحها الله بمفتاح الإسلام . وجعلها رصيدا له وذخرا . ولعل هذا بعض مايفسر لنا وجود هذا الحشد من الرجال العظام فى الصحابة فى الجيل الأول فى حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم – من أمثال : أبى بكر وعمر وعثمان وعلى . وحمزة والعباس وأبى عبيدة . وسعد ابن أبى وقاص وخالد ابن الوليد وسعد ابن معاذ ، وأبى أيوب الأنصارى وغيرهم وغيرهم من تلك العصبة التى تلقت الإسلام ؛ فتفتحت له ، وحملته ، وكبرت به من غير شك وصلحت ؛ ولكنها كانت تحمل البذرة الصالحة للنمو والتمام .

وليس هنا مكان التفصيل فى وصف استعداد الجزيرة لحمل الرسالة الجديدة ،وصيانة نشأتها، وتمكينها من الهيمنة على ذاتها وعلى من حولها ، مما يشير إلى بعض أسباب اختيارها لتكون مهد العقيدة الجديدة ، التى جاءت للبشرية جميعها . وإلى اختيار هذا البيت بالذات ليكون منه حامل هذه الرسالة – صلى الله عليه وسلم – فذلك أمر يطول . ومكانه رسالة خاصة مستقلة . وحسبنا هذه الإشارة إلى حكمة الله المكنونة ، التى يظهر التدبر والتفكر بعض أطرافها كلما اتسعت تجارب البشر وإدراكهم لسنن الحياة .

وهكذا جاء هذا القرآن عربيا لينذر أم القرى ومن حولها . فلما خرجت الجزيرة من الجاهلية إلى الإسلام ، وخلصت كلها للإسلام ، حملت الراية وشرقت بها وغربت ؛ وقدمت الرسالة الجديدة والنظام الإنسانى الذى قام على أساسها ، للبشرية جميعها – كما هى طبيعة هذه الرسالة – وكان الذين حملوها هم أصلح خلق الله لحملها ونقلها ؛ وقد خرجوا بها من أصلح مكان فى الأرض لميلادها ونشأتها .

وليس من المصادفات أن يعيش الرسول – صلى الله عليه وسلم – حتى تخلص الجزيرة العربية للإسلام ؛ ويتمحض هذا المهد للعقيدة التى اختير لها على علم . كما اختير لها اللسان الذى يصلح لحملها إلى أقطار الأرض جميعا . فقد كانت اللغة العربية بلغت نضجها ، وأصبحت صالحة لحمل هذه

Marfat.com

الدعوة والسير بها فى أقطار الأرض . ولوكانت لغة ميتة أوناقصة التكوين الطبيعى ماصلحت لحمل هذه الدعوة أولا ، وماصلحت بالذات لنقلها إلى خارج الجزيرة العربية ثانيا .. وقد كانت اللغة ، كأصحابها ، كبيئتها ، أصلح ماتكون لهذا الحدث الكونى العظيم .

وهكذا تبدو سلسلة طويلة من الموافقات المختارة لهذه الرسالة ، حيثما وجه الباحث نظره إلى تدبر حكمة الله واختياره ومصداق قوله : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ..

« لتنذر أم القرى ومن حولها ، وتنذر يوم الجمع لاريب فيه ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير » ..

وقد كان الإنذار الأكبر والأشد والأكثر تكرارا فى القرآن هو الإنذار يوم الجمع .يوم الحشر . يوم يجمع الله ماتفرق من الخلائق على مدار الأزمنة واختلاف الأمكنة ، ليفرقهم من جديد : « فريق فى الجنة وفريق فى السعير » . بحسب عملهم فى دار العمل ،فى هذه الأرض ، فى فترة الحياة الدنيا .

« ولوشاء الله لجعلهم أمة واحدة . ولكن يدخل من يشاء فى رحمته ، والظالمون مالهم من ولى ولانصير » ..

فلوشاء الله لخلق البشر خلقة أخرى توحدسلوكهم ، فتوحد مصيرهم ، إما إلى جنة وإما إلى نار . ولكنه ـ سبحانه ـ خلق هذا الإنسان لوظيفة . خلقه للخلافة فى هذه الأرض . وجعل من مقتضيات هذه الخلافة ، على النحو الذى أرادها ، أن تكون للإنسان استعدادات خاصة بجنسه ، تفرقه عن الملائكة وعن الشياطين ، وعن غيرهما من خلق الله ذوى الطبيعة المفردة الوحدة الاتجاه . استعدادات يجنح بها ومعها فريق إلى الهدى والنور والعمل الصالح ؛ ويجنح بها ومعهافريق إلى الضلال والظلام والعمل السيىء. كل منها يسلك وفق أحد الاحتمالات الممكنة فى طبيعة تكوين هذا المخلوق البشرى ؛ وينتهى إلى النهاية المقررة لهذا السلوك : « فريق فى الجنة وفريق فى السعير » .. وهكذا : « يدخل من يشاء فى رحمته والظالمون مالهم من ولى ولانصير » ..وفق مايعلمه الله من حالهذا الفريق وذاك ،واستحقاقه للرحمة بالهدايةأواستحقاقه للعذاب بالضلال .

ولقد سبق أن بعضهم يتخذ من دون الله أولياء . فهو يقرر هنا أن الظالمين : « مالهم من ولى ولا نصير » . فأولياؤهم الذين يتخذونهم لاحقيقة لهم إذن ولا وجود .

ثم يعود فيسأل فى استنكار :

« أم اتخذوا من دونه أولياء ؟ » ..

Marfat.com

ليقرر بعد هذا الاستنكار أن الله وحده هو الولى،وأنه هو القادر تتجلى قدرته فى إحياء الموتى . العمل الذى تظهر فيه القدرة المفردة بأجلى مظاهرها :

« فالله هو الولى ، وهو يحي الموتى » . .

ثم يعمم مجال القدرة ويبرز حقيقتها الشاملة لكل شىء والتى لاتنحصر فى حدود :

« وهو على كل شىء قدير » . .

* * *

ثم يعود إلى الحقيقة الأولى ، لبيان الجهة التى يرجع إليها عند كل اختلاف .وهى هذا الوحى الذى جاء من عند الله يتضمن حكم الله كى لايكون للهوى المتقلب أثر فى الحياة بعد ذلك المنهج الإلهى القويم :

« وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله . ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب . فاطر السماوات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا ، يذرؤكم فيه ، ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير . له مقاليد السماوات والأرض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شىء عليم » . .

وطريقة إيراد هذه الحقائق وتسلسلها وتجمعها فى هذه الفقرة طريقة عجيبة ، تستحق التدبر . فالترابط الخفى والظاهر بين أجزائها ترابط لطيف دقيق .

إنه يرد كل اختلاف يقع بين الناس إلى الله : «وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله».. والله أنزل حكمه القاطع فى هذا القرآن ؛ وقال قوله الفصل فى أمر الدنيا والآخرة ؛ وأقام للناس المنهج الذى اختاره لهم فى حياتهم الفردية والجماعية ، وفى نظام حياتهم ومعاشهم وحكمهم وسياستهم ، وأخلاقهم وسلوكهم . وبين لهم هذا كله بيانا شافيا . وجعل هذا القرآن دستورا شاملا لحياة البشر ، أوسع من دساتير الحكم وأشمل . فإذا اختلفوا فى أمر أو اتجاه فحكم الله فيه حاضر فى هذا الوحى الذى أوحاه إلى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتقوم الحياة على أساسه .

وعقب تقرير هذه الحقيقة يحكى قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسلما أمره كله لله ، منيبا إلى ربه بكليته :

« ذلكم الله ربى عليه توكلت ، وإليه أنيب » . .

فتجىء هذه الإنابة ، وذاك التوكل ، وذلك الإقرار بلسان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى موضعها النفسى المناسب للتعقيب على تلك الحقيقة . . فهاهو ذا رسول الله ونبيه يشهد أن الله هو ربه ، وأنه يتوكل عليه وحده ، وأنه ينيب إليه دون سواه . فكيف يتحاكم الناس إذن

إلى غيره عند اختلافهم فى شىء من الأمر ، والنبى المهدى لايتحاكم إلا إليه ، وهو أولى من يتحاكم الناس إلى قوله الفصل ، لايتلفتون عنه لحظة هنا أو هناك ؟ وكيف يتجهون فى أمر من أمورهم وجهة أخرى ، والنبى المهدى يتوكل على الله وحده ، وينيب إليه وحده ، بما أنه هو ربه ومتولى أمره وكافله وموجهه إلى حيث يختار ؟

واستقرار هذه الحقيقة فى ضمير المؤمن ينير له الطريق ويحدد معالمه،فلا يتلفت هنا أو هناك. ويسكب فيه الطمأنينة إلى طريقه ، والثقة بمواقع خطواته ، فلا يتشكك ولا يتردد ولا يحتار . ويشعره أن الله راعيه وحاميه ومسدد خطاه فى هذا الاتجاه . والنبى المهدى سالك هذا الطريق إلى الله .

واستقرار هذه الحقيقة فى ضمير المؤمن يرفع من شعوره بمنهجه وطريقه ، فلا يجد أن هناك منهجا آخر أو طريقا يصح أن يتلفت إليه ؛ ولا يجد أن هنالك حكما غير قول الله وحكمه يرجع عند الاختلاف إليه . والنبى المهدى ينيب إلى ربه الذى شرع هذا المنهج وحكم هذا الحكم .

ثم يعقب مرة أخرى بما يزيد هذه الحقيقة استقرارا وتمكينا :

« فاطر السماوات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا . يذرؤكم فيه . ليس كمثله شىء . وهو السميع البصير » . .

فالله منزل ذلك القرآن ليكون حكمه الفصل فيما يختلفون فيه من شىء . . هو «فاطر السماوات والأرض » . . وهو مدبر السماوات والأرض . والناموس الذى يحكم السماء والأرض هو حكمه الفصل فى كل مايختص بهما من أمر . وشؤون الحياة والعباد إن هى إلا طرف من أمر السماوات والأرض ؛ فحكمه فيها هو الحكم الذى ينسق بين حياة العباد وحياة هذا الكون العريض ، ليعيشوا فى سلام مع الكون الذى يحيط بهم ، والذى يحكم الله فى أمره بلا شريك .

والله الذى يجب أن يرجعوا إلى حكمه فيما يختلفون فيه من شىء هو خالقهم الذى سوى نفوسهم ، وركبها : « جعل لكم من أنفسكم أزواجا » . . فنظم لكم حياتكم من أساسها ، وهو أعلم بما يصلح لها وما تصلح به وتستقيم . وهو الذى أجرى حياتكم وفق قاعدة الخلق التى اختارها للأحياء جميعا : « ومن الأنعام أزواجا » . . فهنالك وحدة فى التكوين تشهد بوحدانية الأسلوب والمشيئة وتقديرها المقصود . . إنه هو الذى جعلكم – أنتم والأنعام – تتكاثرون وفق هذا المنهج وهذا الأسلوب . ثم تفرد هو دون خلقه جميعا ، فليس هنالك من شىء يماثله – سبحانه وتعالى – : « ليس كمثله شىء » . . والفطرة تؤمن بهذا بداهة . فخالق الأشياء لاتماثله هذه الأشياء التى هى من خلقه . . ومن ثم فإنها ترجع كلها إلى حكمه عندما تختلف

Marfat.com

فيما بينها على أمر ، ولا ترجع معه إلى أحد غيره ؛ لأنه ليس هناك أحد مثله ، حتى يكون هناك أكثر من مرجع واحد عند الاختلاف .

ومع أنه – سبحانه – « ليس كمثله شيء » . . فإن الصلة بينه وبين ماخلق ليست منقطعة لهذا الاختلاف الكامل . فهو يسمع ويبصر : « وهو السميع البصير » . . ثم يحكم حكم السميع البصير .

ثم إنه إذ يجعل حكمه فيما يختلفون فيه من شيء هو الحكم الواحد الفصل . يقيم هذا على حقيقة أن مقاليد السماوات والأرض كلها إليه بعد مافطرها أول مرة،وشرع لها ناموسها الذى يدبرها:« له مقاليد السماوات والأرض » .. وهم بعض مافى السماوات والأرض ، فمقاليدهم إليه.

ثم إنه هو الذى يتولى أمر رزقهم قبضا وبسطا–فيما يتولى من مقاليد السماوات والأرض–: « يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » . . فهو رازقهم وكافلهم ومطعمهم وساقيهم . فلمن غيره يتجهون إذن ليحكم بينهم فيما يختلفون فيه ؟ وإنما يتجه الناس إلى الرازق الكافل المتصرف فى الأرزاق . الذى يدبر هذا كله بعلم وتقدير : « إنه بكل شيء عليم » . . والذى يعلم كل شيء هو الذى يحكم وحكمه العدل ، وحكمه الفصل ..

وهكذا تتساوق المعانى وتتناسق بهذه الدقة الخفية اللطيفة العجيبة؛لتوقع على القلب البشرى دقة بعد دقة ، حتى يتكامل فيها لحن متناسق عميق !

* * *

ثم يعود إلى الحقيقة الأولى :

« شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . كبر على المشركين ماتدعوهم إليه . الله يجتبى إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم–بغيا بينهم–ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب ؛ وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لاحجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير . والذين يحاجون فى الله من بعد مااستجيب له حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد » . .

Marfat.com

لقد جاء في مطلع السورة: «كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم».. فكانت هذه إشارة إجمالية إلى وحدة المصدر، ووحدة المنهج، ووحدة الاتجاه. فالآن يفصل هذه الإشارة؛ ويقرر أن ماشرعه الله للمسلمين هو - فى عمومه - ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى. وهو أن يقيموا دين الله الواحد، ولا يتفرقوا فيه. ويرتب عليها نتائجها من وجوب الثبات على المنهج الإلهى القديم، دون التفات إلى أهواء المختلفين. ومن هيمنة هذا الدين الواضح المستقيم، ودحض حجة الذى يحاجون فى الله، وإنذارهم بالغضب والعذاب الشديد.

ويبدو من التماسك والتناسق فى هذه الفقرة كالذى بدا فى سابقتها بشكل ملحوظ:

« شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا، والذى أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى: أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » . .

وبذلك يقرر الحقيقة التى فصلناها فى مطلع السورة. حقيقة الأصل الواحد، والنشأة الضاربة فى أصول الزمان. ويضيف إليها لمحة لطيفة الوقع فى حس المؤمن. وهو ينظر إلى سلفه فى الطريق الممتدة من بعيد. فإذاهم على التتابع هؤلاء الكرام.. نوح. إبراهيم. موسى. عيسى، محمد - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - ويستشعر أنه امتداد لهؤلاء الكرام وأنه على دربهم يسير. إنه سيستروح السير فى الطريق، مهما يجد فيه من شوك ونصب، وحرمان من أعراض كثيرة. وهو برفقة هذا الموكب الكريم على الله. الكريم على الكون كله منذ فجر التاريخ.

ثم إنه السلام العميق بين المؤمنين بدين الله الواحد، السائرين على شرعه الثابت؛ وانتفاء الخلاف والشقاق؛ والشعور بالقربى الوثيقة، التى تدعو إلى التعاون والتفاهم، ووصل الحاضر بالماضى، والماضى بالحاضر، والسير جملة فى الطريق.

وإذا كان الذى شرعه الله من الدين للمسلمين المؤمنين بمحمد هو ماوصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى. ففيم يتقاتل أتباع موسى وأتباع عيسى؟ وفيم يتقاتل أصحاب المذاهب المختلفة من أتباع عيسى؟ وفيم يتقاتل أتباع موسى وعيسى مع أتباع محمد؟ وفيم يتقاتل من يزعمون أنهم على ملة إبراهيم من المشركين مع المسلمين؟ ولم لا يتضام الجميع ليقفوا تحت الراية الواحدة التى يحملها رسولهم الأخير؟ والوصية الواحدة الصادرة للجميع: «أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه»؟ فيقيموا الدين، ويقوموا بتكاليفه، ولا ينحرفوا عنه ولا يلتووا به؛ ويقفوا تحت

Marfat.com

رايته صفا ، وهى راية واحدة ، رفعها على التوالى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ـ صلوات الله عليهم ـ حتى انتهت إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى العهد الأخير .

ولكن المشركين فى أم القرى ومن حولها ـ وهم يزعمون أنهم على ملة إبراهيم ـ كانوا يقفون من الدعوة القديمة الجديدة موقفا آخر :

« كبر على المشركين ماتدعوهم إليه » . .

كبر عليهم أن يتنزل الوحى على محمد من بينهم ؛ وكانوا يريدون أن يتنزل « على رجل من القريتين عظيم » أى صاحب سلطان من كبرائهم . ولم تكن صفات محمد الذاتية وهو بإقرارهم الصادق الأمين ، ولا كان نسبه وهو من أوسط بيت فى قريش . ما كان هذا كله يعدل فى نظرهم أن يكون سيد قبيلة ذا سلطان !

وكبر عليهم أن ينتهى سلطانهم الدينى بانتهاء عهد الوثنية والأصنام والأساطير التى يقوم عليها هذا السلطان؛ وتعتمد عليها مصالحهم الاقتصادية والشخصية.فتشبثوا بالشرك وكبر عليهم التوحيد الخالص الواضح الذى دعاهم إليه الرسول الكريم .

وكبر عليهم أن يقال : إن آباءهم الذين ماتوا على الشرك ماتوا على ضلالة وعلى جاهلية ؛ فتشبثوا بالحماقة ، وأخذتهم العزة بالإثم ، واختاروا أن يلقوا بأنفسهم إلى الجحيم ، على أن يوصم آباؤهم بأنهم ماتوا ضالين !

والقرآن يعقب على موقفهم هذا بأن الله هو الذى يصطفى ويختار من يشاء ؛ وأنه كذلك يهدى إليه من يرغب فى كنفه ، ويتوب إلى ظله من الشاردين :

« الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب » . .

وقد اجتبى محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ للرسالة . وهو يفتح الطريق لمن ينيب إليه ويثوب .

ثم يعود إلى موقف أتباع الرسل ، الذين جاءوا قومهم بدين واحد ، فتفرق أتباعهم شيعا وأحزابا :

« وما تفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم ـ بغيا بينهم ـ ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أوتوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب » . .

فهم لم يتفرقوا عن جهل ؛ ولم يتفرقوا لأنهم لا يعرفون الأصل الواحد الذى يربطهم ، ويربط رسلهم ومعتقداتهم . إنما تفرقوا بعد ماجاءهم العلم . تفرقوا بغيا بينهم وحسدا وظلما

Marfat.com

للحقيقة ولأنه مهم سواء . تفرقوا تحت تأثير الأهواء الجائرة ، والشهوات الباغية . تفرقوا غير مستندين إلى سبب من العقيدة الصحيحة والمنهج القويم . ولو أخلصوا لعقيدتهم ، واتبعوا منهجهم ماتفرقوا .

ولقد كانوا يستحقون أن يأخذهم الله أخذا عاجلا ، جزاء بغيهم وظلمهم فى هذا التفرق والتفريق . ولكن كلمة سبقت من الله لحكمة أرادها ، بإمهالهم إلى أجل مسمى « ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم » . . فحق الحق وبطل الباطل ؛ وانتهى الأمر فى هذه الحياة الدنيا . ولكنهم مؤجلون إلى يوم الوقت المعلوم .

فأما الأجيال التى ورثت الكتاب من بعد أولئك الذين تفرقوا وفرقوا من أتباع كل نبى ، فقد تلقوا عقيدتهم وكتابهم بغير يقين جازم ؛ إذ كانت الخلافات السابقة مثارا لعدم الجزم بشىء ، وللشك والغموض والحيرة بين شتى المذاهب والاختلافات :

« وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب » . .

وما هكذا تكون العقيدة . فالعقيدة هى الصخرة الصلبة التى يقف عليها المؤمن ، فتميد الأرض من حوله وهو ثابت راسخ القدمين فوق الصخرة الصلبة التى لا تميد . والعقيدة هى النجم الهادى الثابت على الأفق يتجه إليه المؤمن وسط الأنواء والزوابع ، فلا يضل ولا يحيد . فأما حين تصبح العقيدة ذاتها موضع شك ومثار ريبة ، فلا ثبات لشىء ولا لأمر فى نفس صاحبها ، ولا قرار له على وجهة ، ولا اطمئنان إلى طريق .

ولقد جاءت العقيدة ليعرف أصحابها طريقهم ووجهتهم إلى الله ؛ ويقودوا من وراءهم من البشر فى غير ما تلجلج ولا تردد ولا ضلال . فإذاهم استرابوا وشكوا فهم غير صالحين لقيادة أحد ، وهم أنفسهم حائرون .

وكذلك كان حال أتباع الرسل يوم جاء هذا الدين الجديد .

يقول الأستاذ الهندي أبو الحسن الندوى فى كتابه : «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»:

« أصبحت الديانات العظمى فريسة العابثين والمتلاعبين ، ولعبة المحرفين والمنافقين ، حتى فقدت روحها وشكلها ، فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها،وأصبحت مهود الحضارة والثقافة الحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام ، وعسف الحكام ، شغلت بنفسها ، لا تحمل للعالم رسالة ولا للأمم دعوة ، وأفلست فى معنوياتها ، ونضب معين

Marfat.com

Marfat.com

حياتها ، لاتملك مشرعا صافيا من الدين السماوى ، ولا نظاما ثابتا من الحكم البشرى » [١]

ويقول الكاتب الأوربى « ج .هـ . دنيسون» فى كتابه «العواطف كأساس للحضارة»[٢] :

« ففى القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى ، لأن العقائد التى كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ؛ ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها . وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى ، التى تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة ، مشرفة على التفكك والانحلال ؛ وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية ، إذ القبائل تحارب وتتناحر ، لاقانون ولا نظام . أما النظم التى خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار ، بدلا من الاتحاد والنظام . وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله . واقفة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب . . وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم جميعه » . . يعنى محمدا ـ صلى الله عليه وسلم . .

ولأن أتباع الرسل تفرقوا ـ من بعد ماجاءهم العلم ـ ولأن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم كانوا فى شك منه مريب . . لهذا وذلك ، ولخلو مركز القيادة البشرية من قائد ثبت مستيقن يعرف طريقه إلى الله . . أرسل الله محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووجه إليه الأمر أن يدعو وأن يستقيم على دعوته ، وألا يلتفت إلى الأهواء المصطرعة حوله وحول دعوته الواضحة المستقيمة ؛ وأن يعلن تجديد الإيمان بالدعوة الواحدة التى شرعها الله للنبيين أجمعين :

« فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل:آمنت بما أنزل الله من كتاب. وأمرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم . لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . لاحجة بيننا وبينكم . الله يجمع بيننا ، وإليه المصير » . .

إنها القيادة الجديدة للبشرية جمعاء.القيادة الحازمة الحاسمة المستقيمة على نهج واضح ويقين ثابت . تدعو إلى الله على بصيرة . وتستقيم على أمر الله دون انحراف . وتنأى عن الأهواء المضطربة المتناوحة من هنا وهناك . القيادة التى تعلن وحدة الرسالة ووحدة الكتاب ووحدة النهج والطريق . والتى ترد الإيمان إلى أصله الثابت الواحد ، وترد البشرية كلها إلى ذلك

(١) صفحة ٢٢ الطبعة الثانية

(٢) ترجمة "Emotion as the Basis of Civilisation"

الأصل الواحد : « وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب » . . ثم هو الاستعلاء والهيمنة بالحق والعدل . « وأمرت لأعدل بينكم » . . فهى قيادة ذات سلطان ، تعلن العدل فى الأرض بين الجميع . (هذا والدعوة بعد فى مكة محصورة بين شعابها مضطهدة هى وأصحابها . ولكن طبيعتها المهيمنة الشاملة تبدو واضحة) . وتعلن الربوبية الواحدة : « الله ربنا وربكم » ..وتعلن فردية التبعة : « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم » .. وتعلن إنهاء الجدل بالقول الفصل : « لاحجة بيننا وبينكم » . . وتكل الأمر كله إلى الله صاحب الأمر الأخير : « الله يجمع بيننا وإليه المصير » . .

وتكشف هذه الآية الواحدة عن طبيعة هذه الرسالة الأخيرة ، فى مقاطعها القصيرة الفاصلة على هذا النحو الجامع الحازم الدقيق . فهى رسالة جاءت لتمضى فى طريقها لاتتأثر بأهواء البشر . وجاءت لتهيمن فتحقق العدالة فى الأرض . وجاءت لتوحد الطريق إلى الله كما هو فى حقيقته موحد على مدى الرسالات . .

وبعد وضوح القضية على هذا النحو ، واستجابة العصبة المؤمنة لله هذه الاستجابة ، يبدو جدل المجادلين فى الله مستنكرا لايستحق الالتفات ، وتبدو حجتهم باطلة فاشلة ليس لها وزن ولا حساب . فتنتهى هذه الفقرة بالفصل فى أمرهم ، وتركهم لوعيد الله الشديد :

« والذين يحاجون فى الله . من بعد ما استجيب له . حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد » . .

ومن تكون حجته باطلة مغلوبة عند ربه فلا حجة له ولاسلطان . ووراء الهزيمة والبطلان فى الأرض ، الغضب والعذاب الشديد فى الآخرة . وهو الجزاء المناسب على اللجاج بالباطل بعد استجابة القلوب الخالصة ؛ والجدل المغرض بعد وضوح الحق الصريح .

***

ثم يبدأ جولة جديدة مع الحقيقة الأولى :

« الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان . وما يدريك لعل الساعة قريب . يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد . الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز . من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وماله فى الآخرة من نصيب » . .

Marfat.com

Marfat.com

فالله أنزل الكتاب بالحق وأنزل العدل ؛ وجعله حكما فيما يختلف فيه أصحاب العقائد السالفة ، وفيما تختلف فيه آراء الناس وأهواؤهم ؛ وأقام شرائعه على العدل فى الحكم . العدل الدقيق كأنه الميزان توزن به القيم ، وتوزن به الحقوق ، وتوزن به الأعمال والتصرفات .

وينتقل من هذه الحقيقة . حقيقة الكتاب المنزل بالحق والعدل . إلى ذكر الساعة. والمناسبة بين هذا وهذه حاضرة ، فالساعة هى موعد الحكم العدل والقول الفصل . والساعة غيب . فمن ذا يدرى إن كانت على وشك :

« وما يدريك لعل الساعة قريب ؟ » . .

والناس عنها غافلون ، وهى منهم قريب ، وعندها يكون الحساب القائم على الحق والعدل ، الذى لا يهمل فيه شيء ولا يضيع . .

ويصور موقف المؤمنين من الساعة وموقف غير المؤمنين :

« يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق » . .

والذين لا يؤمنون بها لا تحس قلوبهم هولها ، ولا تقدر ما ينتظرهم فيها ؛ فلا عجب يستعجلون بها مستهترين . لأنهم محجوبون لا يدركون . وأما الذين آمنوا فهم مستيقنون منها ، ومن ثم هم يشفقون ويخافون ، وينتظرونها بوجل وخشية ، وهم يعرفون ما هى حين تكون .

وإنها لحق . وإنهم ليعلمون أنها الحق . وبينهم وبين الحق صلة فهم يعرفون .

« ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد » .

فقد أوغلوا في الضلال وأبعدوا ، فعسير أن يعودوا بعد الضلال البعيد . .

وينتقل من الحديث عن الآخرة والإشفاق منها أو الاستهتار بها ، إلى الحديث عن الرزق الذى يتفضل الله به على عباده :

« الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز » . .

وتبدو المناسبة بعيدة فى ظاهر الأمر بين هذه الحقيقة وتلك . ولكن الصلة تبدو وثيقة عند قراءة الآية التالية :

« من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب » . .

فالله لطيف بعباده يرزق من يشاء . يرزق الصالح والطالح ، والمؤمن والكافر . فهؤلاء

البشر أعجز من أن يرزقوا أنفسهم شيئا ؛ وقد وهبهم الله الحياة ، وكفل لهم أسبابها الأولية ؛ ولو منع رزقه عن الكافر والفاسق والطالح ما استطاعوا أن يرزقوا أنفسهم ولماتوا جوعا وعريا وعطشا ، وعجزا عن أسباب الحياة الأولى ، ولما تحققت حكمة الله من إحيائهم وإعطائهم الفرصة ليعملوا فى الحياة الدنيا ما يحسب لهم فى الآخرة أو عليهم . ومن ثم أخرج الرزق من دائرة الصلاح والطلاح ، والإيمان والكفر ، وعلقه بأسبابه الموصولة بأوضاع الحياة العامة واستعدادات الأفراد الخاصة . وجعله فتنة وابتلاء . يجزى عليهما الناس يوم الجزاء .

ثم جعل الآخرة حرثا والدنيا حرثا يختار المرء منهما مايشاء . فمن كان يريد حرث الآخرة عمل فيه ، وزاد له الله فى حرثه ، وأعانه عليه بنيته ، وبارك له فيه بعمله . وكان له مع حرث الآخرة رزقه المكتوب له فى هذه الأرض لا يحرم منه شيئا . بل إن هذا الرزق الذى يعطاه فى الأرض قد يكون هو بذاته حرث الآخرة بالقياس إليه ، حين يرجو وجه الله فى تثميره وتصريفه والاستمتاع به والإنفاق منه . . ومن كان يريد حرث الدنيا أعطاه الله من عرض الدنيا رزقه المكتوب له لا يحرم منه شيئا . ولكن لم يكن له فى الآخرة نصيب . فهو لم يعمل فى حرث الآخرة شيئا ينتظر عليه ذلك النصيب !

ونظرة إلى طلاب حرث الدنيا وطلاب حرث الآخرة ، تكشف عن الحماقة فى إرادة حرث الدنيا ! فرزق الدنيا يتلطف الله فيمنحه هؤلاء وهؤلاء . فلكل منهما نصيبه من حرث الدنيا وفق المقدور له فى علم الله . ثم يبقى حرث الآخرة خالصا لمن أراده وعمل فيه !

ومن طلاب حرث الدنيا نجد الأغنياء والفقراء ؛ بحسب أسباب الرزق المتعلقة بالأوضاع العامة والاستعدادات الخاصة . وكذلك نجد الحال عند طلاب حرث الآخرة سواء بسواء . ففى هذه الأرض لا اختلاف بين الفريقين فى قضية الرزق . إنما يظهر الاختلاف والامتياز هناك ! فمن هو الأحمق الذى يترك حرث الآخرة . وتركه لايغير من أمره شيئا فى هذه الحياة؟!

والأمر فى النهاية مرتبط بالحق والميزان الذى نزل به الكتاب من عند الله . فالحق والعدل ظاهران فى تقدير الرزق لجميع الأحياء. وفى زيادة حرث الآخرة لمن يشاء . وفى حرمان الذين يريدون حرث الدنيا من حرث الآخرة يوم الجزاء . . .

***

ومن ثم يبدأ جولة أخرى حول الحقيقة الأولى :

Marfat.com

« أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ؟ ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم ، وإن الظالمين لهم عذاب أليم . ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات ، لهم مايشاءون عند ربهم ، ذلك هو الفضل الكبير . ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، قل : لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ؛ ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا ، إن الله غفور شكور » . .

في فقرة سابقة قرر أن ماشرعه الله للأمة المسلمة هو ماوصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ، وهو ما أوحى به إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفي هذه الفقرة يتساءل في استنكار عما هم فيه وماهم عليه ، من ذا شرعه لهم مادام الله لم يشرعه ؟ وهو مخالف لما شرعه منذ أن كان هناك رسالات وتشريعات ؟

« أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ؟ » . .

وليس لأحد من خلق الله أن يشرع غير ماشرعه الله وأذن به كائنا من كان ؛ فالله وحده هو الذي يشرع لعباده . بما أنه ـ سبحانه ـ هو مبدع هذا الكون كله ، ومدبره بالنواميس الكلية الكبرى التي اختارها له . والحياة البشرية إن هي إلا ترس صغير في عجلة هذا الكون الكبير ، فينبغي أن يحكمها تشريع يتمشى مع تلك النواميس ؛ ولا يتحقق هذا إلا حين يشرع لها المحيط بتلك النواميس . وكل من عدا الله قاصر عن تلك الإحاطة بلا جدال . فلا يؤتمن على التشريع لحياة البشر مع ذلك القصور .

ومع وضوح هذه الحقيقة إلى حد البداهة ؛ فإن الكثيرين يجادلون فيها ، أولا يقتنعون بها ، وهم يجرأون على استمداد التشريع من غير ماشرع الله ، زاعمين أنهم يختارون الخير لشعوبهم ، ويوائمون بين ظروفهم والتشريع الذي ينشئونه من عند أنفسهم . كأنما هم أعلم من الله وأحكم من الله ! أو كأنما لهم شركاء من دون الله يشرعون لهم مالم يأذن به الله ! وليس أخيب من ذلك ولا أجرأ على الله !

لقد شرع الله للبشرية مايعلم سبحانه ، أنه يتناسق مع طبيعتها وفطرتها وطبيعة الكون الذي تعيش فيه وفطرته . ومن ثم يحقق لهذه البشرية أقصى درجات التعاون فيما بينها ، والتعاون كذلك مع القوى الكونية الكبرى . شرع في هذا كله أصولا ، وترك للبشر فقط استنباط التشريعات الجزئية المتجددة مع حاجات الحياة المتجددة ، في حدود المنهج الكلي والتشريعات

Marfat.com

Marfat.com

العامة . فإذا ما اختلف البشر فى شىء من هذا ردوه إلى الله ؛ ورجعوا به إلى تلك الأصول الكلية التى شرعها للناس ، لتبقى ميزانا يزن به البشر كل تشريع جزئى وكل تطبيق .

بذلك يتوحد مصدر التشريع ، ويكون الحكم لله وحده . وهو خير الحاكمين . وما عدا هذا النهج فهو خروج على شريعة الله ، وعلى دين الله ، وعلى ماوصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا عليهم الصلاة والسلام .

« ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم » . .

فقد قال الله كلمة الفصل بإمهالهم إلى يوم القول الفصل . ولولاها لقضى الله بينهم ، فأخذ المخالفين لما شرعه الله ، المتبعين لشرع من عداه . لأخذهم بالجزاء العاجل . ولكنه أمهلهم ليوم الجزاء .

« وإن الظالمين لهم عذاب أليم » . .

فهذا هو الذى ينتظرهم جزاء الظلم. وهل أظلم من المخالفةعن شرع الله إلى شرع من عداه؟ ومن ثم يعرض هؤلاء الظالمين فى مشهد من مشاهد القيامة . يعرضهم مشفقين خائفين من العذاب وكانوا من قبلَ لا يشفقون ، بل يستعجلون ويستهترون :

« ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم » . .

والتعبير العجيب يجعل إشفاقهم « مما كسبوا » فكأنما هو غول مفزع ؛ وهو هو الذى كسبوه وعملوه بأيديهم وكانوا به فرحين ! ولكنهم اليوم يشفقون منه ويفزعون « وهوواقع بهم » . . وكأنه هو بذاته انقلب عذابا لامخلص منه ، وهو واقع بهم !

وفى الصفحة الأخرى نجد المؤمنين الذين كانوا يشفقون من هذا اليوم ويخافون. نجدهم فى أمن وعافية ورخاء :

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات ، لهم ما يشاءون عند ربهم . ذلك هو الفضل الكبير . ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات » . .

والتعبير كله رُخاء يرسم ظلال الرخاء : « فى روضات الجنات » .. « لهم ما يشاءون عند ربهم» بلا حدود ولا قيود . « ذلك هو الفضل الكبير » .. «ذلك الذى يبشرالله عباده» فهو بشرى حاضرة ، مصداقا للبشرى السالفة . وظل البشرى هنا هو أنسب الظلال .

وعلى مشهد هذا النعيم الرخاء الجميل الظليل يلقن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يقول

لهم : إنه لايطلب منهم أجرا على الهدى الذى ينتهى بهم إلى هـذا النعيم ، وينأى بهم عن ذلك العذاب الأليم . إنما هى مودته لهم لقرابتهم منه ، وحسبه ذلك أجرا :

« قل : لاأسألكم عليه أجرا . إلا المودة فى القربى . ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا. إن الله غفور شكور » . .

والمعنى الذى أشرت إليه ، وهو أنه لايطلب منهم أجرا ، إنما تدفعه المودة للقربى ـ وقد كانت لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرابة بكل بطن من بطون قريش ـ ليحاول هدايتهم بما معه من الهدى ، ويحقق الخير لهم إرضاء لتلك المودة التى يحملها لهم ، وهذا أجره وكفى !

هذا المعنى هو الذى انقدح فى نفسى وأنا أقرأ هـذا التعبير القرآنى فى مواضعه التى جاء فيها . وهناك تفسير مروى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أثبته هنا لوروده فى صحيح البخارى :

قال البخارى حدثنا محمد ابن بشار ، حـدثنا محمد ابن جعفر ، حدثنا شعبة عن عبد الملك ابن ميسرة ، قال : سمعت طاووسا يحدث عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه سأل عن قوله تعالى : « إلا المودة فى القربى » فقال سعيد بن جبير : « قربى آل محمد . فقال ابن عباس : عجلت . إن النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لم يكن بطن من بطون قريش إلا كان له فيهم قرابة . فقال : إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة » .

ويكون المعنى على هذا : إلا أن تكفوا أذاكم مراعاة للقرابة . وتسمعوا وتلينوا لما أهديكم إليه . فيكون هذا هو الأجر الذى أطلبه منكم لا سواه .

وتأويل ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أقرب من تأويل سعيد ابن جبير ـ رضى الله عنه ـ ولكننى ما أزال أحس أن ذلك المعنى أقرب وأندى . . والله أعلم بمراده منا .

وعلى أية حال فهو يذكرهم ـ أمام مشهد الروضات والبشارات ـ أنه لا يسألهم على شىء من هذا أجرا . ودون هذا بمراحل يطلب عليه الأدلاء أجرا ضخما ! ولكنه فضل الله الذى لايحاسب العباد حساب التجارة ، ولا حساب العدل ، ولكن حساب السماحة وحساب الفضل:

« ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا » . .

فليس هو مجرد عدم تناول الأجر . بل إنها الزيادة والفضل . . ثم هى بعد هذا كله المغفرة والشكر :

Marfat.com

Marfat.com

« إن الله غفور شكور » . .

الله يغفر . ثم . . الله يشكر . . ويشكر من ؟ يشكر لعباده . وهو وهبهم التوفيق على الإحسان . ثم هو يزيد لهم فى الحسنات ، ويغفر لهم السيئات . ويشكر لهم بعد هذا وذاك . . فياللفيض الذى يعجز الإنسان عن متابعته . فضلا على شكره وتوفيته !

* * *

ثم يعود إلى الحديث عن تلك الحقيقة الأولى :

« أم يقولون : افترى على الله كذبا ؟ فإن يشأ الله يختم على قلبك ، ويمح الله الباطل ، ويحق الحق بكلماته ، إنه عليم بذات الصدور » .

هنا يأتى على الشبهة الأخيرة ، التى قد يعللون بها موقفهم من ذلك الوحى ، الذى تحدث عن مصدره وعن طبيعته وعن غايته فى الجولات الماضية :

« أم يقولون : افترى على الله كذبا ؟ » . .

فهم من ثم لا يصدقونه ، لأنهم يزعمون أنه لم يوح إليه ، ولم يأته شىء من الله ؟

ولكن هذا قول مردود . فما كان الله ليدع أحدا يدعى أن الله أوحى إليه ، وهو لم يوح إليه شيئا ، وهو قادر على أن يختم على قلبه ، فلا ينطق بقرآن كهذا . وأن يكشف الباطل الذى جاء به ويمحوه . وأن يظهر الحق من ورائه ويثبته :

« فإن يشأ الله يختم على قلبك ، ويمح الله الباطل ، ويحق الحق بكلماته »

وما كان ليخفى عليه ما يدور فى خلد محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى قبل أن يقوله :

« إنه عليم بذات الصدور » . .

فهى شبهة لا قوام لها . وزعم لا يقوم على أساس . ودعوى تخالف المهود عن علم الله بالسرائر ، وعن قدرته على ما يريد ، وعن سنته فى إقرار الحق وإزهاق الباطل . . وإذن فهذا الوحى حق ، وقول محمد صدق ؛ وليس التقول عليه إلا الباطل والظلم والضلال . . وبذلك ينتهى القول ــ مؤقتا ــ فى الوحى . ويأخذ بهم فى جولة أخرى وراء هذا القرار .

« وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ، وَيَعْفُوا عَنِ ٱلسَّيِّئَاتِ ، وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَٱلْكَافِرُونَ لَهُمْ

عَذَابٌ شَدِيدٌ * وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ، وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ .

« وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ، وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ

« وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ؛ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ - إِذَا يَشَاءُ - قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

« وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ، وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ * وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ .

« فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ، وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ، فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ، وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ .

« وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ، وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ : هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ؟ * وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ؛ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا : إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ

Marfat.com

Marfat.com

وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ * وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ .

« اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ، مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ * فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ، إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ، وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ .

« لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا ، وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ، وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ، إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ .

« وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ * وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » ﴿٥٣﴾

هذا القسم الثانى من السورة يمضى فى الحديث عن دلائل الإيمان فى الأنفس والآفاق، وعن آثار القدرة فيما يحيط بالناس ، وفيما يتعلق مباشرة بحياتهم ومعاشهم ، وفى صفة المؤمنين التى تميز جماعتهم .. وذلك بعد الحديث فى القسم الأول عن الوحى والرسالة من جوانبها المتعددة .. ثم يعود فى نهاية السورة إلى الحديث عن طبيعة الوحى وطريقته . وبين القسمين اتصاله ظاهر ، فهما طريقان إلى القلب البشرى ، يصلانه بالوحى والإيمان .

***

« وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ، ويعلم ماتفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ، والكافرون لهم عذاب شديد . ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض . ولكن ينزل بقدر مايشاء ، إنه بعباده خبير بصير » . .

تجىء هذه اللمسة بعد ماسبق من مشهد الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم، ومشهد الذين آمنوا فى روضات الجنات . ونفى كل شبهة عن صدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما بلغهم به عن الله . وتقرير علم الله بذوات الصدور .

تجىء لترغيب من يريد التوبة والرجوع عما هو فيه من ضلالة ، قبل أن يقضى فى الأمر القضاء الأخير . ويفتح لهم الباب على مصراعيه : فالله يقبل عنهم التوبة ، ويعفو عن السيئات ؛ فلا داعى للقنوط واللجاج فى المعصية ، والخوف مما أسلفوا من ذنوب . والله يعلم ما يفعلون . فهو يعلم التوبة الصادقة ويقبلها . كما يعلم ما أسلفوا من السيئات ويغفرها .

وفى ثنايا هذه اللمسة يعود إلى جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات يستجيبون لدعوة ربهم،وهو يزيدهم من فضله . «والكافرون لهم عذاب شديد » . . وباب التوبة مفتوح للنجاة من العذاب الشديد ، وتلقى فضل الله لمن يستجيب .

وفضل الله فى الآخرة بلا حساب ، وبلا حدود ولا قيود . فأما رزقه لعباده فى الأرض فهو مقيد محدود ؛ لما يعلمه ـ سبحانه ـ من أن هؤلاء البشر لا يطيقون ـ فى الأرض ـ أن يتفتح عليهم فيض الله غير المحدود :

« ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ، ولكن ينزل بقدر ما يشاء . إنه بعباده خبير بصير » . .

وهذا يصور نزارة مافى هذه الحياة الدنيا من أرزاق ـ مهما كثرت ـ بالقياس إلى مافى الآخرة من فيض غزير . فالله يعلم أن عباده . هؤلاء البشر . لايطيقون الغنى إلا بقدر ، وأنه لو بسط لهم فى الرزق ـ من نوع مايبسط فى الآخرة ـ لبغوا وطغوا . إنهم صغار لا يملكون التوازن . ضعاف لا يحتملون إلا إلى حد . والله بعباده خبير بصير . ومن ثم جعل رزقهم فى هذه الأرض مقدرا محدودا ، بقدر مايطيقون . واستبقى فيضه المبسوط لمن ينجحون فى بلاء الأرض ، ويجتازون امتحانها ، ويصلون إلى الدار الباقية بسلام . ليتلقوا فيض الله المذخور لهم بلا حدود ولا قيود .

***

Marfat.com

« وهو الذى ينزل الغيث من بعد ماقنطوا ، وينشر رحمته ، وهو الولى الحميد » ..

وهذه لمسة أخرى كذلك تذكرهم بجانب من فضل الله على عباده فى الأرض . وقد غاب عنهم الغيث ، وانقطع عنهم المطر ، ووقفوا عاجزين عن سبب الحياة الأول .. الماء .. وأدركهم اليأس والقنوط . ثم ينزل الله الغيث ، ويسعفهم بالمطر ، وينشر رحمته ، فتحيا الأرض ، ويخضر اليابس ، وينبت البذر ، ويترعرع النبات ، ويلطف الجو ، وتنطلق الحياة ، ويدب النشاط ، وتنفرج الأسارير ، وتتفتح القلوب ، وينبض الأمل ، ويفيض الرجاء .. وما بين القنوط والرحمة إلا لحظات . تتفتح فيها أبواب الرحمة ، فتتفتح أبواب السماء بالماء .. « وهو الولى الحميد » .. وهو النصير والكافل المحمود الذات والصفات ..

واللفظ القرآنى المختار للمطر فى هذه المناسبة .. « الغيث » .. يلقى ظل الغوث والنجدة ، وتلبية المضطر فى الضيق والكربة . كما أن تعبيره عن آثار الغيث .. « وينشر رحمته » .. يلقى ظلال النداوة والخضرة والرجاء والفرح ، التى تنشأ فعلا عن تفتح النبات فى الأرض وارتقاب الثمار . ومامن مشهد يريح الحس والأعصاب ، ويندى القلب والمشاعر ، كمشهد الغيث بعد الجفاف . ومامن مشهد ينفض هموم القلب وتعب النفس كمشهد الأرض تتفتح بالنبت بعد الغيث، وتتشى بالخضرة بعد الموات .

* * *

« ومن آياته خلق السماوات والأرض ، وما بث فيهما من دابة . وهو على جمعهم إذا يشاء قدير . وماأصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ، ويعفو عن كثير . وماأنتم بمعجزين فى الأرض ، وما لكم من دون الله من ولى ولانصير » ..

وهذه الآية الكونية معروضة على الأنظار ، قائمة تشهد بذاتها على ماجاء الوحى ليشهد به ، فارتابوا فيه واختلفوا فى تأويله . وآية السماوات والأرض لاتحتمل جدلا ولا ريبة . فهى قاطعة فى دلالتها ، تخاطب الفطرة بلغتها ، ومايجادل فيها مجادل وهو جاد . إنها تشهد بأن الذى أنشأها ودبرها ليس هو الإنسان ، ولاغيره من خلق الله . ولامفر من الاعتراف بمنشىء مدبر . فإن ضخامتها الهائلة ، وتناسقها الدقيق ، ونظامها الدائب ، ووحدة نواميسها الثابتة .. كل أولئك لايمكن تفسيره عقلا إلا على أساس أن هناك إلها أنشأها ويدبرها . أماالفطرة فهى تتلقى منطق هذا الكون تلقيامباشرا ،وتدركه وتطمئن إليه ، قبل أن تسمع عنه كلمة واحدة من خارجها!

Marfat.com

Marfat.com

وتنطوى آية السماوات والأرض على آية أخرى فى ثناياها : « ومابث فيهما من دابة » . . والحياة فى هذه الأرض وحدها ـ ودع عنك مافى السماوات من حيوات أخرى لاندركها ـ آية أخرى. وهى سر لم ينفذ إلى طبيعته أحد ،فضلا على التطلع إلى إنشائه . سر غامض لايدرى أحد من أين جاء ، ولا كيف جاء ، ولا كيف يتلبس بالأحياء ! و كل المحاولات التى بذلت للبحث عن مصدره أوطبيعته أغلقت دونها الستر والأبواب ؛وانحصرت البحوث كلها فى تطور الأحياء ـ بعد وجود الحياة ـ وتنوعها ووظائفها ؛ وفى هذا الحيز الضيق المنظور اختلفت الآراء والنظريات . فأما ماوراء الستر فبقى سرا خافيا لاتمتد إليه عين ، ولايصل إليه إدراك . . إنه من أمر الله . الذى لايدركه سواه .

هذه الأحياء المبثوثة فى كل مكان . فوق سطح الأرض وفى ثناياها . وفى أعماق البحر وفى أجواز الفضاء ـ ودع عنك تصور الأحياء الأخرى فى السماء ـ هذه الأحياء المبثوثة التى لايعلم الإنسان منها إلاالنزر اليسير ، ولا يدرك منها بوسائله المحدودة إلا القليل المشهور . هذه الأحياء التى تدب فى السماوات والأرض يجمعها الله حين يشاء ، لايضل منها فرد واحد ولا يغيب !

وبنو الإنسان يعجزهم أن يجمعوا سربا من الطير الأليف ينفلت من أقفاصهم ، أو سربا من النحل يطير من خلية لهم !

وأسراب من الطير لايعلم عددها إلا الله . وأسراب من النحل والنمل وأخواتها لا يحصيها إلا الله . وأسراب من الحشرات والهوام والجراثيم لا يعلم مواطنها إلا الله . وأسراب من الأسماك وحيوان البحر لايطلع عليها إلا الله . وقطعان من الأنعام والوحش سائمة وشاردة فى كل مكان، وقطعان من البشر مبثوثة فى الأرض فى كل مكان . . ومعها خلائق أربى عددا وأخفى مكانا فى السماوات من خلق الله . . كلها . . كلها . . يجمعها الله حين يشاء . .

وليس بين بثها فى السماوات والأرض وجمعها إلا كلمة تصدر . والتعبير يقابل بين مشهد البث ومشهد الجمع فى لمحة على طريقة القرآن ؛ فيشهد القلب هذين المشهدين الهائلين قبل أن ينتهى اللسان من آية واحدة قصيرة من القرآن !

وفى ظل هذين المشهدين يحدثهم عما يصيبهم فى هذه الحياة بما كسبت أيديهم . لا كله . فإن الله لايؤاخذهم بكل مايكسبون . ولكن يعفو منه عن كثير . ويصور لهم عجزهم ويذكرهم به، وهم قطاع صغير فى عالم الأحياء الكبير :

Marfat.com

« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير . وما أنتم بمعجزين فى الأرض ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير » .

وفى الآية الأولى يتجلى عدل الله ، وتتجلى رحمته بهذا الإنسان الضعيف . فكل مصيبة تصيبه لها سبب مما كسبت يداه ؛ ولكن الله لا يؤاخذه بكل مايقترف ؛ وهو يعلم ضعفه وما ركب فى فطرته من دوافع تغلبه فى أكثر الأحيان ، فيعفو عن كثير ، رحمة منه وسماحة .

وفى الآية الثانية يتجلى ضعف هذا الإنسان ، فما هو بمعجز فى الأرض ، وماله من دون الله من ولى ولا نصير . فأين يذهب إلا أن يلتجىء إلى الولى والنصير ؟

***

« ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام . إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره . إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور . أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير . ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا مالهم من محيص » . .

والسفن الجوارى فى البحر كالجبال آية أخرى من آيات الله . آية حاضرة مشهودة . آية تقوم على آيات كلها من صنع الله دون جدال . هذا البحر من أنشأه ؟ مَن مِن البشر أو غيرهم يدعى هذا الادعاء ؟ ومن أودعه خصائصه من كثافة وعمق وسعة حتى يحمل السفن الضخام ؟ وهذه السفن من أنشأ مادتها وأودعها خصائصها فجعلها تطفو على وجه الماء ؟ وهذه الريح التى تدفع ذلك النوع من السفن التى كانت معلومة وقتها للمخاطبين (وغير الريح من القوى التى سخرت للإنسان فى هذا الزمان من بخار أوذرة أو ما يشاء الله بعد الآن) من جعلها قوة فى هذا الكون تحرك الجوارى فى البحر كالأعلام ؟ . .

« إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره » . .

وإنها لتركد أحيانا فتهمد هذه الجوارى وتركد كما لو كانت قد فارقتها الحياة !

« إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . .

فى إجرائهن وفى ركودهن على السواء آيات لكل صبار شكور . والصبر والشكر كثيرا ما يقترنان فى القرآن . الصبر على الابتلاء والشكر على النعماء ؛ وهما قوام النفس المؤمنة فى الضراء والسراء .

« أو يوبقهن بما كسبوا » . .

فيحطمهن أو يغرقهن بما كسب الناس من ذنب ومعصية ومخالفة عن الإيمان الذى تدين به الخلائق كلها ، فيما عدا بعض بنى الإنسان !

« ويعف عن كثير » . .

فلا يؤاخذ الناس بكل مايصدر منهم من آثام ، بل يسمح ويعفو ويتجاوز منها عن كثير .

« ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا مالهم من محيص » . .

لو شاء الله أن يقفهم أمام بأسه ، ويوبق سفائنهم ، وهم لا يملكون منها نجاة !

وهكذا يشعرهم بأن ما يملكون من أعراض هذه الحياة الدنيا ، عرضة كله للذهاب . فلا ثبات ولا استقرار لشىء إلا الصلة الوثيقة بالله .

* * *

ثم يخطو بهم خطوة أخرى ، وهو يلفتهم إلى أن كل ماأوتوه فى هذه الأرض متاع موقوت فى هذه الحياة الدنيا . وأن القيمة الباقية هى التى يدخرها الله فى الآخرة للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . ويستطرد فيحدد صفة المؤمنين هؤلاء ، بما يميزهم ، ويفردهم أمة وحدهم ذات خصائص وسمات !

« فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون . والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لايحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل . إنماالسبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم . ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » . .

لقد سبق فى السورةأن صورالقرآنحالة البشرية ؛ وهو يشير إلىأن الذين أوتوا الكتاب تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم العلم ؛ وكان تفرقهم بغيابينهم لاجهلا بما نزل الله لهم من الكتاب ، وبما سن لهم من نهج ثابت مطرد من عهد نوح إلى عهد إبراهيم إلى عهد موسى إلى عهد عيسى — عليهم صلوات الله — وهو يشير كذلك إلى أن الذين أورثوا الكتاب بعد أولئك المختلفين ، ليسوا على ثقة منه ، بل هم فى شك منه مريب .

Marfat.com

Marfat.com

وإذا كان هذا حال أهل الأديان المنزلة ، وأتباع الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ فحال أولئك الذين لايتبعون رسولا ولايؤمنون بكتاب أضل وأعمى .

ومن ثم كانت البشرية في حاجة إلى قيادة راشدة ، تنقذها من تلك الجاهلية العمياء التي كانت تخوض فيها . وتأخذ بيدها إلى العروة الوثقى ؛ وتقود خطاها في الطريق الواصل إلى الله ربها ورب هذا الوجود جميعا .

ونزل الله الكتاب على عبده محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرآنا عربيا ، لينذر أم القرى ومن حولها ؛ وشرع فيه ماوصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ، ليصل بين حلقات الدعوة منذ فجر التاريخ ، ويوحد نهجها وطريقها وغايتها ؛ ويقيم بها الجماعة المسلمة التي تهيمن وتقود ؛ وتحقق في الأرض وجود هذه الدعوة كما أرادها الله ، وفي الصورة التي يرتضيها .

وهنا في هذه الآيات يصور خصائص هذه الجماعة التي تطبعها وتميزها . ومع أن هذه الآيات مكية ، نزلت قبل قيام الدولة المسلمة في المدينة ، فإننا نجد فيها أن من صفة هذه الجماعة المسلمة : « وأمرهم شورى بينهم » .. مما يوحي بأن وضع الشورى أعمق في حياة المسلمين من مجرد أن تكون نظاما سياسيا للدولة ، فهو طابع أساسي للجماعة كلها ، يقوم عليه أمرها كجماعة ، ثم يتسرب من الجماعة إلى الدولة ، بوصفها إفرازا طبيعيا للجماعة . كذلك نجد من صفة هذه الجماعة : « والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون » .. مع أن الأمر الذي كان صادرا للمسلمين في مكة هو أن يصبروا وألا يردوا العدوان بالعدوان ؛ إلى أن صدر لهم أمر آخر بعد الهجرة وأذن لهم في القتال . وقيل لهم : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » . وذكر هذه الصفة هنا في آيات مكية بصدد تصوير طابع الجماعة المسلمة يوحي بأن صفة الانتصار من البغي صفة أساسية ثابتة ؛ وأن الأمر الأول بالكف والصبر كان أمرا استثنائيا لظروف معينة . وأنه لما كان المقام هنا مقام عرض الصفات الأساسية للجماعة المسلمة ذكر منها هذه الصفة الأساسية الثابتة ، ولو أن الآيات مكية ، ولم يكن قد أذن لهم بعد في الانتصار من العدوان .

وذكر هذه الصفات المميزة لطابع الجماعة المسلمة ، المختارة لقيادة البشرية وإخراجها من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام . ذكرها في سورة مكية وقبل أن تكون القيادة العملية في يدها فعلا ، جدير بالتأمل . فهي الصفات التي يجب أن تقوم أولا ، وأن تتحقق في الجماعة لكي

تصبح بها صالحة للقيادة العملية . ومن ثم ينبغي أن نتدبرها طويلا .. ماهي ؟ ما حقيقتها ؟ وما قيمتها فى حياة البشرية جميعا ؟

إنها الإيمان . والتوكل . واجتناب كبائر الإثم والفواحش . والمغفرة عند الغضب . والاستجابة لله . وإقامة الصلاة . والشورى الشاملة . والإنفاق مما رزق الله . والانتصار من البغي . والعفو . والإصلاح . والصبر .

فما حقيقة هذه الصفات وماقيمتها ؟ يحسن أن نبين هذا ونحن نستعرض الصفات فى نسقها القرآنى .

إنه يقف الناس أمام الميزان الإلهى الثابت لحقيقة القيم . القيم الزائلة والقيم الباقية ؛ كى لايختلط الأمر فى نفوسهم ، فيختل كل شيء فى تقديرهم . ويجعل هذا الميزان مقدمة لبيان صفة الجماعة المسلمة :

« وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ، وماعند الله خير وأبقى » . .

إن فى هذه الأرض متاعا جذابا براقا ، وهناك أرزاق وأولاد وشهوات ولذائذ وجاه وسلطان ؛ وهناك نعم آتاها الله لعباده فى الأرض تلطفا منه وهبة خالصة ، لايعلقها بمعصية ولاطاعة فى هذه الحياة الدنيا . وإن كان يبارك للطائع - ولو فى القليل - ويمحق البركة من العاصى ولو كان فى يده الكثير .

ولكن هذا كله ليس قيمة ثابتة باقية . إنما هو متاع . متاع محدود الأجل . لايرفع ولايخفض ، ولايعد بذاته دليل كرامة عند الله أو مهانة ؛ ولايعتبر بذاته علامة رضى من الله أوغضب . إنما هو متاع . « وماعند الله خير وأبقى » .. خير فى ذاته . وأبقى فى مدته . فمتاع الحياة الدنيا زهيد حين يقاس إلى ماعند الله ، ومحدود حين يقاس إلى الفيض المنساب . ومتاع الحياة الدنيا معدود الأيام . أقصى أمده للفرد عمر الفرد ، وأقصى أمده للبشرية عمر هذه البشرية ؛ وهو بالقياس إلى أيام الله ومضة عين أوتكاد !

وبعد تقرير هذه الحقيقة يأخذ فى بيان صفة المؤمنين الذين يدخر الله لهم ماهو خير وأبقى..

ويبدأ بصفة الإيمان : « وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا » .. وقيمة الإيمان أنه معرفة بالحقيقة الأولى التى لا تقوم فى النفس البشرية معرفة صحيحة لشيء فى هذا الوجود إلا عن طريقها . فمن طريق الإيمان بالله ينشأ إدراك لحقيقة هذا الوجود ، وأنه من صنع الله ؛ وبعد

Marfat.com

إدراك هذه الحقيقة يستطيع الإنسان أن يتعامل مع الكون وهو يعرف طبيعته كما يعرف قوانينه التى تحكمه . ومن ثم ينسق حركته هو مع حركة هذا الوجود الكبير ، ولا ينحرف عن النواميس الكلية ، فيسعد بهذا التناسق ، ويمضى مع الوجود كله إلى بارىء الوجود فى طاعة واستسلام وسلام . وهذه الصفة لازمة لكل إنسان ، ولكنها ألزم ما تكون للجماعة التى تقود البشرية إلى بارىء الوجود .

وقيمة الإيمان كذلك الطمأنينة النفسية ، والثقة بالطريق ، وعدم الحيرة أو التردد ، أو الخوف أو اليأس . وهذه الصفات لازمة لكل إنسان فى رحلته على هذا الكوكب ؛ ولكنها ألزم ماتكون للقائد الذى يرتاد الطريق ، ويقود البشرية فى هذا الطريق .

وقيمة الإيمان التجرد من الهوى والغرض والصالح الشخصى وتحقيق المغانم . إذ يصبح القلب متعلقا بهدف أبعد من ذاته ؛ ويحس أن ليس لهمن الأمرشىء ، إنما هى دعوة الله ، وهو فيها أجير عند الله ! وهذا الشعور ألزم ما يكون لمن توكل إليه مهمة القيادة كى لا يقنط إذا أعرض عنه القطيع الشارد أو أوذى فى الدعوة ؛ ولايغتر إذا مااستجابت له الجماهير ، أو دانت له الرقاب . فإنما هو أجير !

ولقد آمنت العصبة الأولى من المسلمين إيمانا كاملا أثر فى نفوسهم وأخلاقهم وسلوكهم تأثيرا عجيبا . وكانت صورة الإيمان فى نفس البشرية قد بهتت وغمضت حتى فقدت تأثيرها فى أخلاق الناس وسلوكهم ، فلما أن جاء الإسلام أنشأ صورة للإيمان حية مؤثرة فاعلة تصلح بها هذه العصبة للقيادة التى وضعت على عاتقها .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » . عن هذا الإيمان :

« انحلت العقدة الكبرى ـ عقدة الشرك والكفر ـ فانحلت العقد كلها ؛ وجاهدهم الرسول جهاده الأول ، فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر ونهى ؛ وانتصر الإسلام على الجاهلية فى المعركة الأولى ، فكان النصر حليفه فى كل معركة ؛ وقد دخلوا فى السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة ، لا يشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ، ولا يجدون فى أنفسهم حرجا مما قضى ، ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى . . . »[1]

---

(١) ص ٧٣ الطبعة الثانية .

Marfat.com

«حتى إذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم- بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم -وأنصفوا من أنفسهم إنصافهم من غيرهم ، وأصبحوا فى الدنيا رجال الآخرة ، وفى اليوم رجال الغد ، لا تجزعهم مصيبة ، ولا تبطرهم نعمة ، ولا يشغلهم فقر ، ولا يطغيهم غنى ، ولا تلهيهم تجارة ، ولا تستخفهم قوة ، ولا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ،وأصبحوا للناس القسطاس المستقيم ، قوامين بالقسط شهداء لله على أنفسهم أو الوالدين والأقربين . وطأ لهم أكناف الأرض ، وأصبحوا عصمة للبشرية ، ووقاية للعالم . وداعية إلى دين الله . . . »(١)

ويقول عن تأثير الإيمان الصحيح فى الأخلاق والميول :

« كان الناس عربا وعجما يعيشون حياة جاهلية ، يسجدون فيها لكل ما خلق لأجلهم وخضع لإرادتهم وتصرفهم ، لا يثيب الطائع بجائزة ، ولا يعذب العاصى بعقوبة ، ولا يأمر ولا ينهى؛فكانت الديانة سطحية طافية فى حياتهم،ليس لها سلطان على أرواحهم ونفوسهم وقلوبهم . ولا تأثير لها فى أخلاقهم واجتماعهم . كانوا يؤمنون بالله كصانع أتم عمله واعتزل وتنازل عن مملكته لأناس خلع عليهم خلعة الربوبية ؛ فأخذوا بأيديهم أزمة الأمر ، وتولوا إدارة المملكة وتدبير شؤونها وتوزيع أرزاقها ، إلى غير ذلك من مصالح الحكومة المنظمة . فكان إيمانهم بالله لا يزيد على معرفة تاريخية . وكان إيمانهم بالله،وإحالتهم خلق السماوات والأرض إلى الله لا يختلف عن جواب تلميذ من تلاميذ فن التاريخ ، يقال له : من بنى هذا القصر العتيق ؟ فيسمى ملكا من الملوك الأقدمين من غير أن يخافه ويخضع له ؛ فكان دينهم عاريا عن الخشوع لله ودعائه ، وما كانوا يعرفون عن الله ما يحببه إليهم ، فكانت معرفتهم مبهمة غامضة ، قاصرة مجملة . لا تبعث فى نفوسهم هيبة ولا محبة . . .

« . . . انتقل العرب والذين أسلموا من هذه المعرفة العليلة الغامضة الميتة إلى معرفة عميقة واضحة روحية ذات سلطان على الروح والنفس والقلب والجوارح ، ذات تأثير فى الأخلاق والاجتماع ، ذات سيطرة على الحياة وما يتصل بها . آمنوا بالله الذى له الأسماء الحسنى والمثل الأعلى . آمنوا برب العالمين ، الرحمان الرحيم ، مالك يوم الدين ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصور ، العزيز ، الحكيم ، الغفور ، الودود ، الرؤوف ، الرحيم ، له الخلق والأمر ، بيده ملكوت كل شىء ، يجير ولا يجار

---

(١) ص ٧٤ الطبعة الثانية .

Marfat.com

عليه . . . إلى آخر ما جاء فى القرآن من وصفه . يثيب بالجنة ويعذب بالنار ، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، يعلم الخبء فى السماوات والأرض ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . إلى آخر ما جاء فى القرآن من قدرته وتصرفه وعلمه . فانقلبت نفسيتهم بهذا الإيمان الواسع العميق الواضح انقلابا عجيبا . فإذا آمن أحد بالله وشهد أن لا إله إلا الله انقلبت حياته ظهرا لبطن . تغلغل الإيمان فى أحشائه وتسرب إلى جميع عروقه ومشاعره ، وجرى منه مجرى الروح والدم ، واقتلع جراثيم الجاهلية وجذورها ، وغمر العقل والقلب بفيضانه ، وجعل منه رجلا غير الرجل ، وظهر منه من روائع الإيمان واليقين والصبر والشجاعة ، ومن خوارق الأفعال والأخلاق ماحير العقل والفلسفة وتاريخ الأخلاق ، ولا يزال موضع حيرة ودهشة منه إلى الأبد ، وعجز العلم عن تعليله بشىء غير الإيمان الكامل العميق »[1]

«وكان هذا الإيمان مدرسة خلقية وتربية نفسية تملى على صاحبها الفضائل الخلقية من صرامة إرادة وقوة نفس ، ومحاسبتها والإنصاف منها ، وكان أقوى وازع عرفه تاريخ الأخلاق وعلم النفس عن الزلات الخلقية والسقطات البشرية ؛ حتى إذا جمحت السورة البهيمية فى حين من الأحيان ، وسقط الإنسان سقطة وكان ذلك حيث لا تراقبه عين ، ولا تتناوله يد القانون ، تحول هذا الإيمان نفسا لوامة عنيفة ، ووخزا لاذعا للضمير ، وخيالا مروعا ، لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون ، ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة ، ويتحملها مطمئنا مرتاحا ، تفاديا من سخط الله وعقوبة الآخرة[2]» . .

« . . . وكان هذا الإيمان حارسا لأمانة الإنسان وعفافه وكرامته ، يملك نفسه النزّاع أمام المطامع والشهوات الجارفة ؛ وفى الخلوة والوحدة حيث لا يراه أحد ، وفى سلطانه ونفوذه حيث لا يخاف أحدا . وقد وقع فى تاريخ الفتح الإسلامى من قضايا العفاف عند المغنم ، وأداء الأمانات إلى أهلها ، والإخلاص لله ، ما يعجز التاريخ البشرى عن نظائره ، وماذاك إلا نتيجة رسوخ الإيمان ، ومراقبة الله واستحضار علمه فى كل مكان وزمان »[3]

« وكانوا قبل هذا الإيمان فى فوضى من الأفعال والأخلاق والسلوك والأخذ والترك والسياسة والاجتماع ، لا يخضعون لسلطان ، ولا يقرون بنظام ، ولا ينخرطون فى سلك ،

---

(١) ص ٧٥ـ٧٦ الطبعة الثانية . (٢) ص ٧٦ .

(٣) ص ٧٧ .

Marfat.com

Marfat.com

يسيرون على الأهواء ، ويركبون العمياء ، ويخبطون خبط عشواء . فأصبحوا الآن فى حظيرة الإيمان والعبودية لا يخرجون منها ، واعترفوا لله بالملك والسلطان ، والأمر والنهى ، ولأنفسهم بالرعوية والعبودية والطاعة المطلقة ، وأعطوا من أنفسهم القيادة ، واستسلموا للحكم الإلهى استسلاما كاملا ووضعوا أوزارهم،وتنازلوا عن أهوائهم وأنانيتهم، وأصبحوا عبيدا لا يملكون مالا ولا نفسا ولا تصرفا فى الحياة إلا ما يرضاه الله ويسمح به ، لا يحاربون ولا يصالحون إلا بإذن الله ، ولا يرضون ولا يسخطون ، ولا يعطون ولا يمنعون ، ولا يصلون ولا يقطعون إلا بإذنه ووفق أمره »(1)

وهذا هو الإيمان الذى تشير إليه الآية وهى تصف الجماعة التى اختيرت لقيادة البشرية بهذه العقيدة . ومن مقضيات هذا الإيمان التوكل على الله . ولكن القرآن يفرد هذه الصفة بالذكر ويبرزها :

« وعلى ربهم يتوكلون » . .

وهذا التقديم والتأخير فى تركيب الجملة يفيد.قصر التوكل على ربهم دون سواه . والإيمان بالله الواحد يقتضى التوكل عليه دون سواه . فهذا هو التوحيد فى أول صورة من صوره . إن المؤمن يؤمن بالله وصفاته ، ويستيقن أنه لا أحد فى هذا الوجود يفعل شيئا إلا بمشيئته ، وأنه لاشىء يقع فى هذا الوجود إلا بإذنه . ومن ثم يقصر توكله عليه ، ولا يتوجه فى فعل ولا ترك لمن عداه .

وهذا الشعور ضرورى لكل أحد ، كى يقف رافع الرأس لا يحنى رأسه إلا لله . مطمئن القلب لا يرجو ولا يرهب أحدا إلا الله . ثابت الجأش فى الضراء ؛ قرير النفس فى السراء ، لا تستطيره نعماء ولا بأساء . . ولكن هذا الشعور أشد ضرورة للقائد ، الذى يحتمل تبعة ارتياد الطريق .

« والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش » . .

وطهارة القلب ، ونظافة السلوك من كبائر الإثم ومن الفواحش ، أثر من آثار الإيمان الصحيح . وضرورة من ضرورات القيادة الراشدة . وما يبقى قلب على صفاء الإيمان ونقاوته

(1) ص ٨١ .

Marfat.com

وهو يتقدم على كبائر الذنوب والمعاصى ولا يتجنبها . وما يصلح قلب للقيادة وقد فارقه صفاء الإيمان وطمسته المعصية وذهبت بنوره .

ولقد ارتفع الإيمان بالحساسية المرهفة فى قلوب العصبة المؤمنة ، حتى بلغت تلك الدرجة التى أشارت إليها المقتطفات السابقة (ص٧٧) وأهلت الجماعة الأولى لقيادة البشرية قيادة غير مسبوقة ولا ملحوقة . ولكنها كالسهم يشير إلى النجم ليهتدى به من يشاء فى معترك الشهوات !

والله يعلم ضعف هذا المخلوق البشرى ، فيجعل الحد الذى يصلح به للقيادة ، والذى ينال معه ماعند الله ، هو اجتناب كبائر الإثم والفواحش . لاصغائر الإثم والذنب . وتسعه رحمته بما يقع منه من هذه الصغائر ، لأنه أعلم بطاقته . وهذا فضل من الله وسماحة ورحمة بهذا الإنسان ؛ توجب الحياء من الله ، فالسماحة تخجل والعفو يثير فى القلب الكريم معنى الحياء .

« وإذا ماغضبوا هم يغفرون » ..

وتأتى هذه الصفة بعد الإشارة الخفية إلى سماحة الله مع الإنسان فى ذنوبه وأخطائه ، فتحبب فى السماحة والمغفرة بين العباد . وتجعل صفة المؤمنين أنهم إذا ماغضبوا هم يغفرون .

وتتجلى سماحة الإسلام مرة أخرى مع النفس البشرية ؛ فهو لايكلف الإنسان فوق طاقته . والله يعلم أن الغضب انفعال بشرى ينبع من فطرته . وهو ليس شرا كله . فالغضب لله ولدينه وللحق والعدل غضب مطلوب وفيه الخير . ومن ثم لايحرم الغضب فى ذاته ولا يجعله خطيئة . بل يعترف بوجوده فى الفطرة والطبيعة ، فيعفى الإنسان من الحيرة والتمزق بين فطرته وأمر دينه . ولكنه فى الوقت ذاته يقوده إلى أن يغلب غضبه ،وأن يغفر ويعفو ، ويحسب له هذا صفة مثلى من صفات الإيمان المحببة . هذا مع أنه عرف عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه لم يغضب لنفسه قط ، إنما كان يغضب لله ، فإذا غضب لله لم يقم لغضبه شىء . ولكن هذه درجة تلك النفس المحمدية العظيمة ؛ لايكلف الله نفوس المؤمنين إياها . وإن كان يحببهم فيها . إنما يكتفى منهم بالمغفرة عند الغضب ، والعفو عند القدرة ، والاستعلاء على شعور الانتقام ، مادام الأمر فى حدود الدائرة الشخصية المتعلقة بالأفراد .

« والذين استجابوا لربهم » ..

فأزالوا العوائق التى تقوم بينهم وبين ربهم . أزالوا هذه العوائق الكامنة فى النفس دون الوصول . ومايقوم بين النفس وربها إلا عوائق من نفسها . عوائق من شهواتها ونزواتها .

عوائق من وجودها هى وتشبثها بذاتها . فأما حين تخلص من هذا كله فإنها تجد الطريق إلى ربها مفتوحا وموصولا . وحينئذ تستجيب بلا عائق . تستجيب بكلياتها . ولا تقف أمام كل تكليف بعائق من هوى يمنعها .. وهذه هى الاستجابة فى عمومها .. ثم أخذ يفصل بعض هذه الاستجابة :

« وأقاموا الصلاة » ..

وللصلاة فى هذا الدين مكانة عظمى ، فهى التالية للقاعدة الأولى فيه . قاعدة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وهى صورة الاستجابة الأولى لله . وهى الصلة بين العبد وربه . وهى مظهر المساواة بين العباد فى الصف الواحد ركعا سجدا، لا يرتفع رأس على رأس ، ولا تتقدم رجل على رجل!

ولعله من هذا الجانب أتبع إقامة الصلاة بصفة الشورى ـ قبل أن يذكر الزكاة :

« وأمرهم شورى بينهم »

والتعبير يجعل أمرهم كله شورى ، ليصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة . وهو كما قلنا نص مكى. كان قبل قيام الدولة الإسلامية . فهذا الطابع إذن أعم وأشمل من الدولة فى حياة المسلمين . إنه طابع الجماعة الإسلامية فى كل حالاتها ، ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم فيها بعد .

والواقع أن الدولة فى الإسلام ليست سوى إفراز طبيعى للجماعة وخصائصها الذاتية . والجماعة تتضمن الدولة وتنهض وإياها بتحقيق النهج الإسلامى وهيمنته على الحياة الفردية والجماعية .

ومن ثم كان طابع الشورى فى الجماعة مبكرا ؛ وكان مدلوله أوسع وأعمق من محيط الدولة وشؤون الحكم فيها . إنه طابع ذاتى للحياة الإسلامية ، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية. وهى من ألزم صفات القيادة .

أما الشكل الذى تتم به الشورى فليس مصبوبا فى قالب حديدى ؛ فهو متروك للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان ، لتحقيق ذلك الطابع فى حياة الجماعة الإسلامية . والنظم الإسلامية كلها ليست أشكالا جامدة ، وليست نصوصا حرفية ، إنما هى قبل كل شىء روح ينشأ عن استقرار حقيقة الإيمان فى القلب ، وتكيف الشعور والسلوك بهذه الحقيقة . والبحث فى أشكال الأنظمة الإسلامية دون الاهتمام بحقيقة الإيمان الكامنة وراءها لا يؤدى إلى شىء .. وليس هذا كلاما

Marfat.com

عائما غير مضبوط كما قد يبدو لأول وهلة لمن لا يعرف حقيقة الإيمان بالعقيدة الإسلامية . فهذه العقيدة ـ فى أصولها الاعتقادية البحتة ، وقبل أى التفات إلى الأنظمة فيها ـ تحوى حقائق نفسية وعقلية هى فى ذاتها شىء له وجود وفاعلية وأثر فى الكيان البشرى ، يهىء لإفراز أشكال معينة من النظم وأوضاع معينة فى الحياة البشرية ؛ ثم تجىء النصوص بعد ذلك مشيرة إلى هذه الأشكال والأوضاع ، لمجرد تنظيمها لا لخلقها وإنشائها . ولكى يقوم أى شكل من أشكال النظم الإسلامية ، لابد قبلها من وجود مسلمين ، ومن وجود إيمان ذى فاعلية وأثر . وإلا فكل الأشكال التنظيمية لا تفى بالحاجة ، ولا تحقق نظاما يصح وصفه بأنه إسلامى ..

ومتى وجد المسلمون حقا ، ووجد الإيمان فى قلوبهم بحقيقته ، نشأ النظام الإسلامى نشأة ذاتية ، وقامت صورة منه تناسب هؤلاء المسلمين وبيئتهم وأحوالهم كلها ؛ وتحقق المبادىء الإسلامية الكلية خير تحقيق .

« ومما رزقناهم ينفقون » ..

وهو نص مبكر كذلك على تحديد فرائض الزكاة التى حددت فى السنة الثانية من الهجرة . ولكن الإنفاق العام من رزق الله كان توجيها مبكرا فى حياة الجماعة الإسلامية . بل إنه ولد مع مولدها .

ولابد للدعوة من الإنفاق . لابد منه تطهيراً للقلب من الشح ، واستعلاء على حب الملك ، وثقة بما عند الله . وكل هذه ضرورية لاستكمال معنى الإيمان . ثم إنها ضرورية كذلك لحياة الجماعة . فالدعوة كفاح . ولابد من التكافل فى هذا الكفاح وجرائره وآثاره . وأحيانا يكون هذا التكافل كاملا بحيث لا يبقى لأحد مال متميز . كما حدث فى أول العهد بهجرة المهاجرين من مكة ، ونزولهم على إخوانهم فى المدينة . حتى إذا هدأت حدة الظروف وضعت الأسس الدائمة للإنفاق فى الزكاة .

وعلى أية حال فالإنفاق فى عمومه سمة من سمات الجماعة المؤمنة المختارة للقيادة بهذه الصفات..

« والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » .

وذكر هذه الصفة فى القرآن المكى ذو دلالة خاصة كما سلف . فهى تقرير لصفة أساسية فى الجماعة المسلمة . صفة الانتصار من البغى ، وعدم الخضوع للظلم . وهذا طبيعى بالنسبة لجماعة أخرجت للناس لتكون خير أمة . لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؛ وتهيمن على حياة البشرية

Marfat.com

Marfat.com

بالحق والعدل ؛ وهى عزيزة بالله . « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .. فمن طبيعة هذه الجماعة ووظيفتها أن تنتصر من البغى وأن تدفع العدوان . وإذا كانت هناك فترة اقتضت لأسباب محلية فى مكة ، ولمقتضيات تربوية فى حياة المسلمين الأوائل من العرب خاصة ، أن يكفوا أيديهم ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فذلك أمر عارض لا يتعلق بخصائص الجماعة الثابتة الأصيلة .

ولقد كانت هنالك أسباب خاصة لاختيار أسلوب المسالمة والصبر فى العهد المكى :

منها أن إيذاء المسلمين الأوائل وفتنتهم عن دينهم لم تكن تصدر من هيئة مسيطرة على الجماعة . فالوضع السياسى والاجتماعى فى الجزيرة كان وضعا قبليا مخلخلا . ومن ثم كان الذين يتولون إيذاء الفرد المسلم هم خاصة أهله إن كان ذا نسب ، ولم يكن أحد غير خاصة أهله يجرؤ على إيذائه ـ ولم يقع إلا فى الندرة أن وقع اعتداء جماعى على فرد مسلم أو على المسلمين كجماعة ـ كما كان السادة يؤذون مواليهم إلى أن يشتريهم المسلمون ويعتقوهم فلا يجرؤ أحد على إيذائهم غالبا . ولم يكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحب أن تقع معركة فى كل بيت بين الفرد المسلم من هذا البيت والذين لم يسلموا بعد . والمسالمة كانت أقرب إلى إلانة القلوب من المخاشنة .

ومنها أن البيئة العربية كانت بيئة نخوة تثور لصاحب الحق الذى يقع عليه الأذى . واحتمال المسلمين للأذى وصبرهم على عقيدتهم ، كان أقرب إلى استثارة هذه النخوة فى صف الإسلام والمسلمين . وهذا ما حدث بالقياس إلى حادث الشعب وحصر بنى هاشم فيه . فقد ثارت النخوة ضد هذا الحصار ، ومزقت العهد الذى حوته الصحيفة ، ونقضت هذا العهد الجائر .

ومنها أن البيئة العربية كانت بيئة حرب ومسارعة إلى السيف ، وأعصاب متوفزة لا تخضع لنظام . والتوازن فى الشخصية الإسلامية كان يقتضى كبح جماح هذا التوفز الدائم ، وإخضاعها لهدف ، وتعويدها الصبر وضبط الأعصاب . مع إشعار النفوس باستعلاء العقيدة على كل نزوة وعلى كل مغنم . ومن ثم كانت الدعوة إلى الصبر على الأذى متفقة مع منهج التربية الذى يهدف إلى التوازن فى الشخصية الإسلامية ، وتعليمها الصبر والثبات والمضى فى الطريق .

فهذه الاعتبارات وأمثالها قد اقتضت سياسة المسالمة والصبر فى مكة . مع تقرير الطابع الأساسى الدائم للجماعة المسلمة : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » . .

ويؤكد هذه القاعدة بوصفها قاعدة عامة فى الحياة :

« وجزاء سيئة سيئة مثلها » . .

فهذا هو الأصل فى الجزاء . مقابلة السيئة بالسيئة ، كى لا يتبجح الشر ويطغى ، حين لايجد رادعا يكفه عن الإفساد فى الأرض فيمضى وهو آمن مطمئن !

ذلك مع استحباب العفو ابتغاء أجر الله وإصلاح النفس من الغيظ ، وإصلاح الجماعة من الأحقاد . وهو استثناء من تلك القاعدة. والعفو لايكون إلامع القدرة على جزاء السيئة بالسيئة. فهنا يكون للعفو وزنه ووقعه فى إصلاح المعتدى والمسامح سواء . فالمعتدى حين يشعر بأن العفو جاء سماحة ولم يجىء ضعفا يخجل ويستحيي ، ويحس بأن خصمه الذى عفا هو الأعلى . والقوى الذى يعفو تصفو نفسه وتعلو. فالعفو عندئذ خير لهذا وهذا . ولا كذلك عند الضعف والعجز. ومايجوز أن يذكر العفوعند العجز. فليس له ثمة وجود . وهو شر يطمع المعتدى ويذل المعتدى عليه ، وينشر فى الأرض الفساد !

« إنه لايحب الظالمين » . .

وهذا توكيد للقاعدة الأولى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » من ناحية . وإيحاء بالوقوف عند رد المساءة أوالعفو عنها . وعدم تجاوز الحد فى الاعتداء ، من ناحية أخرى .

وتوكيد آخر أكثر تفصيلا :

« ولمن انتصر بعد ظلمه،فأولئك ماعليهم من سبيل. إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويبغون فى الأرض بغير الحق . أولئك لهم عذاب أليم » . .

فالذى ينتصر بعد ظلمه ، ويجزى السيئة بالسيئة ، ولا يعتدى ، ليس عليه من جناح . وهو يزاول حقه المشروع . فما لأحد عليه من سلطان. ولايجوز أن يقف فى طريقه أحد . إنما الذين يجب الوقوف فى طريقهم هم الذين يظلمون الناس ،ويبغون فى الأرض بغير الحق . فإن الأرض لاتصلح وفيها ظالم لايقف له الناس ليكفوه ويمنعوه من ظلمه ؛ وفيها باغ يجور ولايجد من يقاومه ويقتص منه . والله يتوعد الظالم الباغى بالعذاب الأليم . ولكن على الناس كذلك أن يقفوا له ويأخذوا عليه الطريق .

ثم يعود إلى التوازن والاعتدال وضبط النفس والصبر والسماحة فى الحالات الفردية ، وعند القدرة على الدفع كما هو مفهوم؛ وحين يكون الصبر والسماحة استعلاء لااستخذاء ؛ وتجملا لاذلا:

« ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » . .

Marfat.com

وبجموعة النصوص في هذه القضية تصور الاعتدال والتوازن بين الاتجاهين ؛ وتحرص على صيانة النفس من الحقد والغيظ ، ومن الضعف والذل ، ومن الجور والبغي . وتعلقها بالله ورضاه في كل حال . وتجعل الصبر زاد الرحلة الأصيل .

ومجموعة صفات المؤمنين ترسم طابعا مميزا للجماعة التي تقود البشرية وترجو ماعند الله وهو خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ..

***

وبعد تقرير صفة المؤمنين الذين يدخر الله لهم عنده ماهو خير وأبقى ، يعرض في الصفحة المقابلة صورة الظالمين الضالين ، وما ينتظرهم من ذل وخسران :

« ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده ؛ وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون : هل إلى مرد من سبيل ؟ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ، ينظرون من طرف خفي ، وقال الذين آمنوا : إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ؛ ألا إن الظالمين في عذاب مقيم ، وماكان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ،ومن يضلل الله فماله من سبيل » ..

إن قضاء الله لا يرد ، ومشيئته لا معقب عليها « ومن يضلل الله فماله من ولي من بعده » .. فإذا علم الله من حقيقة العبد أنه مستحق للضلال ، حقت عليه كلمة الله أن يكون من أهل الضلال ، لم يكن له بعد ذلك من ولي يهديه من ضلاله ، أو ينصره من جزاء الضلال الذي قدره الله . . والذي يعرض منه مشهدا في بقية الآية :

« وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون : هل إلى مرد من سبيل ، وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ، ينظرون من طرف خفيّ » ..

والظالمون كانوا طغاة بغاة ،فناسب أن يكون الذل هو مظهرهم البارز في يوم الجزاء . إنهم يرون العذاب ، فتتهاوى كبرياؤهم . ويتساءلون في انكسار : « هل إلى مرد من سبيل ؟ » في هذه الصيغة الموحية باليأس مع اللهفة،والانهيار مع التطلع إلى أي بارقة للخلاص! وهم يعرضون على النار « خاشعين » لامن التقوى ولامن الحياء ، ولكن من الذل والهوان ! وهم يعرضون منكسي الأبصار ، لايرفعون أعينهم من الذل والعار : « ينظرون من طرف خفي » .. وهي صورة شاخصة ذليلة .

وفي هذا الوقت يبدو أن الذين آمنوا هم سادة الموقف ؛ فهم ينطقون ويقررون : « وقال

Marfat.com

الذين آمنوا : إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة » . . وهم هؤلاء الذين خسروا كل شىء ، والذين يقفون خاشعين من الذل يقولون : هل إلى مرد من سبيل ؟

ويجىء التعليق العام على المشهد بيانا لمآل هؤلاء المعروضين على النار :

« ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم . وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله . ومن يضلل الله فما له من سبيل » . .

فقد عدم النصير ، وقد أغلق السبيل .

* * *

وفى ظل هذا المشهد يوجه الخطاب إلى المعاندين المكابرين ، ليستجيبوا لربهم قبل أن يفجأهم مثل هذا المصير فلا يجدوا لهم ملجأ يقيهم، ولا نصيراً ينكر مصيرهم الأليم ، ويوجه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى التخلى عنهم إذا هم أعرضوا فلم يستجيبوا لهذا النذير ؛ فما عليه إلا البلاغ ، وما هو مكلف بهم ولا كفيل :

« استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ، مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير . فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ » . .

ثم يكشف عن طبيعة هذا الإنسان الذى يعارض ويعاند ، ويعرض نفسه للأذى والعذاب، وهو لا يحتمل فى نفسه الأذى ؛ وهو رقيق الاحتمال ، يستطار بالنعمة ، ويجزع من الشدة ، ويتجاوز حده فيكفر من الضيق !

« وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور » . .

ويعقب على هذا بأن نصيب هذا الإنسان من السراء والضراء ومن العطاء والحرمان كله بيد الله . فمال هذا الإنسان المحب للخير الجزوع من الشر ، يبعد عن الله المالك لأمره فى جميع الأحوال :

« لله ملك السماوات والأرض ، يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثا ، ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ، ويجعل من يشاء عقيما ، إنه عليم قدير » . .

والذرية مظهر من مظاهر المنح والمنع والعطاء والحرمان ؛ وهى قريبة من نفس الإنسان؛

Marfat.com

والنفس شديدة الحساسية بها . فلمسها من هذا الجانب أقوى وأعمق . وقد سبق فى السورة حديث عن الرزق بسطه وقبضه . فهذه تكملة فى الرزق بالذرية . وهى رزق من عند الله كالمال

والتقديم بأن لله ملك السماوات والأرض هو التقديم المناسب لكل جزئية بعد ذلك من توابع هذا الملك العام . وكذلك ذكر : « يخلق ما يشاء » . . فهى توكيد للإيحاء النفسى المطلوب فى هذا الموضع . ورد الإنسان ، المحب للخير ، إلى الله الذى يخلق ما يشاء مما يسر وما يسوء ومن عطاء أو حرمان .

ثم يفصل حالات العطاء والحرمان : فهو يهب لمن يشاء إناثا (وهم كانوا يكرهون الإناث) ويهب لمن يشاء الذكور . ويهب لمن يشاء أزواجا من هؤلاء وهؤلاء . ويحرم من يشاء فيجعله عقيما (والعقم يكرهه كل الناس) . . وكل هذه الأحوال خاضعة لمشيئة الله . لا يتدخل فيها أحد سواه . وهو يقدرها وفق علمه وينفذها بقدرته : « إنه عليم قدير » . .

* * *

وفى ختام السورة يعود السياق إلى الحقيقة الأولى التى تدور عليها السورة . حقيقة الوحى والرسالة . يعود إلى هذه الحقيقة ليكشف عن طبيعة هذا الاتصال بين الله والمختارين من عباده ، وفى أية صورة يكون . ويؤكد أنه قد وقع فعلا إلى الرسول الأخير - صلى الله عليه وسلم - لغاية يريدها الله سبحانه . ليهدى من يشاء إلى صراط مستقيم :

« وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء إنه على حكيم . وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى ماالكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له مافى السماوات ومافى الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور » . .

ويقطع هذا النص بانه ليس من شأن إنسان أن يكلمه الله مواجهة . وقد روى عن عائشة رضى الله عنها : « من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية » (١) إنما يتم كلام الله للبشر بواحدة من ثلاث : « وحيا » يلقى فى النفس مباشرة فتعرف أنه من الله ، « أو من وراء حجاب » .. كما كلم الله موسى - عليه السلام - وحين طلب الرؤية لم يجب إليها ، ولم يطق تجلى الله على الجبل « وخر موسى صعقا فلما أفاق قال : سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين » . .

(١) متفق عليه

Marfat.com

« أو يرسل رسولا » وهو الملك « فيوحى بإذنه مايشاء » بالطرق التى وردت عن رسول الله – صلى الله عليـه وسلم .

الأولى : ماكان يلقيه الملك فى روعه وقلبه من غير أن يراه كما قال – صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » .. والثانية : أنه كان – صلى الله عليه وسلم – يتمثل له الملك رجلا ، فيخاطبه حتى يعى عنه مايقول. والثالثة : أنه كان يأتيه فى مثل صلصلة الجرس ، وكان أشده عليه ، حتى إن جبينه ليتفصد عرقا فى اليوم الشديد البرد ، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إن كان راكبا ، ولقد جاء الوحى مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد ابن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها . والرابعة : أنه يرى الملك فى صورته التى خلق عليها ، فيوحى إليه ماشاء الله أن يوحيه . وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك فى سورة النجم [1] .

هذه صور الوحى وطرق الاتصال .. « إنه على حكيم » .. يوحى من علو ، ويوحى بحكمة إلى من يختار ..

وبعد فإنه مامن مرة وقفت أمام آية تذكر الوحى أوحديث ، لأتأمل هذا الاتصال إلا أحسست له رجفة فى أوصالى .. كيف ؟ كيف يكون هذا الاتصال بين الذات الأزلية الأبدية التى ليس لها حيز فى المكان ولا حيز فى الزمان ، المحيطة بكل شىء ، والتى ليس كمثلها شىء . كيف يكون هذا الاتصال بين هذه الذات العلية وذات إنسان متحيزة فى المكان والزمان ، محدودة بحدود المخلوقات، من أبناء الفناء ؟! ثم كيف يتمثل هذا الاتصال معانى وكلمات وعبارات؟

وكيف تطيق ذات محدودة فانية أن تتلقى كلام الله الأزلى الأبدى الذى لاحيز له ولاحدود؟ ولا شكل له معهود ؟

وكيف ؟ وكيف ؟ ..

ولـكنى أعود فأقول : ومالك تسأل عن كيف ؟ وأنت لا تملك أن تتصور إلا فى حدود ذاتك المتحيزة القاصرة الفانية ؟ ! لقد وقعت هذه الحقيقة وتمثلت فى صورة . وصار لها وجود هو الذى تملك أن تدركه من وجود .

ولـكن الوهلة والرجفة والروعة لا تزول ! إن النبوة هذه أمر عظيم حقا . وإن لحظة

(١) عن « زاد المعاد » للامام شمس الدين أبى عبد الله ابن قيم الجوزية .

Marfat.com

Marfat.com

التلقى هذه لعظيمة حقا . تلقى الذات الإنسانية لوحى من الذات العلوية . . أخى الذى تقرأ هذه الكلمات ، أأنت معى فى هذا التصور ؟ ! أأنت معى تحاول أن تتصور ؟ ! هذا الوحى الصادر من هناك . أأقول : هناك ؟ ! كلا . إنه ليس هناك « هناك » ! الصادر من غير مكان ولا زمان ، ولا حيز ولاحد ولا جهة ولا ظرف . الصادر من المطلق النهائى ، الأزلى الأبدى، الصادر من الله ذى الجلال . إلى إنسان .. إنسان مهما يكن نبيا رسولا ، فإنه هو هذا الإنسان ذو الحدود والقيود . . هذا الوحى . هذا الاتصال العجيب . المعجز . الذى لا يملك إلا الله أن يجعله واقعة تتحقق ، ولا يعرف إلا الله كيف يقع ويتحقق .. أخى الذى تقرأ هذه الكلمات . هل تحس ما أحس من وراء هذه العبارت المتقطعة التى أحاول أن أنقل بها ما يخالج كيانى كله؟ إنى لا أعرف ماذا أقول عما يخالج كيانى كله من الروعة والرجفة وأنا أحاول أن أتصور ذلك الحدث العظيم العجيب الخارق فى طبيعته ، والخارق فى صورته ، الذى حدث مرات ومرات . وأحس بحدوثه ناس رأوا مظاهره رأى العين ، على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم . وهذه عائشة رضى الله عنها تشهد من هذه اللحظات العجيبة فى تاريخ البشرية فتروى عن واحدة منها تقول : « قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ياعائشة . هذا جبريل يقرئك السلام » قلت : وعليه السلام ورحمة الله . قالت : وهو يرى مالا نرى [1] » . وهذا زيد ابن ثابت ـ رضى الله عنه ـ يشهد مثل هذه اللحظة وفخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على فخذه ، وقد جاءه الوحى فثقلت حتى كادت ترض فخذه . وهؤلاء هم الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فى مرات كثيرة يشهدون هذا الحادث ويعرفونه فى وجه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيدعونه للوحى حتى يسرى عنه ، فيعود إليهم ويعودون إليه . . .

ثم ..أية طبيعة . طبيعة هذه النفس التى تتلقى ذلك الاتصال العلوى الكريم ؟أى جوهر من جواهر الأرواح ذلك الذى يتصل بهذا الوحى ، ويختلط بذلك العنصر ، ويتسق مع طبيعته ونحواه ؟

إنها هى الأخرى مسألة ! إنها حقيقة . ولكنها تتراءى هنالك بعيدا على أفق عال ومرتقى صاعد ، لاتكاد المدارك تتملاه !

روح هذا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ روح هذا الإنسان . كيف ياترى كانت تحس بهذه

---

(١) أخرجه البخارى .

الصلة وهذا التلقى ؟ كيف كانت تتفتح ؟ كيف كان ينساب فيها ذلك الفيض ؟ كيف كانت تجد الوجود فى هذه اللحظات العجيبة التى يتجلى فيها الله على الوجود ؛ والتى تتجاوب جنباته كلها بكلمات الله ؟

ثم .. أية رعاية؟ وأية رحمة ؟ وأية مكرمة ؟..والله العلى الكبير يتلطف فيعنى بهذهالخليقة الضئيلة المسماة بالإنسان . فيوحى إليها لإصلاح أمرها ، وإنارة طريقها ، ورد شاردها .. وهى أهون عليه من البعوضة على الإنسان ، حين تقاس إلى ملكه الواسع العريض ؟ !

إنها حقيقة . ولكنها أعلى وأرفع من أن يتصورها الإنسان إلاتطلعا إلى الأفق السامق الوضىء :

« وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ماالكتاب ولا الإيمان . ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا . وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له مافى السماوات وما فى الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور » .

« وكذلك » . بمثل هذه الطريقة ، وبمثل هذا الاتصال . « أوحينا إليك » .. فالوحى تم بالطريقة المعهودة ، ولم يكن أمرك بدعا . أوحينا إليك « روحا من أمرنا » .. فيه حياة ، يبث الحياة ويدفعها ويحركها وينميها فى القلوب وفى الواقع العملى المشهود . « ماكنت تدرى ماالكتاب ولا الإيمان » .. هكذا يصور نفس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو أعلم بها ، قبل أن تتلقى هذا الوحى. وقد سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -عن الكتاب وسمع عن الإيمان، وكان معروفا فى الجزيرة العربيةأن هناك أهل كتاب فيمن معهم ، وأن لهم عقيدة، فليس هذا هو المقصود . إنما المقصود هو اشتمال القلب على هذه الحقيقة والشعور بها والتأثر بوجودها فى الضمير . وهذا مالم يكن قبل هذا الروح من أمر الله الذى لابس قلب محمد - عليه صلوات الله .

« ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء » .. وهذه طبيعته الخالصة. طبيعة هذا الوحى. هذا الروح.هذا الكتاب.إنه نور . نور تخالط بشاشته القلوب التى يشاء لها الله أن تهتدى به ، بما يعلمه من حقيقتها ، ومن مخالطة هذا النور لها .

« وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » . . وهناك توكيد على تخصيص هذه المسألة ، مسألة الهدى ، بمشيئة الله سبحانه ، وتجريدها من كل ملابسة ، وتعليقها بالله وحده يقدرها لمن يشاء بعلمه الخاص ، الذى لايعرفه سواه ؛ والرسول - صلى الله عليه وسلم - واسطة لتحقيق

Marfat.com

Marfat.com

مشيئة الله ، فهو لا ينشىء الهدى فى القلوب ؛ ولكن يبلغ الرسالة ، فتقع مشيئة الله .

« وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم. صراط الله الذى له مافى السماوات وما فى الأرض » .. فهى الهداية إلى طريق الله ، الذى تلتقى عنده المسالك . لأنه الطريق إلى المالك ، الذى له مافى السماوات ومافى الأرض ؛ فالذى يهتدى إلى طريقه يهتدى إلى ناموس السماوات والأرض ، وقوى السماوات والأرض ، ورزق السماوات والأرض ، واتجاه السماوات والأرض إلى مالكها العظيم . الذى إليه تتجه ، والذى إليه تصير :

« ألا إلى الله تصير الأمور » . .

فكلها تنتهى إليه ، وتلتقى عنده ، وهو يقضى فيها بأمره .

وهذا النور يهدى إلى طريقه الذى اختار للعباد أن يسيروا فيه ، ليصيروا إليه فى النهاية مهتدين طائعين .

* * *

وهكذا تنتهى السورة التى بدأت بالحديث عن الوحى . وكان الوحى محورها الرئيسى . وقد عالجت قصة الوحى منذ النبوات الأولى . لتقرر وحدة الدين ، ووحدة المنهج ، ووحدة الطريق. ولتعلن القيادة الجديدة للبشرية ممثلة فى رسالة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وفى العصبة المؤمنة بهذه الرسالة . ولتكل إلى هذه العصبة أمانة القيادة إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له مافى السماوات ومافى الأرض . ولتبين خصائص هذه العصبة وطابعها المميز ، الذى تصلح به للقيادة ، وتحمل به هذه الأمانة . الأمانة التى تنزلت من السماء إلى الأرض عن ذلك الطريق العجيب العظيم . .

سورة الزخرف مكية
وآياتها ٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

« حمۤ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ * أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ؟

« وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا ، وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ .

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ : خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ، كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ * وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ، ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ، وَتَقُولُوا : سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ .

« وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ * أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ؟ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا

Marfat.com

وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ؟ * وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثاً . أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ؟ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ .

« وَقَالُوا : لَوْ شَاءَ الرَّحْمَانُ مَاعَبَدْنَاهُمْ . مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ؟ * بَلْ قَالُوا : إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا : إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ * قَالَ : أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ؟ قَالُوا : إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ » ﴿٢٥﴾

تعرض هذه السورة جانبا مما كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب وعقبات ؛ ومن جدال واعتراضات . وتعرض معها كيف كان القرآن الكريم يعالجها فى النفوس ؛ وكيف يقرر فى ثنايا علاجها حقائقه وقيمه فى مكان الخرافات والوثنيات والقيم الجاهلية الزائفة ، التى كانت قائمة فى النفوس إذ ذاك ، ولا يزال جانب منها قائما فى النفوس فى كل زمان ومكان .

كانت الوثنية الجاهلية تقول : إن فى هذه الأنعام التى سخرها الله للعباد ، نصيبالله ، ونصيبا لآلهتهم المدعاة . « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا . فقالوا : هذا لله ـ بزعمهم ـ وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم » . . وكانت لهم فى الأنعام أساطير شتى وخرافات أخرى كلها ناشىء من انحرافات العقيدة . فكانت هناك أنواع من الأنعام محرمة ظهورها على الركوب ـ وأنواع محرمة لحومها على الأكل : « وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء ـ بزعمهم ـ وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء على الله » . .

وفى هذه السورة تصحيح لهذه الانحرافات الاعتقادية ؛ ورد النفوس إلى الفطرة وإلى الحقائق الأولى . فالأنعام من خلق الله ، وهى طرف من آية الحياة ، مرتبط بخلق السماوات والأرض جميعا . وقد خلقها الله وسخرها للبشر ليذكروا نعمة ربهم عليهم ويشكروها ؛

Marfat.com

Marfat.com

لا ليجعلوا له شركاء ، ويشرعوا لأنفسهم فى الأنعام مالم يأمر به الله ؛ بينما هم يعترفون بأن الله هو الخالق المبدع ؛ ثم هم ينحرفون عن مقتضى هذه الحقيقة التى يقرون بها ، ويعزلونها عن حياتهم الواقعة ، ويتبعون خرافات وأساطير : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن : خلقهن العزيز العليم ، الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون ، والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا ، كذلك تخرجون ، والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون،لتستووا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا : سبحان الذى سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون » . .

وكانت الوثنية الجاهلية تقول : إن الملائكة بنات الله ؛ ومع أنهم هم يكرهون مولد البنات لهم ، فإنهم كانوا يختارون لله البنات ! ويعبدونهم من دونه ، ويقولون : إننا نعبدهم بمشيئة الله ولو شاء ما عبدناهم ! وكانت مجرد أسطورة ناشئة من انحراف العقيدة .

وفى هذه السورة يواجههم بمنطقهم هم ؛ ويحاجهم كذلك بمنطق الفطرة الواضح ، حول هذه الأسطورة التى لا تستند إلى شىء على الإطلاق : « وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين . . أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ، وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمان مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم . أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ؟ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثا ، أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا : لو شاء الرحمان ما عبدناهم ! مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون . أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ؟ بل قالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ! » . .

ولما قيل لهم : إنكم تعبدون أصناما وأشجارا وإنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم ، وقيل لهم : إن كل معبود من دون الله هو وعابدوه فى النار . حرفوا الكلام الواضح البين ، واتخذوا منه مادة للجدل . وقالوا : فما بال عيسى وقد عبده قومه ؟ أهو فى النار ؟ ! ثم قالوا : إن الأصنام تماثيل الملائكة والملائكة بنات الله . فنحن فى عبادتنا لهم خير من عبادة النصارى لعيسى وهو بشر له طبيعة الناس !

وفى هذه السورة يكشف عن التواءهم فى هذا الجدل ؛ ويبرىء عيسى – عليه السلام – مما ارتكبه أتباعه من بعده وهو منه برىء : «ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون.

Marfat.com

وقالوا : أآلهتنا خير أم هو ؟ ماضربوه لك إلا جدلا . بل هم قوم خصمون . إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل ... » ..

وقد كانوا يزعمون أنهم على ملة أبيهم إبراهيم، وأنهم بذلك أهدى من أهل الكتاب وأفضل عقيدة . وهم فى هذه الجاهلية الوثنية يخبطون !

فبين لهم فى هذه السورة حقيقة ملة إبراهيم ، وأنها ملة التوحيد الخالص ، وأن كلمة التوحيد باقية فى عقبه ، وأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد جاءهم بها ، ولكنهم استقبلوها واستقبلوه بغير ما كان ينبغى من ذرية إبراهيم : « وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون ، إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون . بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين . ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر ، وإنا به كافرون ... » ..

ولم يدركوا حكمة اختيار الله ـ سبحانه ـ لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووقفت فى وجوههم القيم الأرضية الزائفة الزهيدة التى اعتادوا أن يقيسوا بها الرجال .

وفى هذه السورة يحكى تصوراتهم وأقوالهم فى هذا الصدد ؛ ويرد عليها ببيان القيم الحقيقية، وزهادة القيم التى يعتبرونها هم ويرفعونها : « وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم : أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون . ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون ، وزخرفا . وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا، والآخرة عند ربك للمتقين » ..

ثم جاء بحلقة من قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون ، يبدو فيها اعتزاز فرعون بمثل تلك القيم الزائفة، وهوانها على الله ، وهوان فرعون الذى اعتز بها ، ونهايته التى تنتظر المعتزين بمثل ما اعتز به: « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ، فقال : إنى رسول رب العالمين. فلما جاءهم بآياتنا إذاهم منها يضحكون . وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون . وقالو: ياأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك ، إننا لمهتدون . فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون . ونادى فرعون فى قومه قال : ياقوم أليس لى ملك مصر ،

Marfat.com

وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أفلا تبصرون ؟ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين؛ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أوجاء معه الملائكة مقترنين ! فاستخف قومه فأطاعوه، إنهم كانوا قوما فاسقين ، فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين » . .

* * *

حول تلك الأساطير الوثنية والانحرافات الاعتقادية ،وحول تلك القيم الصحيحة والزائفة، تدور السورة، وتعالجها على النحو الذى تقدم . فى أشواط ثلاثة تقدم أولها -قبل هذا- وأشرنا إلى بعض مادة الأشواط الأخرى فى بعض المقتطفات من آيات السورة . فلنأخذ فى التفصيل :

« حم . والكتاب المبين . إنا جعلناه قرآ نا عربيا لعلكم تعقلون. وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم . أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين ؟ وكم أرسلنا من نبى فى الأولين. وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون . فأهلكنا أشد منهم بطشا ، ومضى مثل الأولين » . .

تبدأ السورة بالحرفين : « حا . ميم » ثم يعطف عليهما قوله : « والكتاب المبين » . . ويقسم الله - سبحانه - بحاميم كما يقسم بالكتاب المبين . وحاميم من جنس الكتاب المبين ، أو الكتاب المبين من جنس حا ميم . فهذا الكتاب المبين فى صورته اللفظية من جنس هذين الحرفين . وهذان الحرفان - كبقية الأحرف فى لسان البشر - آية من آيات الخالق ، الذى صنع البشر هذا الصنع ، وجعل لهم هذه الأصوات . فهناك أكثر من معنى وأكثر من دلالة فى ذكر هذه الأحرف عند الحديث عن القرآن .

يقسم الله - سبحانه - بحاميم والكتاب المبين ، على الغاية من جعل هذا القرآن فى صورته هذه التى جاء بها للعرب :

« إنا جعلناه قرآ نا عربيا لعلكم تعقلون » . .

فالغاية هى أن يعقلوه حين يجدونه بلغتهم وبلسانهم الذى يعرفون . والقرآن وحى الله - سبحانه وتعالى - جعله فى صورته هذه اللفظية عربيا ، حين اختار العرب لحمل هذه الرسالة، للحكمة التى أشرنا إلى طرف منها فى سورة الشورى ؛ ولما يعلمه من صلاحية هذه الأمة وهذا اللسان لحمل هذه الرسالة ونقلها . والله أعلم حيث يجعل رسالته .

ثم يبين منزلة هذا القرآن عنده وقيمته فى تقديره الأزلى الباقى :

« وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم » . .

ولا ندخل فى البحث عن المدلول الحرفى لأم الكتاب ما هى : أهى اللوح المحفوظ ، أم هى علم الله الأزلى . فهذا كهذا ليس له مدلول حرفى محدد فى إدراكنا . ولكننا ندرك منه مفهوما يساعد على تصورنا لحقيقة كلية . وحين نقرأ هذه الآية : « وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم » . . فإننا نستشعر القيمة الأصيلة الثابتة لهذا القرآن فى علم الله وتقديره . وهذا حسبنا . فهذا القرآن « علىّ » . . « حكيم » . . وهما صفتان تخلعان عليه ظل الحياة العاقلة . وإنه لكذلك ! وكأنما فيه روح . روح ذات سمات وخصائص ، تتجاوب مع الأرواح التى تلامسها. وهو فى علوه وفى حكمته يشرف على البشرية ويهديها ويقودها وفق طبيعته وخصائصه. وينشىء فى مداركها وفى حياتها تلك القيم والتصورات والحقائق التى تنطبق عليها هاتان الصفتان : على . حكيم .

وتقرير هذه الحقيقة كفيل بأن يشعر القوم الذين جعل القرآن بلسانهم بقيمة الهبة الضخمة التى وهبها الله إياهم ، وقيمة النعمة التى أنعم الله عليهم؛ ويكشف لهم عن مدى الإسراف القبيح فى إعراضهم عنها واستخفافهم بها ؛ ومدى استحقاقهم هم للإهمال والإعراض ؛ ومن ثم يعرض بهم وبإسرافهم ، ويهددهم بالترك والإهمال جزاء هذا الإسراف :

« أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين ؟ » . .

ولقد كان عجيبا ـ وما يزال ـ أن يعنى الله سبحانه ـ فى عظمته وفى علوه وفى غناه ـ بهذا الفريق من البشر ، فينزل لهم كتابا بلسانهم ، يحدثهم بما فى نفوسهم ، ويكشف لهم عن دخائل حياتهم ، ويبين لهم طريق الهدى ، ويقص عليهم قصص الأولين ، ويذكرهم بسنة الله فى الغابرين . . ثم هم بعد ذلك يهملون ويعرضون !

وإنه لتهديد مخيف أن يلوح لهم بعد ذلك بالإهمال من حسابه ورعايته، جزاء إسرافهم القبيح ! وإلى جانب هذا التهديد يذكرهم بسنة الله فى المكذبين ، بعد إرسال النبيين :

« وكم أرسلنا من نبى فى الأولين ، وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون . فأهلكنا أشد منهم بطشا ، ومضى مثل الأولين » . .

فماذا ينتظرون هم وقد أهلك الله من هم أشد منهم بطشا ، حينما وقفوا يستهزئون بالرسل كما يستهزئون ؟

***

Marfat.com

Marfat.com

والعجيب-كان-فى أمر القوم أنهم كانوا يعترفون بوجود الله ، وخلقه للسماوات والأرض . ثم لا يرتبون على هذا الاعتراف نتائجه الطبيعية من توحيد الله ، وإخلاص التوجه إليه. فكانوا يجعلون له شركاء ، يخصونهم ببعض ما خلق من الأنعام ؛ كما كانوا يزعمون أن الملائكة بناته ، ويعبدونهم من دونه فى صورة أصنام !

والقرآن يعرض اعترافهم،ويرتب عليه نتائجه ، ويوجههم إلى منطق الفطرة الذي يجانبونه، وإلى السلوك الواجب تجاه نعمته عليهم فيما خلق لهم من الفلك والأنعام . ثم يناقشهم بمنطقهم فى دعواهم عن الملائكة :

« ولئن سألتهم : من خلق السماوات والأرض ؟ ليقولن : خلقهن العزيز العليم . الذى جعل لكم الأرض مهدا،وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذى نزل من السماء ماء بقدر ، فأنشرنا به بلدة ميتا ، كذلك تخرجون . والذى خلق الأزواج كلها ، وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون . لتستووا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا: سبحان الذى سخر لنا هذا، وما كنا له مقرنين ؛ وإنا إلى ربنا لمنقلبون » . .

لقد كانت للعرب عقيدة - نظن أنها بقايا من الحنيفية الأولى ملة إبراهيم عليه السلام ، ولكنها بهتت وانحرفت ودخلت فيها الأساطير - وقد بقى منها مالا تملك الفطرة إنكاره من وجود خالق لهذا الكون ، وأنه هو الله ، فما يمكن - فى منطق الفطرة وبداهتها - أن يكون هذا الكون قد نشأ هكذا من غير خالق ؛ ومايمكن أن يخلق هذا الكون إلا الله . ولكنهم كانوا يقفون بهذه الحقيقة التى تنطق بها بداهة الفطرة عند شكلها الظاهر ، ولا يعترفون بما وراءها من مقتضيات طبيعية لها :

« ولئن سألتهم : من خلق السماوات والأرض ؟ ليقولن : خلقهن العزيز العليم .... » . .

وواضح أن هاتين الصفتين : « العزيز العليم » ليستا من قولهم . فهم كانوا يعترفون بأن الذى خلقهن هو « الله » . . ولكنهم لم يكونوا يعرفون الله بصفاته التى جاء بها الإسلام . هذه الصفات الإيجابية التى تجعل لذات الله فى نفوسهم أثرا فعالا فى حياتهم وحياة هذا الكون .كانوا يعرفون الله خالقا لهذا الكون ، وخالقا لهم كذلك . ولكنهم كانوا يتخذون من دونه شركاء. لأنهم لم يعرفوه بصفاته التى تنفى فكرة الشرك ، وتجعلها تبدو متهافتة سخيفة .

والقرآن هنا يعلمهم أن الله ، الذى يعترفون بأنه خالق السماوات والأرض ، هو « العزيز

Marfat.com

العليم » .. فهو القوى القادر،وهو العليم العارف. فيبدأ بهم من اعترافهم،ويخطو بهم الخطوات التالية لهذا الاعتراف .

ثم يمضى بهم خطوة أخرى فى تعريف الله سبحانه بصفاته ؛ وفى بيان فضله عليهم بعد الخلق والإنشاء :

« الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وجعل لكم فيها سبلا ، لعلكم تهتدون » . .

وحقيقة جعل هذه الأرض مهدا للإنسان يدركها كل عقل فى كل جيل بصورة من الصور. والذين تلقوا هذا القرآن أول مرة ربما أدركوها فى رؤية هذه الأرض تحت أقدامهم ممهدة للسير ، وأمامهم ممهدة للزرع ، وفى عمومها ممهدة للحياة فيها والنماء . ونحن اليوم ندرك هذه الحقيقة فى مساحة أعرض وفى صورة أعمق ، بقدر ماوصل إليه علمنا عن طبيعة هذه الأرض وتاريخها البعيد والقريب ـ لوصحت نظرياتنا فى هذا وتقديراتنا ـ والذين يأتون بعدنا سيدركون من تلك الحقيقة مالم ندرك نحن ؛ وسيظل مدلول هذا النص يتسع ويعمق ، ويتكشف عن آفاق وآماد كلما اتسعت المعرفة وتقدم العلم ، وانكشفت المجاهيل لهذا الإنسان .

ونحن اليوم ندرك من حقيقة جعل الأرض مهدا لهذا الجنس يجدّ فيها سبله للحياة أن هذا الكوكب مر فى أطوار بعد أطوار ، حتى صار مهدا لبنى الإنسان . وفى خلال هذه الأطوار تغير سطحه من صخر يابس صلد إلى تربة صالحة للزرع ؛ وتكوّن على سطحه الماء من اتحاد الأيدروجين والأكسوجين ؛ واتأد فى دورانه حول نفسه فصار يومه بحيث يسمح باعتدال حرارته وصلاحيتها للحياة ؛ وصارت سرعته بحيث يسمح باستقرار الأشياء والأحياء على سطحه، وعدم تناثرها وتطايرها فى الفضاء !

ونعرف من هذه الحقيقة كذلك أن الله أودع هذا الكوكب من الخصائص خاصية الجاذبية، فاحتفظ عن طريقها بطبقة من الهواء تسمح بالحياة ؛ ولو أفلت الهواء المحيط بهذا الكوكب من جاذبيته ما أمكن أن تقوم الحياة على سطحه ، كما لم تقم على سطح الكواكب الأخرى التى تضاءلت جاذبيتها ، فأفلت هواؤها كالقمر مثلا ! وهذه الجاذبية ذاتها قد جعلها الخالق متعادلة مع عوامل الدفع الناشىء من حركة الأرض ؛ فأمكن أن تحفظ الأشياء والأحياء من التطاير والتناثر؛وفى الوقت ذاته تسمح بحركة الإنسان والأحياء على سطح الأرض ؛ ولو زادت الجاذبية

عن القدر المناسب للصقت الأشياء والأحياء بالأرض وتعذرت حركتها أو تعسرت من ناحية ، ولزاد ضغط الهواء عليها من ناحية أخرى فألصقها بالأرض إلصاقا ، أو سحقها كما نسحق نحن الذباب والبعوض أحيانا بضربة تركز الضغط عليها دون أن تمسها أيدينا ! ولو خف هذا الضغط عما هو عليه لانفجر الصدر والشرايين انفجارا !

ونعرف كذلك من حقيقة جعل الأرض مهدا وتذليل السبل فيها للحياة ، أن الخالق العزيز العليم قدر فيها موافقات شتى تسمح مجتمعة بوجود هذا الإنسان وتيسير الحياة له ؛ ولو اختلت إحدى هذه الموافقات لتعذرت هذه الحياة أو تعسرت . فمنها هذه الموافقات التى ذكرنا ، ومنها أنه جعل كتلة الماء الضخمة التى تكونت على سطح الأرض من المحيطات والبحار كافية لامتصاص الغازات السامة التى تنشأ من التفاعلات الكثيرة التى تتم على سطحها ، والاحتفاظ بجوها دائما فى حالة تسمح للأحياء بالحياة . ومنها أنه جعل من النبات أداة للموازنة بين الأكسيجين الذى يستنشقه الأحياء ليعيشوا به، والأكسيجين الذى يزفره النبات فى أثناء عمليات التمثيل التى يقوم بها ؛ ولولا هذه الموازنة لاختنق الأحياء بعد فترة من الزمان !

وهكذا . وهكذا . من المدلولات الكثيرة لحقيقة : « جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا » تتكشف لنا فى كل يوم ؛ وتضاف إلى المدلولات التى كان يدركها المخاطبون بهذا القرآن أول مرة . وكلها تشهد بالقدرة كما تشهد بالعلم لخالق السماوات والأرض العزيز العليم . وكلها تشعر القلب البشرى باليد القادرة المدبرة ، فى حيثما امتد بصره ، وتلفت خاطره ؛ وأنه غير مخلوق سدى ، وغير متروك لقى ؛ وأن هذه اليد تمسك به ، وتنقل خطاه ، وتتولى أمره فى كل خطوة من خطواته فى الحياة ، وقبل الحياة ، وبعد الحياة !

« لعلكم تهتدون » .. فإن تدبر هذا الكون،وما فيه من نواميس متناسقة كفيل بهداية القلب إلى خالق هذا الكون ، ومودعه ذلك التنظيم الدقيق العجيب . .

ثم يخطو بهم خطوة أخرى فى طريق نشأة الحياة والأحياء ، بعد تمهيد الأرض للإنسان وتذليل السبل فيها للحياة :

« والذى نزل من السماء ماء بقدر ، فأنشرنا به بلدة ميتا ، كذلك تخرجون » ..

والماء الذى ينزل من السماء يعرفه كل إنسان ويراه كل إنسان ؛ ولكن أكثر الناس يمرون على هذا الحدث العجيب دون يقظة ودون اهتزاز ؛ لطول الألفة والتكرار . فأما محمد رسول

Marfat.com

الله – صلى الله عليه وسلم – فكان يتلقى قطراته فى حب وفى ترحيب وفى حفاوة وفى استبشار؛ لأنها قادمة إليه من عند الله . ذلك أن قلبه الحى كان يدرك صنع الله الحى فى هذه القطرات ، ويرى يده الصناع ! وهكذا ينبغى أن يتلقاها القلب الموصول بالله ونواميسه فى هذا الوجود . فهى وليدة هذه النواميس التى تعمل فى هذا الكون وعين الله عليها ويد الله فيها فى كل مرة وفى كل قطرة . ولايبرد من حرارة هذه الحقيقة ، ولاينقص من وقعها أن هذا الماء أصله البخار المتصاعد من الأرض، المتكاثف فى أجواز الفضاء . فمن أنشأ هذه الأرض ؟ ومن جعل فيها الماء؟ ومن سلط عليها الحرارة ؟ ومن جعل من طبيعة الماء أن يتبخر بالحرارة ؟ ومن أودع البخار خاصية الارتفاع ؟ وخاصية التكثف فى أجواز الفضاء ؟ومن أودع الكون خصائصه الأخرى التى تجعل ذلك البخار المتكثف مشحونا بالكهرباء التى تتلاقى وتتفرغ فيسقط الماء؟وما الكهرباء؟ وماهذا وماذاك من الخصائص والأسرار التى تنتهى كلها إلى نزول الماء ؟ إننا نلقى من العلم على حسنا أثقالا تحجب عنا إيقاع هذا الكون العجيب ، بدلا من أن نتخذ من العلم معرفة ترهف المشاعر وترقق القلوب !

« والذى نزل من السماء ماء بقدر » . .

فهو مقدر موزون لايزيد فيغرق ؛ ولايقل فتجف الأرض وتذبل الحياة : ونحن نرى هذه الموافقة العجيبة ، ونعرف اليوم ضرورتها لإنشاء الحياة وإبقائها كما أرادها الله .

« فأنشرنا به بلدة ميتا » . .

والإنشاء الإحياء . والحياة تتبع الماء . ومن الماء كل شىء حى .

« وكذلك تخرجون » . .

فالذى أنشأ الحياة أول مرة كذلك يعيدها ؛ والذى أخرج الأحياء أول مرة من الأرض الميتة ، كذلك يخرج الأحياء منها يوم القيامة . فالإعادة من البدء ؛ وليس فيها عزيز على الله .

ثم هذه الأنعام التى يجعلون منها جزءاً لله وجزءا لغير الله ، ومالهذا خلقها الله ؟ إنما خلقها لتكون من نعم الله على الناس ، يركبونها كما يركبون الفلك ، ويشكرون الله على تسخيرها ، ويقابلون نعمته بما تستحقها :

« والذى خلق الأزواج كلها ، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا : سبحان الذى سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون » . .

Marfat.com

والزوجية هى قاعدة الحياة كما تشير إليها هذه الآية . فكل الأحياء أزواج ، وحتى الخلية الواحدة الأولى تحمل خصائص التذكير والتأنيث معها . بل ربما كانت الزوجية هى قاعدة الكون كله لا قاعدة الحياة وحدها ، إذا اعتبرنا أن قاعدة الكون هى الذرة المؤلفة من ألكترون سالب وبروتون موجب ، كما تشير البحوث الطبيعية حتى الآن .

وعلى أية حال فالزوجية فى الحياة ظاهرة ؛ والله هو الذى خلق الأزواج كلها من الإنسان وغير الإنسان :

« وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون » . . .

يذكر الناس بهذه الإشارة بنعمة الله عليهم فى اصطفائهم لخلافة هذه الأرض ، وبما سخر لهم فيها من قوى وطاقات . ثم يوجههم إلى الأدب الواجب فى شكر هذه النعمة وشكر هذا الاصطفاء ؛ وتذكر المنعم كلما عرضت النعمة،لتبقى القلوب موصولة بالله عند كل حركة فى الحياة:

« لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا : سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » . . فما نحن بقادرين على مقابلة نعمته بنعمة مثلها ، وما نملك إلا الشكر نقابل به هذا الإنعام .

ثم ليتذكروا أنهم عائدون بعد الخلافة فى الأرض إلى ربهم ليجزيهم عما فعلوا فى هذه الخلافة التى زودهم فيها بأنعمه . وسخر لهم فيها ما سخر من القوى والطاقات :

« وإنا إلى ربنا لمنقلبون » . .

هذا هو الأدب الواجب فى حق المنعم ، يوجهنا الله إليه،لنذكره كلما استمتعنا بنعمة من نعمه التى تغمرنا ، والتى نتقلب بين أعطافها . . ثم ننساه . . !

والأدب الإسلامى فى هذا وثيق الصلة بتربية القلب وإحياء الضمير . فليس هو مجرد طقوس تزاول عند الاستواء على ظهور الفلك والأنعام ، ولا مجرد عبارات يتلوها اللسان ! إنما هو استحياء للمشاعر لتحس بحقيقة الله ، وحقيقة الصلة بينه وبين عباده ؛ وتشعر بيده فى كل ما يحيط بالناس ، وكل ما يستمتعون به مما سخره الله لهم ، وهو محض الفضل والإنعام ، بلا مقابل منهم ، فماهم بقادرين على شىء يقابلون به فضل الله . ثم لتبقى قلوبهم على وجل من لقائه فى النهاية لتقديم الحساب . . وكل هذه المشاعر كفيلة باستبقاء القلب البشرى فى حالة يقظة شاعرة حساسة لا تغفل عن مراقبة الله . ولا تجمد ولا تتبلد بالركود والغفلة والنسيان .

***

Marfat.com

Marfat.com

بعد ذلك يعالج أسطورة الملائكة واتخاذهم آلهة بزعم أنهم بنات الله ، وهم عباد الله :

« وجعلوا له من عباده جزءا . إن الإنسان لكفور مبين . أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ؟ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمان مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم . أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ؟ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثا أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا : لوشاء الرحمان ماعبدناهم مالهم بذلك من علم ، إن هم إلا يخرصون . أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون ؟ بل قالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مهتدون . وكذلك ماأرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلاقال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال : أولوجئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا: إنا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم ، فانظر كيف كان عاقبة المكذبين » ..

إن هذا القرآن يحاصر هذه الأسطورة ويواجهها فى نفوسهم من كل جانب ، ولايبقى ثغرة مفتوحة حتى يأخذها عليهم ، ويواجههم فى هذا كله بمنطقهم ومسلماتهم وواقع حياتهم ، كما يواجههم بمصير الذين وقفوا مثل وقفتهم ، وقالوا مثل قولتهم من الغابرين .

ويبدأ بتصوير سخف هذه الأسطورة وتهافتها ، ومقدار مافى القول بها من كفر صريح :

« وجعلوا له من عباده جزءا ، إن الإنسان لكفور مبين » ..

فالملائكة عباد الله ، ونسبة بنوتهم له معناها عزلهم من صفة العبودية ، وتخصيصهم بقرابة خاصة بالله ؛ وهم عباد كسائر العباد ، لامقتضى لتخصيصهم بصفة غير صفة العبودية فى علاقتهم بربهم وخالقهم . وكل خلق الله عباد له خالصو العبودية . وادعاء الإنسان هذا الادعاء يدمغه بالكفر الذى لاشبهة فيه : « إن الإنسان لكفور مبين » .

ثم يحاجهم بمنطقهم وعرفهم ، ويسخر من سخف دعواهم أن الملائكة إناث ثم نسبتهم إلى الله :

« أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ؟ » ..

فإذا كان الله ـ سبحانه ـ متخذا أبناء ، فماله يتخذ البنات ويصفيهم هم بالبنين ؛ وهل يليق أن يزعموا هذا الزعم بينما هم يستنكفون من ولادة البنات لهم ويستاءون :

« وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمان مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم » ..

أفما كان من اللياقة والأدب ألاينسبوا إلى الله من يستاءون هم إذا بشروا به ، حتى ليسود

Marfat.com

وجه أحدهم من السوء الذى يبلغ حدا يجل عن التصريح به ، فيكظمه ويكتمه وهو يكاد يتميز من السوء ؟ ! أفما كان من اللياقة والأدب ألا يخصوا الله بمن ينشأ فى الحلية والدعة والنعومة ، فلايقدر على جدال ولاقتال ؟ بينما هم – فى بيئتهم – يحتفلون بالفرسان والقاويل من الرجال ؟ !

إنه يأخذهم فى هذا بمنطقهم، ويخجلهم من انتقاء ما يكرهون ونسبته إلى الله . فهلااختاروا ما يستحسنونه وما يسرون له فنسبوه إلى ربهم ، إن كانوا لابد فاعلين ؟ !

ثم يحاصرهم هم وأسطورتهم من ناحية أخرى . فهم يدعون أن الملائكة إناث . فعلام يقيمون هذا الادعاء ؟

« وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثا . أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون » . .

أشهدوا خلقهم ؟ فعلموا أنهم إناث؟فالرؤية حجة ودليل يليق بصاحب الدعوى أن يرتكن إليه . وما يملكون أن يزعموا أنهم شهدوا خلقهم.ولكنهم يشهدون بهذا ويدعونه ، فليحتملوا تبعة هذه الشهادة بغير ما كانوا حاضريه : « ستكتب شهادتهم ويسألون » . .

ثم يتابع الفرية وما يصوغونه حولها من جدل واعتذار :

« وقالوا : لو شاء الرحمان ما عبدناهم . مالهم بذلك من علم . إن هم إلا يخرصون » . .

إنهم يحاولون التهرب حين تحاصرهم الحجج ، وتتهافت بين أيديهم الأسطورة . فيحيلون على مشيئة الله ، يزعمون أن الله راض عن عبادتهم للملائكة ؛ ولو لم يكن راضيا ما مكنهم من عبادتهم ، ولمنعهم من ذلك منعا !

وهذا القول احتيال على الحقيقة . فإن كل شىء يقع فى هذا الوجود إنما يقع وفق مشيئة الله . هذا حق . ولكن من مشيئة الله أن جعل للإنسان قدرة على اختيار الهدى أو اختيار الضلال . وكلفه اختيار الهدى ورضيه له ، ولم يرض له الكفر والضلال . وإن كانت مشيئته أن يخلقه قابلا للهدى أو الضلال .

وهم حين يحيلون على مشيئة الله إنما يخبطون خبطا ؛ فهم لا يوقنون أن الله أراد لهم أن يعبدوا الملائكة – ومن أين يأتيهم اليقين ؟ – « مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون » . . ويتبعون الأوهام والظنون .

« أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون ؟ » .

يستندون إليه فى دعواهم ، ويستندون إليه فى عبادتهم ، ويستمسكون بما فيه من حقائق ، ويرتكنون إلى ما عندهم فيه من دليل ! !

وهكذا يأخذ عليهم الطريق من هذه الناحية ؛ ويوحى إليهم كذلك أن العقائد لا يخبط فيها خبط عشواء ، ولا يرتكن فيها إلى ظن أو وهم . إنما تستقى من كتاب من عند الله يستمسك به من يؤتاه .

وعند هذا الحد يكشف عن سندهم الوحيد فى اعتقاد هذه الأسطورة المتهافتة التى لا تقوم على رؤية ، ومزاولة هذه العبادة الباطلة التى لا تستند إلى كتاب :

« بل قالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مهتدون » . .

وهى قولة تدعو إلى السخرية ، فوق أنها متهافتة لا تستند إلى قوة . إنها مجرد المحاكاة ومحض التقليد ، بلا تدبر ولا تفكر ولا حجة ولا دليل . وهى صورة مزرية تشبه صورة القطيع يمضى حيث هو منساق ؛ ولا يسأل : إلى أين نمضى ؟ ولا يعرف معالم الطريق !

والإسلام رسالة التحرر الفكرى والانطلاق الشعورى لا تقر هذا التقليد المزرى ، ولا تقر محاكاة الآباء والأجداد اعتزازا بالإثم والهوى . فلا بد من سند ، ولابد من حجة ، ولا بد من تدبر وتفكير ، ثم اختيار مبنى على الإدراك واليقين .

وفى نهاية هذه الجولة يعرض عليهم مصائر الذين قالوا قولتهم تلك واتبعوا طريقهم فى المحاكاة والتقليد ، وفى الإعراض والتكذيب ، بعد الإصرار على ماهم فيه على الرغم من الإعذار والبيان !

« وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال : أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا : إنا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم : فانظر كيف كان عاقبة المكذبين » . .

وهكذا يتجلى أن طبيعة المعرضين عن الهدى واحدة ، وحجتهم كذلك مكرورة : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » أو « مقتدون » . . ثم تغلق قلوبهم على هذه المحاكاة ، وتطمس عقولهم دون التدبر لأى جديد . ولو كان أهدى . ولو كان أجدى . ولو كان يصدع بالدليل . ثم لا يكون إلا التدمير والتنكيل لهذه الجبلة التى لا تريد أن تفتح عينها لترى ، أو تفتح قلبها لتحس ، أو تفتح عقلها لتستبين . .

وهذا هو مصير ذلك الصنف من الناس يعرضه عليهم لعلهم يتبينون عاقبة الطريق الذى يسلكون !

Marfat.com

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

« بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا : هَٰذَا سِحْرٌ ، وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا : لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ؟ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ؟ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ، لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا ، وَإِنْ كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ .

« وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ : يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ، فَبِئْسَ الْقَرِينُ * وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ .

« أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ * فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ * وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ؟

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، فَقَالَ : إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ

Marfat.com

Marfat.com

أُخْتِهَا، وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا : يَا أَيُّهَا ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ * وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ : قَالَ : يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ؟ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ ٱلْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ » ﴿٥٦﴾

لقد كانت قريش تقول : إنها من ذرية إبراهيم ـ وهذا حق ـ وإنها على ملة إبراهيم ـ وهذا ما ليس بحق ـ فقد أعلن إبراهيم كلمة التوحيد قوية واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض ؛ ومن أجلها هجر أباه وقومه بعد ما تعرض للقتل والتحريق ؛ وعليها قامت شريعته ، وبها أوصى ذريته . فلم يكن للشرك فيها ظل ولا خيط رفيع !

وفى هذا الشوط من السورة يردهم إلى هذه الحقيقة التاريخية ، ليعرضوا عليها دعواهم التى يدعون . . ثم يحكى اعتراضهم على رسالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقولهم : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » . . ويناقش قولتهم هذه ، وما تنطوى عليه من خطأ فى تقدير القيم الأصيلة التى أقام الله عليها الحياة ، والقيم الزائفةالتى تخايل لهم وتصدهم عن الحق والهدى . . وعقب تقرير الحقيقة فى هذه القضية يطلعهم على عاقبة المعرضين عن ذكر الله بعد أن يطلعهم على علة هذا العمى وهو من وسوسة الشيطان . . ويلتفت فى نهاية هذا الدرس إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسليه ويؤسيه عن إعراضهم وعماهم ، فما هو بهادى العمى أو مسمع الصم ؛ وسيلقون جزاءهم سواء شهد انتقام الله منهم ، أو أخره الله عنهم . ويوجهه إلى الاستمساك بما أوحى إليه فإنه الحق ، الذى جاء به الرسل أجمعون . فكلهم جاءوا بكلمة التوحيد : « واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا : أجعلنا من دون الرحمان آلهة يعبدون ؟ » . .

Marfat.com

ثم يعرض من قصة موسى ـ عليه السلام ـ حلقة تمثل هذا الواقع من العرب مع رسولهم . وكأنما هى نسخة مكررة تحوى ذات الاعتراضات التى يعترضونها ، وتحكى اعتزاز فرعون وملئه بذات القيم التى يعتز بها المشركون ..

***

« وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه : إننى براء مما تعبدون ، إلاالذى فطرنى فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون » ..

إن دعوة التوحيد التى يتنكرون لها هى دعوة أبيهم إبراهيم . الدعوة التى واجه بها أباه وقومه مخالفا بها عقيدتهم الباطلة ، غير منساق وراء عبادتهم الموروثة ، ولا مستمسك بها لمجرد أنه وجد أباه وقومه عليها ؛ بل لم يجاملهم فى إعلان تبرئه المطلق منها فى لفظ واضح صريح ، يحكيه القرآن الكريم بقوله :

« إننى براء مما تعبدون ، إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين » ..

ويبدو من حديث إبراهيم ـ عليه السلام ـ وتبرئه مما يعبدون إلاالذى فطره أنهم لم يكونوا يكفرون ويجحدون وجود الله أصلا ؛ إنما كانوا يشركون به ويعبدون معه سواه ،فتبرأ من كل مايعبدون ، واستثنى الله ؛ ووصفه بصفته التى تستحق العبادة ابتداء ،وهو أنه فطره وأنشأه ، فهو الحقيق بالعبادة بحكم أنه الموجد . وقرر يقينه بهداية ربه له ، بحكم أنه هو الذى فطره ؛ فقد فطره ليهديه ؛ وهو أعلم كيف يهديه .

قال إبراهيم هذه الكلمة التى تقوم بها الحياة. كلمة التوحيد التى يشهد بها الوجود . قالها « وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون » ..

ولقدكان لإبراهيم ـ عليه السلام ـ أكبرقسط فى إقرار هذه الكلمة فى الأرض، وإبلاغها إلى الأجيال من بعده ، عن طريق ذريته وعقبه . ولقد قام بها من بنيه رسل ، كان منهم ثلاثة من أولى العزم : موسى وعيسى ومحمد خاتم الرسل ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ واليوم بعد عشرات القرون يقوم فى الأرض أكثر من ألف مليون ،من أتباع الديانات الكبرى يدينون بكلمة التوحيد لأبيهم إبراهيم ، الذى جعل هذه الكلمة باقية فى عقبه ، يضل منهم عنها من يضل ، ولكنها هى باقية لاتضيع ، ثابتة لاتتزعزع ، واضحة لايتلبس بها الباطل « لعلهم يرجعون » . . يرجعون إلى الذى فطرهم فيعرفوه ويعبدوه . ويرجعون إلى الحق الواحد فيدركوه ويلزموه .

ولقد عرفت البشرية كلمة التوحيد قبل إبراهيم . ولكن هذه الكلمة لم تستقر فى الأرض إلا من بعد إبراهيم . عرفتها على لسان نوح وهود وصالح وربما إدريس ، وغيره من الرسل الذين لم يتصل لهم عقب يقوم على هذه الكلمة ، ويعيش بها ، ولها . فلما عرفتها على لسان إبراهيم ظلت متصلة فى أعقابه ؛ وقام عليها من بعده رسل متصلون لاينقطعون ، حتى كان ابنه الأخير من نسل إسماعيل ، وأشبه أبنائه به [1] : محمد - صلى الله عليه وسلم - خاتم الرسل . وقائل كلمة التوحيد فى صورتها الأخيرة الكاملة الشاملة ، التى تجعل الحياة كلها تدور حول هذه الكلمة ، وتجعل لها أثرا فى كل نشاط للإنسان وكل تصور .

فهذه هى قصة التوحيد منذ أبيهم إبراهيم الذى ينتسبون إليه ؛ وهذه هى كلمة التوحيد التى جعلها إبراهيم باقية فى عقبه . هذه هى تأتى إلى هذا الجيل على لسان واحد من عقب إبراهيم . فكيف يستقبلها من ينتسبون إلى إبراهيم ، وملة إبراهيم ؟

لقد بعد بهم العهد ؛ ومتعهم الله جيلا بعد جيل ، حتى طال عليهم العمر ، ونسوا ملة إبراهيم ، وأصبحت كلمة التوحيد فيهم غريبة منكرة ، واستقبلوا صاحبها أسوأ استقبال وقاسوا الرسالة السماوية بالمقاييس الأرضية ، فاختل فى أيديهم كل ميزان :

« بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين . ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر وإنا به كافرون . وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ! أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون . ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون ، وزخرفا ، وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين » . .

يضرب السياق عن حديث إبراهيم ، ويلتفت إلى القوم الحاضرين :

« بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين » . .

وكأنه بهذا الإضراب يقول : لندع حديث إبراهيم ، فمالهم به صلة ولا مناسبة ؛ ولننظر فى

(1) عن جابر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « عرض على الأنبياء ، فإذا موسى عليه السلام رجل ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة ، فرأيت عيسى ابن مريم عليه السلام ، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً عروة ابن مسعود . ورأيت إبراهيم عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبهاً صاحبكم » . .

Marfat.com

شأن هؤلاء وهو لا يتصل بشأن إبراهيم . . إن هؤلاء وآباءهم من قبلهم ، قد هيأت لهم المتاع ومددت لهم فى الأجل ، حتى جاءهم الحق فى هذا القرآن ، وجاءهم رسول مبين ، يعرض عليهم هذا الحق فى وضوح وتبيين :

« ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر ، وإنا به كافرون » . .

ولا يختلط الحق بالسحر . فهو واضح بين ، وإنما هى دعوى ، كانوا هم أول من يعرف بطلانها . فما كان كبراء قريش ليغيب عنهم أنه الحق؛ ولكنهم كانوا يخدعون الجماهير من خلفهم، فيقولون: إنه سحر ، ويعلنون كفرهم به على سبيل التوكيد ، يقولون : « وإنا به كافرون » ليلقوا فى روع الجماهير أنهم واثقون مما يقولون ؛ فيتبعوهم عن طريق الإيحاء والانقياد . شأن الملأ من كل قوم ، فى التغرير بالجماهير، خيفة أن يفلتوا من نفوذهم ، ويهتدوا إلى كلمة التوحيد، التى يسقط معها كل كبير ، ولا يعبد ويتقى إلا الله العلى الكبير !

ثم يحكى القرآن تخليطهم فى القيم والموازين ؛ وهم يعترضون على اختيار الله لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليحمل إليهم الحق والنور :

« وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ! » . .

يقصدون بالقريتين مكة والطائف . ولقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ذؤابة قريش ، ثم من ذؤابة بنى هاشم . وهم فى العلية من العرب . كما كان شخصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ معروفا بسمو الخلق فى بيئته قبل بعثته . ولكنه لم يكن زعيم قبيلة ، ولا رئيس عشيرة، فى بيئة تعتز بمثل هذه القيم القبلية . وهذا ما قصد إليه المعترضون بقولهم : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » !

والله أعلم حيث يجعل رسالته . ولقد اختار لها من يعلم أنه لها أهل . ولعله ـ سبحانه لم يشأ أن يجعل لهذه الرسالة سندا من خارج طبيعتها ، ولا قوة من خارج حقيقتها ؛ فاختار رجلا ميزته الكبرى . . الخلق . . وهو من طبيعة هذه الدعوة .. وسمته البارزة .. التجرد .. وهو من حقيقة هذه الدعوة . . ولم يختره زعيم قبيلة ، ولا رئيس عشيرة ، ولا صاحب جاه ، ولا صاحب ثراء . كى لا تلتبس قيمة واحدة من قيم هذه الأرض بهذه الدعوة النازلة من السماء . ولكى لا تزدان هذه الدعوة بحلية من حلى هذه الأرض ليست من حقيقتها فى شىء . ولكى لا يكون هناك مؤثر مصاحب لها خارج عن ذاتها المجردة . ولكى لا يدخلها طامع ولا يتنزه عنها متعفف .

Marfat.com

ولكن القوم الذى غلب عليهم المتاع ، والذين لم يدركوا طبيعة دعوة السماء ، راحوا يعترضون ذلك الاعتراض .

« لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » !

فرد عليهم القرآن مستنكرا هذا الاعتراض على رحمة الله ، التى يختار لها من عباده من يشاء ؛ وعلى خلطهم بين قيم الأرض وقيم السماء ؛ مبينا لهم عن حقيقة القيم التى يعتزون بها ، ووزنها الصحيح فى ميزان الله :

« أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون » ..

أهم يقسمون رحمة ربك ؟ ياعجبا ! وما لهم هم ورحمة ربك ؟ وهم لا يملكون لأنفسهم شيئا ، ولا يحققون لأنفسهم رزقا حتى رزق هذه الأرض الزهيد نحن أعطيناهم إياه ؛ وقسمناه بينهم وفق حكمتنا وتقديرنا لعمران هذه الأرض ونمو هذه الحياة .

« نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا » ..

ورزق المعاش فى الحياة الدنيا يتبع مواهب الأفراد ، وظروف الحياة ، وعلاقات المجتمع . وتختلف نسب التوزيع بين الأفراد والجماعات وفق تلك العوامل كلها . تختلف من بيئة لبيئة ، ومن عصر لعصر ، ومن مجتمع لمجتمع ، وفق نظمه وارتباطاته وظروفه العامة كلها . ولكن السمة الباقية فيه ، والتى لم تتخلف أبدا ــ حتى فى المجتمعات المصطنعة المحكومة بمذاهب موجهة للإنتاج وللتوزيع ــ أنه متفاوت بين الأفراد .

وتختلف أسباب التفاوت ما تختلف بين أنواع المجتمعات وألوان النظم ولكن سمة التفاوت فى مقادير الرزق لا تتخلف أبدا . ولم يقع يوما ــ حتى فى المجتمعات المصطنعة المحكومة بمذاهب موجهة ــ أن تساوى جميع الأفراد فى هذا الرزق أبدا : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » ..

والحكمة فى هذا التفاوت الملحوظ فى جميع العصور ، وجميع البيئات ، وجميع المجتمعات . . هى :

« ليتخذ بعضكم بعضا سخريا » . .

ليسخر بعضكم بعضا . ودولاب الحياة حين يدور يسخر بعض الناس لبعض حتما .

Marfat.com

وليس التسخير هو الاستعلاء .. استعلاء طبقة على طبقة ، أو استعلاء فرد على فرد .. كلا ! إن هذا معنى قريب ساذج ، لا يرتفع إلى مستوى القول الإلهى الخالد . كلا ! إن مدلول هذا القول أبقى من كل تغير أو تطور فى أوضاع الجماعة البشرية ؛ وأبعد مدى من ظرف يذهب وظرف يجىء . . إن كل البشر مسخر بعضهم لبعض . ودولاب الحياة يدور بالجميع ، ويسخر بعضهم لبعض فى كل وضع وفى كل ظرف . المقدر عليه فى الرزق مسخر للمبسوط له فى الرزق . والعكس كذلك صحيح . فهذا مسخر ليجمع المال ، فيأكل منه ويرتزق ذاك . وكلاهما مسخر للآخر سواء بسواء . والتفاوت فى الرزق هو الذى يسخر هذا لذاك ، ويسخر ذاك لهذا فى دورة الحياة . . العامل مسخر للمهندس ومسخر لصاحب العمل . والمهندس مسخر للعامل ولصاحب العمل . وصاحب العمل مسخر للمهندس وللعامل على السواء . . وكلهم مسخرون للخلافة فى الأرض بهذا التفاوت فى المواهب والاستعدادات ، والتفاوت فى الأعمال والأرزاق..

وأحسب أن كثيرين من دعاة المذاهب الموجهة يتخذون من هذه الآية موضع هجوم على الإسلام ونظمه الاجتماعية والاقتصادية . وأحسب أن بعض المسلمين يقفون يجمجمون أمام هذا النص ، كأنما يدفعون عن الإسلام تهمة تقرير الفوارق فى الرزق بين الناس ، وتهمة تقرير أن الناس يتفاوتون فى الرزق ليتخذ بعضهم بعضا سخريا !

وأحسب أنه قد آن لأهل الإسلام أن يقفوا بإسلامهم مواجهة وصراحة موقف الاستعلاء المطلق ، لا موقف الدفاع أمام اتهام تافه ! إن الإسلام يقرر الحقائق الخالدة المركوزة فى فطرة هذا الوجود ؛ الثابتة ثبات السماوات والأرض ونواميسها التى لا تختل ولا تتزعزع .

وطبيعة هذه الحياة البشرية قائمة على أساس التفاوت فى مواهب الأفراد والتفاوت فيما يمكن أن يؤديه كل فرد من عمل ؛ والتفاوت فى مدى اتقان هذا العمل . وهذا التفاوت ضرورى لتنوع الأدوار المطلوبة للخلافة فى هذه الأرض . ولو كان جميع الناس نسخا مكرورة ما أمكن أن تقوم الحياة فى هذه الأرض بهذه الصورة . ولبقيت أعمال كثيرة جدا لا تجد لها مقابلا من الكفايات ، ولا تجد من يقوم بها ــ والذى خلق الحياة وأراد لها البقاء والنمو ، خلق الكفايات والاستعدادات متفاوتة تفاوت الأدوار المطلوب أداؤها . وعن هذا التفاوت فى الأدوار يتفاوت الرزق . . هذه هى القاعدة . . أما نسبة التفاوت فى الرزق فقد تختلف من مجتمع إلى مجتمع ، ومن نظام إلى نظام . ولكنها لا تنفى القاعدة الفطرية المتناسقة مع طبيعة الحياة الضرورية

Marfat.com

Marfat.com

لنمو الحياة . ومن ثم لم يستطع أصحاب المذاهب المصطنعه المتكلفة أن يساووا بين أجر العامل وأجر المهندس ، ولا بين أجر الجندى وأجر القائد . على شدة ما حاولوا أن يحققوا مذهبهم . وهزموا أمام الناموس الإلهى الذى تقرره هذه الآية من كلام الله . وهى تكشف عن سنة ثابتة من سنن الحياة .

ذلك شأن الرزق والمعاش فى هذه الحياة الدنيا . ووراء ذلك رحمة الله :

« ورحمة ربك خير مما يجمعون » ..

والله يختار لها من يشاء ، ممن يعلم أنهم لها أهل . ولاعلاقة بينها وبين عرض الحياة الدنيا ؛ ولاصلة لها بقيم هذه الحياة الدنيا. فهذه القيم عند الله زهيدة زهيدة.ومن ثم يشترك فيها الأبرار والفجار ، وينالها الصالحون والطالحون . بينما يختص برحمته المختارين .

وإن قيم هذه الأرض لمن الزهادة والرخص بحيث ــ لوشاء الله ــ لأغدقها إغداقا على الكافرين به . ذلك إلا أن تكون فتنة للناس ، تصدهم عن الإيمان بالله :

« ولولا أن يكون الناس أمةواحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سقفامن فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون . وزخرفا . وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا . والآخرة عند ربك للمتقين » ..

فهكذا ــ لولا أن يفتتن الناس.والله أعلم بضعفهم وتأثير عرض الدنيا فى قلوبهم ــ لجعل لمن يكفر بالرحمان ــ صاحب الرحمة الكبيرة العميقة ــ بيوتا سقفها من فضة ، وسلالمها من ذهب. بيوتا ذات أبواب كثيرة . قصورا . فيها سرر للاتكاء ، وفيها زخرف للزينة . . رمزا لهوان هذه الفضة والذهب والزخرف والمتاع ؛ بحيث تبذل هكذا رخيصة لمن يكفر بالرحمان !

« وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا » ..

متاع زائل ، لايتجاوز حدود هذه الدنيا . ومتاع زهيد يليق بالحياة الدنيا .

« والآخرة عند ربك للمتقين » ..

وهؤلاء هم المكرمون عند الله بتقواهم ؛ فهو يدخر لهم ماهو أكرم وأبقى ؛ ويؤثرهم بما هو أقوم وأغلى . ويميزهم على من يكفر بالرحمان ، ممن يبذل لهم من ذلك المتاع الرخيص مايبذله للحيوان !

وإن عرض الحياة الدنيا الذى ضرب الله له بعض الأمثال من المال والزينة والمتاع ليفتن

الكثيرين . وأشد الفتنة حين يرونه فى أيدى الفجار ، ويرون أيادى الأبرار منه خالية ؛ أو يرون هؤلاء فى عسر أو مشقة أو ابتلاء ، وأولئك فى قوة وثروة وسطوة واستعلاء . والله يعلم وقع هذه الفتنة فى نفوس الناس . ولكنه يكشف لهم عن زهادة هذه القيم وهوانها عليه؛ ويكشف لهم كذلك عن نفاسة مايدخره للأبرار الأتقياء عنده . والقلب المؤمن يطمئن لاختيار الله للأبرار وللفجار .

وأولئك الذين كانوا يعترضون على اختيار الله لرجل لم يؤت شيئا من عرض هذه الحياة الدنيا ؛ ويقيسون الرجال بما يملكون من رياسة ، أو بما يملكون من مال . يرون من هذه الآيات هوان هذه الأعراض وزهادتها عند الله . وأنها مبذولة لشر خلق الله وأبغضهم عند الله . فهى لاتدل على قربى منه ولاتنبىء عن رضى ، ولاتشى باختيار !

وهكذا يضع القرآن الأمور فى نصابها؛ ويكشف عن سنن الله فى توزيع الأرزاق فى الدنيا والآخرة ؛ ويقرر حقيقة القيم كما هى عند الله ثابتة . وذلك فى صدد الرد على المعترضين على رسالة محمد ؛ واختياره . واطراح العظماء المتسلطين !

وهكذا يرسى القواعد الأساسية والحقائق الكلية التى لا تضطرب ولا تتغير ؛ ولا تؤثر فيها تطورات الحياة ، واختلاف النظم ، وتعدد المذاهب ، وتنوع البيئات . فهناك سنن للحياة ثابتة ، تتحرك الحياة فى مجالها ؛ ولكنها لاتخرج عن إطارها . والذين تشغلهم الظواهر المتغيرة عن تدبر الحقائق الثابتة ، لا يفطنون لهذا القانون الإلهى ، الذى يجمع بين الثبات والتغير ، فى صلب الحياة وفى أطوار الحياة ؛ ويحسبون أن التطور والتغير ، يتناول حقائق الأشياء كما يتناول أشكالها . ويزعمون أن التطور المستمر يمتنع معه أن تكون هناك قواعد ثابتة لأمر من الأمور ؛ وينكرون أن يكون هناك قانون ثابت غير قانون التطور المستمر . فهذا هو القانون الوحيد الذى يؤمنون بثباته ! فأما نحن ـ أصحاب العقيدة الإسلامية ـ فنرى فى واقع الحياة مصداق مايقرره الله من وجود الثبات والتغير متلازمين فى كل زاوية من زوايا الكون، وفى كل جانب من جوانب الحياة . وأقرب ما بين أيدينا من هذا التلازم ثبات التفاوت فى الرزق بين الناس ، وتغير نسب التفاوت وأسبابه فى النظم والمجتمعات .. وهذا التلازم مطرد فى غير هذا المثال (١).

***

(١) فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان .. « بحث لم يتم للمؤلف » ..

Marfat.com

ولما بين زهادة أعراض الحياة الدنيا وهوانها على الله ؛ وأن مايعطاه الفجار منها لايدل على كرامة لهم عند الله ، ولايشير إلى فلاح ؛ وأن الآخرة عند ربك للمتقين . استطرد يبين مصير أولئك الذين قد ينالون تلك الأعراض ، وهم عمى عن ذكر الله ، منصرفون عن الطاعات التى تؤهلهم لرزق الآخرة المعد للمتقين :

« ومن يعش عن ذكر الرحمان نقيض له شيطانا فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال : ياليت بينى وبينك بعد المشرقين . فبئس القرين . ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون » . .

والعشى كلال البصر عن الرؤية ، وغالبا مايكون عند مواجهة الضوء الساطع الذى لاتملك العين أن تحدق فيه ؛ أوعند دخول الظلام وكلال العين الضعيفة عن التبين خلاله . وقد يكون ذلك لمرض خاص . والمقصود هنا هو العماية والإعراض عن تذكر الرحمان واستشعار وجوده ورقابته فى الضمير .

« ومن يعش عن ذكر الرحمان نقيض له شيطانا فهو له قرين » . .

وقد قضت مشيئة الله فى خلقة الإنسان ذلك . واقتضت أنه حين يغفل قلبه عن ذكر الله يجد الشيطان طريقه إليه ، فيلزمه ، ويصبح لهقرين سوء يوسوس له ، ويزين له السوء . وهذا الشرط وجوابه هنا فى الآية يعبران عن هذه المشيئة الكلية الثابتة ، التى تتحقق معها النتيجة بمجرد تحقق السبب ، كما قضاه الله فى علمه .

ووظيفة قرناء السوء من الشياطين أن يصدوا قرناءهم عن سبيل الله ، بينما هؤلاء يحسبون أنهم مهتدون : .

« وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون » . .

وهذا أسوأ مايصنعه قرين بقرين . أن يصده عن السبيل الواحدة القاصدة ؛ ثم لا يدعه يفيق ، أويتبين الضلال فيثوب ؛ إنما يوهمه أنه سائر فى الطريق القاصد القويم ! حتى يصطدم بالمصير الأليم .

والتعبير بالفعل المضارع : « ليصدونهم » . . « ويحسبون » . . يصور العملية قائمة مستمرة معروضة للأنظار ؛ يراها الآخرون ، ولايراها الضالون السائرون إلى الفخ وهم لايشعرون .

Marfat.com

ثم تفاجئهم النهاية وهم سادرون :

« حتى إذا جاءنا قال : ياليت بينى وبينك بعد المشرقين . فبئس القرين » !

وهكذا ننتقل فى ومضة من هذه الدنيا إلى الآخرة . ويطوى شريط الحياة السادرة ، ويصل العمى (الذين يعشون عن ذكر الرحمان) إلى نهاية المطاف فجأة على غير انتظار . هنا يفيقون كما يفيق المخمور ، ويفتحون أعينهم بعد العشى والكلال ؛ وينظر الواحد منهم إلى قرين السوء الذى زين له الضلال ، وأوهمه أنه الهدى ! وقاده فى طريق الهلاك ، وهو يلوح له بالسلامة ! ينظر إليه فى حنق يقول : « ياليت بينى وبينك بعد المشرقين » ! ياليته لم يكن بيننا لقاء . على هذا البعد السحيق !

ويعقب القرآن على حكاية قول القرين الهالك للقرين بقوله : « فبئس القرين » !

ونسمع كلمة التيئيس الساحقة لهذا وذاك عند إسدال الستار على الجميع :

« ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون » !

فالعذاب كامل لا تخففه الشركة ، ولا يتقاسمه الشركاء فيهون !

* * *

عندئذ ينصرف عن هؤلاء ، فى مشهدهم البائس الكئيب ؛ ويدعهم يتلاومون ويتشاءمون . ويتجه بالخطاب إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يسليه عن هذا المصير البائس الذى انتهى إليه فريق من البشر ؛ ويعزيه عن إعراضهم عنه وكفرهم بما جاء به ؛ ويثبته على الحق الذى أوحى إليه ؛ وهو الحق الثابت المطرد من قديم ، فى رسالة كل رسول :

« أفأنت تسمع الصم أوتهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين ؟ فإمانذهبن بك فإنا منهم منتقمون . أونرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون . فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم . وإنه لذكر لك ولقومك ، وسوف تسألون . واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا : أجعلنا من دون الرحمان آلهة يعبدون ؟ » ..

وهذا المعنى يتكرر فى القرآن تسلية لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبيانا لطبيعة الهدى والضلال ، ورجعهما إلى مشيئة الله وتقديره وحده ؛ وإخراجها من نطاق وظيفة الرسل – عليهم الصلاة والسلام – ووضع حدود فاصلة بين مجال القدرة الإنسانية المحدودة فى أعلى درجاتها عند مرتقى النبوة ، ومجال القدرة الإلهية الطليقة ؛ وتثبيت معنى التوحيد فى صورة من أدق صوره ، وفى موضع من ألطف مواضعه :

Marfat.com

« أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين » ..

وهم ليسوا صما ولا عميا ، ولكنهم كالصم والعمى فى الضلال، وعدم الانتفاع بالدعاء إلى الهدى، والإشارة إلى دلائله . ووظيفة الرسول أن يُسمع من يَسمع ، وأن يهدى من يبصر . فإذا هم عطلوا جوارحهم ، وطمسوا منافذ قلوبهم وأرواحهم ، فما للرسول إلى هداهم من سبيل ؛ ولا عليه من ضلالهم ، فقد قام بواجبه الذى يطيق .

والله يتولى الأمر بعد أداء الرسول لواجبه المحدود :

« فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون . أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون » ..

والأمر لا يخرج عن هذين الحالين. فإذا ذهب الله بنبيه فسيتولى هو الانتقام من مكذبيه . وإذا قدر له الحياة حتى يتحقق ما أنذرهم به ، فالله قادر على تحقيق النذير، وهم ليسوا له بمعجزين. ومرد الأمر إلى مشيئة الله وقدرته فى الحالين ، وهو صاحب الدعوة . وما الرسول إلا رسول .

« فاستمسك بالذى أوحى إليك . إنك على صراط مستقيم » ..

واثبت على ما أنت فيه ، وسر فى طريقك لا تحفل ما كان منهم وما يكون . سر فى طريقك مطمئن القلب . « إنك على صراط مستقيم » .. لا يلتوى بك ولا ينحرف ولا يحيد .

وهذه العقيدة متصلة بحقيقة الكون الكبرى ، متناسقة مع الناموس الكلى الذى يقوم عليه هذا الوجود . فهى مستقيمة معه لا تنفرج عنه ولا تنفصل . وهى مؤدية بصاحبها إلى خالق هذا الوجود ، على استقامة تؤمن معها الرحلة فى ذلك الطريق !

والله ـ سبحانه ـ يثبت رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتوكيد هذه الحقيقة . وفيها تثبيت كذلك للدعاة من بعده ، مهما لاقوا من عنت الشاردين عن الطريق !

« وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » ..

ونص هذه الآية هنا يحتمل أحد مدلولين :

أن هذا القرآن تذكير لك ولقومك تسألون عنه يوم القيامة ، فلا حجة بعد التذكير .

أو أن هذا القرآن يرفع ذكرك وذكر قومك . وهذا ما حدث فعلا ..

فأما الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن مئات الملايين من الشفاه تصلى وتسلم عليه، وتذكره ذكر المحب المشتاق آناء الليل وأطراف النهار منذ قرابة ألف وأربع مئة عام . ومئات الملايين من القلوب تخفق بذكره وحبه منذ ذلك التاريخ البعيد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

Marfat.com

وأما قومه فقد جاءهم هذا القرآن والدنيا لاتحس بهم، وإن أحست اعتبرتهم على هامش الحياة. وهو الذى جعل لهم دورهم الأكبر فى تاريخ هذه البشرية. وهو الذى واجهوا به الدنيا فعرفتهم ودانت لهم طوال الفترة التى استمسكوا فيها به. فلما أن تخلوا عنه أنكرتهم الأرض، واستصغرتهم الدنيا؛ وقذفت بهم فى ذيل القافلة هناك، بعد أن كانوا قادة الموكب المرموقين!

وإنها لتبعة ضخمة تسأل عنها الأمة التى اختارها الله لدينه، واختارها لقيادة القافلة البشرية الشاردة، إذا هى تخلت عن الأمانة: «وسوف تسألون» ..

وهذا المدلول الأخير أوسع وأشمل. وأنا إليه أميل.

« واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا: أجعلنا من دون الرحمان آلهة يعبدون؟ » ..

والتوحيد هو أساس دين الله الواحد منذ أقدم رسول. فعلام يرتكن هؤلاء الذين يجعلون من دون الرحمان آلهة يعبدون؟

والقرآن يقرر هذه الحقيقة هنا فى هذه الصورة الفريدة .. صورة الرسول - صلى الله عليه وسلم - يسأل الرسل قبله عن هذه القضية: « أجعلنا من دون الرحمان آلهة يعبدون؟ » وحول هذا السؤال ظلال الجواب القاطع من كل رسول. وهى صورة طريفة حقا. وهو أسلوب موح شديد التأثير فى القلوب.

وهناك أبعاد الزمان والمكان بين الرسول - صلى الله عليه وسلم - والرسل قبله. وهناك أبعاد الموت والحياة وهى أكبر من أبعاد الزمان والمكان .. ولكن هذه الأبعاد كلها تتلاشى هنا أمام الحقيقة الثابتة المطردة. حقيقة وحدة الرسالة المرتكزة كلها على التوحيد. وهى كفيلة أن تبرز وتثبت حيث يتلاشى الزمان والمكان والموت والحياة وسائر الظواهر المتغيرة؛ ويتلاقى عليها الأحياء والأموات على مدار الزمان متفاهمين متعارفين .. وهذه هى ظلال التعبير القرآنى اللطيف العجيب ..

على أنه بالقياس إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وإخوانه من الرسل مع ربهم لايبقى شىء بعيد وآخر قريب. فهناك دائما تلك اللحظة اللدنية التى تزال فيها الحواجز وترتفع فيها السدود، وتتجلى الحقيقة الكلية عارية من كل ستار. حقيقة النفس وحقيقة الوجود كله وأهل هذا الوجود. تتجلى وحدة متصلة، وقد سقط عنها حاجز الزمان وحاجز المكان وحاجز الشكل والصورة. وهنا يسأل الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويجاب، بلاحاجز ولاحجاب. كما وقع فى ليلة الإسراء والمعراج.

Marfat.com

وإنه ليحسن فى مثل هذه المواطن ألا نعتد كثيرا بالمألوف فى حياتنا .فهذا المألوف ليس هو القانون الكلى . ونحن لاندرك من هذاالوجود إلا بعض ظواهره وبعض آثاره، حين نهتدى إلى طرف من قانونه . وهناك حجب من تكويننا ذاته ومن حواسنا ومانرتبه عليها من مألوفات. فأما اللحظة التى تتجرد فيها النفس من هذه العوائق والحجب فيكون لقاء الحقيقة المجردة للإنسان بالحقيقة المجردة لأى شىء آخر أمرا أيسر من لمس الأجسام للأجسام !

***

وفى سياق تسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما يعترض به المعترضون من كبراء قومه على اختياره ؛ واعتزازهم بالقيم الباطلة لعرض هذه الحياة الدنيا . تجىء حلقة من قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون وملئه ، يذكر فيها اعتزاز فرعون بمثل ما يعتز به من يقولون : «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » ! وتباهيه بماله من ملك ومن سلطان، وتساؤله فى فخر وخيلاء : «أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى؟أفلا تبصرون ؟ » . . وانتفاخه على موسى ـ عبد الله ورسوله ـ وهو مجرد من الجاه الأرضى والعرض الدنيوى: « أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ؟ » . . واقتراحه الذى يشبه ما يقترحون : « فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين » . .

وكأنما هى نسخة تكرر ، أو أسطوانة تعاد !

ثم يبين كيف استجابت لفرعون الجماهير المستخفة المخدوعة ؛ على الرغم من الخوارق التى عرضها عليهم موسى ـ عليه السلام ـ وعلى الرغم مما أصابهم من ابتلاءات ، واستغاثتهم بموسى ليدعو ربه فيكشف عنهم البلاء .

ثم كيف كانت العاقبة بعد ماألزمهم الله الحجة بالتبليغ : « فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين » . .

وهاهم أولاء الآخرون لا يعتبرون ولا يتذكرون !

ومن خلال هذه الحلقة تتجلى وحدة الرسالة ، ووحدة المنهج، ووحدة الطريق . كما تتبدى طبيعة الكبراء والطغاة فى استقبال دعوة الحق، واعتزازهم بالتافه الزهيد من عرض هذه الأرض ؛ وطبيعة الجماهير التى يستخفها الكبراء والطغاة على مدار القرون !

***

Marfat.com

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ، فقال : إنى رسول رب العالمين . فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون » . . .

هنا يعرض حلقة اللقاء الأول بين موسى وفرعون ، فى إشارة مقتضبة تمهيدا لاستعراض النقطة الرئيسية المقصودة من القصة فى هذا الموضع ـ وهى تشابه اعتراضات فرعون وقيمه مع اعتراضات مشركى العرب وقيمهم ـ ويلخص حقيقة رسالة موسى : « فقال : إنى رسول رب العالمين » . . وهى ذات الحقيقة التى جاء بها كل رسول : أنه « رسول » وأن الذى أرسله هو « رب العالمين » .

ويشير كذلك إشارة سريعة إلى الآيات التى عرضها موسى ، وينهى هذه الإشارة بطريقة استقبال القوم لها : « إذا هم منها يضحكون » . . شأن الجهال المتعالين !

يلى ذلك إشارة إلى ما أخذ الله به فرعون وملأه من الابتلاءات المفصلة فى سور أخرى : « وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها ، وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون . وقالوا: يأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون . فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون » . .

وهكذا لم تكن الآيات التى ظهرت على يدى موسى ـ عليه السلام ـ مدعاة إيمان ، وهى تأخذهم متتابعة . كل آية أكبر من أختها . مما يصدق قول الله تعالى فى مواضع كثيرة ، وفحواه أن الخوارق لا تهدى قلبا لم يتأهل للهدى ؛ وأن الرسول لا يسمع الصم ولا يهدى العمى !

والعجب هنا فيما يحكيه القرآن عن فرعون وملئه قولهم : « يأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون » . . فهم أمام البلاء ، وهم يستغيثون بموسى ليرفع عنهم البلاء . ومع ذلك يقولون له : « يأيها الساحر » ويقولون كذلك : « ادع لنا ربك بما عهد عندك » وهو يقول لهم : إنه رسول « رب العالمين » لا ربه هو وحده على جهة الاختصاص ! ولكن لا الخوارق ولا كلام الرسول مس قلوبهم ، ولا خالطتها بشاشة الإيمان ، على الرغم من قولهم : « إننا لمهتدون » :

« فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون » . .

ولكن الجماهير قد تؤخذ بالخوارق المعجزة ، وقد يجد الحق سبيلا إلى قلوبها المخدوعة . وهنا يبرز فرعون فى جاهه وسلطانه ، وفى زخرفه وزينته ، يخلب عقول الجماهير الساذجة .

Marfat.com

Marfat.com

بمنطق سطحي، ولكنه يروج بين الجماهير المستعبدة في عهود الطغيان، المخدوعة بالأبهة والبريق:

«ونادى فرعون في قومه : قال : ياقوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي؟ أفلا تبصرون ؟ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ، ولا يكاد يبين ؟ فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ؟ » .

إن ملك مصر وهذه الأنهار التي تجري من تحت فرعون ، أمر قريب مشهود للجماهير ، يبهرها وتستخفها الإشارة إليه . فأما ملك السماوات والأرض وما بينهما - ومصر لا تساوي هباءة فيه - فهو أمر يحتاج إلى قلوب مؤمنة تحسه، وتعقد الموازنة بينه وبين ملك مصر الصغير الزهيد!

والجماهير المستعبدة المستغفلة يغريها البريق الخادع القريب من عيونها ؛ ولا تسمو قلوبها ولا عقولها إلى تدبر ذلك الملك الكوني العريض البعيد !

ومن ثم عرف فرعون كيف يلعب بأوتار هذه القلوب ويستغفلها بالبريق القريب !

« أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ؟ » .

وهو يعني بالمهانة أن موسى ليس ملكا ولا أميرا ولا صاحب سطوة ومال مشهود . أم لعله يشير بهذا إلى أنه من ذلك الشعب المستعبد المهين . شعب إسرائيل . أما قوله : « ولا يكاد يبين » فهو استغلال لما كان معروفا عن موسى قبل خروجه من مصر من حبسة اللسان . وإلا فقد استجاب الله سؤاله حين دعاه : « رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي » . وحلت عقدة لسانه فعلا ، وعاد يبين .

وعند الجماهير الساذجة الغافلة لابد أن يكون فرعون الذي له ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحته ، خيرا من موسى - عليه السلام - ومعه كلمة الحق ومقام النبوة ودعوة النجاة من العذاب الأليم !

« فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب ؟ » ..

هكذا . من ذلك العرض التافه الرخيص ! أسورة من ذهب تصدق رسالة رسول ! أسورة من ذهب تساوي أكثر من الآيات المعجزة التي أيد الله بها رسوله الكريم ! أم لعله كان يقصد من إلقاء أسورة الذهب تتويجه بالملك ، إذ كانت هذه عادتهم ، فيكون الرسول ذا ملك وذا سلطان ؟

« أو جاء معه الملائكة مقترنين » ..

وهو اعتراض آخر له بريق خادع كذلك من جانب آخر ، تؤخذ به الجماهير ، وترى أنه اعتراض وجيه ! وهو اعتراض مكرور ، ووجه به أكثر من رسول !

« فاستخف قومه فأطاعوه ، إنهم كانوا قوما فاسقين » ..

واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لاغرابة فيه ؛ فهم يعزلون الجماهير أولا عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها ، ولايعودوا يبحثون عنها ؛ ويلقون فى روعهم مايشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة . ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم ، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين !

ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق ، ولايتمسكون بحبل الله ، ولايزنون بميزان الإيمان . فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة فى مهب الريح . ومن هنا يعلل القرآن استجابة الجماهير لفرعون فيقول :

« فاستخف قومه فأطاعوه . إنهم كانوا قوما فاسقين » ..

ثم انتهت مرحلة الابتلاء والإنذار والتبصير ؛ وعلم الله أن القوم لا يؤمنون ؛ وعمت الفتنة فأطاعت الجماهير فرعون الطاغية المتباهى فى خيلاء،وعشت عن الآيات البينات والنور ؛ فحقت كلمة الله وتحقق النذير :

« فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين » ..

يتحدث الله سبحانه عن نفسه فى مقام الانتقام والتدمير ؛ إظهارا لغضبه ولجبروته فى هذا المقام . فيقول : « فلما آسفونا » . . أى أغضبونا أشد الغضب .. « انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين» .. يعنى فرعون وملأه وجنده . وهم الذين غرقوا على إثر موسى وقومه وجعلهم الله سلفا يتبعه كل خلف ظالم ؛ «ومثلا للآخرين » الذين يجيئون بعدهم ، ويعرفون قصتهم، فيعتبرون .

***

وهكذا تلتقى هذه الحلقة من قصة موسى – عليه السلام – بالحلقة المشابهة لها من قصة العرب فى مواجهة رسولهم الكريم . فتثبت الرسول – صلى الله عليه وسلم – والمؤمنين معه ؛ وتحذر المشركين المعترضين ، وتنذرهم مصيرا كمصير الأولين ..

وتلتقى الحقيقة فى عرض القصة ، بالتناسق بين الحلقة المعروضة والحال القائمة والغاية من إيرادها فى هذه الحال القائمة . وتصبح القصة بهذا أداة للتربية فى المنهج الإلهى الحكيم .

***

Marfat.com

ثم ينتقل السياق من هذه الحلقة فى قصة موسى ، إلى حلقة من قصة عيسى ، بمناسبة جدل القوم حول عبادتهم للملائكة وعبادة بعض أهل الكتاب للمسيح .. وذلك فى الدرس الأخير .

« وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوا : أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ؟ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ * وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ، هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ .

« وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَاتِ قَالَ : قَدْ جِئْتُكُمْ بِٱلْحِكْمَةِ ، وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ، هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ .

« هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ؟ * ٱلْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ .

« يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ .

« إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ *

Marfat.com

Marfat.com

وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ * وَنَادَوْا : يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ . قَالَ : إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ .

« لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ * أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ؟ بَلَىٰ ، وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ .

« قُلْ : إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَانِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ * سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ * وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَهُمْ ؟ لَيَقُولُنَّ : اللَّهُ . فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ؟ * وَقِيلِهِ : يَارَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ .

« فَاصْفَحْ عَنْهُمْ ، وَقُلْ : سَلَامٌ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » ٨٩

فى هذا الدرس الأخير من السورة يستطرد السياق إلى حكاية أساطيرهم حول عبادة الملائكة ؛ ويحكى حادثا من حوادث الجدل الذى كانوا يزاولونه ، وهم يدافعون عن عقائدهم الواهية ، لا بقصد الوصول إلى الحق ، ولكن مراء ومحالا !

فلما قيل لهم : إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم . وكان القصد هو أصنامهم التى جعلوها تماثيل للملائكة ثم عبدوها بذاتها . وقيل لهم : إن كل عابد وما يعبد من دون الله فى النار . لما قيل لهم هذا ضرب بعضهم المثل بعيسى ابن مريم ـ وقد عبده المنحرفون من قومه ـ أهو فى النار ؟ وكان هذا مجرد جدل ومجرد مراء . ثم قالوا . إذا كان أهل الكتاب

Marfat.com

يعبدون عيسى وهو بشر فنحن أهدى إذ نعبد الملائكة وهم بنات الله ! وكان هذا باطلا يقوم على باطل .

وبهذه المناسبة يذكر السياق طرفا من قصة عيسى ابن مريم ، يكشف عن حقيقته وحقيقة دعوته ، واختلاف قومه من قبله ومن بعده .

ثم يهدد المنحرفين عن سواء العقيدة جميعا بمجيء الساعة بغتة . وهنا يعرض مشهدا مطولا من مشاهد القيامة ، يتضمن صفحة من النعيم للمتقين ، وصفحة من العذاب الأليم للمجرمين .

وينفي أساطيرهم عن الملائكة، وينزه الله ـ سبحانه ـ عما يصفون ، ويعرفه لعباده ببعض صفاته ؛ وملكيته المطلقة للسماء والأرض والدنيا والآخرة وإليه يرجعون .

ويختم السورة بتوجيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الصفح عنهم والإعراض ويدعهم ليعلموا ما سيعلمون ! وهو تهديد ملفوف يليق بالمجادلين المرائين بعد هذا الإيضاح والتبيين .

***

«ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون. وقالوا: أآلهتنا خير أم هو؟ ماضربوه لك إلا جدلا . بل هم قوم خصمون . إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل . ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون . وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون ، هذا صراط مستقيم . ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين » . .

« ولما جاء عيسى بالبينات قال :قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه ، فاتقوا الله وأطيعون . إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » . .

ذكر ابن إسحاق في السيرة قال : جلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما بلغني مع الوليد ابن المغيرة في المسجد ، فجاء النضر ابن الحارث حتى جلس معهم ، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش،فتكلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعرض له النضر ابن الحارث ، فكلمه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أفحمه . ثم تلا عليه وعليهم « إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » . . الآيات . . ثم قام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقبل عبد الله ابن الزبعرى التميمي حتى جلس . فقال الوليد ابن المغيرة له : والله ماقام النضر ابن الحارث لابن عبد المطلب وماقعد ! وقد زعم محمد أنا ومانعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم .

Marfat.com

قال عبد الله ابن الزبعرى : أما والله لو وجدته لخصمته . سلوا محمدا أ كل مايعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد الملائكة ،واليهود تعبد عزيرا ، والنصارى تعبد المسيح ابن مريم .فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله ابن الزبعرى ورأوا أنه قد احتج وخاصم . فذكر ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده. فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته »فأنزل الله عزوجل: « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » ..أي عيسى وعزير ومن عبد معهما من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله عز وجل ، فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله ، ونزل فيما يذكر من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام ، وأنه يعبد من دون الله ، وعجب الوليد ومن حضر من حجته وخصومته : « ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون» .. أي يصدون عن أمرك بذلك ...

وذكر صاحب الكشاف في تفسيره :لما قرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قريش : « إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم » امتعضوا من ذلك امتعاضا شديدا . فقال عبد الله ابن الزبعرى : يامحمد . أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال عليه السلام : « هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم » فقال : خصمتك ورب الكعبة ! ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي ، وتثني عليه خيرا وعلى أمه؟وقدعلمت أن النصارى يعبدونهما ؟ وعزير يعبد ؟والملائكة يعبدون ؟ فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ! ففرحوا وضحكوا. وسكت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزل الله تعالى : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى »ونزلت هذه الآية . والمعنى : ولما ضرب عبد الله ابن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلا ، وجادل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعبادة النصارى إياه« إذا قومك » ـ قريش ـ من هذا المثل « يصدون» ترتفع لهم جلبة وضجيج ، فرحا وجذلا وضحكا بما سمعوا من إسكات رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بجدله ، كما يرتفع لغط القوم ولجبهم إذا تعبوا بحجة ثم فتحت عليهم . وأما من قرأ « يصدون » بالضم فمن الصدود . أي من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه. وقيل : من الصديد وهو الجبة . وأنهما لغتان نحو يعكُف ويعكِف ونظائر لهما . « وقالوا أآلهتنا خير أم هو ؟ » يعنون أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى ؛ وإذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هينا !»

ولم يذكر صاحب الكشاف من أين استقى روايته هذه . وهى تتفق فى عمومها مع رواية ابن إسحاق .

ومن كليهما يتضح الالتواء فى الجدل ، والمراء فى المناقشة . ويتضح ما يقرره القرآن عن طبيعة القوم وهو يقول : « بل هم قوم خصمون » . . ذوو لدد فى الخصومة ومهارة . فهم يدركون من أول الأمر ما يقصد إليه القرآن الكريم وما يقصد إليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيلوونه عن استقامته ، ويتلمسون شبهة فى عموم اللفظ فيدخلون منها بهذه المماحكات الجدلية ، التى يغرم بمثلها كل من عدم الإخلاص ، وفقد الاستقامة ؛ يكابر فى الحق ، ويعمد إلى شبهة فى لفظ أو عبارة أو منفذ خلفى للحقيقة ! ومن ثم كان نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتشديده عن المراء ، الذى لا يقصد به وجه الحق ، إنما يراد به الغلبة من أى طريق .

قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أحمد ابن عبد الرحمان ، عن عبادة ابن عبادة ، عن جعفر ، عن القاسم ، عن أبى أمامة - رضى الله عنه - قال : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرج على الناس وهم يتنازعون فى القرآن . فغضب غضبا شديدا ،حتى كأنما صب على وجهه الخل . ثم قال - صلى الله عليه وسلم : « لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض . فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا الجدل » . ثم تلا - صلى الله عليه وسلم - « ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون » . .

وهناك احتمال فى تفسير قوله تعالى : « وقالوا : أآلهتنا خير أم هو ؟ » يرشح له سياق الآيات فى صدد أسطورتهم عن الملائكة . وهو أنهم عنوا أن عبادتهم للملائكة خير من عبادة النصارى لعيسى ابن مريم . بما أن الملائكة أقرب فى طبيعتهم وأقرب نسبا - حسب أسطورتهم - من الله سبحانه وتعالى عما يصفون . ويكون التعقيب بقوله تعالى : « ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون» . . يعنى الرد على ابن الزبعرى كما سبق . كما يعنى أن ضربهم المثل بعبادة النصارى للمسيح باطل . فعمل النصارى ليس حجة لأنه انحراف عن التوحيد : كانحرافهم هم . فلا مجال للمفاضلة بين انحراف وانحراف . فكله ضلال . وقد أشار إلى هذا الوجه بعض المفسرين أيضا . وهو قريب .

ومن ثم جاء التعقيب بعد هذا :

« إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل » . .

Marfat.com

Marfat.com

فليس إلها يعبد كما انحرف فريق من النصارى فعبدوه . إنما هو عبد أنعم الله عليه . ولا حريرة له فى عبادتهم إياه . فإنما أنعم الله عليه ليكون مثلا لبنى إسرائيل ينظرون إليه ويتأسون به . فنسوا المثل ، وضلوا السبيل !

واستطرد إلى أسطورتهم حول الملائكة ، يبين لهم أن الملائكة خلق من خلق الله مثلهم . ولو شاء الله لجعل الملائكة يخلفونهم فى هذه الأرض ، أو لحول بعض الناس إلى ملائكة يخلفونهم فى الأرض :

« ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون » . .

فرد الأمر إلى مشيئة الله فى الخلق . وما يشاؤه من الخلق يكون . وليس أحد من خلقه يمت إليه بنسب ، ولا يتصل به — سبحانه — إلا صلة المخلوق بالخالق ، والعبد بالرب ، والعابد بالمعبود .

ثم يعود إلى تقرير شىء عن عيسى عليه السلام . يذكرهم بأمر الساعة التى يكذبون بها أو يشكون فيها :

« وإنه لعلم للساعة . فلا تمترن بها . واتبعون . هذا صراط مستقيم. ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين » . .

وقد وردت أحاديث شتى عن نزول عيسى — عليه السلام — إلى الأرض قبيل الساعة وهو ماتشير إليه الآية : « وإنه لعلم للساعة » بمعنى أنه يُعلم بقرب مجيئها ، والقراءة الثانية « وإنه لَعَلَم للساعة » بمعنى أمارة وعلامة . وكلاهما قريب من قريب .

عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها »(١)

وعن جابر — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم —: لاتزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة . فينزل عيسى ابن مريم ، فيقول أميرهم : تعال : صل لنا . فيقول : لا . ان بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله تعالى لهذه الأمة »(٢) .

---

(١) أخرجه مالك والشيخان وأبو داود (٢) أخرجه مسلم .

وهو غيب من الغيب الذى حدثنا عنه الصادق الأمين وأشار إليه القرآن الكريم ، ولا قول فيه لبشر إلا ماجاء من هذين المصدرين الثابتين إلى يوم الدين .

« فلا تمترن بها . واتبعون . هذا صراط مستقيم » . .

وكانوا يشكون فى الساعة ، فالقرآن يدعوهم إلى اليقين . وكانوا يشردون عن الهدى ، والقرآن يدعوهم على لسان الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى اتباعه فإنه يسير بهم فى الطريق المستقيم ، القاصد الواصل الذى لا يضل سالكوه .

ويبين لهم أن انحرافهم وشرودهم أثر من اتباع الشيطان . والرسول أولى أن يتبعوه :

« ولا يصدنكم الشيطان . إنه لكم عدو مبين » . .

والقرآن لا يفتأ يذكر البشر بالمعركة الخالدة بينهم وبين الشيطان منذ أبيهم آدم ، ومنذ المعركة الأولى فى الجنة . وأغفل الغافلين من يعلم أن له عدوا يقف له بالمرصاد ، عن عمد وقصد ، وسابق إنذار وإصرار ؛ ثم لايأخذ حذره ؛ ثم يزيد فيصبح تابعا لهذا العدوالصريح!

وقد أقام الإسلام الإنسان فى هذه المعركة الدائمة بينه وبين الشيطان طوال حياته على هذه الأرض ؛ ورصد له من الغنيمة إذا هو انتصر مالا يخطر على قلب بشر ، ورصد له من الخسران إذا هو اندحر مالا يخطر كذلك على قلب بشر . وبذلك حول طاقة القتال فيه إلى هذه المعركة الدائبة ؛ التى تجعل من الإنسان إنسانا ، وتجعل له طابعه الخاص بين أنواع الخلائق المتنوعة الطبائع والطباع ! والتى تجعل أكبر هدف للإنسان على الأرض أن ينتصر على عدوه الشيطان؛ فينتصر على الشر والخبث والرجس ؛ ويثبت فى الأرض قوائم الخير والنصح والطهر .

وبعد هذه اللفتة يعود إلى بيان حقيقة عيسى – عليه السلام – وحقيقة ماجاء به ؛ وكيف اختلف قومه من قبله ثم اختلفوا كذلك من بعده :

« ولما جاء عيسى بالبينات قال :قد جئتكم بالحكمة، ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه ، فاتقوا الله وأطيعون . إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه، هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » . .

فعيسى جاء قومه بالبينات الواضحات سواء من الخوارق التى أجراها الله على يديه ، أومن الكلمات والتوجيهات إلى الطريق القويم . وقال لقومه : « قد جئتكم بالحكمة » . ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، وأمن الزلل والشطط أمنه للتفريط والتقصير ؛ واطمأن إلى

Marfat.com

Marfat.com

خطواته فى الطريق على اتزان وعلى نور. وجاء ليبين لهم بعض الذى يختلفون فيه. وقد اختلفوا فى كثير من شريعة موسى – عليه السلام – وانقسموا فرقا وشيعا . ودعاهم إلى تقوى الله وإلى طاعته فيما جاءهم به من عند الله. وجهر بكلمة التوحيد خالصة لامواربة فيها ولا لبس ولا غموض : « إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه » .. ولم يقل : إنه إله ، ولم يقل : إنه ابن الله . ولم يشر من قريب أو بعيد إلى صلة له بربه غير صلة العبودية من جانبه والربوبية من جانب الله رب الجميع . وقال لهم : إن هذا صراط مستقيم لاالتواء فيه ولااعوجاج ، ولا زلل فيه ولا ضلال . ولكن الذين جاءوا من بعده اختلفوا أحزابا كما كان الذين من قبله مختلفين أحزابا . اختلفوا ظالمين لاحجة لهم ولاشبهة : « فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » . .

لقد كانت رسالة عيسى عليه السلام إلى بنى إسرائيل ؛ وكانوا ينتظرونه ليخلصهم مما كانوا فيه من الذل تحت حكم الرومان ؛ وقد طال انتظارهم له ،فلما جاءهم نكروه وشاقوه وهموا أن يصلبوه !

ولقد جاء المسيح فوجدهم شيعا ونحلا كثيرة ، أهمها أربع فرق أو طوائف .

طائفة الصدوقيين نسبة إلى « صدوق » وإليه وإلى أسرته ولاية الكهانة من عهد داود وسليمان . وحسب الشريعة لابد أن يرجع نسبه إلى هارون أخى موسى . فقد كانت ذريته هى القائمة على الهيكل . وكانوا بحكم وظيفتهم واحترافهم متشددين فى شكليات العبادة وطقوسها ، ينكرون « البدع » فى الوقت الذى يترخصون فى حياتهم الشخصية ويستمتعون بملاذ الحياة ؛ ولايعترفون بأن هناك قيامة !

وطائفة الفريسيين ، وكانو على شقاق مع الصدوقيين . ينكرون عليهم تشددهم فى الطقوس والشكليات ، وجحدهم للبعث والحساب. والسمة الغالبةعلى الفريسيين هى الزهد والتصوف وإن كان فى بعضهم اعتزاز وتعال بالعلم والمعرفة . وكان المسيح – عليه السلام – ينكر عليهم هذه الخيلاء وشقشقة اللسان !

وطائفة السامريين ، وكانوا خليطا من اليهود والأشوريين ، وتدين بالكتب الخمسة فى العهد القديم المعروفة بالكتب الموسوية ، وتنفى ماعداها مما أضيف إلى هذه الكتب فى العهود المتأخرة ، مما يعتقد غيرهم بقداسته .

وطائفة الآسين أو الأسينيين . وكانوا متأثرين ببعض المذاهب الفلسفية ، وكانوا يعيشون فى

Marfat.com

عزلة عن بقية طوائف اليهود ، ويأخذون أنفسهم بالشدة والتقشف ، كما يأخذون جماعتهم بالشدة فى التنظيم .

وهناك غير هذه الطوائف نحل شتى فردية ، وبلبلة فى الاعتقاد والتقاليد بين بنى إسرائيل ، الراضخين لضغط الإمبراطورية الرومانية المستذلين المكبوتين ، الذين ينتظرون الخلاص على يد المخلص المنتظر من الجميع .

فلما أن جاء المسيح ـ عليه السلام ـ بالتوحيد الذى أعلنه : « إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه » . وجاء معه بشريعة التسامح والتهذيب الروحى والعناية بالقلب البشرى قبل الشكليات والطقوس ، حاربه المحترفون الذين يقومون على مجرد الأشكال والطقوس .

ومما يؤثر عنه ـ عليه السلام ـ فى هذا قوله عن هؤلاء : « إنهم يحزمون الأوقار ، ويسومون الناس أن يحملوها على عواتقهم ، ولا يمدون إليها إصبعا يزحزحونها ، وإنما يعملون عملهم كله لينظر الناس إليهم ! يعرضون عصائبهم ، ويطيلون أهداب ثيابهم ، ويستأثرون بالمتكأ الأول فى الولائم ، والمجالس الأولى فى المجامع ، ويبتغون التحيات فى الأسواق ، وأن يقال لهم : سيدى . سيدى . حيث يذهبون ! » ..

أو يخاطب هؤلاء فيقول : « أيها القادة العميان الذين يحاسبون على البعوضة ويبتلعون الجمل . . إنكم تنقون ظاهر الكأس والصحفة ، وهما فى الباطن مترعان بالرجس والدعارة .. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون . إنكم كالقبور المبيضة . خارجها طلاء جميل وداخلها عظام نخرة » (1) . .

وإن الإنسان ـ وهو يقرأ هذه الكلمات المأثورة عن المسيح ـ عليه السلام ـ وغيرها فى بابها ـ ليكاد يتصور رجال الدين المحترفين فى زماننا هذا . فهو طابع واحد مكرر . لهؤلاء الرسميين المحترفين من رجال الدين ، الذين يراهم الناس فى كل حين !

ثم ذهب المسيح عليه السلام إلى ربه ، فاختلف أتباعه من بعده . اختلفوا شيعا وأحزابا . بعضها يؤلهه . وبعضها ينسب لله سبحانه بنوته . وبعضها يجعل الله ثالث ثلاثة أحدها المسيح

---

(1) النصوص منقولة عن كتاب : عبقرية المسيح للأستاذ العقاد . والكلام عن طوائف اليهود مستعان به فيه .

ابن مريم . وضاعت كلمة التوحيد الخالصة التى جاء بها عيسى عليه السلام. وضاعت دعوته الناس ليلجأوا إلى ربهم ويعبدوه مخلصين له الدين (١) .

« فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » ..

ثم جاء مشركو العرب يحاجون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عيسى ـ عليه السلام ـ بما فعلته الأحزاب المختلفة من بعده ، وماأحدثته حوله من أساطير !

* * *

وحين يصل السياق إلى الحديث عن الظالمين ، يدمج المختلفين من الأحزاب بعد عيسى ـ عليه السلام ـ مع المحاجين لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بفعل هذه الأحزاب ؛ ويصور حالهم يوم القيامة فى مشهد رائع طويل ، يحتوى كذلك صفحة المتقين المكرمين فى جنات النعيم:

« هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لايشعرون ؟ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين .

« ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولاأنتم تحزنون. الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون . يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب ، وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وأنتم فيها خالدون . وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون .

« إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون . لايفتر عنهم وهم فيه مبلسون . وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين . ونادوا : يامالك ليقض علينا ربك . قال : إنكم ماكثون » ..

يبدأ المشهد بوقوع الساعة فجأة وهم غافلون عنها ، لايشعرون بمقدمها :

« هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لايشعرون » !

هذه المفاجأة تحدث حدثا غريبا ، يقلب كل ما كانوا يألفونه فى الحياة الدنيا :

« الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » ..

وإن عداء الأخلاء لينبع من معين ودادهم .. لقد كانوا فى الحياة الدنيا يجتمعون على الشر، ويملى بعضهم لبعض فى الضلال . فاليوم يتلاومون . واليوم يلقى بعضهم على بعض تبعة الضلال وعاقبة الشر . واليوم ينقلبون إلى خصوم يتلاحون ، من حيث كانوا أخلاء يتناجون ! « إلا

---

(١) يراجع هذا الخلاف بشىء من التفصيل فى ص ٢٢ من الجزء العشرين من هذه الظلال فى تفسير قوله تعالى : « إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون » ..

Marfat.com

Marfat.com

المتقين » .. فهؤلاء مودتهم باقية فقد كان اجتماعهم على الهدى ، وتناصحهم على الخير ، وعاقبتهم إلى النجاة ..

وبينما الأخلاء يتلاحون ويختصمون ، يتجاوب الوجودكله بالنداء العلوى الكريم للمتقين:

« ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولاأنتم تحزنون.الذين آمنوا بآياتنا وكانوامسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون » ..

أى تسرون سرورا يشيع فى أعطافكم وقسماتكم فيبدوعليكم الحبور .

ثم نشهد – بعين الخيال –فإذا صحاف من ذهب وأكواب يطاف بها عليهم.وإذا لهم فى الجنة ماتشتهيه الأنفس . وفوق شهوة النفوس التذاذ العيون ، كمالا وجمالا فى التكريم :

« يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب . وفيها ماتشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين » ..

ومع هذا النعيم . ماهو أكبر منه وأفضل . التكريم بالخطاب من العلى الكريم :

« وأنتم فيها خالدون. وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون .لكم فيها فاكهة كثيرة ومنها تأكلون » ..

فما بال المجرمين الذين تركناهم منذ هنيهة يتلاحون ويختصمون ؟

« إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون » ..

وهو عذاب دائم ، وفى درجة شديدة عصيبة . لايفتر لحظة ، ولايبرد هنيهة . ولا تلوح لهم فيه بارقة من أمل فى الخلاص ، ولا كوة من رجاء بعيد . فهم فيه يائسون قانطون :

« لايفتر عنهم وهم فيه مبلسون » ..

كذلك فعلوا بأنفسهم ، وأوردوها هذا المورد الموبق ، ظالمين غير مظلومين :

« وماظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين » ..

ثم تتناوح فى الجو صيحة من بعيد . صيحة تحمل كل معانى اليأس والكرب والضيق :

« ونادوا : يامالك . ليقض علينا ربك » ..

إنها صيحة متناوحة من بعد سحيق . من هناك من وراء الأبواب الموصدة فى الجحيم . إنها صيحة أولئك المجرمين الظالمين . إنهم لا يصيحون فى طلب النجاة ولا فى طلب الغوث . فهم مبلسون يائسون . إنما يصيحون فى طلب الهلاك . الهلاك السريع الذى يريح . وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا ! . . وإن هذا النداء ليلقى ظلا كثيفا للكرب والضيق . وإننا لنكاد

ری من وراء صرخة الاستغاثة نفوسا أطار صوابها العذاب ، وأجساما تجاوز الألم بها حد الطاقة ، فانبعثت منها تلك الصيحة المريرة : « يامالك . ليقض علينا ربك » !

ولكن الجواب يجيء فى تيئيس وتخذيل ، وبلا رعاية ولا اهتمام :

« قال : إنكم ماكثون » !

فلا خلاص ولا رجاء ولا موت ولا قضاء . . إنكم ماكثون !

* * *

وفى ظل هذا المشهد الكامد المكروب يخاطب هؤلاء الكارهين للحق ، المعرضين عن الهدى ، الصائرين إلى هذا المصير ؛ ويعجب من أمرهم على رؤوس الأشهاد ، فى أنسب جو للتحذير والتعجيب .

« لقد جئناكم بالحق ، ولكن أكثركم للحق كارهون . أم أبرموا أمرا ؟ فإنا مبرمون . أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ؟ بلى ورسلنا لديهم يكتبون » . .

وكراهة الحق هى التى كانت تحول بينهم وبين اتباعه ، لا عدم إدراك أنه الحق ، ولاالشك فى صدق الرسول الكريم ؛ فما عهدوا عليه كذبا قط على الناس،فكيف يكذب على اللهويدعى عليه ما يدعيه ؟

والذين يحاربون الحق لا يجهلون فى الغالب أنه الحق ، ولكنهم يكرهونه ، لأنهم يصادم أهواءهم ، ويقف فىطريق شهواتهم ، وهم أضعف من أن يغالبوا أهواءهم وشهواتهم ؛ ولكنهم أجرأ على الحق وعلى دعاته ! فمن ضعفهم تجاه الأهواء والشهوات يستمدون القوة على الحق والاجتراء على الدعاة !

لهذا يهددهم صاحب القوة والجبروت ، العليم بما يسرون وما يمكرون :

« أم أبرموا أمرا ؟ فإنا مبرمون . أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ؟ بلى ورسلنا لديهم يكتبون » . .

فإصرارهم على الباطل فى وجه الحق يقابله أمر الله الجازم وإرادته بتمكين هذا الحق وتثبيته . وتدبيرهم ومكرهم فى الظلام يقابله علم الله بالسر والنجوى . والعاقبة معروفة حين يقف الخلق الضعاف القاصرون ، أمام الخالق العزيز العليم .

* * *

Marfat.com

Marfat.com

ويتركهم بعد هذا التهديد المرهوب ، ويوجه رسوله الكريم ، إلى قول يقوله لهم . ثم يدعهم من بعده لمصيرهم الذى شهدوا صورته منذ قليل :

« قل : إن كان للرحمان ولد فأنا أول العابدين . سبحان رب السماوات والأرض . رب العرش عما يصفون . فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون » . .

لقد كانوا يعبدون الملائكة بزعم أنهم بنات الله . ولو كان لله ولد لكان أحق أحد بعبادته. وبمعرفة ذلك ، نبى الله ورسوله ، فهو منه قريب ، وهو أسرع إلى طاعة الله وعبادته ، وتوقير ولده إن كان له ولد كما يزعمون ! ولكنه لايعبد إلا الله . فهذا فى ذاته دليل على أن ما يزعمونه من بنوة أحد لله لا أصل له ، ولا سند ولا دليل ! تنزه الله وتعالى عن ذلك الزعم الغريب !

« سبحان رب السماوات والأرض . رب العرش . عما يصفون » . .

وحين يتأمل الإنسان هذه السماوات والأرض ، ونظامها ، وتناسقها ، ومدى ما يكمن وراء هذا النظام من عظمة وعلو . ومن سيطرة واستعلاء . يشير إلى هذا كله قوله : « رب العرش » .. يصغر فى نفسه كل وهم وكل زعم من ذلك القبيل . ويدرك بفطرته أن صانع هذا كله لا يستقيم فى الفطرة أن يكون له شبه ـ أى شبه ـ بالخلق . الذين يلدون وينسلون ! ومن ثم يبدو مثل ذلك القول لهوا ولعبا ؛ وخوضا وتقحما ، لا يستحق شيء منه المناقشة والجدل ؛ إنما يستحق الإهمال أو التحذير :

« فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون » .
والذى شهدوا صورة منه يوم يكون !

* * *

ثم يمضى ـ بعد الإعراض عنهم وإهمالهم ـ فى تمجيد الخالق وتوحيده بما يليق بربوبيته للسماوات والأرض والعرش العظيم :

« وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله ، وهو الحكيم العليم . وتبارك الذى له ملك السماوات والأرض وما بينهما ، وعنده علم الساعة ، وإليه ترجعون . ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » . .

وهو تقرير للألوهية الواحدة فى السماء وفى الأرض ، والتفرد بهذه الصفة لايشاركه فيها مشارك . مع الحكمة فيما يفعل . والعلم المطلق بهذا الملك العريض .

Marfat.com

ثم تمجيد لله وتعظيم فى لفظ « تبارك » أى تعاظم الله وتسامى عما يزعمون ويتصورون . وهو « ربالسماوات والأرض ومابينهما » . وهو الذى يعلم وحده علم الساعة وإليه المرجع والمآب .

ويومذاك لاأحد ممن يدعونهم أولادا أو شركاء يملك أن يشفع لأحد منهم ـ كما كانوا يزعمون أنهم يتخذونهم شفعاء عند الله . فإنه لاشفاعة إلا لمن شهد بالحق ، وآمن به . ومن يشهد بالحق لايشفع فى من جحده وعاداه !

* * *

ثم يواجههم بمنطق فطرتهم ، وبما لايجادلون فيه ولايشكون ، وهو أن الله خالقهم . فكيف حينئذ يشركون معه أحدا فى عبادته ، أو يتوقعون من أحد شفاعة عنده لمن أشرك به :

« ولئن سألتهم من خلقهم ؟ ليقولن الله . فأنى يؤفكون » ؟

وكيف يصرفون عن الحق الذى تشهد به فطرتهم ويحيدون عن مقتضاه المنطق المحتوم ؟

* * *

وفى ختام السورة يعظم من أمر اتجاه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لربه ، يشكو إليه كفرهم وعدم إيمانهم . فيبرزه ويقسم به :

« وقيله . يارب إن هؤلاء قوم لايؤمنون » ..

وهو تعبير خاص ذو دلالة وإيحاء بمدى عمق هذا القول ، ومدى الاستماع له ، والعناية به ، والرعاية من الله سبحانه والاحتفال .

ويجيب عليه ـ فى رعاية ـ بتوجيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الصفح والإعراض ، وعدم الاحتفال والمبالاة . والشعور بالطمأنينة . ومواجهة الأمر بالسلام فى القلب والسماحة والرضاء . وذلك مع التحذير الملفوف للمعرضين المعاندين ، مما ينتظرهم يوم ينكشف الستور :

« فاصفح عنهم ، وقل سلام . فسوف يعلمون » ..

Marfat.com

سورة الدخان مكية
وآياتها ٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

« حمٓ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ، إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ .

« بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ * فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا : مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ ، إِنَّا مُنتَقِمُونَ .

« وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ * وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ * فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا

فَاكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ * وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ * وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ .

« إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ * فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ .

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

« إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ .

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ * كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ ـ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ـ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

« فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ » (٥٩).

يشبه إيقاع هذه السورة المكية ، بفواصلها القصيرة ،وقافيتها المتقاربة ، وصورها العنيفة ، وظلالها الموحية .. يشبه أن يكون إيقاعها مطارق على أوتار القلب البشري المشدودة .

Marfat.com

ويكاد سياق السورة أن يكون كله وحدة متماسكة ، ذات محور واحد ، تشد إليه خيوطها جميعا . سواء فى ذلك القصة ، ومشهد القيامة ، ومصارع الغابرين ،والمشهد الكونى ،والحديث المباشر عن قضية التوحيد والبعث والرسالة . فكلها وسائل ومؤثرات لإيقاظ القلب البشرى واستجاشته لاستقبال حقيقة الإيمان حية نابضة ، كما يبثها هذا القرآن فى القلوب .

وتبدأ السورة بالحديث عن القرآن وتنزيله فى ليلة مباركة فيها يفرق كل أمر حكيم ، رحمة من الله بالعباد وإنذارا لهم وتحذيرا . ثم تعريف للناس بربهم : رب السماوات والأرض ومابينهما، وإثبات لوحدانيته وهو المحي المميت رب الأولين والآخرين .

ثم يضرب عن هذا الحديث ليتناول شأن القوم : « بل هم فى شك يلعبون » ! ويعاجلهم بالتهديد المرعب جزاء الشك واللعب : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم » .. ودعاءهم بكشف العذاب عنهم وهو يوم يأتى لايكشف . وتذكيرهم بأن هذا العذاب لم يأت بعد ، وهو الآن عنهم مكشوف ، فلينتهزوا الفرصة ، قبل أن يعودوا إلى ربهم ، فيكون ذلك العذاب المخوف : « يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون » . .

ومن هذا الإيقاع العنيف بمشهد العذاب ومشهد البطشة الكبرى والانتقام ؛ ينتقل بهم إلى مصرع فرعون وملئه يوم جاءهم رسول كريم ، وناداهم : « أن أدوا إلى عباد الله إنى لكم رسول أمين . وألا تعلوا على الله » . . فأبوا أن يسمعوا حتى يئس منهم الرسول . ثم كان مصرعهم فى هوان بعد الاستعلاء والاستكبار : « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوما آخرين .فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » . .

وفى غمرة هذا المشهد الموحى يعود إلى الحديث عن تكذيبهم بالآخرة ، وقولهم : « إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين ، فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » ليذكرهم بمصرع قوم تبع ، وماهم بخير منهم ليذهبوا ناجين من مثل مصيرهم الأليم .

ويربط بين البعث ، وحكمة الله فى خلق السماوات والأرض ، « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين . ماخلقناهما إلا بالحق . ولكن أكثرهم لا يعلمون » . .

ثم يحدثهم عن يوم الفصل : « ميقاتهم أجمعين » . وهنا يعرض مشهدا عنيفا للعذاب بشجرة الزقوم ، وعتل الأثيم ، وأخذه إلى سواء الجحيم ، يصب من فوق رأسه الحميم . مع التبكيت والترذيل : « ذق إنك أنت العزيز الكريم . إن هذا ما كنتم به تمترون » ..

Marfat.com

وإلى جواره مشهد النعيم عميقا فى المتعة عمق مشهد العذاب فى الشدة . تمشيا مع ظلال السورة العميقة وإيقاعها الشديد .

وتختم السورة بالإشارة إلى القرآن كما بدأت : « فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون » .. وبالتهديد الملفوف العنيف : « فارتقب إنهم مرتقبون » .

* * *

إنها سورة تهجم على القلب البشرى من مطلعها إلى ختامها ، فى إيقاع سريع متواصل . تهجم عليه بإيقاعها كما تهجم عليه بصورها وظلالها المتنوعة المتحدة فى سمة العنف والتتابع . وتطوف به فى عوالم شتى بين السماء والأرض ، والدنيا والآخرة ، والجحيم والجنة ، والماضى والحاضر ، والغيب والشهادة ، والموت والحياة ، وسنن الخلق ونواميس الوجود ... فهى – على قصرها نسبيا – رحلة ضخمة فى عالم الغيب وعالم الشهود ..

* * *

« حم . والكتاب المبين . إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم . أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك إنه هو السميع العليم . رب السماوات والأرض ومابينهما إن كنتم موقنين . لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين » ..

تبدأ السورة بالحرفين حا . ميم . على سبيل القسم بهما وبالكتاب المبين المؤلف من جنسهما. وقد تكرر الحديث عن الأحرف المقطعة فى أوائل السور ؛ فأما عن القسم بهذه الأحرف كالقسم بالكتاب ، فإن كل حرف معجزة حقيقية أو آية من آيات الله فى تركيب الإنسان ، وإقداره على النطق ، وترتيب مخارج حروفه ، والرمز بين اسم الحرف وصوته ، ومقدرة الإنسان على تحصيل المعرفة من ورائه .. وكلها حقائق عظيمة تكبر فى القلب كلما تدبرها مجردا من وقع الألفة والعادة الذى يذهب بكل جديد !

فأما المقسم عليه فهو تنزيل هذا الكتاب فى ليلة مباركة :

« إنا أنزلناه فى ليلة مباركة . إنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم . أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك إنه هو السميع العليم » ..

والليلة المباركة التى أنزل فيها القرآن هى – والله أعلم – الليلة التى بدأ فيها نزوله ؛ وهى إحدى ليالى رمضان ، الذى قيل فيه : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » .. والقرآن لم ينزل كله

Marfat.com

فى تلك الليلة ؛ كما أنه لم ينزل كله فى رمضان ؛ ولكنه بدأ يتصل بهذه الأرض ؛ وكانت هذه الليلة موعد هذا الاتصال المبارك . وهذا يكفى فى تفسير إنزاله فى الليلة المباركة .

وإنها لمباركة حقا تلك الليلة التى يفتح فيها ذلك الفتح على البشرية ، والتى يبدأ فيها استقرار هذا المنهج الإلهى فى حياة البشر ؛ والتى يتصل فيها الناس بالنواميس الكونية الكبرى مترجمة فى هذا القرآن ترجمة يسيرة ، تستجيب لها الفطرة وتلبيها فى هوادة ؛ وتقيم على أساسها عالما إنسانيا مستقرا على قواعد الفطرة واستجاباتها ، متناسقا مع الكون الذى يعيش فيه ، طاهرا نظيفا كريما بلا تعمل ولا تكلف ؛ يعيش فيه الإنسان على الأرض موصولا بالسماء فى كل حين .

ولقد عاش الذين أنزل القرآن لهم أول مرة فترة عجيبة فى كنف السماء ، موصولين مباشرة بالله ؛ يطلعهم أولا بأول على ما فى نفوسهم ؛ ويشعرهم أولا بأول بأن عينه عليهم . ويحسبون هم حساب هذه الرقابة ، وحساب هذه الرعاية ، فى كل حركة وكل هاجسة تخطر فى ضمائرهم ؛ ويلجأون إليه أول ما يلجأون ، واثقين أنه قريب مجيب .

ومضى ذلك الجيل وبقى بعده القرآن كتابا مفتوحا موصولا بالقلب البشرى ، يصنع به حين يتفتح له ما لا يصنعه السحر ؛ ويحول مشاعره بصورة تحسب أحيانا فى الأساطير !

وبقى هذا القرآن منهجا واضحا كاملا صالحا لإنشاء حياة إنسانية نموذجية فى كل بيئة وفى كل زمان . حياة إنسانية تعيش فى بيئتها وزمانها فى نطاق ذلك المنهج الإلهى المتميز الطابع ، بكل خصائصه دون تحريف . وهذه سمة المنهج الإلهى وحده . وهى سمة كل ما يخرج من يد القدرة الإلهية .

إن البشر يصنعون ما يغنى مثلهم ، وما يصلح لفترة من الزمان ، ولظرف خاص من الحياة . فأما صنعة الله فتحمل طابع الدوام والكمال ، والصلاحية المستمرة وتلبية الحاجات فى كل ظرف وفى كل حين ؛ جامعة بين ثبات الحقيقة وتشكل الصورة فى اتساق عجيب .

أنزل الله هذا القرآن فى هذه الليلة المباركة .. أولا للإنذار والتحذير : « إنا كنا منذرين » . فالله يعلم غفلة هذا الإنسان ونسيانه وحاجته إلى الإنذار والتنبيه .

وهذه الليلة المباركة بنزول هذا القرآن كانت فيصلا وفارقا بهذا التنزيل :
« فيها يفرق كل أمر حكيم » ..

وقد فرق فيها بهذا القرآن فى كل أمر ، وفصل فيها كل شأن ، وتميز الحق الخالد والباطل

Marfat.com

الزاهق ، ووضعت الحدود ، وأقيمت المعالم لرحلة البشرية كلها بعد تلك الليلة إلى يوم الدين ؛ فلم يبق هناك أصل من الأصول التى تقوم عليها الحياة غير واضح ولامرسوم فى دنيا الناس ، كما هو واضح ومرسوم فى الناموس الكلى القديم .

وكان ذلك كله بإرادة الله وأمره ، ومشيئته فى إرسال الرسل للفصل والتبيين :

« أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين » ..

وكان ذلك كله رحمة من الله بالبشر إلى يوم الدين :

« رحمة من ربك إنه هو السميع العليم » ..

وماتتجلى رحمة الله بالبشر كما تتجلى فى تنزيل هذا القرآن ، بهذا اليسر ، الذى يجعله سريع اللصوق بالقلب ، ويجعل الاستجابة له تتم كما تتم دورة الدم فى العروق . وتحول الكائن البشرى إلى إنسان كريم ؛ والمجتمع البشرى إلى حلم جميل ، لولا أنه واقع تراه العيون !

إن هذه العقيدة ـ التى جاء بها القرآن ـ فى تكاملها وتناسقها ـ جميلة فى ذاتها جمالا يحب ويعشق ؛ وتتعلق به القلوب ! فليس الأمر فيها أمر الكمال والدقة وأمر الخير والصلاح . فإن هذه السمات فيها تظل ترتفع وترتفع حتى يبلغ الكمال فيها مرتبة الجمال الحبيب الطليق . الجمال الذى يتناول الجزئيات كلها بأدق تفصيلاتها ، ثم يجمعها ، وينسقها ، ويربطها كلها بالأصل الكبير .

« رحمة من ربك » نزل بها هذا القرآن فى الليلة المباركة . . « إنه هو السميع العليم » يسمع ويعلم ، وينزل ما ينزل للناس على علم وعلى معرفة بما يقولون وما يعملون ، وما يصلح لهم ويصلحون به من السنن والشرائع والتوجيه السليم .

وهو المشرف على هذا الكون الحافظ لمن فيه وما فيه :

« رب السماوات والأرض وما بينهما . إن كنتم موقنين » . .

فما ينزله للناس يربيهم به ، هو طرف من ربوبيته للكون كله ، وطرف من نواميسه التى تصرف الكون .. والتلويح لهم باليقين فى هذا إشارة إلى عقيدتهم المضطربة المزعزعة المهوشة، إذ كانوا يعترفون بخلق الله للسماوات والأرض ، ثم يتخذون من دونه أربابا ، مما يشى بغموض هذه الحقيقة فى نفوسهم وسطحيتها وبعدها عن الثبات واليقين .

وهو الإله الواحد الذى يملك الموت والحياة ؛ وهو رب الأولين والآخرين :

« لا إله إلا هو يحي ويميت ، ربكم ورب آبائكم الأولين » ..

Marfat.com

والإحياء والإماتة أمران مشهودان للجميع ، وأمرهما خارج عن طاقة كل مخلوق . يبدو هذا بأيسر نظر وأقرب تأمل . ومشهد الموت كمشهد الحياة فى كل صورة وفى كل شكل يلمس القلب البشرى ويهزه ؛ ويستجيشه ويعده للتأثر والانفعال ويهيئه للتقبل والاستجابة . ومن ثم يكثر ذكره فى القرآن وتوجيه المشاعر إليه ولمس القلوب به بين الحين والحين .

* * *

وعند مايبلغ الموقف هذا الحد من الاستثارة والاستجاشة يضرب السياق عنه ، ويلتفت بالحديث إلى حكاية حالهم تجاهه ؛ وهو حال مناقض لما ينبغى أن يكونوا عليه تجاه حقيقة للموقف الجاد الذى لا مجال للعب فيه :

« بل هم فى شك يلعبون . فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ، يغشى الناس ، هذا عذاب أليم . ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون . أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين . ثم تولوا عنه وقالوا : معلم مجنون . إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون . يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون » . .

يقول : إنهم يلعبون إزاء ذلك الجد ، ويشكون فى تلك الآيات الثابتة . فدعهم إلى يوم هائل عصيب :

« فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين . يغشى الناس . هذا عذاب أليم » . .

وقد اختلف السلف فى تفسير آية الدخان . فقال بعضهم : إنه دخان يوم القيامة ، وإن التهديد بارتقابه كالتهديد المتكرر فى القرآن . وإنه آت يترقبونه ويترقبه رسول الله – صلى الله عليه وسلم . وقال بعضهم : بل هو قد وقع فعلا ، كما توعدهم به . ثم كشف عن المشركين بدعاء الرسول – صلى الله عليه وسلم – فنذكر هنا ملخص القولين وأسانيدهما . ثم نعقب بما فتح الله به ، ونحسبه صوابا إن شاء الله .

قال سليمان ابن مهران الأعمش ، عن أبى الضحى مسلم ابن صبيح ، عن مسروق . قال : دخلنا المسجد – يعنى مسجد الكوفة – عند أبواب كندة . فإذا رجل يقص على أصحابه : «يوم تأتى السماء بدخان مبين » .. تدرون ماذا الدخان ؟ذلك دخان يأتى يوم القيامة ، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام . قال : فأتينا ابن مسعود – رضى الله عنه – فذكرنا ذلك له ،وكان مضطجعا ففزع فقعد ، وقال : إن الله عز وجل قال لنبيكم – صلى الله عليه

Marfat.com

Marfat.com

وسلم : « قل : ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » . إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم : الله أعلم . أحدثكم عن ذلك. إن قريشا لما أبطأت عن الإسلام ، واستعصت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعا عليهم بسنين كسنى يوسف . فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة ؛ وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان - وفى رواية فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد - قال الله تعالى : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم » . . فأتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقيل له : يارسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت. فاستسقى - صلى الله عليه وسلم - لهم فسقوا . فنزلت . « إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون ».. قال ابن مسعود رضى الله عنه : أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة ؟ .. فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم ، فأنزل الله عز وجل : « يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون » .. قال : يعنى يوم بدر . قال ابن مسعود - رضى الله عنه - فقد مضى خمسة : الدخان ، والروم ، والقمر ، والبطشة ، واللزام » .. وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين . ورواه الإمام أحمد فى مسنده . وهو عند الترمذى والنسائى فى تفسيرهما. وعند ابن جرير ،وابن أبى حاتم من طرق متعددة عن الأعمش به . وقد وافق ابن مسعود - رضى الله عنه - على تفسير الآية بهذا، وأن الدخان مضى ، جماعة من السلف كمجاهد وأبى العالية وإبراهيم النخعى والضحاك وعطية العوفى . وهو اختيار ابن جرير .

وقال آخرون : لم يمض الدخان بعد ، بل هو من أمارات الساعة ، كما ورد فى حديث أبى سريحة حذيفة ابن أسيد الغفارى - رضى الله عنه - قال : أشرف علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من عرفة ونحن نتذاكر الساعة ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : « لاتقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف ، خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس - أو تحشر - الناس- تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا » . . تفرد بإخراجه مسلم فى صحيحه .

وقال ابن جرير : حدثنى محمد ابن عوف، حدثنا محمد ابن اسماعيل ابن عياش حدثنى أبى، حدثنى ضمضم ابن زرعة ، عن شريح ابن عبيد ، عن أبى مالك الأشعرى - رضى الله عنه -

قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : إن ربكم أنذركم ثلاثا الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة ، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه ، والثانية الدابة ، والثالثة الدجال . ورواه الطبرانى عن هاشم ابن يزيد ، عن محمد ابن إسماعيل ابن عياش بهذا النص (وقال ابن كثير فى التفسير : وهذا إسناد جيد) .

وقال ابن جرير كذلك : حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن علية ، عن ابن جريج ، عن عبد الله ابن أبى ملكية . قال : غدوت على ابن عباس – رضى الله عنهما – ذات يوم ، فقال : مانمت الليلة حتى أصبحت . قلت : لم ؟ قال : قالوا طلع الكوكب ذو الذنب ، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق ، فما نمت حتى أصبحت . . وهكذا رواه ابن أبى حاتم عن أبيه ، عن ابن عمر ، عن سفيان ، عن عبد الله ابن أبى يزيد ، عن عبد الله ابن أبى مليكة ، عن ابن عباس – رضى الله عنهما فذكره .

قال ابن كثير فى التفسير : (وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس – رضى الله عنهما – حبر الأمة وترجمان القرآن . وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين – رضى الله عنهم أجمعين – مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرها التى أوردوها ، مما فيه مقتنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة ، مع أنه ظاهر القرآن . قال الله تبارك وتعالى : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين » . . أى بين واضح يراه كل أحد . وعلى ما فسر به ابن مسعود – رضى الله عنه – إنما هو خيال رأوه فى أعينهم من شدة الجوع والجهد . وهكذا قوله تعالى : « يغشى الناس » . . أى يتغشاهم ويعمهم . ولو كان أمرا خياليا يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه : « يغشى الناس » . . وقوله تعالى : « هذا عذاب أليم » . . أى يقال لهم ذلك ، تقريعا وتوبيخا . كقوله تعالى : « يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . هذه النار التى كنتم بها تكذبون » . أو يقول بعضهم لبعض ذلك . وقوله – سبحانه وتعالى – : « ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون » . . أى يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم ، كقوله جلت عظمته : « ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا : ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين » . . وكذا قوله جل وعلا : « وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا : ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال ؟ » . . وهكذا قال جل وعلا هاهنا : « أنى

Marfat.com

لهم الذكرى . وقد جاءهم رسول مبين ، ثم تولوا عنه وقالوا : معلم مجنون » . . يقول : كيف لهم التذكر وقد أرسلنا إليهم رسولا بين الرسالة والنذارة ، ومع هذا تولوا عنه ، وما وافقوه بل كذبوه ، وقالوا : معلم مجنون . وهذا كقوله جلت عظمته : « يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى » . . . الآية . وقوله عز وجل : « ولو ترى إذ فزعوا ، فلافوت، وأخذوا من مكان قريب . وقالوا : آمنا به . وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ؟ » إلى آخر السورة . . وقوله تعالى : « إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون » . . يحتمل معنيين : أحدهما : أنه يقول تعالى : ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب . كقوله تعالى : « ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون » .. وكقوله جلت عظمته : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » . . والثانى : أن يكون المراد : إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد أسبابه، ووصوله إليكم ، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال . ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم . كقوله تعالى : « إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » . . ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم ، بل كان قد انعقد سببه عليهم . . . وقال قتادة : إنكم عائدون إلى عذاب الله . . وقوله عز وجل : « يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون » . . فسر ذلك ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ بيوم بدر . وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود . رضى الله عنه ، وجماعة عنه على تفسير الدخان بما تقدم وروى أيضا عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ من رواية العوفى عنه وأبى ابن كعب ـ رضى الله عنه ـ وهو محتمل : والظاهر أن ذلك يوم القيامة . وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضا . قال ابن جرير : حدثنى يعقوب . حدثنا ابن علية . حدثنا خالد الحذاء . عن عكرمة قال: قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ البطشة الكبرى يوم بدر. وأنا أقول : هى يوم القيامة . وهذا إسناد صحيح عنه . وبه يقول الحسن البصرى وعكرمة فى أصح الروايتين عنه ، والله أعلم) .. انتهى كلام ابن كثير

ونحن نختار قول ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى تفسير الدخان بأنه عند يوم القيامة ، وقول ابن كثير فى تفسيره . فهو تهديد له نظائره الكثيرة فى القرآن الكريم ، فى مثل هذه المناسبة . ومعناه : إنهم يشكون ويلعبون . فدعهم وارتقب ذلك اليوم المرهوب . يوم تأتى السماء

Marfat.com

بدخان مبين يغشى الناس . ووصف هذا بأنه عذاب أليم . وصور استغاثتهم : « ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون » . . ورده عليهم باستحالة الاستجابة ، فقد مضى وقتها : « أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين . ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون » . . يعلمه ذلك الغلام الأعجمى ! وهو ــ كما زعموا ــ مجنون . .

وفى ظل هذا المشهد الذى يرجون فيه كشف العذاب فلا يجابون يقول لهم : إن أمامكم فرصة بعد لم تضع ، فهذا العذاب مؤخر عنكم قليلا وأنتم الآن فى الدنيا . وهو مكشوف عنكم الآن فآمنوا كما تعدون أن تؤمنوا فى الآخرة فلا تجابون . وأنتم الآن فى عافية لن تدوم . وإنكم عائدون إلينا « يوم نبطش البطشة الكبرى » . . يوم يكون ذلك الدخان الذى تشهدتم مشهده فى تصوير القرآن له . « إنا منتقمون » من هذا اللعب الذى تلعبون ، وذلك البهت الذى تبهتون به الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذ تقولون عنه : « معلم مجنون » . . وهو الصادق الأمين . .

بهذا يستقيم تفسير هذه الآيات ، كما يبدو لنا ، والله أعلم بما يريد .

* * *

بعد ذلك يأخذ بهم فى جولة أخرى مع قصة موسى عليه السلام . فيعرضها فى اختصار ينتهى ببطشة كبرى فى هذه الأرض . بعد إذ أراهم بطشته الكبرى يوم تأتى السماء بدخان مبين :

« ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون ، وجاءهم رسول كريم : أن أدوا إلى عباد الله ، إنى لكم رسول أمين . وألا تعلوا على الله إنى آتيكم بسلطان مبين . وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون ، وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون .

« فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون . . . فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون . واترك البحر رهوا ، إنهم جند مغرقون .

« كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين .

« ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين . من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين . ولقد اخترناهم على علم على العالمين . وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين » . .

Marfat.com

هذه الجولة تبدأ بلمسة قوية لإيقاظ قلوبهم إلى أن إرسال الرسول لقومه قد يكون فتنة وابتلاء. والإملاء للمكذبين فترة من الزمان، وهم يستكبرون على الله، ويؤذون رسول الله والمؤمنين معه قد يكون كذلك فتنة وابتلاء. وأن إغضاب الرسول واستنفاد حلمه على أذاهم ورجائه فى هدايتهم قد يكون وراءه الأخذ الأليم والبطش الشديد:

« ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون » ..

وابتليناهم بالنعمة والسلطان، والتمكين فى الأرض، والإملاء فى الرخاء، وأسباب الثراء والاستعلاء.

« وجاءهم رسول كريم »

وكان هذا طرفا من الابتلاء، ينكشف به نوع استجابتهم للرسول الكريم، الذى لايطلب منهم شيئا لنفسه؛ إنما يدعوهم إلى الله، ويطلب إليهم أن يؤدوا كل شىء لله، وألا يستبقوا شيئا لا يؤدونه من ذوات أنفسهم يضنون به على الله:

« أن أدوا إلى عباد الله إنى لكم رسول أمين. وألاتعلوا على الله إنى آتيكم بسلطان مبين وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون. وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون » ..

إنها كلمات قصيرة تلك التى جاءهم بها رسولهم الكريم - موسى عليه السلام:

إنه يطلب إليهم الاستجابة الكلية. والأداء الكامل. والاستسلام المطلق [1]. الاستسلام المطلق لله. الذى هم عباده. وماينبغى للعباد أن يعلوا على الله. فهى دعوة الله يحملها إليهم الرسول، ومعه البرهان على أنه رسول الله إليهم. البرهان القوى والسلطان المبين، الذى تذعن له القلوب. وهو يتحصن بربه ويعوذ به أن يسطوا عليه وأن يرجموه. فإن استعصوا على الإيمان فهو يفاصلهم ويعتزلهم ويطلب إليهم أن يفاصلوه ويعتزلوه. وذلك منتهى النصفة والعدل والمسالمة.

ولكن الطغيان قلما يقبل النصفة، فهو يخشى الحق أن يظل طليقا، يحاول أن يصل إلى الناس فى سلام وهدوء. ومن ثم يحارب الحق بالبطش. ولايسالمه أبدا. فمعنى المسالمة أن يزحف الحق ويستولى فى كل يوم على النفوس والقلوب. ومن ثم يبطش الباطل ويرجم ولايعتزل الحق ولايدعه يسلم أويستريح!

ويختصر السياق هنا حلقات كثيرة من القصة، ليصل إلى قرب النهاية. حين وصلت التجربة

(١) هنالك تفسير آخر لقوله تعالى: « أن أدوا إلى عباد الله ». أى أعطونى بنى إسرائيل عباد الله. وأدوهم إلى ولاتحجزوهم للسخرة والعذاب. وذلك كقوله: « أن أرسل معنا بنى إسرائيل ولاتعذبهم ».

Marfat.com

Marfat.com

إلى نهايتها؛ وأحس موسى أن القوم لن يؤمنوا له ولن يستجيبوا لدعوته؛ ولن يسالموه أو يعتزلوه . وبدا له إجرامهم أصيلا عميقا لا أمل فى علاجه عنه . عند ذلك لجأ إلى ربه وملاذه الأخير :

« فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون » . .

وماذا يملك الرسول إلا أن يعود إلى ربه بالحصيلة التى جنتها يداه ؟ وإلا أن يفض أمره بين يديه ، ويدع له التصرف بما يريد ؟

وتلقى موسى الإجابة إقرارا من ربه لما دمغ به القوم . حقا إنهم مجرمون . .

« فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون . واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون » . .

والسرى لا يكون إلا ليلا ، فالنص عليه يعيد تصوير المشهد ، مشهد السرى بعباد الله - وهم بنو إسرائيل . ثم للإيحاء بجو الخفية ، لأن سراهم كان خفية عن عيون فرعون ومن وراء عليه . والرهو : الساكن . وقد أمر الله موسى - عليه السلام - أن يعبر هو وقومه وأن يدع البحر وراءه ساكنا على هيئته التى مر هو وقومه فيها ، لإغراء فرعون وجنده باتباعهم . ليتم قدر الله بهم كما أراده : « إنهم جند مغرقون » . . فهكذا ينفذ قدر الله من خلال الأسباب الظاهرة . والأسباب ذاتها طرف من هذا القدر المحتوم .

ويختصر السياق حكاية مشهد الغرق أو عرضه ، اكتفاء بالكلمة النافذة التى لابد أن تكون : « إنهم جند مغرقون » . . ويمضى من هذا المشهد المضمر إلى التعقيب عليه ؛ تعقيبا يشى بهوان فرعون الطاغية المتعالى وملئه المتمالىء له على الظلم والطغيان . هوانه وهوانهم على الله ، وعلى هذا الوجود الذى كان يشمخ فيه بأنفه ، فيطأطىء له الملأ المفتونون به ؛ وهو أضأل وأزهد من أن يحس به الوجود ، وهو يسلب النعمة فلا يمنعها من الزوال ، ولا يرثى له أحد على سوء المآل :

« كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » . .

ويبدأ المشهد بصور النعيم الذى كانوا فيه يرفلون . جنات . وعيون . وزروع . ومكان مرموق ، ينالون فيه الاحترام والتكريم . ونعمة يلتذونها ويطعمونها ويعيشون فيها مسرورين محبورين .

ثم ينزع هذا كله منهم أو ينزعون منه . ويرثه قوم آخرون - وفى موضع آخر قال :

« كذلك وأورثناها بنى إسرائيل » - وبنو إسرائيل لم يرثوا ملك فرعون بالذات . ولكنهم ورثوا ملكا مثله فى الأرض الأخرى . فالمقصود إذن هو نوع الملك والنعمة . الذى زال عن فرعون وملئه ، وورثه بنو إسرائيل !

ثم ماذا ؟ ثم ذهب هؤلاء الطغاة الذين كانوا ملء الأعين والنفوس فى هذه الأرض : ذهبوا فلم يأس على ذهابهم أحد ، ولم تشعر بهم سماء ولا أرض ؛ ولم ينظروا أو يؤجلوا عند ماحل الميعاد :

« فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » ..

وهو تعبير يلقى ظلال الهوان ، كما يلقى ظلال الجفاء .. فهؤلاء الطغاة المتعالون لم يشعر بهم أحد فى أرض ولا سماء . ولم يأسف عليهم أحد فى أرض ولا سماء . وذهبوا ذهاب النمال ، وهم كانوا جبارين فى الأرض يطأون الناس بالنعال ! وذهبوا غير مأسوف عليهم فهذا الكون يمقتهم لانفصالهم عنه ، وهو مؤمن بربه ، وهم به كافرون ! وهم أرواح خبيثة شريرة منبوذة من هذا الوجود وهى تعيش فيه !

ولو أحس الجبارون فى الأرض مافى هذه الكلمات من إيحاء لأدركوا هوانهم على الله وعلى هذا الوجود كله . ولأدركوا أنهم يعيشون فى الكون منبوذين منه ،مقطوعين عنه ، لا تربطهم به آصرة ، وقد قطعت آصرة الإيمان .

وفى الصفحة المقابلة مشهد النجاة والتكريم والاختيار :

« ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين. من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين. ولقد اخترناهم على علم على العالمين . وآتيناهم من الآيات مافيه بلاء مبين » ..

ويذكر هنا نجاة بنى إسرائيل من العذاب « المهين » فى مقابل الهوان الذى انتهى إليه المتجبرون المتعالون المسرفون فى التجبر والتعالى : « من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين » ..

ثم يذكر اختيار الله لبنى إسرائيل - على علم - بحقيقتهم كلها ، خيرها وشرها . اختيارهم على العالمين فى زمانهم بطبيعة الحال ، لما يعلمه الله من أنهم أفضل أهل زمانهم وأحقهم بالاختيار والاستخلاف ؛ على كل ماقصه عنهم بعد ذلك من تلكؤ ومن انحراف والتواء . مما يشير إلى أن اختيار الله ونصره قد يكون لأفضل أهل زمانهم ؛ ولو لم يكونوا قد بلغوا مستوى الإيمان العالى ؛ إذا كانت فيهم قيادة تتجه بهم إلى الله على هدى وعلى بصيرة واستقامة .

Marfat.com

« وآتيناهم من الآيات مافيه بلاء مبين » ..

فتعرضوا للاختبار بهذه الآيات، التى آتاهم الله إياها للابتلاء .حتى إذا تم امتحانهم، وانقضت فترة استخلافهم ، أخذهم الله بانحرافهم والتوائهم ، وبنتيجة اختبارهم وابتلائهم ، فضربهم بمن يشردهم فى الأرض ، وكتب عليهم الذلة والمسكنة ، وتوعدهم أن يعودوا إلى النكال والتشريد كلما بغوا فى الأرض إلى يوم الدين ..

* * *

وبعد هذه الجولة فى مصرع فرعون وملئه ، ونجاة موسى وقومه ، وابتلائهم بالآيات بعد فتنة فرعون وأخذه . . بعد هذه الجولة يعود إلى موقف المشركين من قضية البعث والنشور ، وشكهم فيها ، وإنكارهم لها . يعود ليربط بين قضية البعث وتصميم الوجود كله وبنائه على الحق والجد ، الذى يقتضى هذا البعث والنشور :

« إن هؤلاء ليقولون : إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين . فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين . وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون . إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين . يوم لايغنى مولى عن مولى شيئا ولاهم ينصرون . إلا من رحم الله ، إنه هو العزيز الرحيم » . .

إن هؤلاء المشركين من العرب ليقولون : ماهى إلا الموتة التى نموتها ، ثم لا حياة بعدها ولا نشور . ويسمونها « الأولى » بمعنى السابقة المتقدمة على الموعد الذى يوعدونه للبعث والنشور . ويستدلون على أنه ليس هناك إلا هذه الموتة وينتهى الأمر . يستدلون بأن آباءهم الذين ماتوا هذه الموتة ومضوا لم يعد منهم أحد ، ولم ينشر منهم أحد ؛ ويطلبون الإتيان بهم إن كان النشور حقا وصدقا .

وهم فى هذا الطلب يغفلون عن حكمة البعث والنشور ؛ ولايدركون أنها حلقة من حلقات النشأة البشرية ، ذات حكمة خاصة وهدف معين ، للجزاء على ما كان فى الحلقة الأولى ، والوصول بالطائعين إلى النهاية الكريمة التى تؤهلهم لها خطواتهم المستقيمة فى رحلة الحياة الدنيا ؛ والوصول بالعصاة إلى النهاية الحقيرة التى تؤهلهم لها خطواتهم المتنكسة المرتكسة فى الحمأة المستقذرة . . وتلك الحكمة تقتضى مجىء البعث والنشور بعد انقضاء مرحلة الأرض

Marfat.com

Marfat.com

كلها ؛ ويمنع أن يكون البعث لعبة تتم حسب رغبة أو نزوة بشرية لفرد أو لجماعة محدودة من البشر كي يصدقوا بالبعث والنشور ! وهم لا يكمل إيمانهم إلا أن يشهدوا بالغيب على هذه القضية . التي يخبرهم بها الرسل ؛ ويقتضيها التدبر في طبيعة هذه الحياة ، وفي حكمة الله في خلقها على هذا الأساس . وهذا التدبر وحده يكفي للإيمان بالآخرة ، والتصديق بالنشور .

وقبل أن يوجههم هنا إلى هذا التدبر في تصميم الكون ذاته ، يلمس قلوبهم لمسة عنيفة بمصرع قوم تبع . والتابعة من ملوك حمير في الجزيرة العربية . ولابد أن القصة التي يشير إليها كانت معروفة للسامعين ، ومن ثم يشير إليها إشارة سريعة للمس قلوبهم بعنف ، وتحذيرها مصيرا كهذا المصير :

« أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين » . .

وفي ظل هذه الذكرى ، وارتجاف القلوب من تصورها ، يقودهم إلى النظر في تصميم السماوات والأرض ، وتنسيق هذا الكون ؛ ومايبدو وراء هذا التنسيق من قصدوصدقوتدبير :

« وماخلقنا السماوات والأرض ومابينهما لاعبين . ماخلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون . إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين . يوم لايغني مولى عن مولى شيئا ولاهم ينصرون . إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم » .

واللفتة لطيفة ، والمناسبة بين خلق السماوات والأرض ومابينهما وبين قضية البعث والنشور مناسبة دقيقة . ولكن الفطرة البشرية تدركها في يسر حين توجه إليها مثل هذا التوجيه .

والواقع أن تدبر مافي خلق السماوات والأرض من دقة وحكمة وقصد ظاهر وتنسيق ملحوظ ، وخلق كل شيء بمقدار لايزيد ولاينقص عن تحقيق الغاية من خلقه ، وتحقيق تناسقه مع كل شيء وحوله ، وظهور القصد في خلق كل شيء بالقدر والشكل الذي خلق به ، وانتفاء المصادفة والبعث في أي جانب صغر أو كبر في تصميم هذه الخلائق الهائلة وما فيها من خلائق دقيقة لطيفة .

الواقع أن تدبر هذا كله يوقع في النفس أن لهذا الخلق غاية فلا عبث فيه ؛ وأنه قائم على الحق فلا باطل فيه . وأن له نهاية لم تأت بعد ، ولاتجيء بالموت ، بعدهذه الرحلة القصيرة على هذا الكوكب . وأن أمر الآخرة ، وأمر الجزاء فيها حتم لابد منه من الناحية المنطقية البحتة لهذا التصميم المقصود في بناء هذه الحياة وهذا الوجود . حتم تتحقق به النهاية الطبيعية للصلاح

والفساد فى هذه الحياة الدنيا. هذا الصلاح وهذا الفساد اللذان ركب الإنسان على أساس الاستعداد لهما ؛ وظهور جهده هو وإرادته فى اختيار أحدهما، وتلقى جزاء هذا الاختيار فى نهاية المطاف .

وإن خلق الإنسان بهذا الاستعداد المزدوج ، ونفى العبث عن فعل الله سبحانه ، ليقتضيان أن يكون لهذا الإنسان مصير معين ، ينتهى إليه بعد انتهاء رحلته الأرضية. وهذا هو صميم قضية الآخرة . ومن ثم يجىء بعد توجيه النظر إلى الحكمة والقصد فى خلق السماوات والأرض . يجىء قوله تعالى :

« إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين . يوم لايغنى مولى عن مولى شيئا ولاهم ينصرون إلا من رحم الله ، إنه هو العزيز الرحيم » ..

يجىء هذا القول طبيعيا ومرتبطا بما قبله كل الارتباط . فالحكمة تقتضى أن يكون هناك يوم يفصل فيه بين الخلائق ، ويحكم فيه بين الهدى والضلال ، ويكرم فيه الخير ويهان فيه الشر ، ويتجرد الناس من كل سند لهم فى الأرض، ومن كل قربى وآصرة، ويعودون إلى خالقهم فرادى كما خلقهم ، يتلقون جزاء ماعملت أيديهم ،لاينصرهم أحد ،ولايرحمهم أحد ، إلا من ينال رحمة ربه العزيز القادر الرحيم العطوف . الذى خرجوا من يده ـ سبحانه ـ ليعملوا ؛ وعادوا إلى يده ـ سبحانه ـ ليتسلموا منه الجزاء . ومابين خروجهم ورجوعهم إنما هو فرصة للعمل ومجال للابتلاء .

هكذا تقتضى الحكمة الظاهرة فى تصميم هذا الكون، وفى خلق السماوات والأرض ومابينهما بالحق ، وفى التقدير الواضح والقصد الناطق فى كل شىء فى هذا الوجود ..

* * *

وبعد تقرير هذا المبدأ يعرض عليهم مشهدا من مشاهد يوم الفصل ؛ ومايتنهى إليه العصاة والطائعون من عذاب ومن نعيم . مشهدا عنيفا يتناسق مع ظلال السورة وجوها العنيف :

« إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ، كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم . خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم : ذق إنك أنت العزيز الكريم . إن هذا ما كنتم به تمترون .

« إن المتقين فى مقام أمين . فى جنات وعيون . يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين . كذلك وزوجناهم بحور عين. يدعون فيها بكل فاكهة آمنين . لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم . فضلا من ربك. ذلك هو الفوز العظيم » . .

Marfat.com

ويبدأ المشهد بعرض لشجرة الزقوم، بعد تقرير أنها طعام الأثيم. عرض مفزع مرعب مخيف. إن هذا الطعام مثل دردى الزيت المغلى - وهو المهل - يغلى فى البطون كغلى الحميم. وهناك هذا الأثيم. هذا المتعالى على ربه وعلى الرسول الأمين. وهذا هو الأمر العالى يصدر إلى الزبانية ليأخذوه فى عنف يليق بمقامه « الكريم ! » :

« خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم » ..

خذوه أخذا واعتلوه عتلا ، وشدوه فى إهانة وجفوة فلا كرامة ولاهوادة . وهناك صبوا فوق رأسه من ذلك الحميم المغلى الذى يشوى ويكوى. ومع الشد والجذب والدفع والعتل والكى والشى .. التأنيب والترذيل :

« ذق . إنك أنت العزيز الكريم » .

وهذا جزاء العزيز الكريم فى غير ما عزة ولا كرامة، فقدكان ذلك على الله وعلى المرسلين!

« إن هذا ما كنتم به تمترون » ..

فقد كنتم تشكون فى هذا اليوم كما كنتم تسخرون وتستهزئون !

وبينما الأخذ والعتل ،والصب والكى،والتأنيب والخزى .. فى جانب من جوانب الساحة .. عند البصر - بعين الخيال - إلى الجانب الآخر . فإذا « المتقون » الذين كانوا يخشون هذا اليوم ويخافون . إذا هم : « فى مقام أمين » .. لاخوف فيه ولافزع ، ولاشد فيه ولاجذب، ولاعتل فيه ولاصب! بل هم منعمون رافلون « فى جنات وعيون » .. يلبسون من سندس - وهو الحرير الرقيق - ومن إستبرق - وهو الحرير السميك - ويجلسون متقابلين فى مجالسهم يسمرون. كل ذلك ومثله تزويجهم بحور عين، يتم بهن النعيم. وهم فى الجنة أصحاب الدار ، يطلبون ما يشاءون و « يدعون فيها بكل فاكهة آمنين » .. لايتوقعون نهاية لهذا النعيم ،فلاموت هنالك وقدذاقوا الموتة الأولى ، وغيرها لايذوقون .. (وذلك فى مقابل ما كان المشركون يقولون : « إن هى إلاموتتنا الأولى ومانحن بمنشرين » .. فنعم إنها الموتة الأولى ولكن وراءها الجحيم والنعيم) .

« ووقاهم عذاب الجحيم » . . تفضلا منه سبحانه . فالنجاة من العذاب لاتكون إلا بفضله ورحمته : « فضلا من ربك . ذلك هو الفوز العظيم » .. وأى فوز عظيم ؟ !

* * *

Marfat.com

Marfat.com

وفى ظل هذا المشهد العنيف العميق المؤثر بجانبيه تختم السورة بالتذكير بنعمة الرسالة والتخويف من عاقبة التكذيب :

« فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون . فارتقب إنهم مرتقبون » ..

وهو ختام يلخص جو السورة وظلها . ويتناسق مع بدئها وخط سيرها . فقد بدأت بذكر الكتاب وتنزيله للإنذار والتذكير ، وورد فى سياقها ماينتظر المكذبين . « يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون » .. فجاء هذا الختام يذكرهم بنعمة الله فى تيسير هذا القرآن على لسان الرسول العربى الذى يفهمونه ويدركون معانيه . ويخوفهم العاقبة والمصير ، فى تعبير ملفوف . ولكنه مخيف : « فارتقب إنهم مرتقبون » ..

Marfat.com

سورة الجاثية مكية
وآياتها ٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

« حم ۝ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين * وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها، وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون .

« تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟* ويل لكل أفاك أثيم * يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها ، فبشره بعذاب أليم * وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا ، أولئك لهم عذاب مهين * من ورائهم جهنم ، ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ، ولهم عذاب عظيم * هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم .

« الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون * وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون .

« قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ، ليجزي قوما بما كانوا

Marfat.com

يَكْسِبُونَ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ ، فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ، بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ * هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ .

« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ! * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ؛ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

« أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ، وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ، وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً : فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ » ﴿٢٣﴾

هذه السورة المكية تصور جانبا من استقبال المشركين للدعوة الإسلامية ، وطريقتهم فى مواجهة حججها وآياتها ، وتعنتهم فى مواجهة حقائقها وقضاياها ، واتباعهم للهوى اتباعا كاملا فى غير ما تحرج من حق واضح أو برهان ذى سلطان . كذلك تصور كيف كان القرآن يعالج قلوبهم الجامحة الشاردة مع الهوى ، المغلقة دون الهدى ؛ وهو يواجهها بآيات الله القاطعة العميقة التأثير والدلالة ، ويذكرهم عذابه ، ويصور لهم ثوابه ، ويقررلهم سننه ، ويعرفهم بنواميسه الماضية فى هذا الوجود .

ومن خلال آيات السورة وتصويرها للقوم الذين واجهوا الدعوة فى مكة ، نرى فريقا من الناس مصرا على الضلالة ، مكابرا فى الحق ، شديد العناد ، سيء الأدب فى حق الله وحق كلامه ، ترسمه هذه الآيات ؛ وتواجهه بما يستحقه من التذيل والتحذير والتهديد بعذاب الله المهين الأليم العظيم :

Marfat.com

« ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها ، فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا ، أولئك لهم عذاب مهين . من ورائهم جهنم ، ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا ولا مااتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم » ..

ونرى جماعة من الناس ، ربما كانوا من أهل الكتاب سيئ التصور والتقدير ؛ لايقيمون وزنا لحقيقة الإيمان الخالصة ، ولايحسون بالفارق الأصيل بينهم وهم يعملون السيئات وبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات . والقرآن يشعرهم بأن هناك فارقا أصيلا فى ميزان الله بين الفريقين ، ويقرر سوء حكمهم وسوء تصورهم للأمور ؛ وقيام الأمر فى ميزان الله على العدل الأصيل فى صلب الوجود كله منذ بدء الخلق والتكوين :

« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ،سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء مايحكمون ! وخلق الله السماوات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت ، وهم لايظلمون » ..

ونرى فريقا من الناس لايعرف حكما يرجع إليه إلاهواه ، فهو إلهه الذى يتعبده ، ويطيع كل مايراه . نرى هذا الفريق من الناس مصورا تصويرا فذا فى هذه الآية ؛ وهو يعجب من أمره ويشهر بغفلته وعماه :

«أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة ؟ فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟ » ..

ونرى هذا الفريق من الناس ينكر أمر الآخرة ، ويشك كل الشك فى قضية البعث والحساب ، ويتعنت فى الإنكار وفى طلب البرهان بما لاسبيل إليه فى هذه الأرض . والقرآن يوجه هذا الفريق إلى الدلائل القائمة الحاضرة على صدق هذه القضية ، وهم عنها معرضون :

« وقالوا : ماهى إلاحياتنا الدنيا نموت ونحيا ،ومايهلكنا إلا الدهر . ومالهم بذلك من علم ، إن هم إلايظنون . وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا : ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . قل : الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه . ولكن أكثر الناس لايعلمون » ..

ويجوز أن يكون هؤلاء جميعا فريقا واحدا من الناس يصدر منه هذاوذاك،ويصفه القرآن فى السورة هنا وهناك . كما يجوز أن يكونوا فرقا متعددة ممن واجهوا الدعوة فى مكة . بما فى

ذلك بعض أهل الكتاب ، وقليل منهم كان فى مكة. ويجوز أن تكون هذه إشارة عن هذا الفريق ليعتبر بها أهل مكة دون أن يقتضى هذا وجوده فى مكة بالذات فى ذلك الحين .

وعلى أية حال فقد واجه القرآن هؤلاء الناس بصفاتهم تلك وتصرفاتهم ، وتحدث عنهم فى هذه السورة ذلك الحديث .. كذلك واجههم بآيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم ، وحذرهم حساب يوم القيامة ، وبصرهم بما جرى لمن قبلهم ممن انحرفوا عن دين الله القويم .

واجههم بآيات الله فى هذا الأسلوب البسيط المؤثر العميق :

« إن فى السماوات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم ومايبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وماأنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها ، وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق . فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟ » ..

وواجههم بها مرة أخرى فى صورة نعم من أنعم الله عليهم يغفلون عن تذكرها وتدبرها :

« الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وسخر لكم مافى السماوات ومافى الأرض جميعا منه . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ..

كذلك واجههم بحالهم يوم القيامة الذى ينكرونه أو يمارون فيه :

« ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون . وترى كل أمة جاثية . كل أمة تدعى إلى كتابها . اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته . ذلك هو الفوز المبين . وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين ؟ وإذا قيل : إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها . قلتم : ماندرى ماالساعة ، إن نظن إلا ظنا ، وما نحن بمستيقنين . وبدا لهم سيئات ماعملوا ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. وقيل : اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ، ومأواكم النار ، ومالكم من ناصرين : ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لايخرجون منها ولاهم يستعتبون » ..

كذلك لم يدع أى لبس أو شك فى عدالة الجزاء وفردية التبعة ؛ وبين أن هذا الأصل عميق فى تكوين الوجود كله ، وعليه يقوم هذا الوجود . ذلك حين يقول :

« من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، ثم إلى ربكم ترجعون » ..

وحين يرد على من يحسبون وهم يجترحون السيئات أنهم عند الله كالمؤمنين الذين يعملون الصالحات ، فيقول :

Marfat.com

Marfat.com

« وخلق الله السماوات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون.. »

***

والسورة كلها وحدة فى علاج موضوعها ؛ ولكننا قسمناها إلى درسين اثنين لتيسير عرضها وتفصيلها .

وهى تبدأ بالأحرف المقطعة : « حا . ميم » . والإشارة إلى القرآن الكريم : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » .. وتختم بحمد الله وربوبيته المطلقة ، وتمجيده وتعظيمه، إزاء أولئك الذين يغفلون عن آياته ويستهزئون بها ويستكبرون عنها : « فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين . وله الكبرياء فى السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » ..

ويسير سياق السورة فى عرض موضوعها فى يسر وهوادة وإيضاح هادىء ، وبيان دقيق عميق . على غير مايسير سياق سورة الدخان قبلها فى إيقاع عنيف كأنه مطارق تقرع القلوب .

والله خالق القلوب ، ومنزل هذا القرآن، يأخذ القلوب تارة بالقرع والطرق.وتارة باللمس الناعم الرفيق ، وتارة بالبيان الهادىء الرقيق . حسب تنوعها هى واختلافها . وحسب تنوع حالاتها ومواقفها فى ذاتها . وهو اللطيف الخبير . وهو العزيز الحكيم ..

والآن نأخذ فى التفصيل ..

***

« حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم. إن فى السماوات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم ومايبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وماأنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها ، وتصريف الرياح ، آيات لقوم يعقلون » ..

يذكر الحرفين : « حا . ميم » ويذكر بعدهما تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . وفيها دلالة على مصدر الكتاب ، كما أسلفنا الحديث عن الأحرف المقطعة فى أوائل السور. من ناحية أن هذا الكتاب المعجز مصوغ من مثل هذه الأحرف ، وهم لايقدرون على شىء منه ، فهذه دلالة قائمة على أن تنزيل هذا الكتاب من الله . « العزيز » القادر الذى لايعجزه شىء . « الحكيم » الذى يخلق كل شىء بقدر ، ويمضى كل أمر بحكمة . وهو تعقيب يناسب جو السورة وماتتعرض له من ألوان النفوس .

وقبل أن يعرض للقوم وموقفهم من هذا الكتاب ، يشير إلى آيات الله المبثوثة فى الكون

من حولهم . وقد كانت وحدها كفيلة بتوجيههم إلى الإيمان . ويوجه قلوبهم إليها لعلها توقظها وتفتح مغاليقها ،وتستجيش فيها الحساسية بالله منزل هذا الكتاب،وخالق هذا الكون العظيم:

« إن فى السماوات والأرض لآيات للمؤمنين » ..

والآيات المبثوثة فى السماوات والأرض لا تقتصر على شيء دون شيء ، ولاحال دون حال . فحيثما مد الإنسان ببصره وجد آيات الله تطالعه فى هذا الكون العجيب . .

وأى شيء ليس آية ؟

هذه السماوات بأجرامها الضخمة ، وأفلاكها الهائلة ،وهى ـ على ضخامتها ـ مبعثرة كالنثار الصغير فى الفضاء .. الفضاء الهائل الرهيب .. الجميل .. !

ودورة هذه الأجرام فى أفلاكها فى دقة واطراد وتناسق.. تناسق جميل لاتشبع العين من النظر إليه ، ولايشبع القلب من تمليه !

وهذه الأرض الواسعة العريضة بالقياس إلى البشر. وهى ذرة .أوهباءة بالقياس إلى النجوم الكبيرة . ثم بالقياس إلى هذا الفضاء الذى تتوه فيه ..تتوه لولا القدرة التى تمسك بها وتنظمها فى العقد الكونى الذى لايتوه شيء فيه !

وما أودعه الله طبيعة هذه الأرض فى موقعها الكونى الخاص من صلاحية لنشوء الحياة فوقها ، ومن خصائص دقيقة مقصودة متراكبة متجمعة متناسقة . لواختلت خصيصة واحدة منها أوتخلفت ماأمكن أن تقوم فيها الحياة أوتدوم ! (١).

وكل شيء فى هذه الأرض وكل حى .. آية . . وكل جزء من كل شيء ومن كل حى فى هذه الأرض .. آية .. والصغير الدقيق كالضخم الكبير .. آية .. هذه الورقة الصغيرة فى هذه الشجرة الضخمة أوالنبتة الهزيلة .. آية .. آية فى شكلها وحجمها، آية فى لونها وملمسها . آية فى وظيفتها وتركيبها .وهذه الشعرة فى جسم الحيوان أوالإنسان .. آية .. آية فى خصائصها ولونها وحجمها . وهذه الريشة فى جناح الطائر . . آية . . آية فى مادتها وتنسيقها ووظيفتها . وحيثما مد الإنسان ببصره فى الأرض أو فى السماء تزاحمت الآيات وتراكبت ، وأعلنت عن نفسها لقلبه وسمعه وبصره .

ولكن لمن ؟ لمن تعلن هذه الآيات عن نفسها ؟ من الذى يراها ويستشعرها ؟

« لقوم يؤمنون » ..

---

(١) يراجع تفسير قوله تعالى : « وخلق كل شيء فقدره تقديرا» ص١٢ ـ ١٥ جزء ١٩ من الظلال .

فالإيمان هو الذى يفتح القلوب لتلقى الأصداء والأضواء والأنداء ؛ والإحساس بما فيها من آيات الله المبثوثة فى الأرض والسماء. والإيمان هو الذى تخالط القلوب بشاشته فتحيا وترق وتلطف؛ وتلتقط مايذخر به الكون من إيحاءات خفية وظاهرة ، تشير كلها إلى اليد الصانعة ،وطابعها المعز فى كل ماتصوغه وتبدعه من أشياء ومن أحياء . وكل ماخرج من هذه اليد فهو خارق معجز لايقدر على إبداعه أحد من خلق الله .

ثم ينتقل بهم السياق من آفاق الكون إلى ذوات أنفسهم ؛ وهى أقرب إليهم، وهم بها أكثر حساسية :

« وفى خلقكم ومايبث من دابة آيات لقوم يوقنون »..

وخلق هذا الإنسان بهذا التكوين العجيب ، وبهذه الخصائص الفريدة ، وبهذه الوظائف اللطيفة الدقيقة المتنوعة الكثيرة. خارقة .خارقة نسيناها لطول تكرارها، ولقربها منا! ولكن التركيب العضوى لجارحة واحدة من جوارح هذا الإنسان مسألة تدير الرأس عجبا ودهشة واستهوالا لهذا التركيب العجيب !

إن الحياة فى أبسط صورها معجزة . فى الإميبا ذات الخلية الواحدة . وفيما هو أصغر من الإميبا ! فكيف بها فى هذا الإنسان الشديد التركيب والتعقيد ؟ وهو فى تركيبه النفسى أشد تركبا وتعقدا من تركيبه العضوى !

وحوله تلك الخلائق التى تدب على الأرض أنواعا وأجناسا ، وأشكالا وأحجاما ، لايحصيها إلا الله .وأصغرها كأكبرها معجز فى خلقه.معجز فى تصريفه . معجز فى تناسب حيواته على هذه الأرض ، بحيث لايزيد جنس عن حدود معينة ، تحفظ وجوده وامتداده ، وتمنع طغيانه على الأجناس الأخرى طغيان إبادة وإفناء .واليد الممسكة بزمام الأنواع والأجناس تزيد فيها وتنقص بحكمة وتقدير ؛ وتركب فى كل منها من الخصائص والقوى والوظائف مايحفظ التوازن بينها جميعا . .

النسور جارحة ضارية وعمرها مديد . ولكنها فى مقابل هذا نزرة قليلة البيض والفراخ بالقياس إلى العصافير والزرازير .. ولنا ن نتصور كيف كان الأمر يكون لو كان للنسور نسل العصافير ؟ وكيف كانت تقضى على جميع الطيور !

والأسود كذلك فى عالم الحيوان كاسرة ضارية . فكيف لو كانت تنسل كالظباء والشاء ؟

Marfat.com

إنها ما كانت تبقى على لحم فى الغابة ولا غذاء . . ولكن اليد التى تمسك بالزمام تجعل نسلها محدودا بالقدر المطلوب ! وتكثر من ذوات اللحوم من الظباء والشاء وما إليها لسبب معلوم .

والذبابة الواحدة تبيض فى الدورة الواحدة مئات الألوف . . وفى مقابل هذا لا تعيش إلا حوالى أسبوعين اثنين . فكيف لو أفلت الزمام فعاشت الذبابة الواحدة أشهرا أو سنين ؟ لكان الذباب يغطى الأجسام ويأكل العيون ! ولكن اليد المدبرة هناك تضبط الأمور وفق تقدير دقيق محسوب فيه حساب كل الحاجات والأحوال والظروف .

وهكذا وهكذا . فى الخلق ذاته . وفى خصائصه . وفى تدبيره وتقديره . فى عالم الناس ، وعالم الدواب . . فى هذا كله آيات . آيات ناطقة . ولكن لمن ؟ من الذى يراها ويتدبرها ويدركها ؟ « لقوم يوقنون » . .

واليقين هو الحالة المهيئة للقلوب كى تحس ، وكى تتأثر ، وكى تنيب . . اليقين الذى يدع القلوب تقر وتثبت وتطمئن ؛ وتتلقى حقائق الكون فى هدوء ويسر وثقة ، وفى راحة من القلق والحيرة والزعزعة . فتصوغ من أقل ما تحصل ، أكبر النتائج وأعظم الآثار فى هذا الوجود .

ثم ينتقل بهم من ذوات أنفسهم وحركة الأحياء حولهم ، إلى الظواهر الكونية ، وماينشأ عنها من أسباب الحياة لهم وللأحياء جميعا :

« واختلاف الليل والنهار ، وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها ، وتصريف الرياح ، آيات لقوم يعقلون » . .

واختلاف الليل والنهار ظاهرتان قد يُخلق جدتهما فى نفوس البشر التكرار ! ولكن أية عجيبة تطالع الحس البشرى وهو يواجه الليل أول مرة أو يواجه النهار ؟ إن القلب الشاعر المتفتح يرى هذه العجيبة دائما ، وينتفض لها دائما ؛ ويرى يد الله التى تدير الكون كله كلما رأى الليل والنهار .

وتنمو معارف البشر ، ويتسع علمهم عن بعض الظواهر الكونية ، ويعرفون أن الليل والنهار ظاهرتان تنشآن عن دورة الأرض حول محورها أمام الشمس مرة فى كل أربع وعشرين ساعة . ولكن العجيبة لا تنقص شيئا بهذه المعرفة . فإن دورة الأرض هذه عجيبة أخرى . دورة هذا الجرم حول نفسه بهذه السرعة المنتظمة ، وهو عائم فى الهواء ، سابح فى الفضاء ، غير مستند إلى شىء إلا إلى القدرة التى تمسك به وتديره كما شاءت بهذا النظام الذى لا يتخلف ، وبهذا القدر الذى يسمح للأحياء والأشياء أن تظل على سطح هذا الكوكب السابح السارح الدائر فى الفضاء !

Marfat.com

ويتوسع البشر فى علمهم فيدركون أهمية هاتين الظاهرتين على سطح الأرض بالقياس إلى الحياة والأحياء ؛ ويعرفون أن تقسيم الأوقات بين الليل والنهار بهذه النسبة على سطح هذا الكوكب عامل رئيسى لوجود الحياة وبقاء الأحياء ؛ وأنه لو لم توجد هاتان الظاهرتان بهذا القدر وعلى هذا النظام لتغير كل شىء على هذه الأرض . وبخاصة تلك الحياة الإنسانية التى تخص المخاطبين . من الأحياء ! ومن ثم تزداد هاتان الظاهرتان أهمية فى الحس البشرى ولا تنقصان!

« وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها » . .

والرزق قد يكون المقصود به هو الماء النازل من السماء . كما فهم منه القدماء . ولكن رزق السماء أوسع . فهذه الأشعة التى تنزل من السماء ليست أقل أثرا فى إحياء الأرض من الماء . بل إنها لهى التى ينشأ عنها الماء بإذن الله . فحرارة الشمس هى التى تبخر الماء من البحار ، فتتكاثف وتنزل أمطارا ، وتجرى عيونا وأنهارا ؛ وتحيا بها الأرض بعد موتها . تحيا بالماء وتحيا بالحرارة والضياء سواء !

« وتصريف الرياح » . .

وهى تمضى شمالا وجنوبا ، وشرقا وغربا ، منحرفة ومستقيمة ، دافئة وباردة ، وفق النظام الدقيق المنسوق المقصود فى تصميم هذا الكون العجيب ؛ وحساب كل شىء فيه حسابا دقيقا لا يترك شيئا للمصادفة العمياء . . ولتصريف الرياح علاقة معروفة بدورة الأرض ، وبظاهرتى الليل والنهار ، وبالرزق الذى ينزل من السماء . وكلها تتعاون فى تحقيق مشيئة الله فى خلق هذا الكون ، وتصريفه كما أراد . وفيها « آيات » معروضة فى الكون . ولكن لمن ؟

« لقوم يعقلون » . .

فللعقل هنا عمل ، وله فى هذا الميدان مجال .

* * *

هذه بعض آيات الله الكونية ، يشير إليها هذه الإشارات الموحية للمؤمنين . الذين يوقنون والذين يعقلون . يشير إليها بآيات الله القرآنية ، فتلمس القلوب ، وتوقظ العقول ، وتخاطب الفطر بلغتها المباشرة ، بما بينها وبين هذا الكون من صلة عميقة باطنة ، لا يحتاج إيقاظها إلا إلى كلمات موحية كآيات هذا القرآن . فمن لم يؤمن بهذه الآيات فلا رجاء فى أن يؤمن بسواها ؛ ومن لم توقظه هذه الإشارات الموحية فلن توقظه الصرخات من غير هذا الصوت المستجاب :

« تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ » . .

إن أى كلام لن يبلغ كلام الله فى القرآن . وإن أى إبداع لن يبلغ إبداع الله فى الكون . وإن أية حقيقة لن تبلغ حقيقة الله فى الثبوت والوضوح واليقين . « فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ » . .

Marfat.com

Marfat.com

وهنا لايليق بمن لايؤمن إلا التهديد والتنكيل :

« ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها . فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا ، أولئك لهم عذاب مهين. من ورائهم جهنم ، ولايغنى عنهم ما كسبوا شيئا ولاما اتخذوا من دون الله أولياء . ولهم عذاب عظيم » ..

وتصور هذه الآيات ـ كما أسلفنا فى تقديم السورة ـ جانبا من استقبال المشركين لهذه الدعوة فى مكة ، وإصرارهم على باطلهم ، واستكبارهم عن سماع كلمة الحق البين ، ومكابرتهم فى هذا الحق كأنه لم يطرق أذهانهم ، وسوء أدبهم مع الله وكلامه .. ومقابلة القرآن لهذا كله بالترذيل والتقبيح والتهديد والوعيد ، والتلويح بالعذاب الأليم المهين العظيم .

« ويل لكل أفاك أثيم » ..

والويل الهلاك . والأفاك الكذاب المارد على الكذب . والأثيم الكثير المقارفة للإثم . والتهديد شامل لكل من هذه صفته . وهو تهديد صادر من الله القوى القاهر الجبار ، القادر على الهلاك والدمار . الصادق الوعد والوعيد والإنذار . فهو تهديد رعيب مفزع مرهوب .

هذا الأفاك الأثيم . آية إفكه وعلامة إثمه ، أنه يصر على الباطل ويستكبر على الحق ويتعالى عن الخضوع لآيات الله ، ولايتأدب بالأدب اللائق مع الله :

« يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها » ..

وهذه الصورة البغيضة ولوأنها صورة فريق من المشركين فى مكة ، إلا أنها تتكرر فى كل جاهلية ، وتتكرر اليوم وغدا . فكم فى الأرض ، وبين من يقال إنهم مسلمون ، من يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها ؛ لأنها لاتوافق هواه، ولاتسير مع مألوفه ، ولاتعاونه على باطله ، ولاتقره على شره ، ولاتتمشى له مع اتجاه !

« فبشره بعذاب أليم » ..

والبشارة للخير . فهى هنا للسخرية . فإذا كان لايسمع النذير ، فليأته الويل المنظور ، فى صوت البشير ! زيادة فى السخرية والتحقير !

« وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا » ..

بعد أن يعلمها ويعرف مصدرها . وهذه أشد وأنكى . وهى صورة كذلك مكرورة فى الجاهليات الأولى والأخيرة . وكم من الناس . وبين من يقال إنهم مسلمون . من يستهزىء بآيات الله التى يعلمها ، ويتخذها مادة للسخرية منها وممن يؤمنون بها ؛ وممن يريدون أن يرجعوا أمر الناس والحياة إليها .

« أولئك لهم عذاب مهين » ..

فالمهانة هي الجزاء المناسب لمن يستهزئ بآيات الله وهو يعلمها.

وهو عذاب حاضر قريب؛ وإن كان موعده آتيا بعد حين. ولكنه في حقيقته قائم موجود:

« من ورائهم جهنم » ..

ولفظ « من ورائهم » مقصودة ظلاله فوق معناه. وظلاله .. أنهم لا يرونه لأنه من ورائهم ولا يتقونه لأنهم في غفلة عنه؛ ولا يفوتهم فهم سيقعون فيه!

« ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء » .

فليس شيء مما عملوا أو ملكوا بنافعهم شيئا، فعملهم - ولو صلح - هباء لا يقدرون على شيء منه، وهو قائم على غير أساس من إيمان. وملكهم زائل لا يصاحبهم منه شيء فيه غناء. وأولياؤهم من دون الله - آلهة أو أعوانا وجندا أو خلانا - لا يملكون لهم نصرا ولا شفاعة.

« ولهم عذاب عظيم » ..

فوق أنه مهين. فجرمهم في الاستهزاء بآيات الله قبيح يقتضي المهانة، جسيم يقتضي جسامة التعذيب ..

وينتهي هذا المقطع، الذي ورد فيه ذكر الاستهزاء بآيات الله، والصد عنها والاستكبار، بكلمة عن حقيقة هذه الآيات؛ وجزاء من يكفر بهذه الحقيقة في إجمال:

« هذا هدى. والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم » ..

إن حقيقة هذا القرآن أنه هدى. هدى خالص مصفى. هدى محض لا يشوبه ضلال. فالذي يكفر بعد ذلك بالآيات، وهذه حقيقتها، يستحق ألم العذاب. الذي يمثله توكيد معنى الشدة والإيلام. فالرجز هو العذاب الشديد. والعذاب الذي يهددون به هو عذاب من رجز أليم .. تكرار بعد تكرار. وتوكيد بعد توكيد. يليق بمن يكفر بالهدى الخالص المحض الصريح.

***

وبعد التهديد المخيف، والوعيد الرعيب، يعود فيلمس قلوبهم لمسا رفيقا، بالتذكير بأنعم الله التي سخرها لهم في هذا الكون العريض:

« الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره، ولتبتغوا من فضله، ولعلكم تشكرون. وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ..

إن هذا المخلوق الصغير .. الإنسان .. يحظى من رعاية الله - سبحانه - بالقسط الوافر، الذي يتيح له أن يسخر الخلائق الكونية الهائلة، وينتفع بها على شتى الوجوه. وذلك بالاهتداء

Marfat.com

Marfat.com

إلى طرف من سر الناموس الإلهي الذى يحكمها ، والذى تسير وفقه ولا تعصاه . ولولا هذا الاهتداء إلى طرف السر ما استطاع الإنسان بقوته الهزيلة المحدودة أن ينتفع بشيء من قوى الكون الهائلة ؛ بل مااستطاع أن يعيش معها ؛ وهو هذا القزم الصغير ، وهى هذه المردة الجبابرة من القوى والطاقات والأحجام والأجرام .

والبحر أحد هذه الجبابرة الضخام التى سخرها الله للإنسان ، فهداه إلى شيء من سر تكوينها وخصائصها ؛ عرف منه هذه الفلك التى تمخر هذا الخلق الهائل ، وهى تطفو على ثبج أمواجه الجبارة ولا تخشاها ! « لتجرى الفلك فيه بأمره » . . فهو ـ سبحانه ـ الذى خلق البحر بهذه الخصائص ، وخلق مادة الفلك بهذه الخصائص ، وجعل خصائص الضغط الجوى ، وسرعة الرياح وجاذبية الأرض . . . وسائر الخصائص الكونية الأخرى مساعدة على أن تجرى الفلك فى البحر . وهدى الإنسان إلى هذا كله فأمكنه أن ينتفع به ، وأن ينتفع كذلك بالبحر فى نواح أخرى : « ولتبتغوا من فضله » كالصيد للطعام وللزينة ، وكذلك التجارة والمعرفة والتجربة والرياضة والنزهة ؛ وسائر مايبتغيه الحى من فضل الله فى البحار .

سخر الله للإنسان البحر والفلك ، ليبتغى من فضل الله ؛ وليتجه إليه بالشكر على التفضل والإنعام ، وعلى التسخير والاهتداء : « ولعلكم تشكرون » . . وهو يوجه قلبه بهذا القرآن إلى الوفاء بهذا الحق ، وإلى الارتباط بذلك الأفق ، وإلى إدراك ما بينه وبين الكون من وحدة فى المصدر ووحدة فى الاتجاه . . إلى الله . .

ومن تخصيص البحر بالذكر إلى التعميم والشمول . فلقد سخر الله لهذا الإنسان مافى السماوات ومافى الأرض ، من قوى وطاقات ونعم وخيرات ـ مما يصلح له ويدخل فى دائرة خلافته ـ :

« وسخر لكم مافى السماوات ومافى الأرض جميعا منه » . .

فكل شيء فى هذا الوجود منه وإليه ؛ وهو منشئه ومدبره ؛ وهو مسخره أو مسلطه . وهذا المخلوق الصغير . . الإنسان . . مزود من الله بالاستعداد لمعرفة طرف من النواميس الكونية . يسخر به قوى فى هذا الكون وطاقات تفوق قوته وطاقته بما لا يقاس ! وكل ذلك من فضل الله عليه . وفى كل ذلك آيات لمن يفكر ويتدبر ، ويتبع بقلبه وعقله لمسات اليد الصانعة المدبرة المصرفة لهذه القوى والطاقات :

« إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . .

والفكر لا يكون صحيحا وعميقا وشاملا ، إلا حين يتجاوز القوى والطاقات التى يكشف

سرها . إلى مصدر هذه القوى والطاقات ؛ وإلى النواميس التى تحكمها ؛ وإلى الصلة بين هذه النواميس وفطرة الإنسان . هذه الصلة التى تيسر للإنسان الاتصال بها وإدراكها . ولولاها ما اتصل ولا أدرك . ولا عرف ولا تمكن ، ولا سخر ولا انتفع بشيء من هذه القوى والطاقات . .

* * *

وحين يبلغ سياق السورة إلى هذا المقطع القوى الذى يصل قلب المؤمن بقلب هذا الوجود . ويشعره بمصدر القوة الحقيقى وهو الاهتداء إلى أسرار هذا الوجود . . عند هذا يدعو المؤمنين إلى الترفع والاستعلاء وسعة الأفق ورحابة الصدر فى مواجهة الضعاف العاجزين الذين لا تتصل قلوبهم بذلك المصدر الثرى الغنى . كما يدعوهم إلى شيء من العطف على هؤلاء المساكين المحجوبين عن الحقائق المنيرة القوية العظيمة ؛ من الذين لا يتطلعون إلى أيام الله ، التى يظهر فيها عظمته وأسراره ونواميسه :

« قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ، ليجزى قوما بما كانوا يكسبون . من عمل صالحا فلنفسه . ومن أساء فعليها ، ثم إلى ربكم ترجعون » . .

فهو توجيه كريم للذين آمنوا ليتسامحوا مع الذين لا يرجون أيام الله . تسامح المغفرة والعفو . وتسامح القوة والاستعلاء . وتسامح الكبر والارتفاع . والواقع أن الذين لا يرجون أيام الله مساكين يستحقون العطف أحيانا بحرمانهم من ذلك النبع الفياض ، الذى يزخر بالنداوة والرحمة والقوة والثراء . نبع الإيمان بالله ، والطمأنينة إليه ، والاحتماء بركنه ، واللجوء إليه فى ساعات الكربة والضيق . وحرمانهم كذلك من المعرفة الحقيقية المتصلة بصميم النواميس الكونية وماوراءها من القوى والثروات . والمؤمنون الذين يملكون كنز الإيمان وذخره ، ويتمتعون برحمته وفيضه أولى بالمغفرة لما يبدو من أولئك المحرومين من نزوات وحماقات .

هذا من جانب . ومن الجانب الآخر ، ليترك هؤلاء المؤمنون الأمر كله لله يتولى جزاء المحسن على إحسانه ، والمسيء على إساءته . ويحسب لهم العفو والمغفرة عن المساءة فى سجل الحسنات . ذلك فيما لا يظهر الفساد فى الأرض ، ويعتدى على حدود الله وحرماته بطبيعة الحال :

« ليجزى قوما بما كانوا يكسبون » . .

ويعقب على هذا بفردية التبعة ، وعدالة الجزاء ، وتوكيد الرجوع إلى الله وحده فى نهاية المطاف :

« من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، ثم إلى ربكم ترجعون » . .

Marfat.com

Marfat.com

بذلك يتسع صدر المؤمن ، ويرتفع شعوره ؛ ويحتمل المساءات الفردية والنزوات الحمقاء من المحجوبين المطموسين ، فى غير ضعف . وفى غير ضيق . فهو أكبر وأفسح وأقوى . وهو حامل مشعل الهدى للمحرومين من النور ، وحامل بلسم الشفاء للمحرومين من النبع ، وهو مجزى بعمله ، لايصيبه من وزر المسيء شيء . والأمر لله فى النهاية . وإليه المرجع والمآب .

* * *

بعد ذلك يتحدث عن القيادة المؤمنة للبشرية،وتركز هذه القيادة أخيرافى الرسالة الإسلامية ؛ فيشير إلى اختلاف بنى إسرائيل فى كتابهم ، بعد ما آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة . وانتهاء راية القيادة والحكم إلى صاحب الدعوة الأخيرة . هذا وهو بعد فى مكة. والدعوة بعد مطاردة محاصرة . ولكن طبيعتها هى هى منذ نشأتها ، ومهمتها هى مهمتها :

« ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على العالمين . وآتيناهم بينات من الأمر، فما اختلفوا إلامن بعد ماجاءهم العلم بغيابينهم .إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون . ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولاتتبع أهواء الذين لايعلمون . إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ، والله ولى المتقين . هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون » . .

كانت القيادة ــ قبل الإسلام ــ لبنى إسرائيل . كانوا هم أصحاب عقيدة السماء التى اختارها الله لتلك الفترة من التاريخ . ولابد للبشر من قيادة مستمدة من السماء . فالأرض قيادتها هوى أوجهل أوقصور . والله خالق البشر هو وحده الذى يشرع لهم شريعته مبرأة من الهوى فكلهم عباده ، مبرأة من الجهل والقصور فهو الذى خلقهم وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير .

« ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة » . .

فكان فيهم التوراة شريعة الله . وكان فيهم الحكم لإقامة الشريعة . وكان فيهم النبوة بعد رسالة موسى وكتابه للقيام على الشريعة والكتاب . وكثر فيهم الأنبياء وتتابعوا فترة طويلة نسبيا فى التاريخ .

« ورزقناهم من الطيبات » . .

فكانت مملكتهم ونبواتهم فى الأرض المقدسة،الطيبة،الكثيرة الخيرات بين النيل والفرات.

« وفضلناهم على العالمين » . .

وكان تفضيلهم على أهل زمانهم بطبيعة الحال ؛ وكان مظهر هذا التفضيل الأول اختيارهم للقيادة بشريعة الله ؛ وإيتاءهم الكتاب والحكم والنبوة :

Marfat.com

« وآتيناهم بينات من الأمر » ..

وكان ماأوتوه من الشريعة بينا حاسما فاصلا . لاغموض فيه ولالبس ولاعوج ولاانحراف؛ فلم يكن هناك مايدعو إلى الاختلاف في هذا الشرع البين كما وقع منهم ؛ وماكان هذا عن غموض في الأمر ، ولا كان عن جهل منهم بالصحيح من الحكم :

« فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم » ..

إنما كان ذلك عن تحاسد بينهم ، ونزاع وظلم ، مع معرفة الحق والصواب :

« بغيا بينهم » ..

وبذلك انتهت قيادتهم فى الأرض،وبطل استخلافهم ، وأمرهم بعد ذلك إلى الله يوم القيامة:

« إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » ..

ثم كتب الله الخلافة فى الأرض لرسالة جديدة ورسول جديد،يرد إلى شريعة الله استقامتها، وإلى قيادة السماء نصاعتها ؛ ويحكم شريعة الله لا أهواء البشر فى هذه القيادة :

« ثم جعلناك على شريعة من الأمر ، فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » ..

وهكذا يتمحض الأمر . فإما شريعة الله . وإما أهواء الذين لا يعلمون . وليس هنالك من فرض ثالث ، ولا طريق وسط بين الشريعة المستقيمة والأهواء المتقلبة ؛ وما يترك أحد شريعة الله إلا ليحكم الأهواء فكل ما عداها هوى يهفو إليه الذين لا يعلمون !

والله ـ سبحانه ـ يحذر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم أن يتبع أهواء الذين لا يعلمون ، فهم لا يغنون عنه من الله شيئا . وهم يتولون بعضهم بعضا . وهم لا يملكون أن يضروه شيئا حين يتولى بعضهم بعضا ، لأن الله هو مولاه :

«إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض . والله ولى المتقين»..

وإن هذه الآية مع التى قبلها لتعين سبيل صاحب الدعوة وتحدده ، وتغنى فى هذا عن كل قول وعن كل تعليق أو تفصيل :

« ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون. إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ، والله ولى المتقين » ..

إنها شريعة واحدة هى التى تستحق هذا الوصف ، وما عداها أهواء منبعها الجهل . وعلى صاحب الدعوة أن يتبع الشريعة وحدها ، ويدع الأهواء كلها . وعليه ألا ينحرف عن شىء من الشريعة إلى شىء من الأهواء. فأصحاب هذه الأهواء أعجز من أن يغنوا عنه من الله صاحب الشريعة . وهم إلب عليه فبعضهم ولى لبعض . وهم يتساندون فيما بينهم ضد صاحب الشريعة فلا

يجوز أن يأمل فى بعضهم نصرة له أو جنوحا عن الهوى الذى يربط بينهم برباطه . ولكنهم أضعف من أن يؤذوه . والله ولى المتقين . وأين ولاية من ولاية ؟ وأين ضعاف جهال مهازيل يتولى بعضهم بعضا ؛ من صاحب شريعة يتولاه الله . ولى المتقين ؟

وتعقيبا على هذا البيان الحاسم الجازم ، يتحدث عن اليقين ، وعما فى هذا القول وأمثاله فى القرآن من تبصرة وهدى ورحمة لأهل اليقين :

« هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون » ..

ووصف القرآن بأنه بصائر للناس يعمق معنى الهداية فيه والإنارة . فهو بذاته بصائر كاشفة كما أن البصائر تكشف لأصحابها عن الأمور . وهو بذاته هدى . وهو بذاته رحمة .. ولكن هذا كله يتوقف على اليقين . يتوقف على الثقة التى لا يخامرها شك ، ولا يخالطها قلق . ولاتتسرب إليها ريبة . وحين يستيقن القلب ويستوثق يعرف طريقه ، فلا يتلجلج ولا يتلعثم ولا يحيد . وعندئذ يبدو له الطريق واضحا ، والأفق منيرا ، والغاية محددة ، والنهج مستقيما . وعندئذ يصبح هذا القرآن له نورا وهدى ورحمة بهذا اليقين ..

***

ويعقب على الحديث عن ولاية الظالمين بعضهم لبعض وولاية الله المتقين : وعن طبيعة هذا القرآن بالقياس إلى المتقين . وأنه بصائر وهدى ورحمة لأهل اليقين . يعقب على هذا الحديث بالتفرقة الحاسمة بين حال الذين يجترحون السيئات وحال الذين يعملون الصالحات وهم مؤمنون . ويستنكر أن يسوى بينهم فى الحكم ، وهم مختلفون فى ميزان الله . والله قد أقام السماوات والأرض على أساس الحق والعدل ؛ والحق أصيل فى تصميم هذا الكون .

« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات . سواء محياهم ومماتهم . ساء مايحكمون . وخلق الله السماوات والأرض بالحق . ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون » ..

ويجوز أن يكون الحديث هنا عن أهل الكتاب ، الذين انحرفوا عن كتابهم ، واجترحوا السيئات ، وظلوا يحسبون أنفسهم فى صفوف المؤمنين ، ويجعلون أنفسهم أكفاء للمسلمين الذين يعملون الصالحات ، أندادا لهم فى تقدير الله سواء فى الحياة أو بعد الممات . أى عند الحساب والجزاء .. كما يجوز أن يكون حديثا عاما بقصد بيان قيم العباد فى ميزان الله . ورجحان كفة المؤمنين أصحاب العمل الصالح ؛ واستنكار التسوية بين مجترحى السيئات وفاعلى الحسنات ، سواء فى الحياة أو فى الممات . ومخالفة هذا للقاعدة الثابتة الأصيلة فى بناء الوجود كله . قاعدة الحق .

Marfat.com

الذى يتمثل فى بناء الكون ، كما يتمثل فى شريعة الله. والذى يقوم به الكون كما تقوم به حياة الناس . والذى يتحقق فى التفرقة بين المسيئين والمصلحين فى جميع الأحوال ؛ وفى مجازاة كل نفس بما كسبت من هدى أوضلال ؛ وفى تحقيق العدل للناس أجمعين : « وهم لايظلمون » ..

ومعنى أصالة الحق فى بناء الكون ، وارتباطه بشريعة الله للبشر ،وحكمه عليهم يوم الحساب والجزاء . معنى يتكرر فى القرآن الكريم ، لأنه أصل من أصول هذه العقيدة ، تجتمع عليه مسائلها المتفرقة ، وترجع إليه فى الأنفس والآفاق ، وفى ناموس الكون وشريعة البشر . وهو أساس « فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان »[1]

* * *

وإلى جوار هذا الأصل الثابت يشير إلى الهوى المتقلب . الهوى الذى يجعل منه بعضهم إلها يتعبده . فيضل ضلالا لا اهتداء بعده ، والعياذ بالله :

«أفرأيت من اتخذ إلهه هواه،وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ؟ فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟ » ..

والتعبير القرآنى المبدع يرسم نموذجا عجيبا للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت، وتتبع الهوى المتقلب ؛ وحين تتعبد هواها ، وتخضع له ، وتجعله مصدر تصوراتها وأحكامها ومشاعرها وتحركاتها . وتقيمه إلها قاهرا لها ، مستوليا عليها ، تتلقى إشاراته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول . يرسم هذه الصورة ويعجب منها فى استنكار شديد :

« أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ؟ » ..

أفرأيته ؟ إنه كائن عجيب يستحق الفرجة والتعجيب ! وهو يستحق من الله أن يضله ، فلا يتداركه برحمة الهدى . فما أبقى فى قلبه مكانا للهدى وهو يتعبد هواه المريض !

« وأضله الله على علم » ..

على علم من الله باستحقاقه للضلالة . أو على علم منه بالحق ، لا يقوم لهواه ولا يصده عن اتخاذه إلها يطاع . وهذا يقتضى إضلال الله له والإملاء له فى عماه :

« وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة » ..

فانطمست فيه تلك النافذ التى يدخل منها النور ؛ وتلك المدارك التى يتسرب منها الهدى . وتعطلت فيه أدوات الإدراك بطاعة للهوى طاعته العبادة والتسليم .

---

(١) بحث يرجو المؤلف أن يقدمه إن شاء الله .

Marfat.com

« فمن يهديه من بعد الله ؟ » . .

والهدى هدى الله . وما من أحد يملك لأحد هدى أو ضلالة . فذلك من شأن الله ، الذى لا يشاركه فيه أحد ، حتى رسله المختارون .

« أفلا تذكرون ؟ » . .

ومن تذكر صحا وتنبه ، وتخلص من ربقة الهوى ، وعاد إلى النهج الثابت الواضح . الذى لا يضل سالكوه . .

« وَقَالُوا : مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ، وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلدَّهْرُ ، وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا : ٱئْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ : ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

« وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ * وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا ، ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * هَٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ ؟ * وَإِذَا قِيلَ : إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ، وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ، قُلْتُمْ : مَا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ ، إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ، وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * وَقِيلَ : ٱلْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ، وَمَأْوَاكُمُ ٱلنَّارُ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * ذَٰلِكُمْ بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ آيَاتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ، وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا ، فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا ، وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ .

Marfat.com

« فَلِلَّهِ الْحَمْدُ ، رَبِّ السَّمَاوَاتِ ، وَرَبِّ الْأَرْضِ ، رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » ٣٧

هذا المقطع الأخير من السورة يعرض مقولة المشركين عن الآخرة وعن البعث والحساب. ويرد عليها من واقع نشأتهم الذى لامجال لإنكاره ، وهو واقع قريب منهم . ثم يعرض مشهداً من مشاهد القيامة ، يرونه واقعاً بهم - وإن كان لم يحن بعد موعده - لأن التصوير القرآني يعرضه حيا شاخصاً كأنهم يرونه رأى العين من خلال الكلمات .

ثم تختم السورة بالحمد لله ، الواحد الربوبية فى السماوات وفى الأرض ولجميع العالمين فى السماوات والأرض . وتمجيد عظمته وكبريائه المتفردة فى السماوات والأرض ، لاترتفع أمامها هامة ، ولايتطاول إليها متطاول .. وهو العزيز الحكيم ..

***

« وقالوا : ماهى إلاحياتنا الدنيا نموت ونحيا ، ومايهلكنا إلا الدهر ، ومالهم بذلك من علم ، إن هم إلا يظنون . وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ماكان حجتهم إلا أن قالوا : ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . قل : الله يحييكم ثم يميتكم ، ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه .ولكن أكثر الناس لايعلمون » ..

هكذا كانوا ينظرون تلك النظرة القصيرة .الحياة فى نظرهم هى هذا الشوط الذى يرونه فى الدنيا رأى العين . جيل يموت وجيل يحيا ؛ وفى ظاهر الأمر لاتمتد إليهم يد بالموت ،إنما هى الأيام تمضى ، والدهر ينطوى ، فإذا هم أموات ؛ فالدهر إذن هو الذى ينهى آجالهم ، ويلحق بأجسامهم الموت فيموتون !

وهى نظرة سطحية لاتتجاوز المظاهر ، ولاتبحث عماوراءها من أسرار . وإلافمن أين جاءت إليهم الحياة ؛ وإذا جاءت فمن ذا يذهب بها عنهم ؟ والموت لاينال الأجسام وفق نظام محدد وعدد من الأيام معين ، حتى يظنوا أن مرور الأيام هو الذى يسلبهم الحياة . فالأطفال يموتون كالشيوخ والأصحاء يموتون كالمرضى . والأقوياء يموتون كالضعاف . ولايصلح الدهر إذن تفسيرا للموت عند من ينظر إلى الأمر نظرة فاحصة ، ويحاول أن يعرف ، وأن يدرك حقيقة الأسباب .

لهذا يقول الله عنهم بحق :

Marfat.com

Marfat.com

« ومالهم بذلك من علم . إن هم إلا يظنون » :

يظنون ظنا غامضا واهيا ، لا يقوم على تدبر ، ولا يستند إلى علم ، ولا يدل على إدراك لحقائق الأمور . ولا ينظرون إلى ماوراء ظاهرتى الحياة والموت من سر يشهد بإرادة أخرى غير إرادة الإنسان ، وبسبب آخر غير مرور الأيام .

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ، ما كان حجتهم إلا أن قالوا : ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » . .

وهذه كتلك تدل على نظرة سطحية لا تدرك نواميس الخلق ، وحكمة الله فيها ، وسر الحياة والموت الكامن وراءها ، المتعلق بتلك الحكمة الإلهية العميقة . فالناس يحيون فى هذه الأرض ليعطوا فرصة للعمل وليبتليهم الله فيما مكنهم فيه . ثم يموتون حتى يحين موعد الحساب الذى أجله الله ، فيحاسبوا على ماعملوا ، وتتبين نتيجة الابتلاء فى فترة الحياة . ومن ثم فهم لا يعودون إذا ماتوا . فليست هنالك حكمة تقتضى عودتهم قبل اليوم المعلوم . وهم لا يعودون لأن فريقا من البشر يقترحون هذا . فاقتراحات البشر لا تتغير من أجلها النواميس الكبرى التى قام على أساسها الوجود ! ومن ثم فلا مجال لهذا الاقتراح الساذج الذى كانوا يواجهون به الآيات البينات : « ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » !

ولماذا يأتى الله بآبائهم قبل الموعد الذى قدره وفق حكمته العليا ؟ ألكى يقتنعوا بقدرة الله على إحياء الموتى ؟ ياعجبا ! أليس الله ينشىء الحياة أمام أعينهم إنشاء فى كل لحظة ، وفق سنة إنشاء الحياة ؟

« قل الله يحييكم ، ثم يميتكم ، ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه » . .

هذه هى المعجزة التى يريدون أن يشهدوها فى آبائهم . هاهى ذى تقع أمام أعينهم . بعينها وبذاتها . والله هو الذى يحيى . ثم هو الذى يميت . فلا عجب إذن فى أن يحيى الناس ويجمعهم إلى يوم القيامة ، ولا سبب يدعو إلى الريب فى هذا الأمر ، الذى يشهدون نظائره فيما بين أيديهم :

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . .

ويعقب على هذه الحقيقة الماثلة بالأصل الكلى الذى ترجع إليه :

« ولله ملك السماوات والأرض » . .

فهو المهيمن على كل مافى الملك . وهو صانع كل شىء فيه . وهو القادر على الإنشاء والإعادة لكل مافيه وكل من فيه .

* * *

ثم يعرض عليهم مشهدا من هذا اليوم الذى يشكون فيه :

« ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون . وترى كل أمة جاثية . كل أمة تدعى إلى كتابها . اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق . إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » . .

إنه يعجل لهم فى الآية الأولى عاقبة المبطلين . فهم الخاسرون فى هذا اليوم الذى يشكون فيه . ثم ننظر من خلال الكلمات فإذا ساحة العرض الهائلة ، وقد تجمعت فيها الأجيال الحاشدة التى عمرت هذا الكوكب فى عمره الطويل القصير ! وقد جثوا على الركب متميزين أمة أمة . فى ارتقاب الحساب المرهوب . . وهو مشهد مرهوب بزحامه الهائل يوم تتجمع الأجيال كلها فى صعيد واحد . ومرهوب بهيئته والكل جاثون على الركب . ومرهوب بما وراءه من حساب . ومرهوب قبل كل شىء بالوقفة أمام الجبار القاهر ، والمنعم المتفضل ، الذى لم تشكر أنعمه ولم تعرف أفضاله من أكثر هؤلاء الواقفين !

ثم يقال للجموع الجاثية المتطلعة إلى كل لحظة بريق جاف ونفس مخنوق . يقال لها :

« اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق . إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » . . فيعلمون أن لا شىء سينسى أو يضيع ! وكيف وكل شىء مكتوب . وعلم الله لا يند عنه شىء ولا يغيب ؟ !

« ثم تنقسم الحشود الحاشدة والأمم المختلفة ، على مدى الأجيال واختلاف الأجناس فريقين اثنين . فريقين اثنين يجمعان كل هذه الحشود : الذين آمنوا . والذين كفروا . فهاتان هما الرايتان الوحيدتان عند الله وهذان هما الحزبان : حزب الله . وحزب الشيطان . وما عدا هذا من الملل والنحل والأجناس والأمم فإليهما يعود :

«فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فيدخلهم ربهم فى رحمته . ذلك هو الفوز المبين» . .

وقد استراحوا من طول الارتقاب ، ومن القلق والاضطراب . . والنص ينهى أمرهم فى سرعة وفى بساطة ، ليلقى هذا الظل المستطاب .

ثم نلقى بأبصارنا ــ من خلال الكلمات ــ إلى الفريق الآخر . فماذا نحن واجدون ؟ إنه التأنيب الطويل ، والتشهير المخجل ، والتذكير بشر الأقوال والأعمال :

« وأما الذين كفروا . أفلم تكن آياتى تتلى عليكم ، فاستكبرتم ، وكنتم قوما مجرمين ؟ وإذا قيل : إن وعد الله حق والساعة لاريب فيها . قلتم : ما ندرى ما الساعة ! إن نظن إلا ظنا ، وما نحن بمستيقنين » !

Marfat.com

فالآن كيف ترون الحال ؟ ! وكيف تذوقون اليقين ؟ !

ويتركهم السياق لحظة ليعلن على الملأ شيئا مما يقع لهؤلاء المنكوبين :

« وبدا لهم سيئات ما عملوا ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » ..

ثم يعود إليهم بالترذيل والتأنيب وإعلان الإهمال والتحقير ؛ والمصير الأليم :

«وقيل : اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا . ومأواكم النار . ومالكم من ناصرين ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا ، وغرتكم الحياة الدنيا » ..

ثم يسدل الستار عليهم بإعلان مصيرهم الأخير. وهم متروكون فى جهنم لايخرجون ولا يطلب إليهم اعتذار ولا عتاب :

« فاليوم لا يخرجون منها ، ولاهم يستعتبون » ..

وكأننا نسمع مع إيقاع هذه الكلمات صرير الأبواب وهى توصد إيصادها الأخير ! وقد انتهى المشهد ، فلم يعد فيه بعد ذلك تغيير ولا تحوير !

* * *

هنا ينطلق صوت التحميد لله والتمجيد الانطلاقة الأخيرة فى السورة بعد هذا المشهد المؤثر العميق :

« فلله الحمد . رب السماوات . ورب الأرض . رب العالمين . وله الكبرياء فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » ..

ينطلق صوت التحميد . يعلن وحدة الربوبية فى هذا الوجود. سمائه وأرضه . وإنسه وجنه. وطيره ووحشه . وسائر مافيه ومن فيه . فكلهم فى رعاية رب واحد يدبرهم ويرعاهم وله الحمد على الرعاية والتدبير .

وينطلق صوت التمجيد . يعلن الكبرياء المطلقة لله فى هذا الوجود . حيث يتصاغر كل كبير . وينحنى كل جبار . ويستسلم كل متمرد . للكبرياء المطلقة فى هذا الوجود .

ومع الكبرياء والربوبية العزة القادرة والحكمة المدبرة .. « وهو العزيز الحكيم » .. والحمد لله رب العالمين .

انتهى الجزء الخامس والعشرون.
ويليه الجزء السادس والعشرون
مبدوءا بسورة الأحقاف

Marfat.com

Marfat.com

في ظلال القرآن

الجزء السادس والعشرون

بقلم

سيد قطب

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة الأحقاف ومحمد والفتح والحجرات وقٓ

Marfat.com

سورة الأحقاف مكية
وآياتها ٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

« حم ① تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ، والذين كفروا عما أنذروا معرضون .

« قل : أرأيتم ما تدعون من دون الله ؟ أروني ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك في السماوات ؟ ائتوني بكتاب من قبل هذا ، أو أثارة من علم ، إن كنتم صادقين * ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون ؟ * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء ، وكانوا بعبادتهم كافرين ؟ .

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم : هذا سحر مبين * أم يقولون : افتراه ؟ قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً ، هو أعلم بما تفيضون فيه ، كفى به شهيداً بيني وبينكم ، وهو الغفور الرحيم * قل : ما كنت بدعاً من الرسل ، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ، إن أتبع إلا ما يوحى إلي ؛ وما أنا إلا نذير مبين * قل : أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ، فآمن واستكبرتم ؟ إن الله

لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : لَوْ كَانَ خَيْراً مَاسَبَقُونَا
إِلَيْهِ . وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ : هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ * وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَاماً
وَرَحْمَةً ، وَهَٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيّاً ، لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ .
« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا : رَبُّنَا اللهُ ، ثُمَّ اسْتَقَامُوا ، فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ *
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ⑭

هذه السورة المكية تعالج قضية العقيدة .. قضية الإيمان بوحدانية الله وربوبيته المطلقة لهذا الوجود ومن فيه ومافيه . والإيمان بالوحى والرسالة وأن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسول سبقته الرسل ، أوحى إليه بالقرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب. والإيمان بالبعث وماوراءه من حساب وجزاء على ما كان فى الحياة الدنيا من عمل وكسب ومن إحسان وإساءة .

هذه الأسس الأولى التى يقيم عليها الإسلام بناءه كله . ومن ثم عالجها القرآن فى كل سوره المكية علاجا أساسيا ، وظل يتكىء عليها كذلك فى سوره المدنية كلما هم بتوجيه أوتشريع للحياة بعد قيام الجماعة المسلمة والدولة الإسلامية. ذلك أن طبيعة هذا الدين تجعل قضية الإيمان بوحدانية الله سبحانه ، وبعثة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والإيمان بالآخرة ومافيها من جزاء.. هى المحور الذى تدور عليه آدابه ونظمه وشرائعه كلها ، وترتبط به أوثق ارتباط ؛ فتبقى حية حارة تنبعث من تأثير دائم بذلك الإيمان .

وتسلك السورة بهذه القضية إلى القلوب كل سبيل ؛ وتوقع فيها على كل وتر ؛ وتعرضها فى مجالات شتى ، مصحوبة بمؤثرات كونية ونفسية وتاريخية . كما أنها تجعلها قضية الوجود كله ـ لاقضية البشر وحدهم ـ فتذكر طرفا من قصة الجن مع هذا القرآن كذكرها لموقف بعض بنى إسرائيل منه . وتقيم من الفطرة الصادقة شاهدا كما تقيم من بعض بنى إسرائيل شاهدا . سواء بسواء .

ثم هى تطوف بتلك القلوب فى آفاق السماوات والأرض ، وفى مشاهد القيامة فى الآخرة . كما تطوف بهم فى مصرع قوم هود وفى مصارع القرى حول مكة. وتجعل من السماوات والأرض كتابا ينطق بالحق كما ينطق هذا القرآن بالحق على السواء.

***

Marfat.com

ويمضى سياق السورة فى أربعة أشواط مترابطة ، كأنها شوط واحد ذو أربعة مقاطع .

يبدأ الشوط الأول وتبدأ السورة معه بالحرفين : حا . ميم . كما بدأت السور الست قبلها . تليها الإشارة إلى كتاب القرآن والوحى به من عند الله : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » . . وعقبها مباشرة الإشارة إلى كتاب الكون ، وقيامه على الحق ، وعلى التقدير والتدبير : «ماخلقنا السماوات والأرض ومابينهما إلا بالحق وأجل مسمى » . . فيتوافى كتاب القرآن المتلو وكتاب الكون المنظور على الحق والتقدير : «والذين كفروا عما أنذروا معرضون»

وبعد هذا الافتتاح القوى الجامع يأخذ فى عرض قضية العقيدة مبتدئا بإنكار ما كان عليه القوم من الشرك الذى لايقوم على أساس من واقع الكون ، ولايستند إلى حق من القول ، ولامأثور من العلم : « قل : أرأيتم ماتدعون من دون الله ؟ أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك فى السماوات ؟ ائتونى بكتاب من قبل هذا أوأثارة من علم إن كنتم صادقين » . . ويندد بضلال من يدعو من دون الله من لايسمع لعابده ولايستجيب . ثم هو يخاصمه يوم القيامة ويبرأ من عبادته فى اليوم العصيب !

ويعرض بعد هذا سوء استقبالهم للحق الذى جاءهم به محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقولهم له : « هذا سحر مبين » . . وترقيهم فى الادعاء حتى ليزعمون أنه افتراه . ويلقن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يرد عليهم الرد اللائق بالنبوة ، النابع من مخافة الله وتقواه ، وتفويض الأمر كله إليه فى الدنيا والآخرة : « قل : إن افتريته فلاتملكون لى من الله شيئا . هوأعلم بما تفيضون فيه . كفى به شهيدا بينى وبينكم ، وهو الغفور الرحيم . قل : ما كنت بدعا من الرسل ، وما أدرى مايفعل بى ولابكم ، إن أتبع إلامايوحى إلى، وماأنا إلانذير مبين» . . ويحاجهم بموقف بعض من اهتدى للحق من بنى إسرائيل حينما رأى فى القرآن مصداق مايعرف من كتاب موسى ـ عليه السلام ـ : « فآمن واستكبرتم » . . ويندد بظلمهم بالإصرار على التكذيب بعد شهادة أهل الكتاب العارفين : « إن الله لايهدى القوم الظالمين » . .

ويستطرد فى عرض تعلاتهم ومعاذيرهم الواهية عن هذا الإصرار ، وهم يقولون عن المؤمنين : « لوكان خيرا ماسبقونا إليه » . . ويكشف عن علة هذا الموقف المنكر : « وإذ لم يهتدوا به فسيقولون : هذا إفك قديم ! » .

ويشير إلى كتاب موسى من قبله ، وإلى تصديق هذا القرآن له ، وإلى وظيفته ومهمته : « لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » . .

Marfat.com

Marfat.com

ويختم هذا الشوط بتفصيل هذه البشرى لمن صدق بالله واستقام على الطريق : « إن الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون . أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون » ..

ويعرض الشوط الثانى نموذجين للفطرة البشرية : المستقيمة والمنحرفة ، فى مواجهة قضية العقيدة . ويبدأ معهما من النشأة الأولى ، وهما فى أحضان والديهم . ويتابع تصرفهما عند بلوغ الرشد والتبعة والاختيار . فأما الأول فشاعر بنعمة الله بار بوالديه ، راغب فى الوفاء بواجب الشكر ، تائب ضارع مستسلم منيب : « أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ماعملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة،وعد الصدق الذى كانوا يوعدون » .. وأما الآخر فعاق لوالديه كما هو عاق لربه ، وهو جاحد منكر للآخرة ، وهما به ضيقان متعبان: « أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ، إنهم كانوا خاسرين » ..

ويختم هذا الشوط بمشهد سريع من مشاهد القيامة يعرض فيه مصير هذا الفريق :«ويوم يعرض الذين كفروا على النار . أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون » ..

والشوط الثالث يرجع بهم إلى مصرع عاد،عند ما كذبوا بالنذر. ويعرض من القصة حلقة الريح العقيم ، التى توقعوا فيها الرى والحياة ؛ فإذا بها تحمل إليهم الهلاك والدمار ، والعذاب الذى استعجلوا به وطلبوه : « فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا : هذا عارض ممطرنا ، بل هو ماااستعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شىء بأمر ربها ، فأصبحوا لايرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزى القوم المجرمين » .. ويلمس قلوبهم بهذا المصرع ، وهو يذكرهم بأن عادا كانوا أشد منهم قوة وأكثر ثروة : « ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولاأبصارهم ولاأفئدتهم من شىء. إذ كانوا يجحدون بآيات الله ، وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون » .. ويذكرهم فى نهاية الشوط مصارع ماحولهم من القرى ، وعجز آلهتهم الدعاة عن نصرتهم ، وظهور إفكهم وافترائهم . لعلهم يتأثرون ويرجعون ..

ويتناول الشوط الرابع قصة نفر من الجن معهذا القرآن ، حين صرفهم الله لاستماعه ، فلم يملكوا أنفسهم من التأثر والاستجابة ، والشهادة له بأنه الحق : « مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم » .. وعادوا ينذرون قومهم ويحذرونهم ويدعونهم إلى الإيمان:

« ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب أليم . ومن لايجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ، وليس له من دونه أولياء، أولئك فى ضلال مبين » . .

وتتضمن مقالة النفر من الجن الإشارة إلى كتاب الكون المفتوح الناطق بقدرة الله على البدء والإعادة : « أولم يروا أن الله الذى خلق السماوات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ؟ بلى إنه على كل شىء قدير » . .

وهنا يلمس قلوبهم بمشهد الذين كفروا يوم يعرضون على النار، فيقرون بما كانوا ينكرون، ولكن حيث لامجال لإقرار أويقين !

وتختم السورة بتوجيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الصبر وعدم الاستعجال لهم بالعذاب، فإنما هو أجل قصير يمهلونه ، ثم يأتيهم العذاب والهلاك : « فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل ولاتستعجل لهم ، كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار . بلاغ . فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ؟ » . .

والآن نأخذ فى تفصيل هذه الأشواط . .

* * *

« حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . ماخلقنا السماوات والأرض ومابينهما إلا بالحق وأجل مسمى ، والذين كفروا عما أنذروا معرضون » . .

هذا هو الإيقاع الأول فى مطلع السورة ؛ وهو يلمس العلاقة بين الأحرف العربية التى يتداولها كلامهم ، والكتاب المصوغ من جنس هذه الأحرف على غير مثال من كلام البشر ، وشهادة هذه الظاهرة بإنه تنزيل من الله العزيز الحكيم . كما يلمس العلاقة بين كتاب الله المتلو المنزل من عنده ، وكتاب الله المنظور المصنوع بيده . كتاب هذا الكون الذى تراه العيون ، وتقرؤه القلوب .

وكلا الكتابين قائم على الحق وعلى التدبير . فتنزيل الكتاب «من الله العزيز الحكيم » فهو مظهر للقدرة وموضع للحكمة . وخلق السماوات والأرض ومابينهما متلبس بالحق : « ماخلقنا السماوات والأرض ومابينهما إلا بالحق » . . وبالتقدير الدقيق: « وأجل مسمى » تتحقق فيه حكمة الله من خلقه ، ويتم فيه ماقدره له من غاية .

وكلا الكتابين مفتوح ، معروض على الأسماع والأنظار ، ينطق بقدرة الله، ويشهد بحكمته،

Marfat.com

ويشى بتدبيره وتقديره ، ويدل كتاب الكون على صدق الكتاب المتلو ، وما فيه من إنذار وتبشير .. « والذين كفروا عما أنذروا معرضون » .. وهذا هو العجب المستنكر فى ظل تلك الإشارة إلى الكتاب المنزل والكتاب المنظور !

والكتاب المنزل المتلو يقرر أن الله واحد لايتعدد ، وأنه رب كل شىء ، بما أنه خالق كل شىء ، ومدبر كل شىء ، ومقدر كل شىء . وكتاب الكون الحى ينطق بهذه الحقيقة ذاتها ؛ فنظامه وتنسيقه وتناسقه كلها تشهد بوحدانية الصانع المقدر المدبر ، الذى يصنع على علم ، ويبدع على معرفة ، وطابع الصنعة واحد فى كل مايصنع ومايبدع . فأنى يتخذ الناس آلهة من دونه ؟ وماذا صنع هؤلاء الآلهة وماذا أبدعوا ؟وهذا هو الكون قائما معروضا على الأنظار والقلوب ؛ فماذا لهم فيه ؟ وأى قسم من أقسامه أنشأوه ؟

« قل : أرأيتم ماتدعون من دون الله ؟ أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك فى السماوات ؟ ائتونى بكتاب من قبل هذا ، أوأثارة من علم ، إن كنتم صادقين » . .

وهذا تلقين من الله سبحانه لرسوله ، صلى الله عليه وسلم ، ليواجه القوم بشهادة كتاب الكون المفتوح . الكتاب الذى لايقبل الجدل والمغالطة ـ إلا مراء ومحالا ـ والذى يخاطب الفطرة بمنطقها ، بما بينه وبين الفطرة من صلة ذاتية خفية ، يصعب التغلب عليها ومغالطتها .

« أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ » . .

ولن يملك إنسان أن يزعم أن تلك المعبودات ـ سواء كانت حجرا أم شجرا أم جنا أم ملائكة أم غيرها ـ قد خلقت من الأرض شيئا ، أو خلقت فى الأرض شيئا . إن منطق الفطرة . منطق الواقع . يصيح فى وجه أى ادعاء من هذا القبيل .

« أم لهم شرك فى السماوات ؟ » . .

ولن يملك إنسان كذلك أن يزعم أن لتلك المعبودات شركة فى خلق السماوات أو فى ملكيتها . ونظرة إلى السماوات توقع فى القلب الإحساس بعظمة الخالق ، والشعور بوحدانيته ؛ وتنفض عنه الانحرافات والترهات . والله منزل هذا القرآن يعلم أثر النظر فى الكون على قلوب البشر ؛ ومن ثم يوجههم إلى كتاب الكون ليتدبروه ويستشهدوه ويستمعوا إلى إيقاعاته المباشرة فى القلوب .

ثم يأخذ الطريق على ما قد يطرأ على بعض النفوس من انحراف بعيد . فقد يصل بها هذا

Marfat.com

الانحراف إلى أن تزعم هذا الزعم أو ذاك بلا حجة ولا دليل . يأخذ عليها الطريق ، فيطالبها بالحجة والدليل ؛ ويعلمها فى الوقت ذاته طريقة الاستدلال الصحيح ؛ ويأخذها بالمنهج السليم فى النظر والحكم والتقدير :

« ائتونى بكتاب من قبل هذا ، أو أثارة من علم ، إن كنتم صادقين » . .

فإما كتاب من عند الله صادق . وإما بقية من علم مستيقن ثابت . وكل الكتب المنزلة قبل القرآن تشهد بوحدانية الخالق المبدع المدبر المقدر ؛ وليس فيها من كتاب يقر خرافة الآلهة المتعددة ، أو يقول بأن لها فى الأرض خلقا أو فى السماوات شركا ! وليس هنالك من علم ثابت يؤيد مثل ذلك الزعم المتهافت .

وهكذا يواجههم القرآن بشهادة هذا الكون . وهى شهادة حاسمة جازمة . ويأخذ عليهم طريق الادعاء بلا بينة . ويعلمهم منهج البحث الصحيح . فى آية واحدة قليلة الكلمات، واسعة المدى ، قوية الإيقاع ، حاسمة الدليل .

ثم يأخذ بهم إلى نظرة موضوعية فى حقيقة هذه الآلهة المدعاة ، منددا بضلالهم فى اتخاذها ، وهى لاتستجيب لهم ، ولاتشعر بدعائهم فى الدنيا ؛ ثم هى تخاصمهم يوم القيامة ، وتنكر دعواهم فى عبادتها :

« ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لايستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون ؟ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » . .

وقد كان بعضهم يتخذ الأصنام آلهة . إما لذاتها وإما باعتبارها تماثيل للملائكة . وبعضهم يتخذ الأشجار ،وبعضهم يتخذ الملائكة مباشرة أوالشيطان . . وكلها لا تستجيب لداعيها أصلا . أولاتستجيب له استجابة نافعة . فالأحجار والأشجار لاتستجيب . والملائكة لايستجيبون للمشركين .والشياطين لاتستجيب إلابالوسوسة والإضلال . ثم إذاكان يوم القيامة وحشر الناس إلى ربهم ، تبرأ هؤلاء وهؤلاءمن عبادهم الضالين . حتى الشيطان كما جاء فى سورة أخرى : « وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان ، إلاأن دعوتكم فاستجبتم لى. فلاتلومونى ولوموا أنفسكم، ماأنا بمصرخكم وماأنتم بمصرخى . إنى كفرت بما أشركتمون من قبل . إن الظالمين لهم عذاب أليم » . .

وهكذا يقفهم القرآن وجها لوجه أمام حقيقة دعواهم ومآلها فى الدنيا والآخرة . بعدماوقفهم

Marfat.com

Marfat.com

أمام الحقيقة الكونية التى تنكر هذه الدعوى وترفضها . وفى كلتا الحالتين تبرز الحقيقة الثابتة . حقيقة الوحدانية التى ينطق بها كتاب الوجود ، وتوجبها مصلحة المشركين أنفسهم ، ويلزمهم بها النظر إلى مآلهم فى الدنيا والآخرة .

وإذا كان القرآن يندد بضلال من يدعون من دون الله آلهة لا يستجيبون لهم إلى يوم القيامة ؟ وكان هذا يعنى المعبودات التاريخية التى عرفتها الجماعات البشرية عند نزول هذا القرآن ، فإن النص أوسع مدلولا وأطول أمدا من ذلك الواقع التاريخى . فمن أضل ممن يدعو من دون الله أحدا فى أى زمان وفى أى مكان ؟ وكل أحد ـ كائنا من كان ـ لا يستجيب بشىء لمن يدعوه ، ولا يملك أن يستجيب . وليس هناك إلا الله فعال لما يريد .. إن الشرك ليس مقصورا على صوره الساذجة التى عرفها المشركون القدامى . فكم من مشركين يشركون مع الله ذوى سلطان ، أو ذوى جاه ، أو ذوى مال ؛ ويرجون فيهم ، ويتوجهون إليهم بالدعاء . وكلهم أعجز من أن يستجيبوا لدعائهم استجابة حقيقية . وكلهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا . ودعاؤهم شرك . والرجاء فيهم شرك . والخوف منهم شرك . ولكنه شرك خفى يزاوله الكثيرون ، وهم لا يشعرون .

* * *

ثم يمضى السياق يتحدث عن موقفهم من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما جاءهم به من الحق . بعد ما تحدث عن واقعهم وتهافت عقيدة الشرك . ويقرر قضية الوحى كما قرر قضية التوحيد :

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم : هذا سحر مبين . أم يقولون : افتراه ؟ قل : إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا . هو أعلم بما تفيضون فيه . كفى به شهيدا بينى وبينكم ، وهو الغفور الرحيم . قل : ما كنت بدعا من الرسل ، وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم . إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، وما أنا إلا نذير مبين . قل : أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله ، فآمن واستكبرتم ؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين . وقال الذين كفروا للذين آمنوا : لو كان خيرا ما سبقونا إليه . وإذ لم يهتدوا به فسيقولون : هذا إفك قديم . ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا ، لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » . .

يبدأ الحديث عن قضية الوحى بترذيل مقولتهم عنه ، واستنكار استقبالهم له ، وهو آيات

Marfat.com

« بينات » لا لبس فيها ولا غموض ، ولا شبهة فيها ولا ريبة . ثم إنه « الحق » الذى لا مرية فيه. وهم يقولون لتلك الآيات ولهذا الحق « هذا سحر مبين » .. وشتان بين الحق والسحر. وهما لا يختلطان ولا يشتبهان .

وهكذا يبدأ الهجوم منذ البدء على تقولهم الظالم وادعائهم القبيح ، الذى لا يستند إلى شبهة ولا ظل من دليل .

ثم يرتقى فى إنكار مقولتهم الأخرى .. « افتراه » .. فلا يسوقها فى صيغة الخبر بل فى صيغة الاستفهام . كأن هذا القول لا يمكن أن يقال ، وبعيد أن يقال :

« أم يقولون افتراه ؟ » . .

فيبلغ بهم التطاول أن يقولوا هذه المقولة التى لا تخطر على بال ؟ !

ويلقن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يرد عليهم بأدب النبوة ، الذى ينم عن حقيقة شعوره بربه ، وشعوره بوظيفته ، وشعوره بحقيقة القوى والقيم فى هذا الوجود كله :

«قل : إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا . هو أعلم بما تفيضون فيه . كفى به شهيدا بينى وبينكم . وهو الغفور الرحيم » . .

قل لهم : كيف أفتريه ؟ ولحساب من أفتريه ؟ ولأى هدف أفتريه ؟ أأفتريه لتؤمنوا بى وتتبعونى ؟ ولكن : « إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا » .. وهو آخذنى بما افتريت. فماذا يجدينى أن تكونوا معي وأن تتبعونى . وأنتم أعجز من أن تحمونى من الله حين يأخذنى بافترائى ، وأضعف من أن تنصرونى ؟ !

وهو الرد اللائق بنبي ، يتلقى من ربه ، ولا يرى فى الوجود غيره ، ولا يعرف قوة غير قوته، وهو رد كذلك منطق يدركه المخاطبون به لو حكموا عقولهم فيه . يجيبهم به ، ثم يترك أمرهم لله: « هو أعلم بما تفيضون فيه » .. من القول والفعل . وهو يجزيكم بما يعلمه من أمركم . « كفى به شهيدا بينى وبينكم » . . يشهد ويقضى ، وفى شهادته الكفاية وفى قضائه . « وهو الغفور الرحيم » .. وقد يرأف بكم ، فيهديكم رحمة منه ، ويغفر لكم ما كان من ضلالكم قبل الهدى والإيمان ..

رد فيه تحذير وترهيب . وفيه إطماع وتحضيض . يأخذ على القلب مسالكه ، ويلمس أوتاره. ويشعر السامعين أن الأمر أجل من مقولاتهم الهازلة ، وادعاءاتهم العابثة . وأنه فى ضمير الداعية أكبر وأعمق مما يشعرون .

Marfat.com

ويمضى معهم فى مناقشة القضية ـ قضية الوحى ـ من زاوية أخرى واقعية مشهودة . فماذا ينكرون من أمر الوحى والرسالة؟ ولم يعجلون بتهمة السحر أوتهمة الافتراء؟ وليس فى الأمر غريب ولاعجيب :

« قل : ما كنت بدعا من الرسل .وماأدرى مايفعل بى ولا بكم .إنأتبع إلامايوحى إلى . وماأنا إلانذير مبين » ..

إنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليس أول رسول . فقد سبقته الرسل . وأمره كأمرهم.وما كان بدعا من الرسل . بشر يعلم اللهأنه أهل للرسالة فيوحى إليه ،فيصدع بما يؤمر . هذا هوجوهر الرسالةوطبيعتها .. والرسول حين يتصل قلبه لايسأل ربه دليلا ، ولايطلب لنفسه اختصاصا . إنما يمضى فى سبيله ، يبلغ رسالة ربه ، حسبما أوحى بها إليه : « وماأدرى مايفعل بى ولا بكم . إن أتبع إلامايوحىإلى » .. فهو لايمضى فى رسالته لأنه يعلم الغيب ؛ أولأنه يطلع على مايكون من شأنه وشأن قومه وشأن الرسالة التى يبشر بها . إنما هو يمضى وفق الإشارة وحسب التوجيه . واثقا بربه ، مستسلما لإرادته ، مطيعا لتوجيهه ، يضع خطاه حيث قادها الله . والغيب أمامه مجهول ، سره عند ربه . وهو لايتطلع إلى السر من وراء الستر لأن قلبه مطمئن . ولأن أدبه مع ربه ينهاه عن التطلع لغير مافتح له . فهو واقف أبدا عند حدوده وحدود وظيفته : « وما أنا إلانذير مبين » .

وإنه لأدب الواصلين ، وإنها لطمأنينة العارفين ، يتأسون فيها برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيمضون فى دعوتهم لله . لالأنهم يعرفون مآلها ، أويعلمون مستقبلها. أويملكون فيها قليلا أوكثيرا. ولكن لأن هذا واجبهم وكفى . ومايطلبون من ربهم برهانا فبرهانهم فىقلوبهم. ومايطلبون لأنفسهم خصوصية .لخصوصيتهم أنه اختارهم. ومايتجاوزون الخط الدقيق الذى خطه لهم ، ورسم لهم فيه مواقع أقدامهم على طول الطريق .

ثم يواجههم بشاهد قريب ، لشهادته قيمتها ، لأنه من أهل الكتاب ، الذين يعرفون طبيعة التنزيل :

« قل : أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله ، فآمن واستكبرتم ؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين » ..

وقد تكون هذه واقعة حال ، ويكون واحد أو أكثر من بنى إسرائيل ، عرف أنه

طبيعة هذا القرآن هى طبيعة الكتب المنزلة من عند الله ، بحكم معرفته لطبيعة التوراة . فآمن . وقد وردت روايات أنها نزلت فى عبد الله ابن سلام . لولا أن هذه السورة مكية وعبد الله ابن سلام إنما أسلم فى المدينة . وقد ورد كذلك أن هذه الآية مدنية توكيدا لنزولها فى شأن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ . كما ورد أنها مكية وأنها لم تنزل فيه .

وقد تكون إشارة إلى واقعة أخرى فى مكة نفسها . فقد آمن بعض أهل الكتاب على قلة فى العهد المكى . وكان لإيمانهم ، وهم أهل كتاب ، قيمته وحجيته فى وسط المشركين الأميين . ومن ثم نوه به القرآن فى مواضع متعددة ، وواجه به المشركين الذين كانوا يكذبون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

وهذا الأسلوب فى الجدل : « قل : أرأيتم إن كان من عند الله . . . الخ » يراد به زعزعة الإصرار والعناد فى نفوس أهل مكة ، وإثارة التخوف فى نفوسهم والتحرج من المضى فى التكذيب . مادام أن هذا القرآن يحتمل أن يكون من عند الله حقا كما يقول محمد . وفى هذه الحالة تكون العاقبة وخيمة . فأولى لهم أن يحتاطوا لهذا الفرض ، الذى قد يصح ، فيحل بهم كل ما ينذرهم به . ومن الأحوط إذن أن يتريثوا فى التكذيب ، وأن يتدبروا الأمر فى حرص وفى حذر ، قبل التعرض لتلك العاقبة الوخيمة . وبخاصة إذا أضيف إلى ذلك الاحتمال أن واحدا أو أكثر من أهل الكتاب يشهد بأن طبيعته من طبيعة الكتاب قبله ؛ ويتبع هذا التذوق بالإيمان . بينما هم الذين جاء القرآن لهم ، وبلغتهم ، وعلى لسان رجل منهم ، يستكبرون ويكفرون . . وهو ظلم بين وتجاوز للحق صارخ ، يستحق النقمة من الله وإحباط الأعمال : « إن الله لا يهدى القوم الظالمين » . .

ولقد سلك القرآن شتى السبل ، واتبع شتى الأساليب ، ليواجه شكوك القلب البشرى وانحرافاته وآفاته ؛ ويأخذ عليها المسالك ؛ ويعالجها بكل أسلوب . وفى أساليب القرآن المتنوعة زاد للدعوة والدعاة إلى هـذا الدين . . ومع اليقين الجازم بأن هذا القرآن من عند الله فقد استخدم أسلوب التشكيك لا أسلوب الجزم للغرض الذى أسلفنا . وهو واحد من أساليب الإقناع فى بعض الأحوال . .

وبعد ذلك يمضى فى استعراض مقولات المشركين عن هذا القرآن وعن هذا الدين ؛ فيحكى اعتذارهم عن التكذيب به والإعراض عنه ، اعتذار المستكبر المتعالى على المؤمنين :

Marfat.com

« وقال الذين كفروا للذين آمنوا : لوكان خيرا ماسبقونا إليه .وإذ لم يهتدوا به فسيقولون : هذا إفك قديم » . .

ولقد سارع إلى الإسلام وسبق إليه نفر من الفقراء والموالى فى أول الأمر . فكان هذا مغمزا فى نظر الكبراء المستكبرين . وراحوا يقولون : لوكان هذا الدين خيرا ما كان هؤلاء أعرف منابه ، ولا أسبق منا إليه . فنحن فى مكانتنا وسعة إدرا كنا وحسن تقديرنا ، أعرف بالخير من هؤلاء !

والأمر ليس كذلك . فما كان يمنعهم عنه أنهم يشكون فيه أو يجهلون الحق الذى يقوم عليه . والخير الذى يحتويه . إنما كان هو الكبر عن الإذعان لمحمد — كما كانوا يقولون — وفقدان المراكز الاجتماعية ، والمنافع الاقتصادية ، كما كان هو الاعتزاز الأجوف بالآباء والأجداد وما كان عليه الآباء والأجداد . فأما الذين سارعوا إلى الإسلام وسبقوا إليه فلم تكن فى نفوسهم تلك الحواجز التى منعت الكبراء والأشراف .

إنه الهوى يتعاظم أهل الكبر أن يذعنوا للحق ،وأن يستمعوا لصوت الفطرة ، وأن يسلموا بالحجة . وهو الذى يملى عليهم العناد والإعراض ، واختلاق المعاذير ،والادعاء بالباطل على الحق وأهله . فهم لايسلمون أبدا أنهم مخطئون ؛ وهم يجعلون من ذواتهم محورا للحياة كلها يدورون حوله ويريدون أن يديروا حوله الحياة :

« وإذ لم يهتدوا به فسيقولون : هذا إفك قديم » . .

طبعا ! فلابد من عيب فى الحق ماداموا لم يهتدوا به ، ولم يذعنوا له . لابد من عيب فى الحق لأنهم هم لايجوز أن يخطئوا . وهم فى نظر أنفسهم ،أوفيما يريدون أن يوحوا به للجماهير ، مقدسون معصومون لايخطئون !

ويختم هذه الجولة فى قضية الوحى والرسالة بالإشارة إلى كتاب موسى ، وتصديق هذا القرآن له — كما سبقت الإشارة فى شهادة الشاهد من بنى إسرائيل :

« ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة . وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا ، لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » . .

وقد كرر القرآن الإشارة إلى الصلة بين القرآن والكتب قبله ، وبخاصة كتاب موسى ، باعتبار أن كتاب عيسى تكملة وامتداد له . وأصل التشريع والعقيدة فى التوراة . ومن ثم سمى

Marfat.com

كتاب موسى « إماما » ووصفه بأنه رحمة . وكل رسالة السماء رحمة للأرض ومن فى الأرض، بكل معانى الرحمة فى الدنيا وفى الآخرة .. « وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا » .. مصدق للأصل الأول الذى تقوم عليه الديانات كلها ؛ وللمنهج الإلهى الذى تسلكه الديانات جميعها ؛ وللاتجاه الأصيل الذى توجه البشرية إليه ، لتتصل بربها الواحد الكريم .

والإشارة إلى عروبته للامتنان على العرب ، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم ، ورعايته لهم ، وعنايته بهم ؛ ومظهرها اختيارهم لهذه الرسالة ، واختيار لغتهم لتتضمن هذا القرآن العظيم .

ثم بيان لطبيعة الرسالة ، ووظيفتها :

« لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » . .

* * *

وفى نهاية هذا الشوط الأول يصور لهم جزاء المحسنين ، ويفسر لهم هذه البشرى التى يحملها إليهم القرآن الكريم ، بشرطها ، وهو الاعتراف بربوبية الله وحده والاستقامة على هذا الاعتقاد ومقتضياته :

« إن الذين قالوا : ربنا الله . ثم استقاموا . فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها ؛ جزاء بما كانوا يعملون » ..

وقولة : « ربنا الله » . . ليست كلمة تقال . بل إنها ليست مجرد عقيدة فى الضمير . إنما هى منهج كامل للحياة ، يشمل كل نشاط فيها وكل اتجاه ، وكل حركة وكل خالجة ؛ ويقيم ميزانا للتفكير والشعور ، وللناس والأشياء ، وللأعمال والأحداث ، وللروابط والوشائج فى كل هذا الوجود .

« ربنا الله » فله العبادة ، وإليه الاتجاه . ومنه الخشية وعليه الاعتماد .

« ربنا الله » فلا حساب لأحد ولا لشىء سواه ، ولا خوف ولا تطلع لمن عداه .

« ربنا الله » فكل نشاط وكل تفكير وكل تقدير متجه إليه ، منظور فيه إلى رضاه .

« ربنا الله » فلا احتكام إلا إليه ، ولا سلطان إلا لشريعته ، ولا اهتداء إلا بهداه

« ربنا الله » فكل من فى الوجود وكل ما فى الوجود مرتبط بنا ونحن نلتقى به فى صلتنا بالله .

Marfat.com

Marfat.com

« ربنا الله » . . . منهج كامل على هذا النحو ، لا كلمة تلفظها الشفاه ، ولا عقيدة سلبية بعيدة عن واقعيات الحياة .

« ثم استقاموا » .. وهذه أخرى . فالاستقامة والاطراد والثبات على هذا المنهج درجة بعد اتخاذ المنهج . استقامة النفس وطمأنينة القلب . استقامة المشاعر والخوالج ، فلا تتأرجح ولا تضطرب ولا تشك ولا ترتاب بفعل الجواذب والدوافع والمؤثرات . وهى عنيفة ومتنوعة وكثيرة . واستقامة العمل والسلوك على المنهج المختار . وفى الطريق مزالق وأشواك ومعوقات ؛ وفيه هواتف بالانحراف من هنا ومن هناك !

« ربنا الله » .. منهج .. والاستقامة عليه درجة بعد معرفته واختياره . والذين يقسم الله لهم المعرفة والاستقامة هم الصفوة المختارة . وهؤلاء « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .. وفيم الخوف وفيم الحزن .. والمنهج واصل . والاستقامة عليه ضمان الوصول ؟

« أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون » ..

وتوضح كلمة « يعملون » معنى « ربنا الله » ، ومعنى الاستقامة على هذا المنهج فى الحياة . فهى تشير إلى أن هناك عملا كان الخلود فى الجنة جزاءه . عملا منبعثا من ذلك المنهج : « ربنا الله » ومن الاستقامة عليه والاطراد والثبات .

ومن ثم ندرك أن الكلمات الاعتقادية فى هذا الدين ليست مجرد ألفاظ تقال باللسان . فشهادة أن لا إله إلا الله ليست عبارة ولكنها منهج . فإذا ظلت مجرد عبارة فليست هى « ركن » الإسلام المطلوب المعدود فى أركان الإسلام !

ومن ثم ندرك القيمة الحقيقية لمثل هذه الشهادة التى ينطق بها اليوم ملايين ؛ ولكنها لا تتعدى شفاههم ، ولا يترتب عليها أثر فى حياتهم . وهم يحيون على منهج جاهلى شبه وثنى ، بينما شفاههم تنطق بمثل هذه العبارة . شفاههم الجوفاء !

إن « لا إله إلا الله » .. أو « ربنا الله » .. منهج حياة . هذا ما ينبغى أن يستقر فى الضمائر والأخلاد ، كما تبحث عن المنهج الكامل الذى تشير إليه مثل هذه العبارة وتتحراه ..

« وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا ، وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ، وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، قَالَ : رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ

Marfat.com

نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ، وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ، وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ⑮ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا، وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ، وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ.

« وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ: أُفٍّ لَكُمَا! أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي، وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ. وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ. فَيَقُولُ: مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ☆ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ.

« وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا، وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.

« وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ. أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا، وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا. فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ » ⑳

هذا الشوط يسير مع الفطرة فى استقامتها وفى انحرافها، وفما تنتهى إليه حين تستقيم وما تنتهى إليه حين تنحرف. ويبدأ بالوصية بالوالدين. وكثيرا ماترد هذه الوصية لاحقة للكلام عن العقيدة فى الله أومصاحبة لهذا الحديث. ذلك أن وشيجة الأبوة والبنوة هى أول وشيجة بعد وشيجة الإيمان فى القوة والأهمية، وأولاها بالرعاية والتشريف. وفى هذا الاقتران دلالتان: أولاهما هى هذه. والثانية أن آصرة الإيمان هى الأولى وهى المقدمة، ثم تليها آصرة الدم فى أوثق صورها.

وفى هذا الشوط نموذجان من الفطرة: فى النموذج الأول تلتق آصرة الإيمان وآصرة الوالدين فى طريقها المستقيم المهتدى الواصل إلى الله. وفى الثانى تفترق آصرة النسب عن آصرة الإيمان، فلاتلتقيان. والنموذج الأول مصيره الجنة ونصيبه البشرى. والنموذج الثانى مصيره النار ونصيبه استحقاق العذاب. وبهذه المناسبة يعرض صورة العذاب فى مشهد من مشاهد القيامة، يصور عاقبة الفسوق والاستكبار.

***

« ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا » . .

فهى وصية لجنس الإنسان كله، قائمة على أساس إنسانيته، بدون حاجة إلى أية صفة أخرى وراء كونه إنسانا. وهى وصية بالإحسان مطلقة من كل شرط ومن كل قيد فصفة الوالدية تقتضى هذا الإحسان بذاتها ، بدون حاجة إلى أية صفة أخرى كذلك . وهى وصية صادرة من خالق الإنسان، وربما كانت خاصة بهذا الجنس أيضا . فما يعرف فى عالم الطير أو الحيوان أو الحشرات وما إليها أن صغارها مكلفة برعاية كبارها . والشاهد الملحوظ هو فقط تكليف فطرة هذه الخلائق أن ترعى كبارها صغارها فى بعض الأجناس. فهى وصية ربما كانت خاصة بجنس الإنسان.

وتتكرر فى القرآن الكريم وفى حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – الوصية بالإحسان إلى الوالدين . ولا ترد وصية الوالدين بالأولاد إلا نادرة ، ولمناسبة حالات معينة . ذلك أن الفطرة وحدها تتكفل برعاية الوالدين للأولاد ، رعاية تلقائية مندفعة بذاتها لا تحتاج إلى مثير . وبالتضحية النبيلة الكاملة العجيبة التى كثيرا ما تصل إلى حد الموت –فضلا على الألم– بدون تردد ، ودون انتظار عوض ، ودون منّ ولا رغبة حتى فى الشكران ! أما الجيل الناشىء فقلما يتلفت إلى الخلف . قلما يتلفت إلى الجيل المضحى الواهب الفانى . لأنه بدوره مندفع إلى الأمام ، يطلب جيلا ناشئا منه يضحى له بدوره ويرعاه ! وهكذا تمضى الحياة !

والإسلام يجعل الأسرة هى اللبنة الأولى فى بنائه ؛ والمحضن الذى تدرج فيه الفراخ الخضر وتكبر ؛ وتتلقى رصيدها من الحب والتعاون والتكافل والبناء. والطفل الذى يحرم من محضن الأسرة ينشأ شاذا غير طبيعى فى كثير من جوانب حياته –مهما توافرت له وسائل الراحة والتربية فى غير محيط الأسرة – وأول ما يفقده فى أى محضن آخر غير محضن الأسرة ،هو شعور الحب . فقد ثبت أن الطفل بفطرته يحب أن يستأثر وحده بأمه فترة العامين الأولين من حياته. ولا يطيق أن يشاركه فيها أحد . وفى المحاضن الصناعية لا يمكن أن يتوفر هذا . إذ تقوم الحاضنة بحضانة عدة أطفال ، يتحاقدون فيما بينهم ، على الأم الصناعية المشتركة ، وتبذر فى قلوبهم بذرة الحقد فلا تنمو بذرة الحب أبدا . كذلك يحتاج الطفل إلى سلطة واحدة ثابتة تشرف عليه فترة من حياته كى يتحقق له ثبات الشخصية . وهذا ما لا يتيسر إلا فى محضن الأسرة الطبيعى . فأما فى المحاضن الصناعية فلا تتوفر السلطة الشخصية الثابتة لتغير الحاضنات بالمناوبة على الأطفال . فتنشأ شخصياتهم مخلخلة ، ويحرمون ثبات الشخصية . . والتجارب فى المحاضن تكشف فى كل يوم

Marfat.com

عن حكمة أصيلة فى جعل الأسرة هى اللبنة الأولى فى بناء المجتمع السليم، الذى يستهدف الإسلام إنشاءه على أساس الفطرة السليم .

ويصور القرآن هنا تلك التضحية النبيلة الكريمة الواهبة التى تتقدم بها الأمومة ، والتى لايجزيها أبدا إحسان من الأولاد مهما أحسنوا القيام بوصية الله فى الوالدين :

« حملته أمه كرها، ووضعته كرها ، وحمله وفصاله ثلاثون شهرا » ..

وتركيب الألفاظ وجرسها يكاد يجسم العناء والجهد والضنى والكلال : « حملته أمه كرها . ووضعته كرها » .. لكأنها آهة مجهد مكروب ينوء بعبء ويتنفس بجهد ، ويلهث بالأنفاس ! إنها صورة الحمل وبخاصة فى أواخر أيامه ، وصورة الوضع وطلقه وآلامه !

ويتقدم علم الأجنة فإذا به يكشف لنا فى عملية الحمل عن جسامة التضحية ونبلها فى صورة حسية مؤثرة ..

إن البويضة بمجرد تلقيحها بالخلية المنوية تسعى للالتصاق بجدار الرحم.وهى مزودة بخاصية أكالة . تمزق جدار الرحم الذى تلتصق به وتأكله ؛فيتوارد دم الأم إلى موضعها ، حيث تسبح هذه البويضة الملقحة دائما فى بركة من دم الأم الغنى بكل مافى جسمها من خلاصات ؛ وتمتصه لتحيا به وتنمو . وهى دائمة الأكلان لجدار الرحم . دائمة الامتصاص لمادة الحياة. والأم المسكينة تأكل وتشرب وتهضم وتمتص، لتصب هذا كله دما نقيا غنيا لهذه البويضة الشرهة النهمة الأكول ! وفى فترة تكوين عظام الجنين يشتد امتصاصه للجير من دم الأم فتفتقر إلى الجير . ذلك أنها تعطى محلول عظامها فى الدم ليقوم به هيكل هذا الصغير ! وهذا كله قليل من كثير !

ثم الوضع ، وهو عملية شاقة ، ممزقة ، ولكن آلامها الهائلة كلها لاتقف فى وجه الفطرة ولاتنسى الأم حلاوة الثمرة . ثمرة التلبية للفطرة ، ومنح الحياة نبتة جديدة تعيش ، وتمتد .. بينما هى تذوى وتموت !

ثم الرضاع والرعاية . حيث تعطى الأم عصارة لحمها وعظمها فى اللبن ، وعصارة قلبها وأعصابها فى الرعاية . وهى مع هذا وذلك فرحة سعيدة رحيمة ودود . لاتمل أبدا ولاتكره تعب هذا الوليد . وأكبر ماتتطلع إليه من جزاء أن تراه يسلم وينمو. فهذا هو جزاؤها الحبيب الوحيد!

فأنى يبلغ الإنسان فى جزاء هذه التضحية ، مهما يفعل وهو لايفعل إلاالقليل الزهيد ؟

وصدق رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقد جاءه رجل كان فى الطواف حاملا أمه يطوف بها ، فسأله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : هل أديتُ حقها ؟ فأجابه : « لا، ولا بزفرة واحدة »[1].

***

(١) رواه الحافظ أبو بكر البزار ــ بإسناده ــ عن بريدة عن أبيه .

Marfat.com

ويخلص من هذه الوقفة أمام الوصية بالوالدين ، واستجاشة الضمائر بصورة التضحية النبيلة ممثلة فى الأم . إلى مرحلة النضج والرشد ، مع استقامة الفطرة ، واهتداء القلب :

« حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأصلح لى فى ذريتى ، إنى تبت إليك ، وإنى من المسلمين » . .

وبلوغ الأشد يتراوح بين الثلاثين والأربعين . والأربعون هى غاية النضج والرشد ، وفيها تكتمل جميع القوى والطاقات ، ويتهيأ الإنسان للتدبر والتفكر فى اكتمال وهدوء . وفى هذه السن تتجه الفطرة المستقيمة السليمة إلى ماوراء الحياة ومابعد الحياة . وتتدبر المصير والمآل .

ويصور القرآن هنا خوالج النفس المستقيمة . وهى فى مفرق الطريق ، بين شطر من العمر ولى . وشطر يكاد آخره يتبدى . وهى تتوجه إلى الله :

« رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى » . .

دعوة القلب الشاعر بنعمة ربه ، المستعظم المستكثر لهذه النعمة التى تغمره وتغمر والديه قبله فهى قديمة العهد به ، المستقل المستصغر لجهده فى شكرها . يدعو ربه أن يعينه بأن يجمعه كله : « أوزعنى » .. لينهض بواجب الشكر ؛ فلايفرق طاقته ولااهتمامه فى مشاغل أخرى غير هذا الواجب الضخم الكبير .

« وأن أعمل صالحا ترضاه » ..

وهذه أخرى . فهو يطلب العون للتوفيق إلى عمل صالح ، يبلغ من كماله وإحسانه أن يرضاه ربه . فرضى ربه هو الغاية التى يتطلع إليها . وهو وحده الرجاء الذى يأمل فيه .

« وأصلح لى فى ذريتى » ..

وهذه ثالثة . وهى رغبة القلب المؤمن فى أن يتصل عمله الصالح فى ذريته . وأن يؤنس قلبه شعوره بأن فى عقبه من يعبد الله ويطلب رضاه . والذرية الصالحة أمل العبد الصالح . وهى آثر عنده من الكنوز والذخائر . وأروح لقلبه من كل زينة الحياة . والدعاء يتضمن الوالدين إلى الذرية ليصل الأجيال المتعاقبة فى طاعة الله .

وشفاعته إلى ربه . شفاعته التى يتقدم بها بين يدى هذا الدعاء الخالص لله ، هى التوبة والإسلام :

Marfat.com

« إنى تبت إليك وإنى من المسلمين » .

ذلك شأن العبد الصالح ، صاحب الفطرة السليمة المستقيمة مع ربه . فأما شأن ربه معه ، فقد أنصح عنه هذا القرآن :

« أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ماعملوا ، ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة . وعد الصدق الذى كانوا يوعدون » ..

فالجزاء بحساب أحسن الأعمال . والسيئات مغفورة متجاوز عنها . والمآل إلى الجنة مع أصحابها الأصلاء . ذلك وفاء بوعد الصدق الذى وعدوه فى الدنيا . ولن يخلف الله وعده . . وهو جزاء الفيض والوفر والإنعام .

* * *

فأما النموذج الآخر فهو نموذج الانحراف والفسوق والضلال :

« والذى قال لوالديه : أف لكما ! أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى ؟ » ..

فالوالدان مؤمنان. والولد العاق يجحد برهما أول مايجحد ؛ فيخاطبهما بالتأفف الجارح الخشن الوقح : « أف لكما ! » .. ثم يجحد الآخرة بالحجة الواهية : « أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى ؟ » .. أى ذهبوا ولم يعد منهم أحد .. والساعة مقدرة إلى أجلها . والبعث جملة بعد انتهاء أجل الحياة الدنيا . ولم يقل أحد إنه تجزئة . يبعث جيل مضى فى عهد جيل يأتى. فليست لعبة وليست عبثا . إنما هو الحساب الختامى للرحلة كلها بعد انتهائها !

والوالدان يريان الجحود ويسمعان الكفر ، ويفزعان مما يقوله الولد العاق لربه ولهما : ويرتعش حسهما لهذا التهجم والتطاول ؛ ويهتفان به : « وهما يستغيثان الله . ويلك آمن . إن وعد الله حق » .. ويبدو فى حكاية قولهما الفزع من هول مايسمعان . بينما هو يصر على كفره، ويلج فى جحوده : « فيقول : ماهذا إلاأساطير الأولين » ..

هنا يعاجله الله بمصيره المحتوم:

« أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ، إنهم كانوا خاسرين » ..

والقول الذى حق على هذا وأمثاله هو العقاب الذى ينال الجاحدين المكذبين . وهم كثير. خلت بهم القرون . من الجن والإنس . حسب وعيد الله الصادق الذى لايخلف ولايتخلف .

Marfat.com

« إنهم كانوا خاسرين » .. وأية خسارة أكبر من خسارة الإيمان واليقين فى الدنيا. ثم خسارة الرضوان والنعيم فى الآخرة . ثم العذاب الذى يحق على الجاحدين المنحرفين ؟

* * *

وبعد بيان العاقبة والجزاء إجمالا للمهتدين والضالين ، يصور دقة الحساب والتقدير لكل فرد من هؤلاء وهؤلاء على حدة :

« ولكل درجات مما عملوا ، وليوفيهم أعمالهم ، وهم لايظلمون » ..

فلكل فرد درجته ، ولكل فرد عمله ، فى حدود ذلك الإجمال فى جزاء كل فريق .

وبعد ، فهذان النموذجان عامان فى الناس ، ولكن مجيئهما فى هذا الأسلوب ، الذى يكاد يحدد شخصين بذواتهما أوقع وأشد إحياء للمثل كأنه واقع .

ولقد وردت روايات أن كلا منهما يعنى إنسانا بعينه. ولكن لم يصح شىء من هذه الروايات. والأولى اعتبارهما واردين مورد المثل والنموذج . يدل على هذا الاعتبار صيغة التعقيب على كل نموذج . فالتعقيب على الأول : « أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ماعملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة . وعد الصدق الذى كانوا يوعدون » .. والتعقيب على الثانى : « أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ، إنهم كانوا خاسرين » .. ثم التعقيب العام : « ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم ، وهم لايظلمون ».. وكلها توحى بأن المقصود هو النموذج المكرر من هؤلاء وهؤلاء .

* * *

ثم يقفهم وجها لوجه أمام مشهد شاخص لهم فى يوم الحساب الذى كانوا يجحدون :

« ويوم يعرض الذين كفروا على النار . أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها - فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون»..

والمشهد سريع حاسم ، ولكنه يتضمن لفته حميمه عريضة . إنه مشهد العرض على النار . وفى مواجهتها وقبيل سوقهم إليها ، يقال لهم عن سبب عرضهم عليها وسوقهم إليها : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » . . فقد كانوا يملكون الطيبات إذن ، ولكنهم ستنفدوها فى الحياة الدنيا ، فلم يدخروا للآخرة منها شيئا ؛ واستمتعوا بها غير حاسبين فيها للآخرة حسابا . استمتعوا بها استمتاع الأنعام للحصول على اللذة بالمتاع ، غير ناظرين فيها

Marfat.com

للآخرة ، ولا شاكرين لله نعمته ، ولا متورعين فيها عن فاحش أو حرام . ومن ثم كانت لهم دنيا ولم تكن لهم آخرة . واشتروا تلك اللمحة الخاطفة على الأرض بذلك الأمد الهائل الذى لا يعلم حدوده إلا الله !

« فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون » . .

وكل عبد يستكبر فى الأرض فإنما يستكبر بغير حق . فالكبرياء لله وحده . وليست لأحد من عباده فى كثير أو قليل. وعذاب الهون هو الجزاء العدل على الاستكبار فى الأرض . فجزاء الاستكبار الهوان . وجزاء الفسوق عن منهج الله وطريقه الانتهاء إلى هذا الهوان أيضا . فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

وهكذا ينتهى هذا الشوط من السورة بعرض ذينك النموذجين ومصيرهما فى النهاية ؛ وبهذا المشهد المؤثر للمكذبين بالآخرة ، الفاسقين عن منهج الله ، المستكبرين عن طاعته . وهى لمسة للقلب البشرى تستجيش الفطر السليمة القويمة لارتياد الطريق الواصل المأمون . .

Marfat.com

« وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ، وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا : أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا ؟ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ : إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ، وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ .

« فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا : هَٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا . بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ : رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا . فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ . كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ .

« وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ، فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .

«وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى، وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ! بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ، وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » ٢٨

وهذا الشوط جولة فى مجال آخر ، تخدم القضية التى تعالجها السورة، وتأخذ القلب البشرى من جانب غير الجوانب التى عالجها الشوطان الأولان . . جولة فى مصرع عاد ومصارع القرى غيرها حول مكة . وقد وقفوا من رسولهم وأخيهم هود ـ عليه السلام ـ موقف المشركين من رسولهم وأخيهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ واعترضوا اعتراضاتهم ، وأجابهم نبيهم بما يليق به من أدب النبوة فى حدود بشريته وحدود وظيفته . ثم أخذهم ماأخذهم من العذاب المدمر، حين لم يسمعوا النذير . فلم تغن عنهم قوتهم ـ وكانوا أقوى ـ ولم يغن عنهم ثراؤهم ـ وكانوا أغنى ـ ولم ينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم ـ وكانوا أذكياء ـ ولم تغن عنهم آلهتهم التى اتخذوها تقربا ـ بزعمهم ـ إلى الله .

وكذلك يقف المشركين فى مكة أمام مصارع أسلافهم من أمثالهم ؛ فيقفهم أمام مصيرهم هم أنفسهم . ثم أمام الخط الثابت المطرد المتصل. خط الرسالة القائمة على أصلها الواحد الذى لايتغير. وخط السنة الإلهية التى لاتتحول ولاتتبدل . وتبدو شجرة العقيدة عميقة الجذور، ممتدة الفروع ضاربة فى أعماق الزمان ؛ واحدة على اختلاف القرون واختلاف المكان .

* * *

« واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف ـ وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ـ ألا تعبدوا إلا الله . إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » ..

وأخو عاد هو هود ـ عليه السلام ـ يذكره القرآن هنا بصفته. صفة الأخوة لقومه . ليصور صلة الود بينه وبينهم ، وصلة القرابة التى كانت كفيلة بأن تعطفهم إلى دعوته ، وتحسن ظنهم بها وبه . وهى ذات الصلة بين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقومه الذين يقفون منه موقف اللاحاة والخصومة .

والأحقاف جمع حقف . وهو الكثيب المرتفع من الرمال . وقد كانت منازل عاد على المرتفعات المتفرقة فى جنوب الجزيرة ـ يقال فى حضرموت

Marfat.com

والله ـ سبحانه ـ يوجه نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يذكر أخا عاد وإنذاره لقومه بالأحقاف . يذكره ليتأسى بأخ له من الرسل لقى مثلما يلقى من إعراض قومه وهو أخوهم . ويذكره ليذكر المشركين فى مكة بمصير الغابرين من زملائهم وأمثالهم ، على مقربة منهم ومن حولهم . .

وقدأنذر أخو عاد قومه ، ولم يكن أول نذير لقومه . فقد سبقته الرسل إلى أقوامهم . .

« وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه » . .

قريبا منه وبعيدا عنه فى الزمان وفى المكان . فالنذارة متصلة ، وسلسلة الرسالة ممتدة . والأمر ليس بدعا ولاغريبا . فهو معهود مألوف .

أنذرهم ـ ماأنذر به كل رسول قومه ـ : « ألاتعبدوا إلاالله . إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » . . وعبادة الله وحده عقيدة فى الضمير ومنهج فى الحياة ؛ والمخالفة عنها تنتهى إلى العذاب العظيم فى الدنيا أو فى الآخرة ، أوفيهما على السواء . والإشارة إلى اليوم « عذاب يوم عظيم » . . تعنى حين تطلق يوم القيامة وهو أشد وأعظم .

فماذا كان جواب قومه على التوجيه إلى الله ، والإنذار بعذابه ؟

« قالوا : أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ! » . .

سوء الظن وعدم الفهم ،والتحدى للنذير ، واستعجال العذاب الذى ينذرهم به، والاستهزاء والتكذيب . وإصرار على الباطل واعتزاز !

فأما هود النبى فيتلقى هذا كله فى أدب النبى ، وفى تجرده من كل ادعاء ، وفى الوقوف عند حده لايتعداه :

« قال : إنما العلم عند الله . وأبلغكم ما أرسلت به . ولكنى أراكم قوما تجهلون » . .

إنما أنذركم بالعذاب كما كلفت أن أنذركم . ولست أعلم متى يحين موعده ، ولا كيف يكون شكله . فعلم ذلك عند الله . وإنما أنا مبلغ عن الله . لا أدعى علما ولا قدرة مع الله . . « ولكنى أراكم قوما تجهلون » وتحمقون . وأية حماقة وأى جهل أشد من استقبال النذير الناصح والأخ القريب بمثل هذا التحدى والتكذيب ؟

ويجمل السياق هنا ماكان بين هود وقومه من جدل طويل ، ليمضى إلى النهاية المقصودة أصلا فى هذا المقام ؛ ردا على التحدى والاستعجال .

Marfat.com

Marfat.com

« فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا : هذا عارض ممطرنا . بل هو ما استعجلتم به : ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم . كذلك نجزى القوم المجرمين » . .

وتقول الروايات : إنه أصاب القوم حر شديد ، واحتبس عنهم المطر ، ودخن الجو حولهم من الحر والجفاف . ثم ساق الله إليهم سحابة ، ففرحوا بها فرحا شديدا ، وخرجوا يستقبلونها فى الأودية ، وهم يحسبون فيها الماء : « قالوا هذا عارض ممطرنا » . .

وجاءهم الرد بلسان الواقع : « بل هو ما استعجلتم به : ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها » . . وهى الريح الصرصر العاتية التى ذكرت فى سورة أخرى . كما جاء فى صفتها : « ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم » .

والنص القرآنى يصور الريح حية مدركة مأمورة بالتدمير : « تدمر كل شيء بأمر ربها » وهى الحقيقة الكونية التى يحفل القرآن بإشعارها للنفوس . فهذا الوجود حى . وكل قوة من قواه واعية . وكلها تدرك عن ربها وتتوجه لما تكلف به من لدنه . والإنسان أحد هذه القوى . وحين يؤمن حق الإيمان ، ويتفتح قلبه للمعرفة الواصلة ، يستطيع أن يعى عن القوى الكونية من حوله ، وأن يتجاوب معها ، وأن تتجاوب معه ، تجاوب الأحياء المدركة ، بغير الصورة الظاهرة التى يعرفها الناس من الحياة والإدراك . فى كل شيء روح وحياة ، ولكننا لا ندرك هذا لأننا محجوبون بالظواهر والأشكال عن البواطن والحقائق . والكون من حولنا حافل بالأسرار المحجوبة بالأستار ، تدركها البصائر المفتوحة ولا تراها الأبصار .

وقد أدت الريح ما أمرت به ، فدمرت كل شيء « فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم » . . أما هم وأما أنعامهم وأما أشياؤهم وأما متاعهم فلم يعد شيء منه يرى . إنما هى المساكن قائمة خاوية موحشة ، لا ديار فيها ولا نافخ نار . . « كذلك نجزى القوم المجرمين » . . سنة جارية وقدر مطرد فى المجرمين .

* * *

وعلى مشهد الدمار والخراب يلتفت إلى أمثالهم الحاضرين ، يلمس قلوبهم بما ترتعش منه القلوب :

« ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه . وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة . فما أغنى عنهم سمعهم

Marfat.com

ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء . إذ كانوا يجحدون بآيات الله . وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » . .

هؤلاء الذين دمرتهم الريح المأمورة بالتدمير . مكناهم فيما لم نمكنكم فيه .. إجمالا . . من القوة والمال والعلم والمتاع . وآتيناهم أسماعا وأبصارا وأفئدة ـ والقرآن يعبر عن قوة الإدراك مرة بالقلب ومرة بالفؤاد ومرة باللب ومرة بالعقل . وكلها تعنى الإدراك فى صورة من صوره ـ ولكن هذه الحواس والمدارك لم تنفعهم فى شيء . إذ أنهم عطلوها وحجبوها « إذ كانوا يجحدون بآيات الله » . . والجحود بآيات الله يطمس الحواس والقلوب ، ويفقدها الحساسية والإشراق والنور والإدراك . « وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » .. من العذاب والبلاء . .

والعبرة التى يفيدها كل ذى سمع وبصر وقلب ، ألا يغتر ذو قوة بقوته ، ولا ذو مال بماله ، ولا ذو علم بعلمه . فهذه قوة من قوى الكون تسلط على أصحاب القوة والمال والعلم والمتاع ، فتدمر كل شيء ، وتتركهم « لا يرى إلا مساكنهم » حين يأخذهم الله بسنته التى يأخذ بها المجرمين .

والريح قوة دائبة العمل ، وفق النظام الكونى الذى قدره الله، وهو يسلطها حين يسلطها للتدمير وهى ماضية فى طريقها الكونى، تعمل وفق الناموس المرسوم. فلا حاجة لخرق النواميس الكونية ـ كما يعترض المعترضون واهمين ـ فصاحب الناموس المرسوم هو صاحب القدر المعلوم . وكل حادث وكل حركة . وكل اتجاه . وكل شخص . وكل شيء . محسوب حسابه ، داخل فى تصميم الناموس .

والريح كغيرها من القوى الكونية مسخرة بأمر ربها ، ماضية تؤدى ما قدره لها فى نطاق الناموس المرسوم لها وللوجود كله . ومثلها قوة البشر المسخرة لما يريده الله بها. المسخر لها من قوى الكون ما أراد الله تسخيره لها . وحين يتحرك البشر فإنما يؤدون دورهم فى هذا الوجود ، ليتم ما أراده الله بهم وفق ما يريد وحرية إرادتهم فى الحركة والاختيار جزء من الناموس الكلى ينتهى إلى التناسق الكونى العام . وكل شيء مقدر تقديرا لا يناله نقض ولا اضطراب .

* * *

ويختم هذا الشوط بالعبرة الكلية لمصارع من حولهم من القرى من عاد وغير عاد :

« ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى، وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون. فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة ! بل ضلوا عنهم . وذلك إفكهم وما كانوا يفترون » . .

Marfat.com

وقد أهلك الله القرى التى كذبت رسلها فى الجزيرة . كعاد بالأحقاف فى جنوب الجزيرة . وثمود بالحجر فى شمالها . وسبأ وكانوا باليمن . ومدين وكانت فى طريقهم إلى الشام . وكذلك قرى قوم لوط وكانوا يمرون بها فى رحلة الصيف إلى الشمال .

ولقد نوع الله فى آياته لعل المكذبين يرجعون إلى ربهم ويثوبون . ولكنهم مضوا فى ضلالهم ، فأخذهم العذاب الأليم ، ألوانا وأنواعا ، تتحدث بها الأجيال من بعدهم ، ويعرفها الخلف من ورائهم . وكان مشركو مكة يتسامعون بها ، ويرون آثارها غادين رائحين .

وهنا يلفتهم إلى الحقيقة الواقعة . فقد دمر الله على المشركين قبلهم وأهلكهم دون أن تنجيهم آلهتهم التى كانوا يتخذونها من دون الله، زاعمين أنهم يتقربون بها إليه. سبحانه . وهى تستنزل غضبه ونقمته : « فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة ! »

إنهم لم ينصروهم « بل ضلوا عنهم » .. وتركوهم وحدهم لا يعرفون طريقا إليهم أصلا، فضلا على أن يأخذوا بيدهم وينجدوهم من بأس الله .

« وذلك إفكهم وما كانوا يفترون » ..

فهو إفك . وهو افتراء . وذلك مآله . وتلك حقيقته . . الهلاك والتدمير . . فماذا ينتظر المشركون الذين يتخذون من دون الله آلهة بدعوى أنها تقربهم من الله زلفى؟ وهذه هى العاقبة وهذا هو المصير ؟

« وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا : أَنْصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا : يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ، وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ؟ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

« وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هٰذَا بِالْحَقِّ ؟ قَالُوا : بَلَى وَرَبِّنَا ، قَالَ : فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ .

« فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ، وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، بَلَاغٌ ، فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ؟ » ٣٥

هذا الشوط الأخير جولة جديدة فى مجال القضية التى تعالجها السورة؛فسياقة قصة النفر من الجن الذين استمعوا لهذا القرآن ، فتنادوا بالإنصات،واطمأنت قلوبهم إلى الإيمان ، وانصرفوا إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الله ويبشرونهم بالغفران والنجاة ، ويحذرونهم الإعراض والضلال . سياقة الخبر فى هذا المجال ، بهذه الصورة ، وتصوير مس القرآن لقلوب الجن هذا المس الذى يتمثل فى قولهم : « أنصتوا » عندما طرق أسماعهم ، كما يتمثل فيما حكوه لقومهم عنه ، وفيما دعوهم إليه . كل هذا من شأنه أن يحرك قلوب البشر ، الذين جاء القرآن لهم فى الأصل . وهو إيقاع مؤثر ولاشك ،يلفت هذه القلوب لفتة عنيفة عميقة.وفى الوقت ذاته تجىء الإشارة إلى الصلة بين كتاب موسى وهذا القرآن على لسان الجن ، فتعلن هذه الحقيقة التى يدركها الجن ويغفل عنها البشر . ولايخفى مافى هذه اللفتة من إيحاء عميق متفق مع ماجاء فى السورة .

كذلك مايرد فى كلام الجن من الإشارة إلى كتاب الكون المفتوح ، ودلالته على قدرة الله الظاهرة فى خلق السماوات والأرض ، الشاهدة بقدرته على الإحياء والبعث. وهى القضية التى يجادل فيها البشر وبها يجحدون .

وبمناسبة البعث يعرض مشهدا من مشاهد القيامة« يوم يعرض الذين كفروا على النار » .. وفى الختام تجىء الوصية للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالصبر عليهم وعدم الاستعجال لهم . وتركهم للأجل المرسوم . وهو قريب قريب كأنه ساعة من نهار..للبلاغ .. قبل الهلاك !

* * *

« وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا : أنصتوا . فلما

Marfat.com

Marfat.com

قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا : ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى ، مصدقا لما بين يديه ، يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ، وليس له من دونه أولياء ، أولئك فى ضلال مبين . أو لم يروا أن الله الذى خلق السماوات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى إنه على كل شىء قدير » . .

ومقالة النفر من الجن – مع خشوعهم عند سماع القرآن – تتضمن أسس الاعتقاد الكامل : تصديق الوحى . ووحدة العقيدة بين التوراة والقرآن . والاعتراف بالحق الذى يهدى إليه . والإيمان بالآخرة وما ينتهى إلى المغفرة وما ينتهى إلى العذاب من الأعمال . والإقرار بقوة الله وقدرته على الخلق وولايته وحده للعباد . والربط بين خلق الكون وإحياء الموتى . . وهى الأسس التى تتضمنها السورة كلها ، والقضايا التى تعالجها فى سائر أشواطها . . كلها جاءت على لسان النفر من الجن . من عالم آخر غير عالم الإنسان .

ويحسن قبل ان نستعرض هذه المقالة أن نقول كلمة عن الجن وعن الحادثة . .

إن ذكر القرآن لحادث صرف نفر من الجن ليستمعوا القرآن من النبى – صلى الله عليه وسلم – وحكاية ما قالوا وما فعلوا . . هذا وحده كاف بذاته لتقرير وجود الجن ، ولتقرير وقوع الحادث. ولتقرير أن الجن هؤلاء يستطيعون أن يستمعوا للقرآن بلفظه العربى المنطوق كما يلفظه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ولتقرير أن الجن خلق قابلون للإيمان وللكفران ، مستعدون للهدى وللضلال . . وليس هنالك من حاجة إلى زيادة تثبيت أو توكيد لهذه الحقيقة ؛ فما يملك إنسان أن يزيد الحقيقة التى يقررها الله – سبحانه – ثبوتا .

ولكنا نحاول إيضاح هذه الحقيقة فى التصور الإنسانى .

إن هذا الكون من حولنا حافل بالأسرار ، حافل بالقوى والخلائق المجهولة لنا كنها وصفة وأثرا . ونحن نعيش فى أحضان هذه القوى والأسرار . نعرف منها القليل ، ونجهل منها الكثير . وفى كل يوم نكشف بعض هذه الأسرار ، وندرك بعض هذه القوى ، ونتعرف إلى بعض هذه الخلائق- تارة بذواتها . وتارة بصفاتها. وتارة بمجرد آثارها فى الوجود من حولنا . ونحن مازلنا فى أول الطريق . طريق المعرفة لهذا الكون ، الذى نعيش نحن وآباؤنا وأجدادنا ويعيش أبناؤنا وأحفادنا ، على ذرة من ذراته الصغيرة الصغيرة . . هذا الكوكب الأرضى الذى لايبلغ أن يكون شيئا يذكر فى حجم الكون أووزنه !

وماعرفناه اليوم ـ ونحن فى أول الطريق ـ يعد بالقياس إلى معارف البشرية قبل خمسة قرون فقط عجائب أضخم من عجيبة الجن .ولوقال قائل للناس قبل خمسة قرون عن شيء من أسرار الذرة التى تتحدث عنها اليوم لظنوه مجنونا ، أولظنوه يتحدث عما هو أشد غرابة من الجن قطعا !

ونحن نعرف ونكشف فى حدود طاقتنا البشرية ، المعدة للخلافة فى هذه الأرض ، ووفق مقتضيات هذه الخلافة ، وفى دائرة ماسخره الله لنا ليكشف لنا عن أسراره ،وليكون لنا ذلولا ، كيما نقوم بواجب الخلافة فى الأرض..ولاتتعدى معرفتنا وكشوفنافى طبيعتها وفى مداها ـ مهما امتد بنا الأجل ـ أى بالبشرية ـ ومهما سخر لنا من قوى الكون وكشف لنا من أسراره ـ لاتتعدى تلك الدائرة . دائرة مانحتاجه للخلافة فى هذه الأرض . وفق حكمة الله وتقديره .

وسنكشف كثيرا ، وسنعرف كثيرا،وستتفتح لنا عجائب من أسرار هذا الكون وطاقاته، مما قد تعتبر أسرار الذرة بالقياس إليه لعبة أطفال ! ولكننا سنظل فى حدود الدائرة المرسومة للبشر فى المعرفة .وفى حدود قول الله ـ سبحانه ـ « وماأوتيتم من العلم إلا قليلا» ..قليلا بالقياس إلى مافى هذا الوجود من أسرار وغيوب لايعلمها إلا خالقه وقيومه . وفى حدود تمثيله لعلمه غير المحدود ، ووسائل المعرفة البشرية المحدودة بقوله : « ولوأن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله » ..

فليس لنا ـ والحالة هذه ـ أن نجزم بوجود شيء أونفيه . وبتصوره أوعدم تصوره . من عالم الغيب المجهول ، ومن أسرار هذا الوجود وقواه ، لمجرد أنه خارج عن مألوفنا العقلى أوتجاربنا المشهودة . ونحن لم ندرك بعد كل أسرار أجسامنا وأجهزتها وطاقاتها ، فضلا على إدراك أسرار عقولنا وأرواحنا !

وقد تكون هنالك أسرار ليست داخلة فى برنامج مايكشف لنا عنه أصلا. وأسرار ليست داخلة فى برنامج مايكشف لنا عن كنهه ، فلا يكشف لنا إلا عن صفته أوآثره أومجرد وجوده ، لأن هذا لايفيدنا فى وظيفة الخلافة فى الأرض .

فإذا كشف الله لنا عن القدر المقسوم لنا من هذه الأسرار والقوى . عن طريق كلامه ـ لاعن طريق تجاربنا ومعارفنا الصادرة من طاقتنا الموهوبة لنا من لدنه أيضا ـ فسبيلنا فى هذه

Marfat.com

Marfat.com

الحالة أن نتلقى هذه الهبة بالقبول والشكر والتسليم. نتلقاها كما هى فلا نزيد عليها ولا ننقص منها. لأن المصدر الوحيد الذى نتلقى عنه مثل هذه المعرفة لم يمنحنا إلا هذا القدر بلا زيادة . وليس هنالك مصدر آخر نتلقى عنه مثل هذه الأسرار !

ومن هذا النص القرآنى . ومن نصوص سورة الجن . والأرجح أنها تعبير عن الحادث نفسه . ومن النصوص الأخرى المتناثرة فى القرآن عن الجن . ومن الآثار النبوية الصحيحة عن هذ الحادث . نستطيع أن ندرك بعض الحقائق عن الجن .. ولا زيادة ..

هذه الحقائق تتلخص فى أن هنالك خلقا اسمه الجن . مخلوق من النار . لقول إبليس فى الحديث عن آدم : « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » .. وإبليس من الجن لقول الله تعالى : « إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » .. فأصله من أصل الجن .

وأن هذا الخلق له خصائص غير خصائص البشر. منها خلقته من نار، ومنها أنه يرى الناس ولا يراه الناس ، لقوله تعالى عن إبليس — وهو من الجن —: « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » ..

وأن له تجمعات معينة تشبه تجمعات البشر فى قبائل وأجناس . للقول السابق : «إنه يراكم هو وقبيله . . . ».

وأن له قدرة على الحياة فى هذا الكوكب الأرضى — لا ندرى أين — لقوله تعالى : لآدم وإبليس معا : « اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين » .. والجن الذين سخروا لسليمان عليه السلام كانوا يقومون له بأعمال فى الأرض تقتضى أن يكونوا مزودين بالقدرة على الحياة فيها .

وأن له قدرة كذلك على الحياة خارج هذا الكوكب لقول الله تعالى حكاية عن الجن : «وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » . .

وأنه يملك التأثير فى إدراك البشر وهو مأذون فى توجيه الضالين منهم — غير عباد الله — للنصوص السابقة ، ولقوله تعالى فى حكاية حوار إبليس اللعين : « قال : فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » .. وغير هذا من النصوص المماثلة. ولكنا لا نعرف كيف يوسوس ويوجه وبأى أداة .

وأنه يستطيع أن يسمع صوت الإنسان ويفهم لغته ، بدلالة استماع نفر من الجن للقرآن وفهمه والتأثر به .

وأنه قابل للهدى وللضلال بدلالة قول هذا النفر فى سورة الجن : « وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون . فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » .. وبدليل ذهابهم إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الإيمان ، بعد ماوجدوه فى نفوسهم، وعلموا أن قومهم لم يجدوه بعد .

وهذا هو القدر المستيقن فى أمر الجن ، وهو حسبنا، بلازيادة عليه ليس عليها من دليل .

فأما الحادث الذى تشير إليه هذه الآيات ، كما تشير إليه سورة الجن كلها على الأرجح ، فقد وردت فيه روايات متعددة نثبت أصحها :

أخرج البخارى – بإسناده – عن مسدد ، ومسلم عن شيبان ابن فروخ عن أبى عوانة . وروى الإمام أحمد فى مسنده قال: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة وقال الإمام الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتابه دلائل النبوة : أخبرنا أبو الحسن على ابن أحمد ابن عبدان ، أخبرنا أحمد ابن عبيد الصفار ، حدثنا إسماعيل القاضى ، أخبرنا مسدد ، حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس – رضى الله عنهما قال : « ما قرأ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على الجن ولا رآهم . انطلق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ . وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا: مالكم ؟ فقالوا: حيل بينناوبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب. قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلاشىء حدث ، فاضربوا فى مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ماهذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء . فانطلقوا يضربون فى مشارق الأرض ومغاربها ، يبتغون ماهذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء . فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو بنخلة عامدا إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر . فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء . فهنالك حين رجعوا إلى قومهم : وقالوا : «ياقومنا إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا » .. وأنزل الله على نبيه – صلى الله عليه وسلم – : « قل : أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن » .. وإنما أوحي إليه قول الجن » .

Marfat.com

Marfat.com

وأخرج مسلم وأبوداود والترمذى ـ بإسناده ـ عن علقمة ،قال: قلت لابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ هل صحب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ منكم أحد ليلة الجن ؟ قال . ماصحبه أحد منا ولكنا كنا معه ذات ليلة ، ففقدناه فالتمسناه فى الأودية والشعاب . فقلنا : استطير ، أو اغتيل. فبتنا بشر ليلة بات بها قوم. فلما أصبحنا فإذا هو جاء من قبل حراء . فقلنا : يارسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم .فقال : « أتانى داعى الجن فذهبت معه ، فقرأت عليهم القرآن » . قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم . وسألوه الزاد فقال : « لكم كل عظم ذكر اسم الله تعالى عليه ، يقع فى أيديكم أوفر مايكون لحما،وكل بعرة أوروثة علف لدوابكم » . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « فلاتستنجوا بهما فانهما طعام إخوانكم » ..

وقال : ساق ابن إسحاق ـ فيما رواه ابن هشام فى السيرة ـ خبر النفر من الجن بعد خبر خروج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ، بعد موت عمه أبى طالب ، واشتداد الأذى عليه وعلى المسلمين فى مكة . ورد ثقيف له ردا قبيحا ، وإغرائهم السفهاء والأطفال به ، حتى أدموا قدميه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحجارة . فتوجه إلى ربه بذلك الابتهال المؤثر العميق الكريم : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس . ياأرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ،وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بى غضبك ، أويحل على سخطك . لك العتبى حتى ترضى.ولاحول ولاقوة إلا بك ».

قال : ثم إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ انصرف من الطائف راجعا إلى مكة، حين يئس من خير ثقيف . حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلى،فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى . وهم ـ فيما ذكر لى ـ سبعة نفر من جن نصيبين. فاستمعوا له . فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين. قد آمنوا وأجابوا إلى ماسمعوا.فقص الله خبرهم عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال الله عز وجل : « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن » إلى قوله تعالى : « ويجركم من عذاب أليم » .. وقال تعالى: « قل : أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن » إلى آخر القصة من خبرهم فى هذه السورة :

ويعقب ابن كثير فى التفسير على رواية ابن اسحاق بقوله : « وهذا صحيح. ولكن قوله:

إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر . فإن الجن كان استماعهم فى ابتداء الإيحاء ،كمادل عليه حديث ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ المذكور ، وخروجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الطائف كان بعد موت عمه. وذلك قبل الهجرة بسنة أوسنتين كما قرره ابن إسحاق وغيره .والله أعلم».

وهناك روايات أخرى كثيرة . ونحن نعتمد من جميع هذه الروايات الرواية الأولى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ لأنها هى التى تتفق تماما مع النصوص القرآنية : « قل : أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن » . . وهى قاطعة فى أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما علم بالحادث عن طريق الوحى ، وأنه لم ير الجن ولم يشعر بهم. ثم إن هذه الرواية هى الأقوى من ناحية الإسناد والتخريج . وتتفق معها فى هذه النقطة رواية ابن إسحاق . كما يقويها ماعرفناه من القرآن من صفة الجن : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم » . .

وفى هذا غناء فى تحقيق الحادث .

* * *

« وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا : أنصتوا . فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين » . .

لقد كان إذن تدبيرا من الله أن يصرف هؤلاء النفر من الجن إلى استماع القرآن ، لامصادفة عابرة . وكان فى تقدير الله أن تعرف الجن نبأ الرسالة الأخيرة كما عرفت من قبل رسالة موسى ؛ وأن يؤمن فريق منهم وينجوا من النار المعدة لشياطين الجن كما هى معدة لشياطين الإنس .

ويرسم النص مشهد هذا النفر ـ وهم مابين ثلاثة وعشرة ـ وهم يستمعون إلى هذا القرآن، ويصور لنا ماوقع فى حسهم منه،من الروعة والتأثر والرهبة والخشوع . « فلما حضروه قالوا : أنصتوا » . .وتلقى هذه الكلمة ظلال الموقف كله طوال مدة الاستماع .

« فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين » . .

وهذه كتلك تصور الأثر الذى انطبع فى قلوبهم من الإنصات للقرآن.فقد استمعوا صامتين منتبهين حتى النهاية . فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم ، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه مالا تطيق السكوت عليه ، أو التلكؤ فى إبلاغه والإنذار به . وهى حالة من امتلأ حسه بشىء جديد،وحفلت مشاعره بمؤثر قاهر غلاب،يدفعه دفعا إلى الحركة به والاحتفال بشأنه ، وإبلاغه للآخرين فى جد واهتمام :

Marfat.com

Marfat.com

« قالوا : ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى ،مصدقا لما بين يديه، يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم » ..

ولوا إلى قومهم مسارعين يقولون لهم : إنا سمعنا كتابا جديدا أنزل من بعد موسى، يصدق كتاب موسى فى أصوله . فهم إذن كانوا يعرفون كتاب موسى ، فأدركوا الصلة بين الكتابين بمجرد سماع آيات من هذا القرآن ، قد لايكون فيها ذكر لموسى ولالكتابه ، ولكن طبيعتها تشى بأنها من ذلك النبع الذى نبع منه كتاب موسى . وشهادة هؤلاء الجن البعيدين ـ نسبياً ـ عن مؤثرات الحياة البشرية ، بمجرد تذوقهم لآيات من القرآن ، ذات دلالة وذات إيحاء عميق .

ثم عبروا عما خالج مشاعرهم منه ، وماأحست ضمائرهم فيه ، فقالوا عنه :

« يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم » ..

ووقع الحق والهدى فى هذا القرآن هائل ضخم ، لايقف له قلب غير مطموس ؛ ولاتصمد له روح غير معاندة ولامستكبرة ولامشدودة بالهوى الجامح اللئيم . ومن ثم لمس هذه القلوب لأول وهلة ، فإذا هى تنطق بهذه الشهادة ، وتعبر عما مسها منه هذا التعبير .

ثم مضوا فى نذارتهم لقومهم فى حماسة المقتنع المندفع، الذى يحس أن عليه واجبا فى النذارة لابد أن يؤديه :

« ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به ، يغفرلكم من ذنوبكم، ويجركم من عذاب أليم » ..

فقد اعتبروا نزول هذا الكتاب إلى الأرض دعوة من الله لكل من بلغته من إنس وجن؛ واعتبروا محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ داعيا لهم إلى الله بمجرد تلاوته لهذا القرآن واستماع الثقلين له : فنادوا قومهم : « ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به » ..

وآمنوا كذلك بالآخرة ، وعرفوا أن الإيمان والاستجابة لله يكون معهما غفران الذنب والإجارة من العذاب . فبشروا وأنذروا بهذا الذى عرفوه .

ويروى ابن إسحاق أن مقالة الجن انتهت عند هذه الآية. ولكن السياق يوحى بأن الآيتين التاليتين هما من مقولات النفر أيضا . ونحن نرجح هذا وبخاصة الآية التالية :

« ومن لايجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ، وليس له من دونه أولياء . أولئك فى ضلال مبين » ..

فهى تكملة طبيعية لنذارة النفر لقومهم فقد دعوهم إلى الاستجابة والإيمان. فالاحتمال قوى

وراجح أن يبينوا لهم أن عدم الاستجابة وخيم العاقبة . وأن الذى لايستجيب لايعجز الله أن يأتى به ويوقع عليه الجزاء . ويذيقه العذاب الأليم ؛ فلايجد له من دون الله أولياء ينصرونه أويعينونه . وأن هؤلاء المعرضين ضالون ضلالا بينا عن الصراط المستقيم .

وكذلك الآية التى بعدها يحتمل كثيرا أن تكون من كلامهم ، تعجيبا من أولئك الذين لايستجيبون لله ؛ حاسبين أنهم سيفلتون ، أوأنه ليس هناك حساب ولاجزاء :

« أولم يروا أن الله الذى خلق السماوات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى؟ بلى . إنه على كل شىء قدير » . .

وهى لفتة إلى كتاب الكون المنظور ، الذى ورد ذكره فى أول السورة. وكثيرا مايتضمن السياق القرآنى مثل هذا التناسق بين قول مباشر فى السورة ، وقول مثله يجىء فى قصة ، فيتم التطابق بين مصدرين على الحقيقة الواحدة .

وكتاب الكون يشهد بالقدرة المبدعة ابتداء لهذا الخلق الهائل : السماوات والأرض . ويوحى للحس البشرى بيسر الإحياء بعد الموت . وهذا الإحياء هو المقصود . وصياغة القضية فى أسلوب الاستفهام والجواب أقوى وآكد فى تقرير هذه الحقيقة . ثم يجىء التعقيب الشامل: « إنه على كل شىء قدير » . . فتضم الإحياء وغيره فى نطاق هذه القدرة الشاملة لكل شىء كان أو يكون .

* * *

وعند ذكر الإحياء يرتسم مشهد الحساب كأنه شاخص للعيون :

« ويوم يعرض الذين كفروا على النار . أليس هذا بالحق ؟ قالوا : بلى وربنا . قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » . .

يبدأ المشهد حكاية أومقدمة لحكاية : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار » . .

وبينما السامع فى انتظار وصف ماسيكون ، إذا المشهد يشخص بذاته . وإذا الحوار قائم فى المشهد المعروض :

« أليس هذا بالحق ؟ » . .

وياله من سؤال؟ بل يالها من قارعة للذين كانوا يكذبون ويستهزئون ويستعجلون ، واليوم تلوى أعناقهم على الحق الذى كانوا ينكرون :

Marfat.com

والجواب فى خزى وفى مذلة وفى ارتياع .

« بلى . وربنا » ..

هكذا هم يقسمون: « وربنا » .. ربهم الذىكانوا لايستجيبون لداعيه ، ولايستمعون لنبيه، ولايعترفون له بربوبية . ثم هم اليوم يقسمون به على الحق الذى أنكروه !

عندئذ يبلغ السؤال غاية من التذيل والتقريع ، ويقضى الأمر ، وينتهى الحوار :

« قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » ..

« كلمة ورد غطاها » .. كما يقال ! الجريمة ظاهرة . الجانى معترف . فإلى الجحيم ! وسرعة المشهد هنا مقصودة . فالمواجهة حاسمة ، ولامجال لأخذ ولارد.لقدكانوا ينكرون. فالآن يعترفون . والآن يذوقون !

* * *

وعلى هذا المشهد الحاسم فى مصير الذين كفروا.وعلى مشهد الإيمان من أبناء عالم آخر . وفى ختام السورة التى عرضت مقولات الكافرين عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن القرآن الكريم .. يجىء الإيقاع الأخير . توجيها للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يصبر عليهم ، ولايستعجل لهم ، فقد رأى ماينتظرهم ، وهو منهم قريب :

« فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل،ولاتستعجل لهم،كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلاساعة من نهار . بلاغ . فهل يهلك إلاالقوم الفاسقون » ..

وكل كلمة فى الآية ذات رصيد ضخم؛ وكل عبارة وراءها عالم من الصور والظلال ، والمعانى والإيحاءات ، والقضايا والقيم .

« فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل . ولاتستعجل لهم » . .

توجيه يقال لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو الذى احتمل مااحتمل، وعانى من قومه ماعانى. وهو الذى نشأ يتيما،وجرد من الولى والحامى ومن كل أسباب الأرض واحدا بعد واحد. الأب. والأم. والجد . والعم . والزوج الوفية الحنون.وخلص لله ولدعوته مجردا من كل شاغل. كما هو مجرد من كل سند أوظهير . وهو الذى لقى من أقاربه من المشركين أشد مما لاقى من الأبعدين. وهو الذى خرج مرة ومرة ومرة يستنصر القبائل والأفراد فرد فى كل مرة بلانصرة.وفى بعض المرات باستهزاء السفهاء،ورجمهم له بالحجارة حتى تدمى قدماه الطاهرتان،فما يزيد على أن يتوجه إلى ربه بذلك الابتهال الخاشع النبيل .

Marfat.com

Marfat.com

وبعد ذلك كله يحتاج إلى توجيه ربه : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولاتستعجل لهم » . .

أ لا إنه لطريق شاق . طريق هذه الدعوة . وطريق مرير . حتى لتحتاج نفس كنفس محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تجردها وانقطاعها للدعوة ، وفى ثباتها وصلابتها ، وفى صفائها وشفافيتها . تحتاج إلى التوجيه الربانى بالصبر وعدم الاستعجال على خصوم الدعوة المتعنتين .

ثم .وإن مشقة هذا الطريق لتحتاج إلى مواساة، وإن صعوبته لتحتاج إلى صبر .وإن مرارته لتحتاج إلى جرعة حلوة من رحيق العطف الإلهى المختوم .

« فاصبر . كما صبر أولو العزم من الرسل ولاتستعجل لهم » . .

تشجيع وتصبير وتأسية وتسلية .. ثم تطمين :

« كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلاساعة من نهار » . .

إنه أمد قصير . ساعة من نهار . وإنها حياة خاطفة تلك التى يمكثونها قبيل الآخرة. وإنها لتافهة لاتترك وراءها من الوقع والأثر فى النفوس إلامثلما تتركه ساعة من نهار .. ثم يلاقون المصير المحتوم . ثم يلبثون فى الأبد الذى يدوم . وماكانت تلك الساعة إلابلاغاً قبل أن يحق الهلاك والعذاب الأليم :

« بلاغ . فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » . .

لا. ومالله يريد ظلما للعباد . لا . وليصبر الداعية على مايلقاه . فما هى إلاساعة من نهار . ثم يكون مايكون . . .

سورة محمد مدنية
وآياتها ٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم

« الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ① وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ ، وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ـ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ـ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ،
وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ ، وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ
مِنْ رَبِّهِمْ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ .

« فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ، حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ،
فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، ذَٰلِكَ ، وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ
مِنْهُمْ ، وَلَٰكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ *
سَيَهْدِيهِمْ ، وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ، وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَالَّذِينَ
كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ ، وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ *
أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ
وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا ، وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى
لَهُمْ * إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ،
وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ * وَكَأَيِّنْ
مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ .

Marfat.com

Marfat.com

« أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ؟ * مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ، وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ؟ » ﴿١٥﴾

هذه السورة مدنية ، ولها اسم آخر . اسمها سورة القتال . وهو اسم حقيق لها . فالقتال هو موضوعها . والقتال هو العنصر البارز فيها . والقتال فى صورها وظلالها . والقتال فى جرسها وإيقاعها .

القتال موضوعها . فهى تبدأ ببيان حقيقة الذين كفروا وحقيقة الذين آمنوا فى صيغة هجوم أدبى على الذين كفروا، وتمجيد كذلك للذين آمنوا ،مع إيحاء بأن الله عدو للأولين وولى للآخرين ،وأن هذه حقيقة ثابتة فى تقدير الله سبحانه.فهو إذن إعلان حرب منه تعالى على أعدائه وأعداء دينه منذ اللفظ الأول فى السورة : «الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم،والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد ـ وهو الحق من ربهم ـ كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم . كذلك يضربُ الله للناس أمثالهم » .

وعقب إعلان هذه الحرب من الله على الذين كفروا ، أمر صريح للذين آمنوا بخوض الحرب ضدهم . فى صيغة رنانة قوية ، مع بيان لحكم الأسرى بعد الإثخان فى المعركة والتقتيل العنيف : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منا بعد وإما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها » . .

ومع هذا الأمر بيان لحكمة القتال ، وتشجيع عليه،وتكريم للاستشهاد فيه ، ووعد من الله بإكرام الشهداء ، وبالنصر لمن يخوض المعركة انتصارا لله : وبهلاك الكافرين وإحباط أعمالهم: « ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم . يا أيها الذين آمنوا إن

Marfat.com

تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم » .

ومعه كذلك تهديد عنيف للكافرين ، وإعلان لولاية الله ونصرته للمؤمنين ، وضياع الكافرين وخذلانهم وضعفهم وتركهم بلا ناصر ولا معين : « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ دمر الله عليهم ، وللكافرين أمثالها . ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لامولى لهم » . . كذلك تهديد آخر للقرية التى أخرجت الرسول صلى الله عليه وسلم : « وكأى من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم » . .

ثم تمضى السورة بعد هذا الهجوم العنيف السافر فى ألوان من الحديث حول الكفر والإيمان،وحال المؤمنين وحال الكافرين فى الدنيا والآخرة . فتفرق بين متاع المؤمن بالطيبات؛ وتمتع الكافرين بلذائذ الأرض كالحيوان : « إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار . والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » . . كما تصف متاع المؤمنين فى الجنة بشتى الأشربة الشهية من ماء غير آسن ، ولبن لم يتغير طعمه ، وخمر لذة للشاربين ، وعسل مصفى ، فى وفر وفيض . . فى صورة أنهار جارية . . ذلك مع شتى الثمرات ، ومع المغفرة والرضوان . ثم سؤال : أهؤلاء « كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ؟ » . .

فإذا انقضت هذه الجولة الأولى فى المعركة السافرة المباشرة بين المؤمنين والكافرين . أعقبها فى السورة جولة مع المنافقين ، الذين كانوا هم واليهود بالمدينة يؤلفون خطرا على الجماعة الإسلامية الناشئة لا يقل عن خطر المشركين الذين يحاربونها من مكة وما حولها من القبائل فى تلك الفترة ، التى يبدو من الوقائع التى تشير إليها السورة أنها كانت بعد غزوة بدر ، وقبل غزوة الأحزاب وماتلاها من خضد شوكة اليهود، وضعف مركز المنافقين (كما ذكرنا فى تفسير سورة الأحزاب) .

والحديث عن المنافقين فى هذه السورة يحمل ظلالها . ظلام الهجوم والقتال . منذ أول إشارة . فهو يصور تلهيهم عن حديث رسول الله ، وغيبة وعيهم واهتمامهم فى مجلسه ؛ ويعقب عليه بما يدمغهم بالضلال والهوى ، : « ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم : ماذا قال آنفا ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم » . .

ويهددهم بالساعة يوم لايستطيعون الصحو ولايملكون التذكر: « فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ؟ فقد جاء أشراطها . فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ؟ » ..

ثم يصور هلعهم وجبنهم وتهافتهم إذا ووجهوا بالقرآن يكلفهم القتال ـ وهم يتظاهرون بالإيمان ـ والفارق بينهم يومئذ وبين المؤمنين الصادقين : « ويقول الذين آمنوا : لولا نزلت سورة ! فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت ! » .

ويحثهم على الطاعة والصدق والثبات . ويرذل اتجاهاتهم ، ويعلن عليهم الحرب والطرد واللعن : « فأولى لهم طاعة وقول معروف . فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم . فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » ..

ويفضحهم فى توليهم للشيطان ، وفى تآمرهم مع اليهود ، ويهددهم بالعذاب عند الموت بالفضيحة التى تكشف أشخاصهم فردا فردا فى المجتمع الإسلامى ، الذى يدمجون أنفسهم فيه ، وهم ليسوا منه ، وهم يكيدون له : « إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى ، الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مانزل الله : سنطيعكم فى بعض الأمر . والله يعلم إسرارهم . فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ؟ ذلك بأنهم اتبعوا ماأسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم . أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم . ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنهم فى لحن القول . والله يعلم أعمالكم ، ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » . .

وفى الجولة الثالثة والأخيرة فى السورة عودة إلى الذين كفروا من قريش ومن اليهود وهجوم عليهم : « إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول ـ من بعد ماتبين لهم الهدى ـ لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم » ..

وتحذير للذين آمنوا أن يصيبهم مثل ماأصاب أعداءهم : « ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، ولاتبطلوا أعمالكم . إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار ، فلن يغفر الله لهم » ..

وتحضيض لهم على الثبات عند القتال : « فلاتهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم » . .

Marfat.com

وتهوين من شأن الحياة الدنيا وأعراضها . وحض على البذل الذى يسره الله ، ولم يجعله استئصالا للمال كله ، رأفة بهم ، وهو يعرف شح نفوسهم البشرية ، وتبرمها وضيقها لوأحفاهم فى السؤال :

« إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ، وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولايسألكم أموالكم . إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم » . .

وتختم السورة بما يشبه التهديد للمسلمين إنهم بخلوا بإنفاق المال ، وبالبذل فى القتال : « ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله ، فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء ، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لايكونوا أمثالكم » . .

* * *

إنها معركة مستمرة من بدء السورة إلى ختامها ؛ يظللها جو القتال ، وتتسم بطابعه فى كل فقراتها .

وجرس الفاصلة وإيقاعهامنذ البدءكأنه القذائف الثقيلة : « أعمالهم. بالهم .أمثالهم. أهواءهم. أمعاءهم ... » . وحتى حين تخف فإنها تشبه تلويح السيوف فى الهواء : « أوزارها . أمثالها. أقفالها . . . » .

وهناك شدة فى الصور كالشدة فى جرس الألفاظ المعبرة عنها .. فالقتال أوالقتل يقول عنه: « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » . . والتقتيل والأسر يصوره بشدة : « حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق » . . والدعاء على الكافرين يجىء فى لفظ قاس : « فتعسا لهم وأضل أعمالهم » .. وهلاك الغابرين يرسم فى صورة مدوية ظلا ولفظا : « دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها » ..وصورة العذاب فى النار تجىء فى هذا المشهد: « وسقوا ماء حميا فقطع أمعاءهم» .. وحالة الجبن والفزع عند المنافقين تجىء فى مشهد كذلك عنيف : « ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت ! » .. حتى تحذير المؤمنين من التولى يجىء فى تهديد نهائى حاسم : « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم » ..

وهكذا يتناسق الموضوع والصور والظلال والإيقاع فى سورة القتال . .

* * *

« الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم. والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا

Marfat.com

بما نزل على محمد ـ وهو الحق من ربهم ـ كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ؛ وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم . كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » ..

افتتاح يمثل الهجوم بلا مقدمة ولا تمهيد ! وإضلال الأعمال الذي يواجه به الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله . سواء صدوا هم أم صدوا وصدوا غيرهم ـ يفيد ضياع هذه الأعمال وبطلانها . ولكن هذا المعنى يتمثل فى حركة . فإذا بنا نرى هذه الأعمال شاردة ضالة ، ونلمح عاقبة هذا الشرود والضلال ، فإذا هى الهلاك والضياع . وهى حركة تخلع ظل الحياة على الأعمال ، فكأنما هى شخوص حية أضلت وأهلكت . وتعمق المعنى وتلقى ظلاله . ظلال معركة تشرد فيها الأعمال عن القوم ، والقوم عن الأعمال . حتى تنتهى إلى الضلال والهلاك !

وهذه الأعمال التى أضلت ربما كان المقصود منها بصفة خاصة الأعمال التى يأملون من ورائها الخير . والتى يبدو على ظاهرها الصلاح . فلا قيمة لعمل صالح من غير إيمان . فهذا الصلاح شكلى لا يعبر عن حقيقة وراءه . والعبرة بالباعث الذى يصدر عنه العمل لا بشكل العمل . وقد يكون الباعث طيبا . ولكنه حين لا يقوم على الإيمان يكون فلتة عارضة أو نزوة طارئة . لا يتصل بمنهج ثابت واضح فى الضمير ، متصل بخط سير الحياة العريض ، ولا بناموس الوجود الأصيل . فلابد من الإيمان ليشد النفس إلى أصل تصدر عنه فى كل اتجاهاتها ، وتتأثر به فى كل انفعالاتها . وحينئذ يكون للعمل الصالح معناه . ويكون له هدفه ويكون له اطراده وتكون له آثاره وفق المنهج الإلهى الذى يربط أجزاء هذا الكون كله فى الناموس ؛ ويجعل لكل عمل ولكل حركة وظيفة وأثرا فى كيان هذا الوجود ، وفى قيامه بدوره ، وانتهائه إلى غايته .

وفى الجانب الآخر : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم » .. والإيمان الأول يشمل الإيمان بما نزل على محمد . ولكن السياق يبرزه ويظهره ليصفه بصفته : « وهو الحق من ربهم » ويؤكد هذا المعنى ويقرره . وإلى جوار الإيمان المستكن فى الضمير ، العمل الظاهر فى الحياة . وهو ثمرة الإيمان الدالة على وجوده وحيويته وانبعاثه .

وهؤلاء : « كفر عنهم سيئاتهم » .. فى مقابل إبطال أعمال الذين كفروا ولو كانت حسنات فى شكلها وظاهرها . وبينما يبطل العمل ولو كان صالحا من الكافرين ، فإن السيئة تغفر للمؤمنين . وهو تقابل تام مطلق يبرز قيمة الإيمان وقدره عند الله ، وفى حقيقة الحياة . .

« وأصلح بالهم » . . وإصلاح البال نعمة كبرى تلى نعمة الإيمان فى القدر والقيمة والأثر

Marfat.com

والتعبير يلقى ظلال الطمأنينة والراحة والثقة والرضى والسلام. ومتى صلح البال، استقام الشعور والتفكير، واطمأن القلب والضمير، وارتاحت المشاعر والأعصاب، ورضيت النفس واستمتعت بالأمن والسلام . . وماذا بعد هذا من نعمة أو متاع ؟ ألا إنه الأفق المشرق الوضيء الرفاف .

ولم كان هذا وكان ذاك ؟ إنها ليست المحاباة . وليست المصادفة . وليس الجزاف . إنما هو أمر له أصله الثابت ، المرتبط بالناموس الأصيل الذى قام عليه الوجود يوم خلق الله السماوات والأرض بالحق ، وجعل الحق هو الأساس :

« ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم » . .

والباطل ليست له جذور ضاربة فى كيان هذا الوجود ؛ ومن ثم فهو ذاهب هالك ؛ وكل من يتبعه وكل مايصدر عنه ذاهب هالك كذلك . ولما كان الذين كفروا اتبعوا الباطل فقد ضلت أعمالهم ، ولم يبق لهم منها شىء ذو غناء .

والحق ثابت تقوم عليه السماوات والأرض ، وتضرب جذوره فى أعماق هذا الكون . ومن ثم يبقى كل مايتصل به ويقوم عليه . ولما كان الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ، فلا جرم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم .

فهو أمر واضح مقرر يقوم على أصوله الثابتة ، ويرجع إلى أسبابه الأصيلة . وما هو فلتة ولامصادفة ولاجزاف !

« كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ».وكذلك يضع لهم القواعد التى يقيسون إليها أنفسهم وأعمالهم . فيعلمون المثل الذى ينتمون إليه ويقاسون عليه . ولايحتارون فى الوزن والقياس !

* * *

ذلك الأصل الذى قررته الآية الأولى فى السورة، يرتب عليه توجيه المؤمنين لقتال الكافرين. فهم على الحق الثابت الذى ينبغى أن يتقرر فى الأرض ، ويستعلى ويهيمن على أقدار الناس والحياة ليصل الناس بالحق وليقيم الحياة على أساسه . والذين كفروا على الباطل الذى ينبغى أن يبطل وتذهب آثاره من الحياة :

« فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب . حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق. فإما منا بعد وإما فداء . حتى تضع الحرب أوزارها » . .

واللقاء المقصود فى الآية هنا هو اللقاء للحرب والقتال لا مجرد اللقاء. فحتى نزول هذه السورة

Marfat.com

كان المشركون فى الجزيرة منهم المحارب ومنهم المعاهد؛ولم تكن بعد قد نزلت سورة « براءة » التى تنهى عهود المشركين المحددة الأجل إلى أجلها ، والمطلقة الأجل إلى أربعة أشهر ؛ وتأمر بقتل المشركين بعد ذلك أنى وجدوا فى أنحاء الجزيرة ــ قاعدة الإسلام ــ أويسلموا .كى تخلص لقاعدة للإسلام (١) .

وضرب الرقاب المأمور به عند اللقاء يجيء بعد عرض الإسلام عليهم وإبائهم له طبعا . وهو تصوير لعملية القتل بصورتها الحسية المباشرة ، وبالحركة التى تمثلها، تمشيا مع جو السورة وظلالها .

« فإذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق » . .

والإثخان شدة التقتيل ، حتى تتحطم قوة العدو وتتهاوى ، فلا تعود به قدرة على هجوم أو دفاع . وعندئذ ــ لاقبله ــ يؤسر من استأسر ويشد وثاقه . فأما والعدو مايزال قويافالإثخان والتقتيل يكون الهدف لتحطيم ذلك الخطر .

وعلى هذا لايكون هناك اختلاف ــ كما رأى معظم المفسرين بين مدلول هذه الآية ، ومدلول آية الأنفال التى عاتب الله فيها الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ والمسلمين لاستكثارهم من الأسرى فى غزوة بدر. والتقتيل كان أولى . وذلك حيث يقول تعالى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم. لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم »(٢) . فالإثخان أولا لتحطيم قوة العدو وكسر شوكته؛ وبعد ذلك يكون الأسر. والحكمة ظاهرة،لأن إزالة القوة المعتدية المعادية للإسلام هى الهدف الأول من القتال . وبخاصة حين كانت القوة العددية للأمة المسلمة قليلة محدودة . وكانت الكثرة للمشركين .وكان قتل محارب يساوى شيئا كبيرا فى ميزان القوى حينذاك. والحكم مايزال ساريا فى عمومه فى كل زمان بالصورة التى تكفل تحطيم قوة العدو ، وتعجيزه عن الهجوم والدفاع .

فأما الحكم فى الأسرى بعد ذلك،فتحدده هذه الآية .وهى النص القرآنى الوحيد المتضمن حكم الأسرى :

« فإما منا بعد وإما فداء » . .

أى إما أن يطلق سراحهم بعد ذلك بلا مقابل من مال أومن فداء لأسرى المسلمين . وإما أن يطلق مقابل فدية من مال أوعمل أو فى نظير إطلاق سراح المسلمين المأسورين .

---

(١) هذا الحكم لايسرى على المشركين خارج الجزيرة . فهؤلاء تقبل منهم الجزية إذا اختاروها .

(٢) تراجع فى الظلال فى سورة الأنفال جزء ١٠ ص ٢٤ ــ ٢٦ .

Marfat.com

وليس فى الآية حالة ثالثة . كالاسترقاق أو القتل . بالنسبة لأسرى المشركين .

ولكن الذى حدث فعلا أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والخلفاء من بعده استرقوا بعض الأسرى – وهو الغالب – وقتلوا بعضهم فى حالات معينة .

ونحن ننقل هنا ماورد حول هذه الآية فى كتاب (أحكام القرآن للإمام الجصاص الحنفى) ونعلق على مانرى التعليق عليه فى ثناياه . قبل أن نقرر الحكم الذى نراه :

* قال الله تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » قال أبو بكر قد اقتضى ظاهره وجوب القتل لاغير إلا بعد الإثخان . وهو نظير قوله تعالى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » .. (وهذا صحيح فليس بين النصين خلاف) .

* حدثنا محمد ابن جعفر ابن محمد ابن الحكم قال : حدثنا جعفر ابن محمد ابن اليمان . قال: حدثنا أبوعبيد . قال : حدثنا عبدالله ابن صالح ، عن معاوية ابن صالح ، عن على ابن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله تعالى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ».قال: ذلك يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل ، فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى بعد هذا فى الأسارى : «فإما منا بعد وإما فداء»..فجعل الله النبى والمؤمنين فى الأسارى بالخيار. إن شاءوا قتلوهم،وإن شاءوا استعبدوهم،وإن شاءوافادوهم . شك أبو عبيد فى..وإن شاءوا استعبدوهم.. (والاستعباد مشكوك فى صدور القول به عن ابن عباس فنتركه . وأما جواز القتل فلانرى له سندا فى الآية وإنما نصها المن أوالفداء) .

* وحدثنا جعفر ابن محمد قال : حدثنا أبوعبيد ، قال : حدثنا أبو مهدى وحجاج ، كلاهما عن سفيان.قال : سمعت السدى يقول فى قوله: « فإما منا بعد وإما فداء »..قال :هى منسوخة، نسخها قوله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » : قال أبو بكر : أما قوله : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » . . وقوله : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » . . وقوله : « فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم » .. فإنه جائز أن يكون حكما ثابتا غير منسوخ . وذلك لأن الله تعالى أمر نبيه – صلى الله عليه وسلم–بالإثخان فى القتل وحظر عليه الأسر – إلا بعد إذلال المشركين وقمعهم – وكان ذلك وقت قلة عدد المسلمين وكثرة عدد عدوهم من المشركين،فمتى أثخن المشركون وأذلوا بالقتل والتشريد جاز الاستبقاء. فالواجب أن يكون هذا حكما ثابتا إذا وجد مثل الحال التى كان عليها المسلمون فى أول الإسلام. (ونقول:

Marfat.com

إن الأمر بقتل المشركين حيث وجدوا خاص بمشركي الجزيرة . بينما النص في سورة محمد عام . فمتى تحقق الإثخان في الأرض جاز أخذ الأسارى .وهذا ماجرى عليه الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم - وبعد نزول سورة براءة بطبيعة الحال ، ولم يقتلوهم إلا في حالات معينة سيأتي بيانها) ..

* وأما قوله: « فإما منا بعد وإما فداء » .. ظاهره يقتضي أحد شيئين: من أو فداء . وذلك ينفي جواز القتل .وقد اختلف السلف في ذلك.حدثنا حجاج عن مبارك ابن فضالة عن الحسن أنه كره قتل الأسير ، وقال : منّ عليه أوفاده.وحدثنا جعفر قال: حدثنا أبو عبيد قال: أخبرنا هشيم قال : أخبرنا أشعث قال : سألت عطاء عن قتل الأسير فقال : منّ عليه أوفاده . قال : وسألت الحسن . قال : يصنع به ماصنع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأسارى بدر ، يمن عليه أويفادى به . وروى عن ابن عمر أنه دفع إليه عظيم من عظماء اصطخر ليقتله ، فأبى أن يقتله ، وتلا قوله : « فإما منا بعد وإما فداء » . وروى أيضا عن مجاهد ومحمد ابن سيرين كراهة قتل الأسير . وقد روينا عن السدى أن قوله: « فإما منا بعد وإما فداء» منسوخ بقوله: « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » . وروى مثله عن ابن جريج . حدثنا جعفر قال : حدثنا أبو عبيد قال : حدثنا حجاج ، عن ابن جريج، قال:هي منسوخة . وقال : قتل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عقبة ابن أبي معيط يوم بدر صبرا،قال أبو بكر: اتفق فقهاء الأمصار على جواز قتل الأسير لانعلم بينهم خلافا فيه ، وقد تواترت الأخبار عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في قتله الأسير ، منها قتله عقبة ابن أبي معيط ، والنضر ابن الحارث بعد الأسر يوم بدر. وقتل يوم أحد أباعزة الشاعر بعد ماأسر. وقتل بني قريظة بعد نزولهم على حكم سعد ابن معاذ، فحكم فيهم بالقتل وسبي الذرية . ومن على الزبير ابن باطا من بينهم ، وفتح خيبر بعضها صلحا وبعضها عنوة ، وشرط على ابن أبي الحقيق ألا يكتم شيئا ، فلما ظهر على خيانته وكتمانه قتله . وفتح مكة وأمر بقتل هلال ابن خطل، ومقيس ابن حبابة،وعبد الله ابن أبي سرح ، وآخرين، وقال : « اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة » . ومن على أهل مكة ولم يغنم أموالهم . وروى عن صالح ابن كيسان عن محمد ابن عبد الرحمان عن أبيه عبد الرحمان ابن عوف،أنه سمع أبابكر الصديق يقول:« وددت أني يوم أتيت بالفجاءة لم أكن أحرقته، وكنت قتلته سريحا ، أو أطلقته نجيحا».وعن أبي موسى أنه قتل دهقان السوس بعد ماأعطاه الأمان

Marfat.com

على قوم سماهم ونسى نفسه فلم يدخلها في الأمان فقتله . فهذه آثار متواترة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وعن الصحابة في جواز قتل الأسير وفي استبقائه . واتفق فقهاء الأمصار على ذلك .(وجواز القتل لايؤخذ من الآية ، ولكن يؤخذ من عمل رسول الله - صلى الله عليه وسلم-وبعض الصحابة.وتتبع الحالات التي وقع فيها القتل يعطي أنها حالات خاصة،وراءها أسباب معينة غير مجرد التعرض للقتال والأسر . فالنضر ابن الحارث وعقبة ابن أبي معيط كلاهما كان له موقف خاص في إيذاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإيذاء دعوته . وكذلك أبوعزة الشاعر ، ولبني قريظة كذلك موقف خاص بارتضائهم حكم سعد ابن معاذ سلفا . وهكذا نجد في جميع الحالات أسبابا معينة تفرد هذه الحالات من الحكم العام للأسرى الذي تقرره الآية: « فإما منا بعد وإما فداء ») . .

* وإنما اختلفوا في فدائه ، فقال أصحابنا جميعا(يعني الحنفية): لايفادى الأسير بالمال، ولايباع السبي من أهل الحرب فيردوا حربا.وقال أبوحنيفة:لايفادون بأسرى المسلمين أيضا، ولايردون حربا أبدا .وقال أبويوسف ومحمد:لابأس أن يفادى أسرى المسلمين بأسرى المشركين . وهو قول الثوري والأوزاعي ، وقال الأوزاعي : لابأس ببيع السبي من أهل الحرب ، ولايباع الرجال إلا أن يفادى بهم المسلمون . وقال المزني عن الشافعي : للإمام أن يمن على الرجال الذين ظهر عليهم أويفادي بهم ، فأما المجيزون للفداء بأسرى المسلمين وبالمال فإنهم احتجوا بقوله: « فإما منا بعد وإما فداء » وظاهره يقتضي جوازه بالمال وبالمسلمين ؛ وبأن النبي - صلى الله عليه وسلم - فدى أسارى بدر بالمال . ويحتجون للفداء بالمسلمين بما روى ابن المبارك ، عن معمر ، عن أيوب ، عن أبي قلابة ، عن أبي المهلب ، عن عمران ابن حصين . قال : أسرت ثقيف رجلين من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم - وأسر أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم- رجلا من بني عامر ابن صعصعة ؛ فمر به النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو موثق ، فناداه ، فأقبل إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : علام أحبس ؟ قال : « بجريرة حلفائك » . فقال الأسير : إني مسلم ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: « لوقلتها وأنت تملك أمرك لأفلحت كل الفلاح » . ثم مضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فناداه أيضا ، فأقبل ، فقال : إني جائع فأطعمني . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « هذه حاجتك » . ثم إن النبي -صلى الله عليه وسلم - فداه بالرجلين اللذين كانت ثقيف أسرتهما .(وحجة القائلين بالفداء أرجح في تقديرنا

Marfat.com

من حجة أصحاب الإمام الجصاص على الاختلاف فى الفداء بالمال أو بأسرى المسلمين) .

* وقد ختم الإمام الجصاص القول فى المسألة بترجيح رأى أصحابه الحنفية قال: وأما مافى الآية من ذكر المن أو الفداء ، وماروى فى أسارى بدر فإن ذلك منسوخ بقوله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم » . . وقد روينا ذلك عن السدى وابن جريج . وقوله تعالى : « قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » إلى قوله: « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ». فتضمنت الآيتان وجوب القتال للكفار حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية . والفداء بالمال أو بغيره ينافى ذلك. ولم يختلف أهل التفسير ونقلة الآثار أن سورة « براءة » بعد سورة « محمد » - صلى الله عليه وسلم - فوجب أن يكون الحكم المذكور فيها ناسخا للفداء المذكور فى غيرها .. (وقد سبق القول بأن هذا القتل للمشركين - أو الإسلام - مقصود به مشركو الجزيرة فهو حكم خاص بهم . أما غيرهم خارجها فتقبل منهم الجزية كما تقبل من أهل الكتاب . وقبول الجزية عند التسليم لاينفى أن يقع الأسرى فى أيدى المسلمين قبل التسليم . فهؤلاء الأسرى ما الحكم فيهم؟ نقول : إنه يجوز المن عليهم إذا رأى الإمام المصلحة ، أو الفداء بهم بالمال أو بالمسلمين، إذا ظل قومهم قوة لم تستسلم بعد ولم تقبل الجزية. فأما عند الاستسلام للجزية فالأمر منته بطبيعته وهذه حالة أخرى ، فحكم الأسرى يظل ساريا فى الحالة التى لم تنته بالجزية).

والخلاصة التى ننتهى إليها أن هذا النص هو الوحيد المتضمن حكم الأسرى. وسائر النصوص تتضمن حالات أخرى غير حالة الأسر. وأنه هو الأصل الدائم للمسألة . وماوقع بالفعل خارجا عنه كان لمواجهة حالات خاصة وأوضاع وقتية . فقتل بعض الأسرى كان فى حالات فردية يمكن أن يكون لها دائما نظائر ؛ وقد أخذوا بأعمال سابقة على الأسر ، لابمجرد خروجهم للقتال . ومثال ذلك أن يقع جاسوس أسيرا فيحاكم على الجاسوسية لا على أنه أسير . وإنما كان الأسر مجرد وسيلة للقبض عليه .

ويبقى الاسترقاق . وقد سبق لنا فى مواضع مختلفة من هذه الظلال القول بأنه كان لمواجهة أوضاع عالمية قائمة ، وتقاليد فى الحرب عامة. ولم يكن ممكنا أن يطبق الإسلام فى جميع الحالات النص العام : « فإما منا بعد وإما فداء » .. فى الوقت الذى يسترق أعداء الإسلام من يأسرونهم من المسلمين . ومن ثم طبقه الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى بعض الحالات فأطلق بعض

Marfat.com

الأسارى منا . وفادى ببعضهم أسرى المسلمين ، وفادى بعضهم بالمال . وفى حالات أخرى وقع الاسترقاق لمواجهة حالات قائمة لاتعالج بغير هذا الإجراء .

فإذا حدث أن اتفقت المعسكرات كلها على عدم استرقاق الأسرى،فإن الإسلام يرجع حينئذ إلى قاعدته الإيجابية الوحيدة وهى : « فإما منا بعد وإما فداء » لانقضاء الأوضاع التى كانت تقضى بالاسترقاق.فليس الاسترقاق حتميا،وليس قاعدة من قواعد معاملة الأسرى فى الإسلام .

وهذا هو الرأى الذىنستوحيه من النص القرآنى الحاسم.ومن دراسة الأحوال والأوضاع والأحداث .. والله الموفق للصواب .

ويحسن أن يكون مفهوما أننى أجنح إلى هذا الرأى لأن النصوص القرآنية واستقراء الحوادث وظروفها يؤيده،لالأنه يهجس فى خاطرى أناسترقاق الأسرى تهمة أحاول أن أبرئ الإسلام منها ! إن مثل هذا الخاطر لايهجس فى نفسى أبدا، فلوكان الإسلام رأى هذا لكان هو الخير ، لأنه مامن إنسان يعرف شيئا من الأدب يملك أن يقول : إنه يرى خيرا مما يرى الله . إنما أنا أسير مع نص القرآن وروحه فأجنح إلى ذلك الرأى بإيحاء النص واتجاهه .

وذلك . . – أى القتال وضرب الرقاب وشد الوثاق واتباع هذه القاعدة فى الأسرى – « حتى تضع الحرب أوزارها » . . أى حتى تنتهى الحرب بين الإسلام وأعدائه المناوئين له . فهى القاعدة الكلية الدائمة . ذلك أن « الجهاد ماض إلى يوم القيامة » كما يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى تكون كلمة الله هى العليا (١) .

* * *

والله لايكلف الذين آمنوا هذا الأمر ، ولايفرض عليهم هذا الجهاد ، لأنه يستعين بهم – حاشاه – على الذين كفروا . فهو سبحانه قادر على أن يقضى عليهم قضاء مباشرا ؛ وإنما هو ابتلاء الله لعباده بعضهم ببعض ؛ الابتلاء الذى تقدر به منازلهم :

« ذلك ولويشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض . والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم » .

إن هؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، وأمثالهم فى الأرض كلها فى كل زمان من البغاة الطغاة المفسدين،الذين يظهرون فى ثوب البطش والاستكبار،ويتراءون لأنفسهم وللضالين من أتباعهم قادرين أقوياء . إن هؤلاء جميعا حفنة من الخلق . تعيش على ظهر هذه الهباءة

(١) من حديث أخرجه أبو داود – باسناده – عن أنس رضى الله عنه .

Marfat.com

Marfat.com

الصغيرة المسماة بالأرض ، بين هذه الكواكب والنجوم والمجموعات الفلكية والمجرات والعوالم التى لايعلم عددها ولامداها إلا الله فى هذا الفضاء الذى تبدو فيه هذه المجرات والعوالم نقطا متناثرة ، تكاد تكون ضائعة ، لايمسكها ولايجمعها ولاينسقها إلا الله .

فلا يبلغ هؤلاء ومن وراءهم من الأتباع . بل لايبلغ أهل هذه الأرض كلها . أن يكونوا نمالا صغيرة . لابل إنهم لايبلغون أن يكونوا هباء تتقاذفه النسمات . لابل إنهم لايبلغون شيئا أصلا حين يقفون أمام قوة الله .

إنما يتخذ الله المؤمنين ـ حين يأمرهم بضرب رقاب الكفار وشد وثاقهم بعد إثخانهم ـ إنما يتخذهم سبحانه ستارا لقدرته . ولوشاء لانتصر من الكافرين جهرة . كما انتصر من بعضهم بالطوفان والصيحة والريح العقيم . بل لانتصر منهم من غير هذه الأسباب كلها . ولكنه إنما يريد لعباده المؤمنين الخير . وهو يبتليهم ، ويربيهم ، ويصلحهم ، وييسر لهم أسباب الحسنات الكبار .

يريد ليبتليهم . وفى هذا الابتلاء يستجيش فى نفوس المؤمنين أكرم مافى النفس البشرية من طاقات واتجاهات . فليس أكرم فى النفس من أن يعز عليها الحق الذى تؤمن به ، حتى تجاهد فى سبيله ، فتقتل وتقتل ، ولاتسلم فى هذا الحق الذى تعيش له وبه ، ولاتستطيع الحياة بدونه ، ولاتحب هذه الحياة فى غير ظله .

ويريد ليربيهم . فيظل يخرج من نفوسهم كل هوى وكل رغبة فى أعراض هذه الأرض الفانية مما يعز عليهم أن يتخلوا عنه . ويظل يقوى فى نفوسهم كل ضعف ويكمل كل نقص ، وينفى كل زغل ودخل ، حتى تصبح رغائبهم كلها فى كفة وفى الكفة الأخرى تلبية دعوة الله للجهاد ، والتطلع إلى وجه الله ورضاه . فترجح هذه وتشيل تلك . ويعلم الله من هذه النفوس أنها خيرت فاختارت ، وأنها تربت فعرفت ، وأنها لاتندفع بلا وعى ، ولكنها تقدر وتختار .

ويريد ليصلحهم . ففى معاناة الجهاد فى سبيل الله ، والتعرض للموت فى كل جولة ، مايعود النفس الاستهانة بهذا الخطر المخوف ، الذى يكلف الناس الكثير من نفوسهم وأخلاقهم وموازينهم وقيمهم ليتقوه . وهو هين هين عند من يعتاد ملاقاته . سواء سلم منه أو لاقاه . والتوجه به لله فى كل مرة يفعل فى النفس فى لحظات الخطر شيئا يقربه للتصور فعل الكهرباء بالأجسام ! وكأنه صياغة جديدة للقلوب والأرواح على صفاء ونقاء وصلاح .

ثم هى الأسباب الظاهرة لإصلاح الجماعة البشرية كلها،عن طريق قيادتها بأيدى المجاهدين الذين فرغت نفوسهم من كل أعراض الدنيا وكل زخارفها ؛ وهانت عليهم الحياة وهم يخوضون غمار الموت فى سبيل الله . ولم يعد فى قلوبهم ما يشغلهم عن الله والتطلع إلى رضاه . . وحين تكون القيادة فى مثل هذه الأيدى تصلح الأرض كلها ويصلح العباد . ويصبح عزيزا على هذه الأيدى أن تسلم فى راية القيادة للكفر والضلال والفساد ؛ وهى قد اشترتها بالدماء والأرواح، وكل عزيز وغال أرخصته لتتسلم هذه الراية لا لنفسها ولكن لله !

ثم هو بعد ذلك كله تيسير الوسيلة لمن يريد الله بهم الحسنى لينالوا رضاه وجزاءه بغير حساب. وتيسير الوسيلة لمن يريد الله بهم السوءى ليكسبوا ما يستحقون عليه غضبه وعذابه . وكل ميسر لما خلق له . وفق مايعلمه الله من سره ودخيلته :

ومن ثم يكشف عن مصير الذين يقتلون فى سبيل الله :

« والذين قتلوا فى سبيل الله ، فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ، ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم » . .

لن يضل أعمالهم . . فى مقابل ما جاء عن الذين كفروا أنه أضل أعمالهم . فهى أعمال مهتدية واصلة مربوطة إلى الحق الثابت الذى صدرت عنه ، وانبعثت حماية له ، واتجاها إليه . وهى باقية من ثم لأن الحق باق لا يهدر ولا يضيع .

ثم نقف أمام هذه الحقيقة الهائلة . . حقيقة حياة الشهداء فى سبيل الله . . فهى حقيقة مقررة من قبل فى قوله تعالى : « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » . . ولكنها تعرض هنا عرضا جديدا . تعرض فى حالة امتداد ونماء فى طريقها الذى غادرت الحياة الدنيا وهى تسلكه وتتوخاه . طريق الطاعة والهداية والتجرد والنقاء :

« سيهديهم ويصلح بالهم » . .

فالله ربهم الذى قتلوا فى سبيله ، يظل يتعهدهم بالهداية ـ بعد الاستشهاد ـ ويتعهدهم بإصلاح البال ، وتصفية الروح من بقية أو شاب الأرض ؛ أو يزيدها صفاء لتتناسق مع صفاء الملإ الأعلى الذى صعدت إليه ، وإشراقه وسناه . فهى حياة مستمرة فى طريقها لم تتقطع إلا فيما يرى أهل الأرض المحجوبون . وهى حياة يتعهدها الله ربها فى الملإ الأعلى . ويزيدها هدى ، ويزيدها صفاء ، ويزيدها إشراقا . وهى حياة نامية فى ظلال الله .

Marfat.com

Marfat.com

وأخيرا يحقق لهم ماوعدهم :

« ويدخلهم الجنة عرفها لهم » ..

وقد ورد حديث عن تعريف الله الجنة للشهداء رواه الإمام أحمد فى مسنده قال : حدثنا زيد ابن تمر الدمشقى ، حدثنا ابن ثوبان ، عن أبيه ، عن مكحول ، عن كثير ابن مرة ، عن قيس الجذامى ـ رجل كانت له صحبة ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « يعطى الشهيد ست خصال : عند أول قطرة من دمه ، تكفر عنه كل خطيئة،ويرى مقعده من الجنة، ويزوج من الحور العين ، ويأمن من الفزع الأكبر ومن عذاب القبر، ويحلى حلة الإيمان » .. تفرد به أحمد . وقد روى حديثا آخر قريبا من هذا المعنى . وفيه النص على رؤية الشهيد لمقعده من الجنة . أخرجه الترمذى وصححه ابن ماجة .

فهذا تعريف الله الجنة للشهداء فى سبيله . وهذه هى نهاية الهداية الممتدة ، وإصلاح البال المستأنف بعد مغادرتهم لهذه الأرض . ونماء حياتهم وهداهم وصلاحهم هناك عند الله .

***

وفى ظل هذه الكرامة للذين قتلوا فى سبيل الله . وفى ظل ذلك الرضى ، وتلك الرعاية، وبلوغ ذلك المقام . يحرض الله المؤمنين على التجرد لله ، والاتجاه إلى نصرة نهجه فى الحياة ؛ ويعدهم على هذا النصر والتثبيت فى المعركة ؛ والتعس والضلال لأعدائهم وأعدائه :

« ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم.والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهوا ماأنزل الله فأحبط أعمالهم » ..

وكيف ينصر المؤمنون الله، حتى يقوموا بالشرط وينالوا ماشرط لهم من النصر والتثبيت ؟ .

إن لله فى نفوسهم أن تتجرد له ، وألاتشرك به شيئا ، شركا ظاهرا أوخفيا، وألاتستبقى فيها معه أحدا ولاشيئا ، وأن يكون الله أحب إليها من ذاتها ومن كل ماتحب وتهوى ، وأن تحكمه فى رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها ، وسرها وعلانيتها ، ونشاطها كله وخلجاتها . . فهذا نصر الله فى ذوات النفوس .

وإن لله شريعة ومنهاجا للحياة ، تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة . ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه ، ومحاولة تحكيمها فى الحياة كلها بدون استثناء ، فهذا نصر الله فى واقع الحياة .

ونقف لحظة أمام قوله تعالى : « والذين قتلوا فى سبيل الله » . . وقوله : « إن تنصروا الله » . .

وفى كلتا الحالتين . حالة القتل . وحالة النصرة . يشترط أن يكون هذا لله وفى سبيل الله. وهى لفتة بديهية ، ولكن كثيرا من الغبش يغطى عليها عندما تنحرف العقيدة فى بعض الأجيال. وعندما تهون كلمات الشهادة والشهداء والجهاد وترخص ، وتنحرف عن معناها الوحيد القويم .

إنه لاجهاد ، ولاشهادة ، ولاجنة ، إلاحين يكون الجهاد فى سبيل الله وحده ، والموت فى سبيله وحده ، والنصرة له وحده ، فى ذات النفس وفى منهج الحياة .

لاجهاد ولاشهادة ولاجنة إلا حين يكون الهدف هو أن تكون كلمة الله هى العليا . وأن تهيمن شريعته ومناهجه فى ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم، وفى أوضاعهم وتشريعهم ونظامهم على السواء .

عن أبى موسى ـ رضى الله عنه ـ قال : سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء . أى ذلك فى سبيل الله ! فقال: « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله [1] » .

وليس هنالك من راية أخرى،أوهدف آخر ، يجاهد فى سبيله من يجاهد، ويستشهد دون من يستشهد ، فيحق له وعد الله بالجنة . إلاتلك الراية وإلا هذا الهدف . من كل مايروج ا الأجيال المنحرفة التصور من رايات وأسماء وغايات !

ويحسن أن يدرك أصحاب الدعوة هذه اللفتة البديهية،وأن يخلصوها فى نفوسهم من الشوائب التى تعلق بها من منطق البيئة وتصور الأجيال المنحرفة، وألا يلبسوا برايتهم راية ، ولا يخلطوا بتصورهم تصورا غريبا على طبيعة العقيدة .

لا جهاد إلا لتكون كلمة الله هى العليا . العليا فى النفس والضمير . والعليا فى الخلق والسلوك . والعليا فى الأوضاع والنظم . والعليا فى العلاقات والارتباطات فى كل أنحاء الحياة . وما عدا هذا فليس لله . ولكن للشيطان . وفيما عدا هذا ليست هناك شهادة ولا استشهاد . وفيما عدا هذا ليس هنالك جنة ولا نصر من عند الله ولا تثبيت للأقدام . وإنما هو الغبش وسوء التصور والانحراف .

---

(١) أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى .

Marfat.com

Marfat.com

وإذا عز على غير أصحاب الدعوة لله أن يتخلصوا من هذا الغبش وسوء التصور والانحراف، فلا أقل من أن يخلص الدعاة إلى الله أنفسهم ومشاعرهم وتصورهم من منطق البيئة الذى لا يتفق مع البديهية الأولى فى شرط الله ..

وبعد فهذا شرط الله على الذين آمنوا . فأما شرطه لهم فهو النصر وتثبيت الأقدام. وعدالله لا يخلفه. فإذا تخلف فترة؛ فهو أجل مقدر لحكمة أخرى تتحقق مع تحقق النصر والتثبيت(١). ذلك حين يصح أن المؤمنين وفوا بالشرط ثم تخلف عنهم ـ فترة ـ نصر الله .

ثم نقف لحظة أمام لفتة خاصة فى التعبير : « ينصركم . ويثبت أقدامكم » . .

إن الظن يذهب لأول وهلة أن تثبيت الأقدام يسبق النصر ، ويكون سببا فيه . وهذا صحيح . ولكن تأخير ذكره فى العبارة يوحى بأن المقصود معنى آخر من معانى التثبيت . معنى التثبيت على النصر وتكاليفه . فالنصر ليس نهاية المعركة بين الكفر والإيمان ، وبين الحق والضلال . فللنصر تكاليفه فى ذات النفس وفى واقع الحياة . للنصر تكاليفه فى عدم الزهو به والبطر . وفى عدم التراخى بعده والتهاون . وكثير من النفوس يثبت على المحنة والبلاء. ولكن القليل هو الذى يثبت على النصر والنعماء . وصلاح القلوب وثباتها على الحق بعد النصر منزلة أخرى وراء النصر . ولعل هذا هو ما تشير إليه عبارة القرآن . والعلم لله .

« والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم » . .

وذلك عكس النصر وتثبيت الأقدام . فالدعاء بالتعس قضاء من الله سبحانه بالتعاسة والخيبة والخذلان . وإضلال الأعمال ضياع بعد ذلك وفناء ..

« ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم » ..

وهو تصوير لما يعتمل فى قلوبهم ويختلج فى نفوسهم من الكراهية لما أنزل الله من قرآن وشريعة ومنهج واتجاه . وهذا هو الذى يدفع بهم إلى الكفر والعناد والخصومة واللاحاة . وهى حالة كثير من النفوس الفاسدة التى تكره بطبعها ذلك النهج السليم القويم ، وتصادمه من داخلها ، بحكم مغايرة طبيعتها لطبيعته . وهى نفوس يلتقى بها الإنسان كثيرا فى كل زمان وفى كل مكان . ويحس منها النفرة والكراهية لهذا الدين وما يتصل به ؛ حتى إنها لتفزع من مجرد ذكره كما لو كانت قد لدغتها العقارب ! وتتجنب أن يجيء ذكره أو الإشارة إليه فيما

---

(١) تراجع الظلال فى سورة الحج عند قوله تعالى : « ان الله يدافع عن الذين آمنوا » من ص ٩٦ الى ص ٩٩ من الجزء ١٧.

Marfat.com

تسمع حولها من حديث! ولعلنا نشاهد فى هذه الأيام حالة من هذا الطراز لا تخفى على الملاحظة!

وكان جزاء هذه الكراهية لما أنزل الله ، أن أحبط الله أعمالهم . وإحباط الأعمال تعبير تصويرى على طريقة القرآن الكريم فى التعبير بالتصوير . فالحبوط انتفاخ بطون الماشية عند أكلها نوعا من المرعى سام . ينتهى بها إلى الموت والهلاك . وكذلك انتفخت أعمالهم وورمت وانبعجت . . ثم انتهت إلى الهلاك والضياع ! إنها صورة وحركة ، ونهاية مطابقة لحال من كرهوا ما أنزل الله ثم تعاجبوا بالأعمال الضخام . المنتفخة كبطون الأنعام ، حين ترعى من ذلك النبت السام !

* * *

ثم يلوى أعناقهم إلى مصارع الغابرين قبلهم فى شدة وعنف :

« أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم؟ دمر الله عليهم . وللكافرين أمثالها » . .

وهى لفتة عنيفة مروعة ، فيها ضجة وفرقعة . وفيها مشهد للذين من قبلهم يدمر عليهم كل ما حولهم ، وكل مالهم ، فإذا هو أنقاض متراكمة ، وإذا هم تحت هذه الأنقاض المتراكمة . وذلك المشهد الذى يرسمه التعبير مقصود بصورته هذه وحركته ، والتعبير يحمل فى إيقاعه وجرسه صورة هذا المشهد وفرقعته فى انقضاضه وتحطمه !

وعلى مشهد التدمير والتحطيم والردم ، يلوح للحاضرين من الكافرين ، ولكل من يتصف بهذه الصفة بعد ، بأنها فى انتظارهم . هذه الوقعة المدمرة التى تدمر عليهم كل شىء وتدفنهم بين الأنقاض : « وللكافرين أمثالها » !

وتفسير هذا الأمر الهائل المروع الذى يدمر على الكافرين وينصر المؤمنين هو القاعدة الأصيلة الدائمة :

« ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لا مولى لهم » . .

ومن كان الله مولاه وناصره فحسبه ، وفيه الكفاية والغناء ؛ وكل ماقد يصيبه إنما هو ابتلاء وراءه الخير ، لا تخليا من الله عن ولايته له ، ولا تخلفا لوعد الله بنصر من يتولاهم من عباده . ومن لم يكن الله مولاه فلا مولى له ، ولو اتخذ الإنس والجن كلهم أولياء . فهو فى النهاية مضيع عاجز ؛ ولو تجمعت له كل أسباب الحماية وكل أسباب القوة التى يعرفها الناس !

* * *

ثم يوازن بين نصيب الذين آمنوا ونصيب الذين كفروا من المتاع بعد مابين نصيب هؤلاء وهؤلاء فيما يشتجر بينهم من قتال ونزال . مع بيان الفارق الأصيل بين متاع ومتاع :

« إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار . والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم » . .

والذين آمنوا وعملوا الصالحات يتمتعون فى الأرض أحيانا من أطيب المتاع؛ ولكن الموازنة هنا إنما تقوم بين النصيب الحقيق الضخم للمؤمنين ـ وهو نصيبهم فى الجنة ـ والنصيب الكلى للكافرين الذى لا نصيب لهم سواه .

ونصيب المؤمنين يتلقونه من يد الله فى جنات تجرى من تحتها الأنهار . فالله هو الذى يدخلهم. وهو إذن نصيب كريم علوى رفيع . وهم ينالونه من بين يدى الله فى علاه جزاء على الإيمان والصلاح ، متناسقا فى رفعته وكرامته مع الارتفاع المنطلق من الإيمان والصلاح .

ونصيب الذين كفروا متاع وأكل « كما تأكل الإنعام » . . وهو تصور زرى، يذهب بكل سمات الإنسان ومعالمه ؛ ويلقى ظلال الأكل الحيوانى الشره ، والمتاع الحيوانى الغليظ. بلا تذوق، وبلا تعفف عن جميل أو قبيح . . إنه المتاع الذى لا ضابط له من إرادة ، ولا من اختيار ، ولا حارس عليه من تقوى ، ولا رادع عنه من ضمير .

والحيوانية تتحقق فى المتاع والأكل ، ولو كان هناك ذوق مرهف للطعوم ، وحس مدرب فى اختيار صنوف المتاع ، كما يتفق هذا لكثير من الناشئين فى بيوت النعمة والثراء . وليس هذا هو المقصود . إنما المقصود هو حساسية الإنسان الذى يملك نفسه وإرادته ، والذى له قيم خاصة للحياة؛ فهو يختار الطيب عند الله . عن إرادة لا يخضعها ضغط الشهوة، ولا يضعفها هتاف اللذة. ولا تحسب الحياة كلها مائدة طعام، وفرصة متاع؛ بلا هدف بعد ذلك ولا تقوى فيما يباح وما لا يباح!

إن الفارق الرئيسى بين الإنسان والحيوان : أن للإنسان إرادة وهدفا وتصورا خاصا للحياة يقوم على أصولها الصحيحة ، المتلقاة من الله خالق الحياة . فإذا فقد هذا كله فقد أهم خصائص الإنسان المميزة لجنسه ، وأهم المزايا التى من أجلها كرمه الله .

* * *

وتعترض سلسلة الموازنات بين الذين آمنوا والذين كفروا لفتة إلى القرية التى أخرجت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وموازنة بينها وبين القرى الهالكة وكانت أشد قوة منها :

Marfat.com

Marfat.com

« وكأى من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم »..

وهى آية يروى أنها نزلت فى الطريق بين مكة والمدينة فى أثناء رحلة الخروج والهجرة ، تسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتسرية عنه؛وتهوينا من شأن المشركين الجبارين الذين وقفوا فى وجه الدعوة ، وآذوا أصحابها ، حتى هاجروا من أرضهم وأهلهم وأموالهم فرارا بعقيدتهم .

* * *

ثم يمضى فى الموازنة بين حال الفريقين ؛ويعلل لم كان الله ولى المؤمنين يدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار فى الآخرة ، بعد النصر والكرامة فى الدنيا ؟ ولم كان الذين كفروا لامولى لهم معرضين للهلاك فى الدنيا ـ بعد حياة حيوانية هابطة ـ وللعذاب فى الآخرة والثوى فى النار والإقامة :

« أفمن كان على بينة من ربه ، كمن زين له سوء عمله ، واتبعوا أهواءهم ؟ » ..

فهو فارق أصيل فى الحالة التى عليها الفريقان ، وفى المنهج والسلوك سواء . فالذين آمنوا « على بينة من ربهم » .. رأوا الحق وعرفوه ، واستيقنوا من مصدره واتصلوا بربهم فتلقوا عنه ، وهم على يقين مما يتلقون .غير مخدوعين ولامضللين.والذين كفروا زين لهم سوءعملهم، فرأوه حسنا وهو سيئ ؛ ولم يروا ولم يستيقنوا ، « واتبعوا أهواءهم » .. بلا ضابط يرجعون إليه ، ولاأصل يقيسون عليه ، ولانور يكشف لهم الحق من الباطل .

أهؤلاء كهؤلاء ؟ إنهم يختلفون حالا ومنهجا واتجاها. فلا يمكن أن يتفقوا ميزانا ولاجزاء ولامصيرا !

وهذه صورة من صور التفرقة بين هؤلاء وهؤلاء فى المصير:

« مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ؛ ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم . كمن هو خالد فى النار ، وسقوا ماء حميا فقطع أمعاءهم ؟ » ..

إن هذه الصور الحسية من النعيم والعذاب تردفى مواضع من القرآن.وقد تجىء معها صور معنوية أوتجىء مجردة .كما أن صور النعيم والعذاب المجردة عن الحسيات تجىء فى مواضع أخرى. والله الذى خلق البشر ، أعلم بمن خلق ، وأعرف بما يؤثر فى قلوبهم ، ومايصلح لتربيتهم ـ

Marfat.com

ثم مايصلح لنعيمهم ولعذابهم . والبشر صنوف ، والنفوس ألوان ، والطبائع شتى . تلتقى كلها فى فطرة الإنسان ، ثم تختلف وتتنوع بحسب كل إنسان . ومن ثم فصل الله ألوان النعيم والعذاب، وصنوف المتاع والآلام ، وفق علمه المطلق بالعباد . .

هنالك ناس يصلح لتربيتهم ولاستجاشة همتهم للعمل كما يصلح لجزائهم ويرضى نفوسهم أن يكون لهم أنهار من ماء غير آسن ، أوأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، أوأنهار من عسل مصفى، أوأنهار من خمر لذة للشاربين . أوصنوف من كل الثمرات . مع مغفرة من ربهم تكفل لهم النجاة من النار والمتاع بالجنات . . فلهؤلاء مايصلح لتربيتهم ، ومايليق لجزائهم .

وهنالك ناس يعبدون الله لأنهم يشكرونه على نعمه التى لايحصونها. أولأنهم يحبونه ويتقربون إليه بالطاعات تقرب الحبيب للحبيب. أولأنهم يستحيون أن يراهم الله على حالة لايحبها. ولاينظرون وراء ذلك إلى جنة أو إلى نار ، ولا إلى نعيم أو عذاب على الإطلاق ، وهؤلاء يصلح لهم تربية ويصلح لهم جزاء أن يقول الله لهم : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمان ودا » . . أو أن يعلموا أنهم سيكونون : « فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » . .

ولقد روى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كان يصلى حتى تنفر رجلاه . فقالت له عائشة ـ رضى الله عنها ـ يارسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر؟ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ياعائشة أفلا أكون عبدا شكورا ؟ » (١) . .

وتقول رابعة العدوية : « أولو لم تكن جنة ولانار لم يعبد الله أحد ، ولم يخشه أحد ؟ » .

وتجيب سفيان الثورى وقد سألها : ماحقيقة إيمانك ؟ تقول : ماعبدته خوفا من ناره ، ولاحبا لجنته ، فأكون كالأجير السوء . عبدته شوقا إليه » . .

وبين هذا اللون وذلك ألوان من النفوس والمشاعر والطباع . . وكلها تجد ـ فيما جعله الله من نعيم وعذاب ، ومن ألوان الجزاء ـ مايصلح للتربية فى الأرض ؛ ومايناسب للجزاء عندالله.

والملاحظ عموما أن صور النعيم والعذاب ترق وتشف كلما ترقى السامعون فى مراقى التربية والتهذيب على مدى نزول القرآن. وحسب أنواع المخاطبين ، والحالات المتنوعة التى كانت تخاطب بالآيات . وهى حالات ونماذج تتكرر فى البشرية فى جميع الأعصار .

وهنا نوعان من الجزاء : هذه الأنهار مع كل الثمرات مع المغفرة من الله .والنوع الآخر: « كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميا فقطع أمعاءهم » . .

---

(١) أخرجه مسلم فى الصحيح من رواية عبدالله ابن وهب .

Marfat.com

وهى صورة حسية عنيفة من العذاب ، تناسب جو سورة القتال ،وتناسب مع غلظ طبيعة القوم . وهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام. فالجو جو متاع غليظ وأكل غليظ. والجزاء ماء حميم ساخن وتقطيع للأمعاء ، التى كانت تحش وتلتهم الأكل كالأنعام !

ولن يكون هؤلاء كهؤلاء فى الجزاء ، كما أنهم فى الحال والمنهج ليسوا سواء ..

***

بهذا يختم الجولةالأولى التى بدأتبالهجوم عند افتتاح السورة، واستمرتفى معركة متصلة ، عنيفة ، حتى الختام ..

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ : مَاذَا قَالَ آنِفًا ؟ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ⑯ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ، وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ * فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ؟ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ، فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ؟ * فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ . وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ .

« وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا : لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ! فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَأَوْلَىٰ لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ، فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ * فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ، وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ * أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ؟

« إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ : سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ

وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ * فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ ٱللَّهَ ، وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ، فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ .

« أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ؟ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ، وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ، وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ » (٣١)

هذه الجولة مع المنافقين ، وموقفهم إزاء شخص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإزاء القرآن . ثم موقفهم من الجهاد الذى فرضه الله على المسلمين لإعلاء كلمة الله. وأخيرا موقفهم من اليهود وتآمرهم معهم سرا للإيقاع بالإسلام والمسلمين .

وحركة النفاق حركة مدنية ، لم يكن لها وجود فى مكة ، لأنه لم يكن هناك ما يدعو إليها . فالمسلمون فى مكة كانوا فى موقف المضطهد ، الذى لايحتاج أحد أن ينافقه! فلما أعز الله الإسلام والمسلمين بالأوس والخزرج فى المدينة ، وانتشاره فى العشائر والبيوت بحيثلم يبق بيت إلادخله الإسلام ، اضطرناس ممن كرهوا لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللإسلام أن يعز ويستعلى، ولم يملكوا فى الوقت ذاته أن يجهروا بالعداوة، اضطروا إلى التظاهر بالإسلام على كره.وهم يضمرون الحقد والبغضاء ، ويتربصون بالرسول وأصحابه الدوائر . وعلى رأسهم عبد اللهابن أبىّابن سلول رأس النفاق المعروف .

وكان وجود اليهود فىالمدينة وتمتعهم فيها بقوة عسكرية وقوة اقتصاديةوقوة تنظيمية فى أول العهد المدنى . وكراهيتهم كذلك لظهور محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودينه وأتباعه. كان وجود اليهود على هذا الوضع مشجعا للمنافقين . وسرعان ماجمعتهم البغضاء والحقد فأخذوا فى حبك المؤامرات ودس الدسائس فى كل مناسبة تعرض . فإن كان المسلمون فى شدة ظهروا بعدائهم وجهروا ببغضائهم ؛ وإذا كانوا فى رخاء ظلت الدسائس سرية والمكايد فى الظلام ! وكانوا إلى منتصف العهد المدنى يؤلفون خطرا حقيقيا على الإسلام والمسلمين .

وقد تواتر ذكر المنافقين ، ووصف دسائسهم ، والتنديد بمؤامراتهم وأخلاقهم فى السور

Marfat.com

Marfat.com

المدنية ، كما تكرر ذكر اتصالهم باليهود ، وتلقيهم عنهم ، واشتراكهم معهم في بعض المؤامرات المحبوكة . وهذا أحد المواضع التي وردت فيها الإشارة إلى المنافقين، والإشارة كذلك إلى اليهود .

* * *

« ومنهم من يستمع إليك ، حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم : ماذا قال آنفا ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ، واتبعوا أهواءهم » ..

ولفظة : « ومنهم » تحتمل أن تكون إشارة للذين كفروا الذين كان يدور الحديث عنهم في الجولة السابقة في السورة . باعتبار أن المنافقين في الحقيقة فرقة من الكفار مستورة الظاهر ، والله يتحدث عنها بحقيقتها في هذه الآية .

كما تحتمل أن تكون إشارة للمسلمين باعتبار أن المنافقين مندمجون فيهم ، متظاهرون بالإسلام معهم . وقد كانوا يعاملون معاملة المسلمين بحسب ظاهرهم ، كما هو منهج الإسلام في معاملة الناس .

ولكنهم في كلتا الحالتين هم المنافقون كما تدل عليه صفتهم في الآية وفعلهم ، وكما يدل السياق في هذه الجولة من السورة ، والحديث فيها عن المنافقين .

وسؤالهم ذاك بعد استماعهم للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والاستماع معناه السماع باهتمام ـ يدل على أنهم كانوا يتظاهرون تظاهرا بأنهم يلقون سمعهم وبالهم للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقلوبهم لاهية غافلة . أو مطموسة مغلقة . كما أنه قد يدل من جانب آخر على الغمز الخفي اللئيم إذ يريدون أن يقولوا بسؤالهم هذا لأهل العلم : إن ما يقوله محمد لا يفهم ، أو لا يعني شيئا يفهم . فهاهم أولاء مع استماعهم له ، لا يجدون له فحوى ولا يمسكون منه بشيء ! كذلك قد يعنون بهذا السؤال السخرية من احتفال أهل العلم بكل ما يقوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحرصهم على استيعاب معانيه وحفظ ألفاظه ـ كما كان حال الصحابة رضوان الله عليهم مع كل كلمة يتلفظ بها الرسول الكريم ـ فهم يسألونهم أن يعيدوا ألفاظه التي سمعوها على سبيل السخرية الظاهرة أو الخفية .. وكلها احتمالات تدل على اللؤم والخبث والانطماس والهوى الدفين :

« أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم » ..

ذلك حال المنافقين ، فأما حال المهتدين فهو على النقيض .

« والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » ..

وترتيب الوقائع فى الآية يستوقف النظر . فالذين اهتدوا بدأوا هم بالاهتداء ، فكافأهم الله بزيادة الهدى ، وكافأهم بما هو أعمق وأكمل : « وآتاهم تقواهم ».. والتقوى حالة فى القلب تجعله أبدا واجفا من هيبة الله ، شاعرا برقابته ، خائفا من غضبه ، متطلعا إلى رضاه ، متحرجا من أن يراه الله على هيئة أوفى حالة لايرضاها . . هذه الحساسية المرهفة هى التقوى . . وهى مكافأة يؤتيها الله من يشاء من عباده ، حين يهتدون هم ويرغبون فى الوصول إلى رضى الله .

والهدى والتقوى والحساسية حالة تقابل حالة النفاق والانطماس والغفلة فى الآية السابقة .

ومن ثم يعود بعد هذه اللفتة إلى الحديث عن أولئك المنافقين المطموسين الغافلين ، الذين يخرجون من مجلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يعوا مما قال شيئا ينفعهم ويهديهم . ويستجيش قلوبهم للتقوى ، ويذكرهم بما ينتظر الناس من حساب وجزاء :

« فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ؟ فقد جاء أشراطها . فأنى لهم ـ إذا جاءتهم ـ ذكراهم ؟ »

وهى جبذة قوية تخرج الغافلين من الغفلة بعنف ، كما لو أخذت بتلابيب مخمور وهززته هزا !

ماذا ينتظر هؤلاء الغافلون الذين يدخلون مجالس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويخرجون منها ، غير واعين ، ولاحافظين ، ولامتذكرين ؟ ماذا ينتظرون ؟ « فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ؟ » . . فتفجأهم وهم سادرون غارون غافلون !

هل ينظرون إلا الساعة ؟ « فقد جاء أشراطها » . ووجدت علاماتها. والرسالة الأخيرة أضخم هذه العلامات ، فهى إيذان بأنها النذارة الأخيرة قرب الأجل المضروب. وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :« بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بأصبعيه السبابة والتى تليها. (١) وإذا كان الزمن يلوح ممتدا منذ هذه الرسالة الأخيرة ؛ فإن أيام الله غير أيامنا. ولكنها فى حساب الله قد جاءت الأشراط الأولى ؛ وماعاد لعاقل أن يغفل حتى تأخذه الساعة بغتة حيث لا يملك صحوا ولاذكرا :

« فأنى لهم ـ إذا جاءتهم ـ ذكراهم ؟ » .

إنها الهزة القوية العنيفة التى تخرج الغافلين من غفلتهم ؛ والتى تتفق كذلك مع طابع السورة العنيف .

---

(١) أخرجه الشيخان عن سهل ابن سعد رضى الله عنه .

Marfat.com

ثم يتجه الخطاب إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه من المهتدين المتقين المتطلعين؛ ليأخذوا طريقا آخر. طريق العلم والمعرفة والذكر والاستغفار، والشعور برقابة الله وعلمه الشامل المحيط؛ ويعيشوا بهذه الحساسية يرتقبون الساعة وهم حذرون متأهبون:

« فاعلم أنه لاإله إلاالله؛ واستغفر لذنبك، وللمؤمنين والمؤمنات؛ والله يعلم متقلبكم ومثواكم » ..

وهو التوجيه إلى تذكر الحقيقة الأولى التي يقوم عليها أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه:

« فاعلم أنه لاإله إلا الله » .

وعلى أساس العلم بهذه الحقيقة واستحضارها في الضمير تبدأ التوجيهات الأخرى:

« واستغفر لذنبك » ..

وهو المغفور له ماتقدم من ذنبه وماتأخر. ولكن هذا واجب العبد المؤمن الشاعر الحساس الذي يشعر أبدا بتقصيره مهما جهد؛ ويشعر ـ وقد غفر له ـ أن الاستغفار ذكر وشكر على الغفران. ثم هو التلقين المستمر لمن خلف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ممن يعرفون منزلته عند ربه؛ ويرونه يوجه إلى الذكر والاستغفار لنفسه. ثم للمؤمنين والمؤمنات. وهو المستجاب الدعوة عند ربه. فيشعرون بنعمة الله عليهم بهذا الرسول الكريم. وبفضل الله عليهم وهو يوجهه لأن يستغفر لهم، ليغفر لهم!

واللمسة الأخيرة في هذا التوجيه:

« والله يعلم متقلبكم ومثواكم » ..

حيث يشعر القلب المؤمن بالطمأنينة وبالخوف جميعا. الطمأنينة وهو في رعاية الله حيثما تقلب أوثوى. والخوف من هذا الموقف الذي يحيط به علم الله ويتعقبه في كل حالاته، ويطلع على سره ونجواه ..

إنها التربية. التربية باليقظة الدائمة والحساسية المرهفة، والتطلع والحذر والانتظار ..

* * *

وينتقل السياق إلى تصوير موقف المنافقين من الجهاد، وما يعتمل في نفوسهم من جبن وخور وذعر وهلع عند مواجهة هذا التكليف، ويكشف دخيلتهم في هذا الأمر، كما يكشف

Marfat.com

Marfat.com

لهم ما ينتظرهم لو ظلوا على هذا النفاق ، ولم يخلصوا ويستجيبوا ويصدقوا الله عند ما يعزم الأمر ويتحتم الجهاد :

« ويقول الذين آمنوا : لولا نزلت سورة . فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت، فأولى لهم طاعة وقول معروف ، فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم. فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم! أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟ » . .

وتطلع الذين آمنوا إلى تنزيل سورة : إما أن يكون مجرد تعبير عن شوقهم إلى سورة جديدة من هذا القرآن الذى يحبونه، ويجدون فى كل سورة منه زادا جديدا حبيبا . وإما أن يكون تطلعا إلى سورة تبين أمرا من أمور الجهاد ، وتفصل فى قضية من قضايا القتال تشغل بالهم . فيقولون : « لولا نزلت سورة ! » .

« فإذا أنزلت سورة محكمة » . . فاصلة بينة لا تحتمل تأويلا « وذكر فيها القتال » . . أى الأمر به ، أو بيان حكم المتخلفين عنه ، أو أى شأن من شؤونه ، إذا بأولئك « الذين فى قلوبهم مرض » . . وهو وصف من أوصاف المنافقين . . يفقدون تماسكهم ، ويسقط عنهم ستار الرياء الذى يتسترون به ، وينكشف جزعهم وضعف نفوسهم من مواجهة هذا التكليف ، ويبدون فى حالة تزرى بالرجال ، يصورها التعبير القرآنى المبدع صورة فريدة كأنها معروضة للأنظار :

« رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت » . .

وهو تعبير لا تمكن محاكاته ، ولا ترجمته إلى أى عبارة أخرى . وهو يرسم الخوف إلى حد الهلع ، والضعف إلى حد الرعشة . والتخاذل إلى حد الغشية ! ويبقى بعد ذلك متفردا حافلا بالظلال والحركة التى تشخص الخيال ! وهى صورة خالدة لكل نفس خوارة لا تعتصم بإيمان ، ولا بفطرة صادقة ، ولا بحياء تتجمل به أمام الخطر. وهى هى طبيعة المرض والنفاق!

وبينهم فى هذا التخاذل والتهافت والانهيار تمتد إليهم يد الإيمان بالزاد الذى يقوى العزائم ويشد القوائم لو تناولوه فى إخلاص :

« فأولى لهم طاعة وقول معروف . فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم » . .

Marfat.com

نعم . أولى لهم من هذه الفضيحة.ومن هذا الخور . ومن هذا الهلع . ومن هذا النفاق .. أولى لهم « طاعة وقول معروف » . . طاعة تستسلم لأمر الله عن طمأنينة ، وتنهض بأمره عن ثقة . وقول معروف يشى بنظافة الحس واستقامة القلب ، وطهارة الضمير. وأولى لهم إذا عزم الأمر ، وجد الجد ، وواجهوا الجهاد أن يصدقوا الله . يصدقوه عزيمة ، ويصدقوه شعورا . فيربط على قلوبهم ، ويشد من عزائمهم ، ويثبت أقدامهم ، وييسر المشقة عليهم ، ويهون الخطر الذى يتمثلونه غولا تفغر فاها لتلتهمهم! ويكتب لهم إحدى الحسنيين: النجاة والنصر، أو الاستشهاد والجنة .. هذا هو الأولى . وهذا هو الزاد الذى يقدمه الإيمان فيقوى العزائم ويشد القوائم، ويذهب بالفزع ، ويحل محله الثبات والاطمئنان .

وبينما هو يتحدث عنهم يلتفت إليهم مباشرة ليخاطبهم مقرعا مهددا بسوء العاقبة لوقادهم حالهم هذا إلى النكسة والتولى إلى الكفر ؛ وخلع ذلك الستار الرقيق من الإسلام :

« فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟ » . .

وهذا التعبير . . « هل عسيتم » . . يفيد ماهو متوقع من حال المخاطبين . ويلوح لهم بالنذير والتحذير .. احذروا فإنكم منتهون إلى أن تعودوا إلى الجاهلية التى كنتم فيها. تفسدون فى الأرض وتقطعون الأرحام ، كما كان شأنكم قبل الإسلام .

وبعد هذه اللفتة المفزعة المنذرة لهم يعود إلى الحديث عنهم لو انتهوا إلى هذا الذى حذرهم إياه :

« أولئك الذين لعنهم الله ، فأصمهم وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟ » .

أولئك الذين يظلون فى مرضهم ونفاقهم حتى يتولوا عن هذا الأمر الذى دخلوا فيه بظاهرهم ولم يصدقوا الله فيه ، ولم يستيقنوه. « أولئك الذين لعنهم الله » .. وطردهم وحجبهم عن الهدى، « فأصمهم وأعمى أبصارهم » . . وهم لم يفقدوا السمع ، ولم يفقدوا البصر ؛ ولكنهم عطلوا السمع وعطلوا البصر ، أو عطلوا قوة الإدراك وراء السمع والبصر ؛ فلم يعد لهذه الحواس وظيفة لأنها لم تعد تؤدى هذه الوظيفة .

ويتساءل فى استنكار: « أفلا يتدبرون القرآن » .. وتدبر القرآن يزيل الغشاوة ، ويفتح النوافذ ، ويسكب النور ، ويحرك المشاعر ، ويستجيش القلوب ، ويخلص الضمير . وينشىء

Marfat.com

حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير، « أم على قلوب أقفالها ؟ » فهى تحول بينها وبين القرآن وبينها وبين النور ؟ فإن استغلاق قلوبهم كاستغلاق الأقفال التى لاتسمح بالهواء والنور !

* * *

ويمضى فى تصوير حال المنافقين ، وسبب توليهم عن الإيمان بعد إذ شارفوه ، فيتبين أنه تآمرهم مع اليهود ، ووعدهم لهم بالطاعة فيما يدبرون :

« إن الذين ارتدوا على أدبارهم ـ من بعد ماتبين لهم الهدى ـ الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مانزل الله: سنطيعكم فى بعض الأمر . والله يعلم إسرارهم » . .

والتعبير يرسم معنى رجوعهم عن الهدى بعد ما تبين لهم ، فى صورة حركة حسية . حركة الارتداد على الأدبار . ويكشف ما وراءها من وسوسة الشيطان وتزيينه وإغرائه . فإذا ظاهر هذه الحركة وباطنها مكشوفان مفهومان ! وهم المنافقون الذين يتخفون ويتسترون ! ثم يذكر السبب الذى جعل للشيطان عليهم هذا السلطان ، وانتهى بهم إلى الارتداد على الأدبار بعد ما عرفوا الهدى وتبينوه :

« ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر » . .

واليهود فى المدينة هم أول من كرهوا ما نزل الله ؛ لأنهم كانوا يتوقعون أن تكون الرسالة الأخيرة فيهم ، وأن يكون خاتم الرسل منهم ؛ وكانوا يستفتحون على الذين كفروا ويوعدونهم ظهور النبى الذى يقودهم ويمكن لهم فى الأرض ، ويسترجع ملكهم وسلطانهم . فلما اختار الله آخر رسله من نسل إبراهيم ، من غير يهود ، كرهوا رسالته . حتى إذا هاجر إلى المدينة كرهوا هجرته ، التى هددت ما بقى لهم من مركز هناك . ومن ثم كانوا إلبا عليه منذ أول يوم ، وشنوا عليه حرب الدس والمكر والكيد ، حينما عجزوا عن مناصبته العداء جهرة فى ميادين القتال ؛ وانضم إليهم كل حانق ، وكل منافق ، وظلت الحرب سجالا بينهم وبين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أجلاهم فى آخر الأمر عن الجزيرة كلها وخلصها للإسلام .

وهؤلاء الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم قالوا لليهود : « سنطيعكم فى بعض الأمر » . والأرجح أن ذلك كان فى الدس والكيد والتآمر على الإسلام ورسول الإسلام .

« والله يعلم إسرارهم » .

وهو تعقيب كله تهديد . فأين يذهب تآمرهم وإسرارهم وماذا يؤثر ؛ وهو مكشوف لعلم الله ؟ معرض لقوة الله ؟

Marfat.com

ثم التهديد السافر بجند الله ، والمتآمرون فى نهاية الحياة :

« فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم » !

وهو مشهد مفزع مهين . وهم يحتضرون . ولاحول لهم ولا قوة . وهم فى نهاية حياتهم على هذه الأرض . وفى مستهل حياتهم الأخرى . هذه الحياة التى تفتتح بضرب الوجوه والأدبار . فى لحظة الوفاة ، لحظة الضيق والكرب والمخافة . الأدبار التى ارتدوا عليها من بعد ماتبين هم الهدى ! فيالها من مأساة !

« ذلك بأنهم اتبعوا ماأسخط الله ، وكرهوا رضوانه ، فأحبط أعمالهم » ..

فهم الذين أرادوا لأنفسهم هذا المصير واختاروه . هم الذين عمدوا إلى ماأسخط الله من نفاق ومعصية وتآمر مع أعداء الله وأعداء دينه ورسوله فاتبعوه . وهم الذين كرهوا رضوان الله فلم يعملوا له ، بل عملوا مايسخط الله ويغضبه .. « فأحبط أعمالهم » . . التى كانوا يعجبون بها ويتعاجبون ؛ ويحسبونها مهارة وبراعة وهم يتآمرون على المؤمنين ويكيدون. فإذا بهذه الأعمال تتضخم وتنتفخ . ثم تهلك وتضيع !

* * *

وفى نهاية الشوط يتهددهم بكشف أمرهم لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وللمسلمين ، الذين يعيشون بينهم متخفين ؛ يتظاهرون بالإسلام وهم لهم كائدون :

« أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم؟ ولو نشاء لأريناكهم ، فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنهم فى لحن القول ، والله يعلم أعمالكم . ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » . .

ولقد كان المنافقون يعتمدون على إتقانهم فن النفاق ، وعلى خفاء أمرهم فى الغالب على المسلمين . فالقرآن يسفه ظنهم أن هذا الأمر سيظل خافيا ، ويهددهم بكشف حالهم وإظهار أضغانهم أحقادهم على المسلمين . ويقول لرسوله – صلى الله عليه وسلم – : « ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم » . . أى لو نشاء لكشفنا لك عنهم بذواتهم وأشخاصهم ، حتى لترى أحدهم فتعرفه من ملامحه (وكان هذا قبل أن يكشف الله له عن نفر منهم بأسمائهم) ومع ذلك فإن لهجتهم ونبرات صوتهم ، وإمالتهم للقول عن استقامته ، وانحراف منطقهم فى خطابك سيدلك على نفاقهم :

« ولتعرفنهم فى لحن القول » ..

Marfat.com

ويعرج على علم الله الشامل بالأعمال وبواعثها : « والله يعلم أعمالكم » .. فلاتخفى عليه منها خافية . .

ثم وعد من الله بالابتلاء . ابتلاء الأمة الإسلامية كلها ، لينكشف المجاهدون والصابرون ويتميزوا وتصبح أخبارهم معروفة ، ولايقع الالتباس فى الصفوف ، ولايبقى مجال لخفاء أمر المنافقين ولاأمر الضعاف والجزعين :

« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ونبلو أخباركم » ..

والله يعلم حقائق النفوس ومعادنها، ويطلع على خفاياها وخباياها ، ويعلم مايكون من أمرها علمه بما هو كائن فعلا . فما هذا الابتلاء ؟ ولمن يكون العلم من ورائه بما يتكشف عنه ؟

إن الله - جلت حكمته - يأخذ البشر بما هو فى طوقهم ، وماهو من طبيعتهم واستعدادهم. وهم لايعلمون عن الحقائق المستكنة مايعلمه. فلابد لهم من تكشف الحقائق ليدركوها ويعرفوها ويستيقنوها ، ثم ينتفعوا بها .

والابتلاء بالسراء والضراء ، وبالنعماء والبأساء ، وبالسعة والضيق، وبالفرج والكرب... كلها تكشف عما هو مخبوء من معادن النفوس ، وماهو مجهول من أمرها حتى لأصحابها . .

أما المراد بعلم الله لما تتكشف عنه النفوس بعد الابتلاء فهو تعلق علمه بها فى حالتها الظاهرة التى يراها الناس عليها .

ورؤية الناس لها فى صورتها التى تدركها مداركهم هو الذى يؤثر فيهم ويكيف مشاعرهم، ويوجه حياتهم ، بوسائلهم الداخلة فى طوقهم . وهكذا تتم حكمة الله فى الابتلاء .

ومع هذا فإن العبد المؤمن يرجو ألايتعرض لبلاء الله وامتحانه . ويتطلع إلى عافيته ورحمته. فإذا أصابه بلاء الله بعد هذا صبر له ، وهو مدرك لما وراءه من حكمة ؛ واستسلم لمشيئة الله واثقا من حكمته ، متطلعا إلى رحمته وعافيته بعد الابتلاء .

وقد روى عن الفضيل العابد الصوفى أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللهم لاتبلنا. فإنك إن بلوتنا فضحتنا ، وهتكت أستارنا ، وعذبتنا . .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ، وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ ، وَشَاقُّوا ٱلرَّسُولَ - مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى - لَنْ يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْئًا ، وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾

Marfat.com

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ .
« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ ، فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ .
« فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ ، وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ ، وَاللَّهُ مَعَكُمْ ، وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ * إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ، وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ * هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ . وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ، ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » ٣٨

الحديث فى الشطر الأول من هذا الشوط الأخير من السورة عن « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ماتبين لهم الهدى » .. وهؤلاء ، الأقرب أن يكونوا هم المشركين الذين كان الحديث عنهم فى أول السورة . فهم الذين ينطبق عليهم هذا التبجح فى الوقوف للدعوة الإسلامية . التبجح الذى يعبرعنه بالصد عن سبيل الله ومشاقة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن كان هناك احتمال آخر ، وهو أن يكون الحديث عاما لكل من يقف هذا الموقف ؛ يشمل اليهود فى المدينة ويشمل المنافقين ، على سبيل التهديد لهم إذا هموا أن يقفوا مثل هذا الموقف جهرة أوسرا . ولكن الاحتمال الأول أقرب على كل حال .

أما الحديث فى الشطر الثانى والأخير حتى ختام السورة فهو خطاب للمؤمنين ، يدعوهم إلى مواصلة الجهاد بالنفس وبالمال ، دون تراخ أودعوة إلى مهادنة الكفر المعتدى الظالم ، تحت أى مؤثر من ضعف أومراعاة قرابة أورعاية مصلحة . ودون بخل بالمال الذى لايكلفهم الله أن ينفقوا منه إلافى حدود مستطاعة ، مراعيا الشح الفطرى فى النفوس ! وإن لاينهضوا بتكاليف هذه الدعوة فإن الله يحرمهم كرامة حملها والانتداب لها ، ويستبدل بهم قوما غيرهم ينهضون بتكاليفها ، ويعرفون قدرها . وهو تهديد عنيف مخيف يناسب جو السورة ، كما يشى بأنه كان علاجا لحالات نفسية قائمة فى صفوف المسلمين إذ ذاك ـ من غير المنافقين ـ وذلك إلى جانب

Marfat.com

حالات التفانى والتجرد والشجاعة والفداء التى اشتهرت بها الروايات. فقد كان فى الجماعة المسلمة هؤلاء وهؤلاء. وكان القرآن يعالج ويربى لينهض بالمتخلفين إلى المستوى العالى الكريم ..

* * *

« إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، وشاقوا الرسول - من بعد ما تبين لهم الهدى - لن يضروا الله شيئا، وسيحبط أعمالهم » ..

إنه قرار من الله مؤكد، ووعد منه واقع: أن الذين كفروا، ووقفوا فى وجه الحق أن يبلغ إلى الناس؛ وصدوا الناس عنه بالقوة أو المال أو الخداع أو أية وسيلة من الوسائل، وشاقوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى حياته بإعلان الحرب عليه، والمخالفة عن طريقه، والوقوف فى غير صفه. أو بعد وفاته بمحاربة دينه وشريعته ومنهجه والمتبعين لسنته والقائمين على دعوته. وذلك « من بعد ما تبين لهم الهدى » .. وعرفوا أنه الحق؛ ولكنهم اتبعوا الهوى، وجمح بهم العناد، وأعماهم الغرض، وقادتهم المصلحة العاجلة ..

قرار من الله مؤكد، ووعد من الله واقع أن هؤلاء « لن يضروا الله شيئا » .. وهم أضأل وأضعف من أن يذكروا فى مجال إلحاق ضرر بالله سبحانه وتعالى. فليس هذا هو المقصود. إنما المقصود أنهم لن يضروا دين الله ولا منهجه ولا القائمين على دعوته. ولن يحدثوا حدثا فى نواميسه وسننه. مهما بلغ من قوتهم، ومهما قدروا على إيذاء بعض المسلمين فترة من الوقت. فإن هذا بلاء وقتى يقع بإذن الله لحكمة يريدها؛ وليست ضرا حقيقيا لناموس الله وسنته ونظامه ونهجه وعباده القائمين على نظامه ونهجه. والعاقبة مقررة: « وسيحبط أعمالهم » .. فتنتهى إلى الخيبة والدمار، كما تنتهى الماشية التى ترعى ذلك النبات السام!

وفى ظل هذا المصير المخيف للذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول .. يلتفت إلى الذين آمنوا ليحذرهم ظل هذا المصير، ويوجههم إلى طاعة الله وطاعة الرسول:

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، ولا تبطلوا أعمالكم » ..

وهذا التوجيه يوحى بأنه كان فى الجماعة المسلمة يومئذ من لا يتحرى الطاعة الكاملة؛ أو من تثقل عليه بعض التكاليف، وتشق عليه بعض التضحيات، التى يقتضيها جهاد هذه الطوائف القوية المختلفة التى تقف للإسلام، وتناوشه من كل جانب؛ والتى تربطها بالمسلمين مصالح ووشائج قربى يصعب فصمها والتخلى عنها نهائيا كما تقتضى العقيدة ذلك.

ولقد كان وقع هذا التوجيه عنيفا عميقا فى نفوس المسلمين الصادقين ؛ فارتعشت له قلوبهم ، وخافوا أن يقع منهم مايبطل أعمالهم ، ويذهب بحسناتهم ..

قال الإمام أحمد ابن نصر المروزى فى كتاب الصلاة : حدثنا أبو قدامة ، حدثنا وكيع ، حدثنا أبو جعفر الرازى ، عن الربيع ابن أنس ، عن أبى العالية ، قال :كان أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرون أنه لايضر مع لاإله إلا الله ذنب ، كما لاينفع مع الشرك عمل ، فنزلت : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولاتبطلوا أعمالكم » ..فخافوا أن يبطل الذنب العمل.

وروى من طريق عبد الله ابن المبارك ، أخبرنى بكر ابن معروف ، عن مقاتل ابن حيان، عن نافع ، عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : « كنا معشر أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نرى أنه ليس شىء من الحسنات إلامقبول ، حتى نزلت : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولاتبطلوا أعمالكم » .. فقلنا : ماهذا الذى يبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والفواحش . حتى نزل قوله تعالى : « إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » .. فلما نزلت كففنا من القول فى ذلك.فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش ونرجو لمن لم يصبها .

ومن هذه النصوص يتجلى كيف كانت نفوس المسلمين الصادقين تتلق آيات القرآن : كيف تهتز لها وتضطرب ، وكيف ترتجف منها وتخاف ، وكيف تحذر أن تقع تحت طائلتها ، وكيف تتحرى أن تكون وفقها ، وإن تطابق أنفسها عليها . . وبهذه الحساسية فى تلقى كلمات الله كان المسلمون مسلمين من ذلك الطراز !

ثم بين الله لهم فى الآية التالية مصير الذين يشاقون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويخرجون عن طاعته ، ثم يصرون على هذا ، ويذهبون من هذه الأرض كافرين :

« إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، ثم ماتوا وهم كفار ، فلن يغفر الله لهم » . .

فالفرصة متاحة فقط للمغفرة فى هذه الدنيا ؛وباب التوبة يظل مفتوحا للكافر وللعاصى حتى يغرغر . فإذا بلغت الروح الحلقوم فلاتوبة ولامغفرة ، فقد ذهبت الفرصة التى لاتعود .

ومثل هذه الآية يخاطب المؤمنين كما يخاطب الكفار . فأما هؤلاء فهى نذارة لهم ليتداركوا أمرهم ويتوبوا قبل أن تغلق الأبواب . وأما أولئك فهى تحذير لهم وتنبيه لاتقاء كافة الأسباب التى تقرب بهم من هذا الطريق الخطر المشؤوم !

Marfat.com

Marfat.com

ندرك هذا من ترتيب النهى عن الوهن والدعوة إلى السلم فى الآية التالية على ماورد فى الآية السابقة من بيان لمصير الكافرين المشاقين :

« فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم ، وأنتم الأعلون والله معكم ، ولن يتركم أعمالكم » ..

فهذا هو الذى يحذر المؤمنين إياه.ويضع أمامهم مصير الكفار المشاقين للرسول، ليحذروا شبحه من بعيد !

وهذا التحذير يشى بوجود أفراد من المسلمين كانوا يستثقلون تكاليف الجهاد الطويل ومشقته الدائمة ؛ وتهن عزائمهم دونه؛ويرغبون فى السلم والمهادنة ليستريحوا من مشقة الحروب. وربما كان بعضهم ذوى قرابة فى المشركين ورحم ، أو ذوى مصالح وأموال ؛ وكان هذا يجنح بهم إلى السلم والمهادنة . فالنفس البشرية هى هى ؛ والتربية الإسلامية تعالج هذا الوهن وهذه الخواطر الفطرية بوسائلها . وقد نجحت نجاحا خارقا . ولكن هذا لاينفى أن تكون هناك رواسب فى بعض النفوس ، وبخاصة فى ذلك الوقت المبكر من العهد المدنى . وهذه الآية بعض العلاج لهذه الرواسب . فلننظر كيف كان القرآن يأخذ النفوس . فنحن فى حاجة إلى تحرى خطوات القرآن فى التربية . والنفوس هى النفوس :

« فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم . وأنتم الأعلون والله معكم . ولن يتركم أعمالكم » . .

أنتم الأعلون . فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم . أنتم الأعلون اعتقادا وتصورا للحياة . وأنتم الأعلون ارتباطا وصلة بالعلى الأعلى . وأنتم الأعلون منهجا وهدفا وغاية . وأنتم الأعلون شعورا وخلقا وسلوكا . . ثم . . أنتم الأعلون قوة ومكانا ونصرة . فمعكم القوة الكبرى : « والله معكم » . . فلستم وحدكم . إنكم فى صحبة العلى الجبار القادر القهار . وهو لكم نصير حاضر معكم . يدافع عنكم . فما يكون أعداؤكم هؤلاء والله معكم ؟ وكل ما تبذلون ، وكل ما تفعلون، وكل مايصيبكم من تضحيات محسوب لكم ، لا يضيع منه شىء عليكم : «ولن يتركم أعمالكم».. ولن يقطع منها شيئا لا يصل إليكم أثره ونتيجته وجزاؤه .

فعلام يهن ويضعف ويدعو إلى السلم ، من يقرر الله ــ سبحانه ــ له أنه الأعلى . وأنه معه . وأنه لن يفقد شيئا من عمله . فهو مكرم منصور مأجور ؟

هذه هى اللمسة الأولى . واللمسة الثانية تهوين من شأن هذه الحياة الدنيا ، التى قد يصيبهم بعض التضحيات فيها . وتوفية كاملة فى الآخرة للأجور مع عدم إرهاقهم ببذل المال مقابل هذه الأجور !

«إنما الحياة الدنيا لعب ولهو . وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ، ولا يسألكم أموالكم» .

والحياة الدنيا لعب ولهو حين لا يكون وراءها غاية أكرم وأبقى . حين تعاش لذاتها مقطوعة عن منهج الله فيها . ذلك المنهج الذى يجعلها مزرعة الآخرة ؛ ويجعل إحسان الخلافة فيها هو الذى يستحق وراثة الدار الباقية . وهذا هو الذى تشير إليه الفقرة التالية فى الآية : « وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم » . . فالإيمان والتقوى فى الحياة الدنيا هو الذى يخرجها عن أن تكون لعبا ولهوا ؛ ويطبعها بطابع الجد ، ويرفعها عن مستوى المتاع الحيوانى ، إلى مستوى الخلافة الراشدة ، المتصلة بالملأ الأعلى . ويومئذ لن يكون مايبذله المؤمن المتقى من عرض هذه الحياة الدنيا ضائعا ولا مقطوعا ؛ فعنه ينشأ الأجر الأوفى ، فى الدار الأبقى . . ومع هذا فإن الله لايسأل الناس أن يبذلوا أموالهم كلها ،ولايشق عليهم فى فرائضه وتكاليفه ، لعلمه سبحانه بشح نفوسهم فطرة وخلقة . وهو لايكلف نفسا إلا وسعها . وهو أرحم بهم من أن يكلفهم بذلها كلها ، فتضيق صدورهم وتظهر أضغانهم :

« إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ، ويخرج أضغانكم » . .

وهذا النص يوحى بحكمة اللطيف الخبير ، كما يوحى برحمته ولطفه بالنفوس . ويكشف عن التقدير الدقيق فى تكاليف هذا الدين ، ومراعاته للفطرة ، وتناسقه مع بشرية البشر بكل استعداداتها ، وطاقاتها ، وأحوالها . فهو عقيدة ربانية لإنشاء نظام ربانى إنسانى . نظام ربانى من ناحية أن الله هو الذى يقيم منهجه وقواعده ؛ وإنسانى من ناحية أن الله يراعى فى تكاليفه طاقة الإنسان وحاجته . والله هو الذى خلق ، وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير .

وفى النهاية يواجههم بواقع حالهم تجاه دعوتهم إلى البذل فى سبيل الله ؛ ويعالج شح النفوس بالمال بالوسائل القرآنية ، كما عالج شحها فى ذات النفس عند الجهاد :

« هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله . فمنكم من يبخل . ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه . والله الغنى وأنتم الفقراء . وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم » . .

والآية ترسم صورة وصفية لواقع الجماعة المسلمة يومذاك . ولواقع الناس تجاه الدعوة إلى البذل فى كل بيئة . فهى تقرر أن منهم من يبخل . ومعنى هذا أن هنالك من لايبخلون بشىء . وقد كان هذا واقعا ، سجلته الروايات الكثيرة الصادقة ، وسجله القرآن فى مواضع أخرى . وقد حقق الإسلام فى هذا المجال مثلا تحسب من خوارق الأمثال فى البذل والتضحية عن رضى

Marfat.com

Marfat.com

وعن فرح بالبذل والعطاء . ولكن هذا لم يمنع أن يكون هنالك من يبخل بالمال . وأمل الجود بالنفس أرخص عند بعضهم من الجود بالمال !

والقرآن يعالج هذا الشح فى هذه الآية :

« ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه » ..

فما يبذله الناس إن هو إلا رصيد لهم مذخور ، يجدونه يوم يحتاجون إلى الرصيد . يوم يحشرون مجردين من كل ما يملكون . فلا يجدون إلا ذلك الرصيد المذخور . فإذا بخلوا بالبذل ، فإنما يبخلون على أنفسهم ؛ وإنما يقللون من رصيدهم ؛ وإنما يستحسرون المال فى ذواتهم وأشخاصهم ؛ وإنما يحرمونها بأيديهم !

أجل . فالله لا يطلب إليهم البذل ، إلا وهو يريد لهم الخير ، ويريد لهم الوفر ، ويريد لهم الكنز والذخر . وما يناله شىء مما يبذلون ، وما هو فى حاجة إلى ما ينفقون :

« والله الغنى وأنتم الفقراء » ..

فهو الذى أعطاكم أموالكم ، وهو الذى يدخر لكم عنده ما تنفقونه منها . وهو الغنى عما أعطاكم فى الدنيا ، الغنى عن أرصدتكم المذخورة فى الآخرة . وأنتم الفقراء فى الدارين وفى الحالين . أنتم الفقراء إلى رزقه فى الدنيا ، فما لكم من قدرة على شىء من الرزق إلا أن يهبكم إياه . وأنتم الفقراء إلى أجره فى الآخرة ، فهو الذى يتفضل به عليكم ، وما أنتم بموفين شيئا مما عليكم ، فضلا على أن يفضل لكم شىء فى الآخرة ، إلا أن يتفضل عليكم .

ففيم البخل إذن وفيم الشح ؟ وكل ما فى أيديكم ، وكل ما ينالكم من أجر على ما تنفقون هو من عند الله ، ومن فضل الله ؟

ثم الكلمة الأخيرة وهى فصل الخطاب ..

إن اختيار الله لكم لحمل دعوته تكريم ومنّ وعطاء . فإذا لم تحاولوا أن تكونوا أهلا لهذا الفضل . وإذا لم تنهضوا بتكاليف هذه المكانة . وإذا لم تدركوا قيمة ما أعطيتم فيهون عليكم كل ما عداه .. فإن الله يسترد ما وهب ، ويختار غيركم لهذه المنة ممن يقدر فضل الله :

« وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم » ..

وإنها لنذارة رهيبة لمن ذاق حلاوة الإيمان ، وأحس بكرامته على الله ، وبمقامه فى هذا الكون وهو يحمل هذا السر الإلهى العظيم ، ويمشى فى الأرض بسلطان الله فى قلبه ، ونور الله فى كيانه ؛ ويذهب ويجىء وعليه شارة مولاه ..

وما يطبق الحياة ومايطعمها إنسان عرف حقيقة الإيمان وعاش بها ثم تسلب منه ، ويطرد من الكنف ، وتوصد دونه الأبواب .لا بل إن الحياة لتغدو جحيما لايطاق عند من يتصل بربه ثم يطبق دونه الحجاب .

إن الإيمان هبة ضخمة ، لايعدلها في هذا الوجود شيء ؛ والحياة رخيصة رخيصة، والمال زهيد زهيد ، حين يوضع الإيمان في كفة ، ويوضع في الكفة الأخرى كل ماعداه .

ومن ثم كان هذا الإنذار أهول مايواجهه المؤمن ، وهو يتلقاه من الله ..

Marfat.com

Marfat.com

سورة الفتح مدنية
وآياتها ٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

« إنّا فتحنا لك فتحاً مُبيناً * ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر، ويتمّ نعمته عليك، ويهديك صراطاً مستقيماً * وينصرك الله نصراً عزيزاً * هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، ولله جنود السماوات والأرض، وكان الله عليماً حكيماً * ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ويكفّر عنهم سيئاتهم، وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً * ويعذّب المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات، الظانّين بالله ظنّ السَّوْء، عليهم دائرة السَّوْء وغضب الله عليهم ولعنهم، وأعدّ لهم جهنّم وساءت مصيراً * ولله جنود السماوات والأرض، وكان الله عزيزاً حكيماً.

«إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً * لتؤمنوا بالله ورسوله، وتعزّروه وتوقّروه وتسبّحوه بكرة وأصيلاً * إنّ الذين يبايعونك إنّما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً

« سيقول لك المخلّفون من الأعراب: شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، قل: فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد

بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ؟ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً * بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً ، وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ، وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً .

« وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً * وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً .

« سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ - إِذَا ٱنْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا - ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ، يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ ٱللَّهِ ، قُلْ : لَنْ تَتَّبِعُونَا . كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِنْ قَبْلُ ، فَسَيَقُولُونَ : بَلْ تَحْسُدُونَنَا ، بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً * قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ : سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ، فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْراً حَسَناً ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا ، كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ ، يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً .

« لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَى حَرَجٌ ، وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ ، وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ، وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً » ١٧

هذه السورة مدنية ، نزلت فى السنة السادسة من الهجرة ، عقب صلح الحديبية ؛ وهى تتناول هذا الحادث الخطير وملابساته ؛ وتصور حال الجماعة المسلمة وما حولها فى إبانه ؛ فبين وقت نزولها ووقت نزول سورة « محمد » التى تسبقها فى ترتيب المصحف ، نحو من ثلاث سنوات ، تمت فيها تغيرات هامة وخطيرة فى أحوال الجماعة المسلمة فى المدينة . تغيرات فى موقفها وموقف المناوئين لها ، وتغيرات أهم فى حالتها النفسية وصفتها الإيمانية ، واستوائها على المنهج الإيمانى فى إدراك ونضج عميق .

وقبل أن نتحدث عن السورة وجوها ودلالتها يحسن أن نمر بصورة للحادث الذى نزلت بصدده ، لنعيش فى الجو الذى كان المسلمون يعيشون فيه ، وهم يتلقون هذا التنزيل الكريم :

Marfat.com

لقد أُرى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى منامه أنه يدخل الكعبة هو والمسلمون محلقين رؤوسهم ومقصرين . وكان المشركون قد منعوهم منذ الهجرة من دخول مكة ، حتى فى الأشهر الحرم التى يعظمها العرب كلهم فى الجاهلية ، ويضعون السلاح فيها ؛ ويستعظمون القتال فى أيامها ، والصد عن المسجد الحرام. حتى أصحاب الثارات كانوا يتجمعون فى ظلال هذه الحرمة ، ويلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فلا يرفع فى وجهه سيفا ، ولا يصده عن البيت المحرم . ولكنهم خالفوا عن تقاليدهم الراسخة فى هذا الشأن؛ وصدوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين معه طوال السنوات الست التى تلت الهجرة . حتى كان العام السادس الذى أُرى فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الرؤيا . وحدث بها أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ فاستبشروا بها وفرحوا .

ورواية ابن هشام لوقائع الحديبية هى أوفى مصدر نستند إليه فى تصورها . وهى فى جملتها تتفق مع رواية البخارى ورواية الإمام أحمد ومع تلخيص ابن حزم فى جوامع السيرة وغيرهم.

قال ابن إسحاق : ثم أقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمدينة شهر رمضان وشوالا (بعد غزوة بنى المصطلق وماجاء فى أعقابها من حديث الإفك) وخرج فى ذى القعدة معتمرا لا يريد حربا . واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى من الأعراب ليخرجوا معه ؛ وهو يخشى من قريش الذى صنعوا أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدوه عن البيت . فأبطأ عليه كثير من الأعراب . وخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق به من العرب ؛ وساق معه الهدى، وأحرم بالعمرة ، ليأمن الناس من حربه ، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائرا لهذا البيت ومعظما له .

قال : وكان جابر ابن عبد الله ـ فيما بلغنى ـ يقول : كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مئة.

قال الزهرى : وخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى إذا كان بعسفان (١) لقيه بشر بن سفيان الكعبى . فقال : يارسول الله ! هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل (٢) ، قد لبسوا جلود النمور ؛ وقد نزلوا بذى طوى ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا . وهذا خالد ابن الوليد فى خيلهم ، قد قدموها إلى كراع الغميم (٣) . قال : فقال

(١) عسفان : موضع بين مكة والمدينة على مرحلتين من مكة .
(٢) العوذ التى لم تلد ، والمطافيل ذوات الأطفال . وهذا يقتضى أن يكون النص العوذ والمطافيل
(٣) كراع الغميم دار أمام عسفان بثمانية أميال .

Marfat.com

Marfat.com

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ياويح قريش ! لقد أكلتهم الحرب . ماذا عليهم لوخلوا بيني وبين سائر العرب ؟ فإن هم أصابوني كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة . فما تظن قريش ؟ فوالله لاأزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله ، أو تنفرد هذه السالفة (١) . ثم قال : « من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟ » » .

قال ابن اسحاق : فحدثنى عبد الله ابن أبى بكر ، أن رجلا من أسلم قال : أنا يارسول الله . قال : فسلك بهم طريقا وعرا أجرل (٢) بين شعاب . فلما خرجوا منه ـ وقد شق ذلك على المسلمين ـ وأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادى ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للناس : « قولوا نستغفر الله ونتوب إليه » . فقالوا ذلك . فقال: « والله إنها للحطة التى عرضت على بنى إسرائيل ، فلم يقولوها » (٣) .

قال ابن شهاب الزهرى : فأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس فقال : « اسلكوا ذات اليمين » بين ظهرى الحمض (٤) فى طريق على ثنية المرار ، مهبط الحديبية (٥) من أسفل مكة ؛ قال : فسلك الجيش ذلك الطريق . فلما رأت خيل قريش قترة (٦) الجيش ، قد خالفوا عن طريقهم . رجعوا راكضين إلى قريش . وخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى إذا سلك فى ثنية المرار بركت ناقته . فقال الناس : خلأت الناقة (٧) . فقال : « ماخلأت . وماهو لها بخلق . ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لاتدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها ـ (وفى رواية البخارى : والذى نفسى بيده لايسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها) . ثم قال للناس : « انزلوا » قيل له: يارسول الله ، مابالوادى ماء ينزل عليه . فأخرج سهما من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه . فنزل فى قليب (٨) من تلك القلب ، فغرزه فى جوفه ، فجاش بالرواء . . .

---

(١) السالفة صفحة العنق ، يعنى : أو أقتل . فإنها لاتنفرد إلا بالقتل .

(٢) أجرل : كثير الحجارة .

(٣) يشير ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ماجاء فى القرآن الكريم : « وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم » .

(٤) الحمض : ماملح من النبات وهو هنا اسم موضع .

(٥) قرية بينها وبين مكة مرحلة واحدة .

(٦) قترة الجيش : غباره .

(٧) خلأت : كما تقول للدابة حرنت . ولايقال خلأت إلا للناقة .

(٨) القليب : منخفض يحفظ بعض ماء المطر حين ينزل .

فلما اطمأن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أتاه بديل ابن ورقاء الخزاعى ، فى رجال من خزاعة ، فكلموه ، وسألوه ماالذى جاء به ؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربا ، وإنما جاء زائرا للبيت، ومعظما لحرمته. ثم قال لهم نحوا مما قال لبشر ابن سفيان؛فرجعوا إلى قريش فقالوا: يامعشر قريش ، إنكم تعجلون على محمد . إن محمدا لم يأت لقتال ، وإنما جاء زائرا لهذا البيت . فاتهموهم وجبهوهم ، وقالوا : وإن كان جاء ولا يريد قتالا . فوالله لايدخلها علينا عنوة أبدا . ولاتحدث بذلك عنا العرب .

وكانت خزاعة عيبة نصح [1] رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مسلمها ومشركها، لايخفون عنه شيئا كان بمكة . ثم بعثوا إليه مكرز ابن حفص ابن الأخيف أخا بنى عامر ابن لؤى . فلما رآه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مقبلا قال : « هذا رجل غادر » .فلما انتهى إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكلمه ، قال له رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ نحوا مما قال لبديل وأصحابه ؛ فرجع إلى قريش ، فأخبرهم بما قال له رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ثم بعثوا إليه الُحليس ابن علقمة أو ابن زبان . وكان يومئذ سيد الأحابيش [2] ، وهو أحد بنى الحارث ابن عبد مناة ابن كنانة . فلما رآه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « إن هذا من قوم يتألهون ــ يعنى يتعبدون ــ فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه » .فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده ، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله ، رجع إلى قريش ، ولم يصل إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إعظاما لما رأى . فقال لهم ذلك . فقالوا له : اجلس فإنما أنت أعرابى لاعلم لك !

قال ابن إسحاق : فحدثنى عبد الله ابن أبى بكر أن الحليس غضب عند ذلك . وقال:يامعشر قريش ، والله ماعلى هذا حالفناكم ، ولاعلى هذا عاقدناكم . أيصد عن بيت الله من جاء معظما له ؟ والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ماجاء له ، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد . قال : فقالوا له : مه . كف عنا ياحليس حتى نأخذ لأنفسنا مانرضى به .

قال الزهرى : ثم بعثوا إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عروة ابن مسعود الثقفى فقال : يامعشر قريش ، إنى قد رأيت مايلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم ،من التعنيف

(١) أى وعاء نصح . والمقصود أنهم ناصحون مخلصون . وقد دخلوا فى عهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما سيجىء .

(٢) الأحابيش جمع حبشى بضم الحاء وسكون الباء نسبة إلى مكان فى البادية .

Marfat.com

Marfat.com

وسوء اللفظ . وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد (وكان نسبه لأمه فى بنى عبد شمس) وقد سمعت بالذى نابكم ، فجمعت من أطاعنى من قومى ، ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسى. قالوا : صدقت ، ماأنت عندنا بمتهم . فخرج حتى جاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فجلس بين يديه . ثم قال : يامحمد . أجمعت أوشاب الناس ، ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم (١) ؟ إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله لاتدخلها عليهم عنوة أبدا . وأيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا .قال : وأبو بكر خلف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قاعد . فزجره(٢) وقال : أنحن نكشف عنه؟قال :من هذا يامحمد؟ قال : « هذا ابن أبى قحافة» . قال . أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها . ولكن هذه بها .قال : ثم جعل يتناول لحية رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو يكلمه . قال : والمغيرة ابن شعبة واقف على رأس رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى الحديد . قال : فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ويقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قبل أن لاتصل إليك ! قال : فيقول عروة : ويحك ! ماأفظك وأغلظك ! قال : فتبسم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال له عروة : من هذا يامحمد ؟ قال : « هذا ابن أخيك المغيرة ابن شعبة » . قال : أى غُدَر (٣) . وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس ؟

قال ابن هشام : أراد عروة بقوله هذا أن المغيرة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلا من بنى مالك من ثقيف ، فتهايج الحيان من ثقيف : بنو مالك رهط المقتولين . والأحلاف رهط المغيرة . فودى عروة المقتولين ثلاث عشرة دية . وأصلح ذلك الأمر .

قال ابن إسحاق : قال الزهرى : فكلمه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بنحو مما كلم أصحابه ، وأخبره أنه لم يأت يريد حربا . فقام من عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقد رأى ما يصنع به أصحابه : لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يبصق بصاقا إلا ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه . فرجع إلى قريش فقال : يامعشر قريش ، إنى جئت كسرى

(١) بيضة الرجل : أهله وقبيلته . وتفضها أى تكسرها . وهى كناية عن تحطيمهم .
(٢) فى الرواية جملة نستبعد صدورها على لسان أبى بكر رضى الله عنه فى أدبه وعفة لسانه .
(٣) أى : ياغادر

فى ملكه . وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ؛ وإنى والله مارأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه ؛ ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبدا . فروا رأيكم .

قال ابن إسحاق : وحدثنى بعض أهل العلم ، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – دعا خراش ابن أمية الخزاعى فبعثه إلى قريش بمكة ، وحمله على بعير له يقال له : الثعلب . ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له . فعقروا به جمل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأرادوا قتله ، فمنعته الأحابيش ، فخلوا سبيله حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحاق: وحدثنى بعض من لاأتهم ، عن عكرمة مولى ابن عباس (عن ابن عباس) أن قريشا كانوا بعثوا أربعين رجلا منهم ، أو خمسين رجلا ، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليصيبوا لهم من أصحابه أحدا . فأخذوا أخذا ، فأتى بهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم – فعفا عنهم ، وخلى سبيلهم . وقد كانوا رموا فى عسكر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالحجارة والنبل .

ثم دعا عمر ابن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ماجاء له . فقال: يارسول الله إنى أخاف قريشا على نفسى ، وليس بمكة من بنى عدى ابن كعب أحد يمنعنى . وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها . ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى . عثمان ابن عفان . فدعا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عثمان ابن عفان ، فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وأنه إنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته .

قال ابن إسحاق : فخرج عثمان إلى مكة ، فلقيه أبان ابن سعيد ابن العاص ، حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها ؛ فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلغهم عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما أرسله به ؛ فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله –صلى الله عليه وسلم – إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والمسلمين أن عثمان ابن عفان قد قتل .

قال ابن إسحاق : فحدثنى عبد الله ابن أبى بكر ، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال – حين بلغه أن عثمان قد قتل – : « لا نبرح حتى نناجز القوم » . فدعا رسول الله – صلى

Marfat.com

الله عليه وسلم ـ الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة. فكان الناس يقولون بايعهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الموت . وكان جابر ابن عبد الله يقول : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يبايعنا على الموت ، ولكن بايعنا على ألا نفر. فبايع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس ، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا الجد ابن قيس أخو بنى سلمة . فكان جابر بن عبد الله يقول : والله لكأنى أنظر إليه لاصقا بإبط ناقته قد ضبأ إليها (١) ، يستتر بها من الناس . ثم أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الذى ذكر من أمر عثمان باطل .

قال ابن هشام : وحدثنى من أثق به ، عمن حدثه بإسناد له ، عن ابن أبى مليكه ، عن ابن عمر ، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بايع لعثمان، فضرب بإحدى يديه على الأخرى.

قال ابن إسحاق : قال الزهرى : ثم بعثت قريش سهيل ابن عمرو أخا بنى عامر بن لؤى إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا له : إيت محمدا فصالحه ، ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لاتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا . فأتاه سهيل ابن عمرو ، فلما رآه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مقبلا قال : ـ « قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل ». فلما انتهى سهيل ابن عمرو إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تكلم فأطال الكلام . وتراجعا . ثم جرى بينهما الصلح .

فلما التأم الأمر ، ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر ابن الخطاب فأتى أبابكر ، فقال : ياأبابكر، أليس برسول الله ؟ قال : بلى ! قال : أولسنا بالمسلمين؟ قال : بلى ! قال :أوليسوا بالمشركين؟ قال : بلى ! قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال أبو بكر : ياعمر ، الزم غرزه (١) ، فإنى أشهد أنه رسول الله . قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله .ثم أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يارسول الله ، ألست برسول الله ؟ قال : بلى ! قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال بلى ! قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ! قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى ». قال : فكان عمر يقول:مازلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ ، مخافة كلامى الذى تكلمت به ، حين رجوت أن يكون خيرا !

---

(١) ضبأ إليها : لصق بها واستتر .

(١) الزم غرزه : أى الزم طريقه . وأصله وضع القدم فى الركاب موضع قدمه .

Marfat.com

Marfat.com

قال : ثم دعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ابن أبى طالب ـ رضوان الله عليه ـ فقال : « اكتب باسم الله الرحمان الرحيم » قال : فقال سهيل : لاأعرف هذا ، ولكن اكتب باسمك اللهم . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « اكتب باسمك اللهم » فكتبها . ثم قال : « اكتب : هذا ماصالح عليه محمد رسول الله سهيل ابن عمرو » . قال : فقال سهيل : لوشهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ؛ ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . قال : فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اكتب : هذا ماصالح عليه محمد ابن عبد الله . سهيل ابن عمرو . اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليه ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وأن بيننا عيبة مكفوفة (١) . وأنه لاإسلال ولا إغلال (٢) ، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ـ فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن فى عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن فى عقد قريش وعهدهم ـ وأنك ترجع عنا عامك هذا فلاتدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك ، فدخلتها بأصحابك ، فأقمت بها ثلاثا ، معك سلاح الراكب : السيوف فى القرُب ، لاتدخلها بغيرها .

فبينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكتب الكتاب هو وسهيل ابن عمرو ، إذ جاء أبو جندل ابن سهيل ابن عمرو يرسف فى الحديد ، قد انفلت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد كان أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرجوا وهم لا يشكون فى الفتح ، لرؤيا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع ، وما تحمل عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون . فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه ، ثم قال : يامحمد ، قد لجت (٣) القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال : « صدقت » فجعل ينتره بتلبيبه ويجره ليرده إلى قريش وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يامعشر المسلمين ، أأرد إلى المشركين يفتنوننى فى دينى؟ فزاد الناس إلى ما بهم . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عقدنا بيننا

---

(١) أى تكف عنا ونكف عنك . والأصل أن بيننا وعاء مقفلا فاستعاره لهذا المعنى .

(٢) الإسلال : السرقة الخفية ، والإغلال : الخيانة .

(٣) لجت القضية : انعقدت وانتهى أمرها .

Marfat.com

وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله . وإنا لا نغدر بهم » . قال : فوثب عمر ابن الخطاب مع أبي جندل يمشى إلى جنبه ، ويقول: اصبر ياأبا جندل، فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب . قال : ويدنى قائم السيف منه . قال : يقول عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب أباه . قال : فضن الرجل بأبيه ، ونفذت القضية (١)

فلما فرغ من الكتاب أشهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين : أبو بكر الصديق ، وعمر ابن الخطاب ، وعبد الرحمان ابن عوف، وعبد الله ابن سهيل ابن عمرو، وسعد ابن أبي وقاص ، ومحمود ابن مسلمة ، ومكرز ابن حفص (وهو يومئذ مشرك) وعلى ابن أبي طالب ، وكتب ، وكان هو كاتب الصحيفة .

قال الزهرى : فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه: « قوموا فانحروا ثم احلقوا » قال : فوالله ما قام منهم رجل ، حتى قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد دخل ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ على أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ فذكر لها ما لقى من الناس . قالت (أم سلمة) ـ رضى الله عنها ـ : يانبى الله ، أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك ، وتدعو حالقك فيحلقك . فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك ، نحر بيده ، ودعا حالقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما .

قال ابن إسحاق : فحدثنى عبد الله ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس . قال : حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يرحم الله المحلقين» . قالوا : والمقصرين يارسول الله ؟ قال : « يرحم الله المحلقين » . قالوا : والمقصرين يارسول الله ؟ قال : « يرحم الله المحلقين » . قالوا : والمقصرين يارسول الله ؟ قال : « والمقصرين » . فقالوا : يارسول الله ، فلم ظاهرت الترحيم للمحلقين دون المقصرين ؟ قال : « لم يشكوا » . .

قال الزهرى فى حديثه : ثم انصرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من وجهه ذلك قافلا . حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح

---

(١) روى عن أبي جندل أن الذى منعه حرصه على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا الضن بأبيه!

وروى الإمام أحمد - بإسناده - عن مجمع ابن حارثة الأنصارى - رضى الله عنه - وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن . قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباعر ، فقال الناس بعضهم لبعض : ماللناس ؟ قالوا : أوحى إلى رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - فخرجنا مع الناس نوجف . فإذا رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » .. قال : فقال رجل من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - : أى رسول الله أوفتح هو ؟ قال - صلى الله عليه وسلم - : « إى والذى نفس محمد بيده إنه لفتح » ..

وروى الإمام أحمد - باسناده - عن عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - قال : كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى سفر . قال : فسألته عن شىء ثلاث مرات فلم يرد على . قال : فقلت ثكلتك أمك ياابن الخطاب . ألححت . كررت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاث مرات ، فلم يرد عليك ! قال : فركبت راحلتى ، فحركت بعيرى ، فتقدمت ، مخافة أن يكون نزل فىّ شىء . قال : فإذا أنا بمناد ياعمر . قال : فرجعت وأنا أظن أنه نزل فىّ شىء . قال : فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « نزل علىّ البارحة سورة هى أحب إلىّ من الدنيا ومافيها : إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر » .. ورواه البخارى والترمذى والنسائى من طرق عن مالك رحمه الله ..

* * *

هذا هو الجو الذى نزلت فيه السورة . الجو الذى اطمأنت فيه نفس الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى إلهام ربه ، فتجرد من كل إرادة إلا ما يوحيه هذا الإلهام العلوى الصادق ؛ ومضى يستلهم هذا الإيحاء فى كل خطوة وفى كل حركة ، لا يستفزه عنه مستفز ، سواء من المشركين أو من أصحابه الذين لم تطمئن نفوسهم فى أول الأمر لقبول استفزاز المشركين وحميتهم الجاهلية . ثم أنزل الله السكينة فى قلوبهم ، ففاءوا إلى الرضى واليقين ، والقبول الخالص العميق ؛ كإخوانهم الذين كانوا على هذه الحال منذ أول الأمر ، شأن الصديق أبى بكر الذى لم تفقد روحه لحظة واحدة صلتها الداخلية المباشرة بروح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن ثم بقيت على اطمئنانها دائما ، ولم تفارقها الطمأنينة أبدا .

ومن ثم جاء افتتاح السورة بشرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرح لها قلبه الكبير

Marfat.com

فرحا عميقا : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما . وينصرك الله نصرا عزيزا » .

كما جاء فى الافتتاح ،الامتنان على المؤمنين بالسكينة، والاعتراف لهم بالإيمان السابق وتبشيرهم بالمغفرة والثواب ، وعون السماء بجنود الله : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا – مع إيمانهم – ولله جنود السماوات والأرض ، وكان الله عليما حكيما ، ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزا عظيما » . . ذلك مع ما أعده لأعدائهم من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات من غضب وعذاب : « ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء ، وغضب الله عليهم ولعنهم، وأعد لهم جهنم ، وساءت مصيرا » . .

ثم التنويه ببيعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – واعتبارها بيعة لله ؛ وربط قلوب المؤمنين مباشرة بربهم عن هذا الطريق ، بهذا الرباط المتصل مباشرة بالله الحى الباقى الذى لا يموت : « إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا . إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » .

وبمناسبة البيعة والنكث يلتفت – قبل إكمال الحديث عن المؤمنين ومواقفهم فى الحديبية – إلى الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج ، فيفضح معاذيرهم ، ويكشف ما جال فى خواطرهم من سوء الظن بالله ، ومن توقع السوء للرسول – صلى الله عليه وسلم – ومن معه. ويوجه الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى ما ينبغى أن يكون موقفه منهم فى المستقبل . وذلك فى أسلوب يوحى بقوة المسلمين وضعف المخلفين ، كما يوحى بأن هنالك غنائم وفتوحا قريبة يسيل لها لعاب المخلفين المتباطئين :

« سيقول لك المخلفون من الأعراب : شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم ، قل : فمن يملك لكم من الله شيئا ، إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا ؟ بل كان الله بما تعملون خبيرا . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا ، وزين ذلك فى قلوبكم ، وظننتم ظن السوء، وكنتم قوما بورا . ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا . ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وكان الله

Marfat.com

غفورا رحيما . سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها : ذرونا نتبعكم ، يريدون أن يبدلوا كلام الله ، قل : لن تتبعونا . كذلكم قال الله من قبل . فسيقولون : بل تحسدوننا. بل كانوا لايفقهون إلا قليلا . قل للمخلفين من الأعراب : ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أويسلمون ،فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا ، وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما » .

وفى هذا الصدد يبين المعذورين إذا تخلفوا ، والمعفين من الجهاد لعجزهم عنه ، وهو العذر الوحيد : « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن يتول يعذبه عذابا أليما » . .

وبعد هذه اللفتة يعود سياق السورة للحديث عن المؤمنين ومواقفهم وخوالج نفوسهم ؛ حديثا كله رضى وشفافية ووضاءة وتكريم ؛ وكله بشريات لهذه النفوس الخالصة القوية ، البائعة المتجردة . حديثا يتجلى فيه الله جل جلاله على هذه المجموعة المختارة من البشر . يتجلى عليهم برضوانه وبشرياته وامتنانه وتثبيته . ويبلغهم بأشخاصهم وأعيانهم أنه عنهم راض ، وأنه كان حاضرهم وهم يبايعون فى مكان بعينه : « تحت الشجرة » وأنه اطلع على مافى نفوسهم . وأنه رضيهم ورضى عنهم، وأنه كتب لهم النصر فى المستقبل والغنائم والفتوح ، وربط هذا كله بناموس الوجود وسنة الوجود. وهو أمر يقف له الوجود كله يشهد ويرقب ويتأثر ويسجل فى أطوائه ذلك الحادث العظيم الفريد : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم مافى قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ،وأثابهم فتحا قريبا . ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما . وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ، فعجل لكم هذه ، وكف أيدى الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين ، ويهديكم صراطا مستقيما ، وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شىء قديرا .ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لايجدون وليا ولانصيرا. سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » . .

ويمتن عليهم بأخذ عدوهم النفر الذين أرادوا بهم الأذى ؛ ويندد بأعدائهم الذين صدوهم عن المسجد الحرام ، وصدوا الهدى أن يبلغ محله، ويتلطف معهم فيكشف لهم عن حكمته فى كفهم هذا العام عنهم ؛ وفضله فى ترضيتهم بما كان ، وإنزال سكينته فى قلوبهم ، لأمر يراه، وهو أعظم مما يرون ، وهو فتح مكة ثم هيمنة هذا الدين على الدين كله بأمر الله وتدبيره : « وهو

Marfat.com

Marfat.com

الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ، وكان الله بما تعملون بصيرا . هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله . ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ، أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ، ليدخل الله فى رحمته من يشاء ، لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما . إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ؛ وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها ، وكان الله بكل شىء عليما . لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون . فعلم مالم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحا قريبا . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا » . .

وتختم السورة بالصفة الكريمة الوضيئة التى تميز هذه المجموعة المختارة من البشر ، وتفردها بسمتها الخاصة ، وتنوه بها فى الكتب السابقة : التوراة والإنجيل . وبوعد الله الكريم بالمغفرة والأجر العظيم : « محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم فى التوراة . ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ، ليغيظ بهم الكفار . وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » . .

وهكذا تصبح نصوص السورة مفهومة واضحة ، تعيش فى جوها الذى نزلت فيه ، وتصوره أقوى تصوير ، بأسلوب القرآن الخاص الذى لا يفصل الحوادث بترتيبها وتسلسلها ؛ ولكنه يأخذ منها لمحات توجيهية وتربوية ؛ ويربط الحادثة المفردة بالقاعدة الشاملة . والموقف الخاص بالأصل الكونى العام . ويخاطب النفوس والقلوب بطريقته الفذة ومنهجه الفريد .

* * *

ومن سياق السورة وجوها ، وبالموازنة بينها وبين إيحاءات سورة محمد التى قبلها فى ترتيب المصحف ؛ يتبين مدى ما طرأ على الجماعة المسلمة فى موقفها كله من تغيرات عميقة ، فى مدى السنوات الثلاث ، التى نرجح أنها تفرق بين السورتين فى زمن النزول . ويتبين مدى فعل القرآن الكريم ، وأثر التربية النبوية الرشيدة لهذه الجماعة التى سعدت بالنشوء والنمو فى ظلال القرآن ، وفى رعاية النبوة . فكانت ما كانت فى تاريخ البشرية الطويل .

واضح فى جو سورة الفتح وإيحاءاتها أننا أمام جماعة نضج إدراكها للعقيدة، وتجانست مستوياتها الإيمانية، واطمأنت نفوسها لتكاليف هذا الدين؛ ولم تعد محتاجة إلى حوافز عنيفة الوقع كى تنهض بهذه التكاليف فى النفس والمال؛ بل عادت محتاجة إلى من يخفض حميتها، ويتهنه حدتها، ويأخذ بزمامها لتستسلم للهدوء والمهادنة بعض الوقت، وفق حكمة القيادة العليا للدعوة.

لم تعد الجماعة المسلمة تواجه بمثل قوله تعالى: « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم » . . ولا بمثل قوله تعالى: « ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه، والله الغنى وأنتم الفقراء، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم، ثم لا يكونوا أمثالكم » .

ولم تعد فى حاجة إلى حوافز قوية للجهاد بالحديث عن الشهداء وما أعد الله لهم عنده من الكرامة؛ ولا بيان حكمة الابتلاء بالقتال ومشقاته كما فى سورة محمد، إذ يقول الله تعالى: «ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم، ولكن ليبلو بعضكم ببعض، والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم. سيهديهم ويصلح بالهم. ويدخلهم الجنة عرفها لهم » .

إنما صار الحديث عن السكينة التى أنزلها الله فى قلوب المؤمنين، أو أنزلها عليهم. والمقصود بها تهدئة فورتهم، وتخفيض حميتهم، واطمئنان قلوبهم لحكم الله وحكمة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المهادنة والملاينة، وعن رضى الله على المبايعين تحت الشجرة. وكانت هذه الصورة الوضيئة فى نهاية السورة للرسول ومن معه.

أما الحديث عن الوفاء بالبيعة والنكث فيها فى قوله تعالى: « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » . . فالإيحاء فيه أكثر إلى تكريم المبايعين وتعظيم شأن البيعة. والإشارة إلى النكث جاءت بمناسبة الحديث عن الأعراب المتخلفين، وكذلك الإشارة إلى المنافقين والمنافقات فهى إشارة عابرة، تدل على ضعف موقف هذه الطائفة، وعلى خلوص الجماعة المسلمة بالمدينة ونضوجها وتجانسها. وهى على كل حال إشارة عابرة لا تشغل من السورة شيئا مما شغله الحديث عن المنافقين فى سورة محمد، حيث كان للمنافقين شأنهم هم وحلفاؤهم اليهود. وهذا تطور آخر فى موقف الجماعة المسلمة من ناحية موقفها الخارجى يساير ذلك التطور الذى تم فى نفوسها من الداخل.

Marfat.com

وواضح كذلك قوة المسلمين بالقياس إلى قوة المشركين فى جو السورة كلها وفى آيات بنصها ؛ والإشارات إلى الفتوح المقبلة ، وإلى رغبة المخلفين فى الغنائم السهلة واعتذارهم ، وإلى ظهور هذا الدين على الدين كله . . كلها تشى بما بلغت إليه قوة المسلمين فى هذه الفترة بين نزول السورتين .

فنى حقيقة النفوس ، وفى حال الجماعة ، وفى الظروف المحيطة بها ، حدث تطور واضح ، يدركه من يتلمس خط السيرة فى النصوص القرآنية . ولهذا التطور قيمته كما أن له دلالته على أثر المنهج القرآنى والتربية المحمدية ، لهذه الجماعة السعيدة الفريدة فى التاريخ . ثم إن لهذا التطور إيحاءه للقائمين على الجماعات البشرية . فلاتضيق صدورهم بالنقص فيها والضعف ورواسب الماضى ومخلفاته ، وآثار البيئة والوسط ، وجواذب الأرض ، وثقلة اللحم والدم .. وكلها تبدو فى أول العهد قوية عميقة عنيفة. ولكنها مع المثابرة والحكمة والصبر على العلاج، تأخذ فى التحسن والتطور . والتجارب والابتلاءات تعين على التحسن والتطور، حين تتخذ فرصة للتربية والتوجيه . وشيئا فشيئا تخف ثقلة الطين ، وتشف كثافة اللحم والدم ، وتتوارى آثار البيئة ، وتصفو رواسب الماضى ، وتستشرف القلوب آفاقا أعلى فأعلى ، حتى ترى النور هناك على الأفق الوضىء البعيد . ولنا فى رسول الله أسوة حسنة ، ولنا فى المنهج القرآنى صراط مستقيم .

* * *

« إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصرا عزيزا » . .

تفتتح السورة بهذا الفيض الإلهى على رسوله — صلى الله عليه وسلم — : فتح مبين . ومغفرة شاملة . ونعمة تامة . وهداية ثابتة. ونصر عزيز .. إنها جزاء الطمأنينة التامة لإلهام الله وتوجيهه . والاستسلام الراضى لإيحائه وإشارته. والتجرد المطلق من كل إرادة ذاتية. والثقة العميقة بالرعاية الحانية .. يرى الرؤيا فيتحرك بوحيها . وتبرك الناقة، ويتصايح الناس : خلأت القصواء .فيقول. « ماخلأت . وماهو لها بخلق . ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لاتدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » .. ويسأله عمر ابن الخطاب فى حمية : فلم نعطى الدنية فى ديننا ؟ فيجيبه : « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى » .. ذلك وحين يشاع أن عثمان قتل يقول — صلى الله عليه وسلم — : « لانبرح حتى نناجز القوم».. ويدعو الناس إلى البيعة ، فتكون بيعة الرضوان التى فاض منها الخير على الذين فازوا بها وسعدوا.

Marfat.com

Marfat.com

وكان هذا هو الفتح ؛ إلى جانب الفتح الآخر الذى تمثل فى صلح الحديبية ، وما أعقبه من فتوح شتى فى صور متعددة :

كان فتحا فى الدعوة . يقول الزهرى: فما فتح فى الإسلام فتح قبله كان أعظم منه. إنما كان القتال حيث التقى الناس . فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب ، وأمن الناس بعضهم بعضا ، والتقوا ، فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، ولم يكلم أحد فى الإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه . ولقد دخل فى تينك السنتين (بين صلح الحديبية وفتح مكة) مثل من كان فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

قال ابن هشام : والدليل على قول الزهرى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج إلى الحديبية فى ألف وأربع مئة فى قول جابر بن عبد الله. ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين فى عشرة آلاف .

وكان ممن أسلم خالد ابن الوليد وعمرو ابن العاص .

وكان فتحا فى الأرض . فقد أمن المسلمون شر قريش ، فاتجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى تخليص الجزيرة من بقايا الخطر اليهودى ـ بعد التخلص من بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة ـ وكان هـذا الخطر يتمثل فى حصون خيبر القوية التى تهدد طريق الشام . وقد فتحها الله على المسلمين ، وغنموا منها غنائم ضخمة، جعلها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيمن حضر الحديبية دون سواهم .

وكان فتحا فى الموقف بين المسلمين فى المدينة وقريش فى مكة وسائر المشركين حولها . يقول الأستاذ محمد عزة دروزة بحق فى كتابه : « سيرة الرسول . صور مقتبسة من القرآن الكريم » :

« ولا ريب فى أن هـذا الصلح الذى سماه القرآن بالفتح المظيم يستحق هـذا الوصف كل الاستحقاق . بل إنه ليصح أن يعد من الأحداث الحاسمة العظمى فى السيرة النبوية ، وفى تاريخ الإسلام وقوته وتوطده ، أو بالأحرى من أعظمها . فقد اعترفت قريش بالنبى والإسلام وقوتهما وكيانهما ، واعتبرت النبى والمسلمين أندادا لها ، بل دفعتهم عنها بالتى هى أحسن ، فى حين أنها غزت المدينة فى سنتين مرتين ، وكانت الغزوة الأخيرة قبل سنة من هذه الزيارة وبحشد عظيم مؤلف منها ومن أحزابها لتستأصل شأفتهم ، وبعثت هـذه الغزوة فى نفوس المسلمين أشد الاضطراب والهلع لضعفهم وقلتهم إزاء الغزاة . ولهذا شأن عظم فى نفوس العرب ،

الذين كانوا يرون فى قريش الإمام والقدوة ، والذين كانوا متأثرين بموقفهم الجحودى كل التأثر وإذا لوحظ أن الأعراب كانوا يقدرون أن النبى والمسلمين لن يعودوا سالمين من هذه الرحلة، وأن المنافقين كانوا يظنون أسوأ الظنون . بدت لنا ناحية من نواحى خطورة هـذا الفتح وبعد مداه .

« ولقد أثبتت الأحداث صدق إلهام النبى – صلى الله عليه وسلم – فيما فعل ، وأيده فيه القرآن . وأظهرت عظم الفوائد المادية والمعنوية والسياسية والحربية والدينية التى عادت على المسلمين منه . إذ قووا فى عيون القبائل ، وبادر المتخلفون من الأعراب إلى الإعتذار ، وازداد صوت المنافقين فى المدينة خفوتا وشأنهم ضآلة ، وإذ صار العرب يفدون على النبى – صلى الله عليه وسلم – من أنحاء قاصية ، وإذ تمكن من خضد شوكة اليهود فى خيبر وغيرها من قراهم المتناثرة على طريق الشام ، وإذ صار يستطيع أن يبعث بسراياه إلى أنحاء قاصية كنجد واليمن والبلقاء ، وإذ استطاع بعد سنتين أن يغزو مكة ويفتحها . وكان فى ذلك النهاية الحاسمة ، إذ جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا [(١)] » .

ونحن نعود فنؤكد أنه كان هناك – إلى جانب هذا كله – فتح آخر . فتح فى النفوس والقلوب ، تصوره بيعة الرضوان ، التى رضى عنها الله وعن أصحابها ذلك الرضى الذى وصفه القرآن . ورسم لهم على ضوئه تلك الصورة الوضيئة الكريمة فى نهاية السورة : « محمد رسول الله . والذين معه ... الخ » . فهذا فتح فى تاريخ الدعوات له حسابه ، وله دلالته ، وله آثاره بعد ذلك فى التاريخ .

ولقد فرح رسول الله –صلى الله عليه وسلم – بهذه السورة فرح قلبه الكبير بهذا الفيض الربانى عليه وعلى المؤمنين معه . فرح بالفتح المبين . وفرح بالمغفرة الشاملة، وفرح بالنعمة التامة، وفرح بالهداية إلى صراط الله المستقيم . وفرح بالنصر العزيز الكريم . وفرح برضى الله عن المؤمنين ووصفهم ذلك الوصف الجميل . وقال – فى رواية – : « نزل علىّ البارحة سورة هى أحب إلىّ من الدنيا ومافيها » . وفى رواية : « لقد أنزلت علىّ الليلة سورة هى أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس » .. وفاضت نفسه الطيبة بالشكر لربه على ما أولاه من نعمته . فاضت بالشكر فى صورة صلاة طويلة مديدة ، تقول عنها عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا صلى قام حتى تنفر رجلاه ، فقالت له عائشة – رضى الله عنها – يارسول الله

---

(١) ص ٢٩٢ – ٢٩٣ من الجزء الثانى .

Marfat.com

Marfat.com

أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ياعائشة ، أفلا أكون عبدا شكورا ؟ » (١) ..

* * *

ذلك الافتتاح كان نصيب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة ؛ ثم مضى السياق يصف نعمة الله على المؤمنين بهذا الفتح ، ومس يده لقلوبهم بالسكينة ، وما ادخره لهم فى الآخرة من غفران وفوز ونعيم :

« هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، ولله جنود السماوات والأرض ، وكان الله عليما حكيما . ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزا عظيما » ..

والسكينة لفظ معبر مصور ذو ظلال ؛ والسكينة حين ينزلها الله فى قلب ، تكون طمأنينة وراحة ، ويقينا وثقة ، ووقارا وثباتا ، واستسلاما ورضى .

ولقد كانت قلوب المؤمنين فى هذه الواقعة تجيش بمشاعر شتى ، وتفور بانفعالات متنوعة . كان فيها الانتظار والتطلع إلى تصديق رؤيا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدخول المسجد الحرام ؛ ثم مواجهة موقف قريش وقبول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للرجوع عن البيت فى هذا العام ، بعد الإحرام ، وبعد إشعار الهدى وتقليده . وكان هذا أمرا شاقا على نفوسهم مافى ذلك ريب . وقد روى عن عمر ـ رضى الله عنه ـ أنه جاء أبا بكر وهو مهتاج ، فكان مما قال له ـ غير ما أثبتناه فى صلب رواية الحادث ـ : أوليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال أبوبكر ـ الموصول القلب بقلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى ينبض قلبه على دقات قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : بلى . أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قال : لا . قال : فإنك تأتيه وتطوف به . فتركه عمر ـ رضى الله عنه ـ إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له فيما قال : أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال ـ صلى الله عليه وسلم : « بلى . أفأخبرتك أنا نأتيه العام ؟ » قال : لا . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « فإنك آتيه ومطوف به » . فهذه صورة مما كان يجيش فى القلوب .

---

(١) أخرجه مسلم فى الصحيح من رواية عبد الله ابن وهب .

Marfat.com

وكان المؤمنون ضيق الصدور بشروط قريش الأخرى ، من رد من يسلم ويأتى محمدا بغير إذن وليه . ومن حميتهم الجاهلية فى رد اسم الرحمان الرحيم . وفى رد صفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد روى أن عليا ـ رضى الله عنه ـ أبى أن يمحو هذه الصفة كما طلب سهيل ابن عمرو بعد كتابتها ، فمحاها رسول الله بنفسه وهو يقول : « اللهم إنك تعلم أنى رسولك » .

وكانت حميتهم لدينهم وحماستهم للقاء المشركين بالغة ، يبدو هذا فى بيعتهم الإجماعية ؛ ثم انتهى الأمر إلى المصالحة والمهادنة والرجوع . فلم يكن هينا على نفوسهم أن تنتهى الأمور إلى ما انتهت إليه . يبدو هذا فى تباطئهم فى النحر والحلق . حتى قالها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاثا . وهم من هم طاعة لأمر رسول الله وامتثالا . كالذى حكاه عنهم لقريش عروة ابن مسعود الثقفى . ولم ينحروا ويحلقوا أو يقصروا إلا حين رأوا رسول الله يفعل هذا بنفسه ، فهزتهم هذه الحركة العملية مالم يهزهم القول ، وثابوا إلى الطاعة كالذى كان فى دهشة المأخوذ !

وهم كانوا قد خرجوا من المدينة بنية العمرة ، لا ينوون قتالا ، ولم يستعدوا له نفسيا ولا عمليا . ثم فوجئوا بموقف قريش ، وبما شاع من قتلها لعثمان ، وبإرسال النفر الذين رموا فى عسكر المسلمين بالنبل والحجارة . فلما عزم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المناجزة وطلب البيعة أعطوها له عن بكرة أبيهم . ولكن هذا لاينفى موقف المفاجأة على غير ما كانت نفوسهم قد خرجت له . وهو بعض ما كان يجيش فى قلوبهم من انفعالات وتأثرات . وهم ألف وأربعمائة وقريش فى دارها ، ومن خلفهم الأعراب والمشركون .

وحين يسترجع الإنسان هذه الصور يدرك معنى قوله تعالى : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين » . ويذوق طعم اللفظ وطعم العبارة ، ويتصور الموقف يومئذ ويعيش فيه مع هذه النصوص ، ويحس برد السكينة وسلامها فى تلك القلوب .

ولما كان الله يعلم من قلوب المؤمنين يومئذ ، أن ما جاش فيها جاش عن الإيمان ، والحمية الإيمانية لا لأنفسهم ، ولا لجاهلية فيهم . فقد تفضل عليهم بهذه السكينة : « ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم » والطمأنينة درجة بعد الحمية والحماسة ، فيها الثقة التى لا تقلق ، وفيها الرضى المطمئن باليقين .

ومن ثم يلوّح بأن النصر والغلب لم يكن عسيرا ولا بعيدا ، بل كان هينا يسيرا على الله لو اقتضت حكمته يومئذ أن يكون الأمر كما أراده المؤمنون ، فإن لله جنودا لا تحصى ولا تغلب ، تدرك النصر وتحقق الغلب وقتما يشاء : « ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما » . فهى حكمته وهو علمه ، تسير الأمور وفقهما كما يريد .

وعن العلم والحكمة : « أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم » . ليحقق لهم ماقدره من فوز ونعيم :

« ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزا عظيما » . .

وإذا كان هذا فى حساب الله فوزا عظيما ، فهو فوز عظيم ! فوز عظيم فى حقيقته ، وفوز عظيم فى نفوس من ينالونه من عند الله مقدرا بتقديره ، موزونا بميزانه . . ولقد فرح المؤمنون يومها بما كتب الله لهم ؛ وكانوا قد تطلعوا بعد ماسمعوا افتتاح السورة ، وعلموا منه ما أفاض الله على رسوله . تطلعوا إلى نصيبهم هم ، وسألوا عنه ، فلما سمعوا وعلموا فاضت نفوسهم بالرضى والفرح واليقين .

ثم أنبأهم بجانب آخر من جوانب حكمته فيما قدر فى هذا الحادث ؛ وهو مجازاة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، بما يصدر عنهم من عمل وتصرف :

« ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، الظانين بالله ظن السوء ، عليهم دائرة السوء . وغضب الله عليهم ولعنهم ، وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا . ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما » . .

وقد جمع النص بين المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات فى صفة ظن السوء بالله ؛ وعدم الثقة بنصرته للمؤمنين . وفى أنهم جميعا « عليهم دائرة السوء » فهم محصورون فيها ، وهى تدور عليهم وتقع بهم . وفى غضب الله عليهم ولعنته لهم ، وفيما أعده لهم من سوء المصير . . ذلك أن النفاق صفة مرذولة لا تقل عن الشرك سوءا ، بل إنها أحط ؛ ولأن أذى المنافقين والمنافقات للجماعة المسلمة لايقل عن أذى المشركين والمشركات ، وإن اختلف هذا الأذى وذاك فى مظهره ونوعه .

Marfat.com

وقد جعل الله صفة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات هى ظن السوء بالله . فالقلب المؤمن حسن الظن بربه ، يتوقع منه الخير دائما . يتوقع منه الخير فى السراء والضراء . ويؤمن بأن الله يريد به الخير فى الحالين . وسر ذلك أن قلبه موصول بالله . وفيض الخير من الله لا ينقطع أبدا . فمتى اتصل القلب به لمس هذه الحقيقة الأصيلة ، وأحسها إحساس مباشرة وتذوق . فأما المنافقون والمشركون فهم مقطوعو الصلة بالله . ومن ثم لا يحسون تلك الحقيقة ولا يجدونها ، فيسوء ظنهم بالله ؛ وتتعلق قلوبهم بظواهر الأمور ، ويبنون عليها أحكامهم . ويتوقعون الشر والسوء لأنفسهم وللمؤمنين ، كلما كانت ظواهر الأمور توحى بهذا ؛ على غير ثقة بقدر الله وقدرته ، وتدبيره الخفى اللطيف .

وقد جمع الله فى الآية أعداء الإسلام والمسلمين من شتى الأنواع ؛ وبين حالهم عنده ، وما أعده لهم فى النهاية . ثم عقب على هذا بما يفيد قدرته وحكمته :

« ولله جنود السماوات والأرض ، وكان الله عزيزا حكيما » . .

فلا يعييه من أمرهم شىء ، ولا يخفى عليه من أمرهم شىء ، وله جنود السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم .

* * *

ثم عاد بالخطاب إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – منوها بوظيفته ، مبينا للغاية منها ، موجها المؤمنين إلى واجبهم مع ربهم بعد تبليغهم رسالته ، مع ردهم فى بيعتهم إلى الله مباشرة ، وعقد العقدة معه جل جلاله ، وذلك حين يبايعون الرسول – صلى الله عليه وسلم – ويتعاقدون معه . وفى ذلك تشريف لبيعة الرسول وتكريم واضح لهذا التعاقد :

« إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتعزروه وتوقروه ، وتسبحوه بكرة وأصيلا . إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » . .

فالرسول – صلى الله عليه وسلم – شاهد على هذه البشرية التى أرسل إليها ، يشهد أنه بلغها ما أمر به ، وأنها استقبلته بما استقبلته ، وأنه كان منها المؤمنون ، ومنها الكافرون ، ومنها المنافقون . وكان منها المصلحون ومنها المفسدون . فيؤدى الشهادة كما أدى الرسالة . وهو مبشر بالخير والمغفرة والرضى وحسن الجزاء للمؤمنين الطائعين ، ونذير بسوء المنقلب والغضب واللعنة والعقاب للكافرين والمنافقين والعصاة والمفسدين . .

Marfat.com

هذه وظيفة الرسول . ثم يلتفت بالخطاب إلى المؤمنين ، يكشف لهم عن الغاية المرجوة لهم من الرسالة . إنها الإيمان بالله ورسوله ، ثم النهوض بتكاليف الإيمان ، فينصرون الله بنصرة منهجه وشريعته ، ويوقرونه فى نفوسهم بالشعور بجلاله ؛ وينزهونه بالتسبيح والتحليل طرفى النهار فى البكور والأصيل ، وهى كناية عن اليوم كله ، لأن طرفى النهار يضمان ما بينهما من آونة . والغرض هو اتصال القلب بالله فى كل آن. فهذه هى ثمرة الإيمان المرجوة للمؤمنين من إرسال الرسول شاهدا ومبشرا ونذيرا .

وقد جاء ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليصلهم بالله ، ويعقد بينهم وبينه بيعة ماضية لا تنقطع بغيبة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عنهم . فهو حين يضع يده فى أيديهم مبايعا ، فإنما يبايع عن الله : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله . يد الله فوق أيديهم » . . وهو تصوير رهيب جليل للبيعة بينهم وبين رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والواحد منهم يشعر وهو يضع يده فى يده ، أن يد الله فوق أيديهم . فالله حاضر البيعة . والله صاحبها . والله آخذها . ويده فوق أيدى المتبايعين . . ومن ؟ الله ! ياللهول ! ويالالروعة ! ويالالجلال !

وإن هذه الصورة لتستأصل من النفس خاطر النكث بهذه البيعة ــ مهما غاب شخص رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فالله حاضر لا يغيب . والله آخذ فى هذه البيعة ومعط ، وهو عليها رقيب .

« فمن نكث فإنما ينكث على نفسه » . .

فهو الخاسر فى كل جانب . هو الخاسر فى الرجوع عن الصفقة الرابحة بينه وبين الله تعالى . وما من بيعة بين الله وعبد من عباده إلا والعبد فيها هو الرابح من فضل الله ، والله هو الغنى عن العالمين . وهو الخاسر حين ينكث وينقض عهده مع الله فيتعرض لغضبه وعقابه على النكث الذى يكرهه ويمقته ، فالله يحب الوفاء ويحب الأوفياء .

« ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » . .

هكذا على إطلاقه : « أجرا عظيما » . . لا يفصله ولا يحدده . فهو الأجر الذى يقول عنه الله إنه عظيم . عظيم بحساب الله وميزانه ووصفه الذى لا يرتقى إلى تصوره أبناء الأرض المقلون المحدودون الفانون !

* * *

Marfat.com

وعند ما يصل إلى حقيقة البيعة ، وإلى خاطر النكث وخاطر الوفاء ، يلتفت بالحديث إلى المخلفين من الأعراب ، الذين أبوا أن يخرجوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لسوء ظنهم بالله ، ولتوقعهم الشر والضر للمؤمنين الخارجين ، الذاهبين إلى قريش فى عقر دارها ، وهى غزت المدينة قبل ذلك عامين متواليين .. يلتفت إليهم لينبىء الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما سيعتذرون به إليه بعد عودته سالما هو ومن معه ، وقد هادنته قريش ولم تقاتله ، وعقدت معه معاهدة يبدو فيها - مهما كانت شروطها - التراجع من قريش ، واعتبار محمد - صلى الله عليه وسلم - ندا لها تهادنه وتتقى خصومته . ويكشف له عن الأسباب الحقيقية لعدم خروجهم معه ، ويفضحهم ويقفهم مكشوفين أمام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمام المؤمنين . كما ينبئه بما فيه البشرى له وللخارجين معه ؛ وهو أنهم سيخرجون إلى مغانم قريبة ميسورة ، وأن المخلفين من الأعراب سيطلبون الخروج معه لينالوا من هذه الغنائم السهلة . ويلقنه طريقة معاملتهم حينئذ والرد عليهم . فلا يقبل منهم الخروج معه فى هذا الوجه القريب الميسور الذى سيقتصر على من خرجوا من قبل وحضروا الحديبية . إنما ينبئهم بأن هنالك وجها آخر فيه مشقة وفيه قتال مع قوم أولى بأس شديد . فإن كانوا حقا يريدون الخروج فليخرجوا يومئذ ، حيث يقسم الله لهم بما يريد . فإن أطاعوا كان لهم الأجر الكبير ، وإن عصوا كما عصوا من قبل كان لهم العذاب الشديد :

« سيقول لك المخلفون من الأعراب : شغلتنا أموالنا وأهلونا ، فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم . قل : فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا ؟ بل كان الله بما تعملون خبيرا . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا ، وزين ذلك فى قلوبكم ، وظننتم ظن السوء ، وكنتم قوما بورا . ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا . ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وكان الله غفورا رحيما . سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها : ذرونا نتبعكم . يريدون أن يبدلوا كلام الله . قل : لن تتبعونا . كذلكم قال الله من قبل . فسيقولون : بل تحسدوننا . بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا . قل للمخلفين من الأعراب : ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد ، تقاتلونهم أو يسلمون ، فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا ، وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما » ..

Marfat.com

Marfat.com

والقرآن لا يكتفى بحكاية أقوال المخلفين والرد عليها ؛ ولكنه يجعل من هذه المناسبة فرصة لعلاج أمراض النفوس ، وهواجس القلوب ، والتسلل إلى مواطن الضعف والانحراف لكشفها تمهيدا لعلاجها والطب لها . ثم لإقرار الحقائق الباقية والقيم الثابتة ، وقواعد الشعور والتصور والسلوك .

فالمخلفون من الأعراب ـ وكانوا من أعراب غفار ومزينة وأشجع وأسلم وغيرهم ممن حول المدينة ـ سيقولون اعتذارا عن تخلفهم : « شغلتنا أموالنا وأهلونا » .. وليس هذا بعذر . فللناس دائما أهل وأموال . ولو كان مثل هذا يجوز أن يشغلهم عن تكاليف العقيدة ، وعن الوفاء بحقها مانهض أحد قط بها .. وسيقولون « فاستغفر لنا » .. وهم ليسوا صادقين فى طلب الاستغفار كما ينبىء الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم : « يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم » ..

هنا يرد عليهم بتقرير حقيقة القدر الذى لايدفعه تخلف ، ولايغيره إقدام ؛ وبحقيقة القدرة التى تحيط بالناس وتتصرف فى أقدارهم كما تشاء . وبحقيقة العلم الكامل الذى يصرف الله قدره على وفقه :

« قل : فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا؟ بل كان الله بما تعملون خبيرا » ..

وهو سؤال يوحى بالاستسلام لقدر الله ؛ والطاعة لأمره بلا توقف ولا تلكؤ . فالتوقف أو التلكؤ لن يدفع ضررا ، ولا يؤخر نفعا . وانتحال المعاذير لايخفى على علم الله . ولا يؤثر فى جزائه وفق علمه المحيط . وهو توجيه تربوى فى وقته وفى جوه وفى مناسبته على طريقة القرآن .

« بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا ، وزين ذلك فى قلوبكم ، وظننتم ظن السوء ، وكنتم قوما بورا » ..

وهكذا يقفهم عرايا مكشوفين ، وجها لوجه أمام ماأضمروا من نية ، وما ستروا من تقدير ، وما ظنوا بالله من السوء . وقد ظنوا أن الرسول ومن معه من المؤمنين ذاهبون إلى حتفهم ، فلا يرجعون إلى أهليهم بالمدينة؛ وقالوا : يذهب إلى قوم قد غزوه فى عقر داره بالمدينة ، وقتلوا أصحابه فيقاتلهم! ـ يشيرون إلى أحد والأحزاب ـ ولم يحسبوا حسابا لرعاية الله وحمايته للصادقين المتجردين من عباده . كما أنهم ـ بطبيعة تصورهم للأمور وخلو قلوبهم من حرارة العقيدة ـ لم يقدروا أن الواجب هو الواجب ، بغض النظر عن تكاليفه كائنة ما كانت ؛ وأن طاعة رسول الله

على الله عليه وسلم - يجب أن تكون بدون نظر إلى الربح الظاهرى والخسارة الشكلية، فهى واجب مفروض يؤدى دون نظر إلى عاقبة أخرى وراءه.

لقد ظنوا ظنهم، وزين هذا الظن فى قلوبهم، حتى لم يروا غيره، ولم يفكروا فى سواه. وكان هذا هو ظن السوء بالله، الناشىء من أن قلوبهم بور. وهو تعبير عجيب موح. فالأرض البور ميتة جرداء. وكذلك قلوبهم. وكذلك هم بكل كيانهم بور. لاحياة ولا خصب ولا إثمار. وما يكون القلب إذ يخلو من حسن الظن بالله؟ لأنه انقطع عن الاتصال بروح الله؟ يكون بورا. ميتا أجرد نهايته إلى البوار والدمار.

وكذلك يظن الناس بالجماعة المؤمنة. الناس من أمثال أولئك الأعراب المنقطعين عن الله. البور الخالية قلوبهم من الروح والحياة. هكذا يظنون دائما بالجماعة المؤمنة عندما يبدو أن كفة الباطل هى الراجحة، وأن قوى الأرض الظاهرة فى جانب أهل الشر والضلال؛ وأن المؤمنين قلة فى العدد، أو قلة فى العدة، أو قلة فى المكان والجاه والمال. هكذا يظن الأعراب وأشباههم فى كل زمان أن المؤمنين لا ينقلبون إلى أهليهم أبدا إذا هم واجهوا الباطل المنتفش بقوته الظاهرة. ومن ثم يتجنبون المؤمنين حبا للسلامة؛ ويتوقعون فى كل لحظة أن يستأصلوا وأن تنتهى دعوتهم فيأخذون هم بالأحوط ويبعدون عن طريقهم المحفوف بالمهالك! ولكن الله يخيب ظن السوء هذا؛ ويبدل المواقف والأحوال بمعرفته هو، وبتدبيره هو، وحسب ميزان القوى الحقيقية. الميزان الذى يمسكه الله بيده القوية، فيخفض به قوما ويرفع به آخرين، من حيث لا يعلم المنافقون الظانون بالله ظن السوء فى كل مكان وفى كل حين!

إن الميزان هو ميزان الإيمان. ومن ثم يرد الله أولئك الأعراب إليه؛ ويقرر القاعدة العامة للجزاء وفق هذا الميزان، مع التلويح لهم برحمة الله القريبة والإيحاء إليهم بالمبادرة إلى اغتنام الفرصة، والتمتع بمغفرة الله ورحمته:

« ومن لم يؤمن بالله ورسوله، فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا. ولله ملك السماوات والأرض، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، وكان الله غفورا رحيما » . .

لقد كانوا يعتذرون بأموالهم وأهليهم. فماذا تنفعهم أموالهم وأهلوهم فى هذه السعير المعدة لهم إذا لم يؤمنوا بالله ورسوله؟ إنهما كفتان فليختاروا هذه أو تلك على يقين. فإن الله الذى يوعدهم هذا الإيعاد، هو مالك السماوات والأرض وحده. فهو الذى يملك المغفرة لمن يشاء، وهو الذى يملك العذاب لمن يشاء.

Marfat.com

والله يجزى الناس بأعمالهم ولكن مشيئته مطلقة لا ظل عليها من قيد ، وهو يقرر هذه الحقيقة هنا لتستقر فى القلوب. غير متعارضة مع ترتيب الجزاء على العمل، فهذا الترتيب اختيار مطلق لهذه المشيئة .

ومغفرة الله ورحمته أقرب . فليغتنمها من يريد ، قبل أن تحق كلمة الله بعذاب من لم يؤمن بالله ورسوله ، بالسعير الحاضرة المعدة للكافرين .

ثم يلوح ببعض ما قدر الله للمؤمنين ، مخالفا لظن المخلفين . بأسلوب يوحى بأنه قريب :

« سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها : ذرونا نتبعكم . يريدون أن يبدلوا كلام الله. قل : لن تتبعونا . كذلكم قال الله من قبل . فسيقولون : بل تحسدوننا . بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا » . .

أغلب المفسرين يرون أنها إشارة إلى فتح خيبر . وقد يكون هذا . ولكن النص يظل له إيحاؤه ولو لم يكن نصا فى خيبر . فهو يوحى بأن المسلمين سيفتح عليهم فتح قريب يسير . وأن هؤلاء المخلفين سيدركون هذا ، فيقولون : « ذرونا نتبعكم » .

ولعل الذى جعل المفسرين يخصصون خيبر ، أنها كانت بعد قليل من صلح الحديبية . . إذ كانت فى المحرم من سنة سبع . بعد أقل من شهرين من صلح الحديبية . وأنها كانت وافرة الغنائم . وكانت حصون خيبر آخر ما بقى لليهود فى الجزيرة من مراكز قوية غنية . وكان قد لجأ إليها بعض بنى النضير وبنى قريظة ممن أجلوا عن الجزيرة من قبل .

وتتواتر أقوال المفسرين أن الله وعد أصحاب البيعة فى الحديبية أن تكون مغانم خيبر لهم لا يشركهم فيها أحد . ولم أجد فى هذا نصا . ولعلهم يأخذون هذا مما وقع فعلا . فقد جعلها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى أصحاب الحديبية ، ولم يأخذ معه أحدا غيرهم .

وعلى أية حال فقد أمر الله نبيه أن يرد المخلفين من الأعراب إذا عرضوا الخروج للغنائم الميسرة القريبة . وقرر أن خروجهم مخالف لأمر الله . وأخبر نبيه — صلى الله عليه وسلم — أنهم سيقولون إذا منعوا من الخروج : « بل تحسدوننا » .. فتمنعوننا من الخروج لتحرمونا من الغنيمة . ثم قرر أن قولهم هذا ناشىء عن قلة فقههم لحكمة الله وتقديره . فجزاء المتخلفين الطامعين أن يحرموا، وجزاء الطائعين المتجردين أن يعطوا من فضل الله،وأن يختصوا بالمغنم حين

Marfat.com

يقدره الله ،جزاء اختصاصهم بالطاعة والإقدام ، يوم كانوا لايتوقعون إلا الشدة فى الجهاد .

ثم أمر الله نبيه أن يخبرهم أنهم سيبتلون بالدعوة إلى جهاد قوم أشداء ، يقاتلونهم على الإسلام، فإذا نجحوا فى هذا الابتلاء كان لهم الأجر،وإن هم ظلوا على معصيتهم وتخلفهم فذلك هو الامتحان الأخير :

« قل للمخلفين من الأعراب : ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد ،تقاتلونهم أو يسلمون ، فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا ، وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما » ..

وتختلف الأقوال كذلك فى من هم القوم أولو البأس الشديد . وهل كانوا على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أم على عهود خلفائه . والأقرب أن يكون ذلك فى حياة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليمحص الله إيمان هؤلاء الأعراب من حول المدينة .

والمهم أن نلحظ طريقة التربية القرآنية ، وطريقة علاج النفوس والقلوب ، بالتوجيهات القرآنية، والابتلاءات الواقعية. وهذا كله ظاهر فى كشف نفوسهم لهم وللمؤمنين، وفى توجيههم إلى الحقائق والقيم وقواعد السلوك الإيمانى القويم .

ولما كان المفهوم من ذلك الابتلاء فرض الخروج على الجميع ، فقد بين الله أصحاب الأعذار الحقيقية الذين يحق لهم التخلف عن الجهاد ، بلا حرج ولا عقاب :

« ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج . ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن يتول يعذبه عذابا أليما » ..

فالأعمى والأعرج معهما عذر دائم هو العجز المستمر عن تكاليف الخروج والجهاد . والمريض معه عذر موقوت بمرضه حتى يبرأ .

والأمر فى حقيقته هو أمر الطاعة والعصيان . هو حالة نفسية لا أوضاع شكلية . فمن يطع الله ورسوله فالجنة جزاؤه .ومن يتول فالعذاب الأليم ينتظره . ولمن شاء أن يوازن بين مشقات الجهاد وجزائه ، وبين راحة القعود وماوراءه . . ثم يختار !

« لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ، فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ، فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ، وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ⑱ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ، وَكَانَ ٱللَّهُ

Marfat.com

عَزِيزاً حَكِيماً * وَعَدَكُمُ اللهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ، فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ ، وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ ، وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً * وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا ، وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً * وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ، ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً * سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً * وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً * هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ؛ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِنْهُم مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ، لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً * إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ ، وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ، وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً .

« لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ، لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ - إِن شَاءَ اللهُ - آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ، فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً .

« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ، يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً ، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ . ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ . وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ ، فَاسْتَغْلَظَ ، فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ، لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ . وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً » ٢٩

Marfat.com

هذا الدرس كله حديث عن المؤمنين ، وحديث مع المؤمنين . مع تلك المجموعة الفريدة السعيدة التى بايعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تحت الشجرة. والله حاضر البيعة وشاهدها وموثقها ، ويده فوق أيديهم فيها . تلك المجموعة التى سمعت الله تعالى يقول عنها لرسوله - صلى الله عليه وسلم - : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم مافى قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا » . . وسمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول لها : « أنتم اليوم خير أهل الأرض [1] » . .

حديث عنها من الله سبحانه وتعالى إلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - وحديث معها من الله سبحانه وتعالى : يبشرها بما أعد لها من مغانم كثيرة وفتوح ؛ وما أحاطها به من رعاية وحماية فى هذه الرحلة ، وفيما سيتلوها ؛ وفيما قدر لها من نصر موصول بسنته التى لا ينالها التبديل أبدا . ويندد بأعدائها الذين كفروا تنديدا شديدا . ويكشف لها عن حكمته فى اختيار الصلح والمهادنة فى هذا العام . ويؤكد لها صدق الرؤيا التى رآها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن دخول المسجد الحرام . وأن المسلمين سيدخلونه آمنين لا يخافون . وأن دينه سيظهر على الدين كله فى الأرض جميعا .

ويختم الدرس والسورة بتلك الصورة الكريمة الوضيئة لهذه الجماعة الفريدة السعيدة من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصفتها فى التوراة وصفتها فى الإنجيل ، ووعد الله لها بالمغفرة والأجر العظيم . .

* * *

« لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم مافى قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحا قريبا ، ومغانم كثيرة يأخذونها ، وكان الله عزيزا حكيما » . .

وإننى لأحاول اليوم من وراء ألف وأربعمائة عام أن أستشرف تلك اللحظة القدسية التى شهد فيها الوجود كله ذلك التبليغ العلوى الكريم من الله العلى العظيم إلى رسوله الأمين عن جماعة المؤمنين ..أحاول أن أستشرف صفحة الوجود فى تلك اللحظة وضميره المكنون ؛ وهو يتجاوب جميعه بالقول الإلهى الكريم ، عن أولئك الرجال القائمين إذ ذاك فى بقعة معينة من هذا الوجود . . وأحاول أن أستشعر بالذات شيئا من حال أولئك السعداء الذين يسمعون

---

(١) أخرجه البخارى فى ٦٤/ كتاب المغازى ، ٣٥ باب غزوة الحديبية ، حديث ١٦٨٥ عن جابر بن عبد الله

Marfat.com

Marfat.com

بآ ذاتهم ، أنهم هم ، بأشخاصهم وأعيانهم ، يقول الله عنهم : لقد رضى عنهم . ويحدد المكان الذى كانوا فيه ، والهيئة التى كانوا عليها حين استحقوا هذا الرضى : « إذ يبايعونك تحت الشجرة » . . يسمعون هذا من نبيهم الصادق المصدوق ، على لسان ربه العظيم الجليل . .

يالله ! كيف تلقوا ـ أولئك السعداء ـ تلك اللحظة القدسية وذلك التبليغ الإلهى ؟ التبليغ الذى يشير إلى كل أحد ، فى ذات نفسه ، ويقول له : أنت . أنت بذاتك . يبلغك الله . لقد رضى عنك . وأنت تبايع . تحت الشجرة ! وعلم مافى نفسك . فأنزل السكينة عليك !

إن الواحد منا ليقرأ أو يسمع : « الله ولى الذين آمنوا » . . فيسعد . يقول فى نفسه : ألست أطمع أن أكون داخلا فى هذا العموم ؟ ويقرأ أو يسمع : « إن الله مع الصابرين » . فيطمئن . يقول فى نفسه : ألست أرجو أن أكون من هؤلاء الصابرين ؟ وأولئك الرجال يسمعون ويبلغون . واحدا واحدا . أن الله يقصده بعينه وبذاته . ويبلغه : لقد رضى عنه ! وعلم مافى نفسه . ورضى عما فى نفسه !

يالله ! إنه أمر مهول !

« لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » . . « فعلم مافى قلوبهم . فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا » . .

علم مافى قلوبهم من حمية لدينهم لا لأنفسهم . وعلم ما فى قلوبهم من الصدق فى بيعتهم . وعلم مافى قلوبهم من كظم لانفعالاتهم تجاه الاستفزاز ، وضبط لمشاعرهم ليقفوا خلف كلمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ طائعين مسلمين صابرين .

«فأنزل السكينة عليهم » .. بهذا التعبير الذى يرسم السكينة نازلة فى هينة وهدوء ووقار ، تضفى على تلك القلوب الحارة المتحمسة المتأهبة المنفعلة ، بردا وسلاما وطمأنينة وارتياحا .

« وأثابهم فتحا قريبا » . . هو هذا الصلح بظروفه التى جعلت منه فتحا ، وجعلته بدء فتوح كثيرة . قد يكون فتح خيبر واحدا منها . وهو الفتح الذى يذكره أغلب المفسرين على أنه هو هذا الفتح القريب الذى جعله الله للمسلمين .

« ومغانم كثيرة يأخذونها » . . إما مع الفتح إن كان المقصود هو فتح خيبر . وإما تاليا له ، إن كان الفتح هو هذا الصلح ، الذى تفرغ به المسلمون لفتوح شتى .

« وكان الله عزيزا حكيما » . . وهو تعقيب مناسب للآيات قبله . فى الرضى والفتح

Marfat.com

والوعد بالغنائم تتجلى القوة والقدرة ، كما تتجلى الحكمة والتدبير . وبهما يتم تحقيق الوعد الإلهى الكريم .

* * *

وبعد ذلك التبليغ العلوى الكريم للرسول الأمين عن المؤمنين المبايعين يتجه بالحديث إلى المؤمنين أنفسهم. الحديث عن هذا الصلح، أو عن هذا الفتح ، الذى تلقوه صابرين مستسلمين :

« وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ،فعجل لكم هذه، وكف أيدى الناس عنكم، ولتكون آية للمؤمنين ، ويهديكم صراطا مستقيما . وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها ، وكان الله على كل شىء قديرا » ..

وهذه بشرى من الله للمؤمنين سمعوها وأيقنوها ، وعلموا أن الله أعد لهم مغانم كثيرة ، وعاشوا بعد ذلك ماعاشوا وهم يرون مصداق هذا الوعد الذى لايخلف . وهنا يقول لهم : إنه قد عجل لهم هذه . وهذه قد تكون صلح الحديبية ـ كما روى عن ابن عباس ـ لتأكيد معنى أنه فتح ومغنم . وهو فى حقيقته كذلك كما أسلفنا من قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن وقائع الحال الناطقة بصدق هذا الاعتبار . كما أنها قد تكون فتح خيبر ـ كما روى عن مجاهد ـ باعتبار أنها أقرب غنيمة وقعت بعد الحديبية . والأول أقرب وأرجح

ويمن الله عليهم بأنه كف أيدى الناس عنهم .وقد كف الله عنهم أيدى المشركين من قريش كما كف أيدى سواهم من أعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر . وهم قلة على كل حال ، والناس كثرة . ولكنهم وفوا ببيعتهم ، ونهضوا بتكاليفهم ، فكف الله أيدى الناس عنهم ، وأمنهم .

« ولتكون آية للمؤمنين »..هذه الوقعة التى كرهوها فى أول الأمر ، وثقلت على نفوسهم. فالله ينبئهم أنها ستكون آية لهم ، يرون فيها عواقب تدبير الله لهم ، وجزاء طاعتهم لرسول الله واستسلامهم . مما يثبت فى نفوسهم أنها شىء عظيم ، وخير جزيل ، ويلقى السكينة فى قلوبهم والاطمئنان والرضى واليقين .

« ويهديكم صراطا مستقيما » . . جزاء طاعتكم وامتثالكم وصدق سريرتكم . وهكذا يجمع لهم بين المغنم ينالونه ، والهداية يرزقونها . فيتم لهم الخير من كل جانب . فى الأمر الذى كرهوه واستعظموه . وهكذا يعلمهم أن اختيار الله لهم هو الاختيار ؛ ويربى قلوبهم على الطاعة المطلقة والامتثال .

Marfat.com

كذلك يمن عليهم ويبشرهم بأخرى غير هذه . لم يقدروا عليها بقوتهم ، ولكن الله تولاها عنهم بقدرته وتقديره :

« وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها ، وكان الله على كل شيء قديرا » ..

وتختلف الروايات فى هذه الأخرى . أهى فتح مكة ؟ أهى فتح خيبر؟أهى فتوح مملكتى كسرى وقيصر ؟ أهى فتوح المسلمين التى تلت هذه الوقعة جميعا ؟

وأقرب مايناسب السياق أن تكون هى فتح مكة . بعد صلح الحديبية وبسبب من هذا الصلح . الذى لم يدم سوى عامين ، ثم نقضه المشركون ، ففتح الله مكةللمسلمين بلا قتال تقريبا. وهى التى استعصت عليهم من قبل ، وهاجمتهم فى عقر دارهم ، وردتهم عام الحديبية . ثم أحاط الله بها ، وسلمها لهم بلاقتال ـ « وكان الله على كل شيء قديرا » .. فهذه بشرى ملفوفة فى هذا الموضع ، لم يحددها لأنها كانت عند نزول هذه الآية غيبا من غيب الله.أشار إليه هذه الإشارة لبث الطمأنينة والرضى والتطلع والاستبشار .

وبمناسبة هذه الإشارة إلى الغنيمةالحاضرة ، والغنيمةالتىقد أحاط الله بها،وهم فى انتظارها ، يقرر لهم أنهم منصورون؛ وأن الصلح فى هذا العام لم يكن لأنهم ضعاف،أولأن المشركين أقوياء . ولكنه تم لحكمة يريدها . ولوقاتلهم الذين كفروا لهزموا . فتلك سنة الله حيثما التقى المؤمنون والكافرون فى موقعة فاصلة :

« ولوقاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ، ثم لايجدون وليا ولانصيرا . سنة الله التى قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا » ..

وهكذا يربط نصرهم وهزيمة الكفار بسنته الكونية الثابتة التى لاتتبدل . فأية سكينة ؟ وأية ثقة ؟ وأى تثبيت يجده أولئك المؤمنون فى أنفسهم ؛ وهم يسمعون من الله أن نصرهم وهزيمة أعدائهم سنة من سننه الجارية فى هذا الوجود ؟

وهى سنة دائمة لاتتبدل .ولكنهاقد تتأخر إلى أجل . ولأسباب قد تتعلق باستواء المؤمنين على طريقهم واستقامتهم الاستقامة التى يعرفها الله لهم . أوتتعلق بتهيئة الجو الذى يولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين ، لتكون له قيمته وأثره. أولغير هذا وذلك مما يعلمه الله . ولكن لسنة لاتتخلف . والله أصدق القائلين : « ولن تجد لسنة الله تبديلا » . .

كذلك يمن عليهم بكف أيدى المشركين عنهم،وكف أيديهم عن المشركين من بعد ماأظفرهم

Marfat.com

على من هاجموهم . مشيرا إلى ذلك الحادث الذى أراد أربعون من المشركين أو أكثر أو أقل أن ينالوا من معسكر المسلمين . فأخذوا وعفا عنهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

« وهو الذى كف أيديهم عنكم ، وأيديكم عنهم ببطن مكة . من بعد أن أظفركم عليهم . وكان الله بما تعملون بصيرا » . .

وهو حادث وقع ، يعرفه السامعون ؛ والله يذكره لهم فى هذا الأسلوب ، ليرد كل حركة وكل حادث وقع لهم إلى تدبيره المباشر ؛ وليوقع فى قلوبهم هذا الإحساس المعين بيد الله سبحانه وهى تدبر لهم كل شىء ، وتقود خطاهم ، كما تقود خواطرهم ، ليسلموا أنفسهم كلها لله ، بلا تردد ولا تلفت، ويدخلوا بهذا فى السلم كافة ، بكل مشاعرهم وخواطرهم ، واتجاهم ونشاطهم؛ موقنين أن الأمر كله لله، وأن الخيرة مااختاره الله، وأنهم مسيرون بقدره ومشيئته فيما يختارون وفيما يرفضون . وأنه يريد بهم الخير . فإذا استسلموا له تحقق لهم الخير كله من أيسر طريق . وهو بصير بهم ، ظاهرهم وخافيهم ، فهو يختار لهم عن علم وعن بصر . ولن يضيعهم ، ولن يضيع عليهم شيئا يستحقونه : « وكان الله بما تعملون بصيرا » . .

***

ثم يحدثهم عن خصومهم ، من هم فى ميزان الله؟ وكيف ينظر إلى أعمالهم وصدهم للمؤمنين عن بيته الحرام . وكيف ينظر إليهم هم عكس ما ينظر إلى خصومهم المعتدين :

« هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام ، والهدى معكوفا أن يبلغ محله . ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ، أن تطأوهم ، فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء . لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما . إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ؛ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وألزمهم كلمة التقوى؛ وكانوا أحق بها وأهلها ، وكان الله بكل شىء عليما » . .

هم فى ميزان الله واعتباره ، الكافرون حقا ، الذين يستحقون هذا الوصف الكريه :« هم الذين كفروا » . . يسجله عليهم كأنهم متفردون به ، عريقون فى النسبة إليه ، فهم أكره شىء إلى الله الذى يكره الكفر والكافرين ! كذلك يسجل عليهم فعلهم الكريه الآخر ، وهو صدهم للمؤمنين عن المسجد الحرام ، وصد الهدى وتركه محبوسا عن الوصول إلى محل ذبحه المشروع :

Marfat.com

« وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله » . .

وهى كبيرة فى الجاهلية وفى الإسلام . كبيرة فى الأديان كلها التى يعرفونها فى الجزيرة من لدن أبيهم إبراهيم . كريهة فى عرفهم وفى عقيدتهم وفى عقيدة المؤمنين . . فلم يكن إذن كف الله للمؤمنين عنهم بقيا عليهم لأن جرمهم صغير . كلا ! إنما كان ذلك لحكمة أخرى يتلطف الله سبحانه فيكشف عنها للمؤمنين :

« ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ، أن تطأوهم ، فتصيبكم منهم معرة بغير علم » . .

فلقد كان هنالك بعض المستضعفين من المسلمين فى مكة لم يهاجروا ، ولم يعلنوا إسلامهم تقية فى وسط المشركين . ولو دارت الحرب ، وهاجم المسلمون مكة ، وهم لايعرفون أشخاصهم ، فربما وطأوهم وداسوهم وقتلوهم . فيقال : إن المسلمين يقتلون المسلمين! ويلزمون بدياتهم حين يتبين أنهم قتلوا خطأ وهم مسلمون.. ثم هنالك حكمة أخرى وهى أن الله يعلم أن من بين الكافرين الذين صدوهم عن المسجد الحرام ، من قسمت له الهداية ، ومن قدر له الله الدخول فى رحمته ، بما يعلمه من طبيعته وحقيقته ؛ ولو تميز هؤلاء وهؤلاء لأذن الله للمسلمين فى القتال ، ولعذب الكافرين العذاب الأليم :

« ليدخل الله فى رحمته من يشاء . لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما » . .

وهكذا يكشف الله للجماعة المختارة الفريدة السعيدة عن جانب من حكمته المغيبة وراء تقديره وتدبيره .

ويمضى فى وصف الذين كفروا . وصف نفوسهم من الداخل . بعد تسجيل صفتهم وعملهم الظاهر :

« إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية » . .

حمية لالعقيدة ولالمنهج . إنما هى حمية الكبر والفخر والبطر والتعنت . الحمية التى جعلتهم يقفون فى وجه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومن معه ، يمنعونهم من المسجد الحرام ، ويحبسون الهدى الذى ساقوه ، أن يبلغ محله الذى ينحر فيه . مخالفين بذلك عن كل عرف وعن كل عقيدة . كى لاتقول العرب ، إنه دخلها عليهم عنوة . ففى سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريهة فى كل عرف ودين ؛ وينتهكون حرمة البيت الحرام الذى يعيشون على

حساب قداسته ؛ وينتهكون حرمة الأشهر الحرم التى لم تنتهك فى جاهلية ولاإسلام! وهى الحمية التى بدت فى تجبيهم لكل من أشار عليهم ـ أول الأمر ـ بخطة مسالمة ، وعاب عليهم صد محمد ومن معه عن بيت الله الحرام . وهى كذلك التى تبدت فى رد سهيل ابن عمرو لاسم الرحمان الرحيم ، ولصفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أثناء الكتابة . وهى كلها تنبع من تلك الجاهلية المتعجرفة المتعنتة بغير حق .

وقد جعل الله الحمية فى نفوسهم على هذا النحو الجاهلى ، لما يعلمه فى نفوسهم من جفوة عن الحق والخضوع له . فأما المؤمنون فحماهم من هذه الحمية . وأحل محلها السكينة ، والتقوى :

« فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين . وألزمهم كلمة التقوى . وكانوا أحق بها وأهلها » . .

والسكينة الوقورة الهادئة ، كالتقوى المتحرجة المتواضعة كلتاهما تليق بالقلب المؤمن الموصول بربه ، الساكن بهذه الصلة . المطمئن بما فيه من ثقة . المراقب لربه فى كل خالجة وكل حركة ، فلا يتبطر ولايطغى ؛ ولايغضب لذاته ، إنما يغضب لربه ودينه. فإذا أمر أن يسكن ويهدأ خشع وأطاع . فى رضى وطمأنينة .

ومن ثم كان المؤمنون أحق بكلمة التقوى ، وكانوا أهلها . وهذا ثناء آخر من ربهم عليهم. إلى جانب الامتنان عليهم بما أنزل على قلوبهم من سكينة ، وما أودع فيها من تقوى . فهم قد استحقوها فى ميزان الله ، وبشهادته ؛ وهو تكريم بعد تكريم ، صادر عن علم وتقدير :

« وكان الله بكل شىء عليما » . .

* * *

ولقد مر بنا أن بعض المؤمنين الذين خرجوا مستبشرين برؤيا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد هالهم ألا تتحقق الرؤيا هذا العام ؛ وأن يردوا عن المسجد الحرام . فالله يؤكد لهم صدق هذه الرؤيا ، وينبئهم أنها منه، وأنها واقعة ولابد . وأن وراءها ماهو أكبر من دخول المسجد الحرام أيضا :

« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق: لتدخلن المسجد الحرام ـ إن شاء الله ـ آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون . فعلم مالم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحا قريبا . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا » . .

Marfat.com

Marfat.com

فأما البشرى الأولى . بشرى تصديق رؤيا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودخولهم المسجد الحرام آمنين ، وتحليقهم وتقصيرهم بعد انتهاء شعائر الحج أو العمرة ، لا يخافون . . فأما هذه فقد تحققت بعد عام واحد . ثم تحققت بصورة أكبر وأجلى بعد عامين اثنين من صلح الحديبية . إذ تم لهم فتح مكة ، وغلبة دين الله عليها .

ولـكن الله سبحانه يؤدب المؤمنين بأدب الإيمان ؛ وهو يقول لهم : « لتدخلن المسجد الحرام ـ إن شاء الله ـ » . . فالدخول واقع حتم ، لأن الله أخبر به . ولـكن المشيئة يجب أن تظل فى نفوس المسلمين فى صورتها الطليقة لايقيدها شىء ، حتى تستقر هذه الحقيقة فى القلوب ، وتصبح هى قاعدة التصور للمشيئة الإلهية . والقرآن يتـكىء على هذا المعنى ، ويقرر هذه الحقيقة ، ويذكر هذا الاستثناء فى كل موضع ، حتى المواضع التى يذكر فيها وعد الله . ووعد الله لايخلف . ولـكن تعلق المشيئة به أبدا طليق. إنه أدب يلقيه الله فى روع المؤمنين ، ليستقر منهم فى أعماق الضمير والشعور .

ونعود إلى قصة تحقيق هذا الوعد ؛ فقد ذكرت الروايات أنه لما كان ذو القعدة من سنة سبع ـ أى العام التالى لصلح الحديبية ـ خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى مكة معتمرا هو وأهل الحديبية . فأحرم من ذى الحليفة ، وساق معه الهدى ـ كما أحرم وساق الهدى فى العام قبله ـ وسار أصحابه يلبون . فلما كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ قريبا من مر الظهران بعث محمد ابن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه . فلما رآه المشركون رعبوا رعبا شديدا ، وظنوا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يغزوهم ، وأنه قد نـكث العهد الذى بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين ، فذهبوا فأخبروا أهل مكة . فلما جاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، بعث السلاح من القسى والنبل والرماح إلى بطن ياجج ، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة فى قربها كما شارطهم عليه. فلما كان فى أثناء الطريق بعثت قريش مكرز ابن حفص ، فقال : يامحمد ، ما عرفناك تنقض العهد . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « وما ذاك ؟ » قال : دخلت علينا بالسلاح والقسى والرماح . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لم يكن ذلك ، وقد بعثنا به إلى ياجج » فقال : بهذا عرفناك ، بالبر والوفاء !

وخرجت رؤوس الـكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإلى أصحابه ـ رضى الله عنهم ـ غيظا وحنقا . وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان

جلسوا فى الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه . فدخلها ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين يديه أصحابه يلبون ، والهدى قد بعثه إلى ذى طوى ، وهو راكب ناقته القصواء التى كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد الله ابن رواحة الأنصارى آخذ بزمام الناقة يقودها .

وهكذا صدقت رؤيا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتحقق وعد الله . ثم كان الفتح فى العام الذى يليه . وظهر دين الله فى مكة . ثم ظهر فى الجزيرة كلها بعد . ثم تحقق وعد الله وبشراه الأخيرة حيث يقول :

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا » ..

فلقد ظهر دين الحق ، لا فى الجزيرة وحدها ، بل ظهر فى المعمور من الأرض كلها قبل مضى نصف قرن من الزمان . ظهر فى امبراطورية كسرى كلها ، وفى قسم كبير من امبراطورية قيصر ، وظهر فى الهند وفى الصين ، ثم فى جنوب آسيا فى الملايو وغيرها ، وفى جزر الهند الشرقية (أندونسيا) .. وكان هذا هو معظم المعمور من الأرض فى القرن السادس ومنتصف القرن السابع الميلادى .

ومازال دين الحق ظاهرا على الدين كله ـ حتى بعد انحساره السياسى عن جزء كبير من الأرض التى فتحها ، وبخاصة فى أوربا وجزر البحر الأبيض . وانحسار قوة أهله فى الأرض كلها بالقياس إلى القوى التى ظهرت فى الشرق والغرب فى هذا الزمان .

أجل مازال دين الحق ظاهرا على الدين كله ، من حيث هو دين . فهو الدين القوى بذاته ، القوى بطبيعته ، الزاحف بلا سيف ولا مدفع من أهله ! لما فى طبيعته من استقامة مع الفطرة ومع نواميس الوجود الأصيلة ؛ ولما فيه من تلبية بسيطة عميقة لحاجات العقل والروح ، وحاجات العمران والتقدم ، وحاجات البيئات المتنوعة ، من ساكنى الأكواخ إلى سكان ناطحات السحاب !

وما من صاحب دين غير الإسلام ، ينظر فى الإسلام نظرة مجردة من التعصب والهوى حتى يقر باستقامة هذا الدين وقوته الكامنة ، وقدرته على قيادة البشرية قيادة رشيدة ، وتلبية حاجاتها النامية المتطورة فى يسر واستقامة .. « وكفى بالله شهيدا » ..

فوعد الله قد تحقق فى الصورة السياسية الظاهرة قبل مضى قرن من الزمان بعد البعثة المحمدية . ووعد الله مازال متحققا فى الصورة الموضوعية الثابتة ؛ ومازال هذا الدين ظاهرا

Marfat.com

Marfat.com

على الدين كله فى حقيقته . بل إنه هو الدين الوحيد الباقى قادرا على العمل ، والقيادة ، فى جميع الأحوال .

ولعل أهل هذا الدين هم وحدهم الذين لايدركون هذه الحقيقة اليوم ! فغير أهله يدركونها ويخشونها ، ويحسبون لها فى سياساتهم كل حساب !

* * *

والآن نجىء إلى ختام السورة . ختامها بتلك الصورة الوضيئة التى يرسمها القرآن لواقع صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – . وبذلك الثناء الكريم على تلك الجماعة الفريدة السعيدة التى رضى الله عنها ، وبلغها رضاه فردا فردا :

« محمد رسول الله. والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم فى التوراة. ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه، فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه، يعجب الزراع، ليغيظ بهم الكفار . وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » . .

إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع . صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة ، حالاتها الظاهرة والمضمرة . فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » ولقطة تصور هيئتهم فى عبادتهم: « تراهم ركعا سجدا » . . ولقطة تصور قلوبهم ومايشغلها ويجيش بها: « يبتغون فضلاً من الله ورضوانا » . . ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلى الله فى سمتهم وسحنتهم وسماتهم : « سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » . . « ذلك مثلهم فى التوراة » . . وهذه صفتهم فيها . . ولقطات متتابعة تصورهم كما هم فى الإنجيل. . « كزرع أخرج شطأه » « فآزره » . . « فاستغلظ » « فاستوى على سوقه» . « يعجب الزراع » . . : « ليغيظ بهم الكفار » . .

وتبدأ الآية بإثبات صفة محمد – صلى الله عليه وسلم – صفته التى أنكرها سهيل ابن عمرو ومن وراءه من المشركين : « محمد رسول الله » . . ثم ترتسم تلك الصورة الوضيئة بذلك الأسلوب البديع .

والمؤمنون لهم حالات شتى . ولكن اللقطات تتناول الحالات الثابتة فى حياتهم ، ونقط الارتكاز الأصيلة فى هذه الحياة. وتبرزها وتصوغ منها الخطوط العريضة فى الصورة الوضيئة . .

Marfat.com

وإرادة التكريم واضحة فى اختيار هذه اللقطات، وتثبيت الملامح والسمات التى تصورها. التكريم الإلهى لهذه الجماعة السعيدة .

إرادة التكريم واضحة ، وهو يسجل لهم فى اللقطة الأولى أنهم : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » . . أشداء على الكفار وفيهم آباؤهم وإخوتهم وذوو قرابتهم وصحابتهم ، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعا . رحماء بينهم وهم فقط إخوة دين . فهى الشدة لله والرحمة لله . وهى الحمية للعقيدة ، والسماحة للعقيدة . فليس لهم فى أنفسهم شىء ، ولا لأنفسهم فيهم شىء . وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم ، كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها . يشتدون على أعدائهم فيها ، ويلينون لإخوتهم فيها . قد تجردوا من الأنانية ومن الهوى ، ومن الانفعال لغير الله ، والوشيجة التى تربطهم بالله .

وإرادة التكريم واضحة وهو يختار من هيئاتهم وحالاتهم ، هيئة الركوع والسجود وحالة العبادة : « تراهم ركعا سجدا » . . والتعبير يوحى كأنما هذه هيئتهم الدائمة التى يراها الرائى حيثما رآهم . ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة ، وهى الحالة الأصيلة لهم فى حقيقة نفوسهم ؛ فعبر عنها تعبيرا يثبتها كذلك فى زمانهم ، حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعا سجدا .

واللقطة الثالثة مثلها . ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم وأعماق سرائرهم : « يبتغون فضلا من الله ورضوانا » . . فهذه هى صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة . كل ما يشغل بالهم ، وكل ماتتطلع إليه أشواقهم ، هو فضل الله ورضوانه . ولا شىء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به .

واللقطة الرابعة تثبت أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمر فى ملامحهم ، ونضحها على سماتهم: « سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » . . سيماهم فى وجوههم من الوضاءة والإشراق والصفاء والشفافية ، ومن ذبول العبادة الحى الوضىء اللطيف . وليست هذه السما هى النكتة المعروفة فى الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله : « من أثر السجود » . . فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة . واختار لفظ السجود لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله فى أكمل صورها . فهو أثر هذا الخشوع . أثره فى ملامح الوجه ، حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة . ويحل مكانها التواضع النبيل ، والشفافية الصافية ، والوضاءة الهادئة ، والذبول الخفيف الذى يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلا .

وهذه الصورة الوضيئة التى تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة . إنما هى ثابتة لهم فى لوحة القدر ؛ ومن ثم فهى قديمة جاء ذكرها فى التوراة: «ذلك مثلهم فى التوراة».. وصفتهم التى عرفهم الله بها فى كتاب موسى ، وبشر الأرض بها قبل أن يجيئوا إليها .

«ومثلهم فى الإنجيل».. وصفتهم فى بشارته بمحمد ومن معه ، أنهم : « كزرع أخرج شطأه» . فهو زرع نام قوى ، يخرج فرخه من قوته وخصوبته . ولكن هذا الفرخ لا يضعف العود بل يشده . « فآزره » . أو أن العود آزر فرخه فشده . « فاستغلظ » الزرع وضخمت ساقه وامتلأت . « فاستوى على سوقه » لا معوجا ومحنيا . ولكن مستقيما قويا سويا . .

هذه صورته فى ذاته . فأما وقعه فى نفوس أهل الخبرة فى الزرع، العارفين بالنامى منه والذابل. المثمر منه والبائر . فهو وقع البهجة والإعجاب : « يعجب الزراع » . وفى قراءة يعجب « الزارع » . . وهو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صاحب هذا الزرع النامى القوى المخصب البهيج . . وأما وقعه فى نفوس الكفار فعلى العكس . فهو وقع الغيظ والكمد : « ليغيظ بهم الكفار » . . وتعمد إغاظة الكفار يوحى بأن هذه الزرعة هى زرعة الله . أو زرعة رسوله ، وأنهم ستار للقدرة وأداة لإغاظة أعداء الله !

وهذا المثل كذلك ليس مستحدثا ، فهو ثابت فى صفحة القدر . ومن ثم ورد ذكره قبل أن يجىء محمد ومن معه إلى هذه الأرض . ثابت فى الإنجيل فى بشارته بمحمد ومن معه حين يجيئون .

وهكذا يثبت الله فى كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة .. صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فتثبت فى صلب الوجود كله ، وتتجاوب بها أرجاؤه ، وهو يتسمع إليها من بارىء الوجود . وتبقى نموذجا للأجيال ، تحاول أن تحققها ، لتحقق معنى الإيمان فى أعلى الدرجات .

وفوق هذا التكريم كله، وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » .. وهو وعد يجىء فى هذه الصيغة العامة بعد ماتقدم من صفتهم ، التى تجعلهم أول الداخلين فى هذه الصيغة العامة .

مغفرة وأجر عظيم . . وذلك التكريم وحده حسبهم . وذلك الرضى وحده أجر عظيم . ولكنه الفيض الإلهى بلا حدود ولاقيود ، والعطاء الإلهى عطاء غير مجذوذ .

ومرة أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرنا أن استشرف وجوه هؤلاء الرجال السعداء

Marfat.com

وقلوبهم . وهم يتلقون هذا الفيض الإلهى من الرضى والتكريم والوعد العظيم . وهم يرون أنفسهم هكذا فى اعتبار الله ، وفى ميزان الله ، وفى كتاب الله . وأنظر اليهم وهم عائدون من الحديبية ، وقد نزلت هذه السورة ، وقد قرئت عليهم . وهم يعيشون فيها بأرواحهم وقلوبهم ومشاعرهم وسماتهم . وينظر بعضهم فى وجوه بعض فيرى أثر النعمة التى يحسها هو فى كيانه .

وأحاول أن أعيش معهم لحظات فى هذا المهرجان العلوى الذى عاشوا فيه .. ولـكن أنى لبشر لم يحضر هذا المهرجان أن يتذوقه . إلامن بعيد ؟!

اللهم إلا من يكرمه الله إكرامهم : فيقرب له البعيد ؟!

فاللهم إنك تعلم أننى أتطلع لهذا الزاد الفريد !!!

Marfat.com

Marfat.com

سُورة الحجرات مدنية
وآياتها ١٨

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

« يا أيُّها الَّذِينَ آمنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ① يا أيُّها الَّذِينَ آمنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ، وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ، أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

« يا أيُّها الَّذِينَ آمنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ، أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ * وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ ، لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ ، وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

« وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا . فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

Marfat.com

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ، عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء ، عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ! ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون .

« ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً . أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ؟ فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم .

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير .

« قالت الأعراب : آمنا . قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا . ولما يدخل الإيمان في قلوبكم . وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ، إن الله غفور رحيم * إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون * قل : أتعلمون الله بدينكم ؟ والله يعلم مافي السماوات ومافي الأرض ، والله بكل شيء عليم * يمنون عليك أن أسلموا . قل : لا تمنوا علي إسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ، إن كنتم صادقين * إن الله يعلم غيب السماوات والأرض ، والله بصير بما تعملون » ١٨

هذه السورة ، التي لا تتجاوز ثماني عشرة آية ، سورة جليلة ضخمة ، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة ، ومن حقائق الوجود والإنسانية . حقائق تفتح للقلب وللعقل آفاقا عالية وآمادا بعيدة ؛ وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة ومعاني كبيرة ؛ وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم ، وقواعد التربية والتهذيب ، ومبادىء التشريع والتوجيه ، مايتجاوز حجمها وعدد آياتها مئات المرات !

وهى تبرز أمام النظر أمرين عظيمين للتدبر والتفكير .

وأول ما يبرز للنظر عند مطالعة السورة ، هو أنها تكاد تستقل بوضع معالم كاملة ، لعالم رفيع كريم نظيف سليم ؛ متضمنة القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التى يقوم عليها هذا العالم ؛ والتى تكفل قيامه أولا ، وصيانته أخيرا . . عالم يصدر عن الله ، ويتجه إلى الله ، ويليق أن ينتسب إلى الله .. عالم نقى القلب، نظيف المشاعر ، عف اللسان، وقبل ذلك عف السريرة.. عالم له أدب مع الله ، وأدب مع رسوله ، وأدب مع نفسه ، وأدب مع غيره . أدب فى هواجس ضميره ، وفى حركات جوارحه . وفى الوقت ذاته له شرائعه المنظمة لأوضاعه ، وله نظمه التى تكفل صيانته . وهى شرائع ونظم تقوم على ذلك الأدب ، وتنبثق منه ، وتتسق معه ؛ فيتوافى باطن هذا العالم وظاهره ، وتتلاقى شرائعه ومشاعره ، وتتوازن دوافعه وزواجره ؛ وتتناسق أحاسيسه وخطاه ، وهو يتجه ويتحرك إلى الله . . ومن ثم لا يوكل قيام هذا العالم الرفيع الكريم النظيف السليم وصيانته ، لمجرد أدب الضمير ونظافة الشعور ؛ ولا يوكل كذلك لمجرد التشريع والتنظيم . بل يلتقى هذا بذلك فى انسجام وتناسق . كذلك لا يوكل لشعور الفرد وجهده ، كما لا يترك لنظم الدولة وإجراءاتها . بل يلتقى فيه الأفراد بالدولة ، والدولة بالأفراد ؛ وتتلاقى واجباتهما ونشاطهما فى تعاون واتساق .

هو عالم له أدب مع الله ، ومع رسول الله . يتمثل هذا الأدب فى إدراك حدود العبد أمام الرب ، والرسول الذى يبلغ عن الرب : « ياأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ، واتقوا الله ، إن الله سميع عليم » . . فلا يسبق العبد المؤمن إلهه فى أمر أو نهى ، ولا يقترح عليه فى قضاء أوحكم ؛ ولا يتجاوز ما يأمر به وما ينهى عنه ؛ ولا يجعل لنفسه إرادة أو رأيا مع خالقه . . تقوى منه وخشية ، وحياء منه وأدبا . . وله أدب خاص فى خطاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتوقيره : « ياأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، لهم مغفرة وأجر عظيم. إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ، والله غفور رحيم » .

وهو عالم له منهجه فى التثبت من الأقوال والأفعال ، والاستيثاق من مصدرها ، قبل الحكم عليها. يستند هذا المنهج إلى تقوى الله ، وإلى الرجوع بالأمر إلى رسول الله ، فى غير ما تقدم بين

Marfat.com

يديه . ولا اقتراح لم يطلبه ولم يأمر به : « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة ، فتصبحوا على مافعلتم نادمين ؛ واعلموا أن فيكم رسول الله ، لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم . ولكن الله حبب إليكم الإيمان ، وزينه فى قلوبكم ، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم » . .

وهو عالم له نظمه وإجراءاته العملية فى مواجهة مايقع فيه من خلاف وفتن وقلاقل واندفاعات، تخلخل كيانه لو تركت بغير علاج . وهو يواجهها بإجراءات عملية منبثقة من قاعدة الأخوة بين المؤمنين ، ومن حقيقة العدل والإصلاح ،ومن تقوى الله والرجاء فى رحمته ورضاه : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ؛ فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ؛ فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا، إن الله يحب المقسطين. إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » . .

وهو عالم له آدابه النفسية فى مشاعره تجاه بعضه البعض؛ وله آدابه السلوكية فى معاملاته بعضه مع بعض : « يأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم؛ ولانساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ؛ ولاتلمزوا أنفسكم ، ولاتنابزوا بالألقاب . بئس الاسم: الفسوق بعد الإيمان . ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » . .

وهو عالم نظيف المشاعر ، مكفول الحرمات ، مصون الغيبة والحضرة ، لايؤخذ فيه أحد بظنة ، ولاتتبع فيه العورات ، ولايتعرض أمن الناس وكرامتهم وحريتهم فيه لأدنى مساس : « يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم، ولاتجسسوا ،ولايغتب بعضكم بعضا . أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ؟ فكرهتموه ! واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم » . .

وهو عالم له فكرته الكاملة عن وحدة الإنسانية المختلفة الأجناس المتعددة الشعوب ؛وله ميزانه الواحد الذى يقوّم به الجميع . إنه ميزان الله المبرأ من شوائب الهوى والاضطراب : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » . .

والسورة بعد عرض هذه الحقائق الضخمة التى تكاد تستقل برسم معالم ذلك العالم الرفيع الكريم النظيف السليم ، تحدد معالم الإيمان ، الذى باسمه دُعى المؤمنون إلى إقامة ذلك العالم.

Marfat.com

وباسمه هتف لهم ليلبوا دعوة الله الذى يدعوهم إلى تكاليفه بهذا الوصف الجميل ، الحافز إلى التلبية والتسليم : « ياأيها الذين آمنوا » .. ذلك النداء الحبيب الذى يخجل من يدعى به من الله أن لايجيب ؛ والذى ييسر كل تكليف ويهون كل مشقة ، ويشوق كل قلب فيسمع ويستجيب : « قالت الأعراب : آمنا . قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا . ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم . وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا ، إن الله غفور رحيم . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون . قل : أتعلمون الله بدينكم ، والله يعلم مافى السماوات وما فى الأرض ، والله بكل شىء عليم » . .

وتكشف السورة فى ختامها عن ضخامة الهبة الإلهية للبشر . هبة الإيمان التى يمن بها على من يشاء ، وفق مايعلمه فيه من استحقاق : « يمنون عليك أن أسلموا . قل : لاتمنوا على إسلامكم . بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين . إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون » . .

فأما الأمر الثانى الذى يبرز للنظر من خلال السورة ، ومن مراجعة المناسبات الواقعية التى صاحبت نزول آياتها ، فهو هذا الجهد الضخم الثابت المطرد، الذى تمثله توجيهات القرآن الكريم والتربية النبوية الحكيمة ، لإنشاء وتربية تلك الجماعة المسلمة ، التى تمثل ذلك العالم الرفيع الكريم النظيف السليم ، الذى وجدت حقيقته يوما على هذه الأرض ؛ فلم يعد منذ ذلك الحين فكرة مثالية ، ولاحلما طائرا ، يعيش فى الخيال !

هذه الجماعة المثالية التى تمثلت حقيقة واقعة فى فترة من فترات التاريخ لم تنبت فجأة ولم توجد مصادفة ؛ ولم تخلق بين يوم وليلة . كذلك لم تظهر نتيجة نفخة تغير طبائع الأشياء كلها فى لحظة أو ومضة . بل نمت نموا طبيعيا بطيئا كما تنمو الشجرة الباسقة العميقة الجذور . وأخذت الزمن اللازم لنموها ، كما أخذت الجهد الموصول الثابت المطرد الضرورى لهذا النمو . واحتاجت إلى العناية الساهرة ، والصبر الطويل ، والجهد البصير ، فى التهذيب والتشذيب ، والتوجيه والدفع ، والتقوية والتثبيت . واحتاجت إلى معاناة التجارب الواقعية المريرة والابتلاءات الشاقة المضنية ؛ مع التوجيه لعبرة هذه التجارب والابتلاءات . . وفى هذا كله كانت تتمثل الرعاية الإلهية لهذه الجماعة المختارة – على علم – لحمل هذه الأمانة الكبرى ؛ وتحقيق مشيئة الله بها فى الأرض . وذلك

Marfat.com

مع الفضائل الـكامنة والاستعدادات المـكنونة فى ذلك الجيل ؛ وفى الظروف والأحوال المهيأة له على السواء . وبهذا كله أشرقت تلك الومضة العجيبة فى تاريخ البشرية ؛ ووجدت هذه الحقيقة التى تتراءى من بعيد وكأنها حلم مرفرف فى قلب ، أورؤيا مجنحة فى خيال !

* * *

« ياأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ، واتقوا الله إن الله سميع عليم . ياأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتـكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالـكم وأنتم لا تشعرون . إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم . إن الذين ينادونك منوراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لـكان خيرا لهم ، والله غفور رحيم » . .

تبدأ السورة بأول نداء حبيب ، وأول استجاشة للقلوب . « ياأيها الذين آمنوا » .. نداء من الله للذين آمنوا به بالغيب . واستجاشة لقلوبهم بالصفة التى تربطهم به ، وتشعرهم بأنهم له ، وأنهم يحملون شارته ، وأنهم فى هذا الـكوكب عبيده وجنوده ، وأنهم هنا لأمر يقدره ويريده ، وأنه حبب إليهم الإيمان وزينه فى قلوبهم اختيارا لهم ومنة عليهم ، فأولى لهم أن يقفوا حيث أراد لهم أن يكونوا ، وأن يقفوا بين يدى الله موقف المنتظر لقضائه وتوجيهه فى نفسه وفى غيره ، يفعل ما يؤمر ويرضى بما يقسم ، ويسلم ويستسلم :

« ياأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ، واتقوا الله إن الله سميع عليم » ..

ياأيها الذين آمنوا ، لا تقترحوا على الله ورسوله اقتراحا ، لافى خاصة أنفسكم ، ولافى أمور الحياة من حولـكم . ولا تقولوا فى أمر قبل قول الله فيه على لسان رسوله ، ولا تقضوا فى أمر لا ترجعون فيه إلى قول الله وقول رسوله .

قال قتادة : ذكر لنا أن ناسا كانوا يقولون : لو أنزل فى كذا وكذا . لو صح كذا . فـكره الله تعالى ذلك . وقال العوفى : نهوا أن يتـكلموا بين يديه . وقال مجاهد : لا تفتاتوا على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بشىء حتى يقضى الله تعالى على لسانه . وقال الضحاك : لا تقضوا أمرا دون الله ورسوله من شرائع دينـكم . وقال على ابن طلحة عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ : لاتقولوا خلاف الـكتاب والسنة .

Marfat.com

Marfat.com

فهو أدب نفسى مع الله ورسوله . وهو منهج فى التلقى والتنفيذ . وهو أصل من أصول التشريع والعمل فى الوقت ذاته . . وهو منبثق من تقوى الله ، وراجع إليها . هذه التقوى النابعة من الشعور بأن الله سميع عليم . . وكل ذلك فى آية واحدة قصيرة ، تلمس وتصور كل هذه الحقائق الأصيلة الكبيرة .

وكذلك تأدب المؤمنون مع ربهم ومع رسولهم؛ فما عاد مقترح منهم يقترح على الله ورسوله؛ وما عاد واحد منهم يدلى برأى لم يطلب منه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يدلى به ؛ وما عاد أحد منهم يقضى برأيه فى أمر أو حكم ، إلا أن يرجع قبل ذلك إلى قول الله وقول الرسول . .

روى أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه ـ باسناده ـ عن معاذ ـ رضى‌الله‌عنه ـ حيث قال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين بعثه إلى اليمن : « بم تحكم ؟ » قال : بكتاب الله تعالى . قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « فإن لم تجد ؟ » قال : بسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « فإن لم تجد ؟ » قال ـ رضى الله عنه ـ : أجتهد رأيى . فضرب فى صدره وقال : « الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما يرضى رسول الله .

وحتى لكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسألهم عن اليوم الذى هم فيه ، والمكان الذى هم فيه ، وهم يعلمونه حق العلم ، فيتحرجون أن يجيبوا إلا بقولهم : الله ورسوله أعلم . خشية أن يكون فى قولهم تقدم بين يدى الله ورسوله !

جاء فى حديث أبى بكرة نفيع ابن الحارث الثقفى ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سأل فى حجة الوداع :

« أى شهر هذا ؟ » . . قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : « أليس ذا الحجة ؟ » قلنا : بلى ! قال : « أى بلد هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : « أليس البلدة الحرام ؟ » قلنا : بلى ! قال : « فأى يوم هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : أليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى ! . . . الخ .

Marfat.com

فهذه صورة من الأدب ، ومن التحرج ، ومن التقوى ، التى انتهى إليها المسلمون بعد سماعهم ذلك النداء ، وذلك التوجيه ، وتلك الإشارة إلى التقوى ، تقوى الله السميع العليم .

والأدب الثانى هو أدبهم مع نبيهم فى الحديث والخطاب ؛ وتوقيرهم له فى قلوبهم ، توقيرا ينعكس على نبراتهم وأصواتهم ؛ ويميز شخص رسول الله بينهم ، ويميز مجلسه فيهم؛ والله يدعوهم إليه بذلك النداء الحبيب ؛ ويحذرهم من مخالفة ذلك التحذير الرهيب :

« ياأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون » ..

ياأيها الذين آمنوا . . ليوقروا النبى الذى دعاهم إلى الإيمان . . أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون . . ليحذروا هذا المزلق الذى قد ينتهى بهم إلى حبوط أعمالهم ، وهم غير شاعرين ولاعالمين ، ليتقوه !

ولقد عمل فى نفوسهم ذلك النداء الحبيب ، وهذا التحذير المرهوب ،عمله العميق الشديد:

قال البخارى : حدثنابسرةابن صفوان اللخمى،حدثنا نافع ابن عمر ، عن ابن أبى مليكة . قال : كاد الخيران أن يهلكا .. أبوبكر وعمر رضى الله عنهما . . رفعا أصواتهما عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قدم عليه ركب بنى تميم (فى السنة التاسعة من الهجرة) فأشار أحدهما بالأقرع ابن حابس ـ رضى الله عنه ـ أخى بنى مجاشع(أى ليؤمره عليهم) وأشار الآخر برجل آخر . قال نافع : لاأحفظ اسمه (فى رواية أخرى أن اسمه القعقاع ابن معبد) فقال : أبوبكر لعمر ـ رضى الله عنهما ـ ماأردت إلا خلافى . قال : ماأردت خلافك . فارتفعت أصواتهما فى ذلك . فأنزل الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » . قال ابن الزبير ـ رضى‌الله عنه ـ : فما كان عمر ـ رضى الله عنه ـ يسمع رسول الله ـ صلى‌الله‌عليه‌وسلم ـ بعد هذه الآية حتى يستفهمه ! . . وروى عن أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ أنه قال لما نزلت هذه الآية: قلت : يارسول الله ، والله لاأكلمك إلا كأخى السرار (يعنى كالهمس !) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم ، حدثنا سليمان ابن المغيرة ، عن ثابت، عن أنس ابن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: لما نزلت هذه الآية: « ياأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ـ إلى قوله : وأنتم لاتشعرون » وكان ثابت ابن قيس ابن الشماس رفيع الصوت . فقال:

أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنا من أهل النار. حبط عملى وجلس فى أهله حزينا. ففقده رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فانطلق بعض القوم إليه، فقالوا له: تفقدك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مالك؟ قال: أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأجهر له بالقول. حبط عملى. أنا من أهل النار. فأتوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبروه بما قال. فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «لا. بل هو من أهل الجنة». قال أنس ـ رضى الله عنه ـ: فكنا نراه يمشى بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة

فهكذا ارتعشت قلوبهم وارتجفت تحت وقع ذلك النداء الحبيب، وذلك التحذير الرعيب؛ وهكذا تأدبوا فى حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية أن تحبط أعمالهم وهم لايشعرون. ولوكانوا يشعرون لتداركوا أمرهم! ولكن هذا المنزلق الخافى عليهم كان أخوف عليهم، فخافوه واتقوه!

ونوه الله بتقواهم، وغضهم أصواتهم عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تعبير عجيب:

«إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى. لهم مغفرة وأجر عظيم»..

فالتقوى هبة عظيمة، يختار الله لها القلوب، بعد امتحان واختبار، وبعد تخليص وتمحيص، فلا يضعها فى قلب إلا وقد تهيأ لها، وقد ثبت أنه يستحقها. والذين يغضون أصواتهم عند رسول الله قد اختبر الله قلوبهم وهيأها لتلقى تلك الهبة. هبة التقوى. وقد كتب لهم معها وبها المغفرة والأجر العظيم.

إنه الترغيب العميق، بعد التحذير المخيف. بها يربى الله قلوب عباده المختارين، ويعدها للأمر العظيم. الذى نهض به الصدر الأول على هدى من هذه التربية ونور.

وقد روى عن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أنه سمع صوت رجلين فى مسجد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف. فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا!

وعرف علماء هذه الأمة وقالوا: إنه يكره رفع الصوت عند قبره ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما كان يكره فى حياته ـ عليه الصلاة والسلام ـ احتراما له فى كل حال.

Marfat.com

Marfat.com

ثم أشار إلى حادث وقع من وفد بني تميم حين قدموا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في العام التاسع . الذى سمى « عام الوفود » . . لمجيء وفود العرب من كل مكان بعد فتح مكة ، ودخولهم فى الإسلام ، وكانوا أعرابا جفاة ، فنادوا من وراء حجرات أزواج النبى صلى الله عليه وسلم المطلة على المسجد النبوى الشريف: يامحمد . اخرج لنا. فكره النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الجفوة وهذا الإزعاج . فنزل قوله تعالى :

« إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ، والله غفور رحيم » . .

فوصفهم الله بأن أكثرهم لا يعقلون . وكرّه إليهم النداء على هذه الصفة المنافية للأدب والتوقير اللائق بشخص النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحرمة رسول الله القائد والمربى . وبين لهم الأولى والأفضل وهو الصبر والانتظار حتى يخرج إليهم . وحبب إليهم التوبة والإنابة ، ورغبهم فى المغفرة والرحمة .

وقد وعى المسلمون هذا الأدب الرفيع ، وتجاوزوا به شخص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى كل أستاذ وعالم . لا يزعجونه حتى يخرج إليهم ؛ ولا يقتحمون عليه حتى يدعوهم . . يحكى عن أبى عبيد ـ العالم الزاهد الراوية الثقة ـ أنه قال : « ما دققت بابا على عالم قط حتى يخرج فى وقت خروجه » . .

* * *

« ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين . واعلموا أن فيكم رسول الله ، لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ؛ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم ، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم » . .

كان النداء الأول لتقرير جهة القيادة ومصدر التلقى . وكان النداء الثانى لتقرير ماينبغى من أدب للقيادة وتوقير . وكان هذا وذلك هو الأساس لكافة التوجيهات والتشريعات فى السورة. فلابد من وضوح المصدر الذى يتلقى عنه المؤمنون، ومن تقرير مكان القيادة وتوقيرها ، لتصبح للتوجيهات بعد ذلك قيمتها ووزنها وطاعتها. ومن ثم جاء هذا النداء الثالث يبين للمؤمنين كيف يتلقون الأنباء وكيف يتصرفون بها ؛ ويقرر ضرورة التثبت من مصدرها :

« يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ، أن تصيبوا قوما بجهالة ، فتصبحوا على مافعلتم نادمين » . .

ويخصص الفاسق لأنه مظنة الكذب. وحتى لايشيع الشك بين الجماعة المسلمة فى كل ماينقله أفرادها من أنباء، فيقع مايشبه الشلل فى معلوماتها. فالأصل فى الجماعة المؤمنة أن يكون أفرادها موضع ثقتها ، وأن تكون أنباؤهم مصدقة مأخوذًا بها . فأما الفاسق فهو موضع الشك حتى يثبت خبره . وبذلك يستقيم أمر الجماعة وسطا بين الأخذ والرفض لما يصل إليها من أنباء . ولاتعجل الجماعة فى تصرف بناء على خبر فاسق . فتصيب قوما بظلم عن جهالة وتسرع . فتندم على ارتكابها مايغضب الله ، ويجانب الحق والعدل فى اندفاع .

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى الوليد ابن عقبة ابن أبى معيط حين بعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على صدقات بنى المصطلق . وقال ابن كثير . قال مجاهد وقتادة : أرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الوليد ابن عقبة إلى بنى المصطلق يتصدقهم فتلقوه بالصدقة ،فرجع فقال: إن بنى المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك (زاد قتادة وأنهم قدارتدوا عن الإسلام) فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خالد ابن الوليد-رضى الله عنه - إليهم، وأمره أن يتثبت ولايعجل ، فانطلق حتى أتاهم ليلا ، فبعث عيونه ، فلما جاءوا أخبروا خالدا - رضى الله عنه - أنهم مستمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم خالد - رضى الله عنه-فرأى الذى يعجبه، فرجع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فأخبره الخبر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة . قال قتادة: فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يقول : « التثبت من الله والعجلة من الشيطان » (١) . وكذا ذكر غير واحد من السلف منهم ابن أبى ليلى ، ويزيد ابن رومان ، والضحاك ، ومقاتل ابن حبان . وغيرهم فى هذه الآية أنها نزلت فى الوليد ابن عقبة . والله أعلم .. (انتهى كلام ابن كثير فى التفسير) ..

ومدلول الآية عام ، وهو يتضمن مبدأ التمحيص والتثبت من خبر الفاسق ؛ فأما الصالح فيؤخذ بخبره ، لأن هذا هو الأصل فى الجماعة المؤمنة ، وخبر الفاسق استثناء . والأخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبت لأنه أحد مصادره . أما الشك المطلق فى جميع المصادر وفى جميع الأخبار ، فهو مخالف لأصل الثقة المفروض بين الجماعة المؤمنة ، ومعطل لسير الحياة وتنظيمها فى الجماعة .

(١) هكذا أثبته ابن كثير فى التفسير .

Marfat.com

والإسلام يدع الحياة تسير فى مجراها الطبيعى ، ويضع الضمانات والحواجز فقط لصيانتها لا لتعطيلها ابتداء . وهذا نموذج من الإطلاق والاستثناء فى مصادر الأخبار .

ويبدو أنه كان من بعض المسلمين اندفاع عند الخبر الأول الذى نقله الوليد ابن عقبة ، وإشارة على النبى – صلى الله عليه وسلم – أن يعجل بعقابهم . وذلك حمية من هذا الفريق لدين الله وغضبا لمنع الزكاة . فجاءت الآية التالية تذكرهم بالحقيقة الضخمة والنعمة الكبيرة التى تعيش بينهم ليدركوا قيمتها وينتبهوا دائما لوجودها :

« واعلموا أن فيكم رسول الله » . .

وهى حقيقة تتصور بسهولة لأنها وقعت ووجدت . ولكنها عند التدبر تبدو هائلة لا تكاد تتصور ! وهل من اليسير أن يتصور الإنسان أن تتصل السماء بالأرض صلة دائمة حية مشهودة؛ فتقول السماء للأرض ؛ وتخبر أهلها عن حالهم وجهرهم وسرهم ، وتقوّم خطاهم أولا بأول ، وتشير عليهم فى خاصة أنفسهم وشؤونهم . ويفعل أحدهم الفعلة ويقول أحدهم القولة ، ويسر أحدهم الخالجة ؛ فإذا السماء تطلع ، وإذا الله – جل جلاله – ينبىء رسوله بما وقع ، ويوجهه لما يفعل وما يقول فى هذا الذى وقع . . إنه لأمر . وإنه لنبأ عظيم . وإنها لحقيقة هائلة . قد لا يحس بضخامتها من يجدها بين يديه . ومن ثم كان هذا التنبيه لوجودها بهذا الأسلوب :

« واعلموا أن فيكم رسول الله » . . اعلموا هذا وقدروه حق قدره ، فهو أمر عظيم .

ومن مقتضيات العلم بهذا الأمر العظيم أن لا يقدموا بين يدى الله ورسوله . ولكنه يزيد هذا التوجيه إيضاحا وقوة ، وهو يخبرهم أن تدبير رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لهم بوحى الله أو إلهامه فيه الخير لهم والرحمة واليسر . وأنه لو أطاعهم فيما يعن لهم أنه خير لعنتوا وشق عليهم الأمر . فالله أعرف منهم بما هو خير لهم ، ورسوله رحمة لهم فيما يدبر لهم ويختار :

« لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم » .

وفى هذا إيحاء لهم بأن يتركوا أمرهم لله ورسوله ، وأن يدخلوا فى السلم كافة ، ويستسلموا لقدر الله وتدبيره ، ويتلقوا عنه ولا يقترحوا عليه.

ثم يوجههم إلى نعمة الإيمان الذى هداهم إليه ، وحرك قلوبهم لحبه ، وكشف لهم عن جماله وفضله ، وعلق أرواحهم به ؛ وكره إليهم الكفر والفسوق والمعصية ، وكان هذا كله من رحمته وفيضه :

Marfat.com

« ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان. أولئك هم الراشدون. فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم » ..

واختيار الله لفريق من عباده، ليشرح صدورهم للإيمان، ويحرك قلوبهم إليه، ويزينه لهم فتهفو إليه أرواحهم، وتدرك مافيه من جمال وخير .. هذا الاختيار فضل من الله ونعمة. دونها كل فضل وكل نعمة. حتى نعمة الوجود والحياة أصلا، تبدو فى حقيقتها أقل من نعمة الإيمان وأدنى! وسيأتى قوله تعالى: « بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان » فنفصل القول إن شاء الله فى هذه المنة.

والذى يستوقف النظر هنا هو تذكيرهم بأن الله هو الذى أراد بهم هذا الخير، وهو الذى خلص قلوبهم من ذلك الشر: الكفر والفسوق والعصيان. وهو الذى جعلهم بهذا راشدين فضلا منه ونعمة. وأن ذلك كله كان عن علم منه وحكمة .. وفى تقرير هذه الحقيقة إيحاء لهم كذلك بالاستسلام لتوجيه الله وتدبيره، والاطمئنان إلى ما وراءه من خير عليهم وبركة، وترك الاقتراح والاستعجال والاندفاع فيما قد يظنونه خيرا لهم؛ قبل أن يختار لهم الله. فالله يختار لهم الخير، ورسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيهم، يأخذ بيدهم إلى هذا الخير. وهذا هو التوجيه المقصود فى التعقيب.

وإن الإنسان ليعجل، وهو لايدرى ماوراء خطوته. وإن الإنسان ليقترح لنفسه ولغيره، وهو لايعرف ماالخير وماالشر فيما يقترح. « ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا ». ولو استسلم لله، ودخل فى السلم كافة، ورضى اختيار الله له، واطمأن إلى أن اختيار الله أفضل من اختياره، وأرحم له وأعود عليه بالخير. لاستراح وسكن. ولأمضى هذه الرحلة القصيرة على هذا الكوكب فى طمأنينة ورضى .. ولكن هذا كذلك منة من الله وفضل يعطيه من يشاء.

* * *

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما. فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء إلى أمر الله. فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا. إن الله يحب المقسطين. إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون » ..

وهذه قاعدة تشريعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك، تحت النزوات والاندفاعات. تأتى تعقيبا على تبين خبر الفاسق، وعدم العجلة والاندفاع وراء الحمية والحماسة، قبل التثبت والاستيقان.

Marfat.com

وسواء كان نزول هذه الآية بسبب حادث معين كما ذكرت الروايات ، أو كان تشريع لتلافي مثل هذه الحالة ، فهو يمثل قاعدة عامة محكمة لصيانة الجماعة الإسلامية من التفكك والتفرق . ثم لإقرار الحق والعدل والصلاح . والارتكان في هذا كله إلى تقوى الله ورجاء رحمته بإقرار العدل والصلاح .

والقرآن قد واجه ـ أو هو يفترض ـ إمكان وقوع القتال بين طائفتين من المؤمنين . ويستبقي لكلتا الطائفتين وصف الإيمان مع اقتتالهما ، ومع احتمال أن إحداهما قد تكون باغية على الأخرى ، بل مع احتمال أن تكون كلتاهما باغية في جانب من الجوانب .

وهو يكلف الذين آمنوا ـ من غير الطائفتين المتقاتلتين طبعا ـ أن يقوموا بالإصلاح بين المتقاتلين . فإن بغت إحداهما فلم تقبل الرجوع إلى الحق ـ ومثله أن تبغيا معا برفض الصلح أو رفض قبول حكم الله في المسائل المتنازع عليها ـ فعلى المؤمنين أن يقاتلوا البغاة إذن ، وأن يظلوا يقاتلونهم حتى يرجعوا إلى أمر الله . وأمر الله هو وضع الخصومة بين المؤمنين ، وقبول حكم الله فيما اختلفوا فيه ، وأدى إلى الخصام والقتال . فإذا تم قبول البغاة لحكم الله ، قام المؤمنون بالإصلاح القائم على العدل الدقيق طاعة لله وطلبا لرضاه .. « إن الله يحب المقسطين » ..

ويعقب على هذه الدعوة وهذا الحكم باستجاشة قلوب الذين آمنوا واستحياء الرابطة الوثيقة بينهم ، والتي جمعتهم بعد تفرق ، وألفت بينهم بعد خصام ؛ وتذكيرهم بتقوى الله ، والتلويح لهم برحمته التي تنال بتقواه :

« إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » ..

ومما يترتب على هذه الأخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هي الأصل في الجماعة المسلمة . وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذي يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه ؛ وأن يستباح في سبيل تقريره قتال المؤمنين الآخرين للبغاة من إخوانهم ليردوهم إلى الصف ، وليزيلوا هذا الخروج على الأصل والقاعدة . وهو إجراء صارم وحازم كذلك .

ومن مقتضيات هذه القاعدة كذلك ألا يجهز على جريح في معارك التحكيم هذه ، وألا يقتل أسير ، وألا يتعقب مدبر ترك المعركة ، وألقى السلاح ، ولا تؤخذ أموال البغاة غنيمة . لأن الغرض من قتالهم ليس هو القضاء عليهم ، وإنما هو ردهم إلى الصف ، وضمهم إلى لواء الأخوة الإسلامية .

Marfat.com

والأصل فى نظام الأمة المسلمة أن يكون للمسلمين فى أنحاء الأرض إمامة واحدة ، وأنه إذا بويع لإمام ، وجب قتل الثانى ، واعتباره ومن معه فئة باغية يقاتلها المؤمنون مع الإمام . وعلى هذا الأصل قام الإمام على ـ رضى الله عنه ـ بقتال البغاة فى وقعة الجمل وفى وقعة صفين ؛ وقام معه بقتالهم أجلاء الصحابة رضوان الله عليهم. وقد تخلف بعضهم عن المعركة منهم سعد ومحمدابن مسلمة وأسامة ابن زيد وابن عمر ـ رضى الله عنهم ـ إمالأنهم لم يتبينوا وجه الحق فى الموقف فى حينه فاعتبروها فتنة . وإمالأنهم كما يقول الإمام الجصاص : « ربما رأوا الإمام مكتفيا بمن معه مستغنيا عنهم بأصحابه فاستجازوا القعود عنه لذلك » . والاحتمال الأول أرجح ، تدل عليه بعض أقوالهم المروية . كما يدل عليه ماروى عن ابن عمر ـ رضى الله عنه ـ فى ندمه فيما بعد على أنه لم يقاتل مع الإمام .

ومع قيام هذاالأصل فإن النص القرآنى يمكن إعماله فى جميع الحالات ـبما فى ذلك الحالات الاستثنائية التى يقوم فيها إمامان أو أكثر فى أقطار متفرقة متباعدة من بلاد المسلمين ،وهى حالة ضرورة واستثناء من القاعدة ـفواجب المسلمين أن يحاربوا البغاة مع الإمام الواحد ، إذا خرج هؤلاء البغاة عليه . أو إذا بغت طائفة على طائفة فى إمامتهدون خروج عليه . وواجب المسلمين كذلك أن يقاتلوا البغاة إذا تمثلوا فى إحدى الإمامات المتعددة فى حالات التعدد الاستثنائية . بتجمعهم ضد الفئة الباغية حتى تفىء إلى أمر الله .وهكذا يعمل النص القرآنى فى جميع الظروف والأحوال .

وواضح أن هذا النظام ، نظام التحكيم وقتال الفئة الباغية حتى تفىء إلى أمر الله ، نظام له السبق من حيث الزمن على كل محاولات البشرية فى هذا الطريق . وله الكمال والبراءة من العيب والنقص الواضحين فى كل محاولات البشرية البائسة القاصرة التى حاولتها فى كل تجاربها الكسيحة ! وله بعد هذا وذاك صفة النظافة والأمانة والعدل المطلق ، لأن الاحتكام فيه إلى أمر الله الذى لايشوبه غرض ولاهوى ، ولايتعلق به نقص أوقصور . ولكن البشرية البائسة تظلع وتعرج ، وتكبو وتتعثر . وأمامها الطريق الواضح المهد المستقيم !

* * *

« ياأيها الذين آمنوا ، لا يسخر قوم من قوم ، عسى أن يكونوا خيرا منهم ؛ ولا نساء من نساء ، عسى أن يكن خيرا منهن . ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب . بئس الاسم : الفسوق بعد الإيمان . ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » . .

Marfat.com

إن المجتمع الفاضل الذى يقيمه الإسلام بهدى القرآن مجتمع له أدب رفيع ، ولكل فرد فيه كرامته التى لا تمس . وهى من كرامة المجموع . ولمز أى فرد هو لمز لذات النفس ، لأن الجماعة كلها وحدة ، كرامتها واحدة .

والقرآن فى هذه الآية يهتف للمؤمنين بذلك النداء الحبيب : « يأيها الذين آمنوا » . وينهاهم أن يسخر قوم بقوم ، أى رجال برجال ، فلعلهم خير منهم عند الله ، أو أن يسخر نساء من نساء فلعلهن خير منهن فى ميزان الله .

وفى التعبير إيحاء خفى بأن القيم الظاهرة التى يراها الرجال فى أنفسهم ويراها النساء فى أنفسهن ليست هى القيم الحقيقية ، التى يوزن بها الناس . فهناك قيم أخرى ، قد تكون خافية عليهم ، يعلمها الله ، ويزن بها العباد . وقد يسخر الرجل الغنى من الرجل الفقير . والرجل القوى من الرجل الضعيف ، والرجل السوى من الرجل المؤوف . وقد يسخر الذكى الماهر من الساذج الخام . وقد يسخر ذو الأولاد من العقيم . وذو العصبية من اليتيم . . . وقد تسخر الجميلة من القبيحة ، والشابة من العجوز ، والمعتدلة من المشوهة ، والغنية من الفقيرة . . . ولكن هذه وأمثالها من قيم الأرض ليست هى المقياس ، فميزان الله يرفع ويخفض بغير هذه الموازين !

ولكن القرآن لا يكتفى بهذا الإيحاء ، بل يستجيش عاطفة الأخوة الإيمانية ، ويذكر الذين آمنوا بأنهم نفس واحدة من يلمزها فقد لمزها : « ولا تلمزوا أنفسكم » . . واللمز : العيب . ولكن للفظة جرسا وظلا ؛ فكأنما هى وخزة حسية لاعيبة معنوية !

ومن السخرية واللمز التنابز بالألقاب التى يكرهها أصحابها ، ويحسون فيها سخرية وعيبا . ومن حق المؤمن على المؤمن ألا يناديه بلقب يكرهه ويزرى به . ومن أدب المؤمن ألا يؤذى أخاه بمثل هذا . وقد غير رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أسماء وألقابا كانت فى الجاهلية لأصحابها ، أحس فيها بحسه المرهف ، وقلبه الكريم ، بما يزرى بأصحابها ، أو يصفهم بوصف ذميم .

والآية بعد الإيحاء بالقيم الحقيقية فى ميزان الله ، وبعد استجاشة شعور الأخوة ، بل شعور الاندماج فى نفس واحدة ، تستثير معنى الإيمان ، وتحذر المؤمنين من فقدان هذا الوصف الكريم ، والفسوق عنه والانحراف بالسخرية واللمز والتنابز : « بئس الاسم : الفسوق بعد الإيمان » . فهو شىء يشبه الارتداد عن الإيمان ! وتهدد باعتبار هذا ظلما ، والظلم أحد التعبيرات عن الشرك : « ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » . . وبذلك تضع قواعد الأدب النفسى لذلك المجتمع الفاضل الكريم .

***

Marfat.com

« يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن، إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا . أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ؟ فكرهتموه . واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم » . .

فأما هذه الآية فتقيم سياجا آخر فى هذا المجتمع الفاضل الكريم، حول حرمات الأشخاص به وكراماتهم وحرياتهم ، بينما هى تعلم الناس كيف ينظفون مشاعرهم وضمائرهم ، فى أسلوب مؤثر عجيب . .

وتبدأ ـ على نسق السورة ـ بذلك النداء الحبيب : « يأيها الذين آمنوا » . . ثم تأمرهم باجتناب كثير من الظن ، فلا يتركوا نفوسهم نهبا لكل مايهجس فيها حول الآخرين من ظنون وشبهات وشكوك . وتعلل هذا الأمر : « إن بعض الظن إثم » . وما دام النهى منصبا على أكثر الظن ، والقاعدة أن بعض الظن إثم ، فإن إيحاء هذا التعبير للضمير هو اجتناب الظن السيء أصلا . لأنه لا يدرى أى ظنونه تكون إثما !

بهذا يطهر القرآن الضمير من داخله أن يتلوث بالظن السيء ، فيقع فى الإثم ؛ ويدعه نقيا بريئا من الهواجس والشكوك ، أبيض يكن لإخوانه المودة التى لا يخدشها ظن السوء ؛ والبراءة التى لا تلوثها الريب والشكوك ، والطمأنينة التى لا يعكرها القلق والتوقع . وما أروح الحياة فى مجتمع برىء من الظنون !

ولكن الأمر لا يقف فى الإسلام عند هذا الأفق الكريم الوضيء فى تربية الضمائر والقلوب . بل إن هذا النص يقيم مبدأ فى التعامل ، وسياجا حول حقوق الناس الذين يعيشون فى مجتمعه النظيف ، فلا يؤخذون بظنة ، ولا يحاكمون بريبة ؛ ولا يصبح الظن أساسا لمحاكمتهم . بل لا يصح أن يكون أساسا للتحقيق معهم ، ولا للتحقيق حولهم . والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « إذا ظننت فلا تحقق » [1] . . ومعنى هذا أن يظل الناس أبرياء ، مصونة حقوقهم ، وحرياتهم، واعتبارهم . حتى يتبين بوضوح أنهم ارتكبوا ما يؤاخذون عليه . ولا يكفى الظن بهم لتعقبهم بغية التحقق من هذا الظن الذى دار حولهم !

فأى مدى من صيانة كرامة الناس وحرياتهم وحقوقهم واعتبارهم ينتهى إليه هذا النص ! وأين أقصى ماتتماجب به أحسن البلاد ديمقراطية وحرية وصيانة لحقوق الإنسان فيها من هذا

(1) أخرجه الطبرانى بإسناده عن حارثة ابن النعمان .

Marfat.com

المدى الذى هتف به القرآن الكريم للذين آمنوا ، وقام عليه المجتمع الإسلامى فعلا ، وحققه فى واقع الحياة ، بعد أن حققه فى واقع الضمير ؟

ثم يستطرد فى ضمانات المجتمع إلى مبدأ آخر يتصل باجتناب الظنون :

« ولا تجسسوا » . .

والتجسس قد يكون هو الحركة التالية للظن؛ وقد يكون حركة ابتدائية لكشف العورات، والاطلاع على السوءات .

والقرآن يقاوم هذا العمل الدنىء من الناحية الأخلاقية، لتطهير القلب من مثل هذا الاتجاه اللئيم لتتبع عورات الآخرين وكشف سوآتهم. وتمشيا مع أهدافه فى نظافة الأخلاق والقلوب.

ولكن الأمر أبعد من هذا أثرا . فهو مبدأ من مبادىء الإسلام الرئيسية فى نظامه الاجتماعى ، وفى إجراءاته التشريعية والتنفيذية .

إن للناس حرياتهم وحرماتهم وكراماتهم التى لا يجوز أن تنتهك فى صورة من الصور ، ولا أن تمس بحال من الأحوال .

ففى المجتمع الإسلامى الرفيع الكريم يعيش الناس آمنين على أنفسهم ، آمنين على بيوتهم ، آمنين على أسرارهم ، آمنين على عوراتهم . ولا يوجد مبرر ـ مهما يكن ـ لانتهاك حرمات الأنفس والبيوت والأسرار والعورات . حتى ذريعة تتبع الجريمة وتحقيقها لا تصلح فى النظام الإسلامى ذريعة للتجسس على الناس . فالناس على ظواهرهم ، وليس لأحد أن يتعقب بواطنهم . وليس لأحد أن يأخذهم إلا بما يظهر منهم من مخالفات وجرائم . وليس لأحد أن يظن أو يتوقع ، أو حتى يعرف أنهم يزاولون فى الخفاء مخالفة ما ، فيتجسس عليهم ليضبطهم ! وكل ماله عليهم أن يأخذهم بالجريمة عند وقوعها وانكشافها ، مع الضمانات الأخرى التى ينص عليها بالنسبة لكل جريمة .

قال أبو داود : حدثنا أبو بكر ابن أبى شيبة ، قال : حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن زيد ابن وهب . قال : أتى ابن مسعود ، فقيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمرا فقال عبد الله : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شىء نأخذ به .

وعن مجاهد : لا تجسسوا ، خذوا بما ظهر لكم ، ودعوا ماستر الله .

وروى الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن دجين كاتب عقبة . قال : قلت لعقبة : إن لنا جيرانا

Marfat.com

يشربون الخمر ، وأنا داع لهم الشرط ، فيأخذونهم . قال : لا تفعل ولكن عظهم وتهددهم . قال : ففعل فلم ينتهوا . قال : فجاءه دجين فقال : إنى قد نهيتهم فلم ينتهوا . وإنى داع لهم الشرط فتأخذهم . فقال له عقبة : ويحك ! لا تفعل ، فإنى سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها » (١)

وقال سفيان الثورى ، عن راشد ابن سعد ، عن معاوية ابن أبى سفيان ، قال: سمعت النبى ـ صلى الله عليه وسلم يقول: « إنك إن إتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم » . فقال أبو الدرداء ـ رضى الله عنه ـ كلمة سمعها معاوية ـ رضى الله عنه ـ من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفعه الله تعالى بها (٢) .

فهكذا أخذ النص طريقه فى النظام العملى للمجتمع الإسلامى ! ولم يعد مجرد تهذيب للضمير وتنظيف للقلب ، بل صار سياجا حول حرمات الناس وحقوقهم وحرياتهم ، فلا تمس من قريب أو بعيد ، تحت أى ذريعة أو ستار .

فأين هذا المدى البعيد ؟ وأين هذا الأفق السامق ؟ وأين مايتعاجب به أشد الأمم ديمقراطية وحرية وحفظا لحقوق الإنسان بعد ألف وأربع مئة عام ؟

بعد ذلك يجىء النهى عن الغيبة فى تعبير عجيب ، يبدعه القرآن إبداعا :

« ولايغتب بعضكم بعضا . أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ؟ فكرهتموه » .

لايغتب بعضكم بعضا . ثم يعرض مشهدا تتأذى له أشد النفوس كثافة وأقل الأرواح حساسية . مشهد الأخ يأكل لحم أخيه . . ميتا . . ! ثم يبادر فيعلن عنهم أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز . وأنهم إذن كرهوا الاغتياب !

ثم يعقب على كل مانهاهم عنه فى الآية من ظن وتجسس وغيبة باستجاشة شعور التقوى ، والتلويح لمن اقترف من هذا شيئا أن يبادر بالتوبة تطلعا للرحمة :

« واتقوا الله إن الله تواب رحيم » . .

ويسرى هذا النص فى حياة الجماعة المسلمة فيتحول إلى سياج حول كرامة الناس ، وإلى أدب عميق فى النفوس والقلوب . ويتشدد فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ متمشيا مع الأسلوب القرآنى العجيب فى إثارة الاشمئزاز والفزع من شبح الغيبة البغيض.

(١) رواه أبو داود والنسائى من حديث الليث ابن سعيد

(٢) رواه أبو داود منفردا به من حديث الثورى .

Marfat.com

Marfat.com

فى حديث رواه أبو داود : حدثنا القعنبي ، حدثنا عبد العزيز ابن محمد ، عن العلاء ،عن أبيه ، عن أبى هريرة قال:قيل : يارسول الله ، ماالغيبة ؟ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ذكرك أخاك بما يكره » . قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ماأقول ؟ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن كان فيه ماتقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ماتقول فقد بهته »..ورواه الترمذى وصححه.

وقال أبو داود : حدثنا مسدد ، حدثنا يحيي ، عن سفيان ، حدثنى على ابن الأقمر عن أبى حذيفة ، عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قلت للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : حسبك من صفية كذا وكذا (قال عن مسدد تعنى قصيرة) فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » . قالت : وحكيت له إنسانا . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما أحب أنى حكيت إنسانا وأن لى كذا وكذا » . .

وروى أبو داود بإسناده عن أنس ابن مالك قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم . قلت : من هؤلاء ياجبرائيل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم » . .

ولما اعترف ماعز بالزنا هو والغامدية ، ورجمهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد إقرارهما متطوعين وإلحاحهما عليه فى تطهيرهما ، سمع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب! ثم سار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى مر بجيفة حمار ، فقال : « أين فلان وفلان ؟ انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار » . قالا : غفر الله لك يارسول الله ! وهل يؤكل هذا ؟ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « فما نلتما من أخيكما آنفا أشد أكلا منه . والذى نفسى بيده إنه الآن لفى أنهار الجنة ينغمس فيها »(1)

وبمثل هذا العلاج الثابت المطرد تطهر المجتمع الإسلامى وارتفع ، وانتهى إلى ماصار إليه : حلما يمشى على الأرض ، ومثلا يتحقق فى واقع التاريخ .

* * *

وبعد هذه النداءات المتكررة للذين آمنوا ؛ وأخذهم إلى ذلك الأفق السامى الوضىء من الآداب النفسية والاجتماعية ؛ وإقامة تلك السياجات القوية من الضمانات حول كرامتهم

---

(1) رواه ابن كثير فى التفسير وقال : إسناده صحيح .

وحريتهم وحرماتهم، وضمان هذا كله بتلك الحساسية التي يثيرها في أرواحهم، بالتطلع إلى الله وتقواه..

بعد هذه المدارج إلى ذلك الأفق السامق، يهتف بالإنسانية جميعها على اختلاف أجناسها وألوانها، ليردها إلى أصل واحد، وإلى ميزان واحد، هو الذي تقوم به تلك الجماعة المختارة الصاعدة إلى ذلك الأفق السامق:

« ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم. إن الله عليم خبير »..

ياأيها الناس. ياأيها المختلفون أجناسا وألوانا، المتفرقون شعوبا وقبائل. إنكم من أصل واحد. فلا تختلفوا ولاتتفرقوا ولاتتخاصموا ولاتذهبوا بددا.

ياأيها الناس. والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم.. من ذكر وأنثى.. وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوبا وقبائل. إنها ليست التناحر والخصام. إنما هي التعارف والوئام. فأما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطباع والأخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات، فتنوع لايقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات. وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله. إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم، ويعرف به فضل الناس: « إن أكرمكم عند الله أتقاكم ».. والكريم حقا هو الكريم عند الله. وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين: « إن الله عليم خبير »..

وهكذا تسقط جميع الفوارق، وتسقط جميع القيم، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان.

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض؛ وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس. ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون: ألوهية الله للجميع، وخلقهم من أصل واحد. كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته: لواء التقوى في ظل الله.
وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس، والعصبية للأرض، والعصبية للقبيلة، والعصبية للبيت. وكلها من الجاهلية وإليها، تتزيا بشتى الأزياء، وتسمى بشتى الأسماء. وكلها جاهلية عارية من الإسلام!

Marfat.com

وقد حارب الإسلام هذه العصبية الجاهلية فى كل صورها وأشكالها، ليقيم نظامه الإنسانى العالمى فى ظل راية واحدة : راية الله . . لاراية الوطنية . ولا راية القومية . ولا راية البيت. ولا راية الجنس . فكلها رايات زائفة لا يعرفها الإسلام .

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب. ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان »(١)

وقال – صلى الله عليه وسلم – عن العصبية الجاهلية : « دعوها فإنها منتنة »(٢)

وهذه هى القاعدة التى يقوم عليها المجتمع الإسلامى . المجتمع الإنسانى العالمى ، الذى تحاول البشرية فى خيالها المحلق أن تحقق لونا من ألوانه فتخفق ، لأنها لا تسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم . . الطريق إلى الله . . ولأنها لا تقف تحت الراية الواحدة المجمعة . . راية الله . .

* * *

وفى ختام السورة تأتى المناسبة لبيان حقيقة الإيمان وقيمته ، فى الرد على الأعراب الذين قالوا : « آمنا » وهم لا يدركون حقيقة الإيمان . والذين منوا على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنهم أسلموا وهم لا يقدرون منة الله على عباده بالإيمان :

« قالت الأعراب : آمنا . قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا . ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم . وإن تطيعوا الله ورسوله لايلتكم من أعمالكم شيئا ، إن الله غفور رحيم . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون . قل : أتعلمون الله بدينكم ؟ والله يعلم مافى السماوات ومافى الأرض ، والله بكل شىء عليم . يمنون عليك أن أسلموا . قل : لاتمنوا على إسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين . إن الله يعلم غيب السماوات والأرض ، والله بصير بما تعملون » . .

قيل : إنها نزلت فى أعراب بنى أسد . قالوا : آمنا . أول مادخلوا فى الإسلام . ومنوا على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قالوا : يارسول الله أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك .

(١) رواه أبو بكر البزار فى مسنده من حديث حذيفة

(٢) رواه مسلم فى صحيحه من حديث جابر ابن عبد الله .

Marfat.com

فأراد الله أن يعلمهم حقيقة ماهو قائم فى نفوسهم وهم يقولون هذا القول . وأنهم دخلوا فى الإسلام استسلاما ، ولم تصل قلوبهم بعد إلى مرتبة الإيمان . فدل بهذا على أن حقيقة الإيمان لم تستقر فى قلوبهم . ولم تشربها أرواحهم : « قل : لم تؤمنوا . ولكن قولوا : أسلمنا . ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » .

ومع هذا فإن كرم الله اقتضى أن يجزيهم على كل عمل صالح يصدر منهم لا ينقصهم منه شيئا. فهذا الإسلام الظاهر الذى لم يخالط القلب فيستحيل إيمانا واثقا مطمئنا . هذا الإسلام يكفى لتحسب لهم أعمالهم الصالحة فلا تضيع كما تضيع أعمال الكفار . ولاينقص من أجرها شيء عند الله ما بقوا على الطاعة والاستسلام : « وإن تطيعوا الله ورسوله لايلتكم من أعمالكم شيئا » . ذلك أن الله أقرب إلى المغفرة والرحمة ، فيقبل من العبد أول خطوة ، ويرضى منه الطاعة والتسليم ، إلى أن يستشعر قلبه الإيمان والطمأنينة : « إن الله غفور رحيم » ..

ثم بين لهم حقيقة الإيمان :

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله . ثم لم يرتابوا . وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . أولئك هم الصادقون » .

فالإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله . التصديق الذى لايرد عليه شك ولاارتياب . التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذى لايتزعزع ولايضطرب ، ولاتهجس فيه الهواجس ، ولايتلجلج فيه القلب والشعور . والذى ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس فى سبيل الله . فالقلب متى تذوق حلاوة هذا الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه ، لابد مندفع لتحقيق حقيقته فى خارج القلب . فى واقع الحياة . فى دنيا الناس . يريد أن يوحد بين مايستشعره فى باطنه من حقيقة الإيمان ، ومايحيط به فى ظاهره من ماجريات الأمور وواقع الحياة. ولا يطيق الصبر على المفارقة بين الصورة الإيمانية التى فى حسه ، والصورة الواقعية من حوله . لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه فى كل لحظة . ومن هنا هذا الانطلاق إلى الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس . فهو انطلاق ذاتى من نفس المؤمن . يريد به أن يحقق الصورة الوضيئة التى فى قلبه ، ليراها ممثلة فى واقع الحياة والناس . والخصومة بين المؤمن وبين الحياة الجاهلية من حوله خصومة ذاتية ناشئة من عدم استطاعته حياة مزدوجة بين تصوره الإيمانى ، وواقعه العملى . وعدم استطاعته كذلك التنازل عن تصوره الإيمانى الكامل الجميل المستقيم فى سبيل واقعه العملى الناقص الشائن

Marfat.com

Marfat.com

المنحرف . فلابد من حرب بينه وبين الجاهلية من حوله ، حتى تنثنى هذه الجاهلية إلى التصور الإيمانى والحياة الإيمانية .

« أولئك هم الصادقون » . . الصادقون فى عقيدتهم . الصادقون حين يقولون : إنهم مؤمنون . فإذا لم تتحقق تلك المشاعر فى القلب ، ولم تتحقق آثارها فى واقع الحياة ، فالإيمان لا يتحقق . والصدق فى العقيدة وفى ادعائها لا يكون .

ونقف قليلا أمام هذا الاحتراس المعترض فى الآية : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ــ ثم لم يرتابوا ــ » . . إنه ليس مجرد عبارة . إنما هو لمس لتجربة شعورية واقعية . وعلاج لحالة تقوم فى النفس . حتى بعد إيمانها . . « ثم لم يرتابوا » وشبيه بها الاحتراس فى قوله تعالى . . « إن الذين قالوا ربنا الله . . ثم استقاموا . . » فعدم الارتياب . والاستقامة على قولة : ربنا الله . تشير إلى ما قد يعتور النفس المؤمنة ــ تحت تأثير التجارب القاسية ، والابتلاءات الشديدة ــ من ارتياب ومن اضطراب . وإن النفس المؤمنة لتصطدم فى الحياة بشدائد تزلزل ، ونوازل تزعزع . والتى تثبت فلا تضطرب ، وتثق فلا ترتاب، وتظل مستقيمة موصولة هى التى تستحق هذه الدرجة عند الله .

والتعبير على هذا النحو ينبه القلوب المؤمنة إلى مزالق الطريق ، وأخطار الرحلة ، لتعزم أمرها ، وتحتسب ، وتستقيم ، ولا ترتاب عندما يدلهم الأفق ، ويظلم الجو ، وتناوحها العواصف والرياح !

ثم يستطرد مع الأعراب يعلمهم أن الله أعلم بقلوبهم وما فيها ؛ وأنه هو يخبرهم بما فيها ولا يتلقى منهم العلم عنها :

« قل : أتعلمون الله بدينكم ؟ والله يعلم مافى السماوات ومافى الأرض ، والله بكل شىء عليم » . .

والإنسان يدعى العلم ، وهو لا يعلم نفسه ، ولا ما يستقر فيها من مشاعر ، ولا يدرك حقيقة نفسه ولا حقيقة مشاعره ؛ فالعقل نفسه لا يعرف كيف يعمل ، لأنه لا يملك مراقبة نفسه فى أثناء عمله . وحين يراقب نفسه يكف عن عمله الطبيعى ، فلا يبقى هناك ما يراقبه ! وحين يعمل عمله الطبيعى لا يملك أن يشغل فى الوقت ذاته بالمراقبة ! ومن ثم فهو عاجز عن معرفة خاصة ذاته وعن معرفة طريقة عمله ! وهو هو الأداة التى يتطاول بها الإنسان !

« والله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض » . . علما حقيقيا . لا بظواهرها وآثارها . ولكن بحقائقها وماهياتها . وعلما شاملا محيطا غير محدود ولا موقوت .

« والله بكل شىء عليم » . . بهذا الإجمال الشامل المحيط .

وبعد بيان حقيقة الإيمان التى لم يدركوها ولم يبلغوها ، يتوجه إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالخطاب عن منهم عليه بالإسلام ؛ وهذا المن ذاته دليل على أن حقيقة الإيمان لم تكن قد استقرت بعد فى تلك القلوب ، وأن حلاوة الإيمان لم تكن بعد قد تذوقتها تلك الأرواح :

« يمنون عليك أن أسلموا . قل : لا تمنوا على إسلامكم . بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ، إن كنتم صادقين » . .

لقد منوا بالإسلام ، وزعموا الإيمان . فجاءهم الرد أن لا يمنوا بالإسلام . وأن المنة لله عليهم لو صدقوا فى دعوى الإيمان .

ونحن نقف أمام هذا الرد ، الذى يتضمن حقيقة ضخمة ، يغفل عنها الكثيرون ، وقد يغفل عنها بعض المؤمنين . .

إن الإيمان هو كبرى المنن التى ينعم بها الله على عبد من عباده فى الأرض . إنه أكبر من منة الوجود الذى يمنحه الله ابتداء لهذا العبد ؛ وسائر ما يتعلق بالوجود من آلاء الرزق والصحة والحياة والمتاع .

إنها المنة التى تجعل للوجود الإنسانى حقيقة مميزة ؛ وتجعل له فى نظام الكون دورا أصيلا عظيما .

وأول ما يصنعه الإيمان فى الكائن البشرى ، حين تستقر حقيقته فى قلبه ، هو سعة تصوره لهذا الوجود ، ولارتباطاته هو به ، ولدوره هو فيه ؛ وصحة تصوره للقيم والأشياء والأشخاص والأحداث من حوله ؛ وطمأنينته فى رحلته على هذا الكوكب الأرضى حتى يلقى الله ، وأنسه بكل ما فى الوجود حوله ، وأنسه بالله خالقه وخالق هذا الوجود ؛ وشعوره بقيمته وكرامته ؛ وإحساسه بأنه يملك أن يقوم بدور مرموق يرضى عنه الله ، ويحقق الخير لهذا الوجود كله بكل ما فيه وكل من فيه .

فمن سعة تصوره أن يخرج من نطاق ذاته المحدودة فى الزمان والمكان ، الصغيرة الكيان ، الضئيلة القوة . إلى محيط هذا الوجود كله ، بما فيه من قوى مذخورة ، وأسرار مكنونة ؛ وانطلاق لا تقف دونه حدود ولا قيود . فى نهاية المطاف .

Marfat.com

Marfat.com

فهو ، بالقياس إلى جنسه ، فرد من إنسانية،ترجع إلى أصل واحد . هذا الأصل اكتسب إنسانيته ابتداء من روح الله . من النفخة العلوية التى تصل هذا الكائن الطينى بالنور الإلهى . النور الطليق الذى لاتحصره سماء ولاأرض ولابدء ولاانتهاء . فلاحد له فى المكان ، ولاحدله فى الزمان . وهذا العنصر الطليق هو الذى جعل من المخلوق البشرى هذا الإنسان . . ويكفى أن يستقر هذا التصور فى قلب إنسان ليرفعه فى نظر نفسه ، وليكرمه فى حسه ، وليشعره بالوضاءة والانطلاق ؛ وقدماه تدبان على الأرض ، وقلبه يرف بأجنحة النور إلى مصدر النور الأول الذى منحه هذا اللون من الحياة .

وهو ، بالقياس إلى الفئة التى ينتسب إليها ، فرد من الأمة المؤمنة .الأمة الواحدة ، الممتدة فى شعاب الزمن ، السائرة فى موكب كريم ، يقوده نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم من النبيين ، صلوات الله عليهم أجمعين..ويكفى أن يستقر هذا التصور فى قلب إنسان، فيشعر أنه فرع من تلك الشجرة الطيبة الباسقة المتطاولة ، العميقة الجذور ، الممتدة الفروع ، المتصلة بالسماء فى عمرها المديد . . يكفى أن يشعر الإنسان هذا الشعور ليجد للحياة طعما آخر ؛ وليحس بالحياة إحساسا جديدا ، وليضيف إلى حياته هذه حياة كريمة ، مستمدة من هذا النسب العريق .

ثم يتسع تصوره ويتسع حتى يتجاوز ذاته وأمته وجنسه الإنسانى ؛ ويرى هذا الوجود كله. الوجود الصادر عن الله ، الذى عنه صدر ، ومن نفخة روحه صار إنسانا . ويعرفه إيمانه أن هذا الوجود كله كائن حى ، مؤلف من كائنات حية . وأن لكل شىء فيه روحا ، وأن لهذا الكون كله روحا . وأن أرواح الأشياء ، وروح هذا الكون الكبير ، تتوجه إلى بارئها الأعلى ـ كما تتوجه روحهُ هو ـ بالدعاء والتسبيح ؛ وتستجيب له بالحمد والطاعة ، وتنتهى إليه بالإذعان والاستسلام . فإذا هو فى كيان هذا الكون ، جزء من كل،لاينفصل ولاينعزل .صادر عن بارئه ، متجه إليه بروحه ، راجع فى النهاية إليه . وإذا هو أكبر من ذاته المحدودة . أكبر بقدر تصوره لضخامة هذا الوجود الهائل.وإذا هو مأنوس بكل ماحوله من أرواح. ومأنوس بعد ذلك كله بروح الله التى ترعاه . وعندئذ يشعر أنه يملك أن يتصل بهذا الوجود كله ، وأن يمتد طولا وعرضا فيه ؛ وأنه يملك أن يصنع أشياء كثيرة ، وأن ينشىء أحداثا ضخمة ، وأن يؤثر بكل شىء ويتأثر .ثم يملك أن يستمد مباشرة من تلك القوة الكبرى التى برأته وبرأت كل مافى الوجود من قوى وطاقات . القوة الكبرى التى لا تحسر ولاتضعف ولاتغيب .

Marfat.com

ومن هذا التصور الواسع الرحيب يستمد موازين جديدة حقيقية للأشياء والأحداث والأشخاص والقيم والاهتمامات والغايات . ويرى دوره الحقيقي فى هذا الوجود ، ومهمته الحقيقية فى هذه الحياة . بوصفه قدرا من أقدار الله فى الكون ، يوجهه ليحقق به ويحقق فيه مايشاء . ويمضى فى رحلته على هذا الكوكب، ثابت الخطو، مكشوف البصيرة، مأنوس الضمير.

ومن هذه المعرفة لحقيقة الوجود حوله ، ولحقيقة الدور المقسوم له ، ولحقيقة الطاقة المهيأة له للقيام بهذا الدور . من هذه المعرفة يستمد الطمأنينة والسكينة والارتياح لما يجرى حوله ، ولما يقع له . فهو يعرف من أين جاء ؟ ولماذا جاء ؟ وإلى أين يذهب ؟ وماذا هو واجد هناك؟ وقد علم أنه هنا لأمر ، وأن كل مايقع له مقدر لتمام هذا الأمر. وعلم أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأنه مجزى على الصغيرة والكبيرة ، وأنه لم يخلق عبثا ، ولن يترك سدى ، ولن يمضى مفردا ..

ومن هذه المعرفة تختفى مشاعر القلق والشك والحيرة الناشئة عن عدم معرفة المنشأ والمصير ؛ وعدم رؤية المطوى من الطريق ، وعدم الثقة بالحكمة التى تكمن وراء مجيئه وذهابه ، ووراء رحلته فى ذلك الطريق .

تختفى شعور كشعور الخيام الذى يعبر عنه بما ترجمته :

لبست ثوب العمر لم أستشر وحرت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضو الثوب عنى ولم أدر لماذا جئت أين المقر ؟

فالمؤمن يعرف ـ بقلب مطمئن ، وضمير مستريح ، وروح مستبشرة ـ أنه يلبس ثوب العمر بقدر الله الذى يصرف الوجود كله تصريف الحكيم الخبير . وأن اليد التى ألبسته إياه أحكم منه وأرحم به ، فلا ضرورة لاستشارته لأنه لم يكن ليشير كما يشير صاحب هذه اليد العليم البصير. وأنه يلبسه لأداء دور معين فى هذا الكون ، يتأثر بكل مافيه ، ويؤثر فى كل مافيه. وأن هذا الدور يتناسق مع جميع الأدوار التى يقوم بها كل كائن من الأشياء والأحياء منذ البدء حتى المصير .

وهو يعلم إذن لماذا جاء ، كما أنه يعرف أين المقر ، ولا يحار بين شتى الفكر ، بل يقطع الرحلة ويؤدى الدور فى طمأنينة وفى ثقة وفى يقين. وقد يرتقى فى المعرفة الإيمانية ، فيقطع الرحلة ويؤدى الدور فى فرح وانطلاق واستبشار ، شاعرا بجمال الهبة وجلال العطية . هبة العمر ـ أو الثوب ـ الممنوح له من يد الكريم المنان ، الجميل اللطيف ، الودود الرحيم . وهبة الدور الذى يؤديه ـ كائنا ما كان من المشقة ـ لينتهى به إلى ربه فى اشتياق حبيب !

ويحتفى شعور كالشعور الذى عشته فى فترة من فترات الضياع والقلق ، قبل أن أحيا فى ظلال القرآن ، وقبل أن يأخذ الله بيدى إلى ظله الكريم . ذلك الشعور الذى خلعته روحى المتعبة على الكون كله ، فعبرت عنه أقول :

وقف الكون حائرا أين يمضى ؟ ولماذا وكيف ـ لوشاء ـ يمضى ؟
عبث ضائع وجهد غبين ومصير مقنع ليس يُرضى

فأنا أعرف اليوم ـ ولله الحمد والمنة ـ أنه ليس هناك جهد غبين فكل جهد مجزى. وليس هناك تعب ضائع فكل تعب مثمر . وأن المصير مرض وأنه بين يدى عادل رحيم . وأنا أشعر اليوم ـ ولله الحمد والمنة ـ أن الكون لايقف تلك الوقفة البائسة أبدا؛ فروح الكون تؤمن بربها ، وتتجه إليه ، وتسبح بحمده . والكون يمضى وفق ناموسه الذى اختاره الله له ، فى طاعة وفى رضى وفى تسليم !

وهذا كسب ضخم فى عالم الشعور وعالم التفكير ، كما أنه كسب ضخم فى عالم الجسد والأعصاب ، فوق ما هو كسب ضخم فى جمال العمل والنشاط والتأثر والتأثير .

والإيمان ـ بعد ـ قوة دافعة وطاقة مجمعة . فما تكاد حقيقته تستقر فى القلب حتى تتحرك لتعمل ، ولتحقق ذاتها فى الواقع ، ولتوائم بين صورتها المضمرة وصورتها الظاهرة . كما أنها تستولى على مصادر الحركة فى الكائن البشرى كلها ، وتدفعها فى الطريق . .

« ذلك سر قوة العقيدة فى النفس ، وسر قوة النفس بالعقيدة . سر تلك الخوارق التى صنعتها العقيدة فى الأرض وما تزال فى كل يوم تصنعها . الخوارق التى تغير وجه الحياة من يوم إلى يوم ، وتدفع بالفرد وتدفع بالجماعة إلى التضحية بالعمر الفانى المحدود فى سبيل الحياة الكبرى التى لاتفنى؛ وتقف بالفرد القليل الضئيل أمام قوى السلطان وقوى المال وقوى الحديد والنار ، فإذا هى كلها تنهزم أمام العقيدة الدافعة فى روح فرد مؤمن . وما هو الفرد الفانى المحدود الذى هزم تلك القوى جميعا ، ولكنها القوة الكبرى الهائلة التى استمدت منها تلك الروح ، والينبوع المتفجر الذى لا ينضب ولا ينحسر ولا يضعف »(١)

« تلك الخوارق التى تأتى بها العقيدة الدينية فى حياة الأفراد وفى حياة الجماعات لا تقوم على خرافة غامضة ، ولا تعتمد على التهاويل والرؤى . إنها تقوم على أسباب مدركة وعلى قواعد

(١) مقتطفات من فصل : « العقيدة والحياة » فى كتاب : « السلام العالمى والإسلام » .

ثابتة . إن العقيدة الدينية فكرة كلية تربط الإنسان بقوى الكون الظاهرة والخفية ، وتثبت روحه بالثقة والطمأنينة ، وتمنحه القدرة على مواجهة القوى الزائلة والأوضاع الباطلة ، بقوة اليقين فى النصر ، وقوة الثقة فى الله . وهى تفسر للفرد علاقاته بما حوله من الناس والأحداث والأشياء ، وتوضح له غايته واتجاهه وطريقه ، وتجمع طاقاته وقواه كلها ، وتدفعها فى اتجاه . ومن هنا كذلك قوتها . قوة تجميع القوى والطاقات حول محور واحد ، وتوجيهها فى اتجاه واحد ، تمضى إليه مستنيرة الهدف ، فى قوة ، وفى ثقة ، وفى يقين »(١)

ويضاعف قوتها أنها تمضى مع الخط الثابت الذى يمضى فيه الكون كله ظاهره وخافيه . وأن كل مافى الكون من قوى مكنونة تتجه اتجاها إيمانيا ، فيلتقى بها المؤمن فى طريقه ، وينضم إلى زحفها الهائل لتغليب الحق على الباطل . مهما يكن للباطل من قوة ظاهرة لها فى العيون بريق !

وصدق الله العظيم : « يمنون عليك أن أسلموا. قل: لاتمنوا على إسلامكم. بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين ». فهى المنة الكبرى التى لا يملكها ولا يهبها إلا الله الكريم، لمن يعلم منه أنه يستحق هذا الفضل العظيم .

وصدق الله العظيم. فماذا فقد من وجد الأنس بتلك الحقائق والمدركات وتلك المعانى والمشاعر؟ وعاش بها ومعها ، وقطع رحلته على هذا الكوكب فى ظلالها وعلى هداها ؟ وماذا وجد من فقدها ولو تقلب فى أعطاف النعيم . وهو يتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام . والأنعام أهدى لأنها تعرف بفطرتها الإيمان ؟ وتهتدى به إلى بارئها الكريم ؟

« إن الله يعلم غيب السماوات والأرض ، والله بصير بما تعملون » ..

والذى يعلم غيب السماوات والأرض يعلم غيب النفوس، ومكنون الضمائر، وحقائق الشعور. ويبصر مايعمله الناس، فلايستمد علمه بهم من كلمات تقولها ألسنتهم ؛ ولكن من مشاعر تجيش فى قلوبهم ، وأعمال تصدق مايجيش فى القلوب ..

* * *

وبعد فهذه هى السورة الجليلة ، التى تكاد بآياتها الثمانية عشرة تستقل برسم معالم عالم كريم نظيف رفيع سليم . بينما هى تكشف كبريات الحقائق ، وتقرر أصولها فى أعماق الضمير ..

---

(١) المصدر السابق

Marfat.com

سورة ق مكية
وآياتها ٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

« قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ① بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ، فَقَالَ الْكَافِرُونَ : هٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ؟ ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ، وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ * أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ؟ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ ، وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ، كَذٰلِكَ الْخُرُوجُ .

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ، كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ * أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ؛ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ .

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ، وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ * وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، ذٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ *

Marfat.com

Marfat.com

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا ، فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ ، فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ * وَقَالَ قَرِينُهُ : هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ، فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ : رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ، وَلَٰكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ : لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ : هَلِ امْتَلَأْتِ ؟ وَتَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؟ * وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ .

«وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ .

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ * فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ * وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ، ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ، فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ » ٤٥

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخطب بهذه السورة فى العيد والجمعة ؛ فيجعلها هى موضوع خطبته ومادتها ،فى الجماعات الحافلة .. وإن لها لشأنا ..

إنها سورة رهيبة ، شديدة الوقع بحقائقها ، شديدة الإيقاع ببنائها التعبيرى ، وصورها

وظلالها وجرس فواصلها . تأخذ على النفس أقطارها ، وتلاحقها فى خطراتها وحركاتها ، وتعقبها فى سرها وجهرها،وفى باطنها وظاهرها . تعقبها برقابة الله،التى لاتدعها لحظة واحدة من المولد ، إلى الممات ، إلى البعث ، إلى الحشر ، إلى الحساب.وهى رقابة شديدة دقيقة رهيبة. تطبق على هذا المخلوق الإنسانى الضعيف إطباقا كاملا شاملا . فهو فى القبضة التى لاتغفل عنه أبدا ، ولاتغفل من أمره دقيقا ولاجليلا ، ولاتفارقه كثيرا ولاقليلا . كل نفس معدود . وكل هاجسة معلومة . وكل لفظ مكتوب . وكل حركة محسوبة . والرقابة الكاملة الرهيبة مضروبة على وساوس القلب، كما هى مضروبةعلى حركة الجوارح . ولاحجاب ولاستار دون هذه الرقابة النافذة ، المطلعة على السر والنجوى اطلاعها على العمل والحركة . فى كل وقت وفى كل حال .

وكل هذه حقائق معلومة . ولكنها تعرض فى الأسلوب الذى يبديها وكأنها جديدة ،تروع الحس روعة المفاجأة ؛ وتهز النفس هزا ، وترجها رجا ، وتثير فيها رعشة الخوف ، وروعة الإعجاب ، ورجفة الصحو من الغفلة على الأمر المهول الرهيب !

وذلك كله إلى صور الحياة ، وصور الموت ، وصور البلى ، وصور البعث ،وصور الحشر. وإلى إرهاص الساعة فى النفس وتوقعها فى الحس . وإلى الحقائق الكونية المتجلية فى السماء والأرض ، وفى الماء والنبت ، وفى الثمر والطلع .. « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » ..

وإنه ليصعب فى مثل هذه السورة التلخيص والتعريف ، وحكاية الحقائق والمعانى والصور والظلال ، فى غير أسلوبها القرآنى الذى وردت فيه ؛ وفى غير عبارتها القرآنية التى تشع بذاتها تلك الحقائق والمعانى والصور والظلال ، إشعاعا مباشرا للحس والضمير .

فلنأخذ فى استعراض السورة بذاتها .. والله المستعان ..

* * *

« ق .والقرآن المجيد.بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون : هذا شىء عجيب. أإذا متنا وكنا ترابا ؟ ذلك رجع بعيد . قد علمنا ماتنقص الأرض منهم، وعندنا كتاب حفيظ. بل كذبوا بالحق لما جاءهم ، فهم فى أمر مريج . أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ؟ ومالها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا . كذلك الخروج.

Marfat.com

Marfat.com

« كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط ، وأصحاب الأيكة وقوم تبع . كل كذب الرسل فحق وعيد . أفعيينا بالخلق الأول ؟ بل هم في لبس من خلق جديد » ..

* * *

هذا هو المقطع الأول في السورة . وهو يعالج قضية البعث ، وإنكار المشركين له ، وعجبهم من ذكره والقول به . ولكن القرآن لا يواجه إنكارهم لهذه القضية فيعالجه وحده . إنما هو يواجه قلوبهم المنحرفة ليردها أصلا إلى الحق ، ويقوم ما فيها من عوج ؛ ويحاول قبل كل شيء إيقاظ هذه القلوب وهزها لتتفتح على الحقائق الكبيرة في صلب هذا الوجود . ومن ثم لا يدخل معهم في جدل ذهني لإثبات البعث . وإنما يحيي قلوبهم لتتفكر هي وتتدبر ، ويلمس وجدانهم ليتأثر بالحقائق المباشرة من حوله فيستجيب . وهو درس يحسن أن ينتفع به من يحاولون علاج القلوب !

وتبدأ السورة بالقسم . القسم بالحرف : « قاف » وبالقرآن المجيد ، المؤلف من مثل هذا الحرف . بل إنه هو أول حرف في لفظ « قرآن » . .

ولا يذكر المقسم عليه . فهو قسم في ابتداء الكلام ، يوحي بذاته باليقظة والاهتمام . فالأمر جلل ، والله يبدأ الحديث بالقسم ، فهو أمر إذن له خطر . ولعل هذا هو المقصود بهذا الابتداء . إذ يضرب بعده بحرف « بل » عن المقسم عليه ـ بعد أن أحدث القسم أثره في الحس والقلب ـ ليبدأ حديثا كأنه جديد عن عجبهم واستنكارهم لما جاءهم به رسولهم في القرآن المجيد من أمر البعث والخروج :

« بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون : هذا شيء عجيب . أإذا متنا وكنا ترابا ؟ ذلك رجع بعيد » . .

بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم . ومافي هذا من عجب . بل هو الأمر الطبيعي الذي تتقبله الفطرة السليمة ببساطة وترحيب . الأمر الطبيعي أن يختار الله من الناس واحدا منهم ، يحس بإحساسهم ، ويشعر بشعورهم ، ويتكلم بلغتهم ، ويشاركهم حياتهم ونشاطهم ، ويدرك دوافعهم وجواذبهم ، ويعرف طاقتهم واحتمالهم ، فيرسله إليهم لينذرهم ما ينتظرهم إن هم ظلوا فيما هم فيه ؛ ويعلمهم كيف يتجهون الاتجاه الصحيح ؛ ويبلغهم التكاليف التي يفرضها الاتجاه الجديد ، وهو معهم أول من يحمل هذه التكاليف .

ولقد عجبوا من الرسالة ذاتها ، وعجبوا - بصفة خاصة - من أمر البعث الذى حدثهم عنه هذا المنذر أول ما حدثهم . فقضية البعث قاعدة أساسية فى العقيدة الإسلامية . قاعدة تقوم عليها العقيدة ويقوم عليها التصور الكلى لمقتضيات هذه العقيدة . فالمسلم مطلوب منه أن يقوم على الحق ليدفع الباطل ، وأن ينهض بالخير ليقضى على الشر ، وأن يجعل نشاطه كله فى الأرض عبادة لله ، بالتوجه فى هذا النشاط كله لله . ولا بد من جزاء على العمل . وهذا الجزاء قد لا يتم فى رحلة الأرض . فيؤجل للحساب الختامى بعد نهاية الرحلة كلها . فلا بد إذن من عالم آخر ، ولا بد إذن من بعث للحساب فى العالم الآخر . وحين ينهار أساس الآخرة فى النفس ينهار معه كل تصور لحقيقة هذه العقيدة وتكاليفها ؛ ولا تستقيم هذه النفس على طريق الإسلام أبدا .

ولكن أولئك القوم لم ينظروا للمسألة من هذا الجانب أصلا . إنما نظروا إليها من جانب آخر ساذج شديد السذاجة ، بعيد كل البعد عن إدراك حقيقة الحياة والموت ، وعن إدراك أى طرف من حقيقة قدرة الله . فقالوا : « أإذا متنا وكنا ترابا ؟ ذلك رجع بعيد » !

والمسألة إذن فى نظرهم هى مسألة استبعاد الحياة بعد الموت والبلى . وهى نظرة ساذجة كما أسلفنا ، لأن معجزة الحياة التى حدثت مرة يمكن أن تحدث مرة أخرى . كما أن هذه المعجزة تقع أمامهم فى كل لحظة ، وتحيط بهم فى جنبات الكون كله . وهذا هو الجانب الذى قادهم إليه القرآن فى هذه السورة .

غير أننا قبل أن نمضى مع لمسات القرآن وآياته الكونية فى معرض الحياة ، نقف أمام لمسة البلى والدثور التى تتمثل فى حكاية قولهم والتعليق عليه :

« أإذا متنا وكنا ترابا . . . . . » . . وإذن فالناس يموتون . وإذن فهم يصيرون ترابا . وكل من يقرأ حكاية قول المشركين يلتفت مباشرة إلى ذات نفسه ، وإلى غيره من الأحياء حوله . يلتفت ليتصور الموت والبلى والدثور . بل ليحس دبيب البلى فى جسده وهو بعد حى فوق التراب ! وما كالموت يهز قلب الحى ، وليس كالبلى يمسه بالرجفة والارتعاش .

والتعقيب يعمق هذه اللمسة ويقوى وقعها ؛ وهو يصور الأرض تأكل منهم شيئا فشيئا :

« قد علمنا ماتنقص الأرض منهم ، وعندنا كتاب حفيظ » . .

لكأنما التعبير يجسم حركة الأرض ويحيها وهى تذيب أجسادهم المغيبة فيها ، وتأكلها رويدا

Marfat.com

رويدا . ويصور أجسادهم وهى تتآكل باطراد وتبلى. ليقول : إن الله يعلم ماتأكله الأرض من أجسادهم ، وهو مسجل فى كتاب حفيظ ؛ فهم لايذهبون ضياعا إذا ماتوا وكانوا ترابا . أما إعادة الحياة إلى هذا التراب ، فقد حدثت من قبل ، وهى تحدث من حولهم فى عمليات الإحياء المتجددة التى لاتنتهى .

وهكذا تتوالى اللمسات التى تذيب القلوب وترققها ، وتدعها حساسة متوفزة جيدة الاستقبال. وذلك قبل البدء فى الهجوم على القضية ذاتها !

ثم يكشف عن حقيقة حالهم التى تنبعث منها تلك الاعتراضات الواهية . ذلك أنهم تركوا الحق الثابت ، فمادت الأرض من تحتهم ، ولم يعودوا يستقرون على شىء أبدا :

« بل كذبوا بالحق لما جاءهم ، فهم فى أمر مريج » . .

وإنه لتعبير فريد مصور مشخص لحال من يفارقون الحق الثابت ، فلا يقر لهم من بعده قرار . .

إن الحق هو النقطة الثابتة التى يقف عليها من يؤمن بالحق فلا تتزعزع قدماه، ولا تضطرب خطاه ، لأن الأرض ثابتة تحت قدميه لاتتزلزل ولاتخسف ولاتغوص . وكل ماحوله ـ عدا الحق الثابت ـ مضطرب مائج مزعزع مريج ، لاثبات له ولااستقرار ، ولاصلابة له ولااحتمال . فمن تجاوز نقطة الحق الثابتة زلت قدماه فى ذلك المضطرب المريج ، وفقد الثبات والاستقرار ، والطمأنينة والقرار . فهو أبدا فى أمر مريج لايستقر على حال !

ومن يفارق الحق تتقاذفه الأهواء ، وتتناوحه الهواجس ، وتتخاطفه الهواتف ، وتمزقه الحيرة ، وتقلقه الشكوك. ويضطرب سعيه هنا وهناك ، وتتأرجح مواقفه إلى اليمين وإلى الشمال. وهو لايلوذ من حيرته بركن ركين ، ولا بملجأ أمين .. فهو فى أمر مريج . .

إنه تعبير عجيب ، يجسم خلجات القلوب ، وكأنها حركة تتبعها العيون !

واستطرادا مع إيقاع الحق الثابت المستقر الراسى الشامخ ـ وفى الطريق إلى مناقشة اعتراضهم على حقيقة البعث ـ يعرض بعض مظاهر الحق فى بناء الكون ؛ فيوجه أنظارهم إلى السماء وإلى الأرض وإلى الرواسى ، وإلى الماء النازل من السماء ، وإلى النخل الباسقات ، وإلى الجنات والنبات . فى تعبير يتناسق مع صفة الحق الثابت الراسى . . الجميل . .

« أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ؟ ومالها من فروج » . .

Marfat.com

إن هذه السماء صفحة من كتاب الكون تنطق بالحق الذى فارقوه . أفلم ينظروا إلى مافيها من تشامخ وثبات واستقرار ؟ وإلى مافيها بعد ذلك من زينة وجمال وبراءة من الخلل والاضطراب! إن الثبات والكمال والجمال هى صفة السماء التى تتناسق مع السياق هنا . مع الحق وما فيه من ثبات وكمال وجمال . ومن ثم تجيء صفة البناء وصفة الزينة وصفة الخلو من الثقوب والفروج .

وكذلك الأرض صفحة من كتاب الكون القائم على الحق المستقر الأساس الجميل البهيج :

« والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » . .

فالامتداد فى الأرض والرواسى الثابتات والبهجة فى النبات . . تمثل كذلك صفة الاستقرار والثبات والجمال ، التى وجه النظر إليها فى السماء .

وعلى مشهد السماء المبنية المتطاولة الجميلة ، والأرض الممدودة الراسية البهيجة يلمس قلوبهم ، ويوجهها إلى جانب من حكمة الخلق ، ومن عرض صفحات الكون :

« تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » . .

تبصرة تكشف الحجب ، وتنير البصيرة ، وتفتح القلوب ، وتصل الأرواح بهذا الكون العجيب ، وما وراءه من إبداع وحكمة وترتيب . . تبصرة ينتفع بها كل عبد منيب ، يرجع إلى ربه من قريب .

وهذه هى الوصلة بين القلب البشرى وإيقاعات هذا الكون الهائل الجميل . هذه هى الوصلة التى تجعل للنظر فى كتاب الكون ، والتعرف إليه أثرا فى القلب البشرى ، وقيمة فى الحياة البشرية . هذه هى الوصلة التى يقيمها القرآن بين المعرفة والعلم وبين الإنسان الذى يعرف ويعلم . وهى التى تهملها مناهج البحث التى يسمونها « علمية » فى هذا الزمان . فتقطع ماوصل الله من وشيجة بين الناس والكون الذى يعيشون فيه. فالناس قطعة من هذا الكون لا تصح حياتهم ولا تستقيم إلا حين تنبض قلوبهم على نبض هذا الكون ؛ وإلا حين تقوم الصلة وثيقة بين قلوبهم وإيقاعات هذا الكون الكبير . وكل معرفة بنجم من النجوم ، أوفلك من الأفلاك ، أوخاصة من خواص النبات والحيوان ، أو خواص الكون كله على وجه الإجمال وما فيه من عوالم حية وجامدة ـ إذا كانت هناك عوالم جامدة أو شيء واحد جامد فى هذا الوجود ! ـ كل معرفة « علمية » يجب أن تستحيل فى الحال إلى إيقاع فى القلب البشرى ، وإلى ألفة مؤنسة بهذا الكون ، وإلى تعارف يوثق أواصر الصداقة بين الناس والأشياء

Marfat.com

والأحياء . وإلى شعور بالوحدة التى تنتهى إلى خالق هذا الكون وما فيه ومن فيه . . وكل معرفة أو علم أو بحث يقف دون هذه الغاية الحية الموجهة المؤثرة فى حياة البشر ، هى معرفة ناقصة ، أو علم زائف ، أو بحث عقيم !

إن هذا الكون هو كتاب الحق المفتوح ، الذى يقرأ بكل لغة ، ويدرك بكل وسيلة ؛ ويستطيع أن يطالعه الساذج ساكن الخيمة والكوخ ، والمتحضر ساكن العمائر والقصور . كل يطالعه بقدر إدراكه واستمداده ، فيجد فيه زادا من الحق ، حين يطالعه بشعور التطلع إلى الحق . وهو قائم مفتوح فى كل آن : « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .. ولكن العلم الحديث يطمس هذه التبصرة أو يقطع تلك الوشيجة بين القلب البشرى والكون الناطق المبين . لأنه فى رؤوس مطموسة رانت عليها خرافة « المنهج العلمى » . المنهج الذى يقطع ما بين الكون والخلائق التى تعيش فيه !

والمنهج الإيمانى لا ينقص شيئا من ثمار « المنهج العلمى » فى إدراك الحقائق المفردة . ولكنه يزيد عليه ربط هذه الحقائق المفردة بعضها ببعض ، وردها إلى الحقائق الكبرى ، ووصل القلب البشرى بها ، أى وصله بنواميس الكون وحقائق الوجود ، وتحويل هذه النواميس والحقائق إلى إيقاعات مؤثرة فى مشاعر الناس وحياتهم ؛ لا معلومات جامدة جافة متحيزة فى الأذهان لا تفضى لها بشىء من سرها الجميل ! والمنهج الإيمانى هو الذى يجب أن تكون له الكرة فى مجال البحوث والدراسات ليربط الحقائق العلمية التى يهتدى إليها بهذا الرباط الوثيق . .

وبعد هذه اللفتة يمضى فى عرض صفحات الحق فى كتاب الكون — فى طريقه إلى قضية الإحياء والبعث :

« ونزلنا من السماء ماء مباركا ، فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا . كذلك الخروج » . .

والماء النازل من السماء آية تحيى موات القلوب قبل أن تحيى موات الأرض . ومشهده ذو أثر خاص فى القلب لا شك فيه . وليس الأطفال وحدهم هم الذين يفرحون بالمطر ويطيرون له خفافا . فقلوب الكبار الحساسين تستروح هذا المشهد وتصفق له كقلوب الأطفال الأبرياء ، القريبى العهد بالفطرة !

ويصف الماء هنا بالبركة ، ويجعله فى يد الله سببا لإنبات جنات الفاكهة وحب الحصيد —

Marfat.com

وهو النبات المحصود ـ ومما ينبته به النخل . ويصفها بالسموق والجمال : «والنخل باسقات لها طلع نضيد » ..وزيادة هذا الوصف للطلع مقصودة لإبراز جمال الطلع المنضد فى النخل الباسق . وذلك تمشيا مع جو الحق وظلاله . الحق السامق الجميل .

ويلمس القلوب وهو يمتن عليها بالماء والجنات والحب والنخل والطلع : « رزقا للعباد » .. رزقا يسوق الله سببه ، ويتولى نبته ، ويطلع ثمره . للعباد . وهو المولى . وهم لايقدرون ولا يشكرون !

وهنا ينتهى بموكب الكون كله إلى الهدف الأخير :

« وأحيينا به بلدة ميتا . كذلك الخروج » ..

فهى عملية دائمة التكرار فيما حولهم ، مألوفة لهم؛ولكنهم لاينتبهون إليها ولايلحظونها قبل الاعتراض والتعجيب .. كذلك الخروج .. على هذه الوتيرة ، وبهذه السهولة ... الآن يقولها وقد حشد لها من الإيقاعات الكونية على القلب البشرى ذلك الحشد الطويل الجميل المؤثر الموحى لكل قلب منيب .. وكذلك يعالج القلوب خالق القلوب ..

* * *

ثم يعقب بعرض صفحات من كتاب التاريخ البشرى بعد عرض تلك الصفحات من كتاب الكون، تنطق بمآل المكذبين الذين ماروا كما يمارى هؤلاء المشركون فى قضية البعث، وكذبوا كما يكذبون بالرسل ، فحق عليهم وعيد الله الذى لامفر منه ولامحيد :

« كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط ، وأصحاب الأيكة ، وقوم تبع . كل كذب الرسل فحق وعيد . أفعيينا بالخلق الأول ؟ بل هم فى لبس من خلق جديد » ..

والرس : البئر : المطوية غير الآنية . والأيكة : الشجر الملتف الكثيف.وأصحاب الأيكة هم ـ فى الغالب ـ قوم شعيب . أما أصحاب الرس فلا بيان عنهم غير هذه الإشارة . وكذلك قوم تبع . وتبع لقب لملوك حمير باليمن .وبقية الأقوام المشار إليهم هنا معروفون لقارئ القرآن .

وواضح أن الغرض من هذه الإشارة السريعة ليس تفصيل أمر هذه الأقوام . ولكنه إيقاع على القلوب بمصارع الغابرين . حين كذبوا الرسل . والذى يلفت النظر هو النص على أن كلا منهم كذب الرسل : « كل كذب الرسل فحق وعيد » . وهى لفتة مقصودة لتقرير

Marfat.com

وحدة العقيدة ووحدة الرسالة . فكل من كذب برسول فقد كذب بالرسل أجمعين ؛ لأنه كذب بالرسالة الواحدة التى جاء بها الرسل أجمعون . والرسل إخوة وأمة واحدة وشجرة ضاربة الجذور فى أعماق الزمان ، وكل فرع من تلك الشجرة تلخيص لخصائصها ، وصورة منها . ومن يمس منها فرعا فقد مس الأصل وسائر الفروع .. « فحق وعيد » ونالهم مايعرف السامعون !

وفى ظل هذه المصارع يعود إلى القضية التى بها يكذبون . قضية البعث من جديد . فيسأل: « أفعيينا بالخلق الأول ؟ » . . والخلق شاهد حاضر فلاحاجة إلى جواب ! « بل هم فى لبس من خلق جديد » .. غير ناظرين إلى شهادة الخلق الأول الموجود ! فماذا يستحق من يكذب وأمامه ذلك الشاهد المشهود ؟ !

* * *

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد .

وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد . .

« ونفخ فى الصور ، ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد . وقال قرينه : هذا ما لدى عتيد . ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . الذى جعل مع الله إلها آخر فألقياه فى العذاب الشديد . قال : قرينه : ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد . قال : لا تختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد . ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد . يوم نقول لجهنم : هل امتلأت ؟ وتقول : هل من مزيد ؟ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد . هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ . من خشى الرحمان بالغيب وجاء بقلب منيب . ادخلوها بسلام ، ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد » . .

* * *

وهذا هو المقطع الثانى فى السورة : استطراد مع قضية البعث ، التى عالجها الشوط الأول ؛ وعلاج للقلوب المكذبة بلمسات جديدة ، ولكنها رهيبة مخيفة . إنها تلك الرقابة التى تحدثنا عنها فى تقديم السورة . ومشاهدها التى تمثلها وتشخصها . ثم مشهد الموت وسكراته . ثم مشهد

Marfat.com

الحساب وعرض السجلات . ثم مشهد جهنم فاغرة فاها تتلمظ كلما ألقى فيها وقودها البشرى تقول : « هل من مزيد ؟ » . وإلى جواره مشهد الجنة والنعيم والتكريم .

إنها رحلة واحدة تبدأ من الميلاد ، وتمر بالموت ، وتنتهى بالبعث والحساب . رحلة واحدة متصلة بلا توقف ؛ ترسم للقلب البشرى طريقه الوحيد الذى لا فكاك عنه ولا محيد ؛ وهو من أول الطريق إلى آخره فى قبضة الله لايتملص ولا يتفلت ، وتحت رقابته التى لا تفتر ولا تغفل . وإنها لرحلة رهيبة تملأ الحس روعة ورهبة . وكيف بإنسان فى قبضة الجبار ، المطلع على ذات الصدور ؟ وكيف بإنسان طالبه هو الواحد الديان ، الذى لا ينسى ولا يغفل ولا ينام !

إنه ليرجف ويضطرب ويفقد توازنه وتماسكه ، حين يشعر أن السلطان فى الأرض يتتبعه بجواسيسه وعيونه ، ويراقبه فى حركته وسكونه . وسلطان الأرض مهما تكن عيونه لايراقب إلا الحركة الظاهرة . وهو يحتمى منه إذا آوى إلى داره ، وإذا أغلق عليه بابه ، أو إذا أغلق فمه ! أما قبضة الجبار فهى مسلطة عليه أينما حل وأينما سار . وأما رقابة الله فهى مسلطة على الضمائر والأسرار . . فكيف ؟ كيف بهذا الإنسان فى هذه القبضة وتحت هذه الرقابة ؟ !

***

« ولقد خلقنا الإنسان ، ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد . إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » . :

إن ابتداء الآية : « ولقد خلقنا الإنسان » . . يشير إلى المقتضى الضمنى للعبارة . فصانع الآلة أدرى بتركيبها وأسرارها . وهو ليس بخالقها لأنه لم ينشىء مادتها ، ولم يزد على تشكيلها وتركيبها . فكيف بالمنشىء الموجد الخالق؟ إن الإنسان خارج من يد الله أصلا؛ فهو مكشوف الكنه والوصف والسر لخالقه العليم بمصدره ومنشئه وحاله ومصيره . .

« ونعلم ما توسوس به نفسه » . . وهكذا يجد الإنسان نفسه مكشوفة لا يحجبها ستر ، وكل ما فيها من وساوس خافتة وخافية معلوم لله ، تمهيدا ليوم الحساب الذى ينكره ويجحده !

« ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » . . الوريد الذى يجرى فيه دمه . وهو تعبير يمثل ويصور القبضة المالكة ، والرقابة المباشرة . وحين يتصور الإنسان هذه الحقيقة لابد يرتعش ويحاسب . ولو استحضر القلب مدلول هذه العبارة وحدها ما جرؤ على كلمة لا يرضى الله عنها. بل ما جرؤ على هاجسة فى الضمير لا تنال القبول . وإنها وحدها لكافية ليعيش بها الإنسان فى

Marfat.com

حذر دائم وخشية دائمة ويقظة لا تغفل عن المحاسبة. ولـكن القرآن يستطرد فى إحكام الرقابة. فإذا الإنسان يعيش ويتحرك وينام ويأكل ويشرب ويتحدث ويصمت ويقطع الرحلة كلها بين ملـكين موكلين به، عن اليمين وعن الشمال، يتلقيان منه كل كلمة وكل حركة ويسجلانها فور وقوعها:

« إذ يتلق المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد. مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ».

أى رقيب حاضر. لا كما يتبادر إلى الأذهان أن اسمى الملـكين رقيب، وعتيد!

ونحن لاندرى كيف يسجلان. ولاداعى للتخيلات التى لاتقوم على أساس. فموقفنا بإزاء هذه الغيبيات أن نتلقاها كما هى، ونؤمن بمدلولها دون البحث فى كيفيتها، التى لاتفيدنامعرفتها فى شيء. فضلا على أنها غير داخلة فى حدود تجاربنا ولاممارفنا البشرية.

ولقد عرفنا نحن - فى حدود علمنا البشرى الظاهر - وسائل للتسجيل لم تـكن تخطر لأجدادنا على بال. وهى تسجل الحركة والنبرة كالأشرطة الناطقة وأشرطة السينما وأشرطة التليفزيون. وهذا كله فى محيطنا نحن البشر. فلا داعى من باب أولى أن نقيد الملائـكة بطريقة تسجيل معينة مستمدة من تصوراتنا البشرية المحدودة، البعيدة نهائيا عن ذلك العالم المجهول لنا، والذى لانعرف عنه إلاما يخبرنا به الله. بلازيادة!

وحسبنا أن نعيش فى ظلال هذه الحقيقةالمصورة، وأن نستشعر ونحن نهم بأيةحركة وبأية كلة أن عن يميننا وعن شمالنا من يسجل علينا الـكلمة والحركة؛ لتكون فى سجل حسابنا، بين يدى الله الذى لايضيع عنده فتيل ولاقطمير.

حسبنا أن نعيش فى ظل هذه الحقيقة الرهيبة. وهى حقيقة. ولولم ندرك نحن كيفيتها. وهى كائنة فى صورة مامن الصور، ولامفر من وجودها، وقد أنبأنا الله بها لنحسب حسابها. لاننفق الجهد عبثا فى معرفة كيفيتها!

والذين انتفعوا بهذا القرآن، وبتوجيهات رسول الله- صلى الله عليه وسلم- الخاصة بحقائق القرآن، كان هذا سبيلهم: أن يشعروا، وأن يعملوا وفق ماشعروا..

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا محمد ابن عمرو ابن علقمة الليثى عن أبيه عن جده علقمة، عن بلال ابن الحارث المزنى - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: « إن الرجل ليتكلم بالـكلمة من رضوان الله تعالى، مايظن أن تبلغ مابلغت،

Marfat.com

يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه . وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى مايظن أن تبلغ مابلغت ، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه » . قال : فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال ابن الحارث . (ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث محمد ابن عمرو به وقال الترمذى : حسن صحيح)

وحكى عن الإمام أحمد أنه كان فى سكرات الموت يئن . فسمع أن الأنين يكتب . فسكت حتى فاضت روحه رضوان الله عليه .

وهكذا كان أولئك الرجال يتلقون هذه الحقيقة فيعيشون بها فى يقين .

* * *

تلك صفحة الحياة ، ووراءها فى كتاب الإنسان صفحة الاحتضار :

« وجاءت سكرة الموت بالحق . ذلك ما كنت منه تحيد » ..

والموت أشد مايحاول المخلوق البشرى أن يروغ منه ، أويبعد شبحه عن خاطره . ولكن أنى له ذلك : والموت طالب لايمل الطلب ، ولايبطىء الخطى ، ولايخلف الميعاد ؟ وذكر سكرة الموت كفيل برجفة تدب فى الأوصال ! وبينما المشهد معروض يسمع الإنسان : « ذلك ما كنت منه تحيد » . وإنه ليرجف لصداها وهو بعد فى عالم الحياة ! فكيف به حين تقال له وهو يعانى السكرات ! وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : « سبحان الله . إن للموت لسكرات » .. يقولها وهو قد اختار الرفيق الأعلى واشتاق إلى لقاء الله . فكيف بمن عداه ؟

ويلفت النظر فى التعبير ذكر كلمة الحق : « وجاءت سكرة الموت بالحق » . . وهى توحى بأن النفس البشرية ترى الحق كاملا وهى فى سكرات الموت . تراه بلا حجاب ، وتدرك منه ماكانت تجهل وماكانت تجحد ، ولكن بعد فوات الأوان ، حين لا تنفع رؤية ، ولا يجدى إدراك ، ولا تقبل توبة ، ولا يحسب إيمان . وذلك الحق هو الذى كذبوا به فانتهوا إلى الأمر المريج ! . وحين يدركونه ويصدقون به لا يجدى شيئا ولا يفيد !

* * *

ومن سكرة الموت ، إلى وهلة الحشر ، وهول الحساب :

Marfat.com

Marfat.com

« ونفخ فى الصور . ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك ، فبصرك اليوم حديد . وقال قرينه : هذا مالدى عتيد. ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . الذى جعل مع الله إلها آخر فألقياه فى العذاب الشديد . قال قرينه : ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد . قال : لا تختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد . ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد » . .

وهو مشهد يكفى استحضاره فى النفس لتقضى رحلتها كلها على الأرض فى توجس وحذر وارتقاب . وقد قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « كيف أنعم . وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته ، وانتظر أن يؤذن له ؟ » قالوا : يارسول الله ، كيف نقول ؟ قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » . فقال القوم : حسبنا الله ونعم الوكيل (١) . .

« وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » . . جاءت كل نفس . فالنفس هنا هى التى تحاسب ، وهى التى تتلقى الجزاء . ومعها سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها . قد يكونان هما الكاتبان الحافظان لها فى الدنيا . وقد يكونان غيرهما . والأول أرجح . وهو مشهد أشبه شىء بالسوق للمحاكمة . ولكن بين يدى الجبار .

وفى هذا الموقف العصيب يقال له : « لقد كنت فى غفلة من هذا . فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » . . قوى لا يحجبه حجاب ، وهذا هو الموعد الذى غفلت عنه ، وهذا هو الموقف الذى لم تحسب حسابه ، وهذه هى النهاية التى كنت لا تتوقعها . فالآن فانظر . فبصرك اليوم حديد !

هنا يتقدم قرينه . والأرجح أنه الشهيد الذى يحمل سجل حياته : «وقال قرينه هذا مالدى عتيد » . . حاضر مهيأ معد . لا يحتاج إلى تهيئة أو إعداد !

ولا يذكر السياق شيئا عن مراجعة هذا السجل تعجيلا بتوقيع الحكم وتنفيذه. إنما يذكر مباشرة النطق العلوى الكريم ، للملكين الحافظين : السائق والشهيد : « ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب. الذى جعل مع الله إلها آخر فألقياه فى العذاب الشديد» . .

---

(١) رواه الترمذى.

وذكر هذه النعوت يزيد فى حرج الموقف وشدته . فهو دلالة غضب الجبار القهار فى الموقف العصيب الرهيب ؛ وهى نعوت قبيحة مستحقة لتشديد العقوبة : كفار . عنيد . مناع للخير . معتد . مريب . الذى جعل مع الله إلها آخر . وتنتهى بتوكيد الأمر الذى لا يحتاج إلى توكيد : « فألقياه فى العذاب الشديد » بيانا لمكانه من جهنم التى بدأ الأمر بإلقائه فيها .

عندئذ يفزع قرينه ويرتجف ، ويبادر إلى إبعاد ظل التهمة عن نفسه . بما أنه كان مصاحبا له وقرينا : « قال قرينه : ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد » . . وربما كان القرين هنا غير القرين الأول الذى قدم السجلات . ربما كان هو الشيطان الموكل به ليغويه . وهو يتبرأ من إطغائه؛ ويقرر أنه وجده ضالا من عند نفسه ، فاستمع لغوايته ! وفى القرآن مشاهد مشابهة يتبرأ فيها القرين الشيطانى من القرين الإنسانى على هذا النحو . على أن الفرض الأول غير مستبعد . فقد يكون القرين هو الملك صاحب السجل . ولكن هول الموقف يجعله يبادر إلى التبرؤ ـ وهو برىء ـ ليبين أنه مع صحبته لهذا الشقى ـ فإنه لم تكن له يد فى أى مما كان منه . وتبرؤ البرىء أدل على الهول المزلزل والكرب المخيف .

هنا يجىء القول الفصل ، فينهى كل قول : « قال : لا تختصموا لدىّ وقد قدمت إليكم بالوعيد ـ ما يبدل القول لدىّ وما أنا بظلاّم للعبيد » . . فالمقام ليس مقام اختصام . وقد سبق الوعيد محددا جزاء كل عمل . وكل شىء مسجل لا يبدل . ولا يجزى أحد إلا بما هو مسجل . ولا يظلم أحد ، فالمجازى هو الحكم العدل .

بهذا ينتهى مشهد الحساب الرهيب بهوله وشدته؛ ولكن المشهد كله لا ينتهى . بل يكشف السياق عن جانب منه مخيف :

« يوم نقول لجهنم : هل امتلأت : وتقول : هل من مزيد ؟ » .

إن المشهد كله مشهد حوار . فتعرض جهنم فيه فى معرض الحوار وبهذا السؤال والجواب يتجلى مشهد عجيب رهيب . . هـذا هو كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . . . هؤلاء هم كثرة تقذف فى جهنم تباعا ، وتتكدس ركاما . ثم تنادى جهنم : « هل امتلأت ؟ » وا كتفيت ! ولكنها تتلمظ وتتحرق ، وتقول فى كظة الأكول النهم : «هل من مزيد ؟!» . . فياللهول الرعيب !

وعلى الضفة الأخرى من هذا الهول مشهد آخر وديع أليف ، رضىّ جميل . إنه مشهد الجنة ، تقرب من المتقين ، حتى تتراءى لهم من قريب ، مع الترحيب والتكريم :

Marfat.com

Marfat.com

« وأزلفت الجنة للمتقين غير بعد . هذا ماتوعدون لكل أواب حفيظ . من خشى الرحمان بالغيب وجاء بقلب منيب . ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود . لهم مايشاءون فيها ولدينا مزيد ».

والتكريم فى كل كلمة وفى كل حركة . فالجنة تقرب وتزلف ، فلا يكلفون مشقة السير إليها ، بل هى التى تجىء : « غير بعيد » ! ونعيم الرضى يتلقاهم مع الجنة : « هذا ماتوعدون لكل أواب حفيظ . من خشى الرحمان بالغيب وجاء بقلب منيب » .. فيوصفون هذه الصفة من الملأ الأعلى ، ويعلمون أنهم فى ميزان الله أوابون ، حفيظون ، يخشون الرحمان ولم يشهدوه ، منيبون إلى ربهم طائعون.

ثم يؤذن لهم بالدخول بسلام لغير ماخروج : « ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود » ..

ثم يؤذن فى الملأ الأعلى ، تنويها بشأن القوم ، وإعلانا عالهم عند ربهم من نصيب غير محدود : « لهم مايشاءون فيها ، ولدينا مزيد » .. فمهما اقترحوا فهم لايبلغون ماأعد لهم . فالمزيد من ربهم غير محدود . .

* * *

ثم يجىء المقطع الأخير فى السورة ، كأنه الإيقاع الأخير فى اللحن ، يعيد أقوى نغماته فى لمس سريع . فيه لمسة التاريخ ومصارع الغابرين . وفيه لمسة الكون المفتوح وكتابه المبين . وفيه لمسة البعث والحشر فى مشهد جديد . ومع هذه اللمسات التوجيه الموحى العميق للمشاعر والقلوب :

« وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا ، فنقبوا فى البلاد هل من محيص ؟ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . ولقد خلقنا السماوات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ومامسنا من لغوب . فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود . واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب . يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج . إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير . يوم تشقق الأرض عنهم سراعا . ذلك حشر علينا يسير . نحن أعلم بما يقولون ، وماأنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ..

* * *

ومع أن هذه اللمسات كلها قد سبقت فى سياق السورة ، إلا أنها حين تعرض فى الختام تعرض جديدة الإيقاع جديدة الوقع . بهذا التركز وبهذه السرعة . ويكون لها فى الحس مذاق

آخر غير مذاقها وهى مبسوطة مفصلة من قبل فى السورة . وهذه هى خصيصة القرآن العجيبة!

قال من قبل : « كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع . كل كذب الرسل فحق وعيد » ..

وقال هنا : « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا ، فنقبوا فى البلاد . هل من محيص » ؟

الحقيقة التى يشير إليها هى هى . ولكنها فى صورتها الجديدة غيرها فى صورتها الأولى . ثم يضيف إليها حركة القرون وهى تتقلب فى البلاد ، وتنقب عن أسباب الحياة ،وهى مأخوذة فى القبضة التى لا يفلت منها أحد ، ولا مفر منها ولا فكاك : « فهل من محص » ؟ . .

وعقب عليها بما يزيدها جدة وحيوية :

« إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد » . .

وفى مصارع الغابرين ذكرى . ذكرى لمن كان له قلب . فمن لا تذكره هذه اللمسة فهو الذى مات قلبه أو لم يرزق قلبا على الإطلاق ! لا بل إنه ليكفى للذكرى والاعتبار أن يكون هناك سمع يلقى إلى القصة بإنصات ووعى ، فتفعل القصة فعلها فى النفوس .. وإنه للحق . فالنفس البشرية شديدة الحساسية بمصارع الغابرين ، وأقل يقظة فيها وأقل تفتح كافيان لاستجاشة الذكريات والتصورات الموحية فى مثل هذه المواقف المؤثرة المثيرة .

وعرض من قبل صفحات من كتاب الكون : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » . . .

وقال هنا : « ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ومامسنا من لغوب » ..

فأضاف هذه الحقيقة الجديدة إلى جانب اللمسة الأولى . حقيقة : « وما مسنا من لغوب » . . وهى توحى بيسر الخلق والإنشاء فى هذا الخلق الهائل . فكيف بإحياء الموتى وهو بالقياس إلى السماوات والأرض أمر هين صغير ؟

وعقب عليها كذلك بإيحاء جديد وظل جديد :

« فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود » ..

Marfat.com

وطلوع الشمس وغروبها ومشهد الليل الذى يعقب الغروب.. كلها ظواهر مرتبطة بالسماوات والأرض. وهو يربط إليها التسبيح والحمد والسجود. ويتحدث فى ظلالها عن الصبر على مايقولون من إنكار للبعث وجحود بقدرة الله على الإحياء والإعادة . فإذا جو جديد يحيط بتلك اللمسة المكررة . جو الصبر والحمد والتسبيح والسجود . موصولا كل ذلك بصفحة الكون وظواهر الوجود ، تثور فى الحس كلما نظر إلى السماوات والأرض ؛ وكلما رأى مطلع الشمس ، أومقدم الليل ؛ وكلما سجد لله فى شروق أوغروب ...

ثم . . لمسة جديدة ترتبط كذلك بالصفحة الكونية المعروضة . . اصبر وسبح واسجد . وأنت فى حالة انتظار وتوقع للأمر الهائل الجلل ، المتوقع فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار. لايغفل عنه إلا الغافلون . الأمر الذى تدور عليه السورة كلها ، وهو موضوعها الأصيل :

« واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب . يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج. إنانحن نحيي ونميت وإلينا المصير . يوم تشقق الأرض عنهم سراعا . ذلك حشر علينا يسير » ..

وإنه لمشهد جديد مثير ، لذلك اليوم العسير. ولقد عبر عنه أول مرة فى صورة أخرى ومشهد آخر فى قوله : « ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ..» الخ

فأما هنا فعبر عن النفخة بالصيحة. وصور مشهد الخروج . ومشهد تشقق الأرض عنهم .هذه الخلائق التى غبرت فى تاريخ الحياة كلها إلى نهاية الرحلة . تشقق القبور التى لا تحصى . والتى تعاقب فيها الموتى . كما يقول المعرى :

رب قبر قد صار قبرا مرارا ضاحك من تزاحم الأضداد

ودفين على بقايا دفين فى طويل الآجال والآماد

كلها تشقق ، وتكشف عن أجساد ورفات وعظام وذرات تائهة أوحائلة فى مسارب الأرض ، لايعرف مقرها إلا الله .. وإنه لمشهد عجيب لا يأتى عليه الخيال !

وفى ظلال هذا المشهد الثائر المثير يقرر الحقيقة التى فيها يجادلون وبها يجحدون : « إنانحن نحيي ونميت وإلينا المصير » .. « ذلك حشر علينا يسير » .. فى أنسب وقت للتقرير . .

وفى ظلال هذا المشهد كذلك يتوجه بالتثبيت للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تجاه جدلهم وتكذيبهم فى هذه الحقيقة الواضحة المشهودة بعين الضمير :

Marfat.com

« نحن أعلم بما يقولون . وما أنت عليهم بجبار . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ..

« نحن أعلم بما يقولون » .. وهذا حسبك . فللعلم عواقبة عليهم .. وهو تهديد مخيف ملفوف .

« وماأنت عليهم بجبار » .. فترغمهم على الإيمان والتصديق . فالأمر فى هذا ليس إليك. إنما هو لنا نحن ، ونحن عليهم رقباء وبهم موكلون ..

« فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .. والقرآن يهز القلوب ويزلزلها فلايثبت له قلب يعى ويخاف مايواجهه به من حقائق ترجف لها القلوب . على ذلك النحو العجيب .

وحين تعرض مثل هذه السورة ، فإنها لاتحتاج إلى جبار يلوى الأعناق على الإيمان . ففيها من القوة والسلطان مالايملكه الجبارون . وفيها من الإيقاعات على القلب البشرى ماهو أشد من سياط الجبارين !

وصدق الله العظيم ..

انتهى الجزء السادس والعشرون ويليه الجزء السابع والعشرون مبدوءا بسورة الذاريات (١)

---

(١) سورة الذاريات مشتركة بين الجزئين . وقد آثرنا عرضها بكاملها – بعون الله – فى الجزء السابع والعشرين

Marfat.com

في ظلال القرآن

الجزء السابع والعشرون

بقلم

سيد قطب

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة الذاريات والطور والنجم والقمر والرحمن والواقعة والحديد

Marfat.com

سورة الذاريات مكية

وآياتها ٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۞ فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً * فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً * إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ .

« وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ .

« قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ : أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ؟ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ، هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ .

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ .

« وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَمَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ .

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ؟ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا : سَلَاماً قَالَ : سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ، قَالَ : أَلَا تَأْكُلُونَ ؟ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا : لَا تَخَفْ ، وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ *

Marfat.com

فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ : عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا : كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ، إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * قَالَ : فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ؟ (٣١) قَالُوا : إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ .

« فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ .

« وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ : سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ .

« وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ .

« وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ : تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ .

« وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ .

« وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ، وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ * وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ، إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ، إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ .

« كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا : سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ * وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ .

« وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ .

Marfat.com

« فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ » ⑥٠

هذه السورة ذات جو خاص . فهى تبدأ بذكر قوى أربعة .. من أمر الله .. فى لفظمهم الدلالة ، يوقع فى الحس لأول وهلة أنه أمام أمور ذات سر . يقسم الله - تعالى - على أمر : « والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمرا . إن ماتوعدون لصادق . وإن الدين لواقع » . .

والذاريات . والحاملات . والجاريات . والمقسمات .. مدلولاتها ليست متعارفة ، وهى غامضة تحتاج إلى السؤال والاستفسار ، كما أنها بذاتها تلقى فى الحس ذلك الظل . ولعله هو المقصود الأول منها فى جو هذه السورة .

ومايكاد القسم الأول ينتهى حتى يعقبه قسم آخر بالسماء : « والسماء ذات الحبك » .. يقسم بها الله تعالى . على أمر : « إنكم لفى قول مختلف » . . لا استقرار له ولاتناسق فيه ، قائم على التخرصات والظنون ، لاعلى العلم واليقين . .

هذه السورة : بافتتاحها على هذا النحو ، ثم بسياقها كله ، تستهدف أمرا واضحا فى سياقها كله .. ربط القلب البشرى بالسماء ؛ وتعليقه بغيب الله المكنون ؛ وتخليصه من أوهاق الأرض ، وإطلاقه من كل عائق يحول بينه وبين التجرد لعبادة الله ، والانطلاق إليه جملة ، والفرار إليه كلية ، استجابة لقوله فى السورة : « ففروا إلى الله » .. وتحقيقا لإرادته فى عباده: « وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ..

ولما كان الانشغال بالرزق وما يخبئه القدر عنه هو أكثف تلك العوائق وأشدها فقد عنى فى هذه السورة بإطلاق الحس من إساره ، وتطمين النفس من جهته ، وتعليق القلب بالسماء فى شأنه ، لابالأرض وأسبابها القريبة . وتكررت الإشارة إلى هذا الأمر فى السورة فى مواضع متفرقة منها . إما مباشرة كقوله : « وفى السماء رزقكم وما توعدون » . . « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . . وإما تعريضا كقوله يصور حال عباده المتقين مع المال : « وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » . . ووصفه لجود إبراهيم وسخائه وهو يقرى ضيوفه

Marfat.com

Marfat.com

القلائل - أومن حسبهم ضيوفه من الملائكة - بعجل سمين ، يسارع به إليهم عقب وفودهم إليه، وبمجرد إلقاء السلام عليه ، وهو لم يعرفهم إلا منذ لحظة !

فتخليص القلب من أوهاق الأرض ، وإطلاقه من إسار الرزق ، وتعليقه بالسماء ، ترف أشواقه حولها ، ويتطلع إلى خالقها فى علاه ، بلا عائق يحول بينه وبين الانطلاق ، ويعوقه عن الفرار إلى الله . هو محور السورة بكل موضوعاتها وقضاياها التى تطرقها . ومن ثم كان هذا الافتتاح ، وكان ذلك الإيقاع الغامض فى أولها ، وكان القسم بعده بالسماء ، وكان تكرار الإشارة إلى السماء أيضا ..

وفى هذا كانت صورة المتقين التى يرسمها فى مطلع السورة: « إن المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين. كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » .. فهى صورة التطلع إلى الله ، والتجرد له ، والقيام فى عبادته بالليل، والتوجه إليه فى الأسحار . مع إرخاص المال ، والتخلص من ضغطه ، وجعل نصيب السائل والمحروم حقا فيه .

وفى هذا كان التوجيه إلى آيات الله فى الأرض وفى الأنفس مع تعليق القلوب بالسماء فى شأن الرزق ، لا بالأرض وما فيها من أسبابه القريبة : « وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون . وفى السماء رزقكم وما توعدون » ..

وفى هذا كانت الإشارة إلى بناء الله للسماء على سعة ، وتمهيده للأرض فى يسر ، وخلقه ما فيها من أزواج، والتعقيب على هذا كله بالفرار إلى الله: « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون. والأرض فرشناها فنعم الماهدون . ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين » ..

وفى هذا كان الإيقاع الأخير البارز فى السورة ، عن إرادة الله سبحانه فى خلق الجن والإنس ، ووظيفتها الرئيسية الأولى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » ..

فهو إيقاع واحد مطرد . ذو نغمات متعددة ولكنها كلها تؤلف ذلك الإيقاع ، وتطلق ذلك الحداء . الحداء بالقلب البشرى إلى السماء !

وقد وردت إشارات سريعة إلى حلقة من قصة إبراهيم ولوط ، وقصة موسى ، وقصة عاد ،

وقصة ثمود ، وقصة قوم نوح . وفى الإشارة إلى قصة إبراهيم تلك اللمحة عن المآل ؛ كما أن فيها لمحة عن الغيب المكنون فى تبشيره بغلام عليم ، ورزقه هو وامرأته به على غير ماتوقع ولاانتظار . وفى بقية القصص إشارة إلى تصديق وعد الله الذى أقسم عليه فى أول السورة : « إن ماتوعدون لصادق » . والذى أشار إليه فى ختامها إنذارا للمشركين: « فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلايستعجلون » .. بعد ما ذكر أن أجيال المكذبين كأنما تواصت على التكذيب : « كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول إلاقالوا: ساحر أومجنون. أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون ! » ..

فالقصص فى السورة — على هذا النحو — مرتبط بموضوعها الأصيل . وهو تجريد القلب لعبادة الله ، وتخليصه من جميع العوائق ، ووصله بالسماء. بالإيمان أولا واليقين . ثم برفع الحواجز والشواغل دون الرفرفة والانطلاق إلى ذلك الأفق الكريم .

* * *

« والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمرا .. إن ماتوعدون لصادق ، وإن الدين لواقع » ..

هذه الإيقاعات القصيرة السريعة ، بتلك العبارات الغامضة الدلالة ، تلقى فى الحس — كما تقدم — إيحاء خاصا ، وتلقى ظلا معينا ، يعلق القلب بأمر ذى بال، وشأن يستحق الانتباه. وقد احتاج غير واحد فى العهد الأول أن يستفسر عن مدلول الذاريات ، والحاملات ، والجاريات، والمقسمات . .

قال ابن كثير فى التفسير : قال شعبة ابن الحجاج ، عن سماك ابن خالد ابن عرعرة، أنه سمع عليا — رضى الله عنه — وشعبة أيضا عن القاسم ابن أبى بزة ، عن أبى الطفيل ، أنه سمع عليا — رضى الله عنه — وثبت أيضا من غير وجه عن أمير المؤمنين على ابن أبى طالب — رضى الله عنه — أنه صعد منبر الكوفة فقال : لاتسألونى عن آية فى كتاب الله تعالى ولا عن سنة عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلا أنبأتكم بذلك. فقام ابن الكواء ، فقال: ياأمير المؤمنين، مامعنى قوله تعالى : « والذاريات ذروا »؟قال على — رضى الله عنه:الريح . قال : « فالحاملات وقرا » ؟ قال — رضى الله عنه — : السحاب . قال : « فالجاريات يسرا » ؟ قال — رضى الله عنه — : السفن . قال : « فالمقسمات أمرا » ؟ قال — رضى الله عنه — : الملائكة .

Marfat.com

وجاء صبيغ ابن عسل التميمى إلى عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - فسأله عنها فأجابه بمثل ماروى عن على ابن أبى طالب - كرم الله وجهه - وقد أحس عمر - رضى الله عنه - أنه يسأل عنها تعنتا وعنادا فعاقبه ومنعه من مجالسة الناس حتى تاب وحلف بالأيمان المغلظة : مايجد فى نفسه مما كان يجد شيئا .. وهذه الرواية تشى كذلك بأن غموض مدلولات هذه التعبيرات هو الذى جعل المتعنتين يستترون وراءها ويسألون عنها !

وهكذا فسرها ابن عباس وابن عمر - رضى الله عنهم - ومجاهد وسعيد ابن جبير والحسن وقتادة والسدى وغير واحد ؛ ولم يحك ابن جرير وابن أبى حاتم غير ذلك (كما قال ابن كثير).

أقسم الله - سبحانه - بالرياح التى تذرو ماتذروه من غبار وحبوب لقاح وسحب وغيرها مما يعلم الإنسان ومايجهل . وبالسحاب الحاملات وقرا من الماء يسوقها الله به إلى حيث يشاء . وبالسفن الجاريات فى يسر على سطح الماء بقدرته وبما أودع الماء وأودع السفن وأودع الكون كله من خصائص تسمح بهذا الجريان اليسير . ثم بالملائكة المقسمات أمرا ، تحمل أوامر الله وتوزعها وفق مشيئته ، فتفصل فى الشؤون المختصة بها ، وتقسم الأمور فى الكون بحسبها .

والريح والسحاب والسفن والملائكة خلق من خلق الله ، يتخذها أداة لقدرته ؛ وستارا لمشيئته ، ويتحقق عن طريقها قدر الله فى كونه وفى عباده وهو يقسم بها - سبحانه - للتعظيم من شأنها ، وتوجيه القلوب إليها ، لتدبر ماوراءها من دلالة ؛ ولرؤية يد الله وهى تنشئها وتصرفها وتحقق بها قدر الله المرسوم . وذكرها على هذه الصورة بصفة خاصة يوجه القلب إلى أسرارها المكنونة ؛ ويعلقه بمبدع هذه الخلائق من وراء ذكرها هذا الذكر الموحى .

ثم لعل لها كذلك صلة من ناحية أخرى بموضوع الرزق ، الذى يعنى سياق هذه السورة بتحرير القلب من أوهاقه ، وإعفائه من أثقاله . فالرياح والسحب والسفن ظاهرة الصلة بالرزق ووسائله وأسبابه . أما الملائكة وتقسيمها للأمر ، فإن الرزق أحد هذه القسم . ومن ثم تتضح الصلة بين هذا الافتتاح وموضوع بارز تعالجه السورة فى مواضع شتى .

يقسم الله - سبحانه - بهذه الخلائق الأربع على : « إن ماتوعدون لصادق . وإن الدين لواقع » .. وقد وعد الله الناس : أنه مجازيهم بالإحسان إحسانا ، ومجازيهم بالسوء سوءا . وأنه إذا أمهلهم الحساب فى الأرض ، فليس بمهملهم حسابهم فى الآخرة فالحساب لابد منه هناك ! وإن الدين لواقع » .. فالوعد صادق حتما إماهنا وإماهناك . ومما وعدهم كذلك الرزق

Marfat.com

Marfat.com

وكفالته لهم مبسوطا أومقدرا ـ وفق مشيئته ـ ووعده حق فى هذا كما هو حق فى كل شأن .

ولا بد أن يتحقق ما وعد الله به الناس فى الصورة التى يريدها ،وفى الوقت الذى يريده، وما يحتاج الأمر إلى قسم منه ـ سبحانه ـ إنما يقسم بخلائقه تلك لتوجيه القلب إليها ـ كما تقدم ـ وتدبر ما وراءها من إبداع وقدرة وتدبير يوحى للقلب بأن وعد الله ـ بارىء هذه الخلائق بهذا النظام وهذا التقدير ـ لابد صادق ؛ وأن حسابه على الخير والشر والصلاح والفساد لابد واقع . فإن طبيعة هذه الخلائق توحى بأن الأمر ليس عبثا ولامصادفة ولاجزافا .. وهكذا تصبح تلك الخلائق آيات وبراهين ذات دلالة إيحائية قوية بفضل هذا القسم الذى يلفت القلب إليها لفتا ، ويوجه الحس إليها توجيها . فهى طريقة من طرق الإيحاء والتربية، ومخاطبة الفطرة بلغة الكون خطابا مباشرا !

* * *

والقسم الثانى كذلك ..

« والسماء ذات الحبك ، إنكم لفى قول مختلف ، يؤفك عنه من أفك » . .

يقسم بالسماء المنسقة المحكمة التركيب . كتنسيق الزرد المتشابك المتداخل الحلقات . . وقد تكون هذه إحدى هيئات السحب فى السماء حين تكون موشاة كالزرد مجعدة تجعد الماء والرمل إذا ضربته الريح . وقد يكون هذا وضعا دائما لتركيب الأفلاك ومداراتها المتشابكة المتناسقة .

يقسم بالسماء المنسقة المحبوكة على أنهم فى قول مختلف ، مضطرب لا قوام له ولا قرار ، ولا ثبات له ولا استقرار ،يصرف عنه من صرف ويبقى عليه من بقى ، فلا استقرار عليه ولا توافق ولا ثبات . بل الحيرة دائمة والقلق لايزال . وكذلك الباطل دائما أرض مرجرجة مهتزة ؛ وتيه لامعالم فيه ولا نور ؛ وهو يتأرجح ولا يفىء إلى أصل ثابت ، ولا ميزان دقيق . ولا يجتمع عليه أهله إلا لينصرفوا ويتفرقوا بعد حين ؛ ويدب الخلاف بينهم والشقاق . .

ويتضح اضطرابهم واختلافهم وماهم فيه من الأمرالمريج : حين يعرض فى ظل السماء ذات الحبك المنسقة التركيب :

ثم يستطرد فيقرر أنهم يعيشون فى أوهام وظنون فى أمر الآخرة ، لايستندون فيها إلى حق أو يقين . فهم فى قول مختلف فى هذا الحق المبين . ثم يصور لهم ذلك اليوم فى مشهد حى تتملاه العيون :

Marfat.com

« قتل الخراصون . الذين هم فى غمرة ساهون . يسألون : أيان يوم الدين ؟ يوم هم على النار يفتنون . ذوقوا فتنتكم ، هذا الذى كنتم به تستعجلون » ..

والخرص : الظن والتقدير الجزاف الذى لايقوم على ميزان دقيق . والله ـ سبحانه ـ يدعو عليهم بالقتل. فياللهول ! ودعوة الله عليهم بالقتل قضاء بالقتل ! « قتل الخراصون » ويزيد أمرهم وضوحا : « الذين هم فى غمرة ساهون » فهم مغمورون بالأضاليل والأوهام لا يفيقون ولا يستيقظون. والتعبير يلقى ظلا خاصا ، يصور القوم مغمورين ساهين لا يشعرون بشىء مما حولهم ولا يتبينون . كأنهم سكارى مذهولون !

ذلك أنهم لايتبينون الأمر الواضح ، الذى يراه ويوقن به كل واع غير مذهول ؛ فهم « يسألون : أيان يوم الدين » ؟ يسألون هكذا ، لاطلبا للعلم والمعرفة ، ولكن استنكاراً وتكذيبا ، واستبعادا لمجيئه ، يعبر عنه لفظ « أيان » المقصود !

ومن ثم يعاجلهم بمشهدهم فى هذا اليوم الذى يستبعدونه ويستنكرونه ؛ وهم يحرقون بالنار كحرق المعدن لتميز حقيقته : « يوم هم على النار يفتنون » ! ومعه التبكيت المؤلم فى الموقف العصيب : « ذوقوا فتنتكم . هذا الذى كنتم به تستعجلون » ..

فهذه المعاجلة هى الجواب اللائق بهذا التساؤل . وهذا العنف فى المشهد هو المقابل للذهول والسهوة التى يعيش فيها الخراصون . وهو مصداق دعوة الله عليهم بالقتل فى أشد صوره وأعنفها : يوم هم على النار يفتنون !

* * *

وعلى الضفة الأخرى وفى الصفحة المقابلة يرتسم مشهد آخر ، لفريق آخر ، فريق مستيقن لايخرص ؛ تقى لايتبجح ؛ مستيقظ يعبد ويستغفر ، ولايقضى العمر فى غمرة وذهول:

« إن المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل مايهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » ..

فهذا الفريق . فريق المتقين . الأيقاظ . الشديدى الحساسية برقابة الله لهم ، ورقابتهم هم لأنفسهم . هؤلاء « فى جنات وعيون » .. « آخذين ما آتاهم ربهم » من فضله وإنعامه، جزاء ما أسلفوا فى الحياة الدنيا من عبادة لله كأنهم يرونه ، ويقين منهم بأنه يراهم : « إنهم كانوا قبل ذلك محسنين »

ويصور إحسانهم صورة خاشعة . رفافة حساسة :

« كانوا قليلا من الليل مايهجعون . وبالأسحارهم يستغفرون » ..

فهم الأيقاظ فى جنح الليل والناس نيام ، المتوجهون إلى ربهم بالاستغفار والاسترحام لايطعمون الكرى إلاقليلا ، ولايهجعون فى ليلهم إلايسيرا . يأنسون بربهم فى جوف الليل ، فتتجافى جنوبهم عن المضاجع ، ويخف بهم التطلع فلايثقلهم المنام !

قال الحسن البصرى : « كانوا قليلامن الليل مايهجعون » .. كابدوا قيام الليل،فلاينامون من الليل إلاأقله ، ونشطوا فمدوا إلى السحر ، حتى كان الاستغفار بسحر .

وقال قتادة : قال الأحنف ابن قيس : « كانوا قليلا من الليل مايهجعون » .. كانوا لاينامون إلا قليلا . ثم يقول : لست من أهل هذه الآية !

وقال الحسن البصرى: كان الأحنف ابن قيس يقول عرضت عملى على عمل أهل الجنة ، فإذا قوم قد باينونا بونا بعيدا ، إذ نحن قوم لانبلغ أعمالهم. كانوا قليلا من الليل مايهجعون. وعرضت عملى على عمل أهل النار ، فإذا قوم لاخير فيهم، مكذبون بكتاب الله وبرسل الله مكذبون بالبعث بعد الموت . فقد وجدت من خيرنا منزلة قوما خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا .

وقال عبد الرحمان ابن زيد ابن أسلم : قال رجل من بنى تميم لأبى : يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا . ذكر الله تعالى قوما فقال : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون » . ونحن والله قليلا من الليل مانقوم ! فقال له أبى ـ رضى الله عنه ـ : طوبى لمن رقد إذا نعس ، واتقى الله إذا استيقظ.

فهى حال يتطلع إليها رجال من التابعين ـ ذوى المكانة فى الإيمان واليقين ـ ويجدون أنفسهم دونها . اختص بها ناس ممن اختارهم الله ، ووفقهم إلى القيام بحقها . وكتبهم بها عنده من المحسنين .

وهذه حالهم مع ربهم ، فأما حالهم مع الناس ، وحالهم مع المال ، فهو مما يليق بالمحسنين :

« وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » ..

فهم يجعلون نصيب السائل الذى يسأل فيعطى ، ونصيب المحروم الذى يسكت ويستحي فيحرم . يجعلون نصيب هذا وهذا حقا مفروضا فى أموالهم . وهم متطوعون بفرض هذا الحق غير المحدود .

Marfat.com

Marfat.com

وهذه الإشارة تتناسق مع علاج السورة لموضوع الرزق والمال ، لتخليص القلب من أوهاق الشح وأثقال البخل وعوائق الانشغال بالرزق . وتمهد للمقطع التالي في السورة ، في الوقت الذى تكمل سمة المتقين وصورة المحسنين .

***

« وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟ وفى السماء رزقكم وماتوعدون. فورب السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون » . .

وهى لفتة إلى آيات الله فى الأرض وفى الأنفس ؛ وتوجيه إلى السماء فى شأن الرزق المكتوب والحظ المقدور . تختم بقسم عظيم . قسم الله ــ سبحانه ــ بذاته بوصفه : « رب السماء والأرض » اللتين ورد ذكرهما فى هذا المقطع . على أن هذا القول الذى جاءهم من عنده حق يقين . .

« وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ؟ . .

هذا الكوكب الذى نعيش عليه معرض هائل لآيات الله وعجائب صنعته . معرض لم نستجل منه حتى اللحظة إلا القليل من بدائعه . ونحن نكشف فى كل يوم جديدا منه ، ونطلع منه على جديد . . ومثل هذا المعرض معرض آخر مكنون فينا نحن . . النفس الإنسانية . . الخفية الأسرار، التى تنطوى فيها أسرار هذا الوجود كله ، لا أسرار الكوكب الأرضى وحده !

وإلى هذين المعرضين الهائلين تشير الآيتان تلك الإشارة المختصرة ، التى تفتح هذين المعرضين على مصاريعها لمن يريد أن يبصر ، ولمن يريد أن يستيقن ، ولمن يريد أن يملأ حياته حتى تفيض بالمتعة والمسرة ، وبالعبرة الحية ، وبالرصيد القيم من المعرفة الحقة ، التى ترفع القلوب وتضاعف الأعمار !

والنصوص القرآنية معدة للعمل فى جميع الأوساط والبيئات والظروف والأحوال . قادرة على إعطاء رصيد معين لكل نفس ولكل عقل ولكل إدراك . كل بقدر مايتقبل منها ومايطيق. وكلما ارتقى الإنسان فى المعرفة ، واتسعت مداركه ، وزادت معلوماته ، وكثرت تجاربه ، واطلع على أسرار الكون وأسرار النفس . . ارتقى نصيبه ، وتضخم رصيده، وتنوع زاده الذى يتلقاه من نصوص القرآن . . هذا الكتاب الذى « لاتنفد عجائبه ، ولايخلق على كثرة الرد » كما يقول عنه النبى الذى تلقاه واستوعب أسراره ، وعاش بها . يقول: عن تجربة حية وجدها فى نفسه فعبر عنها ذلك التعبير ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ

ولقد وجد الذين سمعوا هذا القرآن أول مرة من آيات الله فى الأرض وآياته فى النفس ، نصيبهم ، وتسلموا رصيدهم ، وفق معارفهم وتجاربهم وإشراقات نفوسهم . ووجد كذلك كل جيل أتى بعدهم نصيبا يناسب ماتفتح له من أنواع العلوم والمعارف والتجارب. ونجد نحن نصيبنا وفق مااتسع لنا من رقعة العلم والمعرفة والتجريب ، وماتكشف لنا من أسرار لاتنفد فى هذا الكون الكبير . وستجد الأجيال بعدنا نصيبها مدخرا لها من الآيات التى لم تكشف لنا بعد فى الأرض والنفس . ويبقى هذان المعرضان الإلهيان الهائلان حافلين بكل عجيب وجديد إلى آخر الزمان .

هذه الأرض . هذا الكوكب المعد للحياة ، المجهز لاستقبالها وحضانتها بكل خصائصه ، على نحو يكاد يكون فريدا فى المعروف لنا فى محيط هذا الكون الهائل ، الحافل بالنجوم الثوابت والكواكب السيارة . التى يبلغ عدد المعروف منها فقط ـ والمعروف نسبة لاتكاد تذكر فى حقيقة الكون ـ مئات الملايين من المجرات التى تحوى الواحدة منها مئات الملايين من النجوم . والكواكب هى توابع هذه النجوم !

ومع هذه الأعداد التى لاتحصى فإن الأرض تكاد تنفرد باستعدادها لاستقبال هذا النوع من الحياة وحضانته. ولو اختلت خصيصة واحدة من خصائص الأرض الكثيرة جدا لتعذر وجود هذا النوع من الحياة عليها . . لو تغير حجمها صغرا أو كبرا . لو تغير وضعها من الشمس قربا أو بعدا . لو تغير حجم الشمس ودرجة حرارتها . لو تغير ميل الأرض على محورها هنا أوهنا. لو تغيرت حركتها حول نفسها أو حول الشمس سرعة أو بطأ . لو تغير حجم القمر ـ تابعها ـ أو بعده عنها . لو تغيرت نسبة الماء واليابس فيها زيادة أو نقصا . . . لو . لو . لو . . . إلى آلاف الموافقات المعروفة والمجهولة التى تتحكم فى صلاحيتها لاستقبال هذا النوع من الحياة وحضانته.

أليست هذه آية أو آيات معروضة فى هذا المعرض الإلهى ؟

ثم . هذه الأقوات المذخورة فى الأرض للأحياء التى تسكنها . تسكن سطحها ، أو تسبح فى أجوائها ، أو تمخر ماءها ، أو تختبىء فى مغاورها وكهوفها ، أو تختفى فى مساربها وأجوافها.. هذه الأقوات الجاهزة المركبة والبسيطة والقابلة للوجود فى شتى الأشكال والأنواع لتلبى حاجة هذه الأحياء التى لاتحصى ، ولا تحصى أنواع غذائها أيضا . . هذه الأقوات الكامنة فى جوفها ، والسارية فى مجاريها ، والسابحة فى هوائها ، والنابتة على سطحها ، والقادمة إليها من الشمس

Marfat.com

Marfat.com

ومن عوالم أخرى بعضها معروف وبعضها مجهول ، ولكنها تتدفق وفق تدبير المشيئة المدبرة التى خلقت هذا المحضن لهذا النوع من الحياة ، وجهزته بكل مايلزم للأنواع الكثيرة التى لا تحصى.

وتنوع مشاهد هذه الأرض ومناظرها ، حيثما امتد الطرف ، وحيثما تنقلت القدم .وعجائب هذه المشاهد التى لاتنفد : من وهاد وبطاح ، ووديان وجبال ؛ وبحار وبحيرات ، وأنهار وغدران . وقطع متجاورات،وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان .. وكل مشهد من هذه المشاهدتتناوله يد الإبداع والتغيير الدائبة التى لاتفتر عن الإبداع والتغيير . ويمر به الإنسان وهو ممحل فإذا هو مشهد ، ويمر به وهو ممرع فإذا هو مشهد آخر . ويراه وهو نبت خضر فإذا هومشهد ، ويراه إبان الحصاد حين يهيج ويصفر فإذا هو مشهد آخر . وهو هو لم ينتقل باعا ولا ذراعا فى المكان !

والخلائق التى تعمر هـذه الأرض من الأحياء . نباتا وحيوانا . وطيرا وسمكا ، وزواحف وحشرات .. بله الإنسان فالقرآن يفرده بنص خاص .. هـذه الخلائق التى لم يعرف عدد أنواعها وأجناسها بعد ـ فضلا على إحصاء أعدادها وأفرادها وهو مستحيل ـ وكل خليقة منها أمة اوكل فرد منها عجيبة . كل حيوان . كل طائر . كل زاحفة . كل حشرة . كل دودة . كل نبتة: لا بل كل جناح فى رقة ، وكل ورقة فى زهرة ، وكل قصبة فى ورقة ! فى ذلك المعرض الإلهى العجيب الذى لاتنقضى عجائبه .

ولومضى الإنسان ـ بل لومضى الأناسى جميعا ـ يتأملون هكذا ويشيرون مجرد إشارة إلى مافى الأرض من عجائب ، وإلى ماتشير إليه هذه العجائب من آيات ، ماانتهى لهم قول ولا إشارة . والنص القرآنى مايزيدعلى أن يوقظ القلب البشرى للتأمل والتدبر، واستجلاء العجائب فى هذا المعرض الهائل ، طوال الرحلة على هذا الكوكب ؛ والمتعة بما فى هذا الاستجلاء من مسرة طوال الرحلة .

غير أنه لايدرك هذه العجائب ، ولايستمتع بالرحلة هذا المتاع ، إلاالقلب العامر باليقين . « وفى الأرض آيات للموقنين » . فلمسة اليقين هى التى تحيي القلب فيرى ويدرك ؛ وتحيي مشاهد الأرض فتنطق للقلب بأسرارها المكنونة ، وتحدثه عما وراءها من تدبير وإبداع . وبدون هذه اللمسة تظل تلك المشاهد ميتة جامدة جوفاء ؛ لاتنطق للقلب بشىء؛ ولاتتجاوب

Marfat.com

معه بشيء . وكثيرون يمرون بالمعرض الإلهى المفتوح مغمضى العيون والقلوب . لايحسون فيه حياة ، ولايفقهون له لغة ؛ لأن لمسة اليقين لم تحى قلوبهم ، ولم تبث الحياة فيما حولهم! وقد يكون منهم علماء . « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا » . أما حقيقتها فتظل محجوبة عن قلوبهم ، فالقلوب لاتفتح لحقيقة الوجود إلا بمفتاح الإيمان ،ولاتراها إلا بنور اليقين..وصدق الله العظيم.

ثم العجيبة الأخرى التى تدب على هذه الأرض :

« وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون ؟ » ..

وهذا المخلوق الإنسانى هو العجيبة الكبرى فى هذه الأرض . ولكنه يغفل عن قيمته ، وعن أسراره الكامنة فى كيانه ، حين يغفل قلبه عن الإيمان وحين يحرم نعمة اليقين .

إنه عجيبة فى تكوينه الجسمانى : فى أسرار هذا الجسد . عجيبة فى تكوينه الروحى : فى أسرار هذه النفس . وهو عجيبة فى ظاهره وعجيبة فى باطنه . وهو يمثل عناصر هذا الكون وأسراره وخفاياه :

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وحيثما وقف الإنسان يتأمل عجائب نفسه التقى بأسرار تدهش وتحير . تكوين أعضائه وتوزيعها . وظائفها وطريقة أدائها لهذه الوظائف . عملية الهضم والامتصاص . عملية التنفس والاحتراق . دورة الدم فى القلب والعروق . الجهاز العصبى وتركيبه وإدارته للجسم . الغدد وإفرازها وعلاقتها بنمو الجسد ونشاطه وانتظامه . تناسق هذه الأجهزة كلها وتعاونها،وتجاوبها الكامل الدقيق . وكل عجيبة من هذه تنطوى تحتها عجائب .وفى كل عضو وكل جزء من عضو خارقة تحير الألباب .

وأسرار روحه وطاقاتها المعلومة والمجهولة .. إدراكه للمدركات وطريقة إدراكها وحفظها وتذكرها . هذه المعلومات والصور المختزنة . أين ؟ وكيف ؟ هذه الصور والرؤى والمشاهد كيف انطبعت ؟ وأين ؟ وكيف تُستدعى فتجىء .. وذلك فى الجانب المعلوم من هذه القوى . فأما المجهول منها فهو أكبر وأكثر . تظهر آثاره بين الحين والحين فى لمسات وإشراقات تدل على ماوراء الظاهر من المغيب المجهول .

ثم أسرار هذا الجنس فى توالده وتوارثه . خلية واحدة تحمل كل رصيد الجنس البشرى من الخصائص ؛ وتحمل معها خصائص الأبوين والأجداد القريبين. فأين تكمن هذه الخصائص

فى تلك الخلية الصغيرة ؟ وكيف تهتدى بذاتها إلى طريقها التاريخى الطويل ، فتمثله أدق تمثيل، وتنتهى إلى إعادة هذا الكائن الإنسانى العجيب ؟ !

وإن وقفة أمام اللحظة التى يبدأ فيها الجنين حياته على الأرض، وهو ينفصل عن أمه ويعتمد على نفسه ، ويؤذن لقلبه ورئتيه بالحركة لبدء الحياة . إن وقفة أمام هذه اللحظة وأمام هذه الحركة لتدهش العقول وتحير الألباب ، وتغمر النفس بفيض من الدهش وفيض من الإيمان ، لايقف له قلب ولا يتماسك له وجدان !

وإن وقفة أخرى أمام اللحظة التى يتحرك فيها لسان الوليد لينطق بهذه الحروف والمقاطع والكلمات ثم بالعبارات . بل أمام النطق ذاته. نطق هذا اللسان. وتصويت تلك الحنجرة. إنها عجيبة . عجيبة تفقد وقعها لأنها تمر بنا كثيرا . ولكن الوقوف أمامها لحظة فى تدبر يجدد وقعها . إنها خارقة . خارقة مذهلة تنبئ عن القدرة التى لا تكون إلا لله .

وكل جزئية فى حياة هذا المخلوق تقفنا أمام خارقة من الخوارق، لاينقضى منها العجب ؛ «وفى أنفسكم . أفلا تبصرون ؟ » ..

وكل فرد من هذا الجنس عالم وحده . ومرآة ينعكس من خلالها هذا الوجود كله فى صورة خاصة لاتتكرر أبدا على مدار الدهور . ولانظير له بين أبناء جنسه جميعا لافى شكله وملامحه، ولافى عقله ومداركه ، ولافى روحه ومشاعره . ولافى صورة الكون كما هى فى حسه وتصوره. ففى هذا المتحف الإلهى العجيب الذى يضم ملايين الملايين ، كل فرد نموذج خاص ، وطبعة فريدة لاتتكرر . يمر من خلالها الوجود كله فى صورة كذلك لاتتكرر . كما لاتوجد بصمة أصابع مماثلة لبصمة أصابع أخرى فى هذه الأرض فى جميع العصور !

وكثير من عجائب الجنس البشرى مكشوفة للبصر، تراه العيون: «وفى أنفسكم أفلا تبصرون؟» : وما تراه العيون من عجائبه يشير إلى المغيب المكنون .

وهذه العجائب لايحصرها كتاب . فالمعلوم المكشوف منها يحتاج تفصيله إلى مجلدات . والمجهول منها مايزال أكثر من المعلوم، والقرآن لايحصيها ولايحصرها. ولكنه يلمس القلب هذه اللمسة ليستيقظ لهذا المتحف الإلهى المعروض للأبصار والبصائر . وليقضى رحلته على هذا الكوكب فى ملاحظة وتدبر ، وفى متاع رفيع بتأمل هذا الخلق العجيب ، الكامن فى ذات نفسه وهو عنه غافل مشغول .

Marfat.com

وإنها للحظات ممتعة حقا تلك التى يقضيها الإنسان يتأمل وجوه الخلق وسماتهم وحركاتهم وعاداتهم ، بعين العابد السائح الذى يجول فى متحف من إبداع أحسن الخالقين . فكيف بمن يقضى عمره كله فى هذا المتاع الرفيع ؟

إن القرآن بمثل هذه اللمسة يخلق الإنسان خلقا جديدا ، بحس جديد ؛ ويمتعه بحياة جديدة، ويهبه متاعا لا نظير له فى كل مايتصوره فى الأرض من متاع .

وعلى هذا النحو الرفيع من التأمل والإدراك يريد القرآن الناس . والإيمان هو الذى يمنح القلب البشرى هذا الزاد ، وهو الذى يهيء له هذا المتاع العلوى . وهو بعد فى الأرض فى عالم الطين!

وبعد فقد كانت اللفتة الأولى إلى معرض الأرض ؛ وكانت اللفتة الثانية إلى معرض النفس . ثم تلتها فى السورة لفتة إلى معرض الغيب العلوى المطوى، حيث الرزق المقسوم والحظ المرسوم :

« وفى السماء رزقكم وما توعدون » ..

وهى لفتة عجيبة. فمع أن أسباب الرزق الظاهرة قائمة فى الأرض ، حيث يكد فيها الإنسان ويجهد ، وينتظر من ورائها الرزق والنصيب . فإن القرآن يرد بصر الإنسان ونفسه إلى السماء . إلى الغيب . إلى الله . ليتطلع هناك إلى الرزق المقسوم والحظ المرسوم . أما الأرض وما فيها من أسباب الرزق الظاهرة ، فهى آيات للموقنين . آيات ترد القلب إلى الله ليتطلع إلى الرزق من فضله ؛ ويتخلص من أثقال الأرض وأوهاق الحرص ، والأسباب الظاهرة للرزق ، فلا يدعها تحول بينه وبين التطلع إلى المصدر الأول الذى أنشأ هذه الأسباب .

والقلب المؤمن يدرك هذه اللفتة على حقيقتها ؛ ويفهمها على وضعها ؛ ويعرف أن المقصود بها ليس هو إهمال الأرض وأسبابها . فهو مكلف بالخلافة فيها وتعميرها . إنما المقصود هو ألا يعلق نفسه بها، وألا يغفل عن الله فى عمارتها. ليعمل فى الأرض وهو يتطلع إلى السماء .وليأخذ بالأسباب وهو يستيقن أنها ليست هى التى ترزقه،فرزقه مقدر فى السماء،وماوعده الله لابد أن يكون.

بذلك ينطلق قلبه من إسار الأسباب الظاهرة فى الأرض ؛ بل يرف بأجنحة من هذه الأسباب إلى ملكوت السماوات . حين يرى فى الأسباب آيات تدله على خالق الأسباب ويعيش موصولا قلبه بالسماء ، وقدماه ثابتتان على الأرض . فهكذا يريد الله لهذا الإنسان . هكذا يريد الله لذلك المخلوق الذى جبله من الطين ونفخ فيه من روحه فإذا هو مفضل على كثير من العالمين .

والإيمان هو الوسيلة لتحقيق ذلك الوضع الذى يكون فيه الإنسان فى أفضل حالاته . لأنه

Marfat.com

يكون حينئذ فى الحالة التى أنشأه الله لها . فطرة الله التى فطر الناس عليها . قبل أن يتناولها الفساد والانحراف ..

وبعد هذه اللمسات الثلاث فى الأرض والنفس والسماء . يقسم الله سبحانه بذاته العلية على صدق هذا الحديث كله :

« فورب السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون » ..

وكونهم ينطقون ، حقيقة بين أيديهم ، لايجادلون فيها ولايمارون ، ولايرتابون فيها ولا يخرصون . وكذلك هذا الحديث كله . والله أصدق القائلين .

وقد روى الأصمعى نادرة ذكرها الزمخشرى فى الكشاف ، ونسوقها نحن لطرافتها — فى تحفظ من جانب الرواية ! — قال :

« أقبلت من جامع البصرة ، فطلع أعرابى على قعود له . فقال : ممن الرجل ؟ قلت : من بنى أصمع . قال : من أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمان . فقال : اتل علىّ . فتلوت : « والذاريات » .. فلما بلغت قوله تعالى : « وفى السماء رزقكم وماتوعدون » قال: حسبك ! فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر ؛ وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى ! فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف ؛ فإذا أنا بمن يهتف بى بصوت دقيق. فالتفت ، فإذا أنا بالأعرابى قد نحل واصفر . فسلم على واستقرأ السورة . فلما بلغت الآية صاح وقال : قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا ، ثم قال : وهل غير هذا؟ فقرأت : « فورب السماء والأرض إنه لحق» .. فصاح قال : ياسبحان الله . من الذى أغضب الجليل حتى حلف ؟ لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين ! قالها ثلاثا وخرجت معها نفسه » ..

وهى نادرة تصح أولاتصح . ولكنها تذكرنا بجلال هذا القسم من الله سبحانه . القسم بذاته . بصفته : رب السماء والأرض . ممازيد الحقيقة المقسم عليها جلالا . وهى حقيقة بلا قسم ولايمين .

* * *

ذلك كان المقطع الأول فى السورة . أما المقطع الثانى فيشمل تلك الإشارات إلى قصص إبراهيم ، ولوط ، وموسى ، وعاد قوم هود ، وثمود قوم صالح ، وقوم نوح .. وهو مرتبط بما قبله ، ومرتبط كذلك بما بعده فى سياق السورة .

Marfat.com

« هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ؟ إذ دخلوا عليه ، فقالوا : سلاما . قال : سلام قوم منكرون. فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين .فقربه إليهم قال : ألا تأكلون ؟ فأوجس منهم خيفة . قالوا: لا تخف ، وبشروه بغلام عليم . فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها ، وقالت : عجوز عقيم . قالوا : كذلك قال ربك ، إنه هو الحكيم العليم . قال : فما خطبكم أيها المرسلون ؟ قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ، لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين . فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين . وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم » ..

إنها آية أو آيات فى تاريخ الرسالات . كتلك الآيات التى أشار إليها فى الأرض وفى الأنفس . وإنه وعد أو وعود تتحقق من تلك الوعود التى أشار إلى تحققها فى القطاع السابق .

ويبدأ الحديث عن إبراهيم بالسؤال: « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ؟ » .. تنويها بهذا الحديث ، وتهيئة للأذهان . مع وصف ضيف إبراهيم بالمكرمين ؛ إما لأنهم كذلك عند الله ؛ وإما إشارة إلى إكرام إبراهيم لهم كما ورد فى القصة .

ويبدو كرم إبراهيم وسخاؤه وإرخاصه للمال واضحا . فما يكاد ضيفه يدخلون عليه ويقولون: سلاما . ويرد عليهم السلام ،وهو ينكرهم ولا يعرفهم . ما يكاد يتلقى السلام ويرده حتى يذهب إلى أهله ـ أى زوجه ـ مسارعا ليهىء لهم الطعام . ويجىء به طعاما وفيرا يكفى عشرات : « فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين » .. وهم كانوا ثلاثة فيما يقال .. تكفيهم كتف من هذا العجل السمين !

« فقربه إليهم . قال : ألا تأكلون ؟ » .. وجاء هذا السؤال بعد أن رأى أيديهم لا تصل إليه ، ولا يبدو عليهم أنهم سيأكلون طعامه .

« فأوجس منهم خيفة » .. إما لأن الطارىء الذى لا يأكل طعام مضيفه ينبىء عن نية شر وخيانة. وإما لأنه لمح أن فيهم شيئا غريبا ! عندئذ كشفوا له عن حقيقتهم ،أو طمأنوه وبشروه: « قالوا : لا تخف . وبشروه بغلام عليم » . . وهى البشارة بإسحاق من زوجه العقيم .

« فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها .وقالت : عجوز عقيم » .. وقد سمعت البشرى، فبغتت وفوجئت ،فندت منها صيحة الدهش ، وعلى عادة النساء ضربت خديها بكفيها . وقالت : عجوز عقيم . تنبىء عن دهشتها لهذه البشرى وهى عجوز . وقد كانت من الأصل عقيما . وقد

Marfat.com

أخذتها المفاجأة العنيفة التي لم تكن تتوقعها أبدا ، فنسيت أن البشرى تحملها الملائكة ! عندئذ ردها المرسلون إلى الحقيقة الأولى . حقيقة القدرة التي لا يقيدها شيء ، والتي تدبر كل أمر بحكمة وعلم :

« قالوا : كذلك قال ربك ، إنه هو الحكيم العليم » . .

وكل شيء يكون إذا قيل له : كن . وقد قال الله . فماذا بعد قوله ؟ إن الألفة والعادة تقيدان الإدراك البشري ، وتحدان من تصوراته . فيدهش إذ يرى مايخالف المألوف له؛ ويعجب كيف يكون ؛ وقد يتبجح فينكر أن يكون ! والمشيئة المطلقة ماضية في طريقها لاتتقيد بمألوف البشر الصغير المحدود ؛ تبدع ما تشاء ، بغير ما حدود أو قيود !

عند ذلك راح إبراهيم يسأل وقد عرف حقيقة ضيفه عن شأنهم الذي أرسلوافيه : « قال : فما خطبكم أيها المرسلون ؟ » . . « قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين » .. هم قوم لوط . كما ورد في سور أخرى . « لنرسل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك للمسرفين » ..

وهذه الحجارة الطينية المعلمة أو المعدة المجهزة عند الله للمسرفين المتجاوزين الحق – وقوم لوط كانوا مسرفين في تجاوزهم للفطرة والحق والدين – لايمتنع أن تكون حجارة بركان ثائر يقذف بالحمم الطيني من جوف الأرض . فهي « عند ربك » بهذا الاعتبار مسلطة – وفق إرادته ونواميسه – على من يريد من المسرفين . مقدرة بزمانها ومكانها وفق علمه وتدبيره القديم . وأن يتولى إرسالها – في إطار إرادته ونواميسه – ملائكته . وهل ندري نحن حقيقة ملائكته ؟ وهل ندري حقيقة علاقتهم بهذا الكون ومن فيه ومافيه ؟ وهل ندري حقيقة القوى الكونية التي نسميها من عندنا أسماء بحسب ظواهرها التي تتكشف لنا بين الحين والحين ؟ ومالنا نعترض على خبر الله لنا أنه سلط بعض هذه القوى في وقت ما ، لترسل بعض هذه القوى في صورة ما ، على قوم ما ، في أرض ما ، مالنا نعترض على خبر الله لنا ، ونحن ما نزال كل ذخيرتنا من المعرفة فروض ونظريات وتأويلات لظواهر تلك القوى . أما حقيقتها فهي عنا بعيد ؟ ! فلتكن حجارة بركانية أو لتكن حجارة أخرى فهذه كتلك في يد الله ، ومن صنعه ، وسرها غيب عنده يكشفه حين يشاء !

« فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين » .. لإنجائهم وحمايتهم .. « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » : هم بيت النبي لوط . كما ورد في مواضع أخرى . فكانوا هم الناجين إلا امرأته كانت من المهلكين .

Marfat.com

« وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم » .. فالذين يخافون هم الذين يرون الآية ويدركونها وينتفعون بها . أما الآخرون فطموسون لايرون آيات الله . لافى الأرض ولا فى أنفسهم ولافى أحداث التاريخ !

* * *

وآية أخرى فى قصة موسى ، يشير إليها إشارة سريعة فى معرض الآيات فى تاريخ المرسلين:

« وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين . فتولى بركنه وقال :ساحر أو مجنون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم ، وهو مليم » . .

والسلطان المبين الذى أرسل الله به موسى إلى فرعون ، هو الحجة القوية،والبرهان القاطع، وهو الهيبة الجليلة التى خلعها عليه . وهو معهما يسمع ويرى . ولكن فرعون تولى بركنه ، وازور بجانبه عن الحق الواضح والبرهان القاطع ؛ وقال عن موسى النبى الذى كشف له عن آيات الله الخوارق : « ساحر أو مجنون » .. مما يقطع بأن الآيات والخوارق لاتهدى قلبا لم يتأهب للهدى ؛ ولاتقطع لسانا يصر على الباطل ويفترى .

ولا يطيل السياق هنا فى عرض تفصيلات القصة ؛ فيمضى إلى نهايتها التى تتجلى فيها الآية الباقية المذكورة فى التاريخ : « فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم » .. أى مستحقا للوم على ما كان منه من طغيان ومن تكذيب .

وواضح فى التعبير فعل الله المباشر فى أخذه هو وقومه ، وفى نبذهم فى اليم . وهو الإيقاع المقصود لإبراز آية الله فى موسى. فى معرض آياته فى الأرض والأنفس وتاريخ الرسالات والمرسلين .

* * *

وآية أخرى فى عاد :

« وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم. ماتذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم» . .

وسميت الريح التى أرسلت على عاد عقيما لأنها لم تكن تحمل ماء ولا حياة كما توقعوا . إنما تحمل الموت والدمار . وتترك كل شىء تأتى عليه كالميت الذى رمّ وتحول إلى فتات !

والريح قوة من قوى هذا الكون . وجند من جند الله . وما يعلم جنود ربك إلا هو . يرسلها – فى إطار مشيئته وناموسه – فى صورة ما من صورها ، فى الوقت المقدر ، على من يريد ، بالهلاك والدمار ، أو بالحيا والحياة . ولا مكان فى مثل هذه المواضع للاعتراض السطحى الساذج،

بالقول بأن الريح تجرى وفق نظام كونى ؛ وتهب هنا أو هناك تبعا لعوامل طبيعية . فالذى يجريها وفق ذلك النظام وتبع هذه العوامل هو الذى يسلطها على من يشاء عندما يشاء وفق تقديره وتدبيره . وهو قادر على أن يسلطها كما يريد فى إطار النظام الذى قدره والعوامل التى جعلها . ولا مخالفة ولا شبهة ولا اعتراض !

* * *

وآية ثالثة فى ثمود :

« وفى ثمود إذ قيل لهم : تمتعوا حتى حين . فعتوا عن أمر ربهم ، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون . فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين » ..

والإشارة فى قوله : « إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين » .. قد تعنى إمهالهم ثلاثة أيام بعد قتل الناقة . وهو ماورد فى الآية : « قيل : تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام » . . وقد تعنى ماقدر لهم من المتاع منذ الرسالة إلى أن قتلوا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ، فحق عليهم الهلاك .

ومايقال فى الحجارة التى أرسلت على قوم لوط ، وفى الريح التى أرسلت على عاد ، يقال فى الصاعقة التى أرسلت على ثمود . فكلها قوى كونية مدبرة بأمرالله ، مسخرة بمشيئته وبنواميسه. يسلطها على من يشاء فى إطار تلك النواميس . فتؤدى دورها الذى يكلفها الله . كأى جند من جند الله .

* * *

وآية رابعة فى قوم نوح :

« وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين » ..

وهى إشارة سريعة تلمس القصة لمسة واحدة بدون إيضاح. كأنما ليقال : واذكر قوم نوح. وقد وردت « قومَ » منصوبة وبدون لفظ « فى » بتقدير كلمة « اذكر » قبلها . وتلتها « والسماء بنيناها .. » معطوفة عليها .. وهذه آية كونية ، وتلك آية تاريخية . يربطها السياق معا ، ويربط بها هذا القطاع بالقطاع الثالث فى السورة ..

* * *

« والسماء بنيناها بأيد ، وإنا لموسعون ، والأرض فرشناها فنعم الماهدون ، ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله ، إنى لكم منه نذير مبين . ولاتجعلوا مع الله إلها آخر ، إنى لكم منه نذير مبين » ..

Marfat.com

Marfat.com

إنها عودة إلى المعرض الكونى الذى افتتحت به السورة ، فى صورة من صوره الكثيرة التى يجلوها القرآن للقلوب . واستطراد فى الإشارة إلى آيات الله هنا وهناك ، يصل آية نوح بآية السماء وآية الأرض وآية الخلائق . ثم يخلص به إلى ذلك الهتاف بالبشر ليفروا إلى الله موحدين متجردين .

« والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون » . .

والأيد : القوة . والقوة أوضح ما ينبيء عنه بناء السماء الهائل المتماسك المتناسق . بأى مدلول من مدلولات كلمة السماء . سواء كانت تعنى مدارات النجوم والكواكب . أم تعنى مجموعة من المجموعات النجمية التى يطلق عليها اسم المجرة وتحوى مئات الملايين من النجوم . أم تعنى طبقة من طبقات هذا الفضاء الذى تتناثر فيه النجوم والكواكب . . أم غير هذا من مدلولات كلمة السماء .

والسعة كذلك ظاهرة فهذه النجوم ذات الأحجام الهائلة والتى تعد بالملايين ، لا تعدو أن تكون ذرات متناثرة فى هذا الفضاء الرحيب .

ولعل فى الإشارة إلى السعة إيحاء آخر إلى مخازن الأرزاق التى قال من قبل : إنها فى السماء . ولو أن السماء هناك مجرد رمز إلى ما عند الله . ولكن التعبير القرآنى يلقى ظلالا معينة ، يبدو أنها مقصودة فى التعبير ، لخطاب المشاعر البشرية خطابا موحيا .

ومثلها الإشارة الأخرى إلى الأرض الممهودة المفروشة :

« والأرض فرشناها . فنعم الماهدون » . .

فقد أعد الله هذه الأرض لتكون مهدا للحياة كما أسلفنا . والفرش يوحى باليسر والراحة والعناية . وقد هيئت الأرض لتكون محضنا ميسرا ممهدا ، كل شيء فيه مقدر بدقة لتيسير الحياة وكفالتها : « فنعم الماهدون » . .

« ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » . .

وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق فى هذه الأرض ــ وربما فى هذا الكون . إذ أن التعبير لا يخصص الأرض ــ قاعدة الزوجية فى الخلق . وهى ظاهرة فى الأحياء . ولكن كلمة « شيء » تشمل غير الأحياء أيضا . والتعبير يقرر أن الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية .

وحين نتذكر أن هذا النص عرفه البشر منذ أربعة عشر قرنا . وأن فكرة عموم الزوجية ــ حتى فى الأحياء لم تكن معروفة حينذاك . فضلا على عموم الزوجية فى كل شيء . . حين نتذكر

Marfat.com

هـذا نجدنا أمام أمر عجيب عظيم . . وهو يطلعنا على الحقائق الكونية فى هذه الصورة العجيبة المبكرة كل التبكير !

كما أن هذا النص يجعلنا نرجح أن البحوث العلمية الحديثة سائرة فى طريق الوصول إلى الحقيقة. وهى تكاد تقرر أن بناء الكون كله يرجع إلى الذرة. وأن الذرة مؤلفة من زوج من الكهرباء: موجب وسالب! فقد تكون تلك البحوث إذن على طريق الحقيقة فى ضوء هذا النص العجيب..

وفى ظل هذه اللمسات القصيرة العبارة الهائلة المدى : فى أجواز السماء ، وفى آماد الأرض ، وفى أعماق الخلائق . يهتف بالبشر ليفروا إلى خالق السماء والأرض والخلائق ، متجردين من كل مايثقل أرواحهم ويقيدها ؛ موحدين الله الذى خلق هذا الكون وحده بلا شريك .

« ففروا إلى الله ، إنى لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله إلها آخر ، إنى لكم منه نذير مبين » . .

والتعبير بلفظ الفرار عجيب حقا . وهو يوحى بالأثقال والقيود والأغلال والأوهاق، التى تشد النفس البشرية إلى هذه الأرض ، وتثقلها عن الانطلاق ، وتحاصرها وتأسرها وتدعها فى عقال . وبخاصة أوهاق الرزق والحرص والانشغال بالأسباب الظاهرة للنصيب الموعود . ومن ثم يجىء الهتاف قويا للانطلاق والتملص والفرار إلى الله من هذه الأثقال والقيود ! الفرار إلى الله وحده منزها عن كل شريك . وتذكير الناس بانقطاع الحجة وسقوط العذر : إنى لكم منه نذير مبين » . . وتكرار هذا التنبيه فى آيتين متجاورتين ، زيادة فى التنبيه والتحذير !

* * *

وكأنما كانت هذه الإشارة إلى آية السماء وآية الأرض وآية الخليقة استطرادا مع آيات الرسالات والرسل . فلما انتهت جاء التعقيب على قصص الرسل التى سلفت فى السياق :

« كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول إلاقالوا : ساحر أومجنون . أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون . فتول عنهم فما أنت بملوم . وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » . .

فهى جبلة واحدة وطبيعة واحدة للمكذبين؛ وهو استقبال واحد للحق وللرسل يستقبلهم به المنحرفون : « كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول إلاقالوا : ساحر أومجنون » . . كما يقول هؤلاء المشركون ! كأنما تواصوا بهذا الاستقبال على مدار القرون ! وما تواصوا بشىء إنما هى طبيعة الطغيان وتجاوز الحق والقصد تجمع بين الغابرين واللاحقين !

والنتيجة الطبيعية التي تترتب على هذا الموقف المكرور ، الذي كأنما تواصى به الطاغون على مدار القرون ، ألا يحفل الرسول - صلى الله عليه وسلم - تكذيب المشركين . فهو غير ملوم على ضلالهم ، ولامقصر فى هدايتهم : « فتول عنهم فما أنت بملوم » . . إنما هو مذكر ، فعليه أن يذكر ، وأن يمضى فى التذكير ،مهما أعرض المعرضون وكذب المكذبون : «وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » . . ولاتنفع غيرهم من الجاحدين . والتذكير هو وظيفة الرسل . والهدى والضلال خارجان عن هذه الوظيفة ، والأمر فيهما إلى الله وحده . الذى خلق الناس لأمر يريده . .

* * *

هنا يجيء الإيقاع الأخير فى السورة . ويتضح معنى الفرار إلى الله ، والتخلص من الأوهاق والأثقال ، لأداء الوظيفة التى خلق الله العباد لها ، ومنحهم وجودهم ليؤدوها :

« وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . .

وإن هذا النص الصغير ليحتوى حقيقة ضخمة هائلة ،من أضخم الحقائق الكونية التى لا تستقيم حياة البشر فى الأرض بدون إدراكها واستيقانها . سواء كانت حياة فرد أم جماعة . أم حياة الإنسانية كلها فى جميع أدوارها وأعصارها .

وإنه ليفتح جوانب وزوايا متعددة من المعانى والمرامى ، تندرج كلها تحت هذه الحقيقة الضخمة ، التى تعد حجر الأساس الذى تقوم عليه الحياة .

وأول جانب من جوانب هذه الحقيقة أن هنالك غاية معينة لوجود الجن والإنس . تتمثل فى وظيفة من قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده ؛ ومن قصر فيها أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجوده ؛ وأصبح بلا وظيفة ، وباتت حياته فارغة من القصد ، خاوية من معناها الأصيل، الذى تستمد منه قيمتها الأولى . وقد انفلت من الناموس الذى خرج به إلى الوجود ، وانتهى إلى الضياع المطلق ، الذى يصيب كل كائن ينفلت من ناموس الوجود ، الذى يربطه ويحفظه ويكفل له البقاء .

هذه الوظيفة المعينة التى تربط الجن والإنس بناموس الوجود . هى العبادة لله . أو هى العبودية لله . . أن يكون هناك عبد ورب . عبد يَعبد ، ورب يُعبد . وأن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار .

Marfat.com

ومن ثم يبرز الجانب الآخر لتلك الحقيقة الضخمة ، ويتبين أن مدلول العبادة لابد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر . فالجن والإنس لايقضون حياتهم فى إقامة الشعائر ؛ والله لا يكلفهم هذا . وهو يكلفهم ألوانا أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم . وقد لا نعرف نحن ألوان النشاط التى يكلفها الجن ؛ ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان . نعرفها من القرآن من قول الله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة » . . فهى الخلافة فى الأرض إذن عمل هذا الكائن الإنسانى . وهى تقتضى ألوانا من النشاط الحيوى فى عمارة الأرض ، والتعرف إلى قواها وطاقاتها ، وذخائرها ومكنوناتها ، وتحقق إرادة الله فى استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها . كما تقتضى الخلافة القيام على شريعة الله فى الأرض لتحقيق المنهج الإلهى الذى يتناسق مع الناموس الكونى العام .

ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة التى هى غاية الوجود الإنسانى أوالتى هى وظيفة الإنسان الأولى ، أوسع وأشمل من مجرد الشعائر ؛ وأن وظيفة الخلافة داخلة فى مدلول العبادة قطعا. وأن حقيقة العبادة تتمثل إذن فى أمرين رئيسيين :

الأول : هو استقرار معنى العبودية لله فى النفس . أى استقرار الشعور على أن هناك عبدا وربا . عبدا يَعبد ، وربا يُعبد . وأن ليس وراء ذلك شىء ؛ وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار . ليس فى هذا الوجود إلاعابد ومعبود ؛ وإلارب واحد والكل له عبيد .

والثانى : هوالتوجه إلى الله بكل حركة فى الضمير ، وكل حركة فى الجوارح ، وكل حركة فى الحياة . التوجه بها إلى الله خالصة ، والتجرد من كل شعور آخر ؛ ومن كل معنى غير معنى التعبد لله .

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة ؛ ويصبح العمل كالشعائر ، والشعائر كعمارة الأرض ، وعمارة الأرض كالجهاد فى سبيل الله ، والجهاد فى سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضى بقدر الله . . كلها عبادة ؛ وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التى خلق الله الجن والإنس لها ؛ وكلها خضوع للناموس العام الذى يتمثل فى عبودية كل شىء لله دون سواه .

عندئذ يعيش الإنسان فى هذه الأرض شاعرا أنه هنا للقيام بوظيفة من قبل الله تعالى ، جاء لينهض بها فترة ، طاعة لله وعبادة له لاأرب له هو فيها ، ولاغاية له من ورائها ، إلا الطاعة ، وجزاؤها الذى يجده فى نفسه من طمأنينة ورضى عن وضعه وعمله ، ومن أنس برضى الله عنه ، ورعايته له . ثم يجده فى الآخرة تكريما ونعيما وفضلا عظيما .

Marfat.com

وعندئذ يكون قد فر إلى الله حقا . يكون قد فر من أوهاق هذه الأرض وجواذبها المعوقة ومغرياتها الملفتة . ويكون قد تحرر بهذا الفرار . تحرر حقيقة من الأوهاق والأثقال. وخلص لله ، واستقر فى الوضع الكونى الأصيل : عبداً لله . خلقه الله لعبادته . وقام بما خلق له . وحقق غاية وجوده . فمن مقتضيات استقرار معنى العبادة أن يقوم بالخلافة فى الأرض ، وينهض بتكاليفها ، ويحقق أقصى ثمراتها ؛ وهو فى الوقت ذاته نافض يديه منها ؛ خالص القلب من جواذبها ومغرياتها . ذلك أنه لم ينهض بالخلافة ويحقق ثمراتها لذاته هو ولالذاتها . ولكن لتحقيق معنى العبادة فيها ، ثم الفرار إلى الله منها !

ومن مقتضياته كذلك أن تصبح قيمة الأعمال فى النفس مستمدة من بواعثها لامن نتائجها. فلتكن النتائج ماتكون . فالإنسان غير معلق بهذه النتائج . إنما هو معلق بأداء العبادة فى القيام بهذه الأعمال ؛ ولأن جزاءه ليس فى نتائجها ، إنما جزاؤه فى العبادة التى أداها . .

ومن ثم يتغير موقف الإنسان تغيرا كاملا تجاه الواجبات والتكاليف والأعمال . فينظر فيها كلها إلى معنى العبادة الكامن فيها . ومتى حقق هذا المعنى انتهت مهمته وتحققت غايته . ولتكن النتائج ما تكون بعد ذلك . فهذه النتائج ليست داخلة فى واجبه ولا فى حسابه ، وليست من شأنه . إنما هو قدر الله ومشيئته . وهو وجهده ونيته وعمله جانب من قدر الله ومشيئته .

ومتى نفض الإنسان قلبه من نتائج العمل والجهد ؛ وشعر أنه أخذ نصيبه ، وضمن جزاءه ، بمجرد تحقق معنى العبادة فى الباعث على العمل والجهد ، فلن تبقى فى قلبه حينئذ بقية من الأطماع التى تدعو إلى التكالب والخصام على أعراض هذه الحياة . فهو من جانب يبذل أقصى مايملك من الجهد والطاقة فى الخلافة والنهوض بالتكاليف . ومن جانب ينفض يده وقلبه من التعلق بأعراض هذه الأرض ، وثمرات هذا النشاط . فقد حقق هذه الثمرات ليحقق معنى العبادة فيها لا ليحصل عليها ويحتجزها لذاته

والقرآن يغذى هذا الإحساس ويقويه ، بإطلاق مشاعر الإنسان من الانشغال بهم الرزق ومن شح النفس . فالرزق فى ذاته مكفول . تكفل به الله تعالى لعباده . وهو لا يطلب إليهم بطبيعة الحال أن يطعموه — سبحانه — أو يرزقوه . حين يكلفهم إنفاق هذا المال لمحتاجيه ،والقيام بحق المحرومين فيه :

«ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . .

Marfat.com

وإذن لا يكون حافز المؤمن للعمل وبذل الجهد فى الخلافة هو الحرص على تحصيل الرزق. بل يكون الحافز هو تحقيق معنى العبادة ، الذى يتحقق ببذل أقصى الجهد والطاقة. ومن ثم يصبح قلب الإنسان معلقا بتحقيق معنى العبادة فى الجهد ، طليقا من التعلق بنتائج الجهد . وهى مشاعر كريمة لا تنشأ إلا فى ظل هذا التصور الكريم .

وإذا كانت البشرية لا تدرك هذه المشاعر ولا تتذوقها ، فذلك لأنها لم تعش - كما عاش جيل المسلمين الأول - فى ظلال هذا القرآن . ولم تستمد قواعد حياتها من ذلك الدستور العظيم .

وحين يرتفع الإنسان إلى هذا الأفق . أفق العبادة . أو أفق العبودية . ويستقر عليه ، فإن نفسه تأنف حتما من اتخاذ وسيلة خسيسة لتحقيق غاية كريمة . ولو كانت هذه الغاية هى نصر دعوة الله وجعل كلمته هى العليا . فالوسيلة الخسيسة من جهة تحطم معنى العبادة النظيف الكريم . ومن جهة أخرى فهو لا يعنى نفسه ببلوغ الغايات ، إنما يعنى نفسه بأداء الواجبات ، تحقيقا لمعنى العبادة فى الأداء . أما الغايات فموكولة لله ، يأتى بها وفق قدره الذى يريده . ولا داعى لاعتساف الوسائل والطرق للوصول إلى غاية أمرها إلى الله ، وليست داخلة فى حساب المؤمن العابد لله.

ثم يستمتع العبد العابد براحة الضمير ، وطمأنينة النفس ، وصلاح البال ، فى جميع الأحوال . سواء رأى ثمرة عمله أم لم يرها . تحققت كما قدرها أم على عكس ما قدرها . فهو قد أنهى عمله ، وضمن جزاءه ، عند تحقق معنى العبادة . واستراح . وما يقع بعد ذلك خارج عن حدود وظيفته .. وقد علم هو أنه عبد ، فلم يعد يتجاوز بمشاعره ولا بمطالبه حدود العبد . وعلم أن الله رب ، فلم يعد يتقحم فيما هو من شؤون الرب . واستقرت مشاعره عند هذا الحد ، ورضى الله عنه ، ورضى هو عن الله .

وهكذا تتجلى جوانب من تلك الحقيقة الضخمة الهائلة ، التى تقررها آية واحدة قصيرة : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .. وهى حقيقة كفيلة بأن تغير وجه الحياة كلها عند ما تستقر حقا فى الضمير ...

***

وفى ضوء هذه الحقيقة الكبيرة ينذر الذين ظلموا فلم يؤمنوا ؛ واستعجلوا وعد الله ، وكذبوا . وتختم السورة بهذ الإنذار الأخير :

« فإن للذين ظلموا ذنوبا (١) مثل ذنوب أصحابهم . فلا يستعجلون . فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون » ..

---

(١) الذنوب : الدلو . وهو كناية عن أن لهم مثل ما أصاب من قبلهم من الظالمين ..

Marfat.com

سورة الطور مكية
وآياتها ٤٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ * يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً * فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ * يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَٰذَا ؟ أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ؟ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ، وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ، كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ * وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا : إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ .

Marfat.com

« فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ : شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ؟ * قُلْ : تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ * أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَٰذَا ؟ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ؟ * أَمْ يَقُولُونَ : تَقَوَّلَهُ ؟ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ * أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ؟ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ؟ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ بَلْ لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ ؟ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ؟ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ؟ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ؟ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً ؟ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ * أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ؟ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ! * وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا : سَحَابٌ مَرْكُومٌ * فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَٰلِكَ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ » ٤٩

هذه السورة تمثل حملة عميقة التأثير فى القلب البشرى . ومطاردة عنيفة للهواجس والشكوك والشبهات والأباطيل التى تساوره وتدسس إليه وتختبىء هنا وهناك فى حناياه . ودحض لكل حجة وكل عذر قد يتخذه للحيدة عن الحق والزيغ عن الإيمان . . حملة لا يصمد لها قلب يتلقاها ، وهى تلاحقه حتى تلجئه إلى الإذعان والاستسلام !

وهى حملة يشترك فيها اللفظ والعبارة ، والمعنى والمدلول ، والصور والظلال ، والإيقاعات الموسيقية لمقاطع السورة وفواصلها على السواء . ومن بدء السورة إلى ختامها تتوالى آياتها كالو كانت قذائف ، وإيقاعاتها كما لو كانت صواعق ، وصورها وظلالها كما لو كانت سياطا لاذعة للحس لا تمهله لحظة واحدة من البدء إلى الختام !

Marfat.com

وتبدأ السورة بقسم من الله سبحانه بمقدسات فى الأرض والسماء . بعضها مكشوف معلوم! وبعضها مغيب مجهول : « والطور . وكتاب مسطور . فى رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع » . .

القسم على أمر عظيم رهيب ، يرج القلب رجا ، ويرعب الحس رعبا . فى تعبير يناسب لفظه مدلوله الرهيب ؛ وفى مشهد كذلك ترجف له القلوب : « إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع ، يوم تمور السماء مورا، وتسير الجبال سيرا » . .

وفى وسط المشهد المفزع نرى ونسمع مايزلزل ويرعب ،من ويل وهول،وتقريع وتفزيع: « فويل يومئذ للمكذبين ، الذين هم فى خوض يلعبون. يوم يدعون إلى نار جهنم دعا. هذه النار التى كنتم بها تكذبون . أفسحر هذا ؟ أم أنتم لاتبصرون ؟ اصلوها فاصبروا أولا تصبروا ، سواء عليكم ، إنما تجزون ما كنتم تعملون » . .

هذا شوط من حملة المطاردة . يليه شوط آخر من لون آخر . شوط فى إطماع القلوب التى رأت ذلك الهول المرعب – إطماعها فى الأمن والنعيم . بعرض صورة المتقين وماأعدلهم من تكريم . وماهيء لهم من نعيم رخى رغيد ، يطول عرضه ، وتكثر تفصيلاته،وتتعدد ألوانه. ممايستجيش الحس إلى روح النعيم وبرده ؛ بعد كرب العذاب وهوله : « إن المتقين فى جنات ونعيم فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين . والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ، وماألتناهم من عملهم من شىء ، كل امرىء بما كسب رهين . وأمددناهم بفاكهة ولحم ممايشتهون. يتنازعون فيها كأسا لالغو فيها ولاتأثيم .ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون . وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا : إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين . فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم » . .

والآن وقد أحس القلب البشرى سياط العذاب فى الشوط الأول ؛ وتذوق حلاوة النعيم فى الشوط الثانى . . الآن يجىء الشوط الثالث يطارد الهواجس والوساوس ؛ ويلاحق الشبهات والأضاليل ؛ ويدحض الحجج والمعاذير . ويعرض الحقيقة بارزة واضحة بسيطة عنيفة . تتحدث بمنطق نافذ لايحتمل التأويل ، مستقيم لايحتمل اللف والدوران . يلوى الأعناق ليا ويلجئها إلى الإذعان والتسليم . . ويبدأ هذا الشوط بتوجيه الخطاب إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –

Marfat.com

Marfat.com

ليمضى فى تذكيره لهم ، على الرغم من سوء أدبهم معه ؛ وليقرعهم بهذا المنطق النافذ القوى المستقيم : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون : شاعر نتربص به ريب المنون ؟ قل : تربصوا فإنى معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ أم هم قوم طاغون ؟ أم يقولون تقوّله ؟ بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين . أم خلقوا من غير شىء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السماوات والأرض ؟ بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المسيطرون ؟ أم لهم سلم يستمعون فيه ؟ فليأت مستمعهم بسلطان مبين. أم له البنات ولكم البنون ؟ أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ أم عندهم الغيب فهم يكتبون؟ أم يريدون كيدا ؟ فالذين كفروا هم المكيدون . أم لهم إله غير الله ؟ سبحان الله عما يشركون » ..

وعقب هذه الأسئلة المتلاحقة . بل هذه القذائف الصاعقة . التى تنسف الباطل نسفا ، وتحرج المكابر والمعاند ، وتخرس كل لسان يزيغ عن الحق أو يجادل فيه . . عقب هذا يصور تعنتهم وعنادهم فى صورة الذى يكابر فى المحسوس : « وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا : سحاب مركوم » . والفرق بين قطعة السماء تسقط وبين السحاب واضح ، ولكنهم هم يتلمسون كل شبهة ليعدلوا عن الحق الواضح .

هنا يلقى عليهم بالقذيفة الأخيرة . قذيفة التهديد الرعيب ، بملاقاة ذلك المشهد المرهوب ، الذى عرض عليهم فى مطلع السورة : « فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون . يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون » .. كما يهددهم بعذاب أقرب من ذلك العذاب : « وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » ..

ثم تختم السورة بإيقاع رضى رخى .. إنه موجه إلى الرسول الكريم الذى يقولون عنه : « شاعر نتربص به ريب المنون » . . ويقولون : كاهن أو مجنون . موجه إليه من ربه يسليه ويعزيه فى إعزاز وتكريم . فى تعبير لا نظير له فى القرآن كله ؛ ولم يوجه من قبل إلى نبى أو رسول : « واصبر لحكم ربك ، فإنك بأعيننا ، وسبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » ..

إنه الإيقاع الذى يمسح على العنت والمشقة اللذين يلقاهما الرسول الكريم ، من أولئك المتعنتين المعاندين ، الذين اقتضت مواجهتهم تلك الحملة العنيفة من المطاردة والهجوم . .

***

Marfat.com

٤

« والطور . وكتاب مسطور . فى رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع . والبحر المسجور . إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع . يوم تمور السماء مورا . وتسير الجبال سيرا . فويل يومئذ للمكذبين الذين هم فى خوض يلعبون . يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . هذه النار التى كنتم بها تكذبون . أفسحر هذا ؟ أم أنتم لاتبصرون ؟ اصلوها فاصبروا أولاتصبروا ، سواء عليكم ، إنما تجزون ما كنتم تعملون » ..

هذه الآيات القصيرة ، والفواصل المنغمة ، والإيقاعات الفاصلة ، تصاحب السورة من مطلعها . وهى تبدأ كلمة واحدة . ثم تصبح كلمتين . ثم تطول شيئا فشيئا حتى تبلغ فى نهاية المقطع اثنتى عشرة كلمة .مع المحافظة الكاملة على قوة الإيقاع .

والطور : الجبل فيه شجر . والأرجح أن المقصود به هو الطور المعروف فى القرآن ، المذكور فى قصة موسى ـ عليه السلام ـ والذى نزلت فوقه الألواح . فالجو جو مقدسات يقسم بها الله سبحانه على الأمر العظيم الذى سيجىء .

والكتاب المسطور فى رق منشور . الأقرب أن يكون هو كتاب موسى الذى كتب له فى الألواح . للمناسبة بينه وبين الطور . وقيل . هو اللوح المحفوظ . تمشيا مع مابعده : البيت المعمور ، والسقف المرفوع . ولايمتنع أن يكون هذا هو المقصود .

والبيت المعمور : قد يكون هو الكعبة . ولكن الأرجح أن يكون بيت عبادة الملائكة فى السماء لما ورد فى الصحيحين فى حديث الإسراء : « ثم رفع بى إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفا لايعودون إليه آخر ماعليهم » .. يعنى يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم !

والسقف المرفوع : السماء . قاله سفيان الثورى وشعبة وأبو الأحوص عن سماك ابن خالد ابن عرعرة عن على ـ كرم الله وجهه ـ قال سفيان : ثم تلا : « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » ..

والبحر المسجور : المملوء . وهو أنسب شىء يذكر مع السماء فى مشهد . فى انفساحه وامتلائه وامتداده . وهو آية فيها رهبة ولها روعة . تؤهلانه للذكر مع هذه المشاهد المقسم بها على الأمر العظيم . وقد يكون معنى المسجور : المتقد . كما قال فى سورة أخرى: « وإذا البحار سجرت » أى توقدت نيرانا . كما أنه قد يشير إلى خلق آخر كالبيت المرفوع يعلمه الله .

يقسم الله سبحانه بهذه الخلائق العظيمة على أمر عظيم . بعد أن يتهيأ الحس بهذه الإيقاعات لاستقبال ذلك الأمر العظيم :

« إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع » ..

فهو واقع حتما ، لايملك دفعه أحد أبدا . وإيقاع الآيتين والفاصلتين حاسم قاطع . يلقى فى الحس أنه أمر داهم قاصم ، ليس منه واق ولاعاصم . وحين يصل هذا الإيقاع إلى الحس البشرى بلاعائق فإنه يهزه ويضعضعه ويفعل به الأفاعيل .. قال الحافظ أبو بكر ابن أبى الدنيا : حدثنا أبى ، حدثنا موسى ابن داود ، عن صالح المرى ، عن جعفر ابن زيد العبدى.قال : خرج عمر يعس بالمدينة ذات ليلة ، فمر بدار رجل من المسلمين، فوافقه قائما يصلى ، فوقف يستمع قراءته فقرأ : « والطور ... حتى بلغ : إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع » .. قال : قسم ورب الكعبة حق . فنزل عن حماره . واستند إلى حائط ، فمكث مليا ، ثم رجع إلى منزله ، فمكث شهرا يعوده الناس لايدرون مامرضه . رضى الله عنه .

وعمر ـ رضى الله عنه ـ سمع السورة قبل ذلك ، وقرأها ، وصلى بها ، فقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلى بها المغرب . وعمر يعلم . ويتأسى . ولكنها فى تلك الليلة صادفت منه قلبا مكشوفا ، وحسا مفتوحا ، فنفذت إليه وفعلت به هذاالذى فعلت . حين وصلت إليه بثقلها وعنفها وحقيقتها اللدنية المباشرة ؛ التى تصل إلى القلوب فى لحظات خاصة ، فتتخللها وتتعمقها ، فى لمسة مباشرة كهذه اللمسة ، تلقى فيها القلب الآية من مصدرها الأول كما تلقاها قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأطاقها لأنه تهيأ لتلقيها . فأما غيره فيقع لهم شىء مما وقع لعمر ـ رضى الله عنه ـ حين تنفذ إليهم بقوة حقيقتها الأولى ..

ويعقب هذا الإيقاع الرهيب مشهد مصاحب له رهيب :

« يوم تمور السماء مورا ، وتسير الجبال سيرا » ..

ومشهد السماء الثابتة المبنية بقوة وهى تضطرب وتتقلب كما يضطرب الموج فى البحر من هنا إلى هناك بلاقوام . ومشهد الجبال الصلبة الراسية تسير خفيفة رقيقة لاثبات لها ولااستقرار .أمر مذهل مزلزل . يدل ضمنا على الهول الذى تمور فيه السماء وتسير منه الجبال. فكيف بالمخلوق الإنسانى الصغير الضعيف فى ذلك الهول المذهل المخيف ؟ !

وفى زحمة هذا الهول الذى لايثبت عليه شىء ؛ وفى ظل هذا الرعب المزلزل لكل شىء،

Marfat.com

يعاجل المكذبين بما هو أهول وأرعب . يعاجلهم بالدعاء عليهم بالويل من العزيز الجبار :

« فويل يومئذ للمكذبين . الذين هم فى خوض يلعبون » . .

والدعاء بالويل من الله حكم بالويل وقضاء . فهو أمر لا محالة واقع ، ماله من دافع . وهو كائن حتما ، يوم تمور السماء مورا و تسير الجبال سيرا . فيتناسب هذا الهول مع ذلك الويل ، وينصب كله على المكذبين . . « الذين هم فى خوض يلعبون » . .

وهذا الوصف ينطبق ابتداء على أولئك المشركين ومعتقداتهم المتهافتة ،وتصوراتهم المهلهلة؛ وحياتهم القائمة على تلك المعتقدات وهذه التصورات ، التى وصفها القرآن وحكاها فى مواضع كثيرة . وهى لعب لا جد فيه . لعب يخوضون فيه كما يخوض اللاعب فى الماء ، غير قاصد إلى شاطىء أو هدف ، سوى الخوض واللعب !

ولكنه يصدق كذلك على كل من يعيش بتصور آخر غير التصور الإسلامى . . وهذه حقيقة لا يدركها الإنسان إلا حين يستعرض كل تصورات البشر المشهورة ـ سواء فى معتقداتهم أو أساطيرهم أو فلسفاتهم ـ فى ظل التصور الإسلامى للوجود الإنسانى ثم للوجود كله . . إن سائر التصورات ـ حتى لكبار الفلاسفة الذين يعتز بهم تاريخ الفكر الإنسانى ـ تبدو محاولات أطفال يخبطون ويخوضون فى سبيل الوصول إلى الحقيقة . تلك الحقيقة التى تعرض فى التصور الإسلامى ـ وبخاصة فى القرآن ـ عرضا هادئا ناصعا قويا بسيطا عميقا . يلتقى مع الفطرة التقاء مباشرا دون كد ولا جهد ولا تعقيد . لأنه يطالعها بالحقيقة الأصيلة العميقة فيها . ويفسر لها الوجود وعلاقتها به ، كما يفسر لها علاقة الوجود بخالقه تفسيرا يضاهى ما استقر فيها ويوافقه .

وطالما عجبت وأنا أطالع تصورات كبار الفلاسفة ؛ وألاحظ العناء القاتل الذى يزاولونه ، وهم يحاولون تفسير هذا الوجود وارتباطاته ؛ كما يحاول الطفل الصغير حل معادلة رياضية هائلة .. وأمامى التصور القرآنى واضحا ناصعا سهلا هينا ميسرا طبيعيا ، لا عوج فيه ولا لف ولا تعقيد ولا التواء . وهذا طبيعى ، فالتفسير القرآنى للوجود هو تفسير صانع هذا الوجود لطبيعته وارتباطاته . . أما تصورات الفلاسفة فهى محاولات أجزاء صغيرة من هذا الوجود لتفسير الوجود كله . والعاقبة معروفة لمثل هذه المحاولات البائسة !

إنه عبث . وخلط . وخوض . . حين يقاس إلى الصورة المكتملة الناضجة والمطابقة ، التى يعرضها القرآن على الناس ، فيدعها بعضهم إلى تلك المحاولات المتخبطة الناقصة . المستحيلة الاكتمال والنضوج !

Marfat.com

وإن الأمور لتظل مضطربة فى حس الإنسان وتصوره ، متأثرة بالتصورات المنحرفة ، وبالمحاولات البشرية الناقصة . . ثم يسمع آيات من القرآن فى الموضوع الذى يساوره . فإذا النور الهادىء . والميزان الثابت . وإذا هو يجد كل شىء فى موضعه ، وكل أمر فى مكانه ، وكل حقيقة هادئة مستقرة لا تضطرب ولا تمور . ويحس بعدها أن نفسه استراحت ، وأن باله هدأ ، وأن عقله اطمأن إلى الحق الواضح ، وقد زال الغبش والقلق واستقرت الأمور .

كذلك يبدو أن الناس فى خوض يلعبون من ناحية اهتماماتهم فى الحياة . حين تقاس بالاهتمامات التى يثيرها الإسلام فى النفس ، ويعلق بها القلب ، ويشغله بتدبرها وتحقيقها . وتبدو تفاهة تلك الاهتمامات وضآلتها ، والمسلم ينظر إلى اشتغال أهلها بها ، وانغماسهم فيها ، وتعظيمهم لها ، وحديثهم عنها كأنها أمور كونية عظمى ! وهو ينظر إليهم كما ينظر إلى الأطفال المشغولين بعرائس الحلوى وبالدمى الميتة ، يحسبونها شخوصا ؛ ويقضون أوقاتهم فى مناغاتها واللعب معها وبها ! ! !

إن الإسلام يرفع من اهتمامات البشر بقدر مايرفع من تصورهم الوجود الإنسانى وللوجود كله ؛ وبقدر مايكشف لهم عن علة وجودهم وحقيقته ومصيره ؛ وبقدر مايجيب إجابة صادقة واضحة عن الأسئلة التى تساور كل نفس : من أين جئت ؟ لماذا جئت ؟ إلى أين أذهب ؟ وإجابة الإسلام عن هذه الأسئلة تحدد التصور الحق للوجود الإنسانى وللوجود كله . فإن الإنسان ليس بدعا من الخلائق كلها . فهو واحد منها . جاء من حيث جاءت . وشاركها علة وجودها . ويذهب إلى حيث تقتضى حكمة خالق الوجود كله أن يذهب . فالإجابة على تلك الأسئلة تشمل كذلك تفسيرا كاملا للوجود كله ، وارتباطاته وارتباطات الإنسان به . وارتباط الجميع بخالق الجميع .

وهذا التفسير ينعكس على الاهتمامات الإنسانية فى الحياة ؛ ويرفعها إلى مستواه . ومن ثم تبدو اهتمامات الآخرين صغيرة هزيلة فى حس المسلم المشغول بتحقيق وظيفة وجوده الكبرى فى هذا الكون ، عن تلك الصغائر والتفاهات التى يخوض فيها اللاعبون !

إن حياة المسلم حياة كبيرة ـ لأنها منوطة بوظيفة ضخمة ، ذات ارتباط بهذا الوجود الكبير ، وذات أثر فى حياة هذا الوجود الكبير . وهى أعز وأنفس من أن يقضيها فى عبث ولهو وخوض ولعب . وكثير من اهتمامات الناس فى الأرض يبدو عبثا ولهوا وخوضا ولعبا حين يقاس إلى اهتمامات المسلم الناشئة من تصوره لتلك الوظيفة الضخمة المرتبطة بحقيقة الوجود (1)

---

(1) فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان (بحث للمؤلف يرجو أن يوفق إلى إخراجه) .

Marfat.com

Marfat.com

وويل لأولئك الخائضين اللاعبين : « يوم يدعون إلى نار جهنم دعا » .. وهو مشهد عنيف . فالدع : الدفع فى الظهور . وهى حركة غليظة تليق بالخائضين اللاعبين ، الذين لا يجدّون ، ولا ينتبهون إلى ما يجرى حولهم من الأمور . فيساقون سوقا ويدفعون فى ظهورهم دفعا .

حتى إذا وصل بهم الدفع والدع إلى حافة النار قيل لهم : « هذه النار التى كنتم بها تكذبون ! » ..

وبينما هم فى هذا الكرب . بين الدع والنار التى تواجههم على غير إرادة منهم . يجيئهم الترذيل والتأنيب ، والتلميح إلى ما سبق منهم من التكذيب : « أفسحر هذا ؟ أم أنتم لا تبصرون ؟ » . فقد كانوا يقولون عن القرآن : إنه سحر . فهل هذه النار التى يرونها كذلك سحر ؟ ! أم إنه الحق الهائل الرعيب ؟ أم إنهم لا يبصرون هذه النار كما كانوا لا يبصرون الحق فى القرآن الكريم ؟ !

وحين ينتهى هذا التأنيب الساخر المرير يعاجلهم بالتيئيس البئيس . « اصلوها . فاصبروا أو لا تصبروا . سواء عليكم . إنما تجزون ما كنتم تعملون » ..

وليس أقسى على منكوب بمثل هذه النكبة . من أن يعلم أن الصبر وعدم الصبر سواء . فالعذاب واقع ، ماله من دافع . وألمه واحد مع الصبر ومع الجزع . والبقاء فيه مقرر سواء صبر عليه أم هلع .. والعلة أنه جزاء على ما كان من عمل . فهو جزاء له سببه الواقع فلا تغيير فيه ولا تبديل !

وبذلك ينتهى هذا المشهد الرعيب ؛ كما ينتهى الشوط الأول بإيقاعه العنيف .

***

أما الشوط الثانى فهو مثير للحس ، ولكن بما فيه من رخاء ورغد ، وهتاف بالمتاع لا يقاوم ، وبخاصة بعد مشهد العذاب البئيس :

« إن المتقين فى جنات ونعيم . فاكهين بما آتاهم ربهم ، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين . والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ، ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شىء ، كل امرىء بما كسب رهين . وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ، يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم . ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون . وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا : إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين ؛ فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه ، إنه هو البر الرحيم » ..

والمشهد أقرب إلى مشاهد النعيم الحسى ، الذى يخاطب المشاعر فى أول العهد ، والذى يجتذب النفوس بلذائذ الحس فى صورتها المصفاة . وهو مقابل لذلك العذاب الغليظ الذى تواجه به القلوب الجاسية والقلوب اللاهية كذلك :

« إن المتقين فى جنات ونعيم . فاكهين بما آتاهم ربهم ، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم » . .

ومجرد الوقاية من عذاب الجحيم الذى عرضت مشاهده فى هذه السورة فضل ونعمة . فكيف ومعه « جنات ونعيم » ؟ وهم يلتذون ما آتاهم ربهم ويتفكهون ؟

ومع النعيم ولذته التهنئة والتكريم :

« كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون » . .

وهذا بذاته متاع أكرم . وهم ينادون هذا النداء العلوى ، ويعلن استحقاقهم لما هم فيه :

« متكئين على سرر مصفوفة » . . منسقة يجدون فيها لذة التجمع بإخوانهم فى هذا النعيم :

« وزوجناهم بحور عين » . . وهذه تمثل أمتع ما يجول فى خواطر البشر من متاع جميل .

ويمضى التكريم خطوة فإذا ذريتهم المؤمنة تجتمع إليهم فى هذا النعيم ، زيادة فى الرعاية والعناية . ولو كانت أعمال الذرية أقل من مستوى مقام المتقين ، مادامت هذه الذرية مؤمنة . وذلك دون أن ينقص شىء من أعمال الآباء ودرجاتهم . ودون إخلال بفردية التبعة وحساب كل بعمله الذى كسبه ، إنما هو فضل الله على الجميع :

« والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم . وما ألتناهم من عملهم من شىء . كل امرىء بما كسب رهين » . .

يستطرد المشهد يعرض ألوان المناعم واللذائذ فى ذلك النعيم . فإذا فاكهة ولحم مما يشتهون . وإذا هم يتعاطون فيها كأسا ليست كخمر الدنيا تطلق اللغو والهذر من الشفاه والألسنة ، وتشيع الإثم والمعصية فى الحس والجوارح . إنما هى مصفاة مبرأة : « لا لغو فيها ولا تأثيم » . . وهم يتجاذبونها بينهم ويتعاطونها مجتمعين . زيادة فى الإيناس واللذة والنعيم . فى حين يقوم على خدمتهم ويطوف بالكأس عليهم غلمان صباح أبرياء ، فيهم نظافة ، وفيهم صيانة ، وفيهم نداوة : « كأنهم لؤلؤ مكنون » مما يضاعف إيناس المجلس اللطيف فى الجوارح والقلوب .

واستكمالا لجو المشهد المأنوس يعرض سمرهم فيما بينهم ، وتذاكرهم ماضيهم ، وأسباب ما هم فيه من أمن ورضى ورخاء ورغد وأنس ونعيم . فيكشف للقلوب عن سر هذا المتاع ، ويشير إلى الطريق المؤدى إلى هذا النعيم :

Marfat.com

« وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا : إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين . فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه ، إنه هو البر الرحيم » . .

السر إذن أنهم عاشوا على حذر من هذا اليوم . عاشوا فى خشية من لقاء ربهم. عاشوا مشفقين من حسابه . عاشوا كذلك وهم فى أهلهم ، حيث الأمان الخادع . ولكنهم لم ينخدعوا .وحيث المشغلة الملهية . ولكنهم لم ينشغلوا .

عندئذ من الله عليهم ووقاهم عذاب السموم ، الذى يتخلل الأجسام كالسم الحار اللاذع ! وقاهم هذا العذاب منة منه وفضلا ، لما علم من تقواهم وخشيتهم وإشفاقهم . وهم يعرفون هذا . ويعرفون أن العمل لايدخل صاحبه الجنة إلا بمنة من الله وفضل . فما يبلغ العمل أكثر من أن يشهد لصاحبه أنه بذل جهده ، ورغب فيما عند الله . وهذا هو المؤهل لفضل الله .

وقد كانوا مع الإشفاق والحذر والتقوى يدعون الله : « إنا كنا من قبل ندعوه » ..وهم يعرفون من صفاته البر بعباده والرحمة بعبيده : « إنه هو البر الرحيم » . .

وكذلك ينكشف سر الوصول فى تناجى هؤلاء الناجين المكرمين فى دار النعيم .

Marfat.com

***

والآن وقد تلقى الحس سياط العذاب العنيف فى الشوط الأول ؛ وتلقى هتاف النعيم الرغيد فى الشوط الثانى ؛ وتوفزت بهذا وذلك حساسيته لتلقى الحقائق . . فإن السياق يعاجله بحملة سريعة الإيقاعات . يطارده فيها بالحقائق الصادعة ، ويتعقب وساوسه فى مسارب نفسه فى صورة استفهامات استنكارية، وتحديات قوية ، لايثبت لها الكيان البشرى حين تصل إليه من أى طريق :

« فذكر . فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون : شاعر نتربص به ريب المنون ؟ قل : تربصوا فإنى معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ أم هم قوم طاغون ؟ أم يقولون : تقوله ؟ بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين . أم خلقوا من غير شىء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السماوات والأرض ؟ بل لايوقنون . أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المسيطرون ؟ أم لهم سلم يستمعون فيه ؟ فليأت مستمعهم بسلطان مبين . أم له البنات ولكم البنون ؟ أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ أم يريدون كيدا ؟ فالذين كفروا هم المكيدون . أم لهم إله غير الله ؟ سبحان الله عما يشركون . وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا : سحاب مركوم » ..

« فذكر » . . والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - ليظل فى تذكيره لا يثنيه سوء أدبهم معه ، وسوء اتهامهم له . وقد كانوا يقولون عنه مرة : إنه كاهن . ويقولون عنه مرة : إنه مجنون . ويجمع بين الوصفين عندهم ما كان شائعا بينهم أن الكهان يتلقون عن الشياطين . وأن الشيطان كذلك يتخبط بعض الناس ، فيصابون بالجنون . فالشيطان هو العامل المشترك بين الوصفين : كاهن أو مجنون ! وكان يحملهم على وصف النبي - صلى الله عليه وسلم - بهذا الوصف أو ذاك ، أو بقولهم إنه شاعر أو ساحر . كان يحملهم على هذا كله موقفهم مبهوتين أمام القرآن الكريم المعجز الذى يبدههم بما لم يعهدوا من القول ، وهم أهل القول ! ولما كانوا لا يريدون - لعلة فى نفوسهم - أن يعترفوا أنه من عند الله ، فقد احتاجوا أن يعللوا مصدره المتفوق على البشر . فقالوا : إنه من إيحاء الجن أو بمساعدتهم . فصاحبه إما كاهن يتلقى من الجن ، أو ساحر يستعين بهم ، أو شاعر له رئى من الجن ، أو مجنون به مس من الشيطان ينطقه بهذا القول العجيب !

وإنها لقولة فظيعة شنيعة . فالله - سبحانه - يسلى رسوله عنها ، ويصغر من شأنها فى نفسه . وهو يشهد له أنه محوط بنعمة ربه ، التى لا تكون معها كهانة ولا جنون : « فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » . .

ثم يستنكر قولهم : إنه شاعر : « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ؟ » . . وقد قالوها . وقال بعضهم لبعض : اصبروا عليه ، واثبتوا على ما أنتم فيه ، حتى يأتيه الموت ، فيريحنا منه ! وتواصوا أن يتربصوا به الموت المريح . ومن ثم يلقن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم فى تهديد ملفوف : « قل : تربصوا . إنى معكم من المتربصين » . . وستعلمون من تكون له العاقبة ، ومن ينتهى به التربص إلى النصر والظهور .

ولقد كان شيوخ قريش يلقبون بذوى الحلوم . أو ذوى الأحلام . إشارة إلى رجاحة عقولهم وحكمتهم فى تصريف الأمور . فهو يتهكم بهم وبأحلامهم تجاه الإسلام . وموقفهم منه ينافى الحكمة والعقل ، فيسأل فى تهكم : أهذه الأوصاف التى يصفون بها محمدا - صلى الله عليه وسلم - وتلك المواقف التى يقفونها من رسالته كانت من وحى أحلامهم ؟ أم إنهم طغاة ظالمون لا يقفون عند ما تمليه الأحلام والعقول :

« أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ أم هم قوم طاغون » !

Marfat.com

وفى السؤال الأول تهكم لاذع . وفى السؤال الثانى اتهام مزر . وواحد منهما لا بد لاحق بهم فى موقفهم المريب !

ولقد تطاولت ألسنتهم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاتهموه بافتراء ما يقول . فهو هنا يسأل فى استنكار : إن كانوا يقولون : تقوله : كأن هذه الكلمة لا يمكن أن تقال . فهو يسأل عنها فى استنكار : « أم يقولون تقوّله ؟ » .. ويبادر ببيان علة هذا القول الغريب : « بل لا يؤمنون » . فعدم استشعار قلوبهم للإيمان ، هو الذى ينطقهم بمثل هذا القول ؛ بعد أن يحجبهم عن إدراك حقيقة هذا القرآن . ولو أدركوها لعلموا أنه ليس من صنع بشر ؛ وأنه لا يحمله إلا صادق أمين .

وما دامت قلوبهم لا تستشعر حقيقة هذا التنزيل ؛ فهو يتحداهم إذن ببرهان الواقع الذى لا يقبل المراء : « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » .

وقد تكرر هذا التحدى فى القرآن الكريم ؛ وتلقاه المنكرون عاجزين ، ووقفوا تجاهه صاغرين . وكذلك يقف أمامه كل أحد إلى يوم الدين .

إن فى هذا القرآن سرا خاصا ، يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداء ، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها . إنه يشعر بسلطان خاص فى عبارات هذا القرآن . يشعر أن هنالك شيئا ما وراء المعانى التى يدركها العقل من التعبير . وأن هنالك عنصرا ما ينسكب فى الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن . يدركه بعض الناس واضحا ويدركه بعض الناس غامضا ، ولكنه على كل حال موجود . هذا العنصر الذى ينسكب فى الحس ، يصعب تحديد مصدره : أهو العبارة ذاتها ؟ أهو المعنى الكامن فيها ؟ أهو الصور والظلال التى تشعها ؟ أهو الإيقاع القرآنى الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة ؟ أهى هذه العناصر كلها مجتمعة ؟ أم إنها هى وشىء آخر وراءها غير محدود ؟ !

ذلك سر مودع فى كل نص قرآنى ، يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداء .. ثم تأتى وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير فى بناء القرآن كله :

فى التصور الكامل الصحيح الذى ينشئه فى الحس والقلب والعقل . التصور لحقيقة الوجود الإنسانى ، وحقيقة الوجود كله ، وللحقيقة الأولى التى تنبع منها كل حقيقة . حقيقة الله سبحانه .

وفى الطريقة التى يتبعها القرآن لبناء هذا التصور الكامل الصحيح فى الإدراك البشرى .

Marfat.com

Marfat.com

وهو يخاطب الفطرة ، خطابا خاصا ، غير معهود مثله فى كلام البشر أجمعين ؛ وهو يقلب القلب من جميع جوانبه ومن جميع مداخله ، ويعالجه علاج الخبير بكل زاوية وكل سر فيه .

وفى الشمول والتوازن والتناسق بين توجيهاته كلها ، والاستواء على أفق واحد فيها كلها . مما لا يعهد إطلاقا فى أعمال البشر ، التى لا تستقر على حال واحدة ، ولا تستقيم على مستوى واحد ، ولا تحيط هكذا بجميع الجوانب ، ولا تملك التوازن المطلق الذى لا زيادة فيه ولا نقص ، ولا تفريط فيه ولا إفراط ، والتناسق المطلق الذى لا تعارض فيه ولا تصادم سواء فى ذلك الأصول والفروع .

فهذه الظواهر المدركة . . وأمثالها . . مع ذلك السر الخافى الذى لاسبيل إلى إنكاره... مما يسبغ على هذا الكتاب سمة الإعجاز المطلق فى جميع العصور . وهى مسألة لا يمارى فيها إنسان يحترم حسه ، ويحترم نفسه،ويحترم الحقيقة التى تطالعه بقوة وعمق ووضوح ، حينما واجه هذا القرآن بقلب سليم .. « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » . .

والاستفهام التالى عن حقيقة وجودهم ، هم أنفسهم، وهى حقيقة قائمة لامفر لهم من مواجهتها، ولا سبيل لهم إلى تفسيرها بغير ما يقوله القرآن فيها ، من أن لهم خالقا أوجدهم هو الله سبحانه . وهو موجود بذاته . وهم مخلوقون .

« أم خلقوا من غير شىء ؟ أم هم الخالقون ؟ » . .

ووجودهم هكذا من غير شىء أمر ينكره منطق الفطرة ابتداء ؛ ولا يحتاج إلى جدل كثير أوقليل . أما أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم فأمر لم يدّعوه ولايدعيه مخلوق . وإذا كان هذان الفرضان لايقومان بحكم منطق الفطرة ، فإنه لايبقى إلا الحقيقة التى يقولها القرآن . وهى أنهم جميعا من خلق الله الواحد الذى لايشاركه أحد فى الخلق والإنشاء ؛ فلايجوز أن يشاركه أحد فى الربوبية والعبادة .. وهو منطق واضح بسيط .

كذلك يواجههم بوجود السماوات والأرض حيالهم . فهل هم خلقوها ؟ فإنها لم تخلق نفسها بطبيعة الحال كما أنهم لم يخلقوا أنفسهم :

« أم خلقوا السماوات والأرض ؟ بل لايوقنون » . .

وهم ـ ولاأى عقل يحتكم إلى منطق الفطرة ـ لايقولون : إن السماوات والأرض خلقت نفسها، أوخلقت من غير خالق . وهم كذلك لايدعون أنهم خلقوها . وهى قائمة حيالهم سؤالا حيا يتطلب جوابا على وجوده ! وقد كانوا إذا سئلوا عمن خلق السماوات والأرض قالوا الله..ولكن

Marfat.com

هذه الحقيقة لم تكن تتضح فى إدراكهم إلى درجة اليقين الذى ينشىء آثاره فى القلب، ويحركه إلى اعتقاد واضح دقيق .. « بل لايوقنون » ..

ثم يهبط بهم درجة عن درجة الخلق والإبداع لأنفسهم أوللسماوات والأرض . فيسألهم : هل هم يملكون خزائن الله ، ويسيطرون على القبض والبسط ، والضر والنفع :

« أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المصيطرون ؟ » ..

وإذا لم يكونوا كذلك، ولم يدعوا هذه الدعوى . فمن ذا يملك الخزائن ،ومن ذا يصيطر على مقاليد الأمور ؟ القرآن يقول : إنه الله القابض الباسط ، المدبر المتصرف . وهذا هو التفسير الوحيد لما يجرى فى الكون من قبض وبسط وتصريف وتدبير . بعد انتفاء أن يكونوا هم المالكين للخزائن المصيطرين على تصريف الأمور !

ثم يهبط بهم درجة أخرى فيسألهم إن كانت لهم وسيلة للاستماع إلى مصدر التنزيل :

« أم لهم سلم يستمعون فيه ؟ فليأت مستمعهم بسلطان مبين » .

إن محمداً — صلى الله عليه وسلم — يقول لهم : إنه رسول يوحى إليه ، وإن هذا القرآن يتنزل عليه من الملأ الأعلى . وهم يكذبونه فيما يقول . فهل لهم سلم يستمعون فيه ، فيعلموا أن محمدا لا يوحى إليه ، وأن الحق غير ما يقول ؟ : « فليأت مستمعهم بسلطان مبين » . أى ببرهان قوى يحمل فى ذاته سلطانا على النفوس يلجئها إلى التصديق. وفى هذا تلميح إلى سلطان القرآن الذى يطالعهم فى آياته وحججه ، وهم يكابرون فيها ويعاندون !

ثم يناقش إحدى مقولاتهم المتهافتة عن الله سبحانه . تلك التى ينسبون إليه فيها بنوة الملائكة ، الذين يتصورونهم إناثا ؟ موجها الخطاب مباشرة إليهم،زيادة فى التخجيل والترذيل:

« أم له البنات ولكم البنون ؟ » .

وهم كانوا يعتبرون البنات فى درجة أقل من درجة البنين ، إلى حد أن تسود وجوههم من الكمد والكظم حين يبشرون بالأنثى . وكانوا مع هذا لا يستحيون من نسبة البنات إلى الله ! فهو هنا يأخذهم بعرفهم وتقاليدهم ، ليخجلهم من هذا الادعاء . وهو فى ذاته متهافت لا يستقيم !

وهم كانوا يستثقلون دعوة النبى لهم إلى الهدى ؛ وهو يقدمه لهم خالصا بريئاً ، لا يطلب عليه أجرا ، ولا يفرض عليهم إتاوة . وأيسر ما يقتضيه هذا العرض البرىء أن يستقبل صاحبه

بالحسنى ، وأن يرد بالحسنى إذا لم يقبلوا ما يقدمه لهم ويعرضه عليهم. وهو هنا يستنكر مسلكهم الذى لا داعى له يقول :

« أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ » . .

أى مثقلون من الغرم الذى تكلفهم إياه فى صورة الأجر على ماتقول ! فإذا كان الواقع أن لاأجر ولاغرامة . فكم يبدو عملهم مسترذلا قبيحا ، يخجلون منه حين يواجهون به ؟

ويعود يواجههم بحقيقة وجودهم ووضعهم فى هذا الوجود . فهم عبيد لهم حدود. مكشوف لهم من هذا الوجود بقدر . محجوب عنهم ماوراءه ، مما يختص به صاحب هذا الوجود. فهنالك غيب من اختصاص الله يقف دونه العبيد ، لاعلم لهم به ، لأنهم عبيد :

« أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ » . .

وهم يعلمون أن ليس عندهم الغيب ، وأن ليس لهم به علم ، وأن ليس لهم عليه قدرة . وأنهم لايكتبون فى سجل الغيب شيئا ، إنما يكتب الله فيه مايريد ، مما يقدره للعبيد .

والذى يملك أمر الغيب وما يقدر فيه وما يدبر ، هو الذى يملك أن يدبر فيه وأن يكيد . فما لهم وهم عن الغيب محجوبون ، وفى سجله لايكتبون يكيدون لك ويدبرون ،ويحسبون أنهم قادرون على شىء من أمر المستقبل : فيقولون : شاعر نتربص به ريب المنون ؟ !

« أم يريدون كيدا ؟ فالذين كفروا هم المكيدون » !

وهم الذين يحيق بهم مايقدره صاحب الغيب لهم ، وهم الذين يقع عليهم كيده ومكره . والله خير الماكرين .

« أم لهم إله غير الله ؟ » . . يقيهم ويتولاهم ويرد عنهم كيد الله . . « سبحان الله عما يشركون » وتنزه ـ سبحانه ـ عن تصورهم الباطل السقيم !

وبهذا التنزيه لله سبحانه عن الشرك والشركاء تختم هذه الحملة المتلاحقة الخطى ، القوية الإيقاع . وقد انكشفت كل شبهة ، ودحضت كل حجة ، ووقف القوم أمام الحقيقة العارية مجردين من كل عذر ومن كل دليل . عندئذ يقدمهم على حقيقتهم معاندين مكابرين يمارون فى الحق الواضح ، متمسكين بأدنى شبهة من بعيد :

« وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا : سحاب مركوم » . .

أى إنه إذا أرسل عليهم العذاب فى صورة قطعة من السماء تسقط عليهم وفيها الهلاك ، قالوا

Marfat.com

وهم يرونها تسقط : « سحاب مركوم » . . فيه الماء والحياة ! عنادا منهم أن يسلموا بالحق، ولو كان السيف على رقابهم كما يقولون ! ولعله يشير بهذا إلى قصة عاد . وقولهم حين رأوا سحابة الموت والدمار : « عارض ممطرنا » . . حيث كان الرد : « بل هو ما استعجلتم به : ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شىء بأمر ربها » . .

* * *

وعند هذا الحد من تصوير عنادهم ومكابرتهم فى الحق ، ولو كان فوق رؤوسهم الهلاك ، يتجه بالخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لينفض يده من أمرهم ، ويدعهم لليوم الذى ورد ذكره ووصفه فى أول السورة . وللعذاب الذى ينتظرهم من قبله . وأن يصبر لحكم ربه الذى يعزه ويرعاه ويكلؤه . وأن يسبح بحمد ربه فى الصباح حين يقوم ، ومن الليل، وعند إدبار النجوم .

« فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون . يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون . وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون . واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا، وسبح بحمد ربك حين تقوم . ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » . .

وهو شوط جديد فى الحملة يبدأ بالتهديد، بذلك اليوم الرعيب، يوم ينفخ فى الصور فيصعقون. - قبيل البعث والنشور - يوم لا ينفعهم تدبير ولا ينصرهم نصير . فإذا كانوا اليوم يكيدون ويدبرون ، فهم فى ذلك اليوم لا يغنى عنهم كيد ولا تدبير . على أن لهم قبل ذلك اليوم عذابا - يتركه مجهولا - ولكن أكثرهم لا يعلمون .

ويفرغ بهذا التهديد الأخير من أمر المكذبين الظالمين ، الذين طاردهم هذه المطاردة الطويلة العنيفة ، لينتهى بهم إلى موقف المهدد الذى ينتظره العذاب من بعيد ومن قريب . . يفرغ منه ليلتفت إلى النبى الكريم الذى تطاول عليه المتطاولون ، وتقوّل عليه المتقولون ، يلتفت إليه - صلى الله عليه وسلم - يوجهه إلى الصبر على هذا العناء ، وهذا التكذيب ، وهذا التطاول ؛ والصبر على طريق الدعوة الشاق الطويل . تاركا الأمر لحكم الله يفعل به ما يشاء : « واصبر لحكم ربك » . .

ومع التوجيه إلى الصبر إيذان بالإعزاز الربانى ، والعناية الإلهية ، والأنس الحبيب الذى يمسح على مشقات الطريق مسحا ، ويجعل الصبر عليها أمرا محببا ، وهو الوسيلة إلى هذا الإعزاز الكريم :

Marfat.com

« واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا » ..

وياله من تعبير ! وياله من تصوير ! وياله من تقدير !

إنها مرتبة لم يبلغها قط إنسان . هذه المرتبة التى يصورها هذا التعبيرالفريد فى القرآن كله. حتى بين التعبيرات المشابهة .

لقد قيل لموسى عليه السلام : « وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى » .. وقيل له : « وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى » .. وقيل له : « واصطنعتك لنفسى » ..

وكلها تعبيرات تدل على مقامات رفيعة . ولكنه قيل لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « فإنك بأعيننا » وهو تعبير فيه إعزاز خاص ، وأنس خاص . وهو يلقى ظلا فريدا أرق وأشف من كل ظل .. ولا يملك التعبير البشرى أن يترجم هذا التعبير الخاص . فحسبنا أن نشير إلى ظلاله ، وأن نعيش فى هذه الظلال .

ومع هذا الإيناس هداية إلى طريق الصلة الدائمة به : « وسبح بحمد ربك حين تقوم . ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » .. فعلى مدار اليوم . عند اليقظة من النوم. وفى ثنايا الليل. وعند إدبار النجوم فى الفجر . هنالك مجال الاستمتاع بهذا الإيناس الحبيب . والتسبيح زاد وأنس ومناجاة للقلوب . فكيف بقلب المحب الحبيب القريب ؟؟؟

سورة النجم مكية وآياتها ٦٢

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ .

« أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ؟ * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ؟ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ! * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ، وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ * أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ؟ * فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ * وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ * إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ * وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا .

Marfat.com

« فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا * ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ * وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا بِٱلْحُسْنَى * ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَاحِشَ - إِلَّا ٱللَّمَمَ - إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ، هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ، وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ .

« أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ * وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ؟ * أَعِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ؟ * أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ ٱلْجَزَاءَ ٱلْأَوْفَىٰ ؟ * وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنْتَهَىٰ ؟ * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ؟ * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ؟ * وَأَنَّهُ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنْثَىٰ * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ؟ * وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ؟ * وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ؟ * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ؟ * وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ * وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ؟ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ؟ * هَٰذَا نَذِيرٌ مِنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰ * أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ؟ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ؟ * فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا . (٦٢) » .

هذه السورة فى عمومها كأنها منظومة موسيقية علوية ، منغمة ، يسرى التنغيم فى بنائها اللفظى كما يسرى فى إيقاع فواصلها الموزونة المقفاة . ويلحظ هذا التنغيم فى السورة بصفة عامة ؛

Marfat.com

Marfat.com

ويبدو القصد فيه واضحا فى بعض المواضع ؛ وقد زيدت لفظة أو اختيرت قافية ، لتضمن سلامة التنغيم ودقة إيقاعه -إلى جانب المعنى المقصود الذى تؤديه فى السياق كما هى عادة التعبير القرآنى- مثل ذلك قوله : « أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى » .. فلو قال ومناة الأخرى ينكسر الوزن . ولو قال: ومناة الثالثة فقط يتعطل إيقاع القافية . ولكل كلمة قيمتها فى معنى العبارة . ولكن مراعاة الوزن والقافية كذلك ملحوظة. ومثلها كلمة« إذن » فى وزن الآيتين بعدها : « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى ! » فكلمة « إذن » ضرورية للوزن . وإن كانت ـ مع هذا ـ تؤدى غرضا فنيا فى العبارة . . . وهكذا .

ذلك الإيقاع ذولون موسيقى خاص . لون يلحظ فيه التموج والانسياب . وبخاصة فى المقطع الأول والمقطع الأخير من السورة . وهو يتناسق بتموجه وانسيابه مع الصور والظلال الطليقة المرفرفة فى المقطع الأول . ومع المعانى واللمسات العلوية فى المقطع الأخير . وما بينهما مما هو قريب منهما فى الجو والموضوع .

والصور والظلال فى المقطع الأول،تشع من المجال العلوى الذى تقع فيه الأحداث النورانية والمشاهد الربانية التى يصفها هذا المقطع . ومن الحركات الطليقة للروح الأمين وهو يتراءى للرسول الكريم . . والصور والظلال والحركات والمشاهد والجو الروحى المصاحب ، تستمد وتمد ذلك الإيقاع التعبيرى وتمتزج به ، وتتناسق معه ، وتتراءى فيه ، فى توافق منغم عجيب .

ثم يعم ذلك العبق جو السورة كله ، ويترك آثاره فى مقاطعها التالية ، حتى تختم بإيقاع موح شديد الإيحاء مؤثر عميق التأثير . ترتعش له كل ذرة فى الكيان البشرى وترف معه وتستجيب .

***

وموضوع السورة الذى تعالجه هو موضوع السور المكية على الإطلاق: العقيدة بموضوعاتها الرئيسية : الوحى والوحدانية والآخرة . والسورة تتناول الموضوع من زاوية معينة تتجه إلى بيان صدق الوحى بهذه العقيدة ووثاقته ، ووهن عقيدة الشرك وتهافت أساسها الوهمى الموهون !

والمقطع الأول فى السورة يستهدف بيان حقيقة الوحى وطبيعته، ويصف مشهدين من مشاهده ، ويثبت صحته وواقعيته فى ظل هذين المشهدين ؛ ويؤكد تلقى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن جبريل ـ عليه السلام ـ تلقى رؤية وتمكن ودقة ، واطلاعه على آيات ربه الكبرى .

Marfat.com

ويتحدث المقطع الثانى عن آلهتهم المدعاة: اللات والعزى ومناة . وأوهامهم عن الملائكة. وأساطيرهم حول بنوتها لله . واعتمادهم فى هذا كله على الظن الذى لا يغنى من الحق شيئا . بينما الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يدعوهم إلى مادعاهم إليه عن تثبت ورؤية ويقين .

والمقطع الثالث يلقن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ الإعراض عمن يتولى عن ذكر الله ويشغل نفسه بالدنيا وحدها ، ويقف عند هذا الحد لا يعلم وراءه شيئا . ويشير إلى الآخرة ومافيها من جزاء يقوم على عمل الخلق ، وعلى علم الله بهم ، منذ أنشأهم من الأرض ، ومنذ كانوا أجنة فى بطون أمهاتهم. فهو أعلم بهم من أنفسهم، وعلى أساس هذا العلم المستيقن ــ لا الظن والوهم ــ يكون حسابهم وجزاؤهم ، ويصير أمرهم فى نهاية المطاف

والمقطع الرابع والأخير يستعرض أصول العقيدة ــ كما هى منذ أقدم الرسالات ــ من فردية التبعة ، ودقة الحساب ، وعدالة الجزاء . ومن انتهاء الخلق إلى ربهم المتصرف فى أمرهم كله تصرف المشيئة المطلقة . ومع هذا لفتة إلى مصارع الغابرين المكذبين . تختم بالإيقاع الأخير : « هذا نذير من النذر الأولى . أزفت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة . أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ، ولا تبكون ، وأنتم سامدون ؟ فاسجدوا لله واعبدوا » . . حيث يلتقى المطلع والختام فى الإيحاء والصور والظلال والإيقاع العام .

* * *

« والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وماغوى . ومابنطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ماأوحى . ما كذب الفؤاد مارأى . أفتمارونه على مايرى ؟ ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة مايغشى . مازاغ البصر وماطغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى » . .

فى هذا المطلع نعيش لحظات فى ذلك الأفق الوضىء الطليق المرفرف الذى عاش فيه قلب محمد ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ ونرف بأجنحة النور المنطلقة إلى ذلك الملإ الأعلى ؛ ونستمع إلى الإيقاع الرخى المنساب ، فى جرس العبارة وفى ظلالها وإيحائها على السواء .

نعيش لحظات مع قلب محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ مكشوفة عنه الحجب ، مزاحة عنه الأستار : يتلقى من الملإ الأعلى . يسمع ويرى ، ويحفظ ماوعى . وهى لحظات خص بها ذلك القلب المصفى ؛ ولكن الله يمن على عباده ، فيصف لهم هذه اللحظات وصفا موحيا مؤثرا، ينقل

أصداءها وظلالها وإيحاءها إلى قلوبهم . يصف لهم رحلة هذا القلب المصفى . فى رحاب الملإ الأعلى . يصفها لهم خطوة خطوة ، ومشهدا مشهدا، وحالة حالة ، حتى لكأنهم كانوا شاهديها .

ويبدأ الوصف الوحى بقسم من الله سبحانه : « والنجم إذا هوى » . . وحركة تلألؤ النجم ثم هويه ودنوه . أشبه بمشهد جبريل القسم عليه : « وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أوأدنى . فأوحى إلى عبده ماأوحى » . . وهكذا يبدأ التناسق والتوافق فى المشهد والحركة والظل والإيقاع منذ اللحظة الأولى .

« والنجم إذا هوى » . . وقد رويت تفسيرات مختلفة للنجم المقصود فى هذا القسم . وأقرب مايرد على الذهن أنها إشارة إلى الشعرى ، التى كان بعضهم يعبدها . والتى ورد ذكرها فى السورة فيما بعد فى قوله : « وأنه هو رب الشعرى » . . وقد كان للشعرى من اهتمام الأقدمين حظ كبير . ومما هو معروف أن قدماء المصريين كانوا يوقتون فيضان النيل بعبور الشعرى بالفلك الأعلى . ويرصدونها من أجل هذا ويرقبون حركاتها . ولها شأن فى أساطير الفرس وأساطير العرب على السواء . فالأقرب أن تكون هذه الإشارة هنا إليها . ويكون اختيار مشهد هوى النجم مقصودا للتناسق الذى أشرنا إليه . ولمعنى آخر هو الإيحاء بأن النجم مهما يكن عظيما هائلا فإنه يهوى ويتغير مقامه. فلا يليق أن يكون معبودا . فالمعبود الثبات والارتفاع والدوام .

ذلك هو القسم . فأما المقسم عليه ، فهو أمر النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ مع الوحى الذى يحدثهم عنه :

« ماضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى »

فصاحبكم راشد غير ضال . مهتد غير غاو : مخلص غير مغرض . مبلغ بالحق عن الحق غير واهم ولا مفتر ولا مبتدع . ولا ناطق عن الهوى فيما يبلغكم من الرسالة . إن هو إلا وحى يوحى . وهو يبلغكم ما يوحى إليه صادقا أمينا .

هذا الوحى معروف حامله . مستيقن طريقه . مشهودة رحلته . رآه الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ رأى العين والقلب ، فلم يكن واهما ولا مخدوعا :

« علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أوأدنى. فأوحى إلى عبده ماأوحى . ما كذب الفؤاد مارأى . أفتمارونه على مايرى؟» . .

والشديد القوى ذو المرة « أى القوة » ،هو جبريل ــ عليه السلام ــ وهو الذى علم صاحبكم مابلغه إليكم . وهذا هو الطريق ، وهذه هى الرحلة ، مشهودة بدقائقها : استوى وهو

Marfat.com

بالأفق الأعلى . حيث رآه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان ذلك فى مبدأ الوحى . حين رآه على صورته التى خلقه الله عليها ، يسد الأفق بخلقه الهائل . ثم دنا منه فتدلى نازلا مقتربا إليه. وكان أقرب ما يكون منه . على بعد ما بين القوسين أو أدنى ـ وهو تعبير عن منتهى القرب ـ فأوحى إلى عبد الله ما أوحى . بهذا الإجمال والتفخيم والتهويل .

فهى رؤية عن قرب بعد التراءى عن بعد . وهو وحى وتعليم ومشاهدة وتيقن .

وهى حال لا يتأتى معها كذب فى الرؤية ، ولا تحتمل مماراة أو مجادلة : « ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى ؟ » . . ورؤية الفؤاد أصدق وأثبت ، لأنها تنفى خداع النظر . فلقد رأى فثبت فاستيقن فؤاده أنه الملك ، حامل الوحى ، رسول ربه إليه ، ليعلمه ويكلفه تبليغ ما يعلم . وانتهى المراء والجدال ، فما عاد لهما مكان بعد تثبت القلب ويقين الفؤاد .

وليست هذه هى المرة الوحيدة التى رآه فيها على صورته . فقد تكررت مرة أخرى :

« ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . مازاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

وكان ذلك فى ليلة الإسراء والمعراج ـ على الراجح من الروايات ـ فقددنا منه ـ وهو على هيئته التى خلقه الله بها مرة أخرى « عند سدرة المنتهى » . . والسدرة كما يعرف من اللفظ شجرة . فأما أنها سدرة المنتهى . فقد يعنى هذا أنها التى ينتهى إليها المطاف . فجنة المأوى عندها. أو التى انتهت إليها رحلة المعراج . أو التى انتهت إليها صحبة جبريل لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث وقف هو وصعد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ درجة أخرى أقرب إلى عرش ربه وأدنى . . وكله غيب من غيب الله ، أطلع عليه عبده المصطفى ، ولم يرد إلينا عنه إلا هذا . وكله أمر فوق طاقتنا أن ندرك كيفيته . فلا يدركها الإنسان إلا بمشيئة من خالقه وخالق الملائكة ، العليم بخصائص الإنسان وخصائص الملائكة . .

ويذكر ما لابس هذه الرؤية عند سدرة المنتهى زيادة فى التوكيد واليقين : « إذ يغشى السدرة ما يغشى » . . مما لا يفصله ولا يحدده . فقد كان أهول وأضخم من الوصف والتحديد.

وكان ذلك كله حقا يقينا : « مازاغ البصر وما طغى » . . فلم يكن زغللة عين ، ولا تجاوز رؤية . إنما هى المشاهدة الواضحة المحققة ، التى لا تحتمل شكا ولاظنا . وقد عاين فيها من آيات ربه الكبرى ، واتصل قلبه بالحقيقة عارية مباشرة مكشوفة .

فالأمر إذن ـ أمر الوحى ـ أمر عيان مشهود . ورؤية محققة . ويقين جازم . واتصال

مباشر . ومعرفة مؤكدة . وصحبة محسوسة . ورحلة واقعية . بكل تفصيلاتها ومراجعها . وعلى هذا اليقين تقوم دعوة «صاحبكم» الذى تنكرون عليه وتكذبونه وتشككون فى صدق الوحى إليه . وهو صاحبكم الذى عرفتموه وخبرتموه . وما هو بغريب عنكم فتجهلوه . وربه يصدقه ويقسم على صدقه . ويقص عليكم كيف أوحى إليه . وفى أى الظروف . وعلى يد من وكيف لاقاه . وأين رآه !

* * *

ذلك هو الأمر المستيقن ، الذى يدعوهم إليه محمد - صلى الله عليه وسلم - فأما هم فعلام يستندون فى عبادتهم وآلهتهم وأساطيرهم ؟ علام يستندون فى عبادتهم للات والعزى ومناة؟ وفى ادعائهم الغامض أنهن ملائكة ، وأن الملائكة بنات الله ؟ وأن لهن شفاعة ترتجى عند الله؟ إلى أى بينة ؟ وإلى أية حجة ؟ وإلى أى سلطان يرتكنون فى هذه الأوهام ؟ هذا مايعالجه المقطع الثانى فى السورة :

« أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى ! إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان . إن يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى . أم للإنسان ماتمنى ؟ فلله الآخرة والأولى . وكم من ملك فى السماوات لاتغنى شفاعتهم شيئا ، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . إن الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . ومالهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لايغنى من الحق شيئا » ..

وكانت « اللات » صخرة بيضاء منقوشة ، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة ، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف وهم ثقيف ومن تابعها ، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب عدا قريش لأن عندهم الكعبة بيت إبراهيم عليه السلام . ويظن أن اسمها « اللات » مؤنث لفظ الجلالة « الله » . سبحانه وتعالى .

وكانت «العزى» شجرة عليها بناء وأستار بنخلة - وهى بين مكة والطائف - وكانت قريش تعظمها . كما قال أبو سفيان يوم أحد . لنا العزى ولاعزى لكم . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « قولوا : الله مولانا ولامولى لكم » . ويظن أن اسمها « العزى » مؤنث « العزيز » ..

Marfat.com

Marfat.com

وكانت « مناة » بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة. وكانت خزاعة والأوس والخزرج فى جاهليتهم يعظمونها ، ويهلون منها للحج إلى الكعبة .

وكان بالجزيرة كثير من هذه المعبودات تعظمها القبائل المختلفة . ولكن هذه الثلاثة كانت أعظمها .

والمظنون أن هذه المعبودات كانت رموزا للملائكة يعتبرهن العرب إناثا ويقولون : إنهن بنات الله . ومن هنا جاءت عبادتها ، والذى يقع غالبا أن ينسى الأصل ، ثم تصبح هذه الرموز معبودات بذاتها عند جمهرة العباد . ولا تبقى إلا قلة متنورة هى التى تذكر أصل الأسطورة !

فلما ذكر الله هذه المعبودات الثلاثة معجبا منها ومن عبادتها كما تفيد صيغة السؤال ولفظه :

« أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى ؟ » . .

والتعجيب والتشهير واضح فى افتتاح السؤال : « أفرأيتم ؟ » وفى الحديث عن مناة . . الثالثة الأخرى . .

لما ذكر الله هذه المعبودات عقب عليها باستنكار دعواهم أن لله الإناث وأن لهم الذكور :

« ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى » . .

مما يوحى بأن لهذه المعبودات صلة بأسطورة أنوثة الملائكة ، ونسبتها إلى الله سبحانه . مما يرجح ماذكرناه عنها . وقد كانوا هم يكرهون ولادة البنات لهم . ومع هذا لم يستحيوا أن يجعلوا الملائكة إناثا ــ وهم لا يعلمون عنهم شيئا يلزمهم بهذا التصور . وأن ينسبوا هؤلاء الإناث إلى الله !

والله ــ سبحانه ــ يأخذهم هنا بتصوراتهم وأساطيرهم ؛ ويسخر منها ومنهم : « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ » . . إنها إذن قسمة غير عادلة قسمتكم بين أنفسكم وبين الله ! « تلك إذن قسمة ضيزى ! » . .

والمسألة كلها وهم لا أساس له من العلم ولا من الواقع . ولا حجة فيها ولا دليل :

« إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس . ولقد جاءهم من ربهم الهدى » !

هذه الأسماء . اللات . العزى . مناة . . وغيرها . وتسميتها آلهة وتسميتها ملائكة . وتسمية الملائكة إناثا . وتسمية الإناث بنات الله . . . كلها أسماء لا مدلول لها ، ولا حقيقة وراءها ــ

ولم يجعل الله لكم حجة فيها . وكل مالم يقرره الله فلا قوة فيه ولا سلطان له . لأنه لاحقيقة له . وللحقيقة ثقل . وللحقيقة قوة . وللحقيقة سلطان فأما الأباطيل فهى خفيفة لاوزن لها . ضعيفة لاقوة لها . مهينة لاسلطان فيها .

وفى منتصف الآية يتركهم وأوهامهم وأساطيرهم ، ويترك خطابهم ، ويلتفت عنهم كأنهم لا وجود لهم ، ويتحدث عنهم بصيغة الغائب : « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس » . . فلا حجة ولاعلم ولا يقين . إنما هو الظن يقيمون عليه العقيدة ، والهوى يستمدون منه الدليل . والعقيدة لامجال فيها للظن والهوى ؛ ولا بد فيها من اليقين القاطع والتجرد من الهوى والغرض . . وهم لم يتبعوا الظن والهوى ولهم عذر أو علة : « ولقد جاءهم من ربهم الهدى » . . فانقطع العذر وبطل التعلل !

ومتى انتهى الأمر إلى شهوة النفس وهواها فلن يستقيم أمر ، ولن يجدى هدى ؛ لأن العلة هنا ليست خفاء الحق ، ولا ضعف الدليل . إنما هى الهوى الجامح الذى يريد ، ثم يبحث بعد ذلك عن مبرر لما يريد ! وهى شر حالة تصاب بها النفس فلا ينفعها الهدى ، ولا يقنعها الدليل!

ومن ثم يسأل فى استنكار :

« أم للإنسان ما تمنى ؟ » . .

فكل مايتمنى يتحول إلى حقيقة وكل مايهوى ينقلب إلى واقع ! والأمر ليس كذلك . فإن الحق حق والواقع واقع . وهوى النفس ومناها لا يغيران ولايبدلان فى الحقائق . إنما يضل الإنسان بهواه ، ويهلك بمناه . وهو أضعف من أن يغير أويبدل فى طبائع الأشياء . وإنما الأمر كله لله يتصرف فيه كما يشاء فى الدنيا وفى الآخرة سواء :

« فلله الآخرة والأولى » . .

ولاننسى أن نلحظ هنا تقديم الآخرة على الأولى . لمراعاة قافية السورة وإيقاعها . إلى جانب النكتة المعنوية المقصودة بتقديم الآخرة على الأولى . كما هى طبيعة الأسلوب القرآنى فى الجمع بين أداء المعنى وتنغيم الإيقاع . دون إخلال بهذا على حساب ذاك ! شأنه شأن كل ماهو من صنع الله . فالجمال فى الكون كله يتناسق مع الوظيفة ويؤاخيها !

وإذا خلص الأمر كله لله فى الآخرة والأولى . فإن أوهام المشركين عن شفاعة الآلهة المدعاة — من الملائكة — لهم عند الله . كما قالوا : « مانعبدهم إلاليقربونا إلى الله زلفى » . . إن هذه

Marfat.com

الأوهام لاأصل لها . فالملائكة الحقة فى السماء لاتملك الشفاعة إلاحين يأذن الله فى شىء منها :

« وكم من ملك فى السماوات لاتغنى شفاعتهم شيئا . إلامن بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » . .

ومن ثم تسقط دعواهم من أساسها . فوقمافيها من بطلان تولى تفنيده فى الآيات السابقة. وتتجرد العقيدة من كل غبش أوشبهة . فالأمر لله فى الآخرة والأولى ومنى الإنسان لاتغير من الحق الواقع شيئا . والشفاعة لاتقبل إلاباذن من الله ورضى . فالأمر إليه فى النهاية . والاتجاه إليه وحده فى الآخرة والأولى .

وفى نهاية الفقرة يناقش للمرة الأخيرة أوهام المشركين ـ الذين لايؤمنون بالآخرة ـ عن الملائكة ؛ ويكشف عن أساسها الواهى ، الذى لاينبغى أن تقوم عليه عقيدة أصلا :

« إن الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . ومالهم به من علم . إن يتبعون إلاالظن ، وإن الظن لايغنى عن الحق شيئا » . .

وهذا التعقيب الأخير يوحى بعلاقة اللات والعزى ومناة بأسطورة أنوثة الملائكة ونسبتهم إلى الله سبحانه ! وهى أسطورة واهية ، لايتبعون فيها إلاالظن. فليس لهم من وسيلة لأن يعلموا شيئا مستيقنا عن طبيعة الملائكة . وأما نسبتهم إلى الله . فهى الباطل الذى لادليل عليه إلاالوهم الباطل ! وكل هذا لايغنى عن الحق ، ولايقوم مقامه فى شىء . الحق الذى يتركونه ويستغنون عنه بالأوهام والظنون !

* * *

وحين يبلغ إلى هذا الحد من بيان وهن عقيدة الشرك وتهافتها عند الذين لايؤمنون بالآخرة، ويشركون بالله ، وينسبون له البنات ويسمون الملائكة تسمية الأنثى ! يتجه بالخطاب إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليهمل شأنهم ويعرض عنهم ، ويدع أمرهم لله الذى يعلم المسىء والمحسن ، ويجزى المهدى والضال ، ويملك أمر السماوات والأرض ، وأمر الدنيا والآخرة ، ويحاسب بالعدل لا يظلم أحدا ، ويتجاوز عن الذنوب التى لايصر عليها فاعلوها . وهو الخبير بالنوايا والطوايا ، لأنه خالق البشر المطلع على حقيقتهم فى أطوار حياتهم جميعا :

« فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى . ولله مافى السماوات وما فى الأرض

Marfat.com

ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى . الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ـ إلا اللمم ـ إن ربك واسع المغفرة . هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم . فلا تزكوا أنفسكم . هو أعلم بمن اتقى » . .

هذا الأمر بالإعراض عمن تولى عن ذكر الله ، ولم يؤمن بالآخرة ، ولم يرد إلا الحياة الدنيا . موجه ابتداء إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليهمل شأن أولئك المشركين الذين سبق الحديث فى السورة عن أساطيرهم وأوهامهم وعدم إيمانهم بالآخرة .

وهو موجه بعد ذلك إلى كل مسلم يواجه من يتولى عن ذكر الله ويعرض عن الإيمان به ؛ ويجعل وجهته الحياة الدنيا وحدها ، لا ينظر إلى شىء وراءها ، ولا يؤمن بالآخرة ولا يحسب حسابها . ويرى أن حياة الإنسان على هذه الأرض هى غاية وجوده ، لا غاية بعدها ؛ ويقيم منهجه فى الحياة على هذا الاعتبار ، فيفصل ضمير الإنسان عن الشعور بإله يدبر أمره ، ويحاسبه على عمله ، بعد رحلة الأرض المحدودة . وأقرب من تتمثل فيه هذه الصفة فى زماننا هذا هم أصحاب المذاهب المادية .

والمؤمن بالله وبالآخرة لا يستطيع أن يشغل باله ـ فضلا على أن يعامل أو يعايش ـ من يعرض عن ذكر الله ، وينفى الآخرة من حسابه . لأن لكل منهما منهجا فى الحياة لا يلتقيان فى خطوة واحدة من خطواته ، ولا فى نقطة واحدة من نقاطه . وجميع مقاييس الحياة ، وجميع قيمها ،وجميع أهدافها ، تختلف فى تصور كل منهما . فلا يمكن إذن أن يتعاونا فى الحياة أى تعاون ، ولا أن يشتركا فى أى نشاط على هذه الأرض . مع هذا الاختلاف الرئيسى فى تصور قيم الحياة وأهدافها ومناهج النشاط فيها ، وغاية هذا النشاط . ومادام التعاون والمشاركة متعذرين فما داعى الاهتمام والاحتفال ؟ إن المؤمن يعبث حين يحفل شأن هؤلاء الذين يعرضون عن ذكر الله ولا يريدون إلا الحياة الدنيا . وينفق طاقته التى وهبه الله إياها فى غير موضعها .

على أن للإعراض اتجاها آخر ، هو التهوين من شأن هذه الفئة. فئة الذين لا يؤمنون بالله؛ ولا يبتغون شيئا وراء الحياة الدنيا . فمهما كان شأنهم فهم محجوبون عن الحقيقة ، قاصرون عن إدراكها ، واقفون وراء الأسوار . أسوار الحياة الدنيا . . « ذلك مبلغهم من العلم » . وهو مبلغ تافه مهما بدا عظيما . قاصر مهما بدا شاملا . مضلل مهما بدا هاديا . وما يمكن أن يعلم شيئا ذا قيمة من يقف بقلبه وحسه وعقله عند حدود هذه الأرض . ووراءها ـ حتى فى رأى العين ـ

Marfat.com

Marfat.com

عالم هائل لم يخلق نفسه . ووجوده هكذا أمر ترفضه البداهة . ولم يوجد عبثا متى كان له خالق. وإنه امبث أن تكون الحياة الدنيا هى نهاية هذا الخلق الهائل وغايته . . فإدراك حقيقة هذا الكون من أى طرف من أطرافها كفيل بالإيمان بالخالق . وكفيل كذلك بالإيمان بالآخرة . نفيا للعبث عن هذا الخالق العظيم الذى يبدع هذا الكون الكبير .

ومن ثم يجب الإعراض عمن يتولى عن ذكر الله ويقف عند حدود الدنيا ، الإعراض على سبيل صيانة الاهتمام أن يبذل فى غير موضعه والإعراض على سبيل التهوين والاحتقار لمن هذا مبلغ علمه . ونحن مأمورون بهذا إن أردنا أن نتاقى أمر الله لنطيعه . لالقول كما قالت يهود : سمعنا وعصينا .. والعياذ بالله من هذا !

« إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى » ..

وقد علم أن هؤلاء ضالون : فلم يرد لنبيه ولاللمهتدين من أمته أن يشغلوا أنفسهم بشأن الضالين . ولاأن يصاحبوهم ولاأن يحفلوهم . ولاأن يخدعوا فى ظاهر علمهم المضلل القاصر ، الذى يقف عند حدود الحياة الدنيا . ويحول بين الإدراك البشرى والحقيقة الخالصة، التى تقود من يدركها إلى الإيمان بالله ، والإيمان بالآخرة ، وتتخطى به حدود هذه الأرض القريبة ، وهذه الحياة الدنيا المحدودة .

وإن العلم الذى يبلغه هؤلاء القاصرون الضالون ليبدو فى أعين العوام وأشباههم . عوام القلب والإدراك والحس . شيئا عظيما ذا فاعلية وأثر فى واقع الحياة الدنيا . ولكن هذا لاينفى صفة الضلال عنهم فى النهاية ، ولاصفة الجهل والقصور . فحقيقة الارتباط بين هذا الوجود وخالقه . وحقيقة الارتباط بين عمل الإنسان وجزائه . هاتان الحقيقتان ضروريتان لكل علم حق . وبدونهما يبقى العلم قشورا لاتؤثر فى حياة الإنسان ولا ترقيها ولاترفعها . وقيمة كل علم مرهونة بأثره فى النفس وفى ارتباطات البشر الأدبية . وإلافهو تقدم فى الآلات وانتكاس فى الآدميين . وماأبأسه من علم هذا الذى ترتقى فيه الآلات على حساب الآدميين !!!

وشعور الإنسان بأن له خالقا خلقه وخلق هذا الكون كله ، وفق ناموس واحد متناسق . يغير من شعوره بالحياة ، وشعوره بما حوله وبمن حوله ؛ ويجعل لوجوده قيمة وهدفا وغاية أكبر وأشمل وأرفع ، لأن وجوده مرتبط بهذا الكون كله ؛ فهو أكبر من ذاته المعدودة الأيام . وأكبر من أسرته المعدودة الأفراد . وأكبر من قومه ، وأكبر من وطنه ،

وأكبر من طبقته التي يطنطن بها أصحاب المذاهب المادية الحديثة . وأرفع من اهتمامات هـذه التشكيلات جميعا !

وشعور الإنسان بأن خالقه محاسبه في الآخرة ومجازيه . يغير من تصوراته ومن موازينه ومن حوافزه ومن أهدافه . ويربط الحاسة الأخلاقية في نفسه بمصيره كله ، فيزيدها قوة وفاعلية . لأن هلاكه أو نجاته مرهونة بيقظة هذه الحاسة وتأثيرها في نيته وعمله . ومن ثم يقوى « الإنسان » ويسيطر على تصرفات هـذا الكائن . لأن الرقيب الحارس قد استيقظ ! ولأن الحساب الختامي ينتظره هناك . ومن الناحية الأخرى فهو مطمئن إلى الخير واثق من انتصاره في الحساب الختامي . حتى لو رآه ينهزم في الأرض في بعض الجولات ! وهو مكلف دائما أن ينصر الخير ويكافح في سبيله سواء هزم في هذه الأرض أو انتصر لأن الجزاء النهائي هناك !

إنهـا مسألة كبيرة هذا الإيمان بالله والإيمان بالآخرة . مسألة أساسية في حياة البشر . إنها حاجة أكبر من حاجات الطعام والشراب والكساء . وإنها إما أن تكون فيكون « الإنسان » وإما ألا تـكون فهو حيوان من ذلك الحيوان !

وحين تفترق المعايير والأهداف والغايات وتصور الحياة كلها هذا الاختلاف ، فلا مجال حينئذ إلى مشاركة أو تعامل أو حتى تعارف ينشأ عنه قسط من الاهتمام .

ومن ثم لايمكن أن تقوم علاقة أو صحبة أو شركة أو تعاون ، أو أخذ وعطاء ، أو اهتمام واحتفال بين مؤمن بالله ، وآخر أعرض عن ذكره ولم يرد إلا الحياة الدنيا. وكل قول غير هذا فهو محال ومراء ، يخالف عن أمر الله : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا » . .

« ولله مافي السماوات وما في الأرض . ليجزي الذين أساءوا بمـا عمـلوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى » . .

وهذا التقرير لملكية الله ـ وحده ـ لمـا في السماوات ومافي الأرض ، يمنح قضية الآخرة قوة وتأثيرا . فالذي جعل الآخرة وقدرها هو الذي يملك مافي السماوات ومافي الأرض وحده ، فهو القادر على الجزاء ، المختص به ، المالك لأسبابه .ومن شأن هذه الملكية أن تحقق الجزاء الكامل العادل : « ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى » . .

ثم يحدد الذين أحسنوا هؤلاء ، والذين يجزيهم بالحسنى . . فهم :

Marfat.com

« الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش . إلااللمم » .

وكبائر الإثم هى كبار المعاصى . والفواحش كل ماعظم من الذنب وفحش . واللمم تختلف الأقوال فيه . فابن كثير يقول : وهـذا استثناء منقطع لأن اللمم من صغار الذنوب ومحقرات الأعمال . قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : مارأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبوهريرة ، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : « إن الله تعالى إذا كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لامحالة . فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تمنى وتشتهى ، والفرج يصدق ذلك أويكذبه » (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد ابن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن ثور ، حدثنا معمر ، عن الأعمش ، عن أبى الضحى أن ابن مسعود قال : زنا العين النظر ، وزنا الشفتين التقبيل ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين المشى . ويصدق ذلك الفرج أويكذبه . فإن تقدم بفرجه كان زانيا وإلافهو اللمم . وكذا قال مسروق والشعبى .

وقال عبد الرحمان ابن نافع الذى يقال له ابن لبابة الطائفى ، قال : سألت أباهريرة عن قول الله : « إلااللمم » قال : القبلة والنظرة والغمزة والمباشرة . فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل . وهو الزنا .

فهذه أقوال متقاربة فى تعريف اللمم .

وهناك أقوال أخرى :

قال على ابن طلحة عن ابن عباس : « إلا اللمم » إلا ماسلف . وكذا قال زيد ابن أسلم .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن المثنى ، حدثنا محمد ابن جعفر ، حدثنا شعبة عن منصور ، عن مجاهد ، أنه قال فى هذه الآية : « إلا اللمم » قال : الذى يلم بالذنب ثم يدعه .

وقال ابن جرير : حدثنى سليمان ابن عبد الجبار : حدثنا أبو عاصم ، حدثنا ز كريا عن ابن إسحاق ، عن عمرو ابن دينـار ، عن عطاء ، عن ابن عباس : « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم » . قال : هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب . وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن تغفر اللهم تغفر جما   وأى عبد لك ما ألما ؟

---

(١) أخرجاه فى الصحيحين من حديث عبد الرزاق .

Marfat.com

Marfat.com

وهكذا رواه الترمذى عن أحمد ابن عثمان البصرى عن أبى عاصم النبيل . ثم قال : هذا حديث صحيح حسن غريب لانعرفه إلا من حديث زكريا ابن إسحاق . وكذا قال البزار لانعلمه يروى متصلا إلا من هذا الوجه .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد ابن عبد الله ابن بزيع . حدثنا يزيد ابن زريع . حدثنا يونس ، عن الحسن ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - (أراه رفعه) فى « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم » . قال : اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود . واللمة من السرقة ثم يتوب ولا يعود . واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود . قال : فذلك الإلمام . .

وروى مثل هذا موقوفا على الحسن .

فهذه طائفة أخرى من الأقوال تحدد معنى اللمم تحديدا غير الأول .

والذى نراه أن هذا القول الأخير أكثر تناسبا مع قوله تعالى بعد ذلك : « إن ربك واسع المغفرة» . . فذكر سعة المغفرة يناسب أن يكون اللمم هو الإتيان بتلك الكبائر والفواحش، ثم التوبة . ويكون الاستثناء غير منقطع . ويكون الذين أحسنوا هم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش . إلا أن يقعوا فى شىء منها ثم يعودوا سريعا ولا يلجوا ولا يصروا . كما قال الله سبحانه : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم - ومن يغفر الذنوب إلا الله - ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون » . . وسمى هؤلاء « المتقين » ووعدهم مغفرة وجنة عرضها السماوات والأرض (١) . فهذا هو الأقرب إلى رحمة الله ومغفرته الواسعة .

وختم الآية بأن هذا الجزاء بالسوءى وبالحسنى مستند إلى علم الله بحقيقة دخائل الناس فى أطوارهم كلها .

« هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذا انتم أجنة فى بطون أمهاتكم » . .

فهو العلم السابق على ظاهر أعمالهم . العلم المتعلق بحقيقتهم الثابتة ، التى لا يعلمونها هم ، ولا يعرفها إلا الذى خلقهم . علم كان وهو ينشىء أصلهم من الأرض وهم بعد فى عالم الغيب . وكان وهم أجنة فى بطون أمهاتهم لم يروا النور بعد . علم بالحقيقة قبل الظاهر . وبالطبيعة قبل العمل .

---

(١) سورة آل عمران [١٣٣ - ١٣٦].

ومن كانت هذه طبيعة علمه يكون من اللغو - بل من سوء الأدب - أن يعرّفه إنسان بنفسه، وأن يعلمه - سبحانه - بحقيقته! وأن يثني على نفسه أمامه يقول له: أنا كذا وأنا كذا:

« فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » ..

فما هو بحاجة إلى أن تدلوه على أنفسكم، ولا أن تزنوا له أعمالكم؛ فعنده العلم الكامل. وعنده الميزان الدقيق. وجزاؤه العدل. وقوله الفصل. وإليه يرجع الأمر كله.

* * *

بعد ذلك يجيء المقطع الأخير في السورة. في إيقاع كامل التنغيم. أشبه بإيقاع المقطع الأول. يقرر الحقائق الأساسية للعقيدة كما هي ثابتة منذ إبراهيم صاحب الحنيفية الأولى. ويعرف البشر بخالقهم، بتعليمهم بمشيئته الفاعلة المبدعة المؤثرة في حياتهم ويعرض آثارها واحدا واحدا بصورة تلمس الوجدان البشري وتذكره وتهزه هزا عميقا.. حتى إذا كان الختام وكان الإيقاع الأخير تلقته المشاعر مرتجفة مرتعشة متأثرة مستجيبة:

« أفرأيت الذي تولى، وأعطى قليلا وأكدى؟ أعنده علم الغيب فهو يرى؟ أم لم ينبأ بما في صحف موسى، وإبراهيم الذي وفى. ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. وأن سعيه سوف يرى. ثم يجزاه الجزاء الأوفى. وأن إلى ربك المنتهى. وأنه هو أضحك وأبكى. وأنه هو أمات وأحيا. وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى. وأن عليه النشأة الأخرى، وأنه هو أغنى وأقنى. وأنه هو رب الشعرى. وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى. والمؤتفكة أهوى. فغشاها ما غشى. فبأي آلاء ربك تتمارى؟

« هذا نذير من النذر الأولى. أزفت الآزفة. ليس لها من دون الله كاشفة. أفمن هذا الحديث تعجبون، وتضحكون ولا تبكون، وأنتم سامدون؟

« فاسجدوا لله واعبدوا » ..

وذلك « الذي تولى، وأعطى قليلا وأكدى » .. الذي يعجب الله من أمره الغريب، تذكر بعض الروايات أنه فرد معين مقصود، أنفق قليلا في سبيل الله، ثم انقطع عن البذل خوفا من الفقر. ويحدد الزمخشري في تفسيره « الكشاف » شخصه أنه عثمان ابن عفان - رضي الله عنه - ويذكر في ذلك قصة، لا يستند فيها إلى شيء، ولا يقبلها من يعرف عثمان - رضي الله عنه -

Marfat.com

وطبيعته وبذله الكثير الطويل فى سبيل الله بلاتوقف وبلاحساب كذلك ؛ وعقيدته فى الله وتصوره لتبعة العمل وفرديته (١) .

وقد يكون المقصود شخصا بذاته . وقد يكون نموذجا من الناس سواء . فالذى يتولى عن هذا النهج ، ويبذل من ماله أومن نفسه لهذه العقيدة ثم يكدى - أى يضعف عن المواصلة ويكف - أمره عجيب ، يستحق التعجيب . ويتخذ القرآن من حاله مناسبة لعرض حقائق العقيدة وتوضيحها .

« أعنده علم الغيب فهو يرى ؟ » . .

والغيب لله . لايراه أحد سواه . فلايأمن الإنسان ماخبىء فيه ؛ وعليه أن يواصل عمله وبذله ، وأن يعيش حذرا موفيا طوال حياته؛ وألايبذل ثم ينقطع ،ولاضمان له فى الغيب المجهول إلاحذره وعمله ووفاؤه ، ورجاؤه بهذا كله فى مغفرة الله وقبوله .

« أم لم ينبأ بما فى صحف موسى . وإبراهيم الذى وفى ... » . .

وهذا الدين قديم ، موصولة أوائله وأواخره ، ثابتة أصوله وقواعده . يصدّق بعضه بعضا على توالى الرسالات والرسل،وتباعد المكان والزمان . فهو فى صحف موسى .وهو فى ملة إبراهيم قبل موسى . إبراهيم الذى وفّى .وفى بكل شىء.وفى وفاءمطلقا استحق بههذا الوصف المطلق . ويذكر الوفاء هنا فى مقابل الإكداء والانقطاع، ويذكر بهذه الصيغة (وفّى) بالتشديد تنسيقا للإيقاع المنغم وللقافية المطردة .

فماذا فى صحف موسى ، وإبراهيم الذى وفى ؟ فيها :

« ألاتزر وازرة وزر أخرى » . .

فلاتحمل نفس حمل أخرى ؛ لاتخفيفا عن نفس ولا تثقيلا على أخرى . فلاتملك نفس أن تخفف من حملها ووزرها . ولاتملك نفس أن تتطوع فتحمل عن نفس شيئا !

---

(١) قال : « روى أن عثمان - رضى الله عنه - كان يعطى ماله فى الخير . فقال له عبد الله ابن سعد ابن أبى سرح - وهو أخوه من الرضاعة - يوشك أن لايبقى لك شىء . فقال عثمان : إن لى ذنوبا وخطايا . وإنى أطلب بما أصنع رضى الله تعالى ، وأرجو عفوه . فقال عبد الله : أعطنى ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها ! فأعطاه وأشهد عليه ، وأمسك عن العطاء . فنزلت ! » . . . وهى رواية ظاهرة البطلان . فما هكذا يتصور عثمان !

Marfat.com

Marfat.com

« وأن ليس للإنسان إلاماسعى » ..

كذلك . فما يحسب للإنسان إلا كسبه وسعيه وعمله . لايزاد عليه شيء من عمل غيره . ولاينقص منه شيء ليناله غيره . وهذه الحياة الدنياهى الفرصة المعطاة له ليعمل ويسعى. فإذا مات ذهبت الفرصة وانقطع العمل. إلامانص عليه حديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى قوله: « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلامن ثلاث : من ولد صالح يدعو له . أوصدقة جارية من بعده . أوعلم ينتفع به » [1].. وهذه الثلاثة فى حقيقتها من عمله . ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعى ــ رحمه الله ــ ومن اتبعه أن القراءة لايصل إهداء ثوابها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم . ولهذا لم يندب إليه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أمته ، ولاحثهم عليه، ولاأرشدهم إليه بنص ولاإيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ ولو كان خيرا لسبقونا إليه . وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولايتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء . فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما [2] .

« وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى » . .

فلن يضيع شيء من السعى والعمل والكسب ؛ ولن يغيب شيء عن علم الله وميزانه الدقيق. وسينال كل امرئ جزاء سعيه وافيا كاملا لانقص فيه ولا ظلم .

وكذلك يتحدد مبدأ فردية التبعة ، إلى جانب عدالة الجزاء . فتتحقق للإنسان قيمته الإنسانية . القائمة على اعتباره مخلوقا راشدا مسؤولا مؤتمنا على نفسه ؛ كريما تتاح له الفرصة للعمل ثم يؤخذ بما عمل وتتحقق له كذلك الطمأنينة على عدالة الجزاء عدالة مطلقة لايميل بها الهوى ، ولا يقعد بها القصور ، ولا ينقص منها الجهل بحقائق الأمور .

« وأن إلى ربك المنتهى » . .

فلا طريق إلا الطريق الذى ينتهى إليه . ولا ملجأ من دونه . ولا مأوى إلا داره : فى نعيم أو جحيم . ولهذه الحقيقة قيمتها وأثرها فى تكييف مشاعر الإنسان وتصوره . فحين يحس أن المنتهى إلى الله . منتهى كل شيء . وكل أمر . وكل أحد . فإنه يستشعر من أول الطريق نهايته التى لا مفر منها ولا محيص عنها . ويصوغ نفسه وعمله وفق هذه الحقيقة ؛ أو يحاول فى هذا ما يستطيع : ويظل قلبه ونظره معلقين بتلك النهاية منذ أول الطريق !

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ــ بإسناده ــ عن أبى هريرة .

(٢) ابن كثير فى التفسير .

Marfat.com

وبعد مايصل السياق بالقلب البشرى إلى نهاية المطاف يكر راجعا به إلى الحيـاة ، يريه فيها آثار مشيئة الله . فى كل مرحلة ، وفى كل حال :

« وأنه هو أضحك وأبـكى » . .

وتحت هذا النص تـكمن حقائق كثيرة . ومن خلاله تنبعث صور وظلال موحية مثيرة . .

أضحك وأبـكى . . فأودع هـذا الإنسان خاصية الضحك وخاصية البـكاء . وهما سر من أسرار التـكوين البشرى لا يدرى أحد كيف هما ، ولا كيف تقعان فى هـذا الجهاز المركب المعقد ، الذى لا يقل تركيبه وتعقيده النفسى عـن تركيبه وتعقيده العضوى . والذى تتداخل المؤثرات النفسية والمؤثرات العضوية فيـه وتتشابـكان وتتفاعلان فى إحـداث الضحك وإحداث البـكاء .

وأضحك وأبـكى . . فأنشأ للإنسان دواعى الضحك ودواعى البـكاء . وجعله ـ وفق أسرار معقدة فيه ـ يضحك لهذا ويبكى لهذا . وقد يضحك غدا مما أبـكاهاليوم. ويبكى اليوم مما أضحكهبالأمس . فى غير جنون ولا ذهول إنماهى الحالات النفسية المتقلبة . والموازينوالدواعى والدوافع والاعتبارات التى لا تثبت فى شعوره على حال !

وأضحك وأبـكى . . فجعل فى اللحظة الواحدة ضاحكين وباكين . كل حسب المؤثرات الواقعة عليه . وقد يضحك فريق مما يبكى منه فريق . لأن وقعه على هؤلاء غير وقعه على أولئك . . وهو هو فى ذاته . ولـكنه بملابساته بعيد من بعيد !

وأضحك وأبكى . من الأمر الواحدصاحبه نفسه . يضحك اليوم من الأمر ثم تواجهه عاقبته غدا أو جرائره فإذا هو باك . يتمنى أن لم يـكن فعل وأن لم يـكن ضحك وكم من ضاحك فى الدنيا باك فى الآخرة حيث لاينفع البـكاء !

هذهالصور والظلال والمشاعر والأحوال . . وغيرها كثير تنبثق من خلال النص القصير، وتتراءى للحس والشعور . وتظل حشود منها تنبثق من خلاله كلما زاد رصيد النفس من التجارب ؛ وكلما تجددت عوامل الضحك والبـكاء فى النفوس ـ وهذا هو الإعجاز فى صورة من صوره الـكثيرة فى هذا القرآن .

« وأنه هو أمات وأحيا » . .

وكذلك تنبثق من هذا النص صور لاعداد لها فى الحس .

أمات وأحيا .. أنشأ الموت والحياة ، كما قال فى سورة أخرى : « الذى خلق الموت والحياة » .
وهما أمران معروفان كل المعرفة بوقوعها المتكرر . ولكنهما خافيان كل الخفاء حين يحاول البشر أن يعرفوا طبيعتهما وسرهما الخافى على الأحياء .. فما الموت ؟ وما الحياة ؟ ماحقيقتهما حين يتجاوز الإنسان لفظها وشكلها الذى يراه ؟ كيف دبت الحياة فى الكائن الحى ؟ ماهى ؟ ومن أين جاءت ؟ وكيف تلبست بهذا الكائن فكان ؟ وكيف سارت فى طريقها الذى سارت فيه بهذا الكائن أو بهذه الكائنات الأحياء ؟ وما الموت ؟ وكيف كان .. قبل دبيب الحياة . وبعد مفارقتها للأحياء ؟ إنه السر الخافى وراء الستر المسبل ، بيد الله !

أمات وأحيا .. وتنبثق ملايين الصور من الموت والحياة . فى عوالم الأحياء كلها . فى اللحظة الواحدة . فى هـذه اللحظة . كم ملايين الملايين من الأحياء ماتت . وكم ملايين الملايين بدأت رحلة الحياة . ودب فيها هذا السر من حيث لاتعلم ومن حيث لايعلم أحد إلا الله ! وكم من ميتات وقعت فإذا هى ذاتها بواعث حياة ! وكم من هـذه الصور يتراءى على مـدار القرون ، حين يستغرق الخيال فى استعراض الماضى الطويل ، الذى كان قبل أن يكون الإنسان كله على هذا الكوكب . وندع مايعلمه الله فى غير هـذا الكوكب من أنواع الموت والحياة التى لاتخطر على بال الإنسان !

إنها حشود من الصور وحشود ، تطلقها هذه الكلمات القلائل ، فتهز القلب البشرى من أعماقه . فلايتمالك نفسه ولايتماسك تحت إيقاعاتها المنوعة الأصداء !

« وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى » ..

وهى الحقيقة الهائلة الواقعة المتكررة فى كل لحظة . فينساها الإنسان لتكرارها أمام عينيه ، وهى أعجب من كل عجيبة تبدعها شطحات الخيال !

نطفة تمنى .. تراق .. إفراز من إفرازات هذا الجسد الإنسانى الكثيرة كالعرق والدمع والمخاط ! فإذا هى بعد فترة مقدورة فى تدبير الله .. إذا هى ماذا ؟ إذا هى إنسان ! وإذا هذا الإنسان ذكر وأنثى ! كيف ؟ كيف تمت هذه العجيبة التى لم تكن ـ لولا وقوعها ـ تخطر على الخيال ؟ وأين كان هذا الإنسان المركب الشديد التركيب ، المعقد الشديد التعقيد ؟ أين كان كامنا فى النقطة المراقة من تلك النطفة . بل فى واحـد من ملايين من أجزائها الكثيرة ؟ أين كان كامنا بعظمه ولحمه وجلده ، وعروقه وشعره وأظافره . وسماته وشياته وملامحه . وخلائقه وطباعه

Marfat.com

واستعداداته ؟ ! أين فى هذه الخلية الميكروسكوبية السابحة هى وملايين من أمثالها فى النقطة الواحدةمن تلك النطفة التى تمنى ؟ ! وأين على وجه التخصيص كانت خصائص الذكروخصائص الأنثى فى تلك الخلية . تلك التى انبثقت وأعلنت عن نفسها فى الجنين فى نهاية المطاف ؟ !

وأى قلب بشرى يقف أمام هذه الحقيقة الهائلة العجيبة . ثم يتمالك أو يتماسك . فضلا على أن يجحد ويتبجح ، ويقول : إنها وقعت هكذا والسلام ! وسارت فى طريقها هكذا والسلام ! واهتدت إلى خطها المرسوم هكذا والسلام ! أو يتعالم فيقول : إنها سارت هذه السيرة بحكم ماركب فيها من استعداد لإعادة نوعها ، شأنها شأن سائر الأحياء المزودة بهذا الاستعداد ! فهذا التفسير يحتاج بدوره إلى تفسير . فمن ذا أودعها هذا الاستعداد ؟ من ذا أودعها الرغبة الكامنة فى حفظ نوعها بإعادته مرة أخرى ؟ ومن ذا أودعها القدرة على إعادته وهى ضعيفة ضئيلة ؟ ومن ذا رسم لها الطريق لتسير فيه على هدى ، وتحقق هذه الرغبة الكامنة؟ ومن ذا أودع فيها خصائص نوعها لتعيدها ؟ وما رغبتها هى وما مصلحتها فى إعادة نوعها بهذه الخصائص ؟ لولا أن هنالك إرادة مدبرة من ورائها تريد أمرا ، وتقدر عليه ، وترسم له الطريق ؟ !

ومن النشأة الأولى. وهى واقعة مكرورة لاينكرها منكر .يتجه مباشرة إلى النشأة الأخرى .

« وأن عليه النشأة الأخرى » . .

والنشأة الأخرى غيب . ولكن عليه من النشأة الأولى دليل . دليل على إمكان الوقوع . فالذى خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ، قادر ـ ولا شك ـ على إعادة الخلق من عظام ورفات . فليست العظام والرفات بأهون من الماء المراق ! ودليل على حكمة الوقوع . فهذا التدبير الخفى الذى يقود الخلية الحية الصغيرة فى طريقها الطويل الشاق حتى تكون ذكرا أو أنثى . هذا التدبير لابد أن يكون مداه أبعد من رحلة الأرض التى لا يتم فيها شىء كامل ؛ ولا يجد المحسن جزاء إحسانه كاملا ، ولا المسىء جزاء إساءته كاملا كذلك . لأن فى حساب هذا التدبير نشأة أخرى يبلغ فيها كل شىء تمامه . فدلالة النشأة الأولى على النشأة الأخرى مزدوجة . ومن هنا جاء ذكرها هكذا قبل النشأة الأخرى . .

وفى النشأة الأولى . وفى النشأة الأخرى . يغنى الله من يشاء من عباده ويُقنيه :

« وأنه هو أغنى وأقنى » . .

Marfat.com

أغنى من عباده من شاء فى الدنيا بأنواع الغنى وهى شتى . غنى المال . وغنى الصحة . وغنى الذرية . وغنى النفس . وغنى الفكر . وغنى الصلة بالله والزاد الذى ليس مثله زاد .

وأغنى من عباده من شاء فى الآخرة من غنى الآخرة !

وأقنى من شاء من عباده من كل مايقتنى فى الدنيا كذلك وفى الآخرة !

والخلق فقراء محلون . لايغتنون ولايقتنون إلامن خزائن الله . فهو الذى أغنى . وهو الذى أقنى . وهى لمسة من واقع مايعرفون وماتتعلق به أنظارهم وقلوبهم هنا وهناك . ليتطلعوا إلى المصدر الوحيد . ويتجهوا إلى الخزائن العامرة وحدها ، وغيرها خواء !

« وأنه هو رب الشعرى » ..

والشعرى نجم أثقل من الشمس بعشرين مرة ، ونوره خمسون ضعف نور الشمس. وهى أبعد من الشمس بمليون ضعف بعد الشمس عنا .

وقد كان هناك من يعبد هذا النجم . وكان هناك من يرصده كنجم ذى شأن . فتقرير أن الله هو رب الشعرى له مكانه فى السورة التى تبدأ بالقسم بالنجم إذا هوى ؛ وتتحدث عن الرحلة إلى الملأ الأعلى ؛ كما تستهدف تقرير عقيدة التوحيد ، ونفى عقيدة الشرك الواهية المتهافتة .

وبهذا تنتهى تلك الجولة المديدة فى الأنفس والآفاق ، لتبدأ بعدها جولة فى مصارع الغابرين، بعد ما جاءتهم النذر فكذبوا بها كما يكذب المشركون . وهى جولة مع قدرة الله ومشيئته وآثارها فى الأمم قبلهم واحدة واحدة .

« وأنه أهلك عادا الأولى . وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى . فغشاها ماغشى . فبأى آلاء ربك تتمارى ؟ »

إنها جولة سريعة . تتألف من وقفة قصيرة على مصرع كل أمة ، ولمسة عنيفة تخز الشعور وخزا .

وعاد وثمود وقوم نوح يعرفهم قارىء القرآن فى مواضع شتى ! والمؤتفكة هى أمة لوط . من الإفك والبهتان والضلال .. وقد أهواها فى الهاوية وخسف بها « فغشاها ماغشى » .. بهذا التجهيل والتضخيم والتهويل ، الذى تتراءى من خلاله صور الدمار والخسف والتنكيل، الذى يشمل كل شىء ويغشاه فلايبين !

« فبأى آلاء ربك تتمارى ؟ » ..

Marfat.com

فلقد كانت إذن تلك المصارع آلاء لله وأفضالا . ألم يهلك الشر ؟ ألم يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ؟ ألم يترك فيها آيات لمن يتدبر ويعى ؟ أليست هذه كلها آلاء . فبأى آلاء ربك تتمارى ! الخطاب لكل أحد . ولكل قلب . ولكل من يتدبر صنع الله فيرى النعمة حتى فى البلوى !

وعلى مصارع الغابرين المكذبين بالنذر ـ بعد استعراض مظاهر المشيئة وآثارها فى الأنفس والآفاق ـ يلقى بالإيقاع الأخير قويا عميقا عنيفا . كأنه صيحة الخطر قبيل الطامة الكبرى :

« هذا نذير من النذر الأولى . أزفت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة » . .

هذا الرسول الذى تتمارون فى رسالته وفى نذارته . هذا نذير من النذر الأولى التى أعقبها ماأعقبها ! وقد أزفت الآزفة . واقتربت كاسحة جارفة . وهى الطامة والقارعة التى جاء هذا النذير يحذركم إياها أو هو هول العذاب الذى لايعلم إلاالله نوعه وموعده . ولايملك إلا الله كشفه ودفعه : « ليس لها من دون الله كاشفة » . .

وبينما الخطر الداهم قريب . والنذير الناصح يدعوكم إلى النجاة . إذا أنتم سادرون لاهون لاتقدرون الموقف ولا تفيقون .

« أفمن هذا الحديث تعجبون ؟ وتضحكون ولاتبكون ؟ وأنتم سامدون ... » . .

وهذا الحديث جد عظيم يلقى على كاهل الناس واجبات ضخمة وفى الوقت ذاته يقودهم إلى المنهج الكامل . فم يعجبون ؟ ومم يضحكون ؟ وهذا الجد الصارم ، وهذه التبعات الكبيرة ، وماينتظر الناس من حساب على حياتهم فى الأرض .. كله يجعل البكاء أجدر بالموقف الجد ، وماوراءه من الهول والكرب . .

وهنا يرسلها صيحة مدوية ، ويصرخ فى آذانهم وقلوبهم . ويهتف بهم إلى ماينبغى أن يتداركوا به أنفسهم ، وهم على حافة الهاوية :

« فاسجدوا لله واعبدوا » .

وإنها لصيحة مزلزلة مذهلة فى هذا السياق ، وفى هذه الظلال ، وبعد هذا التمهيد الطويل ، الذى ترتمش له القلوب :

ومن ثم سجدوا . سجدوا وهم مشركون . وهم يمارون فى الوحى والقرآن . وهم يجادلون فى الله والرسول !

Marfat.com

سجدوا تحت هذه المطارق الهائلة التي وقعت على قلوبهم والرسول - صلى الله عليه وسلم - يتلو هذه السورة عليهم . وفيهم المسلمون والمشركون . ويسجد فيسجد الجميع . مسلمين ومشركين . لا يملكون أن يقاوموا وقع هذا القرآن ؛ ولا أن يتماسكوا لهذا السلطان . . ثم أفاقوا بعد فترة فإذا هم في ذهول من سجودهم كذهولهم وهم يسجدون !

بهذا تواترت الروايات . ثم افترقت في تعليل هذا الحادث الغريب . وما هو في الحقيقة بالغريب . فهو تأثير هذا القرآن العجيب ووقعه الهائل في القلوب !

* * *

هذا الحادث الذي تواترت به الروايات . حادث سجود المشركين مع المسلمين . كان يحتاج عندي إلى تعليل . قبل أن تقع لي تجربة شعورية خاصة عللته في نفسي ، وأوضحت لي سببه الأصيل .

وكنت قد قرأت تلك الروايات المفتراة عما سمي بحديث الغرانيق ،الذي أورده ابن سعد في طبقاته ، وابن جرير الطبري في تاريخه . وبعض المفسرين عند تفسيرهم لقوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، فينسخ الله مايلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم . . . الخ » . . وهي الروايات التي قال فيها ابن كثير - جزاه الله خيرا - «ولكنها من طرق كلها مرسلة . ولم أرها مسندة من وجه صحيح » .

وأكثر هذه الروايات تفصيلا وأقلها إغراقا في الخرافة والافتراء على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رواية ابن أبي حاتم . قال : حدثنا موسى ابن أبي موسى الكوفي ؛ حدثنا محمد ابن اسحاق الشيبي ، حدثنا محمد ابن فليح ، عن موسى ابن عقبة ، عن ابن شهاب . قال : أنزلت سورة النجم ، وكان المشركون يقولون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه ؛ ولكنه لايذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشر . وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد اشتد عليه ماناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم ، وأحزنه ضلالهم ؛ فكان يتمنى هداهم . فلما أنزل الله سورة النجم قال : « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ؟ » ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت فقال : وإنهن لهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لهي التي ترتجى . . وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته . . فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة . وذلت بها ألسنتهم . وتباشروا

Marfat.com

بها . وقالوا : إن محمدا قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه . . فلما بلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ آخر النجم سجد ، وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك . غير أن الوليد ابن المغيرة كان رجلا كبيراً فرفع ملء كفه ترابا فسجد عليه . فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم فى السجود لسجود رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين . ولم يكن المسلمون سمعوا الذى ألقى الشيطان فى مسامع المشركين . . فاطمأنت أنفسهم ـ أى المشركون ـ لما ألقى الشيطان فى أمنية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحدثهم به الشيطان أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد قرأها فى السورة ، فسجدوا لتعظيم آلهتهم . ففشت تلك الكلمة فى الناس وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين: عثمان ابن مظعون وأصحابه . وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم ، وصلوا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبلغهم سجود الوليد ابن المغيرة على التراب على كفه ، وحدثوا أن المسلمين قد أمنوا بمكة، فأقبلوا سراعا ، وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته ، وحفظه من الفرية . وقال : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى . . الخ » . . فلما بين الله قضاءه وبرأه من سجع الشيطان ، انقلب المشركون بضلالتهم وعداوتهم على المسلمين ، واشتدوا عليهم » . . انتهى

وهناك روايات أخرى أجرأ على الافتراء تنسب قولة الغرانيق . . تلك . . إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتعلل هذا برغبته ـ حاشاه صلى الله عليه وسلم ـ فى مراضاة قريش ومهادنتها !!!

وقد رفضت منذ الوهلة الأولى تلك الروايات جميعا . . فهى فضلا عن مجافاتها لعصمة النبوة وحفظ الذكر من العبث والتحريف ، فإن سياق السورة ذاته ينفيها نفيا قاطعا . إذ أنه يتصدى لتوهين عقيدة المشركين فى هذه الآلهة وأساطيرهم حولها . فلا مجال لإدخال هاتين العبارتين فى سياق السورة بحال . حتى على قول من قال : إن الشيطان ألقى بها فى أسماع المشركين دون المسلمين . فهؤلاء المشركون كانوا عربا يتذوقون لغتهم وحين يسمعون هاتين العبارتين المقحمتين ويسمعون بعدها : « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى . إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان . . الخ » . ويسمعون بعد ذلك: « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى وما لهم به من علم . إن يتبعون إلا الظن

وإن الظن لايغنى من الحق شيئا» .. ويسمعون قبله : « وكم من ملك فى السماوات لاتغنى شفاعتهم شيئا إلامن بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » . . حين يسمعون هذا السياق كله فإنهم لايسجدون مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأن الكلام لايستقيم .والثناء على آلهتهم وتقرير أن لها شفاعة ترتجى لايستقيم . وهم لم يكونوا أغبياء كغباء الذين افتروا هذه الروايات ، التى تلقفها منهم المستشرقون مغرضين أو جاهلين !

لغير هذا السبب إذن سجد المشركون . ولغير هذا السبب عاد المهاجرون من الحبشة ثم عادوا إليها بعد حين مع آخرين .

وليس هنا مجال تحقيق سبب عودة المهاجرين ، ثم عودتهم إلى الحبشة مع آخرين ..

فأما أمر السجود فهو الذى نتصدى له فى هذه المناسبة ..

لقد بقيت فترة أبحث عن السبب الممكن لهذا السجود . ويخطر لى احتمال أنه لم يقع ؛وإنما هى رواية ذكرت لتعليل عودة المهاجرين من الحبشة بعد نحو شهرين أو ثلاثة . وهو أمر يحتاج إلى التعليل .

وبينما أنا كذلك وقعت لى تلك التجربة الشعورية الخاصة التى أشرت إليها من قبل ..

كنت بين رفقة نسمر حينما طرق أسماعنا صوت قارئ للقرآن من قريب ، يتلو سورة النجم . فانقطع بيننا الحديث ، لنستمع وننصت للقرآن الكريم . وكان صوت القارئ مؤثرا وهو يرتل القرآن ترتيلا حسنا .

وشيئا فشيئا عشت معه فيما يتلوه . عشت مع قلب محمد - صلى الله عليه وسلم - فى رحلته إلى الملأ الأعلى . عشت معه وهو يشهد جبريل - عليه السلام - فى صورته الملائكية التى خلقه الله عليها . ذلك الحادث العجيب المدهش حين يتدبره الإنسان ويحاول تخيله ! وعشت معه وهو فى رحلته العلوية الطليقة . عند سدرة المنتهى . وجنة المأوى . عشت معه بقدر مايسعفنى خيالى ، وتحلق بى رؤاى ، وبقدر ماتطيق مشاعرى وأحاسيسى ..

وتابعته فى الإحساس بتهافت أساطير المشركين حول الملائكة وعبادتها وبنوتها وأنوثتها .. إلى آخر هذه الأوهام الخرفة المضحكة ، التى تتهاوى عند اللمسة الأولى !

ووقفت أمام الكائن البشرى ينشأ من الأرض ، وأمام الأجنة فى بطون الأمهات . وعلم الله يتابعها ويحيط بها .

Marfat.com

Marfat.com

وارتجف كيانى تحت وقع اللمسات المتتابعة فى المقطع الأخير من السورة. الغيب المحجوب لايراه إلا الله. والعمل المكتوب لايند ولايغيب عن الحساب والجزاء. والمنتهى إلى الله فى نهاية كل طريق يسلكه العبيد. والحشود الضاحكة والحشود الباكية. وحشود الموتى. وحشود الأحياء. والنطفة تهتدى فى الظلمات إلى طريقها، وتخطو خطواتها وتبرز أسرارها فإذا هى ذكر أو أنثى. والنشأة الأخرى. ومصارع الغابرين. والمؤتفكة أهوى فغشاها ماغشى!

واستمعت إلى صوت النذير الأخير قبل الكارثة الداهمة: «هذا نذير من النذر الأولى. أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة» ..

ثم جاءت الصيحة الأخيرة. واهتز كيانى كله أمام التبكيت الرعيب: «أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولاتبكون وأنتم سامدون؟» .

فلما سمعت: «فاسجدوا لله واعبدوا» .. كانت الرجفة قد سرت من قلبى حقا إلى أوصالى. واستحالت رجفة عضلية مادية ذات مظهر مادى، لم أملك مقاومته. فظل جسمى كله يختلج، ولا أتمالك أن أثبته، ولاأن أكفكف دموعا هاتنة، لاأملك احتباسها مع الجهد والمحاولة!

وأدركت فى هذه اللحظة أن حادث السجود صحيح، وأن تعليله قريب. إنه كامن فى ذلك السلطان العجيب لهذا القرآن، ولهذه الإيقاعات المزلزلة فى سياق هذه السورة. ولم تكن هذه أول مرة أقرأ فيها سورة النجم أو أسمعها. ولكنها فى هذه المرة كان لها هذا الوقع، وكانت منى هذه الاستجابة. وذلك سر القرآن. فهناك لحظات خاصة موعودة غير مرقوبة تمس الآية أو السورة فيها موضع الاستجابة؛ وتقع اللمسة التى تصل القلب بمصدر القوة فيها والتأثير. فيكون منها ما يكون!

لحظة كهذه مست قلوب الحاضرين يومها جميعا. ومحمد - صلى الله عليه وسلم - يقرأ هذه السورة يقرؤها بكيانه كله. ويعيش فى صورها التى عاشها من قبل بشخصه. وتنصب كل هذه القوة الكامنة فى السورة من خلال صوت محمد - صلى الله عليه وسلم - فى أعصاب السامعين. فيرتجفون ويسمعون: «فاسجدوا لله واعبدوا» ويسجد محمد والمسلمون. فيسجدون..

ولقد يقال: إنك تقيس على لحظة مرت بك، وتجربة عانيتها أنت. وأنت مسلم. تعتقد بهذا القرآن، وله فى نفسك تأثير خاص. وأولئك كانوا مشركين يرفضون الإيمان ويرفضون القرآن!

ولكن هنالك اعتبارين لهما وزنهما فى مواجهة هذا الذى يقال :

الاعتبار الأول : أن الذى كان يقرأ السورة كان هو محمد - صلى الله عليه وسلم - النبى . الذى تلقى هذا القرآن مباشرة من مصدره . وعاشه وعاش به . وأحبه حتى لكان يثقل خطاه إذا سمع من يرتله داخل داره ، ويقف إلى جانب الباب يسمع له حتى ينتهى ! وفى هذه السورة بالذات كان يعيش لحظات عاشها فى الملإ الأعلى . وعاشها مع الروح الأمين وهو يراه على صورته الأولى . . فأما أنا فقد كنت أسمع السورة من قارىء . والفارق ولا شك هائل !

والاعتبار الثانى : أن أولئك المشركين لم تكن قلوبهم ناجية من الرعشة والرجفة ، وهم يستمعون إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - إنما كان العناد المصطنع هو الذى يحول بينهم وبين الإذعان . . والحادثان التاليان شاهد على ما كان يخالج قلوبهم من الارتماش .

روى ابن عساكر فى ترجمة عتبة ابن أبى لهب ، من طريق محمد ابن اسحاق ، عن عثمان ابن عروة ، ابن الزبير ، عن أبيه ، عن هناد ابن الأسود ، قال : كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزوا إلى الشام ، فتجهزت معهما ، فقال ابنه عتبة : والله لأنطلقن إلى محمد ، ولأوذينه فى ربه (سبحانه وتعالى) . فانطلق حتى أتى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : يامحمد . هو يكفر بالذى دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى . . فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم سلط عليه كلبا من كلابك » . . ثم انصرف عنه ، فرجع إلى أبيه ، فقال : يابنى ، ما قلت له ؟ فذكر له ما قاله . فقال : فما قال لك ؟ قال : قال : اللهم سلط عليه كلبا من كلابك . قال : يابنى والله ما آمن عليك دعاءه ! فسرنا حتى نزلنا أبراه - وهى فى سدة - ونزلنا إلى صومعة راهب . فقال الراهب : يامعشر العرب ، ماأنزلكم هذه البلاد ؟ فإنها يسرح فيها الأسد كما تسرح الغنم! فقال أبو لهب : إنكم قد عرفتم كبر سنى وحقى ؛ وإن هذا الرجل قد دعا على ابنى دعوة والله ما آمنها عليه ، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة ، وافرشوا لابنى عليها ، ثم افرشوا حولها . ففعلنا . فجاء الأسد فشم وجوهنا ، فلما لم يجد ما يريد تقبض فوثب وثبة فوق المتاع ، فشم وجهه ، ثم هزمه هزمة ففسخ رأسه . فقال أبو لهب : قد عرفت أنه لاينفلت عن دعوة محمد !

هـذا هو الحادث الأول صاحبه أبو لهب . أشد المخاصمين لمحمد - صلى الله عليه وسلم - المناوئين له ، المؤلبين عليه هو وبيته . المدعو عليه فى القرآن هو وبيته : « تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها

Marfat.com

حبل من مسد » . . وذلك شعوره الحقيقي تجاه محمد وقول محمد . وتلك ارتجافة قلبه ومفاصله أمام دعوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ابنه .

والحادث الثاني : صاحبه عتبة ابن أبي ربيعة . وقد أرسلته قريش إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يفاوضه في الكف عن هذا الذي فرق قريشا وعاب آلهتهم ، على أن يكون له منهم مايريد من مال أورياسة أوزواج . فلما انتهى من عرضه قال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أفرغت ياأبا الوليد ؟ » قال : نعم . قال : « فاستمع مني » . قال : أفعل . قال : « بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمان الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون » . . ثم مضى حتى قوله تعالى : « فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » . . عندئذ هب عتبة يمسك بفم النبي ـ صلى الله عليه وسلم في ذعر وهو يقول : ناشدتك الرحم أن تكف . . وعاد إلى قريش يقص عليهم الأمر . ويعقب عليه يقول : وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ، فخشيت أن ينزل بكم العذاب (1)

فهذا شعور رجل لم يكن قد أسلم . والارتجاف فيه ظاهر . والتأثر المكبوت أمام العناد والمكابرة ظاهر . .

ومثل هؤلاء إذا استمعوا إلى سورة النجم من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأقرب مايحتمل أن تصادف قلوبهم لحظة الاستجابة التي لايملكون أنفسهم إزاءها . وأن يؤخذوا بسلطان هذا القرآن فيسجدوا مع الساجدين . . بلاغرانيق ولاغيرها من روايات المفترين!

(1) ملخصة من روايات عدة .

Marfat.com

سُورَةُ القَمَرِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا ٥٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ① وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ *
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ *
حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ * خُشَّعًا
أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ، يَقُولُ
الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ .

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا: مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي
مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ
عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ
كُفِرَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ؟ * وَلَقَدْ
يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟

« كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ؟ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي
يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
وَنُذُرِ ؟ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا: أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ ؟ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ *

Marfat.com

Marfat.com

أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا؟ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ * إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ، كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ؟ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ، فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟

« كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ * نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ، كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ، فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ * فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟

« وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ

« أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ ؟ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ؟ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ؟ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ * إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ، ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ * وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ .

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ » ٥٥

هذه السورة من مطلعها إلى ختامها حملة رعيبة مفزعة عنيفة على قلوب المكذبين بالنذر ، بقدر ماهي طمأنينة عميقة وثيقة للقلوب المؤمنة المصدقة . وهي مقسمة إلى حلقات متتابعة، كل

حلقة منها مشهد من مشاهد التعذيب للمكذبين ، يأخذ السياق فى ختامها بالحس البشرى فيضغطه ويهزه ويقول له : « فكيف كان عذابى ونذر ؟ » . . ثم يرسله بعد الضغط والهز ويقول له : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟ » .

ومحتويات السورة الموضوعية واردة فى سور مكية شتى . فهى مشهد من مشاهد القيامة فى المطلع ، ومشهد من هذه المشاهد فى الختام . وبينهما عرض سريع لمصارع قوم نوح . وعاد وثمود . وقوم لوط . وفرعون وملئه . وكلها موضوعات تزخر بها السور المكية فى سور شتى . .

ولكن هذه الموضوعات ذاتها تعرض فى هذه السورة عرضا خاصا ، يحيلها جديدة كل الجدة . فهى تعرض عنيفة عاصفة ، وحاسمة قاصمة ؛ يفيض منها الهول ، ويتناثر حولها الرعب ، ويظللها الدمار والفزع والانبهار !

وأخص مايميزها فى سياق السورة أن كلا منها يمثل حلقة عذاب رهيبة سريعة لاهثة مكروبة . يشهدها المكذبون ، وكأنما يشهدون أنفسهم فيها ، ويحسون إيقاعات سياطها. فإذا انتهت الحلقة وبدأوا يستردون أنفاسهم اللاهثة المكروبة عاجلتهم حلقة جديدة أشد هولا ورعبا .. وهكذا حتى تنتهى الحلقات السبعة فى هذا الجو المفزع الخانق. فيطل المشهد الأخير فى السورة . وإذا هو جو آخر ، ذو ظلال أخرى . وإذا هو الأمن والطمأنينة والسكينة . إنه مشهد المتقين : « إن المتقين فى جنات ونهر . فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » . فى وسط ذلك الهول الراجف ، والفزع المزلزل ، والعذاب المهين للمكذبين : « يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر » . .

فأين وأين ؟ مشهد من مشهد ؟ ومقام من مقام ؟ وقوم من قوم ؟ ومصير من مصير ؟

* * *

« اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا : سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر . ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغن النذر . فتول عنهم يوم يدعو الداع إلى شىء نكر . خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين إلى الداع يقول الكافرون : هذا يوم عسر » . .

مطلع باهر مثير ، على حادث كونى كبير ، وإرهاص بحادث أكبر . لايقاس إليه ذلك الحدث الكونى الكبير :

Marfat.com

« اقتربت الساعة وانشق القمر » . .

فياله من إرهاص ! وياله من خبر . ولقد رأوا الحدث الأول فلم يبق إلا أن ينتظروا الحدث الأكبر .

والروايات عن انشقاق القمر ورؤية العرب له فى حالة انشقاقه أخبار متواترة . تتفق كلها فى إثبات وقوع الحادث ، وتختلف فى رواية هيئته تفصيلا وإجمالا :

من رواية أنس ابن مالك ـ رضى الله عنه ـ . . قال الإمام أحمد : حدثنا معمر ، عن قتادة ، عن أنس ابن مالك قال : سأل أهل مكة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ آية . فانشق القمر بمكة مرتين فقال : « اقتربت الساعة وانشق القمر » . . وقال البخارى : حدثنى عبد الله ابن عبد الوهاب . حدثنا بشر ابن المفضل ، حدثنا سعيد ابن أبى عروة ، عن قتادة ، عن أنس ابن مالك . أن أهل مكة سألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يريهم آية . فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما . وأخرجه الشيخان من طرق أخرى عن قتادة عن أنس .

ومن رواية جبير ابن مطعم ـ رضى الله عنه ـ . . قال الإمام أحمد : حدثنا محمد ابن كثير ، حدثنا سليمان ابن كثير ، عن حصين ابن عبد الرحمان ، عن محمد ابن جبير ابن مطعم ، عن أبيه قال : انشق القمر على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فصار فرقتين . فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل ، فقالوا : سحرنا محمد ، فقالوا : إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم . . تفرد به أحمد من هذا الوجه . . وأسنده البيهقى فى الدلائل من طريق محمد ابن كثير عن أخيه سليمان ابن كثير ، عن حصين ابن عبد الرحمان . . ورواه ابن جرير والبيهقى من طرق أخرى عن جبير ابن مطعم كذلك .

ومن رواية عبد الله ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ . . قال البخارى : حدثنا يحيى ابن كثير ، حدثنا بكر ، عن جعفر ، عن عراك ابن مالك ، عن عبيد الله ابن عبد الله ابن عتبة ، عن ابن عباس ، قال : انشق القمر فى زمان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ . . ورواه البخارى أيضا ومسلم من طريق آخر عن عراك بسنده السابق إلى ابن عباس . . وروى ابن جرير من طريق أخرى إلى على ابن أبى طلحة عن ابن عباس قال : قد مضى ذلك ، كان قبل الهجرة ، انشق القمر حتى رأوا شقيه . . وروى العوفى عن ابن عباس نحو هذا . . وقال الطبرانى بسند آخر

Marfat.com

Marfat.com

عن عكرمة عن ابن عباس قال: كسف القمر على عهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقالوا: سحر القمر ، فنزلت : « اقتربت الساعة وانشق القمر ــ إلى قوله : مستمر » .

ومن رواية عبد الله ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ : قال الحافظ أبوبكر البيهقى : أخبرنا أبوعبدالله الحافظ ، وأبوبكر أحمدابن الحسن القاضى ، قالا : حدثناأبو العباس الأصم ،حدثنا العباس ابن محمد الدورى ، حدثنا وهب ابن جرير ، عن شعبة ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن عبدالله ابن عمر فى قوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر » قال : وقد كان ذلك على عهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ انشق فلقتين فلقة من دون الجبل وفلقة خلف الجبل . فقال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « اللهم اشهد » . وهكذا رواه مسلم والترمذى من طرق عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد ..

ومن رواية عبدالله ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ : قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن ابن أبى نجيح عن مجاهد ،عن أبى معمر ، عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ شقتين حتى نظروا إليه ، فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: « اشهدوا » . وهكذا رواه البخارى ومسلم من حديث سفيان ابن عيينة . وأخرجاه كذلك من حديث الأعمش عن إبراهيم عن أبى معمر عبد الله ابن سخبرة ، عن ابن مسعود . وقال البخارى : قال أبو داود الطيالسى : حدثنا أبوعوانة،عن المغيرة ،عن أبى الضحى، عن مسروق عن عبد الله ابن مسعود ، قال : انشق القمر على عهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقالت قريش : هذا سحر ابن أبى كبشة . قال : فقالوا : انظروا مايأتيكم من السفار ، فإن محمدا لايستطيع أن يسحر الناس كلهم قال : فجاء السفار فقالوا ذلك . وروى البيهقى من طريق أخرى عن مسروق عن عبد الله ابن مسعود ، بما يقرب من هذا .

فهذه روايات متواترة من طرق شتى عن وقوع هذا الحادث ، وتحديد مكانه فى مكة ــ باستثناء رواية لم نذكرها عن عبدالله ابن مسعود رضى الله عنه ، أنه كان فى منى ــ وتحديد زمانه فى عهد النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قبل الهجرة . وتحديد هيئته ــ فى معظم الروايات أنه انشق فلقتين ، وفى رواية واحدة أنه كسف (أى خسف) . فالحادث ثابت من هذه الروايات للتواترة المحددة للمكان والزمان والهيئة .

وهو حادث واجه به القرآن المشركين فى حينه ؛ ولم يرو عنهم تكذيب لوقوعه ؛ فلا بد أنه

Marfat.com

يكون قد وقع فعلا بصورة يتعذر معها التكذيب ، ولو على سبيل المراء الذى كانوا يمارونه فى الآيات ، لو وجدوا منفذا للتكذيب . وكل ماروى عنهم أنهم قالوا : سحرنا ! ولكنهم هم أنفسهم اختبروا الأمر ، فعرفوا أنه ليس بسحر ؛ فلئن كان قد سحرهم فإنه لايسحر المسافرين خارج مكة الذين رأوا الحادث وشهدوا به حين سئلوا عنه .

بقيت لنا كلمة فى الرواية التى تقول : إن المشركين سألوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ آية . فانشق القمر . فإن هذه الرواية تصطدم مع مفهوم نص قرآنى مدلوله أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يرسل بخوارق من نوع الخوارق التى جاءت مع الرسل قبله ، لسبب معين: « ومامنعنا أن نرسل بالآيات إلاأن كذب بها الأولون » (١) . . فمفهوم هذه الآية أن حكمة الله اقتضت منع الآيات ـ أى الخوارق ـ لما كان من تكذيب الأولين بها .

وفى كل مناسبة طلب المشركون آية من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان الرد يفيد أن هذا الأمر خارج عن حدود وظيفته ، وأنه ليس إلا بشرا رسولا . وكان يردهم إلى القرآن يتحداهم به بوصفه معجزة هذا الدين الوحيدة : « قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله، ولوكان بعضهم لبعض ظهيرا . ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ، فأبى أكثر الناس إلا كفورا . وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء ـ كما زعمت ـ علينا كسفا ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . قل : سبحان ربى ! هل كنت إلا بشرا رسولا ؟ » (٢) .

فالقول بأن انشقاق القمر كان استجابة لطلب المشركين آية ـ أى خارقة ـ يبدو بعيدا عن مفهوم النصوص القرآنية ؛ وعن اتجاه هذه الرسالة الأخيرة إلى مخاطبة القلب البشرى بالقرآن وحده ، ومافيه من إعجاز ظاهر ؛ ثم توجيه هذا القلب ـ عن طريق القرآن ـ إلى آيات الله القائمة فى الأنفس والآفاق ، وفى أحداث التاريخ سواء . . فأما ماوقع فعلا للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خوارق شهدت بها روايات صحيحة فكان إكراما من الله لعبده ، لادليلا لإثبات رسالته . .

---

(١) سورة الإسراء [٥٩]

ومن ثم ثبت الحادث ـ حادث انشقاق القمر ـ بالنص القرآنى وبالروايات المتواترة التى تحدد مكان الحادث وزمانه وهيئة . ونتوقف فى تعليله الذى ذكرته بعض الروايات. ونكتفى بإشارة القرآن إليـه مـع الإشارة إلى اقتراب الساعـة . باعتبار هـذه الإشارة لمسة للقلب البشرى ليستيقظ ويستجيب . .

وانشقاق القمر إذن كان آية كونية يوجه القرآن القلوب والأنظار إليها ، كما يوجهها دائما إلى الآيات الكونية الأخرى ؛ ويعجب من أمرهم وموقفهم إزاءها ، كما يعجب من مواقفهم تجاه آيات الله الكونية الأخرى .

إن الخوارق الحسية قد تدهش القلب البشرى فى طفولته ، قبل أن يتهيأ لإدراك الآيات الكونية القائمة الدائمة ، والتأثر بإيقاعها الثابت الهادئ . وكل الخوارق التى ظهرت على أيدى الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ قبل أن تبلغ البشرية الرشد والنضوج يوجد فى الكون ماهو أكبر منها وأضخم ، وإن كان لا يستثير الحس البدائى كما تستثيره تلك الخوارق !

ولنفرض أن انشقاق القمر جاء آية خارقة . . فإن القمر فى ذاته آية أكبر ! هذا الكوكب بحجمه ، ووضعه ، وشكله ، وطبيعته ، ومنازله ، ودورته ، وآثاره فى حياة الأرض ، وقيامه هكذا فى الفضاء بغير عمـد . هذه هى الآية الكبرى القائمة الدائمة حيال الأبصار وحيال القلوب ، توقع إيقاعها وتلقى ظلالها ، وتقوم أمام الحس شاهدا على القدرة المبدعة التى يصعب إنكارها إلا عنادا أو مراء !

وقد جاء القرآن ليقف بالقلب البشرى فى مواجهة الكون كله ؛ ومافيه من آيات الله القائمة الثابتة ؛ ويصله بهـذا الكون وآيات الله فيه فى كل لحظة ؛ لا مرة عارضة فى زمان محدود ، يشهدها جيل من الناس فى مكان محدود .

إن الكون كله هو مجال النظر والتأمل فى آيات الله التى لا تنفد ، ولا تذهب ، ولا تغيب . وهو بجملته آية . وكل صغيرة فيه وكبيرة آية . والقلب البشرى مدعو فى كل لحظة لمشاهدة الخوارق القائمة الدائمـة ، والاستماع إلى شهادتها الفاصلة الحـاسمة ؛ والاستمتاع كذلك بعجائب الإبداع الممتعة ، التى يلتقى فيها الجمال بالكمال ، والتى تستجيش انفعال الدهش والحيرة مع وجدان الإيمان والاقتناع الهادىء العميق .

وفى مطلع هـذه السورة تجىء تلك الإشارة إلى اقتراب الساعة وانشقاق القمر إيقاعا يهز

Marfat.com

Marfat.com

القلب البشرى هزا . وهو يتوقع الساعة التى اقتربت ، ويتأمل الآية التى وقعت ، ويتصور أحداث الساعة فى ظل هذا الحدث الكونى الذى رآه المخاطبون بهذا الإيقاع المثير .

وفى موضوع اقتراب الساعة روى الإمام أحمد . قال : حدثنا حسين ، حدثنا محمد ابن مطوف ، عن أبى حازم ، عن سهل ابن سعد ، قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ يقول : « بعثت أنا والساعة هكذا » وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى (١)

ومع اقتراب الموعد المرهوب ، ووقوع الحادث الكونى المثير ، وقيام الآيات التى يرونها فى صور شتى .. فإن تلك القلوب كانت تلج فى العناد ، وتصر على الضلال ، ولا تتأثر بالوعيد كما لا تتأثر بإيقاع الآيات الكثيرة الكافية للعظة والكف عن التكذيب :

« وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا : سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر . ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغنى النذر » .

ولقد أعرضوا وقالوا : سحرنا ، وهم يرون آية الله فى انشقاق القمر . وكان هذا رأيهم مع آية القرآن . فقالوا : سحر يؤثر . فهذا قولهم كلما رأوا آية. ولما كانت الآيات متوالية متواصلة ، فقد قالوا : إنه سحر مستمر لاينقطع ، معرضين عن تدبر طبيعة الآيات وحقيقتها ، معرضين كذلك عن دلالتها وشهادتها . وكذبوا بالآيات وبشهادتها . كذبوا اتباعا لأهوائهم لا استنادا إلى حجة ، ولا ارتكانا إلى دليل ، ولاتدبرا للحق الثابت المستقر فى كل ماحولهم فى هذا الوجود . .

« وكل أمر مستقر » . . فكل شىء فى موضعه فى هذا الوجود الكبير . وكل أمر فى مكانه الثابت الذى لايتزعزع ولايضطرب . فأمر هذا الكون يقوم على الثبات والاستقرار ، لا على الهوى المتقلب ، والمزاج المتغير ؛ أو المصادفة العابرة والارتجال العارض . . كل شىء فى موضعه وفى زمانه ، وكل أمر فى مكانه وفى إبانه . والاستقرار يحكم كل شىء من حولهم ، ويتجلى فى كل شىء : فى دورة الأفلاك ، وفى سنن الحياة . وفى أطوار النبات والحيوان . وفى الظواهر الثابتة للأشياء والمواد . لابل فى انتظام وظائف أجسامهم وأعضائهم التى لا سلطان لهم عليها والتى لاتخضع للأهواء . ! وبينما هذا الاستقرار يحيط بهم ، ويسيطر على كل شىء من حولهم ، ويتجلى فى كل أمر من بين أيديهم ومن خلفهم.. إذا هم وحدهم مضطربون تتجاذبهم الأهواء .

(١) وأخرجه الشيخان من حديث أبى حازم سلمة ابن دينار .

Marfat.com

« ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر » . . أنباء الآيات الكونية التي صرّفها الله لهم في هـذا القرآن ؛ وأنباء المكذبين قبلهم ومصارعهم ، وأنباء الآخرة التي صورها القرآن لهم . . وكان في هذا كله زاجر ورادع لمن يزدجر ويرتدع . وكان فيه من حكمة الله مايبلغ القلوب ويوجهها إلى تدبيره الحكيم . ولكن القلوب المطموسة لاتتفتح لرؤية الآيات ، والانتفاع بالأنباء ، واليقظة على صوت النذير بعد النذير : « حكمة بالغة فما تغني النذر » . إنما هو الإيمان هبة الله للقلب المتهيء للإيمان ، المستحق لهذا الإنعام !

وعند هذا الحد من تصوير إعراضهم وإصرارهم ، وعدم انتفاعهم بالأنباء ، وقلة جدوى النذر مع هؤلاء . يتوجه الخطاب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للإعراض عنهم وتركهم يلاقون اليوم الذي لايحفلون النذير باقترابه ، وهم يرون انشقاق القمر بين يدي مجيئه :

« فتول عنهم يوم يدعو الداع إلى شيء نكر . خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين إلى الداع يقول الكافرون : هذا يوم عسر » . .

وهو مشهد من مشاهد ذلك اليوم ، يناسب هوله وشدته ظلال السورة كلها ؛ ويتناسق مع الإرهاص باقتراب الساعة ، ومع الإنباء بانشقاق القمر ، ومع الإيقاع الموسيقي في السورة كذلك !

« وهو متقارب سريع . وهو مع سرعته شاخص متحرك ، مكتمل السمات والحركات : هذه جموع خارجة من الأجداث في لحظة واحدة كأنهم جراد منتشر (ومشهد الجراد المعهود يساعد على تصور المنظر المعروض) وهذه الجموع خاشعة أبصارها من الذل والهول ، وهي تسرع في سيرها نحو الداعي ، الذي يدعوها لأمر غريب نكير شديد لاتعرفه ولا تطمئن إليه . . وفي أثناء هذا التجمع والخشوع والإسراع يقول الكافرون : « هذا يوم عسر » . . وهي قولة المكروب المجهود ، الذي يخرج ليواجه الأمر الصعيب الرعيب ! » (١)

فهذا هو اليوم الذي اقترب ، وهم عنه معرضون ، وبه يكذبون . فتول عنهم يوم يجيء ، ودعهم لمصيرهم فيه وهو هذا المصير الرعيب المخيف !

* * *

وبعد هذا الإيقاع العنيف في مطلع السورة ؛ والمشهد المكروب الذي يشمل المكذبين في

(١) مأخوذ بتصرف خفيف من كتاب « مشاهد القيامة في القرآن » .

يوم القيامة . . يأخذ فى عرض مشاهد التنكيل والتعذيب الذى أصاب بالفعل أجيال المكذبين قبلهم ، وعرض مصارع الأمم التى سلكت من قبل مسلكهم ، بادئا بقوم نوح :

« كذبت قبلهم قوم نوح ، فكذبوا عبدنا ، وقالوا : مجنون ، وازدجر . فدعا ربه أنى مغلوب ، فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا ، فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدكر ؟ فكيف كان عذابى ونذر ؟ ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر ؟ » . .

« كذبت قبلهم قوم نوح » . . بالرسالة وبالآيات « فكذبوا عبدنا » . . نوحا « وقالوا : مجنون » . . كما قالت : قريش ظالمة عن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهددوه بالرجم ، وآذوه بالسخرية ، وطالبوه أن يكف عنهم ونهروه بعنف : « وازدجر » . . بدلا من أن ينزجروا هم ويرعووا !

عندئذ عاد نوح إلى ربه الذى أرسله وكلفه مهمة التبليغ . عاد لينهى إليه ما انتهى إليه أمره مع قومه ، وما انتهى إليه جهده وعمله ، وما انتهت إليه طاقته ووسعه . ويدع له الأمر بعد أن لم تعد لديه طاقة لم يبذلها ، وبعد أن لم تبق له حيلة ولا حول :

« فدعا ربه : أنى مغلوب . فانتصر » . .

انتهت طاقتى . انتهى جهدى . انتهت قوتى . وغلبت على أمرى . « أنى مغلوب فانتصر » . . انتصر أنت ياربى . انتصر لدعوتك . انتصر لحقك . انتصر لمنهجك . انتصر أنت فالأمر أمرك ، والدعوة دعوتك . وقد انتهى دورى !

وماتكاد هذه الكلمة تقال ؛ ومايكاد الرسول يسلم الأمر لصاحبه الجليل القهار ، حتى تشير اليد القادرة القاهرة إلى عجلة الكون الهائلة الساحقة . . فتدور دورتها المدوية المجلجلة :

« ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر » . .

وهى حركة كونية ضخمة غامرة تصورها ألفاظ وعبارات مختارة . تبدأ بإسناد الفعل إلى الله مباشرة : « ففتحنا » فيحس القارئ يد الجبار تفتح « أبواب السماء » . . بهذا اللفظ وبهذا الجمع . « بماء منهمر » . . غزير متوال . وبالقوة ذاتها وبالحركة نفسها : « وفجرنا الأرض عيونا » . . وهو تعبير يرسم مشهد التفجر وكأنه ينبثق من الأرض كلها ، وكأنما الأرض كلها قد استحالت عيونا .

Marfat.com

والتقى الماء المنهمر من السماء بالماء المتفجر من الأرض .. « على أمر قد قدر ».. التقيا على أمر مقدر ، فهما على اتفاق لتنفيذ هذا الأمر المقدر . طائعان للأمر ، محققان للقدر .

حتى إذا صار طوفانا يطم ويعم ، ويغمر وجه الأرض ، ويطوى الدنس الذى يغشى هذا الوجه . وقد يئس الرسول من تطهيره ، وغلب على أمره فى علاجه. امتدت اليد القوية الرحيمة. إلى الرسول الذى دعا دعوته، فتحرك لها الكون كله . امتدت له هذه اليد بالنجاة وبالتكريم:

« وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر » . .

وظاهر من العبارة تفخيم السفينة وتعظيم أمرها . فهى ذات ألواح ودسر (١) توصف ولا تذكر لفخامتها وقيمتها . وهى تجرى فى رعاية الله بملاحظة أعينه. « جزاء لمن كان كفر » . وجحد وازدجر . وهو جزاء يمسح بالرعاية على الجفاء ، وبالتكريم على الاستهزاء . ويصور مدى القوة التى يملك رصيدها من يُغلب فى سبيل الله . ومن يبذل طاقته ، ثم يعود إليه يسلم له أمره وأمر الدعوة ويدع له أن ينتصر ! .. إن قوى الكون الهائلة كلها فى خدمته وفى نصرته. والله من ورائها بجبروته وقدرته .

وعلى مشهد الانتصار الهائل الكامل ؛ والحق الحاسم الشامل، يتوجه إلى القلوب التى شهدت المشهد كأنها تراه . يتوجه إليها بلمسة التعقيب ، لعلها تتأثر وتستجيب :

« ولقد تركناها آية فهل من مدكر ؟ » . .

هذه الواقعة بملابساتها المعروفة . تركناها آية للأجيال « فهل من مدكر ؟ » يتذكر ويعتبر ؟

ثم سؤال لإيقاظ القلوب إلى هول العذاب وصدق النذر :

« فكيف كان عذابى ونذر ؟ » . .

ولقد كان كما صوره القرآن . كان عذابا مدمرا جبارا . وكان نذيرا صادقا بهذا العذاب . وهذا هو القرآن حاضرا ، سهل التناول ، ميسر الإدراك ، فيه جاذبية ليقرأ ويتدبر . فيه جاذبية الصدق والبساطة ، وموافقة الفطرة ، واستجاشة الطبع ، لاتنفد عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد . وكلما تدبره القلب عاد منه بزاد جديد . وكلما صحبته النفس زادت له ألفة وبه أنسا:

« ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر ؟ » . .

---

(١) الدسر : المسامير .

Marfat.com

Marfat.com

وهذا هو التعقيب الذى يتكرر ، بعد كل مشهد يصور . . ويقف السياق عنده بالقلب البشرى يدعوه دعوة هادئة إلى التذكر والتدبر ، بعد أن يعرض عليه حلقة من العذاب الأليم الذى حل بالمكذبين .

* * *

« كذبت عاد ، فكيف كان عذابى ونذر ؟ إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر ،تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابى ونذر ؟ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟» ..

وهذهى الحلقة الثانية ، أو المشهد الثانى من مشاهد التعذيب العنيف ؛ والمصرع الذى يقف عليه بعد وقفته على مصرع قوم نوح . أول المهلكين .

يبدؤه بالإخبار عن تكذيب عاد . وقبل أن يكمل الآية يسأل سؤال التعجيب والتهويل : « فكيف كان عذابى ونذر ؟ » . . كيف كان بعد تكذيب عاد ؟ ثم يجيب . .

كان كما يصفه ذلك الوصف الخاطف الرعيب :

« إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر » . . والريح الصرصر : الباردة العنيفة . وجرس اللفظ يصور نوع الريح . والنحس: الشؤم . وأى نحس يصيب قوما أشد مما أصاب عاد . والريح تنزعهم وتجذبهم وتحطمهم . فتدعهم كأنهم أعجاز نخل مهشمة مقلوعة من قعورها ؟ !

والمشهد مفزع مخيف،وعاصف عنيف . والريح التى أرسلت على عاد « هى من جند الله » وهى قوة من قوى هذا الكون ، من خلق الله ، تسير وفق الناموس الكونى الذى اختاره؛ وهو يسلطها على من يشاء ، بينما هى ماضية فى طريقها مع ذلك الناموس ، بلاتعارض بين خط سيرها الكونى ، وأدائها لما تؤمر به وفق مشيئة الله . صاحب الأمر وصاحب الناموس » .

« فكيف كان عذابى ونذر ؟ » ..

يكررها بعد عرض المشهد . والمشهد هو الجواب !

ثم يختم الحلقة بالتعقيب المكرر فى السورة وفق نسقها الخاص :

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟ » ..

* * *

ثم يمضى إلى المشهد التالى فى السياق وفى التاريخ :

« كذبت ثمود بالنذر . فقالوا : أبشرا منا واحدا نتبعه ؟ إنا إذن لفى ضلال وسعر . أألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر . سيعلمون غدا من الكذاب الأشر . إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم ، كل شرب محتضر. فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر . فكيف كان عذابى ونذر ؟ إناأرسلناعليهم صيحةواحدة فكانوا كهشيم المحتظر . ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر ؟ » ..

وثمود كانت القبيلة التى خلفت عاداً فى القوة والتمكين فى جزيرة العرب . . كانت عاد فى الجنوب وكانت ثمود فى الشمال . وكذبت ثمود بالنذر كما كذبت عاد ، غير معتبرة بمصرعها المشهور المعلوم فى أنحاء الجزيرة .

« فقالوا : أبشرا منا واحدا نتبعه ؟ إنا إذن لفى ضلال وسعر . أألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر » ..

وهى الشبهة المكرورة التى تحيك فى صدور المكذبين جيلا بعد جيل : « أألقى الذكر عليه من بيننا » ؟ كما أنها هى الكبرياء الجوفاء التى لاتنظر إلى حقيقة الدعوة ، إنما تنظر إلى شخص الداعية : « أبشرا منا واحدا نتبعه ؟ » !

وماذا فى أن يختار الله واحدا من عباده .. والله أعلم حيث يجعل رسالته..فيلقى عليه الذكر ـ أى الوحى ومايحمله من توجيهات للتذكر والتدبر ـ ماذا فى هذا الاختيار لعبد من عباده يعلم منه تهيؤه واستعداده . وهو خالق الخلق . وهو منزل الذكر ؟ إنها شبهة واهية لا تقوم إلا فى النفوس المنحرفة . النفوس التى لاتريد أن تنظر فى الدعوة لترى مقدار مافيها من الحق والصدق ؛ ولكن إلى الداعية فتستكبر عن اتباع فرد من البشر ، مخافة أن يكون فى اتباعها له إيثارله وتعظيم . وهى تستكبر عن الإذعان والتسليم .

ومن ثم يقولون لأنفسهم : « أبشرا منا واحدا نتبعه ؟ إنا إذن لفى ضلال وسعر » .. أى لووقع منا هذا الأمر المستنكر ! وأعجب شىء أن يصفوا أنفسهم بالضلال لواتبعوا الهدى ! وأن يحسبوا أنفسهم فى سعر ـ لافى سعير واحد ـ إذا هم فاءوا إلى ظلال الإيمان !

ومن ثم يتهمون رسولهم الذى اختاره الله ليقودهم فى طريق الحق والقصد .يتهمونه بالكذب والطمع : « بل هو كذاب أشر » . . كذاب لم يلق عليه الذكر . أشر : شديد الطمع فى اختصاص نفسه بالمكانة ! وهو الاتهام الذى يواجه به كل داعية . اتهامه بأنه يتخذ الدعوة

Marfat.com

ستارا لتحقيق مآرب ومصالح . وهى دعوى المطموسين الذين لا يدركون دوافع النفوس ومحركات القلوب .

وبينما يجرى السياق على أسلوب الحكاية لقصة غبرت فى التاريخ . . يلتفت فجأة وكأنما الأمر حاضر . والأحداث جارية . فيتحدث عما سيكون . ويهدد بهذا الذى سيكون :

« سيعلمون غدا من الكذاب الأشر » !

وهذه إحدى طرق العرض القرآنية للقصص . وهى طريقة تنفخ روح الحياة الواقعية فى القصة ،وتحيلها من حكاية تحكى ، إلى واقعة تعرض على الأنظار ، يترقب النظارة أحداثها الآن ، ويرتقبونها فى مقبل الزمان !

« سيعلمون غدا من الكذاب الأشر » . . وسيكشف لهم الغد عن الحقيقة . ولن يكونوا بمنجاة من وقع هذه الحقيقة . فستكشف عن البلاء المدمر للكذاب الأشر !

« إنا مرسلو الناقة فتنة لهم . فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم . كل شرب محتضر » . .

ويقف القارىء يترقب ماسيقع ، عندما يرسل الله الناقة فتنة لهم ، وامتحانا مميزا لحقيقتهم . ويقف الرسول ــ رسولهم عليه السلام ــ مرتقبا ما سيقع ، مؤتمرا بأمر ربه فى الاصطبار عليهم حتى تقع الفتنة ويتم الامتحان . ومعه التعليمات . . أن الماء فى القبيلة قسمة بينهم وبين الناقة ــ ولابد أنها كانت ناقة خاصة ذات خصائص معينة تجعلها آية وعلامة ــ فيوم لها ويوم لهم ــ تحضر يومها ويحضرون يومهم . وتنال شربها وينالون شربهم .

ثم يعود السياق إلى أسلوب الحكاية . فيقص ما كان بعد ذلك منهم :

« فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر » . .

وصاحبهم هو أحد الرهط المفسدين فى المدينة ، الذين قال عنهم فى سورة النمل : « وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولايصلحون » . . وهو الذى قال عنه فى سورة الشمس : « إذ انبعث أشقاها » . .

وقيل : إنه تعاطى الخمر فسكر ليصير جريئا على الفعلة التى هو مقدم عليها . وهى عقر الناقة التى أرسلها الله آية لهم ؛ وحذرهم رسولهم أن يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب أليم . . « فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر » وتمت الفتنة ووقع البلاء .

Marfat.com

« فكيف كان عذابي ونذر ؟ » ..

وهو سؤال التعجيب والتهويل . قبل ذكر ماحل من العذاب بعد النذير :

« إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر » ..

ولا يفصل القرآن هذه الصيحة . وإن كانت في موضع آخر في سورة «فصلت» توصف بأنها صاعقة : « فإن تولوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » . . وقد تكون كلمة صاعقة وصفا للصيحة . فهي صيحة صاعقة . وقد تكون تعبيرا عن حقيقتها .فتكون الصيحة والصاعقة شيئا واحدا . وقد تكون الصيحة هي صوت الصاعقة . أو تكون الصاعقة أثرا من آثار الصيحة التي لا ندري من صاحها .

وعلى أية حال فقد أرسلت على القوم صيحة واحدة ، ففعلت بهم مافعلت ، مما جعلهم « كهشيم المحتظر » . . والمحتظر صانع الحظيرة . وهو يصنعها من أعواد جافة . فهم صاروا كالأعواد الجافة حين تيبس وتتحطم وتصبح هشيما . أو أن المحتظر يجمع لماشيته هشيما تأكله من الأعواد الجافة والعشب الناشف . وقد صار القوم كهذا الهشيم بعد الصيحة الواحدة !

وهو مشهد مفجع مفزع . يعرض ردا على التعالي والتكبر . فإذا المتعالون المتكبرون هشيم . وهشيم مهين . كهشيم المحتظر !

وأمام هذا المشهد العنيف المخيف ، يرد قلوبهم إلى القرآن ليتذكروا ويتدبروا . وهو ميسر للتذكر والتدبر :

« ولقد يسرنا القرآن للذكر . فهل من مدكر ؟ » ..

ويسدل الستار على الهشيم المهين . وفي العين منه مشهد . وفي القلب منه أثر . والقرآن يدعو من يذكر ويتفكر ...

***

ثم يرفع الستار عن حلقة جديدة تالية ــ بعد ذلك ــ في التاريخ ، في محيط الجزيرة العربية كذلك :

« كذبت قوم لوط بالنذر . إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمة من عندنا . كذلك نجزي من شكر . ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر . ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر . ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر . فذوقوا عذابي ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟ » ..

Marfat.com

وقصة قوم لوط وردت مفصلة فى مواضع أخرى . والمقصود بعرضها هنا ليس هو تفصيلاتها . إنما هى العبرة من عاقبة التكذيب ، والأخذ الأليم الشديد . ومن ثم تبدأ بذكر ما وقع منهم من تكذيب بالنذر : « كذبت قوم لوط بالنذر » . وعلى إثر هذه الإشارة يصف ما نزل بهم من النكال :

« إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمة من عندنا كذلك نجزى من شكر » ..

والحاصب : الريح تحمل الحجارة. وفى مواضع أخرى ورد أنه أرسل إليهم حجارة من طين. ولفظة الحاصب ذات جرس كأنه وقع الحجارة ، وفيه شدة وعنف تناسب جو المشهد . ولم ينج إلا آل لوط - إلا امرأته - نعمة من عند الله جزاء إيمانهم وشكرهم.. كذلك نجزى من شكر ». فننجيه وننعم عليه فى وسط المهالك والمخاوف .

والآن وقد عرض القصة من طرفيها : طرف التكذيب وطرف الأخذ الشديد. فإنه يعود لشىء من التفصيل فيما وقع بين الطرفين .. وهذه إحدى طرق العرض القرآنية للقصة حين يراد إبراز إيحاءات معينة من إيرادها فى هذا النسق [1] . هذه التفصيلات هى :

« ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر . ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ، فذوقوا عذابى ونذر . ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر » ..

وطالما أنذر لوط قومه عاقبة المنكر الشاذ الذى كانوا يأتونه ، فتماروا بالنذر ، وشكوا فيها وارتابوا ، وتبادلوا الشك والارتياب فيما بينهم وتداولوه ، وجادلوا نبيهم فيه . وبلغ منهم الفجور والاستهتار أن يراودوه هو نفسه عن ضيفه - من الملائكة - وقد حسبوهم غلمانا صباحا فهاج سعارهم الشاذ الملوث القذر ! وساوروا لوطا يريدون الاعتداء المنكر على ضيوفه ، غير محتشمين ولامستحيين ، ولا متحرجين من انتهاك حرمة نبيهم الذى حذرهم وأنذرهم عاقبة هذا الشذوذ القذر المريض .

عندئذ تدخلت يد القدرة ، وتحرك الملائكة لأداء ما كلفوه وجاءوا من أجله : « فطمسنا أعينهم » فلم يعودوا يرون شيئا ولا أحدا ؛ ولم يعودوا يقدرون على مساورة لوط ولا الإمساك بضيفه ! والإشارة إلى طمس أعينهم لاترد إلا فى هذا الموضع بهذا الوضوح . فى موضع آخر

(1) يراجع فصل : « القصة فى القرآن » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن.» .

Marfat.com

ورد : « قالوا : يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك » . . فزاد هنا ذكر الحالة التى صارت عنهم من أن يصلوا إليه . وهى انطماس العيون !

وبينما السياق يجرى مجرى الحكاية ، إذا به حاضر مشهود ، وإذا الخطاب يوجه إلى المعذبين : « فذوقوا عذابى ونذر » . . فهذا هو العذاب الذى حذرتم منه ، وهذه هى النذر التى تماريتم فيها !

وكان طمس العيون فى المساء .. فى انتظار الصباح الذى قدره الله لأخذهم جميعا :

« ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر » ..

وهو ذلك العذاب الذى عجل بذكره فى السياق . وهو الحاصب الذى طهر الأرض من تلك اللوثة ومن ذلك الفساد .

ومرة أخرى تتغير طريقة العرض ، ويستحضر المشهد كأنه اللحظة واقع . وينادى المعذبون وهم يعانون العذاب :

« فذوقوا عذابى ونذر » !!!

ثم يجىء التعقيب المألوف ، عقب المشهد العنيف :

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » ؟

* * *

وتختم هذه الحلقات بحلقة خارج الجزيرة ، ومصرع من المصارع المشهورة المذكورة . فى إشارة سريعة خاطفة :

« ولقد جاء آل فرعون النذر . كذبوا بآياتنا كلها ، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر » ..

وهكذا تختصر قصة فرعون وملئه فى طرفيها : مجىء النذر لآل فرعون وتكذيبهم بالآيات التى جاءهم بها رسولهم . وأخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر . والإشارة إلى العزة والاقتدار تلقى ظلال الشدة فى الأخذ ؛ وفيها تعريض بعزة فرعون واقتداره على البغى والظلم . فقد ضاعت العزة الباطلة ، وسقط الاقتدار الموهوم . وأخذه الله ـ هو وآله ـ أخذ عزيز حقا مقتدر صدقا. أخذهم أخذا شديدا يناسب ما كانوا عليه من ظلم وغشم وبطش وجبروت .

وعلى هذه الحلقة الأخيرة على مصرع فرعون الجبار . يسدل الستار . .

* * *

والآن . وقد أسدل الستار على آخر مشهد من مشاهد العذاب والنكال . والمكذبون يشهدون ؛ ويتلقى حسهم إيقاع هذه المشاهد .. الآن والمصارع التتالية حاضرة فى خيالهم ، ضاغطة على حسهم .. الآن يتوجه إليهم بالخطاب ؛ يحذرهم مصرعا كهذه المصارع . وينذرهم ماهو أدهى وأفظع :

« أ كفاركم خير من أولئكم ؟ أم لكم براءة فى الزبر ؟ أم يقولون : نحن جميع منتصر ؟ سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر . إن المجرمين فى ضلال وسعر . يوم يسحبون فى النار على وجوههم : ذوقوا مس سقر . إنا كل شىء خلقناه بقدر . وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر . ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من يذكر . وكل شىء فعلوه فى الزبر . وكل صغير وكبير مستطر » . .

إنه الإنذار بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ؛ وإسقاط كل شبهة وكل شك فى صدق هـذا الإنذار وسد كل ثغرة وكل طمع فى الهرب والفكاك؛أو المغالطة فى الحساب والفرار من الجزاء!

تلك كانت مصارع المكذبين . فما يمنعكم أنتم من مثل ذلك المصير ؟ « أ كفاركم خير من أولئكم ؟ ».. وما ميزة كفاركم على أولئكم ؟ « أم لكم براءة فى الزبر » .. تشهد بها الصحائف المنزلة ، فتعفوا إذن من جرائر الكفر والتكذيب ؟ لا هذه ولا تلك. فلستم خيرا من أولئكم، وليست لكم براءة فى الصحائف المنزلة ، وليس هنالك إلا لقاء المصير الذى لقيه الكفار من قبلكم فى الصورة التى يقدرها الله لكم .

ثم يلتفت عن خطابهم إلى خطاب عام ، يعجب فيه من أمرهم :

« أم يقولون : نحن جميع منتصر » .

وذلك حين يرون جمعهم فتعجبهم قوتهم ، ويغترون بتجمعهم ، فيقولون : إنا منتصرون لاهازم لنا ولا غالب ؟

هنا يعلنها عليهم مدوية قاضية حاسمة :

« سيهزم الجمع ويولون الدبر » . .

فلا يعصمهم تجمعهم ، ولا تنصرهم قوتهم . والذى يعلنها عليهم هو القهار الجبار . ولقد كان ذلك . كما لا بد أن يكون !

قال البخارى بإسناده إلى ابن عباس ـ : أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال وهو فى قبة

Marfat.com

Marfat.com

له يوم بدر : « أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم فى الأرض أبدا » . فأخذ أبو بكر رضى الله عنه بيده ، وقال : حسبك يارسول الله ألححت على ربك ! فخرج وهو يثب فى الدرع ، وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر . . . » .

وفى رواية لابن أبى حاتم بإسناده إلى عكرمة ، قال : لما نزلت « سيهزم الجمع ويولون الدبر » قال عمر : أى جمع يهزم ؟ أى أى جمع يغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يثب فى الدرع ، وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » . فعرفت تأويلها يومئذ !

وكانت هذه هزيمة الدنيا . ولكنها ليست هى الأخيرة . وليست هى الأشد والأدهى ؛ فهو يضرب عن ذكرها ليذكر الأخرى :

« بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » . .

أدهى وأمر من كل عذاب رأوه أو يرونه فى هذه الأرض . وأدهى وأمر من كل مشهد رأوه مرسوما فيما مر . من الطوفان ، إلى الصرصر . إلى الصاعقة . إلى الحاصب . إلى أخذ فرعون وآله أخذ عزيز مقتدر !

ثم يفصل كيف هى أدهى وأمر . يفصل هذا فى مشهد عنيف من مشاهد القيامة :

« إن المجرمين فى ضلال وسعر . يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر » . .

فى ضلال يعذب العقول والنفوس ، وفى سعر تكوى الجلود والأبدان . . فى مقابل ما كانوا يقولون هم وأمثالهم من قبل : « أبشرا منا واحدا نتبعه ؟ إنا إذن لفى ضلال وسعر » . ليعرفوا أين يكون الضلال وأين تكون السعر !

وهم يسحبون فى النار على وجوههم فى عنف وتحقير ، فى مقابل الاعتزاز بالقوة والاستكبار . وهم يزادون عذابا بالإيلام النفسى ، الذى كأنما يشهد اللحظة حاضرا معروضا على الأسماع والأنظار : « ذوقوا مس سقر » !

* * *

وفى ظل هـذا المشهد المروع المزلزل يتجه بالبيان إلى الناس كافة ، وإلى القوم خاصة . ليقر فى قلوبهم حقيقة قدر الله وحكمته وتدبيره . .

إن ذلك الأخذ فى الدنيا ، وهذا العذاب فى الآخرة . وما كان قبلها من رسالات ونذر ، ومن قرآن وزبر . وما حول ذلك كله من خلق ووجود وتصريف لهذا الوجود . .

Marfat.com

إن ذلك كله ، وكل صغيرة وكبيرة مخلوقة بقدر ، مصرفة بقصد ، مدبرة بحكمة . لا شيء جزاف . لا شيء عبث . لا شيء مصادفة . لا شيء ارتجال :

« إنا كل شيء خلقناه بقدر » .

كل شيء .. كل صغير وكل كبير . كل ناطق وكل صامت . كل متحرك وكل ساكن . كل ماض وكل حاضر . كل معلوم وكل مجهول . كل شيء .. خلقناه بقدر . .

قدر يحدد حقيقته . ويحدد صفته . ويحدد مقداره . ويحدد زمانه . ويحدد مكانه . ويحدد ارتباطه بسائر ما حوله من أشياء . وتأثيره فى كيان هذا الوجود .

وإن هذا النص القرآنى القصير اليسير ليشير إلى حقيقة ضخمة هائلة شاملة ، مصداقها هذا الوجود كله . حقيقة يدركها القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود ، ويتجاوب معه ، ويتلقى عنه ، ويحس أنه خليقة متناسقة تناسقا دقيقا . كل شيء فيه بقدر يحقق هذا التناسق المطلق ، الذى ينطبع ظله فى القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود .

ثم يبلغ البحث والرؤية والتجربة من إدراك هذه الحقيقة القدر الذى تهيئه هذه الوسائل ، ويطيقه العقل البشرى ، ويملك معرفته عن هذا الطريق . ووراء هـذا القدر يبقى دائما ما هو أعظم وأكمل ، تدركه الفطرة وينطبع فيها بتأثير الإيقاع الكونى المتناسق فيها ، وهى ذاتها بعض هذا الكون المتناسق المخلوق كل شيء فيه بقدر .

ولقد وصل العلم الحديث إلى أطراف من هذه الحقيقة ، فيما يملك أن يدركه منها بوسائله المهيأة له .. وصل فى إدراك التناسق بين أبعاد النجوم والكواكب وأحجامها وكتلها وجاذبيتها بعضها لبعض إلى حد أن يحدد العلماء مواقع كواكب لم يروها بعد ؛ لأن التناسق يقتضى وجودها فى المواضع التى حددوها . فوجودها فى هذه المواقع هو الذى يفسر ظواهر معينة فى حركة الكواكب التى رصدوها .. ثم يتحقق هذا الذى فرضوه . ويدل تحقيقه على الدقة المتناهية فى توزيع هذه الأجرام ، فى هذا الفضاء الهائل ، بهذه النسب المقدرة ، التى لا يتناولها خلل أو اضطراب !

ووصل فى إدراك التناسق فى وضع هذه الأرض التى نعيش عليها ، لتكون صالحة لنوع الحياة التى قدر الله أن تكون فيها إلى حد أن افتراض أى اختلال فى أية نسبة من نسبها يودى

بهذه الحياة كلها ،أو لا يسمح أصلا بقيامها . فحجم هذه الأرض ، وكتلتها ،وبعدها عن الشمس. وكتلة هذه الشمس ، ودرجة حرارتها . وميل الأرض على محورها بهذا القدر ، وسرعتها فى دورتها حول نفسها وحول الشمس . وبعد القمر عن الأرض . وحجمه وكتلته . وتوزيع الماء واليابس فى هذه الأرض ... إلى آلاف من هذه النسب المقدرة تقديرا ، لو وقع الاختلال فى أى منها لتبدل كل شىء ؛ ولكانت هى النهاية المقدرة لعمر هذه الحياة على هذه الأرض ! .

ووصل فى إدراك التناسق بين عدد كبير من الضوابط التى تضبط الحياة ؛ وتنسق بين الأحياء والظروف المحيطة بها ؛ وبين بعضها وبعض . . إلى حد يعطى فكرة عن تلك الحقيقة العميقة الكبيرة التى تشير إليها الآية . فالنسبة بين عوامل الحياة والبقاء وعوامل الموت والفناء فى البيئة وفى طبيعة الأحياء محفوظة دائما بالقدر الذى يسمح بنشأة الحياة وبقائها وامتدادها . وفى الوقت ذاته يحد من انتشارها إلى الحد الذى لا تكفى الظروف المهيأة للأحياء ، فى وقت ما ، لإعالتهم وإعاشتهم !

ولعله من المفيد أن نشير إشارة سريعة إلى شىء من هذا التوازن فى علاقات بعض الأحياء ببعض . إذ كنا قد أشرنا بشىء من التفصيل فى سور أخرى إلى التناسق فى بناء الكون ، وفى ظروف الأرض (1) ..

« إن الجوارح التى تتغذى بصغار الطيور قليلة العدد ، لأنها قليلة البيض ، قليلة التفريخ ، فضلا على أنها لا تعيش إلا فى مواطن خاصة محدودة . وهى فى مقابل هذا طويلة الأعمار . ولو كانت مع عمرها الطويل ، كثيرة الفراخ مستطيعة الحياة فى كل موطن ، لقضت على صغار الطيور وأفنتها على كثرتها وكثرة تفريخها . أو قللت من أعدادها الكبيرة اللازمة بدورها لطعام هذه الجوارح وسواها من بنى الإنسان ، وللقيام بأدوارها الأخرى ،ووظائفها الكثيرة فى هذه الأرض !

بغاث الطير أكثرها فراخا . وأم الصقر مِقلاتٌ نزور

وذلك للحكمة التى قدرها الله كما رأينا ، كى تتعادل عوامل البقاء وعوامل الفناء بين الجوارح والبغاث !

والذبابة تبيض ملايين البويضات . ولكنها لا تعيش إلا أسبوعين . ولو كانت تعيش بضعة أعوام ، تبيض فيها بهذه النسبة لغطى الذباب وجه الأرض بنتاجه؛ ولغدت حياة كثير من الأجناس

(1) يراجع تفسير سورة الفرقان .

Marfat.com

Marfat.com

ـ وأولها الإنسان ـ مستحيلة على وجه هذه الأرض. ولكن عجلة التوازن التي لا تختل، في يد القدرة التي تدبر هذا الكون، وازنت بين كثرة النسل وقصر العمر فكان هذا الذي نراه!

والميكروبات ـ وهي أكثر الأحياء عددا، وأسرعها تكاثرا، وأشدها فتكا ـ هي كذلك أضعف الأحياء مقاومة وأقصرها عمرا. تموت بملايين الملايين من البرد، ومن الحر، ومن الضوء، ومن أحماض المعدات، ومن أمصال الدم، ومن عوامل أخرى كثيرة. ولا تتغلب إلا على عدد محدود من الحيوان والإنسان. ولو كانت قوية المقاومة أو طويلة العمر لدمرت الحياة والأحياء!

وكل حي من الأحياء مزود بسلاح يتقي به هجمات أعدائه ويغالب به خطر الفناء. وتختلف هذه الأسلحة وتتنوع. فكثرة العدد سلاح. وقوة البطش سلاح. وبينهما ألوان وأنواع..

الحيات الصغيرة مزودة بالسم أو بالسرعة للهرب من أعدائها. والثعابين الكبيرة مزودة بقوة العضل، ومن ثم يندر فيها السام!

والخنفساء ـ وهي قليلة الحيلة ـ مزودة بمادة كاوية ذات رائحة كريهة، تصبها على كل من يلمسها، وقاية من الأعداء!

والظباء مزودة بسرعة الجري والقفز. والأسود مزودة بقوة البأس والافتراس!

وهكذا كل حي من الأحياء الصغار والكبار على السواء.

وكل حي مزود كذلك بالخصائص والوسائل التي يحصل بها على طعامه، والتي ينتفع معها بهذا اللون من الطعام.. الإنسان والحيوان والطير وأدنأ أنواع الأحياء سواء..

البويضة بعد تلقيحها بالحيوان المنوي تلصق بالرحم. وهي مزودة بخاصية أكالة، تمزق جدار الرحم حولها وتحوله إلى بركة من الدم المناسب لامتصاصها ونموها! والحبل السري الذي يربط الجنين بأمه ليتغذى منها حتى يتم وضعه، روعي في تكوينه ما يحقق الغرض الذي تكون من أجله، دون إطالة قد تسبب تخمر الغذاء فيه، أو قصر قد يؤدي إلى اندفاع الغذاء إليه بما قد يؤذيه» (1).

«والثدي يفرز في نهاية الحمل وبدء الوضع سائلا أبيض مائلا إلى الاصفرار. ومن عجيب صنع الله أن هذا السائل عبارة عن مواد كياوية ذائبة تقي الطفل من عدوى الأمراض. وفي اليوم

---

(1) من كتاب: الله والعلم والحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل ص ٤٦ـ٤٧.

الثانى للميلاد يبدأ اللبن فى التكوين . ومن تدبير المدبر الأعظم أن يزداد مقدار اللبن الذى يفرزه الثدى يوما بعد يوم ، حتى يصل إلى حوالى لتر ونصف فى اليوم بعد سنة ، بينما لا تزيد كميته فى الأيام الأولى على بضع أوقيات . ولا يقف الإعجاز عند كمية اللبن التى تزيد على حسب زيادة الطفل ؛ بل إن تركيب اللبن كذلك تتغير مكوّناته ، وتتركز مواده ، فهو يكاد يكون ماء به القليل من النشويات والسكريات فى أول الأمـر ، ثم تتركز مكوناته فتزيد نسبته النشوية والسكرية والدهنية فترة بعـد أخرى ، بـل يوما بعد يوم بمـا يوافق أنسجة وأجهزة الطفل المستمر النمو » [١] .

وتتبع الأجهزة المختلفة فى تكوين الإنسان ، ووظائفها ، وطريقة عملها ، ودور كل منها فى المحافظة على حياته وصحته . . يكشف عن العجب العجاب فى دقة التقدير وكمال التدبير . ويرينا يد الله وهى تدبر أمر كل فرد . بل كل عضو . بل كل خلية من خلاياه . وعين الله عليه تـكلؤه وترعاه . ولن نستطيع هنا أن نفصل هذه العجائب فـنكتفى باشارة سريعة إلى التقدير الدقيق فى جهاز واحد من هذه الأجهزة . جهاز الغدد الصم « تلك المعامل الـكيماوية الصغيرة التى تمـد الجسم بالتركيبات الـكيماوية الضرورية ، والتى يبلغ من قوتها أن جزءا من ألف بليون جزء منها تحدث آثارا خطيرة فى جسم الإنسان . وهى مرتبة بحيث أن إفراز كل غدة يكمل إفراز الغدة الأخرى . وكل ما كان يعرف عن هـذه الإفرازات أنها معقدة التركيب تعقيدا مدهشا ، وأن أى اختلال فى إفرازها يسبب تلفا عاما فى الجسم ، يبلغ حد الخطورة . إذا دام هـذا الاختلال وقتا قصيرا » [٢] .

أما الحيوان فتختلف أجهزته باختلاف أنواعه وبيئاته وملابسات حياته . .

« زودت أفواه الآساد والنمور والذئاب والضباع ، وكل الحيوانات الـكاسرة التى تعيش فى الفلاة ، ولا غـذاء لها إلا ماتفترسه من كائنات لابد من مهاجمتها ، والتغلب عليها ، بأنياب قاطعة ، وأسنان حادة ، وأضراس صلبة . ولما كانت فى هجومها لابد أن تستعمل عضلاتها ، فلأرجلها عضلات قوية ، سلحت بأظافر ومخالب حادة ، وحوت معدتها الأحماض والأنزيمات الهاضمة للحوم والعظام » [٣] .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٧ ــ ٤٨
(٢) المصدر السابق ص ٥١ ــ ٥٢
(٣) المصدر السابق ص ٧١ ــ ٧٢

Marfat.com

Marfat.com

فأما الحيوانات المجترة المستأنسة التى تعيش على المراعى ، فهى تختلف فيما زودت به . .

« وقد صممت أجهزتها الهاضمة بما يتناسب مع البيئة ، فأفواهها واسعة نسبيا ؛ وقد تجردت من الأنياب القوية والأضراس الصلبة . وبدلا منها توجد الأسنان التى تتميز بأنها قاصمة قاطعة؛ فهى تأكل الحشائش والنباتات بسرعة ، وتبتلعها كذلك دفعة واحدة ، حتى يمكنها أن تؤدى للإنسان ما خلقت لأجله من خدمات . وقد أوجدت العناية الخالقة لهذا الصنف أعجب أجهزة للهضم ، فالطعام الذى تأكله ينزل إلى الكرش ، وهو مخزن له ، فإذا ما انتهى عمل الحيوان اليومى وجلس للراحة . يذهب الطعام إلى تجويف يسمى « القلنسوة » . ثم يرجع إلى الفم ، فيمضغ ثانية مضغا جيدا ، حيث يذهب إلى تجويف ثالث يسمى « أم التلافيف » ،ثم إلى رابع يسمى « الإنفحة » وكل هذه العملية الطويلة أعدت لحماية الحيوان ، إذ كثيرا ما يكون هدفا لهجوم حيوانات كاسرة فى المراعى ، فوجب عليه أن يحصل على غذائه بسرعة ويختفى . ويقول العلم إن عملية الاجترار ضرورية بل وحيوية ، إذ أن العشب من النباتات العسرة الهضم ، لما يحتويه من السليلوز الذى يغلف جميع الخلايا النباتية ، ولهضمه يحتاج الحيوان إلى وقت طويل جدا ، فلو لم يكن مجترا ، وبعمدته مخزن خاص ، لضاع وقت طويل فى الرعى ، يكاد يكون يوما بأكمله ، دون أن يحصل الحيوان على كفايته من الغذاء ، ولأجهد العضلات فى عمليات التناول والمضغ . إنما سرعة الأكل ، ثم تخزينه وإعادته بعد أن يصيب شيئا من التخمر ، ليبدأ المضغ والطحن والبلع ، تحقق كافة أغراض الحيوان من عمل وغذاء وحسن هضم . فسبحان المدبر » (١) .

« والطيور الجارحة كالبوم والحدأة ذات منقار مقوس حاد على شكل خطاف لتمزيق اللحوم. بينما للإوز والبط مناقير عريضة منبسطة مفلطحة كالمغرفة ، تواءم البحث عن الغذاء فى الطين والماء . وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة كالأسنان لتساعد على قطع الحشائش .

«أما الدجاج والحمام وباقى الطيور التى تلتقط الحب من الأرض فمناقيرها قصيرة مدببة لتؤدى هذا الغرض . بينما منقار البجعة مثلا طويل طولا ملحوظا، ويمتد من أسفله كيس يشبه الجراب ليكون كشبكة الصياد . إذ أن السمك هو غذاء البجعة الأساسى .

« ومنقار الهدهد وأبو قردان طويل مدبب،أعد بإتقان للبحث عن الحشرات والديدان،

---

(١) المصدر السابق. ص ٧٢ ـ ٧٣

التى غالبا ما تكون تحت سطح الأرض . ويقول العلم : إنه يمكن للإنسان أن يعرف غذاء أى طير من النظرة العابرة إلى منقاره .

« أما باقى الجهاز الهضمى للطير فهو غريب عجيب. فلما لم يعط أسنانا فقد خلقت له حوصلة وقانصة تهضم الطعام . ويلتقط الطير مواد صلبة وحصى لتساعد القانصة على هضم الطعام »[1] .

ويطول بنا الاستعراض ، ونخرج على منهج هذه الظلال ، لو رحنا نتتبع الأنواع والأجناس الحية على هذا النحو ، فنسرع الخطى إلى « الإميبا » وهى ذات الخلية الواحدة ، لنرى يد الله منها ، وعينه عليها ، وهو يقدر لها أمرها تقديرا .

« والإميبا كائن حى دقيق الحجم ، يعيش فى البرك والمستنقعات ، أو على الأحجار الراسبة فى القاع . ولا يرى بالعين إطلاقا وهو يرى بالمجاهر ، كتلة هلامية، يتغير شكلها بتغير الظروف والحاجات . فعندما تتحرك تدفع بأجزاء من جسمها تكون به زوائد ، تستعملها كالأقدام ، للسير بها إلى المكان المرغوب . ولذا تسمى هذه الزوائد بالأقدام الكاذبة. وإذا وجدت غذاء لها أمسكت به بزائدة أو زائدتين ، وتفرز عليه عصارة هاضمة ، فتتغذى بالمفيد منها ، أما الباقى فتطرده من جسمها ! وهى تتنفس من كل جسمها بأخذ الأكسوجين من الماء .. فتصور هذا الكائن الذى لا يرى إطلاقا بالعين ، يعيش ويتحرك ، ويتغذى ويتنفس ، ويخرج فضلاته ! فإذا ماتم نموه انقسم إلى قسمين ، ليكون كل قسم حيوانا جديدا » ..

« وعجائب الحياة فى النبات لا تقل فى إثارة العجب والدهشة عن عجائبها فى الإنسان والحيوان والطير . والتقدير فيها لا يقل ظهورا وبروزا عنه فى تلك الأحياء . « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » [2] . .

***

على أن الأمر أعظم من هذا كله وأشمل فى التقدير والتدبير . إن حركة هذا الكون كله بأحداثها ووقائعها وتياراتها مقدرة مدبرة صغيرها وكبيرها . كل حركة فى التاريخ ككل انفعال فى نفس فرد ، ككل نفس يخرج من صدر ! إن هذا النفس مقدر فى وقته ، مقدر فى مكانه ، مقدر فى ظروفه كلها ، مرتبط بنظام الوجود وحركة الكون ، محسوب حسابه فى التناسق الكونى ، كالأحداث العظام الضخام !

وهذا العود البرى النابت وحده هناك فى الصحراء . إنه هو الآخر قائم هناك بقدر. وهو

(١) المصدر السابق ص ٧٣ ــ ٧٤ (٢) المصدر السابق ص ١٠١ ــ ١٠٢

يؤدى وظيفة ترتبط بالوجود كله منذ كان ! وهذه النملة السارية . وهذه الهباءة الطائرة . وهذه الخلية السابحة فى الماء . كالأفلاك والأجرام الهائلة سواء !

تقدير فى الزمان ، وتقدير فى المكان ، وتقدير فى المقدار ، وتقدير فى الصورة . وتناسق مطلق بين جميع الملابسات والأحوال .

من ذا الذى يذكر مثلا أن زواج يعقوب من امرأة أخرى هى أم يوسف وبنيامين أخيه ، لم يكن حادثا شخصيا فرديا . . إنما كان قدرا مقدورا ليحقد إخوة يوسف من غير أمه عليه ، فيأخذوه فيلقوه فى الجب ـ ولا يقتلوه ـ لتلتقطه السيارة . لتبيعه . فى مصر . لينشأ فى قصر العزيز . لتراوده امرأة العزيز عن نفسه . ليستعلى على الإغراء . ليلقى فى السجن . . لماذا ؟ ليتلاقى فى السجن مع خادمى الملك . ليفسر لهما الرؤيا . . لماذا؟ إلى تلك اللحظة لا يوجد جواب ! ويقف ناس من الناس يسألون : لماذا ؟ لماذا يارب يتعذب يوسف؟ لماذا يارب يتعذب يعقوب ؟ لماذا يفقد هذا النبى بصره من الحزن؟ ولماذا يسام يوسف الطيب الزكى كل هذا الألم، المنوع الأشكال؟ لماذا ؟ . . ولأول مرة تجىء أول إجابة بعد أكثر من ربع قرن فى العذاب . لأن القدر يعده ليتولى أمر مصر وشعبها والشعوب المجاورة فى سنى القحط السبعة ! ثم ماذا ؟ ثم ليستقدم أبويه وإخوته . ليكون من نسلهم شعب بنى إسرائيل . ليضطهدهم فرعون . لينشأ من بينهم موسى ـ وما صاحب حياته من تقدير وتدبير ـ لتنشأ من وراء ذلك كله قضايا وأحداث وتيارات يعيش العالم فيها اليوم بكليته ! وتؤثر فى مجرى حياة العالم جميعه !

ومن ذا الذى يذكر مثلا أن زواج إبراهيم جد يعقوب من هاجر المصرية لم يكن حادثا شخصيا فرديا . إنما كان وماسبقه فى حياة إبراهيم من أحداث أدت إلى مغادرته موطنه فى العراق ومروره بمصر ، ليأخذ منها هاجر ، لتلد له إسماعيل . ليسكن إسماعيل وأمه عند البيت المحرم . لينشأ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من نسل إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى هذه الجزيرة . أصلح مكان على وجه الأرض لرسالة الإسلام . . ليكون من ذلك كله ذلك الحدث الأكبر فى تاريخ البشرية العام !

إنه قدر الله وراء طرف الخيط البعيد . لكل حادث . ولكل نشأة . ولكل مصير . ووراء كل نقطة ، وكل خطوة ، وكل تبديل أو تغيير .

إنه قدر الله النافذ ، الشامل ، الدقيق ، العميق .

وأحيانا يرى البشر طرف الخيط القريب ولا يرون طرفه البعيد . وأحيانا يتطاول الزمن بين

Marfat.com

المبدأ والمصير فى عمرهم القصير . فتخفى عليهم حكمة التدبير . فيستعجلون ويقترحون . وقد يسخطون . أو يتطاولون !

والله يعلمهم فى هذا القرآن أن كل شىء بقدر ليسلموا الأمر لصاحب الأمر، وتطمئن قلوبهم وتستريح ويسيروا مع قدر الله فى توافق وفى تناسق، وفى أنس بصحبة القدر فى خطوه المطمئن الثابت الوثيق . .

* * *

ومع التقدير والتدبير ، القدرة التى تفعل أعظم الأحداث بأيسر الإشارات :

«وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » . .

فهى إشارة واحدة. أو كلمة واحدة يتم بها كل أمر : الجليل والصغير سواء . وليس هنالك جليل ولا صغير . إنما ذلك تقدير البشر للأشياء . وليس هنالك زمن ولا ما يعادل لمح البصر . إنما هو تشبيه لتقريب الأمر إلى حس البشر . فالزمن إن هو إلا تصور بشرى ناشىء من دورة أرضهم الصغيرة ، ولا وجود له فى حساب الله المطلق من هذه التصورات المحدودة !

واحدة تنشىء هذا الوجود الهائل . وواحدة تبدل فيه وتغير . وواحدة تذهب به كما يشاء الله . وواحدة تحيي كل حى . وواحدة تذهب به هنا وهناك. وواحدة ترده إلى الموت . وواحدة تبعثه فى صورة من الصور . وواحدة تبعث الخلائق جميعا . وواحدة تجمعهم ليوم الحشر والحساب.

واحدة لا تحتاج إلى جهد ، ولا تحتاج إلى زمن. واحدة فيها القدرة ومعها التقدير . وكل أمر معها مقدر ميسور .

* * *

وبواحدة كان هلاك المكذبين على مدار القرون . وفى هذه يذكرهم بمصير أمثالهم من المكذبين :

« ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر ؟ وكل شىء فعلوه فى الزبر، وكل صغير وكبير مستطر» .

فهذه مصارع المكذبين ، معروضة فى الحلقات التى تضمنتها السورة من قبل . . « فهل من مدكر ؟ » . . يتذكر ويعتبر ؟

ولم ينته حسابهم بمصارعهم الأليمة ، فوراءهم حساب لا يفلت منه شىء : « وكل شىء فعلوه فى الزبر » . . مسطر فى الصحائف ليوم الحساب : «وكل صغير وكبير مستطر » . . لا ينسى منه شىء وهو مسطور فى كتاب !

* * *

Marfat.com

Marfat.com

وعند هذا الحد من العرض والتعقيب ، يلتفت السياق إلى صفحة أخرى غير صفحة المكذبين ويعرض صورة أخرى فى ظل وادع أمين . صورة المتقين :

« إن المتقين فى جنات ونهر . فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » . .

ذلك بينما المجرمون فى ضلال وسعر . يسحبون فى النار على وجوههم فى مهانة . ويلذعون بالتأنيب كما يلذعون بالسعير : « ذوقوا مس سقر » . .

وهى صورة للنعيم بطرفيه : « فى جنات ونهر » . « فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

نعيم الحس والجوارح فى تعبير جامع شامل : « فى جنات ونهر » يلقى ظلال النماء واليسر حتى فى لفظه الناعم المنساب . . وليس لمجرد إيقاع القافية تجىء كلمة « نهر » بفتح الهاء . بل كذلك لإلقاء ظل اليسر والنعومة فى جرس اللفظ وإيقاع التعبير !

ونعيم القلب والروح . نعيم القرب والتكريم : « فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » . . فهو مقعد ثابت مطمئن ، قريب كريم ، مأنوس بالقرب ، مطمئن بالتمكين . ذلك أنهم المتقون . الخائفون . المترقبون . والله لا يجمع على نفس خوفين : خوفها منه فى الدنيا ، وخوفها يوم القيامة فمن اتقاه فى العاجلة أمنه فى الآجلة . ومع الأمان فى أفزع موطن ، يغمره بالأنس والتكريم .

* * *

وعند هذا الإيقاع الهادىء ، فى هذا الظل الآمن ، تنتهى السورة التى حفلت حلقاتها بالفزع والكرب والأخذ والتدمير . فإذا للظل الآمن والإيقاع الهادىء طعم وروح أعمق وأروح . . وهذه هى التربية الكاملة . تربية العليم الحكيم بمسارب النفوس ومداخل القلوب . وهذا هو التقدير الدقيق لخالق كل شىء بقدر ، وهو اللطيف الخبير . .

سورة الرحمن مكية
وآياتها ٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

« الرَّحْمَانُ ⑴ عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ، وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ * وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

« خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

« رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

« مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * وَلَهُ الْجَوَارِي الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

---

(١) في روايات أنها مدنية وفي روايات أنها مكية . ونحن نرجح مكيتها. ونسقها تتضح فيه سمات القرآن المكي . شأنها في هذا شأن سورة الرعد ، وفيها الاختلاف ذاته . ولقد اعتبرناها مكية عند الحديث عنها للأسباب ذاتها .

Marfat.com

« كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

« يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

« سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

« فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ، يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

« وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * ذَوَاتَا أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ، وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟* هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ؟ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

« وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ؟ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * مُدْهَامَّتَانِ *

Marfat.com

Marfat.com

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ * مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

« تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » ⑦⑧

هذه السورة المكية ذات نسق خاص ملحوظ . إنها إعلان عام فى ساحة الوجود الكبير، وإعلام بآلاء الله الباهرة الظاهرة . فى جميل صنعه، وإبداع خلقه ؛ وفى فيض نعمائه ؛ وفى تدبيره للوجود ومافيه ؛ وتوجه الخلائق كلها إلى وجهه الكريم . . وهى إشهاد عام للوجود كله على الثقلين : الإنس والجن المخاطبين بالسورة على السواء ، فى ساحة الوجود ، على مشهد من كل موجود ، مع تحديهما إن كانا يملكان التكذيب بآلاء الله ، تحديا يتكرر عقب بيان كل نعمة من نعمه التى يعددها ويفصلها ويجعل ، الكون كله معرضا لها ، وساحة الآخرة كذلك .

ورنة الإعلان تتجلى فى بناء السورة كله ، وفى إيقاع فواصلها .. تتجلى فى إطلاق الصوت إلى أعلى ، وامتداد التصويت إلى بعيد ؛ كما تتجلى فى المطلع الموقظ الذى يستثير الترقب والانتظار لما يأتى بعد المطلع من أخبار . . الرحمان .. كلمة واحدة . مبتدأ مفردا . . الرحمان كلمة واحدة فى معناها الرحمة ، وفى رنتها الإعلان ، والسورة بعد ذلك بيان للسمات الرحمة ومعرض لآلاء الرحمان .

ويبدأ معرض الآلاء بتعليم القرآن بوصفه المنة الكبرى على الإنسان. تسبق فى الذكر خلق الإنسان ذاته وتعليمه البيان .

ثم يذكر خلق الإنسان ، ومنحه الصفة الإنسانية الكبرى .. البيان..

ومن ثم يفتح صحائف الوجود الناطقة بآلاء الله .. الشمس والقمر والنجم والشجر والسماء

المرفوعة . والميزان الموضوع . والأرض ومافيها من فاكهة ونخل وحب وريحان . والجن والإنس . والمشرقان والمغربان. والبحران بينهما برزخ لايبغيان ، ومايخرج منهما ومايجرى فيهما .

فإذا تم عرض هذه الصحائف الكبار . عرض مشهد فنائها جميعا . مشهد الفناء المطلق للخلائق ، فى ظل الوجود المطلق لوجه الله الكريم الباقى . الذى إليه تتوجه الخلائق جميعا ، ليتصرف فى أمرها بما يشاء .

وفى ظل الفناء المطلق والبقاء المطلق يجىء التهديد المروع والتحدى الكونى للجن والإنس : « سنفرغ لكم أيها الثقلان . يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا . لاتنفذون إلابسلطان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ، يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلاتنتصران . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » . .

ومن ثم يعرض مشهد النهاية . مشهد القيامة . يعرض فى صورة كونية . يرتسم فيها مشهد السماء حمراء سائلة ، ومشهد العذاب للمجرمين ، والثواب للمتقين فى تطويل وتفصيل .

ثم يجىء الختام المناسب لمعرض الآلاء : « تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام » . .

***

إن السورة كلها إعلان عام فى ساحة الوجود الكبير . إعلان ينطلق من الملإ الأعلى ، فتتجاوب به أرجاء الوجود . ويشهده كل من فى الوجود وكل مافى الوجود . .

***

الرحمان . . . .

هذا المطلع المقصود بلفظه ومعناه ، وإيقاعه وموسيقاه .

الرحمان . . . .

بهذا الرنين الذى تتجاوب أصداؤه الطليقة المديدة المدوية فى أرجاء هذا الكون ، وفى جنبات هذا الوجود .

الرحمان . . . .

بهذا الإيقاع الصاعد الذاهب إلى بعيد ، يجلجل فى طباق الوجود ، ويخاطب كل موجود ؛ ويتلفت على رنته كل كائن ، وهو يملأ فضاء السماوات والأرض ، ويبلغ إلى كل سمع وكل قلب . .

الرحمان . . . .

Marfat.com

ويسكت . وتنتهي الآية . ويصمت الوجود كله وينصت ، في ارتقاب الخبر العظيم . بعد المطلع العظيم .

ثم يجيء الخبر المترقب ، الذي يخفق له ضمير الوجود . . .

« علم القرآن . خلق الإنسان علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا في الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان . والأرض وضعها للأنام . فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف والريحان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » .

هذا هو المقطع الأول في بيان آلاء الرحمان . وهذا هو الخبر الأول بعد ذلك الإعلان . .

« علم القرآن » . .

هذه النعمة الكبرى التي تتجلى فيها رحمة الرحمان بالإنسان . . القرآن . . الترجمة الصادقة الكاملة لنواميس هذا الوجود . ومنهج السماء للأرض . الذي يصل أهلها بناموس الوجود ؛ ويقيم عقيدتهم وتصوراتهم وموازينهم وقيمهم ونظمهم وأحوالهم على الأساس الثابت الذي يقوم عليه الوجود . فيمنحهم اليسر والطمأنينة والتفاهم والتجاوب مع الناموس .

القرآن الذي يفتح حواسهم ومشاعرهم على هذا الكون الجميل ، كأنما يطالعهم أول مرة ؛ فيجدد إحساسهم بوجودهم الذاتي ، كما يجدد إحساسهم بالكون من حولهم . ويزيد فيمنح كل شيء من حولهم حياة نابضة تتجاوب وتتعاطف مع البشر ؛ فإذا هم بين أصدقاء ، ورفاق أحياء ، حيثما ساروا أو أقاموا ، طوال رحلتهم على هذا الكوكب !

القرآن الذي يقر في أخلادهم أنهم خلفاء في الأرض ، وأنهم كرام على الله ، وأنهم حملة الأمانة التي أشفقت منها السماوات والأرض والجبال . فيشعرهم بقيمتهم التي يستمدونها من تحقيق إنسانيتهم العليا ، بوسيلتها الوحيدة . . الإيمان . . الذي يحيي في أرواحهم نفخة الله . ويحقق نعمته الكبرى على الإنسان .

ومن ثم قدم تعليم القرآن على خلق الإنسان . فبه يتحقق في هذا الكائن معنى الإنسان .

« خلق الإنسان علمه البيان » . .

وندع - مؤقتا - خلق الإنسان ابتداء ، فسيأتي ذكره في مكانه من السورة بعد قليل . إذ المقصود من ذكره هنا هو ما تلاه من تعليمه البيان .

Marfat.com

Marfat.com

إننا نرى الإنسان ينطق ويعبر ويبين ، ويتفاهم ، ويتجاوب مع الآخرين . . فننسى بطول الألفة عظمة هذه الهبة ، وضخامة هـذه الخارقة ، فيردنا القرآن إليها ، ويوقظنا لتدبرها . فى مواضع شتى .

فما الإنسان ؟ ما أصله ؟ كيف يبدأ ؟ وكيف يُعلم البيان ؟

إنه هذه الخلية الواحدة التى تبدأ حياتها فى الرحم . خلية ساذجة صغيرة ، ضئيلة ، مهينة . ترى بالمجهر ، ولا تـكاد تَبين . وهى لا تُبين ! ! !

ولـكن هذه الخلية ماتلبث أن تـكون الجنين . الجنين المـكون من ملايين الخلايا المنوعة . . عظمية . وغضروفيـة . وعضلية . وعصبية . وجلدية . . ومنها كذلك تـكون الجوارح والحواس ووظائفها المدهشة : السمع . البصر . الذوق . الشم . اللمس . ثم . . ثم الخارقة الـكبرى والسر الأعظم الإدراك والبيان ، والشعور والإلهام . . كله من تلك الخلية الواحـدة الساذجة الصغيرة الضئيلة المهينة ، التى لا تـكاد تَبين ، والتى لا تُبين !

كيف ؟ ومن أين ؟ من الرحمان ، وبصنع الرحمان .

فلننظر كيف يكون البيان ؟ : « والله أخرجكم من بطون أمهاتـكم لا تعلمون شيئا وجعل لـكم السمع والأبصار والأفئدة » . .

إن تـكوين جهاز النطق وحده عجيبة لاينقضى منها العجب . . اللسان والشفتان والفك والأسنان . والحنجرة والقصبة الهوائية والشعب والرئتان . . إنها كلها تشترك فى عملية التصويت الآلية وهى حلقة فى سلسلة البيان . وهى على ضخامتها لا تمثل إلا الجانب الميكانيـكى الآلى فى هذه العملية المعقدة ، المتعلقة بعد ذلك بالسمع والمخ والأعصاب . ثم بالعقل الذى لا نعرف عنه إلا اسمه . ولا ندرى شيئا عن ماهيته وحقيقته . بل لا نـكاد ندرى شيئا عن عمله وطريقته !

كيف ينطق الناطق باللفظ الواحد ؟

إنها عملية معقدة كثيرة المراحـل والخطوات والأجهزة . مجهولة فى بعض المراحل خافية حتى الآن .

إنها تبدأ شعورا بالحاجة إلى النطق بهـذا اللفظ لأداء غرض معين . هـذا الشعور ينتقل - لاندرى كيف - من الإدراك أو العقل أو الروح إلى أداة العمل الحسية . . المخ . . ويقال : إن المخ يصدر أمره عن طريق الأعصاب بالنطق بهذا اللفظ المطلوب . واللفظ ذاته مما علمه الله

للإنسان وعرفه معناه . وهنا تطرد الرئة قدرا من الهـواء المختزن فيها ، ليمر من الشعب إلى القصبة الهوائية إلى الحنجرة وحبالها الصوتية العجيبة التى لاتقاس إليها أوتار أية آلة صـوتية صنعها الإنسان ،ولا جميع الآلات الصوتية المختلفة الأنغام ! فيصوت الهـواء فى الحنجرة صوتا تشـكله حسبما يريد العقل . . عاليا أو خافتا . سريعا أو بطيئا . خشنا أو ناعما . ضخما أو رفيعا . . إلى آخر أشكال الصوت وصفاته . ومع الحنجرة اللسان والشفتان والفك والأسنان ، يمر بها هذا الصوت فيتشكل بضغوط خاصة فى مخارج الحروف المختلفة . وفى اللسان خاصة يمر كل حرف بمنطقة منه ذات إيقاع معين ، يتم فيه الضغط المعين ، ليصوّت الحرف بجرس معين..

وذلك كله لفظ واحد . . ووراءه العبارة . والموضوع . والفـكرة . والمشاعر السابقة واللاحقة . وكل منها عالم عجيب غريب ، ينشأ فى هذا الـكيان الإنسانى العجيب الغريب . بصنعة الرحمان . وفضل الرحمان .

***

ثم يستطرد فى بيان آلاء الرحمان فى المعرض الـكونى العام :

« الشمس والقمر بحسبان » ..

حيث تتجلى دقة التقدير ، فى تنسيق التـكوين والحركة ، بما يملأ القلب روعة ودهشة ، وشعورا بضخامة هذه الإشارة ، ومافى طياتها من حقائق بعيدة الآماد عميقة الأغوار .

إن الشمس ليست هى أكبر مافى السماء من أجرام . فهنالك فى هذا الفضاء الذى لايعرف البشر له حدودا ، ملايين الملايين من النجوم ، منها الـكثير أكبر من الشمس وأشـد حرارة وضوءا . فالشعرى اليمانية أثقل من الشمس بعشرين مرة ، ونورها يعادل خمسين ضعف نور الشمس . والسماك الرامح حجمه ثمانون ضعف حجم الشمس ونوره ثمانية آلاف ضعف . وسهيل أقوى من الشمس بألفين وخمسمئة مرة ... وهكذا ...

ولـكن الشمس هى أهم نجم بالنسبة لنا ــ نحن سكان الـكوكب الأرضى الصغير ، الذى يعيش هو وسكانه جميعا على ضوء الشمس وحرارتها وجاذبيتها .

وكذلك القمر وهو تابع صغير للأرض . ولـكنه ذو أثر قوى فى حياتها . وهو العامل الأهم فى حركة الجزر والمد فى البحار .

وحجم الشمس ، ودرجة حرارتها ، وبعدها عنا ، وسيرها فى فلـكها . وكذلك حجم القمر

Marfat.com

Marfat.com

وبعده ودورته .. كلها محسوبة حسابا كامل الدقة بالقياس إلى آثارهما في حياة الأرض. وبالقياس إلى وضعهما في الفضاء مع النجوم والكواكب الأخرى ..

ونتناول طرفا من الحساب الدقيق في علاقتهما بكوكبنا الأرضي وماعليه من حياة وأحياء ..

إن الشمس تبعد عن الأرض باثنين وتسعين ونصف مليون من الأميال . ولوكانت أقرب إلينا من هذا لاحترقت الأرض أوانصهرت أواستحالت بخارا يتصاعد في الفضاء ! ولوكانت أبعد منا لأصاب التجمد والموت ماعلى الأرض من حياة ! والذي يصل إلينا من حرارة الشمس لايتجاوز جزءا من مليوني جزء من حرارتها . وهذا القدر الضئيل هو الذي يلائم حياتنا . ولو كانت الشعرى بضخامتها وإشعاعها هي التي في مكان الشمس منا لتبخرت الكرة الأرضية ، وذهبت بددا !

وكذلك القمر في حجمه وبعده عن الأرض . فلو كان أكبر من هذا لكان المد الذي يحدثه في بحار الأرض كافيا لغمرها بطوفان يعم كل ماعليها . وكذلك لو كان أقرب مما وضعه الله بحسابه الذي لايخطىء مقدار شعرة !

وجاذبية الشمس وجاذبية القمر للأرض لهما حسابهما في وزن وضعها ، وضبط خطاها في هذا الفضاء الشاسع الرهيب ، الذي تجري فيه مجموعتنا الشمسية كلها بسرعة عشرين ألف ميل في الساعة في اتجاه واحد نحو برج الجبار . ومع هذا لاتلتقي بأي نجم في طريقها على ملايين السنين !

وفي هذا الفضاء الشاسع الرهيب لايختل مدار نجم بمقدار شعرة ، ولايختل حساب التوازن والتناسق في حجم ولاحركة .

وصدق الله العظيم .. « الشمس والقمر بحسبان » .

« والنجم والشجر يسجدان » ..

وقد كانت الإشارة السابقة إلى الحساب والتقدير في بناء الكون الكبير . فأما هذه فهي إشارة إلى اتجاه هذا الكون وارتباطه . وهي إشارة موحية إلى حقيقة هادية .

إن هذا الوجود مرتبط ارتباط العبودية والعبادة بمصدره الأول ، وخالقه المبدع . والنجم والشجر نموذجان منه ، يدلان على اتجاهه كله . وقد فسر بعضهم النجم بأنه النجم الذي في السماء . كما

Marfat.com

فسره بعضهم بأنه النبات الذى لايستوى على سوقه كالشجر . وسواء كان هذا أم كان ذاك فإن مدى الإشارة فى النص واحد . ينتهى إلى حقيقة اتجاه هذا الكون وارتباطه .

والكون خليقة حية ذات روح . روح يختلف مظهرها وشكلها ودرجتها من كائن إلى كائن . ولكنها فى حقيقتها واحدة .

ولقد أدرك القلب البشرى منذ عهود بعيدة حقيقة هذه الحياة السارية فى الكون كله . وحقيقة اتجاه روحه إلى خالقه . أدركها بالإلهام اللدنى فيه . ولكنها كانت تغيم عليه ، وتتوارى عنه كلما حاول اقتناصها بعقله المقيد بتجارب الحواس !

ولقد استطاع أخيرا أن يصل إلى أطراف قريبة من حقيقة الوحدة فى بناء الكون ولكنه لايزال بعيدا عن الوصول إلى حقيقة روحه الحية عن هذا الطريق !

والعلم يميل اليوم إلى افتراض أن الذرة هى وحدة بناء الكون ؛ وأنها فى حقيقتها مجرد إشعاع . وأن الحركة هى قاعدة الكون ، والخاصية المشتركة بين جميع أفراده .

فإلى أين يتجه الكون بحركته التى هى قاعدته وخاصيته ؟

القرآن يقول : إنه يتجه إلى مبدعه بحركة روحه ـ وهى الحركة الأصيلة لحركة ظاهره لاتكون إلا تعبيرا عن حركة روحه ـ وهى الحركة التى تمثلها فى القرآن آيات كثيرة منها هذه : « والنجم والشجر يسجدان » . ومنها : « تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم » . . ومنها : « ألم تر أن الله يسبح له من فى السماوات والأرض والطير صافات . كل قد علم صلاته وتسبيحه » . .

وتأمل هذه الحقيقة ، ومتابعة الكون فى عبادته وتسبيحه ، مما يمنح القلب البشرى متاعا عجيبا ، وهو يشعر بكل ماحوله حيا يعاطفه ويتجه معه إلى خالقه وهو فى وقفته بين أرواح الأشياء كلها ، وهى تدب فيها جميعا ، وتحيلها إخوانا له ورفقاء !

إنها إشارة ذات أبعاد وآماد وأعماق . . .

« والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان »

والإشارة إلى السماء ـ كباقى الإشارات القرآنية إلى مجالى هذا الكون ـ تقصد إلى تنبيه القلب الغافل ، وإنقاذه من بلادة الألفة ، وإيقاظه لعظمة هذا الكون وتناسقه وجماله ، وإلى قدرة اليد التى أبدعته وجلالها .

والإشارة إلى السماء - أيا كان مدلول السماء - توجه النظر إلى أعلى إلى هذا الفضاء الهائل السامق الذى لاتبدو له حدود معروفة ؛ والذى تسبح فيه ملايين الملايين من الأجرام الضخمة، فلايلتقى منها اثنان، ولا تصطدم مجموعة منها بمجموعة. ويبلغ عدد المجموعة أحيانا ألف مليون نجم، كمجموعة المجرة التى ينتسب إليها عالمنا الشمسى، وفيها ماهو أصغر من شمسنا وما هو أكبر آلاف المرات. شمسنا التى يبلغ قطرها مليونا وثلث مليون كيلو متر !!! وكل هذه النجوم، وكل هـذه المجموعات تجرى فى الكون بسرعات مخيفة، ولكنها فى هذا الفضاء الهائل ذرات سابحة متباعدة، لاتلتقى، ولا تتصادم !

وإلى جوار هذه العظمة فى رفع هذه السماء الهائلة الوسيعة « وضع الميزان » ميزان الحق. وضعه ثابتا راسخا مستقرا. وضعه لتقدير القيم. قيم الأشخاص والأحداث والأشياء. كى لايختل تقويمها، ولا يضطرب وزنها، ولا تتبع الجهل والغرض والهوى. وضعه فى الفطرة ووضعه فى هذا المنهج الإلهى الذى جاءت به الرسالات وتضمنه القرآن :

وضع الميزان .. « ألا تطغوا فى الميزان » .. فتغالوا وتفرطوا .. « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » .. ومن ثم يستقر الوزن بالقسط، بلا طغيان ولا خسران.

ومن ثم يرتبط الحق فى الأرض وفى حياة البشر، ببناء الكون ونظامه. يرتبط بالسماء فى مدلولها المعنوى حيث يتنزل منها وحى الله ونهجه ومدلولها المنظور حيث تمثل ضخامة الكون وثباته بأمر الله وقدرته .. ويلتقى هذان المدلولان فى الحس بإيقاعها وظلالها الموحية.

« والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام. والحب ذو العصف والريحان ».

ونحن لطول استقرارنا على هذه الأرض، وألفتنا لأوضاعها وظواهرها، ولوضعنا نحن كذلك عليها. نحن لهذا كله لانكاد نحس يد القدرة التى « وضعت » هذه الأرض للأنام. وجعلت استقرارنا عليها ممكنا وميسورا إلى الحد الذى لانكاد نشعر به. ولانتنبه إلى ضخامة معنى الاستقرار، وعظمة نعمة الله علينا فيه - إلا بين الحين والحين حين يثور بركان، أو يمور زلزال، فيؤرجح هذه الأرض المطمئنة من تحتنا، فتضطرب وتمور. عندئذ نتذكر معنى الاستقرار الذى نستمتع به على هذه الأرض بنعمة الله.

والبشر خليقون أن يتذكروا هذه الحقيقة فى كل لحظة، لوأنهم ألقوا بالهم إلى أن أرضهم هذه التى يركنون إليها، إن هى إلاهباءة سابحة فى فضاء الله الوسيع. هباءة تسبح فى هذا

Marfat.com

الفضاء المطلق . تسبح حول نفسها بسرعة نحو ألف ميل فى الساعة . وتسبح ـ مع هذا ـ حول الشمس بسرعة ستين ألف ميل فى الساعة . بينما هى والشمس والمجموعة الشمسية كلها تبعد بجملتها فى هذا الفضاء بسرعة عشرين ألف ميل فى الساعة متجهة فى اتجاه واحد نحو برج الجبار فى السماء !

أجل لو أنهم ألقوا بالهم إلى أنهم محمولون على هذه الهباءة السابحة التى تنهب الفضاء نهبا بهذه السرعة ، معلقة فى أجوازه بغير شىء إلا قدرة الله . . لظلوا أبدا معلقى القلوب والأبصار ، واجفى الأرواح والأوصال ، لا يركنون إلا للواحد القهار الذى وضع الأرض للأنام ، وأقرهم عليها هذا الإقرار !!

ولقد يسر لهم فيها الحياة ، وهى تدور بهم حول نفسها وحول الشمس ،وتركض مع الشمس وتوابعها بتلك السرعة المذهلة . وقدر فيها أقواتها التى يذكر منها هنا الفاكهة ـ ويخص منها النخل ذات الأكمام ـ (والكم كيس الطلع الذى ينشأ منه الثمر) ليشير إلى جمال هيئتها بجانب فائدة ثمرتها . ويذكر منها الحب ذا الورق والسيقان التى تعصف وتصير طعاما للماشية .ويذكر منها الريحان . النبات ذا الرائحة . .وهى ألوان من نبات الأرض شتى . منها ماهو طعام للإنسان ومنها ماهو طعام للدواب ، ومنها ماهو روح للناس ومتاع .

وعند هذا المقطع من تعداد أنعم الله وآلائه : تعليم القرآن . وخلق الإنسان . وتعليمه البيان . وتنسيق الشمس والقمر بحسبان . ورفع السماء ووضع الميزان . ووضع الأرض للأنام . ومافيها من فاكهة ونخل وحب وريحان . . عند هذا المقطع يهتف بالجن والإنسان، فى مواجهة الكون وأهل الكون : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » . .وهو سؤال للتسجيل والإشهاد . . فما يملك إنس ولا جان أن يكذب بآلاء الرحمان فى مثل هذا المقام .

* * *

ثم ينتقل من الامتنان عليها بآلاء الله فى الكون . إلى الامتنان عليها بآلائه فى ذوات أنفسها ، وفى خاصة وجودها وإنشائها :

« خلق الإنسان من صلصال كالفخار . وخلق الجان من مارج من نار . . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » . .

ونعمة الإيجاد والإنشاء أصل النعمة . والمسافة بين الوجود وعدم الوجود ابتداء مسافة

Marfat.com

Marfat.com

لاتقاس أبعادها بأى مقياس مما يألفه البشر . فجميع المقاييس التى فى أيدى البشر أو التى تدركها عقولهم ، هى مقاييس للفارق بين موجود وموجود . أما المسافة بين الموجود وغير الموجود فلا تدركها مدارك البشر بحال ! ونحسب الجن كذلك ، فإن هم إلا خلق مقاييسه مقاييس المخلوقات !

فحين يمتن الله على الجن والإنس بنعمة الإيجاد والإنشاء ؛ فإنما يمتن عليهما بالنعمة التى تفوق حد الإدراك .

ثم يقرر الحق سبحانه مادة خلق الإنس والجن ، وهى كذلك من خلق الله . والصلصال : الطين إذا يبس وصار له صوت وصلصلة عند الضرب عليه . وقد تكون هذه حلقة فى سلسلة النشأة من الطين أو من التراب . كما أنها قد تكون تعبيرا عن حقيقة الوحدة بين مادة الإنسان ومادة الأرض فى عناصر التكوين .

« وقد أثبت العلم الحديث أن جسم الإنسان يحتوى من العناصر ما تحتويه الأرض . فهو يتكون من الكربون ، والأكسيجين ، والأيدروجين ، والفوسفور ، والكبريت ، والآزوت ، والكالسيوم ، والبوتاسيوم ، والصوديوم ، والكلور ، والمغنسيوم ، والحديد ، والمنجنيز ، والنحاس ، واليود ، والفلورين ، والكوبالت ، والزنك ، والسلكون ، والألمنيوم . وهذه نفسها هى العناصر المكونة للتراب . وإن اختلفت نسبها فى إنسان عن الآخر ، وفى الإنسان عن التراب . إلا أن أصنافها واحدة » (١) .

إلا أن هذا الذى أثبته العلم لايجوز أن يؤخذ على أنه التفسير الحتمى للنص القرآنى . فقد تكون الحقيقة القرآنية تعنى هذا الذى أثبته العلم ، أوتعنى شيئا آخر سواه . وتقصد إلى صورة أخرى من الصور الكثيرة التى يتحقق بها معنى خلق الإنسان من تراب ، أوطين أوصلصال .

والذى ننبه إليه بشدة هو ضرورة عدم قصر النص القرآنى على كشف علمى بشرى ، قابل للخطأ والصواب ، وقابل للتعديل والتبديل ، كلما اتسعت معارف الإنسان وكثرت وتحسنت وسائله للمعرفة . فإن بعض المخلصين من الباحثين يسارعون إلى المطابقة بين مدلول النصوص القرآنية والكشوف العلمية ـ تجريبية أوافتراضية ـ بنية بيان مافى القرآن من إعجاز . فالقرآن معجز سواء طابقت الكشوف العلمية المتأرجحة نصوصه الثابتة أم لم تطابقها . ونصوصه أوسع مدلولا من حصرها فى نطاق تلك الكشوف القابلة دائما للتبديل والتعديل ، بل للخطأ والصواب

(١) كتاب : الله والعلم الحديث ص ١٨٠ .

من الأساس ! وكل مايستفاد من الكشوف العلمية فى تفسير نصوص القرآن ، هو توسيع مدلولها فى تصورنا كلما أطلعنا العلم على شىء مماتشير إليه إشارات مجملة من آيات الله فى الأنفس والآفاق ، دون أن يحمل النص القرآنى على أن مدلوله هو هذا الذى كشفه العلم . إنما جواز أن يكون هذا بعض مايشير إليه .

فأما خلق الجان من مارج من نار . فمسألة خارجة عن حدود العلوم البشرية . والمصدر الواحد فيها هو هذا القرآن . خبر الله الصادق . الذى خلق وهو أعلم بمن خلق . . والمارج : المشتعل المتحرك كألسنة النار مع الرياح ! وللجان قدرة على الحياة فى هذه الأرض مع الإنس . ولكنا لاندرى كيف يعيش الجان وقبيله . فأما الأمر المستيقن فهو أنهم مخاطبون بهذا القرآن كما سبق بيانه عند تفسير قوله تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن . » وكما هو الحال هنا فى سورة الرحمان .

والخطاب هنا للجن والإنس ، لتذكيرهما بنعمة الوجود . كلٌ من الأصل الذى أنشأه الله منه . وهى النعمة التى تقوم عليها سائر النعم . ومن ثم يعقب عليها بتعقيب التسجيل والإشهاد العام : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » . . ولاتكذيب فى هذا المقام المشهود !

* * *

« رب المشرقين ورب المغربين . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ »

وهذه الإشارة التى تملأ القلب بفيض غامر من الشعور بوجود الله ، حيثما توجه ، وحيثما تلفت ، وحيثما امتد به النظرحوله فى الآفاق . . فحيث الشروق وحيث الغروب هناك الله . . ربوبيته ومشيئته وسلطانه ، ونوره وتوجيهه وهدايته . .

والمشرقان والمغربان قد يكون المقصود بهما شروق الشمس وشروق القمر . وغروبهما كذلك . بمناسبة ذكر الشمس والقمر فيما تقدم من آلاء الله . وقد يكون المقصود مشرقى الشمس المختلفى الموضع فى الصيف والشتاء ومغربيها كذلك .

وعلى أية حال فإن ظلال هذه الإشارة هى الأولى بالالتفات . ظلال الاتجاه إلى المشرق والمغرب ، والشعور بالله هناك ، والإحساس بيده تحرك الكواكب والأفلاك ، ورؤية نوره وربوبيته فى الآفاق هنا وهناك . والرصيد الذى يؤوب به القلب من هذا التأمل والتدبر والنظر فى المشارق والمغارب ، والزاد الشعورى الذى تفيض به الجوانح وتدخره الأرواح .

Marfat.com

Marfat.com

وربوبية الله للمشرقين والمغربين ، بعض آلائه فى هذا الكون . ومن ثم يجىء التعقيب المعهود فى السورة ، بعد هذه اللفتة القصيرة : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » والمشرقان والمغربان فوق أنهما من آيات الله هما من آلاء الله على الجن والإنس ، بما يتحقق فيهما من الخير لسكان هذه الأرض جميعا . بل من أسباب الحياة التى تنشأ مع الشروق ، وتحتاج كذلك إلى الغروب . ولو اختل أحدهما أو كلاهما لتعطلت أسباب الحياة .

* * *

ومن هذه السحة البعيدة الآفاق يعود إلى الأرض ، وما فيها من ماء ، جعله الله بقدر . قدر فى نوعه ، وقدر فى تصريفه ، وقدر فى الانتفاع به :

« مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لايبغيان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ وله الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » . .

والبحران المشار إليهما هما البحر المالح والبحر العذب ، ويشمل الأول البحار والمحيطات ، ويشمل الثانى الأنهار . ومرج البحرين أرسلهما وتركهما يلتقيان ،ولكنهما لايبغيان ، ولا يتجاوز كل منهما حده المقدر ، ووظيفته المقسومة ، وبينهما برزخ من طبيعتهما من صنع الله .

وتقسيم الماء على هذا النحو فى الكرة الأرضية لم يجىء مصادفة ولا جزافا . فهو مقدر تقديرا عجيبا . الماء الملح يغمر نحو ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية ويتصل بعضه ببعض ؛ ويشغل اليابس الربع . وهذا القدر الواسع من الماء المالح هو اللازم بدقة لتطهير جو الأرض وحفظه دائما صالحا للحياة .

« وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور ـ ومعظمها سام ـ فإن الهواء باق دون تلوث فى الواقع ـ ودون تغير فى نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان . وعجلة الموازنة العظيمة هى تلك الكتلة الفسيحة من الماء ـ أى المحيط ـ » (١)

ومن هذه الكتلة الضخمة الواسعة تنبعث الأبخرة تحت حرارة الشمس ؛ وهى التى تعود فتسقط أمطارا يتكون منها الماء العذب فى جميع أشكاله . وأعظمها الأنهار . والتوافق بين

(١) عن كتاب الإنسان لايقف وحده تأليف (ا . كرسى موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك ترجمة محمد صالح الفلكى بعنوان : العلم يدعو إلى الإيمان .

سعة المحيط وحرارة الشمس وبرودة طبقات الجو العليا ، والعوامل الفلكية الأخرى هو الذى ينشأ عنه المطر الذى تكون منه كتلة الماء العذب .

وعلى هذا الماء العذب تقوم الحياة . من نبات وحيوان وإنسان . .

وتصب جميع الأنهار - تقريبا - فى البحار . وهى التى تنقل إليها أملاح الأرض ، فلا تغير طبيعة البحار ولا تبغى عليها . ومستوى سطوح الأنهار أعلى فى العادة من مستوى سطح البحر ، ومن ثم لايبغى البحر على الأنهار التى تصب فيه ، ولا يغمر مجاريها بمائه الملح ، فيحولها عن وظيفتها ويبغى على طبيعتها ! وبينهما دائما هذا البرزخ من صنع الله . فلا يبغيان .

فلا عجب يذكر البحرين ، وما بينهما من برزخ ، فى مجال الآلاء : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » .

ثم يذكر من آلاء الله فى البحرين بعض ماهو قريب منهم فى حياتهم .

« يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » . .

واللؤلؤ - فى أصله - حيوان . و « لعل اللؤلؤ أعجب مافى البحار ، فهو يهبط إلى الأعماق ، وهو داخل صدفة من المواد الجيرية لتقيه من الأخطار ، ويختلف هذا الحيوان عن الكائنات الحية فى تركيبه وطريقة معيشته ، فله شبكة دقيقة كشبكة الصياد ، عجيبة النسج ، تكون كمصفاة تسمح بدخول الماء والهواء والغذاء إلى جوفه ، وتحول بين الرمال والحصى وغيرها . وتحت الشبكة أفواه الحيوان ، ولكل فم أربع شفاه . فإذا دخلت ذرة رمل ، أو قطعة حصى ، أو حيوان ضار عنوة إلى الصدفة ، سارع الحيوان إلى إفراز مادة لزجة يغطيها بها ، ثم تتجمد مكونة لؤلؤة ! وعلى حسب حجم الذرة التى وصلت يختلف حجم اللؤلؤة ! » (1) . .

« والمرجان من عجائب مخلوقات الله ، يعيش فى البحار على أعماق تتراوح بين خمسة أمتار وثلاث مئة متر ، ويثبت نفسه بطرفه الأسفل بصخر أو عشب . وفتحة فمه التى فى أعلى جسمه ، محاطة بعدد من الزوائد يستعملها فى غذائه . فإذا لمست فريسة هذه الزوائد ، وكثيرا ما تكون من الأحياء الدقيقة كبراغيث الماء ، أصيبت بالشلل فى الحال ، والتصقت بها ، فتنكمش الزوائد وتنحنى نحو الفم ، حيث تدخل الفريسة إلى الداخل بقناة ضيقة تشبه مرىء الإنسان .

« ويتكاثر هذا الحيوان بخروج خلايا تناسلية منه ، يتم بها إخصاب البويضات ، حيث يتكون الجنين الذى يلجأ إلى صخرة أو عشب يلتصق به ، ويكون حياة منفردة ، شأنه فى ذلك شأن الحيوان الأصلى .

(1) عن كتاب الله والعلم الحديث ص ١٠٥

Marfat.com

Marfat.com

« ومن دلائل قدرة الخالق ، أن حيوان المرجان يتكاثر بطريقة أخرى هى التزرر . وتبقى الأزرار الناتجة متحدة مع الأفراد التى تزررت منها ، وهكذا تتكون شجرة المرجان التى تكون ذات ساق سميكة . تأخذ فى الدقة نحو الفروع التى تبلغ غاية الدقة فى نهايتها . ويبلغ طول الشجرة المرجانية ثلاثين سنتيمترا . والجزر المرجانية الحية ذات ألوان مختلفة ، نراها فى البحار صفراء برتقالية ، أوحمراء قرنفلية ، أوزرقاء زمردية ، أوغبراء باهتة

« والمرجان الأحمر هو المحور الصلب المتبقى بعد فناء الأجزاء الحية من الحيوان ، وتكون الهياكل الحجرية مستعمرات هائلة .

« ومن هذه المستعمرات سلسلة الصخور المرجانية المعروفة باسم الحاجز المرجانى الكبير ، الموجود بالشمال الشرقى لأستراليا . ويبلغ طول هذه السلسلة ، ألفا و ٣٥٠ ميل وعرضها ٥٠ ميلا . وهى مكونة من هذه الكائنات الحية الدقيقة الحجم » (١)

ومن اللؤلؤ والمرجان تتخذ حلى غالية الثمن عالية القيمة ، ويمتن الله على عباده بهما ، فيعقب على ذكرهما فى السورة ذلك التعقيب المشهود : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ »

ثم ينتقل إلى الفلك التى تجرى فى البحار ، كأنها لضخامتها الجبال :

« وله الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام » ..

ويجعل هذه الجوارى المنشآت « له » سبحانه وتعالى . فهى تجرى بقدرته . ولا يحفظها فى خضم البحر وثبج الموج إلا حفظه ولا يقرها على سطحه المتماوج إلا كلاءته . فهى له سبحانه. وقد كانت ـ وما تزال ـ من أضخم النعم التى من الله بها على العباد ، فيسرت لهم من أسباب الحياة والانتقال والرفاهية والكسب ماهو جدير بأن يذكر ولا ينكر . فهو من الضخامة والوضوح بحيث يصعب التكذيب به والإنكار . . « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » .

***

والآن ينتهى هذا الاستعراض فى صفحة الكون المنظور ، وتطوى صفحة الخلق الفانى ، وتتوارى أشباح الخلائق جميعا ، ويفرغ المجال من كل حى ، ويتجلى وجه الكريم الباقى ، متفردا بالبقاء ، متفردا بالجلال ؛ وتستقر فى الحس حقيقة البقاء ، وهو يشهد ظلال الفناء :

« كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » ..

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .

وفى ظل هذا النص القرآنى تخفت الأنفاس، وتخشع الأصوات، وتسكن الجوارح ... وظل الفناء يشمل كل حى، ويطوى كل حركة، ويغمر آفاق السماوات والأرض .. وجلال الوجه الكريم الباقى يظلل النفوس والجوارح، والزمان والمكان، ويغمر الوجود كله بالجلال والوقار ..

ولا يملك التعبير البشرى أن يصور الموقف؛ ولا يملك أن يزيد شيئا على النص القرآنى، الذى يسكب فى الجوانح السكون الخاشع، والجلال الغامر، والصمت الرهيب، والذى يرسم مشهد الفناء الخاوى، وسكون الموت المخيم بلا حركة، ولا نأمة فى هذا الكون الذى كان حافلا بالحركة والحياة. ويرسم فى الوقت ذاته حقيقة البقاء الدائم، ويطبعها فى الحس البشرى الذى لا يعرف فى تجاربه صورة للبقاء الدائم؛ ولكنه يدركها بعمق فى ذلك النص القرآنى العجيب!

ويعقب على هذه اللمسة العميقة الأثر بنفس التعقيب فيعد استقرار هذه الحقيقة. حقيقة الفناء لكل من عليها، وبقاء الوجه الجليل الكريم وحده. يعد استقرار هذه الحقيقة نعمة يواجه بها الجن والإنس فى معرض الآلاء: «فبأى آلاء ربكما تكذبان؟» ..

وإنها لنعمة. بل هى أساس النعم كلها جميعا. فمن حقيقة الوجود الباقى ينبثق كل هذا الخلق؛ وناموسه ونظامه وخصائصه. كما تستقر سننه وقيمه ومآله وجزاؤه. والحى الباقى هو الذى يخلق ويبدع، وهو الذى يحفظ ويكلأ، وهو الذى يحاسب ويجزى. وهو الذى يشرف من أفق البقاء على ساحة الفناء .. فمن حقيقة البقاء إذن تنبثق جميع الآلاء. وما يبزغ هذا العالم ومايستقيم أمره إلاووراءه هذه الحقيقة. حقيقة البقاء وراء الفناء.

***

ومن حقيقة البقاء الدائم وراء الخلق الفانى، تنبثق حقيقة أخرى .. فكل أبناء الفناء إنما يتجهون فى كل مايقوم بوجودهم إلى الواحد الأحد الفرد الصمد الحى القيوم:

«يسأله من فى السماوات والأرض، كل يوم هو فى شأن. فبأى آلاء ربكما تكذبان؟».

يسأله من فى السماوات والأرض، فهو مناط السؤال؛ وغيره لايسأل لأنه فان لايتعلق به سؤال .. يسألونه وهو وحده الذى يستجيب، وقاصده وحده هو الذى لايخيب. ومايتجه أحد إلى سواه إلاحين يضل عن مناط السؤال ومعقد الرجاء ومظنة الجواب. وماذا يملك الفانى للفانى وماذا يملك المحتاج للمحتاج؟

Marfat.com

وهو ـ سبحانه ـ كل يوم هو فى شأن . وهذا الوجود الذى لاتعرف له حدود، كله منوط بقدره ، متعلق بمشيئته، وهو قائم بتدبيره . هذا التدبير الذى يتناول الوجود كله جملة ؛ ويتناول كل فرد فيه على حدة ؛ ويتناول كل عضو وكل خلية وكل ذرة . ويعطى كل شىء خلقه ، كما يعطيه وظيفته ، ثم يلحظه وهو يؤدى وظيفته .

هذا التدبير الذى يتبع ماينبت ومايسقط من ورقة ، ومايكمن من حبة فى ظلمات الأرض، وكل رطب وكل يابس . يتبع الأسماك فى بحارها ، والديدان فى مساربها ، والحشرات فى مخابئها . والوحوش فى أوكارها ، والطيور فى أعشاشها . وكل بيضة وكل فرخ . وكل جناح . وكل ريشة . وكل خلية فى جسم حى .

وصاحب التدبير لايشغله شأن عن شأن ، ولايند عن علمه ظاهر ولاخاف . .

ومن هذا الشأن شأن العباد فى الأرض من إنس وجن . ومن ثم فهو يواجههما بهذه النعمة مواجهة التسجيل والإشهاد : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » . .

* * *

وبتقرير حقيقة البقاء وراء الفناء ، وما ينبثق منها من حقيقة الاتجاه الكلى إلى الواحد الباقى، وتعلق مشيئته ـ سبحانه ـ بشئون الخلائق وتقديرها وتدبيرها ، فضلا منه ومنة على العباد . .

بتقرير هذه الحقيقة الكلية وماينبثق عنها من حقائق ينتهى الاستعراض الكونى ، ومواجهة الجن والإنس به ؛ ويبدأ مقطع جديد . فيه تهديد وفيه وعيد . تهديد مرعب مفزع ، ووعيد مزلزل مضعضع . تمهيدا لهول القيامة الذى يطالع الثقلين فى سياق السورة بعد ذاك :

« سنفرغ لكم أيها الثقلان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا . لاتنفذون إلا بسلطان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟» . .

« سنفرغ لكم أيها الثقلان » . .

ياللهول المرعب المزلزل ، الذى لايثبت له إنس ولا جان . ولا تقف له الجبال الرواسى ولا النجوم والأفلاك !

الله. جل جلاله . الله القوى القادر ، القهار الجبار ، الكبير المتعال . الله ـ سبحانه ـ يفرغ لحساب هذين الخلقين الضعيفين الصغيرين : الجن والإنس ، فى وعيد وانتقام !

Marfat.com

به أمر . إنه هول . إنه فوق كل تصور واحتمال !

والله - سبحانه - ليس مشغولا فيفرغ . وإنما هو تقريب الأمر للتصور البشرى . وإيقاع للوعيد في صورة مذهلة مزلزلة ، تسحق الكيان بمجرد تصورها سحقا فهذا الوجود كله نشأ بكلمة . كلمة واحدة . كن فيكون . وتدميره أو سحقه لايحتاج إلا واحدة كلمح بالبصر . . فكيف يكون حال الثقلين ، والله يفرغ لهما وحدهما ، ليتولاهما بالانتقام ؟ !

وفى ظل هذا الهول الرعيب يسأل الثقلين المسكينين : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » !

ثم يمضى فى الإيقاع المرعب المزلزل ، يتحداهما أن ينفذا من أقطار السماوات والأرض :

« يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا » . .

وكيف ؟ وأين ؟

« لاتنفذون إلا بسلطان » .

ولا يملك السلطان إلا صاحب السلطان . .

ومرة أخرى يواجههما بالسؤال : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ؟

وهل بقى فى كيانهما شىء يكذب أو يهم بمجرد النطق والبيان ؟ !

ولكن الحملة الساحقة تستمر إلى نهايتها ، والتهديد الرعيب يلاحقهما ، والمصير المردى يتمثل لهما :

« يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » . .

« فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » !

إنها صورة من الهول فوق مألوف البشر - وفوق مألوف كل خلق - وفوق تصور البشر وتصور كل خلق . وهى صورة فريدة ،وردت لها نظائر قليلة فى القرآن ، تشبهها ولا تماثلها . كما قال تعالى مرة : « فذرنى والمكذبين أولى النعمة » . . وكما قال : « ذرنى ومن خلقت وحيدا » .. وما يزال قوله تعالى: «سنفرغ لكم أيها الثقلان » .. أعنف وأقوى وأرعب وأدهى..

* * *

ومن هنا إلى نهاية السورة تبدأ مشاهد اليوم الآخر . مشهد الانقلاب الكونى يوم القيامة. وما يعقبه من مشاهد الحساب . ومشاهد العذاب والثواب !

ويبدأ استعراض هذه المشاهد بمشهد كونى يتناسب مع مطالع السورة ومجالها الكونى :

Marfat.com

Marfat.com

« فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » .

وردة حمراء ، سائلة كالدهان .. ومجموع الآيات التى وردت فى صفة الكون يوم القيامة تشير كلها إلى وقوع دمار كامل فى هذه الأفلاك والكواكب ، بعد انفلاتها من النسق الذى يحكمها الآن ، وينسق بين مداراتها وحركاتها . منها هذه الآية . ومنها : « إذا رجت الأرض رجا ، وبست الجبال بسا ، فكانت هباء منبثا » .. ومنها : « فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر » .. ومنها : « إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت : وإذا العشار عطلت . وإذا الوحوش حشرت . وإذا البحار سجرت » .. ومنها : « إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت . وإذا البحار فجرت » .. ومنها : «إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت،وألقت ما فيها وتخلت ، وأذنت لربها وحقت » .. وهذه وغيرها تشير إلى ذلك الحادث الهائل الذى سيقع فى الكون كله . ولا يعلم حقيقته إلا الله ..

« فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » .. « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » ولا تكذيب عندئذ ولا نكران ..

« فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان » .. وذلك فى موقف من مواقف ذلك اليوم المشهود . الذى ستكون فيه مواقف شتى . منها ما يسأل فيه العباد ، ومنها مالا يسألون فيه عن شىء . ومنها ما تجادل كل نفس عن نفسها ، وما تلق به التبعة على شركائها ، ومنها مالا يسمح فيه بكلمة ولا جدال ولا خصام ! فهو يوم طويل مديد . وكل موقف من مواقفه هائل مشهود .

وهنا موقف : لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان . ذلك حين تعرف صفة كل فرد وعمله . وتبدو فى الوجوه معالم الشقوة سواداً ، ومعالم النجوة بياضاً ، ويظهر هذا وذاك فى سيما الوجوه. ففى هذا الموقف هل من تكذيب ونكران : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » !

« يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام » .

وهو مشهد عنيف ومع العنف الهوان . حيث تجمع الأقدام إلى الجباه،ثم يقذف المجرمون على هذه الهيئة إلى النار .. فهل حينذاك من تكذيب أو نكران ؟

وبينما المشهد معروض ، والأخذ بالنواصى والأقدام والقذف فى النار مستمر ، يلتفت السياق إلى شهود هذا الاستعراض ، وكأنهم حاضرون عند تلاوة السورة فيقول لهم :

Marfat.com

« هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون » . . هذه هى حاضرة معروضة ـ كما ترون ـ « يطوفون بينها وبين حميم آن » . . متناه فى الحرارة كأنه الطعام الناضج على النار! وهم يتراوحون بين جهنم وبين هذا السائل الآنى . انظروا إنهم يطوفون الآن! « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ »!

هـذه صفة العذاب الأليم . والآن إلى صفة النعيم والتكريم :

« ولمن خاف مقام ربه جنتان » . .

وللمرة الأولى ـ فيما مربنا من سور القرآن ـ تذكر الجنتان . والأظهر أنهما ضمن الجنة الكبيرة المعروفة ! ولكن اختصاصهما بالذكر قد يكون لمرتبتهما . وسيأتى فى سورة الواقعة أن أصحاب الجنة فريقان كبيران : هما السابقون المقربون . وأصحاب اليمين . ولكل منهما نعيم. فهنا كذلك نلمح أن هاتين الجنتين هما لفريق ذى مرتبة عالية . وقد يكون فريق السابقين المقربين المذكورين فى سورة الواقعة . ثم نرى جنتين أخريين من دون هاتين . ونلمح أنهما لفريق يلى ذلك الفريق . وقد يكون هو فريق أصحاب اليمين .

على أية حال فلنشهد الجنتين الأوليين ، ولنعش فيهما لحظات !

إنهما « ذواتا أفنان » . . والأفنان الأغصان الصغيرة الندية . فهما ريانتان نضرتان .

« فيهما عينان تجريان » . . فماؤهما غزير ، وسهل يسير .

« فيهما من كل فاكهة زوجان » . . ففاكهتهما منوعة كثيرة وفيرة .

وأهل الجنتين ماحالهم ؟ إننا ننظرهم : « متكئين على فرش بطائنها من إستبرق » والإستبرق المخمل الحرير السميك . فكيف بظهائر هذه الفرش إذا كانت تلك بطائنها ؟

« وجنى الجنتين دان » . . قريب التناول ، لايتعب فى قطاف .

ولكن هذا لايستقصى مافيهما من رفاهة ومتاع . فهناك بقية بهيجة لهذا المتاع :

« فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولاجان » . . فهن عفيفات الشعور والنظر . لاتمتد أبصارهن إلى غير أصحابهن ، مصونات لم يمسهن إنس ولاجن .

وهن ـ بعد هذا ـ ناضرات لامعات : « كأنهن الياقوت والمرجان » .

ذلك كله جزاء من خاف مقام ربه ، وعبده كأنه يراه ، شاعرا أن ربه يراه ، فبلغ بذلك مرتبة الإحسان كما وصفها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنالوا جزاء الإحسان من عطاء الرحمان :

« هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ »

وفى معرض الإنعام والإحسان ، كان التعقيب يجيء فى موضعه بعد كل فقرة : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ »

والآن إلى الفريق الآخر صاحب الجنتين الأخريين .

« ومن دونهما جنتان » . . وأوصافهما أدنى من الجنتين السابقتين . فهما :

« مدهامتان » . . أى مخضرتان خضرة تميل إلى السواد لما فيهما من أعشاب .

« فيهما عينان نضاختان » . . تنضان بالماء . وهذا دون الجريان !

« فيهما فاكهة ونخل ورمان » . . وهناك : « من كل فاكهة زوجان »

« فيهن خيرات حسان » . . بسكون ياء خيرات أو بتشديدها على الوصف . وتأويل الخيرات بالسكون أو الخيرات بالتشديد فى الآية التالية :

« حور مقصورات فى الخيام » . . وتلق الخيام ظل البداوة . فهو نعيم بدوى أو يمثل مطالب أهل البداوة . . والحور مقصورات . أما حور الجنتين السابقتين فهن قاصرات الطرف .

« لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان » . . فهن يشتركن مع زميلاتهن هناك فى الصون والعفاف .

أما أهل هاتين الجنتين فنحن ننظرهما :

« متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان » . . والرفرف الأبسطة وكأنها من صنع « عبقر » لتقريب وصفها إلى العرب ، وقد كانوا ينسبون كل عجيب إلى وادى الجن : عبقر ! ولكن المتكآت هناك بطائنها من إستبرق . وهناك جنى الجنتين دان فهما مرتبتان مختلفتان !

وهنا كذلك كان التعقيب بعد كل صفة للجنتين ونعيمهما : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » .

***

وفى ختام السورة التى استعرضت آلاء الله فى الكون ، وآلاءه فى الخلق ، وآلاءه فى الآخرة . يجيء الإيقاع الأخير ، تسبيحا باسم الجليل الكريم ، الذى يفنى كل حى ، ويبقى وجهه الكريم .

« تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام » . .

أنسب ختام لسورة الرحمان . .

Marfat.com

سورة الواقعة مكية وآياتها ٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

« إذا وقعت الواقعة * ليس لوقعتها كاذبة ⊙ خافضة رافعة * إذا رجت الأرض رجا * وبست الجبال بسا * فكانت هباء منبثا * وكنتم أزواجا ثلاثة * فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة * وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة * والسابقون السابقون * أولئك المقربون * في جنات النعيم * ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين * على سرر موضونة * متكئين عليها متقابلين * يطوف عليهم ولدان مخلدون * بأكواب وأباريق وكأس من معين * لا يصدعون عنها ولا ينزفون * وفاكهة مما يتخيرون * ولحم طير مما يشتهون * وحور عين * كأمثال اللؤلؤ المكنون * جزاء بما كانوا يعملون * لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً * إلا قيلا : سلاما سلاما .

« وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين * في سدر مخضود * وطلح منضود * وظل ممدود * وماء مسكوب * وفاكهة كثيرة * لا مقطوعة ولا ممنوعة * وفرش مرفوعة * إنا أنشأناهن إنشاء * فجعلناهن أبكاراً * عربا أترابا * لأصحاب اليمين * ثلة من الأولين * وثلة من الآخرين .

« وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * في سموم وحميم * وظل من يحموم *

Marfat.com

لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ : أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ * أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ؟ * قُلْ : إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ .

« نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ! * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ؟ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ !

« أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ؟ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ، فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ .

« أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ؟ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ، فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ .

« أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ؟ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ؟ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ .

« فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

« أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ؟ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ؟ * فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ

Marfat.com

مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ !

« فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ .

« إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » ٩٦ .

الواقعة .. اسم للسورة وبيان لموضوعها معاً . فالقضية الأولى التى تعالجها هذه السورة المكية هى قضية النشأة الآخرة ، ردا على قولة الشاكين فيها ، المشركين بالله ، المكذبين بالقرآن : « أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ » ..

ومن ثم تبدأ السورة بوصف القيامة . وصفها بصفتها التى تنهى كل قول ، وتقطع كل شك ، وتشعر بالجزم فى هذا الأمر .. الواقعة .. « إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة » .. وتذكر من أحداث هذا اليوم ما يميزه عن كل يوم ، حيث تتبدل أقدار الناس ، وأوضاع الأرض ، فى ظل الهول الذى يبدل الأرض غير الأرض ، كما يبدل القيم غير القيم سواء : « خافضة رافعة .. إذا رجت الأرض رجا ، وبست الجبال بسا ، فكانت هباء منبثا . وكنتم أزواجا ثلاثة . . . الخ » .

ثم تفصل السورة مصائر هذه الأزواج الثلاثة : السابقين وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة . وتصف ما يلقون من نعيم وعذاب وصفا مفصلا أوفى تفصيل ، يوقع فى الحس أن هذا أمر كائن واقع ، لا مجال للشك فيه ، وهذه أدق تفصيلاته معروضة للعيان . حتى يرى المكذبون رأى العين مصيرهم ومصير المؤمنين . وحتى يقال عنهم هنالك بعد وصف العذاب الأليم الذى هم فيه : « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم . وكانوا يقولون : أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون » .. وكأن العذاب هو الحاضر والدنيا هى الماضى الذى يذكر للترذيل والتقبيح . ترذيل حالهم فى الدنيا وتقبيح ما كانوا عليه من تكذيب !

Marfat.com

Marfat.com

وبهذا ينتهى الشوط الأول من السورة . ويبدأ شوط جديد يعالج قضية العقيدة كلها ، متوخيا توكيد قضية البعث التى هى موضوع السورة الأول ؛ بلمسات مؤثرة ، يأخذ مادتها وموضوعها مما يقع تحت حس البشر ، فى حدود المشاهدات التى لا تخلو منها تجربة إنسان ،أيا كانت بيئته ، ودرجة معرفته وتجربته .

يعرض نشأتهم الأولى من منى يمنى . ويعرض موتهم ونشأة آخرين مثلهم من بعدهم فى مجال التدليل على النشأة الأخرى،التى لاتخرج فى طبيعتها ويسرها عن النشأة الأولى،التى يعرفونها جميعا.

ويعرض صورة الحرث والزرع ، وهو إنشاء للحياة فى صورة من صورها . إنشاؤها بيد الله وقدرته . ولو شاء الله لم تنشأ ، ولو شاء لم تؤت ثمارها .

ويعرض صورة الماء العذب الذى تنشأ به الحياة كلها . وهو معلق بقدرة الله ينزله من السحائب . ولوشاء جعله ملحا أجاجا ، لاينبت حياة ، ولايصلح لحياة .

وصورة النار التى يوقدون ، وأصلها الذى تنشأ منه . . الشجر . وعند ذكر النار يلمس وجدانهم منذرا . ويذكرهم بنار الآخرة التى يشكون فيها .

وكلها صور من مألوفات حياتهم الواقعة ، يلمس بها قلوبهم ، ولايكلفهم فيها إلا اليقظة ليد الله وهى تنشئها وتعمل فيها .

كذلك يتناول هذا الشوط قضية القرآن الذى يحدثهم عن «الواقعة» فيشكون فى وعيده . فيلوح بالقسم بمواقع النجوم ، ويعظم من أمر هذا القسم لتوكيد أن هذا الكتاب هو قرآن كريم فى كتاب مكنون لايمسه إلاالمطهرون ، وأنه تنزيل من رب العالمين .

ثم يواجههم فى النهاية بمشهد الاحتضار . فى لمسة عميقة مؤثرة . حين تبلغ الروح الحلقوم، ويقف صاحبها على حافة العالم الآخر ؛ ويقف الجميع مكتوفى الأيدى عاجزين ، لايملكون له شيئا ، ولايدرون مايجرى حوله ، ولامايجرى فى كيانه . ويخلص أمره كله لله ، قبل أن يفارق هذه الحياة . ويرى هو طريقه المقبل ، حين لايملك أن يقول شيئا عما يرى ولاأن يشير !

ثم تختم السورة بتوكيد الخبر الصادق ، وتسبيح الله الخالق : «إن هذا لهو حق اليقين. فسبح باسم ربك العظيم» . . فيلتئم المطلع والختام أكمل التئام . .

* * *

« إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة . إذا رجت الأرض رجا . وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا . . . » .

Marfat.com

هذا المطلع واضح فيه التهويل فى عرض هذا الحدث الهائل . وهو يتبع أسلوبا خاصا يلحظ فيه هذا المعنى ، ويتناسق مع مدلولات العبارة . فمرتين يبدأ بإذا الشرطية يذكر شرطها ولا يذكر جوابها . « إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة » .. ولا يقول: ماذا يكون إذا وقعت الواقعة وقعة صادقة ليس لها كاذبة ، وهى خافضة رافعة . ولكن يبدأ حديثا جديدا : « إذا رجت الأرض رجا. وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا . »..ومرة أخرى لايقول : ماذا يكون إذا كان هذا الهول العظيم . . فكأنما هذا الهول كله مقدمة ، لا يذكر نتائجها، لأن نتائجها أهول من أن يحيط بها اللفظ ، أو تعبر عنها العبارة !

هذا الأسلوب الخاص يتناسب مع الصورة المروّعة المفزّعة التى يرسمها هذا المطلع بذاته . فالواقعة بمعناها وبجرس اللفظ ذاته ـ بما فيه من مدّ ثم سكون ـ تلقى فى الحس كأنما هى ثقل ضخم ينقض من علٍ ثم يستقر ، لغير ما زحزحة بعد ذلك ولا زوال ! « ليس لوقعتها كاذبة » . .

ثم إن سقوط هذا الثقل ووقوعه ، كأنما يتوقع له الحس أرجحة ورجرجة يحدثها حين يقع . ويلبى السياق هذا التوقع فإذا هى : « خافضة رافعة » . .وإنها لتخفض أقدارا كانت رفيعة فى الأرض، وترفع أقدارا كانت خفيضة فى دار الفناء ، حيث تختل الاعتبارات والقيم ؛ ثم تستقيم فى ميزان الله .

ثم يتبدى الهول فى كيان هذه الأرض . الأرض الثابتة المستقرة فيما يحس الناس . فإذا هى ترج رجا ـ وهى حقيقة تذكر فى التعبير الذى يتسق فى الحس مع وقع الواقعة ـ ثم إذا الجبال الصلبة الراسية تتحول ـ تحت وقع الواقعة ـ إلى فتات يتطاير كالهباء . « وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا » . . فما أهول هذا الهول الذي يرج الأرض رجا ، ويبس الجبال بسا ، ويتركها هباء منبثا .وما أجهل الذين يتعرضون له وهم مكذبون بالآخرة ،مشركون بالله، وهذا أثره فى الأرض والجبال!

وهكذا تبدأ السورة بما يزلزل الكيان البشرى ، ويهول الحس الإنسانى ، تجاه القضية التى ينكرها المنكرون ، ويكذب بها المشركون . وينتهى هذا المشهد الأول للواقعة لتشهد آثارها فى الخفض والرفع ، وفى أقدار البشر ومصائرهم الأخيرة :

« وكنتم أزواجا ثلاثة . فأصحاب الميمنة . ما أصحاب الميمنة ؟ وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ؟ والسابقون السابقون . . . »

Marfat.com

ونجد الناس هنا أصنافا ثلاثة - لاصنفين اثنين كما هو السائد فى مشاهد الاستعراض القرآنية - ويبدأ بالحديث عن أصحاب الميمنة - أو أصحاب اليمين - ولكنه لايفصل عنهم الحديث إنما يصفهم باستفهام عنهم للتهويل والتضخيم : « فأصحاب الميمنة . ما أصحاب الميمنة ؟ » . وكذلك يذكر أصحاب المشأمة بنفس الأسلوب . ثم يذكر الفريق الثالث . فريق السابقين . يذكرهم فيصفهم بوصفهم : « والسابقون السابقون » . . كأنما ليقول إنهم هم . وكفى . فهو مقام لايزيده الوصف شيئا !

ومن ثم يأخذ فى بيان قدرهم عند ربهم ، وتفصيل ما أعده من النعيم لهم ، وتعديد أنواعه التى يمكن أن يدركها حس المخاطبين ، وتتناوله معارفهم وتجاربهم :

« أولئك المقربون . فى جنات النعيم . ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين . على سرر موضونة . متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلدون . بأكواب وأباريق وكأس من معين . لايصدعون عنهاولا ينزفون . وفاكهة ممايتخيرون . ولحم طير مما يشتهون . وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون . جزاء بما كانوا يعملون . لايسمعون فيها لغوا ولا تأثيما . إلا قيلا : سلاما سلاما » . .

إنه يبدأ فى بيان هذا النعيم ، بالنعيم الأكبر . النعيم الأسنى . نعيم القرب من ربهم : « أولئك المقربون فى جنات النعيم » . . وجنات النعيم كلها لا تساوى ذلك التقريب ، ولا تعدل ذلك النصيب .

ومن ثم يقف عند هذه الدرجة ليقول من هم أصحابها . . إنهم: « ثلة من الأولين وقليل من الآخرين » . . فهم عدد محدود . وفريق منتقى . كثرتهم فى الأولين وقلتهم فى الآخرين . واختلفت الروايات فى من هم الأولون ومن هم الآخرون . فالقول الأول : أن الأولين هم السابقون إلى الإيمان ذوو الدرجة العالية فيه من الأمم السابقة قبل الإسلام . وأن الآخرين هم السابقون إلى الإسلام ذوو البلاء فيه . . والقول الثانى : أن الأولين والآخرين هم من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - فالأولون من صدرها ، والآخرون من متأخريها . وهذا القول الثانى رجحه ابن كثير . وروى فى ترجيحه للحسن وابن سيرين : قال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن ابن محمد ابن الصباح ، حدثنا عفان ، حدثنا عبد الله ابن أبى بكر المزنى ، سمعت الحسن أتى على هذه الآية : « والسابقون السابقون أولئك المقربون » فقال : « أما السابقون فقد مضوا ولكن

Marfat.com

اللهم اجعلنا من أصحاب اليمين » . . ثم قال : حدثنا أبى ، حدثنا أبو الوليد ، حدثنا السرى ابن يحيى . قال : قرأ الحسن : « والسابقون السابقون . أولئك المقربون فى جنات النعيم . ثلة من الأولين » . . قال : ثلة ممن مضى من هذه الأمة » . . وحدثنا أبى ، حدثنا عبد العزيز ابن المغيرة المنقرى ، حدثنا أبو هلال ، عن محمد ابن سيرين ، أنه قال فى هذه الآية : « ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين » . . قال : كانوا يقولون ، أو يرجون ، أن يكونوا كلهم من هذه الأمة .

وبعد بيان من هم يأخذ فى تفصيل مناعم الجنة التى أعدت لهم . وهى بطبيعة الحال الناعم التى فى طوقهم أن يتصوروها ويدركوها ؛ ووراءها مناعم أخرى يعرفونها هنالك يوم يتهيأون لإدراكها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر !

« على سرر موضونة » . . مشبكة بالمعادن الثمينة . « متكئين عليها متقابلين » . فى راحة وخلو بال من الهموم والمشاغل ، وفى طمأنينة على ما هم فيه من نعيم ، لا خوف من فوته ولا نفاده وفى إقبال بعضهم على بعض يتسامرون . . « يطوف عليهم ولدان مخلدون » . . لا يفعل فيهم الزمن ، ولا تؤثر فى شبابهم وصباحتهم السن كأشباههم فى الأرض . يطوفون عليهم « بأكواب وأباريق وكأس من معين » . . من خمر صافية سائغة « لا يصدعون عنها ولا ينزفون » . . فلا هم يفرقون عنها ولا هى تنفد من بين أيديهم . فكل شىء هنا للدوام والأمان . « وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون » . . فهنا لا شىء ممنوع ، ولا شىء على غير ما يشتهى السعداء الخالدون ، « وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون » . . واللؤلؤ المكنون هو اللؤلؤ المصون ، الذى لم يتعرض للمس والنظر ، فلم تثقبه يد ولم تخدشه عين ! وفى هذا كناية عن معان حسية ونفسية لطيفة فى هؤلاء الحور الواسعات العيون . وذلك كله : « جزاء بما كانوا يعملون » . . فهو مكافأة على عمل كان فى دار العمل . مكافأة يتحقق فيها الكمال الذى كان ينقص كل الناعم فى دار الفناء . ثم هم بعد ذلك كله يحيون فى هدوء وسكون ، وفى ترفع وتنزيه عن كل لغو فى الحديث ، وكل جدل وكل مؤاخذة : « لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما . إلا قيلا : سلاما سلاما » . . حياتهم كلها سلام . يرف عليها السلام . ويشيع فيها السلام . تسلم عليهم الملائكة فى ذلك الجو الناعم الآمن ؛ ويسلم بعضهم على بعض . ويبلغهم السلام من الرحمن . فالجو كله سلام سلام . .

Marfat.com

فإذا انتهى الحديث عن ذلك الفريق السابق المختار ، بدأ الحديث عن الفريق الذى يليه :

فريق أصحاب اليمين :

« وأصحاب اليمين . ماأصحاب اليمين ؟ فى سدر مخضود ، وطلح منضود . وظل ممدود . وماء مسكوب . وفاكهة كثيرة لامقطوعةولاممنوعة . وفرش مرفوعة . إنا أنشأناهن إنشاء . فجعلناهن أبكارا . عربا أترابا . لأصحاب اليمين . ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين » ..

وأصحاب اليمين هم أصحاب الميمنة الذين أشار إليهم تلك الإشارة المجملة فى أول السورة . ثم أخر تفصيل نعيمهم ، إلى موعده هنا بعد السابقين المقربين . وهو يعيد السؤال عنهم بتلك الصيغة التى تفيد التفخيم والتهويل : « ما أصحاب اليمين ؟ » . .

ولأصحابنا هؤلاء نعيم مادى محسوس ، يبدو فى أوصافه شىء من خشونة البداوة ، ويلبى هواتف أهل البداوة حسبما تبلغ مداركهم وتجاربهم من تصور ألوان النعيم !

إنهم « فى سدر مخضود » . . والسدر شجر النبق الشائك . ولكنه هنا مخضود شوكه ومنزوع . « وطلح منضود » . . والطلح شجر من شجر الحجاز من نوع العضاة فيه شوك . ولكنه هنا منضود معد للتناول بلا كد ولا مشقة . « وظل ممدود ، وماء مسكوب » .. وتلك جميعا من مراتع البدوى ومناعمه، كما يطمح إليها خياله وتهتف بها أشواقه ! « وفاكهة كثيرة. لامقطوعة ولا ممنوعة » . . تركها مجملة شاملة بغير تفصيل بعد ماذكر الأنواع المعروفة لسكان البادية بالتعيين . « وفرش مرفوعة » .. وهى هنا لاموضونة ولاناعمة . وبحسبها أنها مرفوعة. وللرفع فى الحس معنيان . مادى ومعنوى يستدعى أحدهما الآخر ، ويلتقيان عند الارتفاع فى المكان والطهارة من الدنس . فالمرفوع عن الأرض أبعد عن نجسها . والمرفوع فى المعنى أبعد عن دنسها . ولهذا ينتقل السياق من الفرش المرفوعة إلى ذكر من فيها من الأزواج : « إنا أنشأناهن إنشاء » إما ابتداء وهن الحور . وإما استئنافا وهن الزوجات المبعوثات شواب : « فجعلناهن أبكارا » لم يمسسن « عربا » . . متحببات إلى أزواجهن « أترابا » متوافيات السن والشباب. « لأصحاب اليمين » . مخصصات لهم . ليتسق ذلك مع « الفرش المرفوعة » . .

فأما أصحاب اليمين هؤلاء فهم « ثلة من الأولين وثلة من الآخرين » . . فهم أكثر عددا من السابقين المقربين . على الاعتبارين اللذين ذكرناهما فى معنى الأولين والآخرين .

وهنا يصل بنا السياق إلى أصحاب الشمال ــ وهم أصحاب المشأمة الذين سبقت الإشارة إليهم فى مطلع السورة :

« وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ؟ في سموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم . إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم. وكانوا يقولون: أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ؟ أوآباؤنا الأولون ؟ قل : إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم . ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم . فمالئون منها البطون . فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم . هذا نزلهم يوم الدين » ..

فلئن كان أصحاب اليمين « في ظل ممدود وماء مسكوب » .. فأصحاب الشمال « في سموم وحميم . وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم » .. فالهواء شواظ ساخن ينفذ إلى المسام ويشوى الأجسام . والماء متناه في الحرارة لا يُبرد ولا يُروى وهناك ظل ! ولكنه « ظل من يحموم » .. ظل الدخان اللافح الخانق .. إنه ظل للسخرية والتهكم . ظل « لا بارد ولا كريم » .. فهو ظل ساخن لا روح فيه ولا برد ؛ وهو كذلك كز لا يمنح وراده راحة ولا إنعاشا ! .. هذا الشظف كله جزاء وفاق : « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » .. وما آلم الشظف للمترفين ! « وكانوا يصرون على الحنث العظيم » .. والحنث الذنب . وهو هنا الشرك بالله . وفيه إلماع إلى الحنث بالعهد الذي أخذه الله على فطرة العباد أن يؤمنوا به ويوحدوه . « وكانوا يقولون : أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ؟ أوآباؤنا الأولون ؟ » كانوا ! .. هكذا يعبر القرآن ، كأنما الدنيا التي فيها المخاطبون قد طويت وانتهت فإذا هي ماض . والحاضر هو هذا المشهد وهذا العذاب ؛ ذلك أن الدنيا كلها ومضة . وهذا الحاضر هو العقبى والمآب .

وهنا يلتفت السياق إلى الدنيا في أنسب الأوقات لهذه اللفتة ليرد على سؤالهم ذاك : « قل : إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم » .. هو هذا اليوم الحاضر المعروض المشهود !

ثم يعود إلى ما ينتظر المكذبين . فيتم صورة العذاب الذي يلقاه المترفون :

« ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم » .. ولا يدرى أحد ما شجرة الزقوم إلا ما وصفها الله به في سورة أخرى من أن طلعها كرؤوس الشياطين . ورؤوس الشياطين لم يرها أحد ولكنها تلقى في الحس ما تلقيه ! على أن لفظ « الزقوم » نفسه يصور بجرسه ملمسا خشنا شائكا مدببا يشوك الأكف ـ بله الحلوق ـ وذلك في مقابل السدر المخضود والطلح المنضود ـ ومع أن الزقوم كرؤوس الشياطين ! فإنهم لآكلون منها

Marfat.com

« فمالئون منها البطون » . . فالجوع طاغ والمحنة غالبة . . وإن الشوك الخشن ليدفع إلى الماء لتسليك الحلوق ورى البطون ! وإنهم لشاربون « فشاربون عليه من الحميم » . . الساخن الذى لايبرد غلة ولا يروى ظمأ . « فشاربون شرب الهيم » . . وهى الإبل المصابة بداء الاستسقاء لاتكاد ترتوى من الماء ! « هذا نزلهم يوم الدين » . . والنزل للراحة والاستقرار . ولكن أصحاب الشمال هذا نزلهم الذى لا راحة فيه ولا قرار ! هذا نزلهم فى اليوم الذى كانوا يشكون فيه ، ويتساءلون عنه ، ولا يصدقون خبر القرآن به . كما كانوا يشركون بالله ولا يخافون وعيده بذلك اليوم المشهود . .

بهذاينتهى استعراض المصائر والأقدار ، يوم تقع الواقعة . الخافضة الرافعة . وينتهى كذلك الشوط الأول من السورة .

* * *

فأما الشوط الثانى فى السورة فيستهدف بناء العقيدة بكليتها ، وإن كان التوكيد البارز فيه على قضية البعث والنشأة الأخرى . وفيه تتجلى طريقة القرآن فى مخاطبة الفطرة البشرية ، وفى تناول الدلائل الإيمانية ، وفى التلطف إلى النفوس فى بساطة ويسر ، وهو يتناول أكبر الحقائق فى صورها القريبة الميسورة . .

إن هـذا القرآن يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكرورة ، قضايا كونية كبرى ؛ يكشف فيها عن النواميس الإلهية فى الوجود ؛ وينشىء بها عقيدة ضخمة شاملة وتصورا كاملا لهذا الوجود. كما يجعل منها منهجا للنظر والتفكير ؛ وحياة للأرواح والقلوب ، ويقظة فى المشاعر والحواس . يقظة لظواهر هذا الوجود التى تطالع الناس صباح مساء وهم غافلون عنها ؛ ويقظة لأنفسهم وما يجرى من العجائب والخوارق فيها !

إنه لا يكل الناس إلى الحوادث الفذة الخارقة والمعجزات الخاصة المعدودة . كذلك لايكلفهم أن يبحثوا عن الخوارق والمعجزات والآيات والدلائل بعيدا عن أنفسهم ، ولا عن مألوف حياتهم ، ولا عن الظواهر الكونية القريبة منهم المعروفة لهم . . إنه لا يُبعد لهم فى فلسفات معقدة ، أو مشكلات عقلية عويصة ، أو تجارب علمية لا يملكها كل أحد . . لكى ينشىء فى نفوسهم عقيدة ، وتصورا للكون والحياة قائما على هذه العقيدة .

إن أنفسهم من صنع الله ؛ وظواهر الكون حولهم من إبداع قدرته . والمعجزة كامنة فى كل

Marfat.com

Marfat.com

مابتدعه يده . وهذا القرآن قرآنه . ومن ثم يأخذهم إلى هذه المعجزات الكامنة فيهم والمبثوثة فى الكون من حولهم . يأخذهم إلى هـذه الخوارق المألوفة لهم ، التى يرونها ولا يحسون حقيقة الإعجاز فيها . لأنهم لطول ألفتهم لها غفلوا عن مواضع الإعجاز فيها . يأخذهم إليها ليفتح عيونهم عليها ؛ فتطلع على السر الهائل المكنون فيها . سر القدرة المبدعة ، وسر الوحدانية المفردة ، وسر الناموس الأزلى الذى يعمل فى كيانهم هم أنفسهم كما يعمل فى الكون من حولهم ؛ والذى يحمل دلائل الإيمان ، وبراهين العقيدة ، فيبثها فى كيانهم ، أو يوقظها فى فطرتهم بتعبير أدق .

وعلى هذا المنهج يسير فى هذا الشوط من السورة ؛ وهو يعرض عليهم آيات القدرة المبدعة فى خلقهم هم أنفسهم . وفى زرعهم الذى تزاوله أيديهم . وفى الماء الذى يشربون . وفى النار التى يوقدون ـ وهى أبسط مايقع تحت أبصارهم من مألوفات حياتهم ـ كذلك يصور لهم لحظة النهاية . نهاية الحياة على هذه الأرض وبدء الحياة فى العالم الآخر . اللحظة التى يواجهها كل أحد ، والتى تنتهى عندها كل حيلة ، والتى تقف الأحياء وجهالوجه أمام القدرة المطلقة المتصرفة وقفة فاصلة ، لامحاولة فيها ولا مجال ! حيث تسقط جميع الأقنعة ، وتبطل جميع التعلات .

إن طريقة القرآن فى مخاطبة الفطرة البشرية تدل بذاتها على مصدره . . إنه المصدر الذى صدر منه الكون . فطريقة بنائه هى طريقة بناء الكون . فمن أبسط المواد الكونية تنشأ أعقد الأشكال ، وأضخم الخلائق . . الذرة يظن أنها مادة بناء الكون ، والخلية يظن أنها مادة بناء الحياة . . والذرة على صغرها معجزة فى ذاتها . والخلية على ضآلتها آية فى ذاتها . . وهنا فى القرآن يتخذ من أبسط المشاهدات المألوفة للبشر مادة لبناء أضخم عقيدة دينية وأوسع تصور كونى . . المشاهدات التى تدخل فى تجارب كل إنسان : النسل . والزرع . والماء . والنار. والموت . . أى إنسان على ظهر هذه الأرض لم تدخل هذه المشاهدات فى تجاربه ؟ أى ساكن كهف لم يشهد نشأة حياة جنينية ، ونشأة نبتة . ومسقط ماء . وموقد نار . ولحظة وفاة ؟ . . من هذه المشاهدات التى رآها كل إنسان ينشىء القرآن العقيدة ، لأنه يخاطب كل إنسان فى كل بيئة . . وهذه المشاهدات البسيطة الساذجة هى بذاتها أضخم الحقائق الكونية ،وأعظم الأسرار الربانية ـ بالإضافة إلى الإشارة إلى مواقع النجوم ـ فهى فى بساطتها تخاطب فطرة كل إنسان. وهى فى حقيقتها موضوع دراسة أعلم العلماء إلى آخر الزمان :

مواقع النجوم تعنى هندسة الكون .

Marfat.com

نشأة الحياة الإنسانية .. وهى سر الأسرار .

نشأة الحياة النباتية .. وهى كالحياة الحيوانية معجزة المعجزات .

والماء .. أصل الحياة .

والنار .. المعجزة التى صنعت الحضارة الإنسانية .

هذه الطريقة فى تناول الأشياء ، وبناء العقيدة والتفكير ، ليست طريقة البشر . فالبشر حين يخوضون فى هذه المجالات لايلتفتون إلى هذه المواد الأولية التى هى بذاتها المواد الكونية. وإذا التفتوا إليها لم يتناولوها بهذا اليسر وبهذه البساطة . بل يحاولون وضع المسألة فى قالب فلسفى تجريدى معقد ، لايصلح إلا لخطاب طبقة خاصة من الناس !

أما الله فطريقته هى هذه . تناول المواد الأولية التى هى بذاتها المواد الكونية . وبناء العقيدة بها فى يسر وسهولة . تماما كما يصنع - سبحانه - فى تناول المواد الأولية التى هى مواد كونية ويصنع منها الكون ..

هذا من ذاك . وعلامة الصنعة واحدة ، واضحة هنا وهناك !

***

« نحن خلقناكم فلولا تصدقون ! أفرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم الموت ، وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لاتعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ! » ..

إن هذا الأمر أمر النشأة الأولى ونهايتها . أمر الخلق وأمر الموت . إنه أمر منظور ومألوف وواقع فى حياة الناس . فكيف لا يصدقون أن الله خلقهم ؟ إن ضغط هذه الحقيقة على الفطرة أضخم وأثقل من أن يقف له الكيان البشرى أو يجادل فيه : « نحن خلقناكم فلولا تصدقون ! » ..

« أفرأيتم ماتمنون ؟ أأنتم تخلقونه ؟ أم نحن الخالقون ؟ » ..

إن دور البشر فى أمر هذا الخلق لايزيد على أن يودع الرجل ما يُمنى رحمَ امرأة . ثم ينقطع عمله وعملها . وتأخذ يد القدرة فى العمل وحدها فى هذا الماء المهين . تعمل وحدها فى خلقه وتنميته ، وبناء هيكله ، ونفخ الروح فيه . ومنذ اللحظة الأولى وفى كل لحظة تالية تتم المعجزة ، وتقع الخارقة التى لا يصنعها إلا الله . والتى لايدرى البشر كنهها وطبيعتها ؛ كما لايعرفون كيف تقع . بله أن يشاركوا فيها !

Marfat.com

وهـذا القدر من التأمل يدركه كل إنسان . وهذا يكفي لتقدير هذه المعجزة والتأثر بها . ولـكن قصة هذه الخلية الواحدة منذ أن تمنى ، إلى أن تصير خلقا ، قصة أغرب من الخيال . قصة لا يصدقها العقل لولا أنها تقع فعلا ، ويشهد وقوعها كل إنسان !

هذه الخلية الواحدة تبدأ فى الانقسام والتكاثر ، فإذا هى بعد فترة ملايين الملايين من الخلايا . كل مجموعة من هذه الخلايا الجديدة ذات خصائص تختلف عن خصائص المجموعات الأخرى ؛ لأنها مكلفة أن تنشىء جانبا خاصا من المخلوق البشرى ! فهذه خلايا عظام . وهـذه خلايا عضلات . وهذه خلايا جلد . وهذه خلايا أعصاب . . ثم . . هذه خلايا لعمل عين . وهذه خلايا لعمل لسان . وهذه خلايا لعمل أذن . وهذه خلايا لعمل غدد . . وهى أكثر تخصصا من المجموعات السابقة . . وكل منها تعرف مكان عملها ، فلا تخطىء خلايا العين مثلا ، فتطلع فى البطن أو فى القدم . مع أنها لو أخذت أخذا صناعيا فزرعت فى البطن مثلا صنعت هنالك عينا ! ولـكنها هى بإلهامها لا تخطىء فتذهب إلى البطن لصنع عين هناك ! ولا تذهب خلايا الأذن إلى القدم لتصنع أذنا هناك ! . . إنها كلها تعمل وتنشىء هذا الـكيان البشرى فى أحسن تقويم تحت عين الخالق ، حيث لا عمل للإنسان فى هذا المجال (١)

هذه هى البداية . أما النهاية فلا تقل عنها إعجازا ولا غرابة . وإن كانت مثلها من مشاهدات البشر المألوفة :

« نحن قدرنا بينـكم الموت ، وما نحن بمسبوقين » . .

هذا الموت الذى ينتهى إليه كل حى . . ما هو ؟ وكيف يقع ؟ وأى سلطان له لا يقاوم ؟

إنه قدر الله . . ومن ثم لا يفلت منه أحد ، ولا يسبقه فيفوته أحد . . وهو حلقة فى سلسلة النشأة التى لابد أن تتكامل . .

« على أن نبدل أمثالـكم » . .

لعمارة الأرض والخلافة فيها بعدكم . والله الذى قدر الموت هو الذى قدر الحياة . قدر الموت على أن ينشىء أمثال من يموتون ، حتى يأتى الأجل المضروب لهذه الحياة الدنيا . . فإذا انتهت عند الأجل الذى سماه كانت النشأة الأخرى :

---

(١) يراجع تفسير قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى » فى سورة النجم بهذا الجزء

« وننشئكم فيما لا تعلمون » ..

فى ذلك العالم المغيب المجهول ، الذى لا يدرى عنه البشر إلا ما يخبرهم به الله . وعندئذ تبلغ النشأة تمامها ، وتصل القافلة إلى مقرها .

هذه هى النشأة الآخرة .. « ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ! » .. فهى قريب من قريب . وليس فيها من غريب .

بهذه البساطة وبهذه السهولة يعرض القرآن قصة النشأة الأولى والنشأة الآخرة . وبهذه البساطة وهذه السهولة يقف الفطرة أمام المنطق الذى تعرفه ، ولا تملك أن تجادل فيه . لأنه مأخوذ من بديهياتها هى ، ومن مشاهدات البشر فى حياتهم القريبة . بلا تعقيد . ولا تجريد . ولا فلسفة تكد الأذهان ، ولا تبلغ إلى الوجدان ..

إنها طريقة الله . مبدع الكون ، وخالق الإنسان ، ومنزل القرآن . . .

***

ومرة أخرى فى بساطة ويسر يأخذ بقلوبهم إلى أمر مألوف لهم ، مكرر فى مشاهداتهم ، ليريهم يد الله فيه ؛ ويطلعهم على المعجزة التى تقع بين أيديهم ، وعلى مرأى من عيونهم ، وهم عنها غافلون :

« أفرأيتم ما تحرثون ؟ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناه حطاما ، فظلتم تفكهون : إنا لمغرمون . بل نحن محرومون » ..

هذا الزرع الذى ينبت بين أيديهم وينمو ويؤتى ثماره . ما دورهم فيه؟ إنهم يحرثون ويلقون الحب والبذور التى صنعها الله. ثم ينتهى دورهم وتأخذ يد القدرة فى عملها المعجز الخارق العجيب.

تأخذ الحبة أو البذرة طريقها لإعادة نوعها . تبدؤه وتسير فيه سيرة العاقل العارف الخبير بمراحل الطريق ! الذى لا يخطىء مرة كما يخطىء الإنسان فى عمله ، ولا ينحرف عن طريقه ، ولا يضل الهدف المرسوم ! إن يد القدرة هي التى تتولى خطاها على طول الطريق .. فى الرحلة العجيبة . الرحلة التى ما كان العقل ليصدقها ، وما كان الخيال ليتصورها ، لولا أنها حدثت وتحدث ويراها كل إنسان فى صورة من الصور ، ونوع من الأنواع .. وإلا فأى عقل كان يصدق ، وأى خيال كان يتصور أن حبة القمح مثلا يكمن فيها هذا العود وهذا الورق ، وهذه السنبلة ، وهذا الحب الكثير ؟ ! أو أن النواة تكمن فيها نخلة كاملة سامقة بكل ما تحتويه ؟ !

Marfat.com

Marfat.com

أى عقل كان يمكن أن يتطاول به الخيال إلى تصور هذه العجيبة . لولاأنه يراها تقع بين يديه صباح مساء؟ ولولاأن هذه القصة تتكرر على مرأى ومسمع من جميع الناس ؟ وأى إنسان يمكنه أن يدعى أنه صنع شيئا فى هذه العجيبة سوى الحرث وإلقاء البذور التى صنعها الله ؟

ثم يقول الناس : زرعنا !! وهم لم يتجاوزوا الحرث وإلقاء البذور . أما القصة العجيبة التى تمثلها كل حبة وكل بذرة. وأما الخارقة التى تنبت من قلبها وتنمو وترتفع فكلهامن صنع الخالق الزارع . ولوشاء لم تبدأ رحلتها . ولوشاءلم تتم قصتها . ولوشاءلجعلها حطاماقبلأن تؤتى ثمارها وهى بمشيئته تقطع رحلتها من البدء إلى الختام !

ولووقع هذا لظل الناس يلونون الحديث وينوعونه يقولون : « إنا لمغرمون » : غارمون « بل نحن محرومون » .. ولكن فضل الله يمنحهم الثمر،ويسمح للنبتة أن تتم دورتها، وتكمل رحلتها ، وهى ذاتها الرحلة التى تقوم بها الخلية التى تمنى .. وهى صورة من صور الحياة التى تنشئها القدرة وترعاها .

فماذا فى النشأة الأخرى من غرابة . وهذه هى النشأة الأولى ؟ ..

* * *

« أفرأيتم المـاء الذى تشربون ؟ أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ لونشاء جعلناه أجاجا . فلولا تشكرون » !

وهذا المـاء أصل الحياة ، وعنصرها الذى لاتنشأ إلابه كما قدر الله . مادور الإنسان فيه ؟ دوره أنه يشربه . أماالذى أنشأه من عناصره ، وأما الذى أنزله من سحائبه ، فهو الله سبحانه. وهو الذى قدر أن يكون عذبا فكان «لونشاء جعلناه أجاجا » . مالحا لايستساغ ، ولاينشئ حياة . فهلا يشكرون فضل الله الذى أجرى مشيئته بما كان ؟

والمخاطبون ابتداء بهذا القرآن كان المـاء النازل من السحائب ، فى صورته المباشرة ، مادة حياتهم ، وموضع احتفالهم ، والحديث الذى يهز نفوسهم ، وقد خلدته قصائدهم وأشعارهم .. ولم تنقص قيمةالمـاء بتقدم الإنسان الحضارى ، بل لعلها تضاعفت.والذين يشتغلون بالعلم ويحاولون تفسير نشأة المـاء الأولى أشد شعورا بقيمة هذا الحدث من سواهم . فهو مادة اهتمام للبدائى فى الصحراء ، وللعالم المشتغل بالأبحاث سواء .

* * *

« أفرأيتم النار التي تورون ؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين » . .

ولقد كان كشف الإنسان للنار حادثا عظيما في حياته . ربما كان أعظم حادث بدأت منه حضارته . ولكنها أصبحت أمرا مألوفا لايثير الاهتمام . والإنسان يورى النار : أى يوقدها . ولكن من الذى أنشأ وقودها ؟ من الذى أنشأ الشجر الذى توقد به النار ؟ لقد مر حديث الزرع . والشجر من هذا الزرع . . على أن هناك لفتة أخرى في ذكر « شجرتها » فمن احتكاك فرع من شجرة بفرع آخر من شجرة أخرى كان العرب يوقدون نارهم . على الطريقة البدائية التى لاتزال مستعملة في البيئات البدائية حتى الآن . فالأمر أظهر وأقرب إلى تجاربهم المعروفة . أما معجزة النار وسرها عند العلماء الباحثين فهو مجال للبحث والنظر والاهتمام . وبمناسبة ذكر النار يلمع السياق إلى نار الآخرة . : « نحن جعلناها تذكرة » تذكر بالنار الأخرى .. كما جعلناها « متاعا للمقوين » . . أى للمسافرين . وكان لهذه الإشارة وقعها العميق في نفوس المخاطبين ، لما تمثله في واقع حياتهم من مدلول حى حاضر في تجاربهم وواقعهم .

* * *

وحين يبلغ السياق إلى هذا الحد من عرض هذه الحقائق والأسرار ، الناطقة بدلائل الإيمان . الميسرة للقلوب والأذهان . يلتفت إلى الحقيقة التى تنتهى إليها هذه الحقائق . حقيقة وجود الله وعظمته وربوبيته . وهى حقيقة تواجه الفطرة مواجهة ذات قوة وسلطان . فيهيب بالرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يحيي هذه الحقيقة ويؤدى حقها ؛ ويلمس القلوب بها في حينها :

« فسبح باسم ربك العظيم » . .

* * *

ثم يلتفت التفاتة أخرى إلى المكذبين بهذا القرآن ؛ فيربط بينه وبين هذا الكون في قسم عظيم من رب العالمين :

« فلاأقسم بمواقع النجوم - وإنه لقسم لوتعلمون عظيم - إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لايمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين » . .

ولم يكن المخاطبون يومذاك يعرفون عن مواقع النجوم إلاالقليل ، الذى يدركونه بعيونهم

Marfat.com

Marfat.com

المجردة . ومن ثم قال لهم : « وإنه لقسم ـ لو تعلمون ـ عظيم » .. فأما نحن اليوم فندرك من عظمة هذا القسم المتعلقة بالمقسم به ، نصيبا أكبر بكثير مما كانوا يعلمون . وإن كنا نحن أيضا لا نعلم إلا القليل عن عظمة مواقع النجوم ..

وهذا القليل الذى وصلنا إليه بمراصدنا الصغيرة ، المحدودة المناظير ، يقول لنا : إن مجموعة واحدة من مجموعات النجوم التى لا تحصى فى الفضاء الهائل الذى لا نعرف له حدودا . مجموعة واحدة ـ هى المجرة التى تنتسب إليها أسرتنا الشمسية ـ تبلغ ألف مليون نجم !

« ويقول الفلكيون إن من هذه النجوم والكواكب التى تزيد على عدة بلايين نجم ، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة ، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه . هذه كلها تسبح فى الفلك الغامض ؛ ولا يوجد أى احتمال أن يقترب مجال مغناطيسى لنجم من مجال نجم آخر ، أو يصطدم بكوكب آخر ، إلا كما يحتمل تصادم مركب فى البحر الأبيض المتوسط بآخر فى المحيط الهادى ، يسيران فى اتجاه واحد وبسرعة واحدة . وهو احتمال بعيد ، وبعيد جدا . إن لم يكن مستحيلا [1] »

وكل نجم فى موقعه المتباعد عن موقع إخوته ، قد وضع هناك بحكمة وتقدير . وهو منسق فى آثاره وتأثراته مع سائر النجوم والكواكب ، لتتوازن هذه الخلائق كلها فى هذا الفضاء الهائل .

فهذا طرف من عظمة مواقع النجوم ، وهو أكبر كثيرا جدا مما كان يعلمه المخاطبون بالقرآن أول مرة . وهو فى الوقت ذاته أصغر مما لا يقاس من الحقيقة الكلية لعظمة مواقع النجوم !

« فلا أقسم بمواقع النجوم » . . فالأمر أوضح وأجلى من أن يحتاج إلى قسم .. « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » .. وهذا التلويح بالقسم والعدول عنه أسلوب ذو تأثير فى تقرير الحقيقة التى لا تحتاج إلى القسم لأنها ثابتة واضحة . « إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين » ..

إنه لقرآن كريم . وليس كما تدعون قول كاهن ، ولا قول مجنون ، ولا مفترى على الله . من أساطير الأولين . ولا تنزلت به الشياطين ! ... إلى آخر هذه الأقاويل . إنما هو قرآن كريم . كريم بمصدره ، وكريم بذاته ، وكريم باتجاهاته

« فى كتاب مكنون » .. مصون .. وتفسير ذلك فى قوله تعالى بعدها : « لا يمسه

---

(١) كتاب : الله والعلم الحديث ص٣٣

Marfat.com

إلا المطهرون » .. فقد زعم المشركون أن الشياطين تنزلت به . فهذا نفى لهذا الزعم.فالشيطان لايمس هذا الكتاب المكنون فى علم الله وحفظه . إنما تنزل به الملائكة المطهرون .. وهذا الوجه هو أظهر الوجوه فى معنى « لايمسه إلاالمطهرون » . فلا هنا نافية لوقوع الفعل .وليست ناهية . وفى الأرض يمس هذا القرآن الطاهر والنجس . والمؤمن والكافر ، فلايتحقق النفى على هذا الوجه . إنما يتحقق بصرف المعنى إلى تلك الملابسة . ملابسة قولهم : تنزلت به الشياطين. ونفى هذا الزعم إذلايمسه فى كتابه السماوى المكنون إلاالمطهرون ..

ومما يؤيد هذا الاتجاه قوله تعالى بعد هذا : « تنزيل من رب العالمين » .. لاتنزيل من الشياطين !

وقد روى حديثان يقرران معنى آخر . وهو أن لايمس القرآن إلاطاهر . . ولكن ابن كثير قال عنهما : « وهذه وجادة جيدة قد قرأها الزهرى وغيره . ومثل هذا لاينبغى الأخذ به . وقد أسنده الدارقطنى عن عمرو بن حزم وعبد الله ابن عمر وعثمان ابن أبى العاص . وفى إسناد كل منهما نظر والله اعلم » .

* * *

ثم يأتى الإيقاع الأخير فى السورة . . لحظة الموت .. اللمسة التى ترجف لها الأوصال . واللحظة التى تنهى كل جدال . واللحظة التى يقف فيها الحى بين نهاية طريق وبداية طريق ، حيث لايملك الرجوع ولايملك النكوص :

« أفبهذا الحديث أنتم مدهنون؟وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون. فلولاإذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون.فلولا إن كنتم غير مدينين. ترجعونها إن كنتم صادقين » ..

أفأنتم شاكون فى هذا الحديث الذى يقال لكم عن النشأة الآخرة ؟ مكذبون بالقرآن ومايقصه عليكم من شأن الآخرة ، ومايقرره لكم من أمور العقيدة ؟ « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » .. فإذا التكذيب هو رزقكم الذى تحصلون عليه فى حياتكم وتدخرونه لآخرتكم؟ وماأسوأه من رزق !

فماذا أنتم فاعلون إذ تبلغ الحلقوم ، وتقفون فى مفرق الطريق المجهول ؟

ثم يصور الموقف التصوير القرآني الموحى، الذى يرسم ظلال الموقف كلها فى لمسات سريعة ناطقة بكل مافيه ، وبكل ماوراءه ، وبكل مايوحيه .

« فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون » ..

لنكاد نسمع صوت الحشرجة ، ونبصر تقبض الملامح، ونحس الكرب والضيق من خلال قوله: « فلولا إذا بلغت الحلقوم » .. كما نكاد نبصر نظرة العجز وذهول اليأس فى ملامح الحاضرين من خلال قوله : « وأنتم حينئذ تنظرون » ..

هنا . فى هذه اللحظة . وقد فرغت الروح من أمر الدنيا . وخلفت وراءها الأرض ومافيها . وهى تستقبل عالما لاعهد لها به ، ولاتملك من أمره شيئا إلاماادخرت من عمل ، وما كسبت من خير أوشر .

هنا . وهى ترى ولاتملك الحديث عما ترى . وقد انفصلت عمن حولها وماحولها . الجسد هو الذى يراه الناظرون . ولكنهم ينظرون ولا يرون مايجرى ولايملكون من الأمر شيئا .

هنا تقف قدرة البشر ، ويقف علم البشر ، وينتهى مجال البشر .

هنا يعرفون ـ ولايجادلون ـ أنهم عجزة عجزة . قاصرون قاصرون .

هنا يسدل الستار دون الرؤية . ودون المعرفة . ودون الحركة .

هنا تتفرد القدرة الإلهية ، والعلم الإلهى . ويخلص الأمر كله لله بلاشائبة ولاشبهة ولاجدال ولامحال :

« ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون » !

وهنا يجلل الموقف جلال الله ، ورهبة حضوره ـ سبحانه وتعالى ـ وهو حاضر فى كل وقت. ولكن التعبير يوقظ الشعور بهذه الحقيقة التى يغفل عنها البشر . فإذا مجلس الموت تجلله رهبة الحضور وجلاله . فوق مافيه من عجز ورهبة وانقطاع ووداع .

وفى ظل هذه المشاعر الراجفة الواجفة الآسية الآسفة يجيء التحدى الذى يقطع كل قول وينهى كل جدال :

« فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين ! »

فلو كان الأمر كما تقولون: إنه لاحساب ولاجزاء . فأنتم إذن طلقاء غير مدينين ولامحاسبين.

Marfat.com

Marfat.com

فدونكم إذن فلترجعوها ـ وقد بلغت الحلقوم ـ لتردوها عما هى ذاهبة إليه من حساب وجزاء. وأنتم حولها تنظرون . وهى ماضية إلى الدينونة الكبرى وأنتم ساكنون عاجزون !

هنا تسقط كل تعلة . وتنقطع كل حجة . ويبطل كل محال . وينتهى كل جدال . ويثقل ضغط هذه الحقيقة على الكيان البشرى ، فلا يصمد له ، إلا وهو يكابر بلا حجة ولا دليل !

* * *

ثم يمضى السياق فى بيان مصير هذه الروح الذى يتراءى لها من بعيد حين تبلغ الحلقوم، وتستدبر الحياة الفانية ، وتستقبل الحياة الباقية . وتمضى إلى الدينونة التى يكذب بها المكذبون:

« فأما إن كان من المقربين ، فروح وريحان وجنة نعيم . وأما إن كان من أصحاب اليمين ، فسلام لك من أصحاب اليمين . وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية جحيم » ..

وقد مرت بنا فى أول السورة صور من نعيم المقربين . فالروح هنا ترى علائم هذا النعيم الذى ينتظرها : روح وريحان وجنة نعيم . والألفاظ ذاتها تقطر رقة ونداوة. وتلقى ظلال الراحة الحلوة ، والنعيم اللين ، والأنس الكريم .

« وأما إن كان من أصحاب اليمين » . . فيلتفت بالخطاب إليه . . يبلغه سلام إخوانه من أصحاب اليمين . وما أندى السلام ساعتئذ وما أحبه . حين يتلقاه وقد بلغت الحلقوم ! فيطمئن باله ويشعر بالأنس فى الصحبة المقبلة مع أصحاب اليمين .

« وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية جحيم » . . وما أسوأه نزلا ومثوى ذلك الحميم الساخن . وما أشده عذابا ذلك الجحيم ، يتراءى له ويعلم أنه ملاقيه عن يقين !

* * *

والآن وقد بلغ الموقف ذروته تجىء الخاتمة فى إيقاع عميق رزين :

« إن هذا لهو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم » ..

فتلتقى رجاحة اليقين وثقله فى ميزان الحق ، بالواقعة التى بدأت بها السورة . وتختم بما يوحيه هذا اليقين الثابت الجازم من اتجاه إلى الله بالتسبيح والتعظيم . .

سورة الحديد مدنية

وآياتها ٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

« سبح لله ما في السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم ① له ملك السماوات والأرض ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير * هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم * هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير * له ملك السماوات والأرض ، وإلى الله ترجع الأمور * يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ، وهو عليم بذات الصدور .

« آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير * ومالكم لا تؤمنون بالله ؟ والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ، وقد أخذ ميثاقكم ، إن كنتم مؤمنين * هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وإن الله بكم لرءوف رحيم * ومالكم ألا تنفقوا في سبيل الله ؟ ولله ميراث السماوات والأرض ؟ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى ، والله بما تعملون خبير .

Marfat.com

« مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ؟ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ * يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ، بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا . ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا : انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ . قِيلَ : ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً . فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ ، بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ، وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ : أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ، وَتَرَبَّصْتُمْ ، وَارْتَبْتُمْ ، وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِىُّ ، حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ ، وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ * فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِىَ مَوْلَاكُمْ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » ⑮

هذه السورة بجملتها دعوة للجماعة الإسلامية كى تحقق فى ذاتها حقيقة إيمانها . هذه الحقيقة التى تخلص بها النفوس لدعوة الله ؛ فلا تضن عليها بشىء ، ولا تحتجز دونها شيئاً.. لا الأرواح ولا الأموال ؛ ولا خلجات القلوب ولا ذوات الصدور . . وهى الحقيقة التى تستحيل بها النفوس ربانية بينما تعيش على الأرض . موازينها هى موازين الله ، والقيم التى تعتز بها وتسابق إليها هى القيم التى تثقل فى هذه الموازين . كما أنها هى الحقيقة التى تشعر القلوب بحقيقة الله ، فتخشع لذكره ، وترجف وتفر من كل عائق وكل جاذب يعوقها عن الفرار إليه .

وعلى أساس هذه الحقيقة الكبيرة تدعو السورة الجماعة الإسلامية إلى البذل فى سبيل الله . بذل النفس وبذل المال : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه . فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ، وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين . هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وإن الله بكم لرؤوف رحيم . ومالكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ، ولله ميراث السماوات والأرض . لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا . وكلا وعد الله الحسنى . والله بما تعملون خبير » .

وعلى أساس هذه الحقيقة الكبيرة كذلك تدعو الجماعة الإسلامية إلى الخشوع لذكر الله وللحق الذى أنزله الله ليجىء البذل ثمرة لهذا الخشوع المنبعث من الحقيقة الإيمانية الأولى : « ألم

Marfat.com

Marfat.com

يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون » . .

وكذلك تضع قيم الدنيا وقيم الآخرة فى ميزان الحق ؛ وتدعو الجماعة الإسلامية لاختيار الكفة الراجحة ، والسباق إلى القيمة الباقية : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما . وفى الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » . .

وظاهر من سياق السورة ـ إلى جانب عمومية الدعوة الدائمة إلى تلك الحقيقة ـ أنها كانت تعالج كذلك حالة واقعة فى الجماعة الإسلامية عند نزول هذه السورة فى المجتمع المدنى فى فترة تمتد من العام الرابع الهجرى إلى ما بعد فتح مكة .

فإلى جانب السابقين من المهاجرين والأنصار ، الذين ضربوا أروع مثال عرفته البشرية ، فى تحقيق حقيقة الإيمان فى نفوسهم ، وفى البذل والتضحية بأرواحهم وأموالهم ، فى خلوص نادر ، وتجرد كامل ، وانطلاق من أوهاق الأرض وجواذب الغريزة ومعوقات الطريق إلى الله . . .

إلى جانب هذه الفئة الممتازة الفذة ، كانت هناك ـ فى الجماعة الإسلامية ـ فئة أخرى ليست فى هذا المستوى الإيمانى الخالص الرفيع ـ وبخاصة بعد الفتح عند ما ظهر الإسلام ، ودخل فيه الناس أفواجا ، وكان من بينهم من لم يدركوا بعد حقيقة الإيمان الكبيرة ، ولم يعيشوا بها ولها كما عاشت تلك الفئة السابقة الخالصة المخلصة لله .

هؤلاء المسلمون من الفئة الأخرى كان يصعب عليهم البذل فى سبيل الله ؛ وتشق عليهم تكاليف العقيدة فى النفس والمال ؛ وتزدهيهم قيم الحياة الدنيا وزينتها ؛ فلا يستطيعون الخلاص من دغائها وإغرائها .

وهؤلاء ـ بصفة خاصة ـ هم الذين تهتف بهم هذه السورة تلك الهتافات الموحية التى أسلفنا نماذج منها ، لتخلص أرواحهم من تلك الأوهاق والجواذب ، وترفعها إلى مستوى الحقيقة الإيمانية الكبرى ، التى تصغر معها كل قيم الأرض ، وتذوب فى حرارتها كل عوائقها !

Marfat.com

كذلك كانت هنالك طائفة أخرى - غير هؤلاء وأولئك - هي طائفة المنافقين ، مختلطة غير متميزة . وبخاصة حين ظهرت غلبة الإسلام ، واضطر المنافقون إلى التخفي والانزواء ؛ مع بقاء قلوبهم مشوبة غير خالصة ولا مخلصة يتربصون الفرص وتجرفهم الفتن . وهؤلاء تصور السورة مصيرهم يوم يميزون ويعزلون عن المؤمنين : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم . بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . ذلك هو الفوز العظيم . يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم قيل: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا . فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب. ينادونهم : ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى، حتى جاء أمر الله ، وغركم بالله الغرور . فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هى مولاكم . وبئس المصير » . .

وهذا إلى جانب من بقى فى الجزيرة من أهل الكتاب من اليهود والنصارى . والسورة تشير إلى شيء من أحوالهم ومواقفهم السابقة والحاضرة فى ذلك الأوان ؛ كالإشارة السابقة إلى قسوة قلوبهم عند تحذير الذين آمنوا أن يكونوا « كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم » . . وهى إشارة إلى اليهود خاصة فى الغالب . . وكالإشارة إلى النصارى قرب نهاية السورة فى قوله : « ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل ، وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله . فما رعوها حق رعايتها. فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ،وكثير منهم فاسقون » . .

***

ولما كان مدار السورة على تحقيق حقيقة الإيمان فى القلب ؛ وما ينبثق عن هذه الحقيقة من خشوع وتقوى ، ومن خلوص وتجرد ، ومن بذل وتضحية ، فقد سارت فى إقرار هذه الحقيقة فى النفوس التى كانت تواجهها - والتى توجد فى كل مجتمع إسلامى - على نسق مؤثر ، أشبه ما يكون بنسق السور المكية، حافل بالمؤثرات ذات الإيقاع الآسر للقلب والحس والمشاعر!

وكان مطلعها خاصة مجموعة إيقاعات بالغة التأثير ؛ تواجه القلب البشرى بمجموعة من صفات الله سبحانه .فيها تعريف به مع الإيحاء الآسر بالخلوص له ،نتيجة للشعور بحقيقة الألوهية المتفردة ، وسيطرتها المطلقة على الوجود ، ورجعة كل شيء إليها فى نهاية المطاف ، مع نفاذ علمها إلى خبايا

Marfat.com

القلوب وذوات الصدور ، واتجاه كل شيء إليها بالعبادة والتسبيح : « سبح لله مافى السماوات والأرض . وهو العزيز الحكيم . له ملك السماوات والأرض يحي ويميت وهو على كل شيء قدير . هو الأول والآخر الظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم . هو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها ، وماينزل من السماء ومايعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير . له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وهو عليم بذات الصدور » ..

وهذا المطلع بذاته وبإيقاعاته كاف وحده ليهز القلوب هزا ، ويوقع فيها الرهبة والخشية والارتعاش ، كما يوقع فيها الرغبة الحية فى الخلوص لله والالتجاء إليه ، والتجرد من العوائق والأثقال المعوقة عن تلبية الهتاف إلى الخلاص من الشح بالأنفس والأموال . ولكن سياق السورة تضمن كثيرا من المؤثرات تتخلل ذلك الهتاف وتؤكده فى مواضع شتى . كتلك الصورة الوضيئة للمؤمنين والمؤمنات « يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » .. وتلك الصورة التى تقرر ضآلة الحياة الدنيا وقيمها إلى جانب قيم الآخرة ومايتم فيها من الأمور الكبار .

كذلك جاءت لمسة أخرى ترد القلوب إلى حقيقة القدر المسيطرة على الوجود : « ماأصاب من مصيبة فى الأرض ولافى أنفسكم إلافى كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير . لكى لاتأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم . والله لايحب كل مختال فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد » .. كى تستقر النفس وتطمئن لمايصيبها من خير أو شر ، وهى فى طريقها إلى الله . فلاتطير جزعا ، ولاتبطر فرحا ، وهى تواجه الضراء والسراء . ولا تشرك بالله سببا ولاظرفا ولاحادثا . فكله بقدر مقسوم لأجل معلوم . ومرد الأمر كله فى النهاية إلى الله .

* * *

وقد سار سياق السورة فى علاج موضوعها فى شوطين اثنين أثبتنا أولهما فى صدر هذا التقديم . وجاءت فقرات كثيرة من الشوط الثانى فى خلاله . وهما مترابطان مطردان . فنكتفى بهذا القدر ، لنسير مع سياق السورة بالتفصيل ..

* * *

« سبح لله مافى السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم . له ملك السماوات والأرض ، يحيى ويميت ، وهو على كل شيء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم . هو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها وماينزل من السماء ومايعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير . له ملك السماوات والأرض ، وإلى الله ترجع الأمور . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وهو عليم بذات الصدور » ..

هذا المطلع الموحى المختار . وماحشد فيه من خصائص الألوهية الفاعلة المؤثرة المبدعة لكل شيء ، المحيطة بكل شيء ، المهيمنة على كل شيء ، العليمة بكل شيء . وماتعرضه من إبداع اليد القادرة وهى تجول فى محيط السماوات والأرض ، وتتلطف إلى خبايا الصدور وطوايا القلوب، وتشرف من عل على الوجود ومافيه ومن فيه ..

هذا المطلع الموحى المختار يتناول القلوب ، فيهزها هزا ، ويأخذها أخذا ، وهو يجول بها فى الوجود كله فلاتجد إلاالله ، ولاترى إلاالله ، ولاتحس بغير الله ، ولاتعلم لها مهربا من قدرته ولامخبأ من علمه ، ولامرجعا إلاإليه ، ولامتوجها إلا لوجهه الكريم :

« سبح لله مافى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » ..

هكذا ينطلق النص القرآنى الكريم فى مفتتح السورة ؛ فتتجاوب أرجاء الوجود كله بالتسبيح لله . ويهيم كل شيء فى السماوات والأرض ، فيسمعه كل قلب مفتوح غير محجوب بأحجبة الفناء . ولاحاجة لتأويل النص عن ظاهر مدلوله . فالله يقول . ونحن لانعلم شيئا عن طبيعة هذا الوجود وخصائصه أصدق مما يقوله لنا الله عنه . . ف « سبح لله مافى السماوات والأرض » تعنى « سبح لله مافى السماوات والأرض » .. ولاتأويل ولاتعديل ! ولنا أن نأخذ من هذا أن كل مافى السماوات والأرض له روح ، يتوجه بها إلى خالقه بالتسبيح. وإن هذا لهو أقرب تصور يصدقه ماوردت به الآثار الصحيحة ، كما تصدقه تجارب بعض القلوب فى لحظات صفائها وإشراقها ، واتصالها بالحقيقة الكامنة فى الأشياء وراء أشكالها ومظاهرها . .

وقد جاء فى القرآن الكريم : « ياجبال أوبى معه والطير » . . فإذا الجبال كالطير تؤوب مع داود ! وجاء فى الأثر : أخرج مسلم فى صحيحه عن جابر ابن سمرة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن بمكة حجرا كان يسلم علىّ ليالى بعثت . إنى لأعرفه الآن » .. وروى

Marfat.com

الترمذي ـ باسناده ـ عن علي ابن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ قال : كنت مع رسول الله بمكة فخرجنا في بعض نواحيها ، فمااستقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول : « السلام عليك يارسول الله » . وروى البخاري في صحيحه باسناده عن أنس ابن مالك قال : «خطب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى لزق جذع . فلما صنعوا له المنبر فخطب عليه حن الجذع حنين الناقة ، فنزل الرسول فمسحه ، فسكن » . .

وآيات القرآن كثيرة وصريحة في تقرير هذه الحقيقة الكونية : « ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه » . . « ألم ترأن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس» . . « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » . . ولا داعي لتأويل هذه النصوص الصريحة لتوافق مقررات سابقة لنا عن طبائع الأشياء غير مستمدة من هذا القرآن . فكل مقرراتنا عن الوجود وكل تصوراتنا عن الكون ينبغي أن تنبع أولا من مقررات خالق هذا الكون ومبدع هذا الوجود .

« وهو العزيز الحكيم » . . فتسبيح مافي السماوات والأرض له فرع عن العزة الغالبة والحكمة البالغة . فهو المهيمن على كل شيء بقوته ، وهو جاعل كل شيء وفق حكمته .

***

وما يكاد القلب البشري يفيق من فيض هذا النص ، ومن مهرجان الوجود المسبح لخالقه في السماوات والأرض ، حتى يعاجله السياق برحلة جديدة في ملكوت السماوات والأرض :

« له ملك السماوات والأرض ، يحي ويميت ، وهو على كل شيء قدير » . .

إن كل شيء في السماوات والأرض سبح لله . مالك السماوات والأرض . الذي لاشريك له في ملكه . فهو تسبيح المملوك لمالكه المتفرد ، الذي يحي ويميت . فيخلق الحياة ويخلق ألموت . ويقدر الحياة لكل حي ويقدر له الموت ؛ فلا يكون إلا قدره الذي قضاه .

والحياة ما تزال سرا في طبيعتها ، وسرا في مصدرها ؛ ولا يملك أحد أن يقول من أين جاءت، ولا كيف جاءت . فضلا على أن أحدا لايدري ماهي على وجه الحقيقة .والنص القرآني يقول : إن الله هو الذي يحي . الذي يعطي الحياة للأحياء . وما يملك أحد أن ينكر هذا ولا أن يثبت غيره .والموت كالحياة سر مغلف . لايعرف أحد طبيعته ولا يملك أحد أن يحدثه.

Marfat.com

لأن أحدا غير واهب الحياة لا يملك سلبها . . وهـذا وذلك من مظاهر الملكية المطلقة لله فى السماوات والأرض يحيى ويميت . . .

« وهو على كل شيء قدير » . . إجمالا بغير حد ولا قيد . فالمشيئة المطلقة تمضى بغير حد ولا قيد . وتتعلق بما تشاء أن تتعلق به كما تشاء . وكل قيد يتصوره العقل البشرى بمنطقه هو لهذه المشيئة من أى نوع وأى لون هو تصور باطل ، ناشئ من طبيعة العقل البشرى المحدود ! واختيار المشيئة لنواميس وسنن لهذا الوجود داخل فى حقيقة انطلاقها بلا قيود ولا حدود . فهى تختار هذه النواميس والسنن اختيارا طليقا ، وتعملها فى الكون غير مقيدة بها بعد إعمالها ، ولا محصورة فى نطاقها . والاختيار دائم ومطرد وراء هذه السنن والنواميس . .

والقرآن يولى هذه الحقيقة عناية كبيرة ، فينص عليها فى كل مناسبة بما يفيد طلاقة المشيئة من كل قيد يرد عليها حتى من عملها هى . لتبقى هذه الحقيقة واضحة ، ويبقى تصورها غير مشوب. فقد وعد الله أهل الجنة بالخلود فيها وأهل النار كذلك . وهذا الوعد صادر من المشيئة . ولكنه أبقى المشيئة طليقة خارج نطاق هذا الوعد ذاته وهو من عملها وباختيارها . فقال عن هؤلاء وهؤلاء : « خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلا ماشاء ربك . . » . . وهكذا فى كل موضع وردت فيه مثل هذه المناسبة. ولا مجال لمنطق العقل البشرى ولا لمقرراته فى هذا المجال. وعليه أن يأخذ مقرراته كلها من هذا القرآن ، لامن معين آخر غير القرآن !

ومن ثم يتمثل للقلب البشرى من خلال هذه الآية سلطان الله المطلق فى ملكه الذى لاشريك له فيه ، والذى يتوجه إليه سبحانه بالتسبيح وحق له أن يتوجه ، وحق عليه أن يسبح .

* * *

ومايكاد يفيق من تصور هذه الحقيقة الضخمة التى تملأ الكيان البشرى وتفيض ، حتى تطالعه حقيقة أخرى ، لعلها أضخم وأقوى . حقيقة أن لا كينونة لشيء فى هـذا الوجـود على الحقيقة . فالكينونة الواحدة الحقيقية هى لله وحده سبحانه ؛ ومن ثم فهى محيطة بكل شيء ، عليمة بكل شيء :

« هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » . .

الأول فليس قبله شيء . والآخر فليس بعده شيء . والظاهر فليس فوقه شيء . والباطن فليس دونه شيء .

Marfat.com

Marfat.com

الأول والآخر مستغرقا كل حقيقة الزمان ، والظاهر والباطن مستغرقا كل حقيقة المكان. وهما مطلقتان .ويتلفت القلب البشرى فلايجد كينونة لشيء إلا لله . وهذه كل مقومات الكينونة ثابتة له دون سواه . حتى وجود هـذا القلب ذاته لايتحقق إلامستمدا من وجـود الله . فهذا الوجود الإلهى هو الوجود الحقيقى الذى يستمد منه كل شيء وجوده . وهـذه الحقيقة هى الحقيقة الأولى التى يستمد منها كل شيء حقيقته . وليس وراءهاحقيقة ذاتية ولاوجودذاتىلشيء فى هذا الوجود ..

« وهو بكل شيء عليم » . . علم الحقيقة الكاملة . فحقيقة كل شيء مستمدة من الحقيقة الإلهية وصادرة عنها . فهى مستغرقة إذن بعلم الله اللدنى بها : العلم الذى لايشاركه أحدفى نوعه وصفته وطريقته . مهما علم المخلوقون عن ظواهر الأشياء !

فإذا استقرت هذه الحقيقةالكبرى فى قلب،فماحتفاله بشيء فى هذا الكونغيرالله سبحانه؟ وكل شيء لاحقيقة له ولاوجود ـحتى ذلك القلب ذاته ـ إلامايستمدهمنتلك الحقيقة الكبرى؟ وكل شيء وهم ذاهب ، حيث لايكون ولايبقى إلاالله ،المنفرد بكل مقومات الكينونةوالبقاء ؟

وإن استقرار هذه الحقيقة فى قلب لتحيله قطعة من هذه الحقيقة . فأما قبل أن يصل إلى هذا الاستقرار ، فإن هذه الآية القرآنية حسبه ليعيش فى تدبرها وتصور مدلولها ، ومحاولة الوصول إلى هذا المدلول الواحد وكفى !

ولقد أخذ المتصوفة بهذه الحقيقة الأساسية الكبرى ، وهاموا بها وفيها ، وسلكوا إليها مسالك شتى ، بعضهم قال إنه يرى الله فى كلشيء فى الوجود . وبعضهم قال : إنه رأى الله من وراء كل شيء فى الوجود . وبعضهم قال : إنه رأى الله فلم ير شيئا غيره فى الوجود . . وكلها أقوال تشير إلى الحقيقة إذا تجاوزنا عن ظاهر الألفاظ القاصرة فى هذا المجال . إلا أن مايؤخذ عليهم ـعلى وجه الإجمال ـ هو أنهم أهملوا الحياة بهـذا التصور . والإسلام فى توازنه المطلق يريد من القلب البشرى أن يدرك هـذه الحقيقة ويعيش بها ولها ، بينما هو يقوم بالخلافة فى الأرض بكل مقتضيات الخلافة من احتفال وعناية وجهاد وجهد لتحقيق منهج الله فى الأرض ، باعتبارهذا كلهثمرة لتصور تلكالحقيقة تصورا متزنا ، متناسقا معفطرة الإنسانوفطرة الكون كما خلقهما الله .

***

Marfat.com

وبعد إطلاق تلك الحقيقة الكبرى جعل يذكر كيف انبثقت منها حقائق الوجود الأخرى: « هو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها . وهو معكم أينما كنتم . والله بما تعملون بصير . له ملك السماوات والأرض ، وإلى الله ترجع الأمور . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وهو عليم بذات الصدور » ..

حقيقة خلق السماوات والأرض . وحقيقة الاستواء على العرش والهيمنة على الخلق. وحقيقة العلم بأشياء بعينها من هذا الخلق . وحقيقة الوجود مع كل أحد أينما وجد . وحقيقة رجعة الأمور إليه وحده . وحقيقة تصرفه اللطيف فى كيان الوجود ، وعلمه الخفى بذات الصدور ..

وكلها حقائق منبثقة عن تلك الحقيقة الأولى . . ولكن عرضها فى هذا المجال الكونى يجعل لها فى القلب البشرى إيقاعات وظلالا .. والسماوات والأرض تواجه هذا القلب وتروعه بضخامتها وجلالها ، وتناسقها وجمالها ، كما تواجهه وتروعه بدقة نظامها وانضباط حركاتها ، واطراد ظواهرها . ثم إنها خلائق من خلق الله كالقلب البشرى . فله بها صلة الأسرة وأنس القرابة . وهى توقع على أوتاره إيقاعات لدنية حين يتوجه إليها ، ويسمع لها ، ويعاطفها ! وهى تقول له : إن الذى خلقها هو خلقه . وهى تسبح لخالقها فليسبح لخالقه ! كما تقول له : إنها تستمد حقيقة وجودها من وجود خالقها وأنه هو كذلك . فليس هنالك إذن إلا هذه الحقيقة تستحق الاحتفال بها !

والأيام الستة لا يعلم حقيقتها إلا الله . فأيامنا هـذه ليست سوى ظلال ناشئة عن حركة الأرض حول نفسها أمام الشمس . وجدت بعد خلق الأرض والشمس فليست هى الأيام التى خلق الله فيها السماوات والأرض . فنترك علمها لله يطلعنا عليه إن أراد .

وكذلك العرش . فنحن نؤمن به كما ذكره ولا نعلم حقيقته. أما الاستواء على العرش فنملك أن نقول : إنه كناية عن الهيمنة على هـذا الخلق . استنادا إلى ما نعلمه من القرآن عن يقين من أن الله ـ سبحانه ـ لا تتغير عليه الأحوال . فلا يكون فى حالة عدم استواء على العرش ، ثم تتبعها حالة استواء . والقول بأنا نؤمن بالاستواء ولا ندرك كيفيته لا يفسر قوله تعالى : «ثم استوى » . والأولى أن نقول : إنه كناية عن الهيمنة كما ذكرنا . والتأويل هنا لا يخرج على المنهج الذى أشرنا إليه آنفا لأنه لا ينبع من مقررات وتصورات من عند أنفسنا . إنما يستند إلى مقررات القرآن ذاته ، وإلى التصور الذى يوحيه عن ذات الله سبحانه وصفاته :

Marfat.com

ومع الخلق والهيمنة العلم الشامل اللطيف . يصور النص القرآنى مجاله تصويراعجيبا يشغل القلب بتتبعه فى هـذا المجال الوسيع ، وبتصوره فى حركة دائمة لا تفتر . وهذا أمر غير مجرد ذكر العلم وحقيقته المجردة . أمر مؤثر موح يملأ جوانب النفس ، ويشغل خوالج القلب ، وتترامى به سبحات التصور ووثبات الخيال :

« يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » . .

وفى كل لحظة يلج فى الأرض ما لا عداد له ولا حصر من شتى أنواع الأحياء والأشياء ؛ ويخرج منهامالا عداد ولا حصر من خلائق لا يعلمها إلا الله . وفى كل لحظة ينزل من السماء من الأمطار والأشعة والنيازك والشهب ، والملائكة والأقدار والأسرار ؛ ويعرج فيهـا كذلك من المنظور والمستور ما لا يحصيه إلا الله . . والنص القصير يشير إلى هذه الحركة الدائبة التى لاتنقطع ، وإلى هذه الأحداث الضخام التى لاتحصى ؛ ويدع القلب البشرى فى تلفت دائم إلى ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وفى تصور يقظ لعلم الله الشامل وهو يتبع هذه الحركات والأحداث ، فى مساربها ومعارجها .

والقلب فى تلفته ذاك وفى يقظته هذه يعيش مع الله ، ويسبح فى ملكوته بينما هو ثاو فى مكانه ؛ ويسلك فجاج الكون ويجوب أقطار الوجود فى حساسية وفى شفافية ، وفى رعشة من الروعة والانفعال .

وبينما القلب فى تلفته ذاك فى الأرض والسماء ، إذا القرآن يرده إلى ذاته ، ويلمسه فى صميمه . وإذا هو يجد الله معه ، ناظرا إليه ، مطلعا عليه ، بصيرا بعمله ، قريبا جد قريب :

« وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير » . .

وهى كلمة على الحقيقة لا على الكناية والمجاز . فالله ــ سبحانه ــ مع كل أحد ، ومع كل شىء ، فى كل وقت ، وفى كل مكان . مطلع على ما يعمل بصير بالعباد . وهى حقيقة هائلة حين يتمثلها القلب . حقيقة مذهلة من جانب . ومؤنسة من جانب . مذهلة بروعة الجلال . ومؤنسة بظلال القربى . وهى كفيلة وحدها حين يحسها القلب البشرى على حقيقتها أن ترفعه وتطهره ، وتدعه مشغولا بهاعن كل أعراض الأرض ؛ كما تدعه فى حذر دائم وخشية دائمة ، مع الحياء والتحرج من كل دنس ومن كل إسفاف .

***

ومرة أخرى يعود إلى ملكية السماوات والأرض فى مجال آخر غير الذى وردت فيه أول مرة :

« له ملك السماوات والأرض . وإلى الله ترجع الأمور » . .

ففى المرة الأولى جاء ذكرها فى معرض الإحياء والإماتة والقدرة المطلقة . وهنا يجىء ذكرها فى معرض رجعة الأمور كلها إلى الله . وهى متصلة بملكية الله للسماوات والأرض ومكملة لحقيقتها.

والشعور بهذه الحقيقة يحرس القلب من كل لفتة لغير الله فى أى أمر . فى أول الأمر وفى آخره . ويحميه من التطلع لغير الله فى أى طلب ، ومراقبة غير الله فى أى عمل. ويقيمه على الطريق إلى الله فى سره وعلنه ، وحركته وسكونه ، وخوالجه ونجواه . وهو يعلم أن لا مهرب من الله إلا إليه ، ولا ملجأ منه إلا إلى حماه !

* * *

وينتهى هذا المطلع بحركة لطيفة من حركات القدرة فى مجال الكون ، وفى أطواء الضمير :

« يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل . وهو عليم بذات الصدور » . .

ودخول الليل فى النهار ، ودخول النهار فى الليل ، حركة دائبة ، وهى فى الوقت ذاته حركة لطيفة سواء كان المعنى طول الليل وأخذه من النهار ، وطول النهار وأخذه من الليل : أو كان المعنى مجرد تداخل الليل فى النهار عند الغروب ، وتداخل النهار فى الليل عند الشروق . . ومثل هذه الحركة فى خفائها ولطفها ، حركة العلم بذات الصدور. وذات الصدور هى الأسرار المصاحبة لها ، التى لا تفارقها ولا تبرحها !

والشعور بيد الله تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ، فى لطف ؛ ينشىء فى القلب حالة من التأمل الرفيق ، والحساسية الشفيفة . كالشعور بعلم الله يتلطف فى الاطلاع على ذات الصدور ، الساكنة فى خبايا الصدور !

* * *

هذا المطلع بإيقاعاته تلك ، يدع القلوب فى حساسية مرهفة للتلقى . ومن ثم يجىء الهتاف لها بالإيمان والبذل فى أنسب أوان . وقد تفتحت مداخلها ، وتوفزت مشاعرها ، واستعدت للاستماع . وهنا يجىء ذلك الهتاف فى المقطع التالى فى السياق . ولكنه لا يجىء مجردا . إنما يجىء ومعه مؤثراته وإيقاعاته ولمساته :

Marfat.com

٤

« آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير . ومالكم لاتؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ، وقد أخذ ميثاقكم ؟ إن كنتم مؤمنين . هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وإن الله بكم لرؤوف رحيم . ومالكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض ؟ لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى ، والله بما تعملون خبير » . .

إن الله ـ سبحانه ـ يخاطب القلوب التى خلقها ، فهو يعلم أحوالها ، ويعرف مداخلها ، ويطلع على خوافيها . . وهو يعلم أن نقاء العقيدة ، وخلوص القلب ، واستقرار حقيقة الإيمان استقرارا تنبثق منه آثاره ونتائجه فى واقع الحياة ، من بذل وتضحية وتقدمة خالصة لله . . أن هذا أمر يكلف الطاقة البشرية كثيرا ؛ ويحتاج منها إلى جهد ومجاهدة طويلة . ومن ثم يحشد لها هذه الإيقاعات وهذه المؤثرات ؛ ويكشف لها عن الحقائق الكونية لتراها وتتأثر بها ، وتزن كل شىء بميزانها الكبير الدقيق . ويعالجها المرة بعد المرة ، والخطوة بعد الخطوة ؛ ولا يكلها إلى هتاف واحد ، أو بيان واحد ، أو مؤثر واحد يوقع على أوتارها ثم يغيب . . ومنهج القرآن الإلهى فى علاج القلوب جدير بأن يقف الدعاة إلى الله أمامه طويلا ؛ ليتدبروه ويحاولوا أن يقلدوه !

إن الإيقاعات الأولى فى مطلع السورة من القوة والتوالى والعمق والتأثير ، بحيث تزلزل القلوب الجامدة ، وتلين القلوب القاسية ، وتدعها مرهفة الحساسية . ولكن القرآن لايكل قلوب المخاطبين إلى هذه اللمسات الأولى ، وهو يدعوهم إلى الإيمان والبذل فى الفقرة التالية .

« آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » . .

والمخاطبون هنا هم مسلمون ، ولكنهم يُدعون إلى الإيمان بالله ورسوله . فهى إذن حقيقة الإيمان يدعون لتحقيقها فى قلوبهم بمعناها . وهى لفتة دقيقة . وهم يُدعون إلى الإنفاق ، ومع الدعوة لمسة موحية . فهم لاينفقون من عند أنفسهم . إنما ينفقون مما استخلفهم الله فيه من ملكه . وهو الذى « له ملك السماوات والأرض » . . فهو الذى استخلف بنى آدم جملة فى شىء من ملكه . وهو الذى « يحي ويميت » . . فهو الذى استخلف جيلا منهم بعد جيل .

وهكذا ترتبط هذه الإشارة بما سبق من الحقائق الكلية فى مطلع السورة . ثم تقوم هى

Marfat.com

بدورها فى استثارة الخجل والحياء من الله ، وهو المالك الذى استخلفهم وأعطاهم ، فماذا هم قائلون حين يدعوهم إلى إنفاق شىء مما استخلفهم فيه ومما أعطاهم ؟ ! وفى نهنهة النفوس عن الشح ، والله هو المعطى ولانفاد لما عنده ، فماذا يمسكهم عن البذل والعطاء ، ومافى أيديهم رهن بعطاء الله ؟ !

ولكنه لايكلهم إلى هذا التذكير ومايثيره من خجل وحياء ، ومن سماحة ورجاء . إنما يخاطبهم بمؤثر جديد . يخجلهم من كرم الله ويطمعهم فى فضله :

« فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » ..

فكيف يتخلف متخلف عن الإيمان والبذل فى مواجهة هذا الكرم والفضل ؟

غير أن القرآن لايكلهم إلى هذه اللمسات الأولى . إنما يلح على قلوبهم بموحيات الإيمان وموجباته من واقع حياتهم وملابساتها :

« ومالكم لاتؤمنون بالله ، والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ، وقد أخذ ميثاقكم ، إن كنتم مؤمنين . هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور . وإن الله بكم لرؤوف رحيم » ..

فما الذى يعوقهم عن الإيمان – حق الإيمان – وفيهم الرسول يدعوهم إلى الإيمان . وقد بايعوه عليه وأعطوه ميثاقهم ؟ ومالذى يعوقهم عن الإيمان بالله وهو ينزل على عبده آيات بينات تخرجهم من ظلمات الضلال والشك والحيرة إلى نور الهدى واليقين والطمأنينة ؟ وفى هذا وذاك من دلائل الرأفة والرحمة بهم مافيه .

إن نعمة وجود الرسول بين القوم ، يدعوهم بلغة السماء ، ويخاطبهم بكلام الله ، ويصل بينهم وبين الله فى ذوات نفوسهم وخواص شؤونهم . . نعمة فوق التصور حين تتملاها نحن الآن من بعيد . . فهذه الفترة – فترة الوحى وحياة الرسول – صلى الله عليه وسلم – فترة عجيبة حقا .. إن الله – جل جلاله – يخاطب هذا البشر من صنع يديه ، على لسان عبده – صلى الله عليه وسلم – وفى رحمة علوية ندية يقول لهم : خذوا هذا ودعوا ذاك ! ها هو ذا طريقى فاسلكوه ! لقد تعثرت خطاكم فها كم حبلى ! لقد أخطأتم وأثمتم فتوبوا وها هو ذا بابى مفتوح . تعالوا ولا تشردوا بعيدا ، ولا تقنطوا من رحمتى التى وسعت كل شىء ..وأنت يافلان – بذاتك وشخصك –

Marfat.com

قلت كذا . وهو خطأ . ونويت كذا . وهو إثم . وفعلت كذا وهى خطيئة . فتعال هنا قدامى وتطهر وتب وعد إلى حماى . وأنت يافلان - بذاتك وشخصك - أمرك الذى يعضلك هذا حله . وسؤالك الذى يشغلك هذا جوابه . وعملك الذى عملت هذا وزنه !

إنه الله . هو الذى يقول . يقول لهؤلاء الخلائق . وهم يعيشون معه . يحسون أنه معهم حقيقة وواقعا . أنه يستمع إلى شكواهم فى جنح الليل ويستجيب لها . وأنه يرعاهم فى كل خطوة ويعنى بها . .

ألا إنه لأمر فوق ما يطيق الذى لم يعش هذه الفترة أن يتصور . ولكن هؤلاء المخاطبين بهذه الآيات عاشوها فعلا . . ثم احتاجوا إلى مثل هذا العلاج ومثل هذه اللمسات ، ومثل هذا التذكير . . وهو فضل من الله ورحمة فوق فضله ذاك ورحمته . يدركها ويشعر بها من لم تقدر له الحياة فى هذه الفترة العجيبة :

ورد فى صحيح البخارى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال يوما لأصحابه : « أى المؤمنين أعجب إليكم ؟ » قالوا : الملائكة . قال « وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟ » . قالوا : فالأنبياء . قال : « وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم ؟ » . قالوا : فنحن . قال : « وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيمانا قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بما فيها » . .

وصدق رسول الله . إنه لأمر متفاوت . وإن موحيات الإيمان وموجباته لديهم لشىء هائل ، هائل ، عجيب عجيب . وهو يعجب : مالهم لا يؤمنون؟ ثم يطلب إليهم تحقيق الإيمان فى نفوسهم إن كانوا مؤمنين !

ثم ينتقل بهم من موحيات الإيمان وموجباته إلى موحيات الإنفاق وموجباته فى توكيد وتكرير :

« وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض ؟ » . .

وفى هذه الإشارة عودة إلى حقيقة : « له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور » . . فميراث السماوات والأرض ملكه وراجع إليه ، وما استخلفوا فيه إذن سيؤول إليه فى الميراث ! فما لهم لاينفقون فى سبيله حين يدعوهم إلى الإنفاق . وهو استخلفهم فيه كما قال لهم هناك . وكله عائد إليه كما يقول لهم هنا ؟ وما الذى يبقى من دواعى الشح وهواتف البخل أمام هذه الحقائق فى هذا الخطاب ؟

Marfat.com

ولقد بذلت الحفنة المصطفاة من السابقين ، من المهاجرين والأنصار ، ما وسعها من النفس والمال ، فى ساعة العسرة وفترة الشدة ـ قبل الفتح ـ فتح مكة أو فتح الحديبية وكلاهما اعتز به الإسلام أيام أن كان الإسلام غريبا محاصرا من كل جانب ، مطاردا من كل عدو ،قليل الأنصار والأعوان . وكان هذا البذل خالصا لاتشوبه شائبة من طمع فى عوض من الأرض ، ولا من رياء أمام كثرة غالبة من أهل الإسلام .كان بذلا منبثقا عن خيرة اختاروها عند الله ؛ وعن حمية لهذه العقيدة التى اعتنقوها وآثروها على كل شىء وعلى أرواحهم وأموالهم جميعا . . ولـكن مابذلوه ـ من ناحية الـكم ـ كان قليلا بالقياس إلى ما أصبح الذين جاءوا بعد الفتح يملكون أن يبذلوه . فـكان بعض هؤلاء يقف ببذله عند القدر الذى يعرف ويسمع أن بعض السابقين بذلوه ! هنا نزل القرآن ليزن بميزان الحق بذل هؤلاء وبذل أولئك ، وليقرر أن الـكم ليس هو الذى يرجح فى الميزان ؛ ولـكنه الباعث وما يمثله من حقيقة الإيمان :

« لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل .أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » . .

إن الذى ينفق ويقاتل والعقيدة مطاردة ،والأنصار قلة ، وليس فى الأفق ظل منفعة ولا سلطان ولا رخاء . غير الذى ينفق ويقاتل والعقيدة آمنـة ، والأنصار كثرة ، والنصر والغلبة والفوز قريبة المنال . ذلك متعلق مباشرة بالله ، متجرد تجردا كاملا لاشبهة فيه ، عميق الثقة والطمأنينة بالله وحده ، بعيد عن كل سبب ظاهر وكل واقع قريب . لايجد على الخير عونا إلا مايستمده مباشرة من عقيدته . وهذا له على الخير أنصار حتى حين تصح نيته ويتجرد تجرد الأولين .

قال الإمام أحمد : حدثنا أحمد ابن عبد الملك ، حدثنا زهير ، حدثنا حميد الطويل ، عن أنس ، قال : كان بين خالد ابن الوليد وبين عبـد الرحمان ابن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمان : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ! فبلغنا أن ذلك ذكر للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « دعوا لى أصحابى فوالذى نفسى بيده لوأنفقتم مثـل أحـد ـ أومثـل الجبال ـ ذهبا مابلغتم أعمالهم » (١) . .

(١) يتحدد من هذا الحديث معنى معين لأصحاب الرسول ـ صلى الله علية وسلم ـ الذين تكرر تحذيره بشأنهم . فهم أولئك السابقون . وقد كان يقول للمسلمين حوله وممن صاحبوه : « دعوا لى أصحابى... » فدل على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعنى صحبة خاصة . . وكذلك قال فى مرة عن الصديق ـ رضى الله عنه ـ : « دعوا لى صاحبى » . .

Marfat.com

وفي الصحيح : « لاتسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لوأنفق أحدكم مثل أحد ذهبا مابلغ مُدّ أحدهم ولانصيفه » (١) .

وبعد أن قرر القيم الحقيقية في ميزان الله لهؤلاء ولهؤلاء عاد فقرر أن للجميع الحسنى :

« وكلا وعد الله الحسنى » ..

فقد أحسنوا جميعا ، على تفاوت مابينهم في الدرجات .

ومرد ذلك التفاوت وهذا الجزاء بالحسنى للجميع ، إلى مايعلمه الله من تقدير أحوالهم ، وماوراء أعمالهم من عزائمهم ونواياهم . وخبرته تعالى بحقيقة مايعملون :

« والله بما تعملون خبير » ..

وهي لمسة موقظة للقلوب ، في عالم النوايا المضمرة وراء الأعمال الظاهرة ، وهي التي تناط بها القيم ، وترجح بها الموازين ..

* * *

ثم مرحلة أخرى في استجاشة القلوب للإيمان والبذل ، ومؤثرات أخرى وراء تلك المؤثرات :

« من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم ؟ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم . بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . ذلك هو الفوز العظيم . يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم . قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا . فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ينادونهم : ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ! ولكنكم فتنتم أنفسكم ، وتربصتم ، وارتبتم ، وغرتكم الأماني ، حتى جاء أمر الله ، وغركم بالله الغرور . فاليوم لايؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هي مولاكم ، وبئس المصير » ..

إنه هتاف موح مؤثر آسر . وهو يقول للعباد الفقراء المحاويج : « من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ؟ » .. ومجرد تصور المسلم أنه هو الفقير الضئيل يقرض ربه ، كفيل بأن يطير به إلى البذل طيرانا ! إن الناس ليتسابقون عادة إلى إقراض الثري المليء منهم – وهم كلهم فقراء – لأن السداد مضمون . ولهم الاعتزاز بأن أقرضوا ذلك الثري المليء ! فكيف إذا كانوا يقرضون الغني الحميد ؟ !

(١) انظر الهامشة السابقة .

Marfat.com

ولا يكلهم ـ سبحانه ـ إلى هذا الشعور وحده ، ولكن يمدهم على القرض الحسن ، الخالص له ، المجرد من كل تلفت إلى سواه . يمدهم عليه الضعف فى المقدار ، والأجر الكريم بعد ذلك من عند الله : « فيضاعفه له ، وله أجر كريم » .

ثم يعرض لهم صفحة وضيئة من ذلك الأجر الكريم ، فى مشهد من مشاهد اليوم الذى يكون فيه ذلك الأجر الكريم .

« والمشهد هنا بإجماله وتفصيله جديد ـ بين المشاهد القرآنية ـ وهو من المشاهد التى يحييها الحوار بعد أن ترسم صورتها المتحركة رسما قويا . فنحن الذين نقرأ القرآن اللحظة نشهد مشهدا عجيبا . هؤلاء هم المؤمنون والمؤمنات نراهم . ولكننا نرى بين أيديهم وبأيمانهم إشعاعا لطيفا هادئا . ذلك نورهم يشع منهم ويفيض بين أيديهم . فهذه الشخوص الإنسانية قد أشرقت وأضاءت وأشعت نورا يمتد منها فيرى أمامها ويرى عن يمينها . . إنه النور الذى أخرجها الله إليه وبه من الظلمات . والذى أشرق فى أرواحها فغلب على طينتها . أم لعله النور الذى خلق الله منه هذا الكون وما فيه ومن فيه ، (1) ظهر بحقيقته فى هذه المجموعة التى حققت فى ذواتها حقيقتها !

« ثم ها نحن أولاء نسمع ما يوجه إلى المؤمنين والمؤمنات من تكريم وتبشير: « بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم » . .

ولكن المشهد لاينتهى عند هذا المنظر الطريف اللطيف . . إن هناك المنافقين والمنافقات ، فى حيرة وضلال ، وفى مهانة وإهمال . وهم يتعلقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات : « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم » . . فحيثما تتوجه أنظار المؤمنين والمؤمنات يشع ذلك النور اللطيف الشفيف . ولكن أنى للمنافقين أن يقتبسوا من هذا النور وقد عاشوا حياتهم كلها فى الظلام ؟ إن صوتا مجهلا يناديهم : « قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا » . . ويبدو أنه صوت للتهكم ، والتذكير بما كان منهم فى الدنيا من نفاق ودس فى الظلام : ارجعوا وراءكم إلى الدنيا . إلى ما كنتم تعملون . ارجعوا فالنور يلتمس من هناك . من العمل فى الدنيا . ارجعوا فليس اليوم يلتمس النور !

---

(1) المعتقد الآن أن مادة الكون هى النور . وأنه مؤلف من ذرات . وأن الذرة فى حقيقتها ليست سوى إشعاع . وقد تكون هذه النظرية أقرب النظريات إلى الصحة ، لأنها تسير على درب القرآن !

« وعلى الفور يفصل بين المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات . فهذا يوم الفصل إن كانوا فى الدنيا مختلطين فى الجماعة : « فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » .. ويبدو أنه سور يمنع الرؤية ولكنه لا يمنع الصوت . فهاهم أولاء المنافقون ينادون المؤمنين : « ألم نكن معكم ؟ » . . فما بالنا نفترق عنكم ؟ ألم نكن معكم فى الدنيا نعيش فى صعيد واحد ؟ وقد بعثنا معكم هنا فى صعيد واحد ؟ « قالوا : بلى ! » كان الأمر كذلك . « ولكنكم فتنتم أنفسكم » .. فصرفتموها عن الهدى. « وتربصتم » .. فلم تعزموا ولم تختاروا الخيرة الحاسمة. « وارتبتم » .. فلم يكن لكم من اليقين ما تعزمون به العزمة الأخيرة . « وغرتكم الأمانى » الباطلة فى أن تنجوا وتربحوا بالذبذبة وإمساك العصا من طرفيها ! « حتى جاء أمر الله » .. وانتهى الأمر . « وغركم بالله الغرور » . . وهو الشيطان الذى كان يطمعكم ويمنيكم .

« ثم يستطرد المؤمنون فى التذكير والتقرير ، كأنما هم أصحاب الموقف المحكمون فيه :

«فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير» أم لعلها كلمة الملأ الأعلى ، أو نطق الله الكريم ..

« ونظر من ناحية التناسق الفنى فى عرض المشهد ، فنجد لاختيار مشهد النور فى هذا الموضع بالذات حكمة خاصة . . إن الحديث هنا عن المنافقين والمنافقات . . والمنافقون والمنافقات يخفون باطنهم ويتظاهرون بغير ما فى الضمير المكنون ، ويعيشون فى ظلام من النفاق والدس والوقيعة . والنور يكشف المخبوء ويفضح المستور . كما أنه الصفحة المقابلة الوضيئة لصفحة النفاق المظلمة المطموسة . فهو أليق شىء بأن تطلق أشعته على المشهد الكبير . وبأن ينير بين أيدى المؤمنين والمؤمنات وبأيمانهم ، بينما المنافقون فى الظلام الذى يناسب ظلمات الضمير وظلمات الخفاء المستور ! » (١)

وبعد فأى قلب لا يهفو لذلك النور فى ذلك اليوم ؟ وأى قلب لا يستجيب لهتاف الإنفاق والبذل تحت إيقاع تلك الموحيات العميقة التأثير ؟

إنه القرآن يعالج القلوب فى ثبات واطراد ، ويدعوها دعاء العليم الخبير بطبيعتها ومداخلها ومساربها ؛ وما تستجيب له وما يؤثر فيها :

والشوط الثانى فى السورة استطراد فى الدعاء ، ومزيد من موحيات الاستجابة ، على هذا النهج ، وفى هذا الطريق . .

---

(١) عرض هذا المشهد مأخوذ بتصرف عن كتاب : « مشاهد القيامة فى القرآن » .

Marfat.com

« أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ، فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ؟ ⑯ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

« إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ ، وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ، وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .

« اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ، ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ . وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ .

« سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ . ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

« مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ .

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ، وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ، فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا ،

Marfat.com

وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ، وَآتَيْنَاهُ ٱلْإِنجِيلَ ، وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ، وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ ، فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فَآتَيْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ، وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ، وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ » ﴿٢٩﴾

هذا الشوط امتداد لموضوع السورة الرئيسى : تحقيق حقيقة الإيمان فى النفس ، حتى ينبثق عنها البذل الخالص فى سبيل الله . وفيه من موحيات الإيمان ، ومن الإيقاعات المؤثرة ، قريب مما اشتمل عليه الشوط الأول ، بعد ذلك المطلع العميق المثير .

وهو يبدأ برنة عتاب من الله - سبحانه - للمؤمنين ، الذين لم يصلوا إلى تلك المرتبة التى التى يريدها الله لهم ؛ وتلويح لهم بما كان من أهل الكتاب قبلهم من قسوة فى القلوب وفسق فى الأعمال ، وتحذير من هذا المآل ، الذى انتهى إليه أهل الكتاب بطول الأمد عليهم . مع إطماعهم فى عون الله الذى يحيى القلوب كما يحيى الأرض بعد موتها .

فإذا انتهت هذه اللمسة تبعتها لمسة أخرى - مجالها العالم الآخر - وتكررت الدعوة إلى إقراض الله قرضا حسنا ، مع بيان ما أعده الله لمن يقرضونه فى الدنيا من العوض المضاعف والأجر الكريم . . على نحو مما جاء فى الشوط الأول .

ولمسة ثالثة بوضع قيم الدنيا كلها فى ميزان الله إلى جانب قيم الآخرة . . حيث تبدو قيم الأرض لعبا خفيفة الوزن ؛ وترجح كفة الآخرة ويبدو فيها الجد الذى يستحق الاهتمام .

ومن ثم يهتف بهم ليسابقوا إلى قيم الآخرة . . فى جنة عرضها كعرض السماء والأرض . أعدت للذين آمنوا بالله ورسله .

ولمسة رابعة ترجع بهم من ساحة الآخرة إلى ماهم فيه من واقع الحياة وأحداثها ، فتعلق

Marfat.com

Marfat.com

قلوبهم بقدر الله فيها . في السراء والضراء سواء . ومن ثم يهون عليهم البذل ، ولا يزدهيهم من أعراض الأرض شيء ؛ وترتبط أحاسيسهم كلها بالسماء .

وبعد ذلك يعرض عليهم طرفا من تاريخ دعوة الله في الأرض ، تبدو فيه وحدة المنهج ، واستقامة الطريق . وأن الذي يحيد عنه في كل عهد هم الفاسقون . ويلوح لهم بما كان من بعض أهل الكتاب كما لوح لهم في أول الشوط . لينتهي من هذا إلى الهتاف الأخير لهم بتقوى الله والإيمان برسوله ، ليؤتيهم كفلين من رحمته ، ويجعل لهم نورا يمشون به ويغفر لهم . ففضل الله ليس وقفا على أهل الكتاب كما يزعمون . إنما هو بيد الله يؤتيه من يشاء « والله ذو الفضل العظيم » . .

وهكذا تكون السورة من أولها إلى آخرها مترابطة الحلقات ، في خط واحد ثابت ، تتوالى إيقاعاتها على القلوب ، منوعة ومتشابهة . فيها من التكرار القدر اللازم لتعميق أثر الإيقاع في القلب ، وطرقه وهو ساخن بحرارة الإيقاع بعد الإيقاع !

***

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ؟ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون . اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها . قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » . .

إنه عتاب مؤثر من المولى الكريم الرحيم ؛ واستبطاء للاستجابة الكاملة من تلك القلوب التي أفاض عليها من فضله ؛ فبعث فيها الرسول يدعوها إلى الإيمان بربها ، ونزّل عليه الآيات البينات ليخرجها من الظلمات إلى النور ؛ وأراها من آياته في الكون والخلق ما يبصر ويحذّر .

عتاب فيه الود ، وفيه الحض ، وفيه الاستجاشة إلى الشعور بجلال الله ، والخشوع لذكره ، وتلقي ما نزل من الحق بما يليق بجلال الحق من الروعة والخشية والطاعة والاستسلام ، مع رائحة التنديد والاستبطاء في السؤال :

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ؟ » . .

وإلى جانب التحضيض والاستبطاء تحذير من عاقبة التباطؤ والتقاعس عن الاستجابة ، وبيان لما يغشى القلوب من الصدأ حين يمتد بها الزمن بدون جلاء ، وما تنتهي إليه من القسوة بعد اللين حين تغفل عن ذكر الله ، وحين لا تخشع للحق :

« ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون » . .

وليس وراء قسوة القلوب إلا الفسق والخروج .

إن هذا القلب البشرى سريع التقلب ، سريع النسيان . وهو يشف ويشرق فيفيض بالنور ، ويرف كالشعاع ؛ فإذا طال عليه الأمد بلا تذكير ولا تذكر تبلد وقسا ، وانطمست إشراقته ، وأظلم وأعتم ! فلا بد من تذكير هذا القلب حتى يذكر ويخشع ، ولا بد من الطرق عليه حتى يرق ويشف ؛ ولا بد من اليقظة الدائمة كى لا يصيبه التبلد والقساوة .

ولكن لا يأس من قلب خمد وجمد وقسا وتبلد . فإنه يمكن أن تدب فيه الحياة ، وأن يشرق فيه النور ، وأن يخشع لذكر الله . فالله يحيى الأرض بعد موتها ، فتنبض بالحياة ، وتزخر بالنبت والزهر ، وتمنح الأكل والثمار . . وكذلك القلوب حين يشاء الله :

« اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها » . .

وفى هذا القرآن ما يحيى القلوب كما تحيا الأرض ؛ وما يمدها بالغذاء والرى والدفء :

« قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » . .

* * *

ويتبع هذه اللمسة المحيية ، وذلك العتاب المخجل ، وذاك التذكير والتحذير ، بحافز جديد للبذل والفداء :

« إن المصدقين والمصدقات ، وأقرضوا الله قرضا حسنا ، يضاعف لهم ولهم أجر كريم . والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ، والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ؛ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم » . .

إن المتصدقين والمتصدقات لا يتفضلون على آخذى الصدقات ، ولا يتعاملون فى هذا مع الناس . إنما هم يقرضون الله ويتعاملون مباشرة معه . فأى حافز للصدقة أوقع وأعمق من شعور المعطى بأنه يقرض الغنى الحميد ، وأنه يتعامل مع مالك الوجود ؟ وأن ما ينفقه يخلف عليه مضاعفا ؛ وأن له بعد ذلك كله أجر كريم ؟

ومقام الصديقين مقام رفيع كما تصوره الأحاديث النبوية الشريفة . ومع علو هذا المقام فهو بفضل الله ميسور لمن أراده ، وليس وقفا على أفراد ولا على طائفة . فكل من يحقق إيمانه بالله ورسله يطمع فى هذا المقام الرفيع ، ولا حجر على فضل الله :

Marfat.com

Marfat.com

« والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون » ..

وتلك خاصية هذا الدين وميزته . إنه طريق مفتوح لجميع البشر، وأفق يتطلع إليه الجميع، ليس فيه احتكار للمقامات ، وليس فيه خصوصيات محجوزة لأناس بأعيانهم . وليس إلا العمل يصعد بصاحبه إلى أرقى الدرجات . إنه دين لامجال فيه للطبقات المحفوظة المقام !

روى الإمام مالك فى كتابه « الموطأ » عن صفوان ابن سليم ، عن عطاء ابن يسار ، عن أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم » . . قالوا : يارسول الله تلك منازل الأنبياء لايبلغها غيرهم . قال : « بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » (١) ..

فهذه لمسة الإيمان. فأما لمسة الفداء فقوله بعد ذلك :

« والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم » ..

والحديث عن مقام الشهداء ورد مرات فى القرآن ، وتواترت به الأحاديث النبوية . فهذا الدين لايقوم بغير حراسة ؛ولايتحقق فى الارض بغير جهاد. جهاد لتأمين العقيدة وتامين الدعوة وحماية أهله من الفتنة وشريعته من الفساد . ومن ثم كان للشهداء فى سبيل الله ـ وهم وحدهم الذين يسمون شهداء ـ مقامهم . وكان لهم قربهم من ربهم . القرب الذى يعبر عنه بأنهم « عند ربهم » . .

جاء فى الصحيحين : « أن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل . فاطلع عليهم ربهم اطلاعة ، فقال : ماذا تريدون ! فقالوا: نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فيك فنقتل كما قتلنا أول مرة . فقال : إنى قد قضيت أنهم إليها لا يرجعون » .

وأخرج الشيخان وغيرهما عن أنس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ماعلى الأرض من شىء ـ إلا الشهيد ـ ويتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات ، لما يرى من الكرامة » . .

وكذلك كانت تهون الحياة على من يسمع هذه الوحيات ، ويعرف مقام الشهادة عند الله ..

---

(١) أخرجه الشيخان من حديث مالك .

روى الإمام مالك ... عن يحيى ابن سعيد « أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رغب فى الجهاد وذكر الجنة ، ورجل من الأنصار يأكل تمرات فى يده . فقال : إنى لحريص على الدنيا إن جلست حتى أفرغ منهن ! فرمى مافى يده وحمل بسيفه حتى قتل » . . وقد روى أن هذا كان هو عبير ابن الحمام عليه رضوان الله .

وبينما الصديقون فى ذلك المقام والشهداء فى هذا المقام يقول النص القرآنى عن الكافرين المكذبين :

« والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم » . .

فمن ذا الذى يترك الكرامة والنعيم ، ويختار أن يكون من أصحاب الجحيم ؟!

* * *

والمسة الثالثة فى هذا الشوط تجىء تعقيبا على دعوة الإيمان والبذل ، ودعوة الفداء والتضحية . تعقيبا يصور الدنيا كلها بصورة هزيلة زهيدة تهوّن من شأنها وترفع النفوس عنها ، وتعلقها بالآخرة وقيمها :

« اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما . وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » . .

والحياة الدنيا حين تقاس بمقاييسها هى وتوزن بموازينها تبدو فى العين وفى الحس أمرا عظيما هائلا . ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود وتوزن بميزان الآخرة تبدوا شيئا زهيدا تافها . وهى هنا فى هذا التصوير تبدو لعبة أطفال بالقياس إلى مافى الآخرة من جد تنتهى إليه مصائر أهلها بعد لعبة الحياة !

لعب . ولهو . وزينة . وتفاخر . وتكاثر . . . هذه هى الحقيقة وراء كل مايبدو فيها من جد حافل واهتمام شاغل . . ثم يمضى يضرب لها مثلا مصورا على طريقة القرآن المبدعة . . « كمثل غيث أعجب الكفار نباته » . . والكفار هنا هم الزراع . فالكافر فى اللغة هو الزارع ، يكفر أى يحجب الحبة ويغطيها فى التراب . ولكن اختياره هنا فيه تورية وإلماع إلى إعجاب الكفار بالحياة الدنيا ! « ثم يهيج فتراه مصفرا » للحصاد . فهو موقوت الأجل ، ينتهى عاجلا ، ويبلغ أجله قريبا « ثم يكون حطاما » . . وينتهى شريط الحياة كلها بهذه الصورة المتحركة المأخوذة من مشاهدات البشر المألوفة . . ينتهى بمشهد الحطام !

Marfat.com

Marfat.com

فأما الآخرة فلها شأن غير هذا الشأن ، شأن يستحق أن يحسب حسابه ، وينظر إليه ، ويستعد له : « وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان » .. فهى لاتنتهى فى لمحة كما تنتهى الحياة الدنيا . وهى لاتنتهى إلى حطام كذلك النبات البالغ أجله .. إنها حساب وجزاء.. ودوام .. يستحق الاهتمام !

« وما الحياة الدنيا إلامتاع الغرور » ..

فما لهذا المتاع حقيقة ذاتية ، إنمايستمد قوامه من الغرور الخادع ؛ كما أنه يلهى وينسى فينتهى بأهله إلى غرور خادع .

وهى حقيقة حين يتعمق القلب فى طلب الحقيقة . حقيقة لايقصد بها القرآن العزلة عن حياة الأرض ، ولاإهمال عمارتها وخلافتها التى ناطها بهذا الكائن البشرى [1] . إنما يقصد بها تصحيح المقاييس الشعورية والقيم النفسية ، والاستعلاء على غرور المتاع الزائل وجاذبيته المقيدة بالأرض. هذا الاستعلاء الذى كان المخاطبون بهذه السورة فى حاجة إليه ليحققوا إيمانهم . والذى يحتاج إليه كل مؤمن بعقيدة ، ليحقق عقيدته ؛ ولواقتضى تحقيقها أن يضحى بهذه الحياة الدنيا جميعا.

ومن ثم يدعوهم إلى السباق فى ميدان السباق الحقيق ، للغاية التى تستحق السباق . الغاية التى تنتهى إليها مصائرهم ، والتى تلازمهم بعد ذلك فى عالم البقاء :

« سابقوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ، أعدت للذين آمنوا بالله ورسله . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم » . .

فليس السباق إلى إحراز اللهو واللعب والتفاخر والتكاثر بسباق يليق بمن شبوا عن الطوق، وتركوا عالم اللهو واللعب للأطفال والصغار ! إنما السباق إلى ذلك الأفق ، وإلى ذلك الهدف ، وإلى ذلك الملك العريض : « جنة عرضها كعرض السماء والأرض » . .

وربما كان بعضهم فى الزمن الحالى ـ قبل أن تكشف بعض الحقائق عن سعة هذا الكون ـ يميل إلى حمل مثل هذه الآية على المجاز ، وكذلك حمل بعض الأحاديث النبوية . كذلك الحديث الذى أسلفنا عن أصحاب الغرف التى يتراءاها سكان الجنة كما يتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب . . فأما اليوم ومراصد البشر الصغيرة تكشف عن الأبعاد الكونية الهائلة التى ليس لها حدود ، فإن الحديث عن عرض الجنة ، والحديث عن تراءى الغرف من بعيد ،

(١) يرجع الى تفسير قوله تعالى : « وماخلقت الجن والإنس الاليعبدون » . . فى سورة الذاريات فى هذا الجزء .

٤

يتم قطعا موقع الحقيقه التربية البسيطة المشهودة ، ولا يحتاج إلى حمله على المجاز إطلاقا ! فإن مابين الأرض والشمس مثلا لايبلغ أن يكون شيئا فى أبعاد الكون يقاس !

وذلك الملك العريض فى الجنة يبلغه كل من أراد ، ويسابق إليه كل من يشاء . وعربونه : الإيمان بالله ورسله . « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » . . « والله ذو الفضل العظيم » . . وفضل الله غير محجوز ولا محجر . فهو مباح متاح للراغبين والسابقين . وفى هذا فليتسابق المتسابقون . لا فى رقعة الأرض المحدودة الأجل المحدودة الأركان !

ولابد لصاحب العقيدة أن يتعامل معهذاالوجود الكبير ؛ ولا يحصر نفسهونظره وتصوره واهتمامه ومشاعره فىعالم الأرض الضيق الصغير .. لابد له منهذا ليؤدى دوره اللائق بصاحب العقيدة . هذاالدور الشاق الذى يصطدم بحقارات الناس وأطماعهم ، كما يصطدم بضلال القلوب والتواء النفوس . ويعانى من مقاومة الباطل وتشبثه بموضعه من الأرض ما لا يصبر عليه إلا من يتعامل مع وجود أكبر من هذه الحياة ، وأوسع من هذه الأرض ، وأبقى من ذلك الفناء . .

إن مقاييس هذه الأرض وموازينها لاتمثل الحقيقة التى ينبغى أن تستقر فى ضمير صاحب العقيدة .وما تبلغ من تمثيل تلك الحقيقةإلا بقدرما يبلغ حجمالأرض بالقياسإلى حجم الكون؛ وما يبلغ عمر الأرض بالقياس إلى الأزل والأبد . والفارق هائل هائل لاتبلغ مقاييس الأرض كلها أن تحدده ولا حتى أن تشير إليه !

ومن ثم يبقى صاحب العقيدة فى أفق الحقيقة الكبيرة مستعليا على واقع الأرض الصغير . مهما تضخم هذا الواقع وامتد واستطال . يبقى يتعامل مع تلك الحقيقة الكبيرة الطليقة من قيود هذا الواقع الصغير . ويتعامل مع الوجود الكبير الذى يتمثله فى الأزل والأبد . وفى ملك الآخرة الواسع العريض . وفى القيم الإيمانية الثابتة التى لاتهتز لخلل يقع فى موازين الحياة الدنيا الصغيرة الخادعة .. وتلك وظيفة الإيمان فى حياة أصحاب العقائد المختارين لتعديل قيم الحياة وموازينها ، لا للتعامل بها والخضوع لمقتضياتها....

* * *

ثم تجىء اللمسة الرابعة فى إيقاع عميق ، عن قدر الله ، الذى لايكون سواه :

« ماأصاب من مصيبة فى الأرض ولافى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير . لكى لاتأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم ، والله لايحب كل مختال فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد » . .

Marfat.com

Marfat.com

إن هذا الوجود من الدقة والتقدير بحيث لايقع فيه حادث إلا وهو مقدر من قبل فى تصميمه ، محسوب حسابه فى كيانه .. لامكان فيه للمصادفة . ولاشىء فيه جزاف . وقبل خلق الأرض وقبل خلق الأنفس كان فى علم الله الكامل الشامل الدقيق كل حدث سيظهر للخلائق فى وقته المقدور .. وفى علم الله لاشىء ماض ، ولاشىء حاضر ، ولاشىء قادم . فتلك الفواصل الزمنية إنما هى معالم لنا ــ نحن أبناء الفناء ــ نرى بها حدود الأشياء . فنحن لاندرك الأشياء بغير حدود تميزها . حدود من الزمان وحدود من المكان . نحن لانملك إدراك المطلق إلا فى ومضات تتصل فيها أرواحنا بذلك المطلق ، عن طريق غير الطريق الذى اعتدناه فى إدراك الأشياء. فأما الله ــ سبحانه ــ فهو الحقيقة المطلقة التى تطلع جملة على هذا الوجود ، بلا حدود ولا قيود وهذا الكون ومايقع فيه من أحداث وأطوار منذ نشأته إلى نهايته كائن فى علم الله جملة لاحدود فيه ولافواصل من زمان أومكان . ولكل حادث موضعه فى تصميمه الكلى المكشوف لعلم الله. فكل مصيبة ــ من خير أوشر فاللفظ على إطلاقه اللغوى لايختص بخير ولا بشر ــ تقع فى الأرض كلها وفى أنفس البشر أوالمخاطبين منهم يومها .. هى فى ذلك الكتاب الأزلى من قبل ظهور الأرض وظهور الأنفس فى صورتها التى ظهرت بها .. « إن ذلك على الله يسير » . .

وقيمة هذه الحقيقة التى لايتصور العقل غيرها حين يتصور حقيقة الوجود الكبرى . قيمتها فى النفس البشرية أن تسكب فيها السكون والطمأنينة عند استقبال الأحداث خيرها وشرها . فلا تجزع الجزع الذى تطير به شعاعا وتذهب معه حسرات عند الضراء . ولاتفرح الفرح الذى تستطار به وتفقد الاتزان عند السراء :

« لكى لاتأسوا على مافاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم » . .

فاتساع أفق النظر ، والتعامل مع الوجود الكبير ، وتصور الأزل والأبد ، ورؤية الأحداث فى مواضعها المقدرة فى علم الله ، الثابتة فى تصميم هذا الكون . كل أولئك يجعل النفس أفسح وأكبر وأكثر ثباتا ورزانة فى مواجهة الأحداث العابرة . حين تتكشف للوجود الإنسانى وهى مارة به فى حركة الوجود الكونى .

إن الإنسان يجزع ويستطار وتستخفه الأحداث حين ينفصل بذاته عن هذا الوجود : ويتعامل مع الأحداث كأنها شىء عارض يصادم وجوده الصغير . فأما حين يستقر فى تصوره وشعوره أنه هو والأحداث التى تمر به ، وتمر بغيره ، والأرض كلها . . ذرات فى جسم كبير

Marfat.com

عو هـذا الوجود . . وأن هـذه الذرات كائنة فى موضعها فى التصميم الـكامل الدقيق . لازم بعضها لبعض . وأن ذلك كله مقدر مرسوم معلوم فى علم الله المكنون . . حين يستقر هذا فى تصوره وشعوره، فإنه يحس بالراحة والطمأنينة لمواقع القدر كلها على السواء . فلا يأسى على فائت أسى يضعضعه ويزلزله ، ولا يفرح بحاصل فرحا يستخفه ويذهله . ولكن يمضى مع قدر الله فى طواعية وفى رضى . رضى العارف المدرك أن ماهو كائن هو الذى ينبغى أن يكون !

وهذه درجة قد لايستطيعها إلا القليلون . فأما سائر المؤمنين فالمطلوب منهم ألا يخرجهم الألم للضراء ، ولا الفرح بالسراء عن دائرة التوجه إلى الله ، وذكره بهذه وبتلك ، والاعتدال فى الفرح والحزن. قال عكرمة ـ رضى الله عنه ـ «ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ،ولكن اجعلوا الفرح شكرا والحزن صبرا » . . وهذا هو اعتدال الإسلام الميسر للأسوياء . .

« والله لايحب كل مختال فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل » . .

ووجه الصلة بين الحقيقة السابقة وبين الاختيال والفخر ، ثم بين هذا وذلك وبين البخل والأمر بالبخل ، هو أن من يشعر بأن كل ما يصيبه هو من أمر الله ، لايختال ولا يفخر بما يعطاه . ولا يبخل ولا يأمر بالبخل فى عطاء . فأما الذى لايشعر بتلك الحقيقة فيحسب أن مايؤتاه من مال وقوة وجاه هو من كسبه فيفخر ويختال به ؛ ثم يبخل كذلك ببذل شىء منه ، ويحث غيره على البخل ليحقق مبدأه ومنهجه !

« ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد » . .

فمن ينفق فإنما ينفق لنفسه ، ومن يستجب فإنما يستجيب لمصلحته . والله هو الغنى فمابه من حاجة إلى العباد المحاويج . والله هو الحميد بذاته فما يناله شىء من حمد الحامدين !

* * *

وفى النهاية يجىء المقطع الأخير فى السورة ، يعرض باختصار خط سير الرسالة ، وتاريخ هذه العقيدة ، من لدن نوح وإبراهيم ؛ مقررا حقيقتها وغايتها فى دنيا الناس ؛ ملما بحال أهل الكتاب وأتباع عيسى ـ عليه السلام ـ بصفة خاصة .

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب. إن الله قوى عزيز . ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم ، وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب ، فمنهم مهتد وكثير منهم

فاسقون . ثم قفينا على آثارهم برسلنا ، وقفينا بعيسى ابن مريم ، وآتيناه الإنجيل ، وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ، ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ، إلا ابتغاء رضوان الله ، فما رعوها حق رعايتها ، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون » . .

فالرسالة واحدة فى جوهرها ، جاء بها الرسل ومعهم البينات عليها ، ومعظمهم جاء بالمعجزات الخوارق . وبعضهم أنزل عليه كتاب . والنص يقول : « وأنزلنا معهم الكتاب » بوصفهم وحدة ، وبوصف الكتاب وحدة كذلك ، إشارة إلى وحدة الرسالة فى جوهرها .

« والميزان » . . مع الكتاب . فكل الرسالات جاءت لتقر فى الأرض وفى حياة الناس ميزانا ثابتا ترجع إليه البشرية ، لتقويم الأعمال والأحداث والأشياء والرجال ؛ وتقيم عليه حياتها فى مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة ، وتصادم المصالح والمنافع . ميزانا لا يحابى أحدا لأنه يزن بالحق الإلهى للجميع ، ولا يحيف على أحد لأن الله رب الجميع .

هذا الميزان الذى أنزله الله فى الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف والزلازل والاضطرابات والخلخلة التى تحيق بها فى معترك الأهواء ومضطرب العواطف ، ومصطخب المنافسة وحب الذات . فلا بد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر ، فيجدون عنده الحق والعدل والنصفة بلا محاباة . « ليقوم الناس بالقسط » . . فبغير هذا الميزان الإلهى الثابت فى منهج الله وشريعته ، لا يهتدى الناس إلى العدل ، وإن اهتدوا إليه لم يثبت فى أيديهم ميزانه ، وهى تضطرب فى مهب الجهالات والأهواء !

« وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » . . والتعبير بأنزلنا الحديد كالتعبير فى موضع آخر بقوله : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » . كلاهما يشير إلى إرادة الله وتقديره فى خلق الأشياء والأحداث ، فهى منزلة بقدره وتقديره . فوق مافيه هنا من تناسق مع جو الآية ، وهو جو تنزيل الكتاب والميزان ، فكذلك ماخلقه الله من شىء مقدر تقدير كتابه وميزانه .

أنزل الله الحديد « فيه بأس شديد » . . وهو قوة فى الحرب والسلم « ومنافع للناس » . . وتكاد حضارة البشر القائمة الآن تقوم على الحديد . « وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » . وهى إشارة إلى الجهاد بالسلاح ؛ تجىء فى موضعها فى السورة التى تتحدث عن بذل النفس والمال .

ولما تحدث عن الذين ينصرون الله ورسله بالغيب ، عقب على هذا بإيضاح معنى نصرهم

Marfat.com

لله ورسله ، فهو نصر لمنهجه ودعوته ، أما الله سبحانه فلا يحتاج منهم إلى نصر : « إن الله قوى عزيز » . .

ولما انتهى من تقرير وحدة الرسالة فى جوهرها وكتابها وميزانها عاد يقرر وحدتها فى رجالها ، فهم من ذرية نوح وإبراهيم .

« ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب » . .

فهى شجرة واحدة باسقة ، متشابكة الفروع ،فيها النبوة والكتاب .ممتدة من فجر البشرية منذ نوح ، حتى إذا انتهت إلى إبراهيم ، تفرعت وامتدت وانبثقت النبوات من ذلك الفرع الكبير الذى صار أصلا باسقا ممتدا إلى آخر الرسالات .

فأما الذرية التى جاءتها النبوات والكتب فلم تكن على شاكلة واحدة : « فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون » . .

وهو تلخيص قصير لذلك الخط الطويل !

وقرب نهاية الخط يجىء عيسى ابن مريم :

« ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم » . .

أى على آثار السابقين من ذرية نوح وإبراهيم. فكانت الرسالة ممتدة واحدة على إثر واحدة حتى جاء عيسى ابن مريم .

ويذكر هنا صفة بارزة من صفات الذين اتبعوا عيسى ابن مريم : « وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة » . . وهى الثمرة الطبيعية لدعوة المسيح ـ عليه السلام ـ وروحها السمحة وتطهرها الروحى ، وشفافيتها الوضيئة والرأفة والرحمة ظاهرة واضحة فى المؤمنين حقيقة برسالة عيسى عليه السلام ، ممن أحسنوا اتباعه . وقد أشارت إليها آيات أخرى فى القرآن الكريم ، كما حفظ منها التاريخ صورا يرويها الرواة عن النجاشى وعن وفد نجران وعن أفراد ممن وفدوا على دار الإسلام بعد ظهوره راغبين فى الإسلام ، بحكم ما استقر فى قلوبهم من الحق ، مذ كانوا أتباع عيسى ابن مريم بحق .

كذلك يذكر النص هنا ظاهرة أخرى عرفت فى تاريخ أتباع المسيح عيسى ابن مريم : « ورهبانية ابتدعوها ـ ما كتبناها عليهم ـ إلا ابتغاء رضوان الله » .

والراجح فى تفسير الآية أن هذه الرهبانية التى عرفها تاريخ المسيحية كانت اختيارا من بعض أتباع عيسى عليه السلام ، ابتدعوها من عند أنفسهم ابتغاء رضوان الله ، وابتعادا عن أوضار الحياة ، ولم يكتبها الله عليهم ابتداء . ولكنهم حين اختاروها وأوجبوها على أنفسهم صاروا مرتبطين أمام الله بأن يرعوا حقوقها ، ويحافظوا على مقتضياتها من تطهر وترفع ،

Marfat.com

Marfat.com

وقناعة وعفة ، وذكر وعبادة . . مما يحقق فى أنفسهم حقيقة التجرد لله ، التى قصدوا إليها بهذه الرهبانية التى ابتدعوها .

ولكنها انتهت إلى أن تصبح فى الغالب طقوسا وشعائر خالية من الروح ، وأن يتخذها الكثيرون مظهرا عاريا من الحقيقة . فلا يصبر على تكاليفها إلا عدد منهم قليل :

« فما رعوها حق رعايتها . فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون » . .

والله لا يأخذ الناس بالمظاهر والأشكال ، ولا بالطقوس والمسوح . إنما يأخذهم بالعمل والنية ، ويحاسبهم على حقيقة الشعور والسلوك . وهو الذى يعلم خبايا القلوب وذوات الصدور .

* * *

وبعد هذا العرض السريع يجىء الهتاف الأخير للذين آمنوا ، وهم الحلقة الأخيرة فى سلسلة المؤمنين برسالة الله فى تاريخها الطويل ؛ وورثة هذه الرسالة الذين يقومون عليها إلى يوم الدين :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نورا تمشون به ، ويغفر لكم ، والله غفور رحيم . لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » . .

ونداؤهم على هذا النحو : « يا أيها الذين آمنوا » فيه لمسة خاصة لقلوبهم ، واستحياء لمعنى الإيمان ، وتذكير برعايته حق رعايته ؛ واستجاشة للصلة التى تربطهم بربهم الذى يناديهم هذا النداء الكريم الحبيب . وباسم هذه الصلة يدعوهم إلى تقوى الله والإيمان برسوله . فيبدو للإيمان المطلوب معنى خاص . . معنى حقيقة الإيمان وما ينبثق عنها من آثار .

اتقوا الله وآمنوا برسوله . . « يؤتكم كفلين من رحمته » . . أى يعطكم نصيبين من رحمته وهو تعبير عجيب . فرحمة الله لا تتجزأ ، ومجرد مسها لإنسان يمنحه حقيقتها . ولكن فى هذا التعبير زيادة امتداد للرحمة وزيادة فيض . .

« ويجعل لكم نورا تمشون به » . وهى هبة لدنية يودعها الله القلوب التى تستشعر تقواه ، وتؤمن حق الإيمان برسوله . هبة تنير تلك القلوب فتشرق ، وترى الحقيقة من وراء الحجب والحواجز ، ومن وراء الأشكال والمظاهر ؛ فلا تتخبط ، ولا تلتوى بها الطريق . .

« نورا تمشون به » . .

« ويغفر لكم . والله غفور رحيم » . . . فالإنسان إنسان مهما وهب من النور . إنسان يقصر حتى لو عرف الطريق . إنسان يحتاج إلى المغفرة فتدركه رحمة الله . . « والله غفور رحيم » . .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله » . . لتنالوا كفلين من رحمة الله . ويكون

لكم ذلك النور تمشون به . وتدرككم رحمة الله بالمغفرة من الذنب والتقصير .. « لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله . وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » .. فقد كان أهل الكتاب يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه : « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا » .. « وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى » .. فالله يدعو الذين آمنوا إلى استحقاق رحمته وجنته وهبته ومغفرته حتى يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على احتجاز شيء من فضله ، وأن الفضل بيده يؤتيه من يشاء ، غير مقصور على قوم ، ولا محجوز لطائفة ، ولا محدود ولا قليل : « والله ذو الفضل العظيم » ..

وهي دعوة فيها تحضيض واستجاشة واستثارة للسباق إلى الجنة والرحمة . تختم بها السورة ختاما يتناسق مع سياقها كله ، ومع الهتاف المكرر فيها لهذه القلوب كي تحقق إيمانها وتخشع لربها وتستجيب لتكاليف الإيمان في الأموال والأرواح . في تجرد وإخلاص .

* * *

وبعد فهذه السورة نموذج من النماذج القرآنية الواضحة في خطاب القلوب البشرية ، واستجاشتها بأسلوب عميق التأثير . وهي في بدئها وسياقها وختامها ؛ وفي إيقاعاتها وصورها وظلالها ؛ وفي طريقة تناولها للموضوع وسيرها فيه جولة بعد جولة ، وشوطا بعد شوط .. هي في هذا كله درس بديع لأصحاب هذه الدعوة ، يعلمهم كيف يخاطبون الناس ، وكيف يوقظون الفطرة ، وكيف يستحيون القلوب !

إنها درس رباني من صانع القلوب ، ومنزل القرآن ، وخالق كل شيء بقدر . وفي هذه المدرسة الإلهية يتخرج الدعاة المستجابون الموفقون ...

تم الجزء السابع والعشرون ويليه الجزء الثامن والعشرون مبدوءا بقوله تعالى « قد سمع الله »

Marfat.com

Marfat.com

فهرس المجلد السابع

في ظلال القرآن

السورة	مطالع الآيات	الصفحة	الجزء
سورة يس مكية وآياتها ٨٣		٥ – ٤٠	الثالث والعشرون
تفسير الآيات : ١ – ٢٩	يس والقرآن الحكيم	٥	
« « : ٣٠ – ٦٨	يا حسرةً على العبادِ	١٩	
« « : ٦٩ – ٨٣	وما علّمناه الشعر وما ينبغي	٣٣ – ٤٠	
سورة الصافات مكية وآياتها ١٨٢		٤١ – ٧٥	
تفسير الآيات : ١ – ٦٨	والصافّاتِ صفّاً. فالزاجرات	٤١	
« « : ٦٩ – ١٤٨	إنهمْ ألفَوْا اباءهُم ضالِّين	٥٥	
« « : ١٤٩ – ١٨٢	فاستفتِهِمْ أَلِربِّك البناتُ	٦٩ – ٧٥	
سورة ص مكية وآياتها ٨٨			
تفسير الآيات : ١ – ١٦	ص والقرآن ذي الذكر	٧٦	
« « : ١٧ – ٤٨	واصبرْ على مايقولون	٩١	
« « : ٤٩ – ٦٤	هذا ذكر وإن للمتقين لحسن	١٠٤	
« « : ٦٥ – ٨٨	قل انما أنا مُنذِروما من	١٠٦ – ١١٢	
سورة الزمر وآياتها ٧٥		١١٥ – ١٥٧	الرابع والعشرون
تفسير الآيات : ١ – ٧	تنزيل الكتاب من اللهِ العزيز....	١١٥	
« « : ٨ – ١٠	واذا مسَّ الإنسان ضُرٌّ دعا....	١٢٦	
« « : ١١ – ٢٠	قل اني أُمِرْتُ أنْ	١٣٠	
« « : ٢١ – ٢٩	ألمْ ترَ أنَّ اللهَ	١٣٣	
« « : ٣٠ – ٣٥	إنَّك ميت وإنّهُم	١٣٩	
« « : ٣٦ – ٥٢	أليسَ الله بكافٍ عبْدَهُ	١٤٠	
« « : ٥٣ – ٦١	قل يا عبادي الّذين	١٤٩	
« « : ٦٢ – ٧٥	الله خالق كلِّ شيء	١٥٢ – ١٥٧	

السورة	مطالع الآيات	الصفحة	الجزء
سورة غافر مكية وآياتها ٨٥		١٥٨ – ٢١٣	
تفسير الآيات : ١ – ٢٠	حٰمٓ. تنزيلُ الكتابِ	١٥٨	
« « : ٢١ – ٥٥	اوَلَمْ يسيروا في الأرض	١٧٣	
« « : ٥٦ – ٧٧	إنّ الذين يجادلون في آيات	١٩٢	
« « : ٧٨ – ٨٥	ولقد ارسلنا رُسلاً من	٢٠٧ – ٢١٣	
سورة فصلت مكية وآياتها ٥٤		٢١٤ – ٢٥٣	
تفسير الآيات : ١ – ٣٦	حٰمٓ. تنزيلٌ من الرّحمن الرَّحيم...	٢١٤	
« « : ٣٧ – ٥٤	وَمِنْ آيا ته الليل والنهار	٢٤٢ – ٢٥٣	
سورة الشورى مكية وآياتها ٥٣		٢٥٧ –	الخامس والعشرون
تفسير الآيات : ١ – ٢٤	حٰمٓ. تمشق. كذلك	٢٥٧	
« « : ٢٥ – ٥٣	وهو الّذي يقْبَلُ التوْبَةَ	٢٨٤ – ٣٠٩	
سورة الزخرف مكية وآياتها ٨٩		٣١٠ – ٣٥٤	الخامس والعشرون
تفسير الآيات : ١ – ٢٥	حٰم والكتاب المبين..........	٣١٠ – ٣٢٣	
« « : ٢٦ – ٥٦	وإذ قال ابراهيمُ لأَبيهِ وقومِهِ...	٣٢٤	
« « : ٥٧ – ٨٩	ولمّا ضُربَ ابْنُ مريم مثلاً.......	٣٤١ – ٣٥٤	
سورة الدخان مكية وآياتها ٥٩			
	حٰم. والكتاب المبين..........	٣٥٥ – ٣٧٣	
سورة الجاثية مكية وآياتها ٣٧			
تفسير الآيات : ١ – ٢٣	تنزيل الكتاب من الله العزيز	٣٧٤	
« « : ٢٤ – ٣٧	وقالوا ماهي الاّ حياتنا الدنيا...	٣٩١ – ٣٩٥	
سورة الاحقاف مكية وآياتها ٣٥		٣٩٩ –	السادس والعشرون
تفسير الآيات : ١ – ١٤	حٰم. تنزيل الكتاب من الله العزيزالحكيم	٣٩٩	
« « : ١٥ – ٢٠	ووصّينا الانسان بوالديه.......	٤١٢	
« « : ٢٩ – ٣٥	وإذ صدفنا إليك نفرًا من الجن.	٤٢٤ – ٤٣٥	
سورة محمد مدنية وآياتها ٣٨		٤٣٦ – ٤٧٤	
تفسير الآيات : ١ – ١٥	الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله	٤٣٦	
« « : ١٦ – ٣١	ومنهم من يستمع اليك حتى إذا..	٤٥٨	
« « : ٣٢ – ٣٨	إن الذين كفروا وصدوا.......	٤٦٧ – ٤٧٤	

Marfat.com

السورة	مطالع السور والآيات	الصفحة	الجزء
سورة الفتح مدنية وآياتها ٢٩		٤٧٥ – ٥١٦	
تفسير الآيات : ١ – ١٧	إنا فتحنا لك فتحا مبينًا........	٤٧٥	
: ١٨ – ٢٩	لقد رضي الله عن المؤمنين......	٥٠٢ – ٥١٦	
سورة الحجرات مدنية وآياتها ١٨			
	يا ايها الذين آمنو لا تقدّموا.....	٥١٧ – ٥٤٥	
سورة ق مكية وآياتها ٤٥			
	ق والقرآن المجيد.............	٥٤٦ – ٥٦٤	
سورة الذاريات مكية وآياتها ٦٠			
	والذاريات ذروًا...............	٥٦٧ – ٥٩٢	السابع والعشرون
سورة الطور مكية وآياتها ٤٩			
	والطُّور. وكتابٍ مسطورٍ.......	٥٩٣ – ٦١٠	
سورة النجم مكية وآياتها ٦٢			
	والنجم إذا هوى ماضلّ.......	٦١١ – ٦٣٩	
سورة القمر مكية وآياتها ٥٥			
	اقتربت الساعة وانشق القمر...	٦٤٠ – ٦٦٧	
سورة الرحمن مكية وآياتها ٧٨			
	الرَّحمانُ علم القرآنَ..........	٦٦٨ – ٦٨٩	
سورة الواقعة مكية وآياتها ٩٦			
	إذا وقعت الوقعة الواقعة ليس	٦٩٠ – ٧٠٩	السابع والعشرون
سورة الحديد مدنية وآياتها ٢٩			
تفسير الآيات : ١ – ١٥	سبح لله مافي السموات والأرض	٧١٠ – ٧٢٨	
: ١٦ – ٢٩	ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع...	٧٢٩ – ٧٤٢	

Marfat.com

Marfat.com